سلسلة الرسائل الجامعية (٦٤)

سنن الله في الأمم

من خلال آيات القرآن الكريم

تأليف
د. حسن بن صالح الحميد
أستاذ مساعد قسم القرآن وعلومه في جامعة القصيم

رسالة دكتوراه بإشراف
فضيلة الشيخ الدكتور ناصر بن سليمان العمر

دار الفضيلة
السعودية

دار الهدي النبوي
مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب رسالة دكتوراه تقدم بها الباحث لكلية التربية بجامعة الملك سعود وحصل على درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٤١٤ بإشراف الدكتور ناصر العمر .

سنن الله في الأمم

من خلال آيات القرآن الكريم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١١ م

الناشر
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
الرياض ١١٥٤٣ ـ ص. ب ٥١١٤٢
تليفاكس ٢٣٣٣٠٦٣

توزيع
دار الهدي النبوي للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية ـ المنصورة
تليفون: ٢٣٢٣١٧٥ / ٠٥٠ ـ جوال: ٧١٤٥٦٨١ / ٠١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إنَّ الْحَمْدَ لله، نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونَعُوذُ بِاللَّه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأَشْهَدُ أَنْ لا إله إلاَّ اللَّه، وحده لا شريك له، وأَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُه ورَسُولُه، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أمَّا بعد:

فإنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أنزل كتابه تبياناً لكل شيء، وأرسل رسوله محمداً ﷺ؛ ليبيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم ولعلَّهم يتذكرون.

فلم يبقَ في دين الله وشرعه بعد بيان الله ورسوله قصور أو خلل فيحتاج إلى إكمال وإصلاح، وإنَّما يحتاج الخلق إلى فَهْمِ كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ على أحسن الوجوه، وما جاءت الظنون الفاسدة والآراء والجهالات في دين الله؛ إلاَّ بسبب الجهل أو سوء القصد أو التقصير في البحث عن الحق، أو القصور في الأفهام.

وقد تضمَّنَ كتاب الله ـ تعالى ـ وسُنَّة رسوله ﷺ بيان كل ما يحتاج إليه الإنسان، فرداً أو جماعةً وأمَّة، في شؤونِ دينه ودنياه وأمر معاشه ومعاده.

ودلَّ ـ سبحانه ـ عباده إليه بأنواع الأدلَّة العقلية والنقليَّة، وتعرَّف إليهم بآلائه ونِعَمِهِ الظاهرة والباطنة.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

فالأرض أرضه، والسماء سماؤه، والمُلْكُ ملكه، والخلق خلقه، والأمر أمره، هو الواحد القهار، وما سواه عبيد مقهورون بعزته، خاضعون لسلطانه وقدرته.

وأمرهم بعبادته وطاعته، وحذرهم من معصيته ومخالفة أمره. ولم يَكِلْ ذلك إلى اجتهادهم، بل بيَّنَ لهم شرائع دينه أكمل بيان وأتمّه.

ولهذا جاء في القرآن الكريم من آيات الله الكونية والشرعية، ما يكفي ويشفي.

ومن أعظم ما تعرَّف به ـ سبحانه ـ إلى عباده، ما جرَت به حكمته من تسيير أمور هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه، على نظام غاية في الإحْكَام والانتظام، والثبات والاطراد، على أساس من العدل التّام والعلم المحيط والقدرة النافذة.

وخصَّ جنس الإنسان بنظام يلائم طبيعته ووظيفته، وبيَّنَهُ في كتابه أعظم بيان، وفصَّلَهُ أحسن تفصيل، وأمَرَهُ بالسَّيْرِ في الأرض والنظر والاعتبار في أحوال السابقين، حتى يعلم علم اليقين أن الأمر جِد لا هزل فيه، وحكمة لا عبث ولا فوضى. فالثواب غير العقاب، والمطيعون غير العُصَاة، والحقّ غير الباطل، ولكلٍّ أسباب موجبة، ومعالم مميزة. ولكلٍّ جزاء وحساب، كل ذلك بثباتٍ لا يتغيَّرَ، واطراد لا يتخلَّف.

والأمّة ـ أية أمّة ـ لا تستقيم حالها، إلاَّ إذا فهمت هذا النظام الإلـهي وهذه السُّنن، وانسجمت حياتها وتكيَّفَت مع هذا النظام وهذه السُّنن. ومتى أعرضت عنها وخالفتها، جهلاً أو تهاوناً أو عِناداً واستكباراً، فإنّها ـ حتماً ـ ستواجه مصير أمثالها، وتُلاقِي جزاءها في الدنيا، دون تخلُّفٍ أو محاباة.

فهل كانت هذه المعاني الضخمة في أهميتها، الظاهرة لشدَّة عناية القرآن بها. هل كانت هذه المعاني محلّ عناية المسلمين ـ عبر القرون ـ بصورة كافية؟

أمَّا في صدر الإسلام وقرونه المفضلة، فلا شك في وضوحها ميدانيا على الأرض، ولهذا لم يكن الدّاعِي إلى درسها والتَّعمُّق في بحثها قائماً ولا مُلِحاً.

وأمَّا بعد ذلك، فإن الأمرَ يحتاج إلى تأمل وبحث، وربما كان السبب في عدم العناية بها مع قيام الدّاعي إليها؛ ربَّما كان السبب في ذلك، أن الإسلام كان ما يزال يمد رواقه

على العالم، وله من الْهَيْبَةِ والسُّلطان ما يجعل التعمُّق في دراسة تفاصيل الأحكام العملية مقدماً في نظر عامة العلماء على التوفر لدراسة موضوع نظري مثل موضوع السُّنن . فإنَّ قوَّة الدولة واتساع الْمُلْك، يُعشي العيون - عادة - عن بحث أسباب الضَّعف وعوامل الانحلال .

وسواء كانت تلك هي الأسباب أو غيرها، فإنَّ دراسة سُنن الله في الأمم؛ منفردة أو حتى في سياقاتها ومواضعها، لم تَلْقَ من العناية والدرس ما يتناسب وأهميتها في حياة الأمّة، وإن كان هناك بدايات مشجعة في العقود المتأخرة من القرن العشرين(١) .

ولهذا، لم تزلْ الأمَّة في تخلُّفٍ، حتى وصلت في قرونها الأخيرة إلى حدّ الانتكاس والغثائية، وحتى وقرَ في خَلَد أكثر المسلمين اليوم أن الإسلام لا يملك مقومات النهوض، ولا يستطيع بناء دولة معاصرة، ويفتقر إلى تصور لتفسير التاريخ وأسباب الرُّقيّ وعوامل الانحطاط . ومنهم من يزيد، فيزعم أنَّ الإسلام ذاته كان سبب تخلّفنا وضعفنا! وحتى ظنَّ كثير من المثقفين - فضلاً عن عامة النَّاس - أنَّ علم الاجتماع وتفسير حركة التاريخ من مبتكرات الغربيين والملاحدة، فهم أسسوه، وهم طوَّروه(٢) .

ومنهم من يعد دراسة ابن خلدون في مقدمة تاريخه، بداية علم الاجتماع، ولم يفطن لأصل ذلك في كتاب الله تعالى .

إلى غير ذلك من المغالطات والأوهام التي تشكل منها(الوهن الحضاري) (٣) .

ولقد كان في مقدمة تلك الأسباب - والله أعلم: التَّخلف في دراسة جانب السنن على ضوء كتاب الله تعالى، والتقصير في بيان ما في القرآن والسُّنة من ذلك .

وهذا كله أورث تخبطاً في تصوّر وفهم مشكلات الأمة الإسلامية اليوم، وفي معرفة أسبابها، وبالتالي في وصف الحلول المناسبة لها، وكيفية تحقيقها .

وبعد: فإنَّ من أهم الأسباب التي كانت وراء اختياري لهذا الموضوع، الأسباب التالية:

أولاً: أن القرآن الكريم قد اشتمل على منهج شامل وتصوير كامل لموضوع السُّنن التي تحكم حياة الأمم وتسير شؤونها، في الجانبين النظري والتطبيقي .

---

(١) سيأتي لهذه النقطة مزيد تفصيل في المبحث الرابع من مباحث التمهيد، إن شاء الله تعالى .
(٢) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، للأستاذ/ محمد قطب، ص ٦ وما بعدها .
(٣) انظر: دراسة في البناء الحضاري، د. محمود محمد سفر (مقدمة الأستاذ/ عمر عبيد حسنة)، ص ٨ .

ثانياً: ومع ذلك، نجد ندرة الدراسات السليمة في منطلقاتها، المستوعبة في طرحها لهذا الجانب الحيوي، ذي الأهمية البالغة في حياة الأمة المسلمة خاصة، وفي حياة البشرية عامة.

ثالثاً: ومن الأسباب الهامة ـ في نظري ـ أن الحاجة ما تزال قائمة، بل ماسّة ـ في ظل الأوضاع المتردية للأمة الإسلامية، وفي ظل تباشير العودة إلى الله وإلى دينه من جماهير الأمة ـ أن يكون في متناول يدها دراسات مؤصَّلة تساعدها في وضع قدمها على الطريق الصحيح؛ لبداية أكثر نضجاً ورشاداً، وأقل سلبية وأخطاء.

إنَّ استيعاب سنن الله في الأمم، واستحضارها في بداية الطريق، يمكن أن يسهم في تقليل الأخطاء في مستقبل المجتمع الفَاقِهِ لهذه السُّنن.

ذلك أن وعي هذه السُّنن في ذاكرة الأمَّة يعني الاستفادة من تجارب البشرية، في مجالات النجاح، واستخلاصها في دورات الإخفاق، فما إن تظهر مقدمات أمر ما، حتى يعلم من واقع رصيد التجربة أن عواقبه ـ إن استمرَّ ـ كذا وكذا، بموجب قانون وسُنَّة لا تتخلف. وقديماً قيل: «العاقل من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه».

رابعاً: آمل أن تكون هذه الدراسة، إسهاماً في طرح فهم شرعي لعلاج كثير من الأخطاء والأوهام التصورية والعملية التي تعاني منها الأمَّة الإسلامية في ظل الهزيمة النفسية والنكسات المتلاحقة، والقضاء ما أمكن على هاجس اليأس من إمكانية صلاح أحوال الأمَّة من جهة، أو التفاؤل الذي لا رصيد له من جهة أخرى.

فمن ذلك:

إماطة اللثام عن مبلغ الجفوة والإعراض والصدود الذي يلقاه كتاب الله تعالى مِنَّا نحن المسلمين، وأنَّنا لم نعد مرتبطين بهذا الكتاب، ولا معولين عليه في حل مشاكلنا؛ جهلاً مِنا بطبيعة مشاكلنا، وجهلاً منا بما يشتمل عليه هذا القرآن من حلول ناجعة لها.

ومن الأوهام الكبيرة المسيطرة: ما يظنه كثير من المسلمين اليوم، أنَّ ما نحن فيه من شقوة وذُلّ وتبعية، أنَّ ذلك ليس بسبب منا، أو أن أسبابه غامضة، أو أنه يمكن الخروج مما نحن فيه بالنوايا الحسنة أو ردود الفعل المؤقتة. ولم يعلموا أنَّها سنن انعقدت أسبابها فوقعت، وهيهات أن تُرْفَعَ إلاَّ بأسبابها.

ومن هذه الأوهام: ما يظنه كثير من المسلمين اليوم، من أن تَغَلّب الأمم الكافرة وتمكّنها من أسباب القوة المادية؛ أن ذلك بسبب نبذها للدِّين، وأن المسلمين لن يكونوا شيئاً مذكوراً إلاَّ إذا تشبَّهُوا بهم ووافقوهم فيما هم فيه، ونبذوا كتاب الله وراءهم ظِهْرياً!

ونسوا أن الكفرَ لم يكن يوماً من الدهر سبباً من أسباب النصر والتمكين والرقي المدني، أفيكون اليوم؟ كما نسوا أنّهم كانوا سادة بالدين قروناً متطاولة، كما كان من قبلهم. أفيغيّر الله سنته من أجل هؤلاء؟!

إلى آخر ما هنالك من أخطاء في التصورات والمفاهيم، والتي ينتج عنها أخطاء مضاعفة في الميدان التطبيقي، خاصة في مجال الدعوة والإصلاح، فمن يائس قاعد، ومن متعجل متهور. وكلا ذين بمعزل عن الصواب.

وأعظم دواء لمثل هذه الأوهام، وعلاج لمثل هذه الأخطاء: ربط الأسباب بمسبباتها، والتدرب على اتهام النفوس، وعدم تبرير الأخطاء، واطِّراح العواطف، وإتيان البيوت من أبوابها.

خامساً: كما أن بحث وتتبع سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم ودراستها دراسة موضوعية، إسهامٌ في تجلية آية من آيات إعجاز هذا القرآن وعظمته. وهو ـ وإن لم يكن بحاجة إلى ذلك؛ لأنَّ دلائل عظمته وبراهين صدقه أكثر من أن تُحْصَى ـ فإنّنا نحن الذين بحاجة إلى أن نعيد إلى أنفسنا الثقة بعظمته وصلاحية توجيهاته لكل زمن وأمّة. ومتى تمَّ لنا ذلك، فإنّه سيصبح لآياته وتعاليمه مذاق خاص، وسنكتشف من أسراره ما لم يكن يخطر لنا على بالٍ.

سادساً: ولا ريب في أن من تعرَّف إلى سنن الله في الكون عموماً، وفي حياة الأمم خصوصاً، فإنّه سيظهر له من جدية الحياة وانضباطها، وخلوها من المصادفة والعبث، وما لله في هذه الخليقة من الْحِكَمِ الباهرة؛ ما يزيد في إيمانه بالله، وبما له من نعوت الجلال والكمال، كما أنّه سيزداد يقيناً بالبعث الآخر وما سيكون فيه من الحساب والثواب والعقاب، ولو لم يكن إلاَّ هذه وحدها، لكفى بها مزعجاً إلى الانقطاع لمثل هذه الدراسة الشريفة، وقطع سحابة العمر في تحصيلها.

أمّا خطة البحث في هذه الدراسة: فقد جعلتها في تمهيد وأربعة أبواب وخاتمة.

تضمن التمهيد أربعة مباحث، هي أشبه بمقدمات ضرورية، كالآتي:

المبحث الأول: التعريف بعنوان الدراسة وشرح مدلوله مفرداً ومركباً.

المبحث الثاني: أهم الفروق بين سنن الله في الكون المادي وسننه في الحياة الإنسانية.

المبحث الثالث: أهم الفروق بين سنن الله في الأمم وسننه في الأفراد.

المبحث الرابع: تبيان أهمية مثل هذه الدراسة، والجهود التي بذلت في هذا السبيل في القديم والحديث.

الباب الأول: خصائص سنن الله في الأمم ومنهج القرآن الكريم في عرضها. ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: خصائص سنن الله في الأمم، كالثبات، والإطراد، والعموم، والشمول.

الفصل الثاني: منهج القرآن في عرض السنن. ويحتوي على مبحثين:

المبحث الأول: منهج القرآن في عرض السنن في باب الأسلوب والصياغة.

المبحث الثاني: تفرّد القرآن بطريقة خاصة في عرض السنن، وما يحشد لها من المؤثرات الحسيَّة والمعنوية.

الباب الثاني: مجالات سنن الله في الأمم. ويحتوي على تمهيد وخمسة فصول:

أبيِّنُ في التمهيد شمول السُّنن لكل مجالات الحياة، وأنَّ الله قد أقام الحجَّة على خلقه قبل أن يجعل هذه السنن تعمل فيهم.

الفصل الأول: مجال الحماية والوقاية. وفيه أتناول بالتفصيل بعض السُّنن، مثل: سُنَّة المدافعة عموماً، والمدافعة بين الحق والباطل بوجه خاص، وسُنَّة الله في النصر والهزيمة، وسُنَّة الله تعالى في التمكين والاستخلاف في الأرض، وعوامل البقاء.

الفصل الثاني: مجال الابتلاء والتمحيص. وأذكر فيه صور الابتلاء التي تقع عادة على الأمم. وأفصِّلُ القول في بعض السُّنن المتعلقة بهذا المجال، مثل: ابتلاء الأمم بالسرَّاء والضرَّاء، وموقفها من ذلك، وابتلاء المؤمنين بسبب إيمانهم، وسُنة الله في إمهال الأمم والإملاء لهم.

الفصل الثالث: مجال التحذير والتهديد . وأشرح فيه ما هو متقرر من أن من سُنة الله في الأمم ، أنّه ينوّع لهم في أساليب التحذير ، ويعظهم بالأمم قبلهم ، ومن حولهم ، ويلوّح لهم بالعقوبات العاجلة إن هم خالفوا أمره ، ولجُّوا في طغيانهم .

الفصل الرابع: مجال الجزاء . أتحدَّثُ فيه عن ضروب الجزاء ، وأنه يجمعها ضربان:

الضرب الأول: جزاء المطيعين المؤمنين ، وهو إثابتهم بأنواع الثواب .

والضرب الثاني: جزاء المخالفين والكافرين ، وذلك بإنزال أنواع العقوبات بهم .

وأنَّ هذا العقاب على نوعين: عقاب بما دون الاستئصال ، وعقاب بالاستئصال والإهلاك .

وبمناسبة الحديث عن الجزاء الإلـهي ، فإنّي سأفصِّلُ القول في: وجه الجمع بين السُّنن(القانون الإلـهي) وحرية الإنسان في ظل المشيئة الإلـهية .

الفصل الخامس: مجال الكشف والإبانة . وهو فصل طريف أتحدث فيه عن منهج القرآن في الكشف عن طبائع النفوس ، والإبانة عن المواقف والتصرفات ، وأنها منسجمة وتلك الطبائع .

الباب الثالث: آثار رعاية السنن وعواقب الإعراض عنها . وفيه فصلان:

الفصل الأول: آثار رعاية السنن . وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الآثار الحسنة والعواقب الحميدة التي تحققت للأمة الإسلامية في القرون الأولى .

المبحث الثاني: الجوانب الحسنة عند الأمم الجاهلية المعاصرة .

الفصل الثاني: عواقب الإعراض عن السُّنن . وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الواقع المؤسف للأمة الإسلامية في العصر الحاضر .

المبحث الثاني: الجوانب المظلمة من الحياة الجاهلية المعاصرة(في الجوانب الإنسانية) .

الباب الرابع: طريق الخلاص . وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: فقه السنن الإلهية ، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: فقه الأزمة .

المطلب الثاني: فقه الخروج من الأزمة.

الفصل الثاني: التفاعل مع السنن وتطبيقاتها.

الفصل الثالث: ضمان الاستمرار [المحافظة على مكاسب].

خاتمة الدراسة وملخص النتائج.

وقد اكتفيت في هذا الكتاب بعمل فهرس للمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها عند عمل الكتاب. وكذا فهرس لموضوعات ومباحث الدراسة

وبعد: فإنَّ أهم ما يتميَّز به بحث «سنن الله في الأمم»، السعة، والعمق. وفيه من التداخل في الدلالات ما يحتاج معه إلى أناةٍ وطول تأمُّلٍ.

ولكي أتمكَّن من الموازنة بين السعة والعمق اللَّذَيْنِ يتسم بهما هذا الموضوع، أذكِّر القارئ الكريم بالأمور المنهجية التالية:

أولاً: سوف ألتزم بدلالات النصوص القرآنية على السنن، فلا أتكلَّم عن سنن لم يَرِدْ لها ذِكْرٌ أو إشارة بيِّنة فيها.

ثانياً: وسأعنى بإبراز أمهات السنن، وهي التي عني القرآن بإبرازها أكثر من غيرها، ولا أزعم أنِّي سآتي على ذكر كل السنن التي جاء لها ذكرٌ أو إشارةٌ في القرآن، فإنَّ هذا ما لا يحيط به بحث محدود.

ولم أفرد للسنن باباً أو فصلاً أسردها فيه، وإنَّما أعرضُ للسُّنة حيث يكون السياق مناسباً لذلك.

ثالثاً: السبيل فيما توافرت الآيات الدَّالة عليه مما يتعلَّق بسنَّةٍ واحدةٍ أن أنظر في الأدلَّة، فما كان منها بمعنى واحد ذكرتُ بعضها، وقد أُحيل على ما لم أذكره منها، وما كان منها يضيف معنًى جديداً ذكرته بحسب الحاجة واقتضاء المقام، ولا ألتزم بذكر كل النصوص الواردة في كل مسألة أتعرَّض لها[1].

رابعاً: تعدد مظاهر الجزاء على السُّنة الواحدة لا يعني تعدد السُّنة نفسها، بل إنَّ تنوع مظاهر السُّنة الواحدة لا يعني تعددها[2].

(١) ومن أمثلة ذلك: مصارع المكذبين، وأخبار الأنبياء مع أممهم، فإنَّ حصر الآيات في ذلك تطويل لا محوج إليه.

(٢) فالتكذيب ـ مثلاً ـ سُنَّة في أقوام الأنبياء، وأخذ المكذبين سُنَّة أخرى، لكن لا يعني اختلاف صور التكذيب في الأولى، واختلاف صور الأخذ في الثانية أنَّها سُنَنٌ متعددة.

خامساً: قد يتكرر الاستشهاد ببعض الآيات في مواضع متعددة ؛ وذلك لتعدد دلالة الآية ، وكونها صالحة للاستشهاد في الموضعين أو المواضع ، وهذا كثير .

سادساً: حرصتُ على الاستنباط والتعامل مع دلالة النصوص ، واعتمدت تفسير بعضها لبعض ، ولم أستكثر من نقل كلام المفسِّرين إلا حيث تدعو الحاجة إلى ذلك ، ولم أذهب ـ فيما أعلم ـ مذهباً اعتمدت فيه على قول مفسِّر ، لا يسعفه سياق الآية .

سابعاً: التزمتُ في الأحاديث التي استشهدتُ بها في الدراسة ألاَّ أذكر ـ ابتداءً ـ إلاَّ ما كان صالحاً للاحتجاج به .

وما كان منها في الصحيحين أو أحدهما ، فإنَّني أكتفي ـ غالباً ـ بعزوه إليهما ؛ لأنَّ الأمة تلقَّت أحاديثهما بالقَبُول .

وأمَّا الأحاديث التي في غير الصحيحين ، فإنَّني أعزوها إلى مصادرها ، ولا ألتزم الحصر ، وأنقل كلام أهل الاختصاص من المتقدمين أو المتأخرين في الحكم عليها .

أمَّا ما سوى الأحاديث من الأخبار وحوادث السيرة ، فقد أذكر منها ما فيه ضعف ؛ لصحة معناه ، ولأنَّه لا يُبنَى عليه حكم ، مع أنَّني أنبه إلى ضعفه ، بنقل كلام أهل الشأن في ذلك .

أمَّا حوادث صدر الإسلام وغيرها من حوادث التاريخ ، فإنَّني أكتفي بعزوها إلى المصادر التي نُقِلَتْ منها .

ثامناً: ترجمتُ للأعلام الوارد ذكرهم في الكتاب ، ممن وقفتُ له على ترجمةٍ ، إلا المشاهير ؛ كالخلفاء الراشدين ومشاهير الصحابة ، وكالأئمة الأربعة ، وشيخ الإسلام ابن تيمية . . . وأمثالهم ، فإنَّ استفاضة أخبارهم ، تغني عن الترجمة لهم .

تاسعاً: اقتصرتُ على ما تدعو الحاجة إليه من الفهارس .

فاكتفيت بفهرس للمصادر والمراجع ، التي اعتمدتُ عليها في هذه الدراسة .

وفهرس بموضوعات ومباحث الكتاب . ولم أرَ حاجةً تدعو لفهرسة الأبيات الشعرية ، والأماكن ، ونحوها ؛ خشية الإطالة في الكتاب .

هذه بعض تنبيهات وأمور منهجية ، أحببتُ أنْ يكون قارئ هذا الكتاب على بيِّنةٍ منها . وما لم أذكر ذهولاً أو قصوراً كثير ، والخلل من طبيعة عمل البشر ، ولكن:

إن تجد عيباً فسد الخــللا   جل من لا عيب فيه وعلا

ويطيب لي ـ وقد أوشكتُ على ختام هذه المقدمة ـ أن أشكر ـ بعد شكر الله وحمده ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ممثلة بكلية أصول الدين بالرياض، وعلى رأسها عميد الكلية ووكيلاه، وأشكر قسم القرآن وعلومه رئيساً ووكيلاً وأعضاءً، على إتاحة هذه الفرصة العلمية لمواصلة البحث والدراسة في مرحلة الدكتوراه، وعلى تعاونهم الكبير في تذليل صعوبات كان يمكن أن تقف حجر عثرة في وجهي، فلهم جميعاً مني خالص الشكر وجميل العرفان، وأسأل الله لهم التوفيق والتسديد.

وأختص شيخي الأستاذ الدكتور/ **ناصر بن سليمان العمر**، بخالص الشكر وبالغ التقدير، على تفضله بالموافقة على الإشراف على هذه الدراسة، ولقد كان في تلطفه في توجيهي، وأدبه الجم في تنبيهي إلى مواطن القصور وتصويب الأخطاء، ومنهجيته وإنصافه في مواطن الاختلاف، ومواضع الاجتهاد. لقد كان في ذلك كله مثالاً يُحْتَذَى، وأعترف أنَّه كان لذلك كله أعظم الأثر في نفسي، وعلى سيري في هذه الدراسة. جعل الله ذلك كله في ميزان حسناته، وأمد في عمره على زيادة في العلم النافع والعمل الصالح.

كما أشكر وأدعو لكل من قدَّم لي خدمة وأسدى إليَّ معروفاً، قل أو كثر، وهم كثيرون، أدعو لهم بظهر الغيب، فجزاهم الله عني خيراً، وبارك لهم في أعمارهم وأعمالهم.

وختاماً، أحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعونه وتوفيقه تقضى الحاجات. وأصلي وأسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

حسن بن صالح الحميد

التمهيد

ويشتمل على أربعة مباحث ؛ هي:

المبحث الأول: التعريف بالعنوان وشرح مدلوله .

المبحث الثاني: الفرق بين سنن الله في الأمم وسننه في الكون المادي .

المبحث الثالث: الفرق بين سنن الله في الأفراد وسننه في الأمم .

المبحث الرابع: أهمية معرفة السنن ودراستها .

وهذه المباحث مقدمات توضيحية لابد منها ؛ كي يسهل فهم القضايا التي يتمّ طرحها في أبواب وفصول هذا الكتاب ، ويسلس التعامل مع بعض المصطلحات ، بما يغني عن إعادتها في كل مناسبة ، اللَّهُمَّ إلاَّ مجرد التذكير بها .

وأمرٌ مهمٌّ أردت بهذه المقدمات أن تسهم في إيضاحه ، وهو: محاولة تقريب القضايا والمسائل التي تدخل في موضوع هذه الدراسة ، والتمييز بينها وبين غيرها .

وأرجو أن تكون هذه المباحث ـ على وَجَازتها ـ موفية بجل المقصود ، آتية على جملة الغرض .

* * *

المبحث الأول

التعريف بالعنوان وشرح مدلوله

إنَّ عنوان هذه الدراسة: «سنن الله في الأمم من خلال القرآن الكريم»، دراسة موضوعية. وهذا العنوان مركَّب إضافي، جزءاهُ كلمتا: «سنن»، و«الأمم». وميدانه: كتاب الله تبارك وتعالى «القرآن».

وسأقفُ بك على تعريف موجز بجزئي العنوان، كلا على حدة، ثم أشرحُ مدلوله بعد التركيب.

*** التعريف بجزئي العنوان:**

أولاً: سنن[١]:

السنن: جمع سُنَّة ـ بضم السين ـ والأصل فيها: الطريقة والسيرة، محمودة كانت أو غير ذلك. وتُطلَقُ السُّنة في اللُّغة ويُرادُ بها عدة معانٍ:

فتُطْلَقُ مراداً بها مطلقُ الطريق والطريقة، وهذا أشهر معانيها.

وعلى خصوص الطريقة والسيرة المحمودة أو المذمومة على التعيين. جاء في صحيح مسلم: «من سَنَّ في الإسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً... ومن سَنَّ في الإسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً...»[٢] الحديث. يريدُ: من عملها، فكان فيها إماماً يُقْتَدَى به.

وقَالَ لَبِيد[٣]:

مِـــنْ مَعْشَـــر سَنَّت لهم آباؤهم ... ولكلِّ قـــومٍ سُنَّة وإمامهـــــا

---

(١) حُذِفَت (أل) من (السُّنن) في العنوان، للإضافة، وأصل المعنى هكذا: السنن التي جعلها الله لضبط شئون الأمم وانتظام حياتهم وأحوالهم. أو نحواً من ذلك.

(٢) جزء من حديث جرير بن عبد الله البجلي في خبر القوم الذين جاءوا رسول الله ﷺ من مضر. انظر: صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة، وأنها حجاب من النار، ح رقم (١٠١٧).

(٣) هو ابن ربيعة، أبو عقيل، العامري، أحد الشعراء المشهورين. أدرك الإسلام، ويُعَدُّ من الصحابة. توفي سنة (٤١هـ). والبيت من معلقته المشهورة، ومطلعها:

عفت الديار محلها فمقامهـــا ... بمـنى تأبد غولـــها فرجامهـــا

انظر: شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ١١٥، والأعلام، للزركلي (٥/ ٢٤٠).

وقال سليمان ابن قتة[١]:

وإنَّ الأُلَى بالطف من آل هاشم تآسوا فسنّـوا للكرامِ التآسيـا

فكل من ابتدأ أمراً تبعه فيه غيره، فقد سَنَّ سُنَّة.

قال نصيب[٢]:

كأنّـي سَننتُ الحُب أول عاشـقٍ من الناس إذ أحببتُ من بينهم وحدي

وسَنن الطريق: نهجه.

وتُطْلَقُ على السيرة، حسنةً كانت أو قبيحة.

قال خالد بن زيد الهذلي يخاطب أبا ذؤيب الهذلي[٣]:

فلا تجزعنّ من سُنّة أنت سرتـها فأوّل راض سُنّـة من يسيرهـا

وقد تُطْلَقُ مراداً بها الأمة، والسنن: الأمم.

قال القرطبي[٤] عن المفضل، وأنشد[٥]:

ما عاين الناس من فضلٍ كفضلهم ولا رأوا مثلهم في سالفِ السُّنن

---

(١) العدوي، البصري، المقرئ، من فحول الشعراء، عرض ختمة على ابن عباس، وسمع من معاوية وعمرو بن العاص، وقرأ عليه عاصم الجحدري. وثّقه ابن معين. وقتة: هي أمّه. والطف: موضع قرب الكوفة، سمي طفاً، لأنه طرف البر مما يلي الفرات، وهو إشارة إلى موضع معروف بكربلاء، هو الذي قتل فيه الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩٦)، وتفسير ابن جرير (٤/ ١٠٠) بالحاشية.

(٢) هو: نصيب بن رباح، أبو محجن، مولى عبد العزيز بن مروان، شاعر فحل، كان يعد مع جرير وكثير عزة، وكان عبداً أسود توفي سنة (١٠٨هـ) أو بعدها. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٦)، والأعلام للزركلي (٨/ ٣١)، والبيت أنشده صاحب اللسان، انظر: اللسان، مادة (سنن).

(٣) انظر: اللسان، مادة (سنن)، وتفسير التحرير والتنوير (٤/ ٩٦)، وخالد بن زيد: أحد شعراء هذيل. والبيت المذكور من قصيدة له يهجو بها أبا ذؤيب في مناقضة بينهما، وبعد هذا البيت قوله:

فإن التي فينا زعمت ومثلها لفيك ولكني أراك تجورها

وأبو ذؤيب: هو خويلد بن خالد الهذلي، شاعر فحل مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، ومات بمصر أو بإفريقية، مرجعه من الغزو في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأشهر شعره عينيته التي رثى بها بنيه الخمسة، وقد ماتوا بالطاعون أو بالسم في عام واحد، ومطلعها:

أمن المنـون وريبه تتوجـع والدهر ليس بمعتب من يجـزع

انظر: الأعلام (٢/ ٣٢٥)، وشعر الهذليين، ص ١٦٨، ١٦٩.

(٤) هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الأنصاري، القرطبي، المفسّر، كان عالماً عارفاً وعابداً زاهداً، شديد المحافظة على أوقاته، طارحاً للتكلّف، له مصنفات كثيرة، أشهرها: تفسيره (الجامع لأحكام القرآن). وكانت وفاته (٦٧١هـ). انظر ترجمته في: نفح الطيب (٢/ ٢١٠)، وطبقات المفسرين، للداودي (٢/ ٦٩).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢١٦). والمفضل، هو: المفضل بن محمد الضبي، صاحب المفضليات، راوية علاّمة بالشعر والأدب، من أهل الكوفة. توفي سنة (١٦٨هـ). انظر: تاريخ بغداد (١٣/ ١٢١)، والأعلام (٧/ ٢٨٠).

وتُطْلَقُ على الوجه؛ لصقالته وملاسته، ووجه مسنون: مخروط أسيل، وحديد مسنون: مصقول.

وعلى الشيء المصبوب، ماءً أو تراباً.

يُقالُ: سنَّ الماء على وجهه؛ أي صبَّه عليه صبّا سهلاً.

وفي حديث عمرو بن العاص ﷺ عند مسلم: «فإذا دفنتموني فسنّوا عليَّ التراب سنّا»(١).

وتُطْلَقُ ويُرادُ بها أيضاً: الطبيعة، وبه فسَّر بعضهم قول الأعشى(٢):

كريمـــاً شمائله من بـــني　　　معاوية الأكرمين السّنن

وعلى غيرها من المعاني(٣).

والسُّنة في الاصطلاح: قد تطلقُ مراداً بها ما يُرادُ بـ «الحديث» بالمعنى الاصطلاحي(٤)، فتكون مرادفه(٥)، وقد يراد بالسنة الأعمال دون الأقوال، «فإذا كان الحديث عاماً يشمل قول النبيّ ﷺ وفعله، فالسُّنَّة خاصة بأعمال النبيّ ﷺ.

وفي ضوء هذا التباين بين المفهومين، ندرك قول المحدّثين أحياناً:... إمامٌ في الحديث، وإمامٌ في السُّنة، وإمامٌ فيهما معاً»(٦).

وقد تُطْلَقُ بالمعنى الشرعي الأعم، فيُرادُ بها: عموم «التمسُّك بهدي النبيّ ﷺ، واتّباع طريقته، وهي بهذا المعنى ضد البدعة»(٧). و«لذلك قيل: فلان من أهل السُّنَّة، معناه: من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة»(٨)، وهي طريقته ﷺ وهديه.

---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ١٣٦).
(٢) اللسان، مادة (سنن). والأعشى، هو: ميمون بن قيس، أبو بصير، لُقِّبَ بالأعشى، لضعف بصره، من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وصاحب إحدى المعلقات السبع المشهورة، أدرك الإسلام ولم يسلم، وكانت ولادته بمنفوحة قُرْب الرياض، وبها وفاته سنة (٧هـ). انظر: معجم الشعراء، للمرزباني، ص ٤٠١، والأعلام (٧/ ٣٤١).
والبيت من قصيدة يمدح بها قيس بن معدي كرب الكندي، ومطلعها:
لعمرك ما طول هذا الزمن　　　على المــرء إلا عنــاء معن
انظر: ديوان الأعشى الكبير، ص ٦٩.
(٣) انظر: اللسان، مادة (سنن)، وبصائر ذوي التمييز (٣/ ٣٦٧).
(٤) وهو ما صحَّ عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.
(٥) .... ..
(٦) انظر: علوم الحديث ومصطلحه، د. صبحي الصالح (٥/ ١٠).
(٧) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، رسالة دكتوراه بالآلة الكاتبة (١/ ٦) بتصرف.
(٨) اللسان، مادة (سنن).

أمَّا سُنَّة الله تعالى فهي: طريقة حكمته الجارية مع الأسباب المقتضية لمسبباتها، كما قدَّرها وأجْرَاهَا. وهي عادته ـ تعالى ـ بمقتضى حكمته[1].

ثانياً: الأمم:

الأمم: جمعة أمَّة، أصلها من الأم، وهو القصد. وأمّ كل شيء: أصله وعماده. وأصل الأمَّة: الصنف والجماعة من الناس أو الحيوان.

وقد جاء في القرآن الكريم ذكرُ أشهر المعاني اللُّغويَّة لكلمة «أمَّة»، وهي خمسةٌ:

أحدها: الجماعة من النَّاس، وهو الاستعمال الغالب؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١]، وقوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾[المائدة: ٦٦]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

الثاني: الملَّة والشريعة والطريقة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢].

الثالث: الحين والمدَّة من الزمان، كقوله تعالى في سورة هود: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨]. وفي يوسف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]. وليس في القرآن غيرهما.

الرابع: بمعنى الإمام والرَّبَّانِيّ، والرجل المقتدَى به، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

الخامس: بمعنى الصنف. قاله ابن قُتَيْبَة[2]، وجعل منه قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ أي: أصناف[3].

---

(١) انظر: مفردات الراغب، سنن، وجامع الرسائل، لابن تيمية (١/ ٥٤)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٣)، وتفسير السعدي (٦/ ٢٤٩).

(٢) الدينوري، عبد الله بن مسلم، أبو محمد. من أئمة الأدب، مصنف مكثر، له عناية ببيان معاني القرآن والحديث، سكن الكوفة، ثم ولي قضاء الدينور مدة، فنُسِبَ إليها. توفي ببغداد سنة (٢٧٦هـ). انظر: العبر (١/ ٣٩٧)، وبغية الوعاة (٢/ ٦٣).

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن.

والمعنى المقصود بكلمة «الأمم» في العنوان: الجماعات والأقوام الذين أرسلَ الله إليهم رُسَلَهُ، وهم «الأمم السابقة التي ذكرها القرآن وقصَّ من أخبارها»[١]، والأمم اللاحقة بها ممن جاء ويجيء بعد نزول القرآن الكريم.

وعلى هذا، تكون «أل» في «الأمم»: هي العهدية الذهنية[٢].

هذا هو معنى جُزئي العنوان مفردين.

وبالنظر إلى معنى العنوان ومدلوله بعد التركيب، أقول: إنَّ المقصود من هذا العنوان، هو محاولة التعرُّف على الطرائق الإلهية الجارية وفق حكمته وعدله مع الأسباب المقتضية لمسبباتها، التي تحكم تصرفات البشر - من أهل طاعة الله وأهل معصيته - وتقتضي نتائجها، بصورة جماعية، من خلال القرآن الكريم، حسب الإمكان.

وبعبارة أخرى: دراسة القوانين الإلهية التي تحكم تصرفات الأمم ونتائجها، في القرآن الكريم.

وقد اختلفت عبارات أهل العلم من المفسِّرين وغيرهم، ممن تصدَّى لتعريف سنن الله في الأمم، قديماً وحديثاً، وأكثر ما يذكر المفسِّرُونَ ذلك بمناسبة تفسير الآيات التي ذكر الله فيها لفظ «السُّنن»[٣]، وما ذكرته آنفاً هو حاصل ما جاء في تعريفاتهم. وإليك طائفة منها:

قال ابن جرير[٤] عند قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: ١٣٧]: «السُّنَّة مثلات سير بها فيهم وفيمن كذَّبوا به من أنبيائهم الذين أُرسلُوا إليهم، بإمهالي أهل التكذيب بهم واستدراجي إياهم حتى بلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجلته لإدالة

---

(١) سُنَّة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم، رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة، إعداد الطالب/ عبد السلام نصر الله الشريف، ص ٢١.

(٢) وهي التي يكون مصحوبها معهوداً للسامع بالذهن، فخرج (أل) التي يكون مصحوبها معهوداً بالذكر، كقوله تعالى في سورة المزمل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۞ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [الآية: ١٥]، والتي يكون مصحوبها معهوداً بالحضور، كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [الآية: ٣]. انظر: مغني اللبيب، لابن هشام (١/ ٥٠).

(٣) وستعرف في المبحث الثاني، أن جميع الآيات المصرَّح فيها بلفظ (سنة)، هي من السنن المتعلقة بالإنسان لا الكون المادي.

(٤) هو: محمد بن جرير الطبري، أبو جعفر، إمام من أئمة أهل السُّنة. وشيخ المفسِّرين والمؤرخين، فقيه مجتهد، قال عنه الذهبي: كان من أفراد الدهر علماً وذكاءً، وكثرة تصانيف. قلَّ أن ترى العيون مثله. رحل في طلب العلم، واستوطن بغداد، وأقام بها إلى حين وفاته - رحمه الله - سنة (٣١٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧)، وطبقات المفسرين (٢/ ١١٠).

أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم، ثم أحللتُ بهم عقوبتي ونزلت بساحتهم نقمتي فتركتهم لمن بعدهم أمثالاً وعبراً»[١].

وقال الزمخشري[٢] عند هذه الآية: «يريد ما سَنَّهُ الله في الأمم المكذبين من وقائعه»[٣]. ونحو قوله قال القرطبي[٤].

وعرَّفها الشوكاني[٥] فقال: «المراد بالسنن: ما سَنَّهُ الله في الأمم من وقائعه»[٦].

وقال رشيد رضا[٧] صاحب «المنار»: «جاء القرآن يبيِّنُ للناس أن مشيئة الله تعالى في خلقه إنَّما تنفذ على سنن حكيمة وطرائق قويمة . . . وأنَّ له سنناً عامة جرى عليها نظام الأمم من قبل، وأن ما وقع مما يقصّ حكمته عليهم هو مطابقٌ لتلك السُّنن التي لا تتحوَّل ولا تتبدَّل»[٨].

وبنحو قوله قال الأستاذ سيد قطب[٩] في تفسيره[١٠].

هذه بعض التعريفات من متقدمي أهل العلم بالتفسير ومن متأخريهم، وهي تعريفـات اصطلاحية، تدور حول بيان المعنى الشرعي لسنن الله الوارد ذكرها في القرآن.

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٩٩).

(٢) محمود بن عمر جار الله الزمخشري، من أئمة اللغة والتفسير، سافر إلى مكة وجاور بها زمناً فَلُقِّبَ بـ «جار الله»، كان معتزلي المذهب مجاهراً، شديد الإنكار على المتصوفة. توفي بالجرجانية من قرى خوارزم سنة (٥٣٨هـ). انظر: بغية الوعاة، للسيوطي (٢/ ٢٧٩)، وطبقات المفسرين (٢/ ٣١٤).

(٣) الكشاف، للزمخشري (١/ ٤٦٥).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢١٦).

(٥) محمد بن علي الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، ولي قضاء صنعاء، ومات حاكماً بها سنة (١٢٥٠هـ)، له مصنفات كثيرة بلغت ١١٤ مصنفاً، أشهرها: (فتح القدير)، و(نيل الأوطار). وكان يرى تحريم التقليد. انظر: نيل الأوطار (١/ ٧)، والأعلام (٦/ ٢٩٨).

(٦) فتح القدير (١/ ٣٨٣).

(٧) هو: محمد رشيد بن علي رضا القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة المنار، وأحد رجال الإصلاح، عالم بالحديث والتفسير، كاتب مجيد، تتلمذ للشيخ محمد عبده. وتوفي فجأة في سيارة كان راجعاً بها من السويس إلى القاهرة سنة (١٣٥٤هـ). انظر: الأعلام (٦/ ١٢٦).

(٨) تفسير المنار (٤/ ١٤١)، بتصرف يسير.

(٩) ابن إبراهيم، مفكر إسلامي مصري، ولد في أسيوط، وتخرَّج بكلية دار العلوم بالقاهرة، شارك في الحياة الفكرية والسياسية، وكتب في كبريات الصحف العربية، انتقد البرامج المصرية، وانضم إلى الإخوان المسلمين، وترأس قسم نشر الدعوة، وتولَّى تحرير جريدتهم، وسجن معهم فعكف على تأليف الكتب وهو في سجنه، إلى أن صدر الأمر بإعدامه سنة (١٣٨٧هـ). انظر: الأعلام (٣/ ١٤٧).

(١٠) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٤٧٨، ٤٧٩). وانظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١/ ٦) وما بعدها.

وبينها وبين المعنى اللُّغويّ ـ على ما عرفت ـ تشابه في الدلالة ، فإنَّ معنى السُّنة لغةً: الطريقة . واصطلاحاً: طريقته سبحانه في تسيير أمور هذا الكون بمقتضى حكمته وعدله»[١] .

ونستخلص مما سبق أموراً، أهمها أمران:

١ ــ أنَّ هذه الدراسة تعنى بنوع من السنن الإلهية ، وهي السنن المتعلّقة بتصرفات الإنسان في الحياة الدنيا ، فليس من اختصاصها دراسة السنن المتعلقة بالكون المادي[٢] .

٢ ـ وأنَّها تتناول من مظاهر تصرفات الإنسان المظهر الجماعي فقط ، فلا تتناول السنن التي تحكم تصرفات آحاد الأفراد . وما جاء من ذلك فعلى سبيل التَّبع[٣] .

* * *

---

(١) سنة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم ، ص ١٩ .
(٢) وسأبيِّنُ أهم الفروق بين هذين النوعين من السُّنن في المبحث الثاني ، بإذن الله .
(٣) وسأبيِّنُ أهم الفروق بين هذين النوعين من السُّنن في المبحث الثالث ، بمشيئة الله .

المبحث الثاني

الفرق بين سنن الله في الكون المادي وسننه في الإنسان

عرفنا في المبحث السابق، معنى السنن الإلهية، وأنَّها «مجموعة القوانين التي سنَّها الله عز وجل لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعاً على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها»(١).

وأنَّها تشمل عند الإطلاق: سنن الله في الكون المادي، وسنن الله في الإنسان، بالنظر إليه فرداً، وبالنظر إليه مجتمعاً وأمة.

وتبيَّنَّا أن المقصود بهذه الدراسة: هو سنن الله في الإنسان بالنظر إليه مجتمعاً وأمَّة، دون ما سواها.

ولا شك أن بين الكون المادي من جهة، والإنسان من جهة أخرى فروقاً هائلة، في طبيعة كل منهما وفي وظيفته، فلا جرم سيكون بين السنن التي تحكم كلاً منهما فروق كذلك... وهذه الفروق شاهدة ببديع صنع الله وكمال قدرته وعلمه وحكمته، وسائر أسمائه وصفاته، فإنَّه ـ جل وعلا ـ ﴿أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ [السجدة: ٧]، و﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، كما قال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ [الملك: ٣].

وخصَّ جنس الإنسان بمزيد من الإحسان فقال: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ * ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨].

ومن إحسان خلقه والإحسان إليه أن جعله ﴿سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وفضَّلَهُ على كثير ممن خلق تفضيلاً(٢). وميَّزَهُ بالعقل، وحمَّله أمانة خلافة الأرض(٣). وسخَّر له

---

(١) أزمتنا الحضارية في ضوء سُنَّة الله في الخلق، ص ٥٢.

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠].

(٣) قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣] من الحيوان والجماد والنبات ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] . . . إلى غير ذلك من الأمور التي تميز بها جنس الإنسان عن غيره من الأحياء والجمادات .

وبالتالي ، فإنَّ لكل من هذا الكون وهذا الإنسان سنناً تلائمه ، وتظهر حكمة الله من وراء خلقه وإيجاده ، وتقوم برهاناً دالاً على ربوبية الله ـ وحده ـ وعبودية كل ما سواه . . . ومع هذا وذاك ، فإنَّه عن طريق تلك السنن ، يتم التعامل مع هذا الكون وهذا الإنسان ، وتسخيرهما والإفادة منهما .

وفي هذا المبحث أتناول بشيء من التفصيل أهم الفروق بين: سنن الله في الكون المادي ـ وأعني بها: ما سوى الإنسان(من عالم الذرة المتناهية في الصغر ، إلى عالم المجرَّة المتناهية في الكبر) [(١)] ـ وبين سننه ـ جل وعلا ـ في الإنسان بصفة عامة .

وقبل الدخول في تفصيل أهم تلك الفروق ، يجب أن لا يغيب عنا أنَّ كل السنن الإلهية متفقة في المصدر والخلق والتقدير ، وفي الأهداف العامة . فمصدر السنن والقوانين التي تحكم الأشياء واحد هو الله تبارك وتعالى . ومصدر الأشياء والأحياء التي تطبق عليها تلك السنن واحد أيضاً هو الله جل وعلا . فهو الذي خلق ﴿كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] ، و﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] .

وهي جميعاً تمثّل مظهراً من مظاهر قدرة الله وحكمته وعلمه ، وسائر أسمائه وصفاته .

ثم إنَّ هذه السنن أُوجِدت لمصلحة الإنسان وانتظام شؤون الحياة والأحياء ، ولهذا فإنَّ بينها من التناسق والتكامل ما يكون بين أفراد الأسرة الواحدة ذوي الهدف الواحد [(٢)] .

أمَّا الفروق والاختلافات فهي كثيرة ، لا يمكن الإحاطة بها إلا بعد دراسة مستوعبة لوظائف وخصائص كل منهما ، وهذا لا يتسع له مبحث في مقدمة . ولكن سأشير إلى أهم الفروق التي يحتاج قارئ هذا الكتاب إلى معرفتها ، وهي راجعة إلى الفرق الأساس

---

(١) أزمتنا الحضارية في ضوء سُنَّة الله في الخلق ، ص ٥٣ .
(٢) وسيتضح ذلك جلياً عند دراسة خصائص السُّنن ، بإذن الله .

بين طبيعة ووظيفة كل من الإنسان والكون المادي. وأهمها - فيما يظهر لي - ثلاثة فروق:

الفرق الأول: أنَّ سنن الله في الكون المادي تجري وتقع بطريق القهر والتنجيز (الآنية). أمَّا سننه في الحياة الإنسانية فهي سنن مرنة(غير قهرية)، تحمل خاصية الإمهال بعض الوقت لصالح الإنسان(غير آنية)، وإن كانت تنفذ وتقع ولا بد في نهاية المطاف[١].

ويمكن ملاحظة هذا الفرق عندما نقارن نتائج القوانين العلمية، التي تخضع بطبيعتها للتجربة المخبرية، عندما نقارنها بالنتائج التي يتم الحصول عليها من رصد الظواهر الاجتماعية.

فالأولى إذا ما توفرت شروطها وانتفت موانعها، ظهرت نتيجتها بصورة فورية قهرية. وليس الأمر كذلك فيما يتعلّق بالنواحي الاجتماعية والإنسانية عموماً.

وبعضهم يسمي الأول: «قانوناً»، والثاني: «اتجاهاً»[٢]. ولإيضاح هذا الفرق، أسوق لك بعض الأمثلة:

المثال الأول: وهو مثال على القانون العلمي: «لا يمكن للإنسان أن يجعل الماء لا يغلي، إذا توفرت شروط الغليان، لا يمكنه أن يتحدَّى الغليان، أن يؤخر الغليان لحظة عن موعده المعين؛ لأنَّ هذا قانون، والقانون صارم، والصرامة تأبى التحدِّي»[٣].

والثاني: مثالان على الاتجاه؛ أي القضية الإنسانية، والظاهرة الاجتماعية:

المثال الأول: هناك اتجاه في تركيب الإنسان وتكوينه وطبيعته، وهو الاتجاه إلى الاتصال بين الذكر والأنثى، وإدامة النوع عن طريق هذا الاتصال ضمن إطار من أُطُر النكاح الاجتماعي. هذه سُنَّة، لكنها سُنَّة على مستوى الاتجاه، لا على مستوى القانون، لماذا؟ لأنَّ إمهال من يشذ عن سَنَن هذه السُّنة لحظة أو لحظات ممكن!

---

(١) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١١٥، والمدرسة القرآنية، لباقر الصدر، ص ١٠٦ وما بعدها.

(٢) انظر: المدرسة القرآنية، لباقر الصدر، ص ١١١، والفرق بينهما عنده أنَّ القانون لا يقبل التحدي، وأمَّا الاتجاه فإنه يقبل التحدي لبعض الوقت. ويلحظ على الكاتب استخدام كلمة (التحدي)، وهي كلمة معبِّرَة، ولكن فيها مجانبة للأدب اللائق، ولذا، فقد حاولت استبدالها بتعبيرات مقاربة في بعض المواضع - كما سيأتي - وتركتها في المواضع التي رأيت أنها تؤدي الغرض ولا ينفر منها الطبع والحسّ.

(٣) المدرسة القرآنية، لباقر الصدر، ص ١١٢.

أمكن لقوم لوط أن يشذُّوا ويخالفوا هذه السُّنة فترة من الزمن، بينما لم يكن بإمكانهم أن يؤخروا نتيجة سُنَّة الغليان بشكل من الأشكال!

إلا أن مخالفة هذه السُّنة يؤدي إلى أن يتحطَّم هذا الإنسان المخالف!

المجتمع الذي يتحدَّى هذه السُّنة يكتب بنفسه فناء نفسه؛ لأنَّه يتحدَّى ذلك عن طريق ألوان أخرى من الشذوذ التي رفضها هذا الاتجاه الموضوعي! وتلك الألوان من الشذوذ تؤدي إلى فناء المجتمع وإلى خراب المجتمع[1].

ومن هنا، كان هذا اتجاهاً موضوعياً مرناً يقبل المخالفة لمقتضاه على شوط قصير، لكنه لا يقبل ذلك على شوط طويل؛ لأنَّه سوف يحطم المتحدي بنفسه[2].

المثال الثاني، ويتخلص في أن: الاتجاه إلى توزيع الميادين بين المرأة والرجل هو سنة وفطرة، هذا الاتجاه اتجاه موضوعي، وليس اتجاهاً ناشئاً من قرار تشريعي[3]، إنَّه اتجاه ركب في طبيعة الرجل والمرأة، ولكن هذا الاتجاه يمكن أن يُخَالَف!

يمكن استصدار تشريع يفرض على الرجل بأن يبقى في البيت ليتولَّى دور الحضانة والتربية، وأن تخرج المرأة إلى الخارج لكي تتولى مشاق العمل والْجَهد، هذا بالإمكان أن يتحقق عن طريق تشريع معيَّن، وبهذا تحصل مخالفة هذه السُّنة وهذا الاتجاه.

لكن هذه المشاقة والمخالفة لمقتضى السُّنة الإلهية في توزيع الميادين بين الرجل والمرأة سوف لن تستمر؛ لأنَّ سنن التاريخ سوف تجيب على هذا الإصرار على المخالفة؛ لأنَّنا سوف نخسر ونجمد كل تلك القابليات التي زُوِّدَت بها المرأة من قبل هذا الاتجاه لممارسة دور الحضانة والأمومة، وسوف نخسر كل تلك القابليات التي زُوِّدَ بها الرجل من أجل ممارسة دور يتوقف على الْجَلَد والصَّبر والثبات وطُول النَّفس، تماماً كما لو سلمنا نجاريات بناية إلى حداد، وحداداتها إلى نجار[4]. إنَّنا يمكن أن نصنع هكذا[5]، ويمكن أن تنشأ البناية أيضاً، لكن هذه البناية سوف تنهار. سوف لن يستمر هذا التحدِّي على شوط طويل، سوف ينقطع في شوط قصير[6].

---

(١) المدرسة القرآنية، لباقر الصدر، ص ١١٢.

(٢) المدرسة القرآنية، لباقر الصدر، ص ١١٣ بتصرف.

(٣) أي أنه توزيع ناشئ في الأصل، من اختلاف في طبيعة وخلق كل من الرجل والمرأة، وبدهي أن تكون الشرائع أقرَّت ذلك، بل أمرت به، لأنَّها جاءت بما يكفل مصلحة كل منهما.

(٤) النجاريات ما يلزم للبناية من أعمال النجارة، والحداديات ما يلزم لها من أعمال الحدادة.

(٥) أي: ليس فيه ما يمنعنا من ذلك بصورة قاهرة.

(٦) وهنا ندرك طرفاً من الحكمة في جعل القوامة للرجل على المرأة ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النساء: ٣٤]. فقوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ يفيد تفضيلاً عاماً. =

كل اتجاه من هذا القبيل، هو في الحقيقة سُنَّة موضوعية من سنن التاريخ، ومن سنن حركة الإنسان، ولكنها سُنَّة مرنة تحمل خاصية المرونة والإمهال على الشوط القصير، ولكنها تجيب بعد ذلك بما لا يمكن ردّه أو التَّفَلُّت منه[١].

وهذا الفرق بين سنن الله في المادة وسننه في الإنسان، منسجمٌ مع طبيعة كل منهما. فالمادة صمَّاء جامدة، بخلاف الإنسان الذي لا يحكمه عامل واحد.

الفرق الثاني: أنَّ السنن الإنسانية تعمل في حياة الأمم خصوصاً والأفراد عموماً، بصورة متشابكة، فهي منظومة واحدة، وليس الأمر كذلك في سنن الكون المادي؛ أي أن السنن المتعلقة بالإنسان لا تصح تجزئتها، ولا أن تفسر بالعامل الواحد[٢]. وما ذاك إلا لأنَّ الإنسان ـ فرداً أو أمَّةً ـ كُلٌّ لا يتجزَّأ، فهو في تأثره وتأثيره بالظروف والأحداث كما أخبر عنه النبي ﷺ بأنَّه: «**إذا اشتكى منه عضوٌ تَدَاعَى لَهُ سائر الْجَسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى**»[٣]. أي أنه في تكوينه النفسي والاجتماعي شبيه بتكوينه الجسمي العضلي.

أمَّا سنن الله في الكون المادي، فكل قانون يستقل ـ عادة ـ بشروط إذا توفرت، حصلنا على النتيجة مئة بالمئة. فللغليان قانون خاص مستقل به، ولتكوّن الماء قانون آخر، ولتجمّده قانون ثالث... وهكذا.

أمَّا السُّنن المتعلقة بالإنسان، فهي ـ وإن بدت سنناً مختلفة في ظاهرها ـ فللنصر والهزيمة سنن، ولحصول البركات والأمن سنن، وللعقوبات سنن ثالثة... وهكذا. إلا أن بينها تكاملاً وتبادلاً في التأثر والتأثير، بحيث لا تحسم نتيجة سُنَّة منها دون مراعاة جانب السُّنن الأخرى.

الفرق الثالث: أنَّ السنن الإنسانية مع اتسامها بالمرونة، فإنَّها مطردة لا تتخلَّف، ولا يمكن أن تتخلَّف. أمَّا سنن الله في الكون المادي، فقد تنخرق وتتخلَّف لتحقيق اطراد السنن الإنسانية. بهذا جرت سنة الله الحكيم.

= ومنه، بل في مقدمة هذا التفضيل: التفضيل في القوى العقلية والبدنية... ونحوها من الأمور التي هي مناط القوامة... وهذه ثابتة لا يمكن التدخل فيها، وبالتالي لا يمكن نقل مهمة القوامة من جنس الرجل إلى جنس المرأة، ومن تجرأ على ذلك فسوف ينهار ويواجه عقوبة مخالفة أمر الله، وسننه في خلقه.

(١) المدرسة القرآنية، لباقر الصدر، ص ١١٤، ١١٥ بتصرف.

(٢) وانظر ـ إن شئت ـ تفصيل هذا الجانب في: الفصل الأول من الباب الأول، عند الحديث عن الخاصية السابعة من خصائص سنن الله في الأمم.

(٣) متفق عليه، من حديث النعمان بن بشير ﷺ. والحديث بتمامه: «**مَثَل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».

ومما يؤكد هذا الفرق ويوضحه، أمران:

الأول: أن الآيات التي جاء فيها التصريح بثبات السنن وعدم تبديلها أو تحويلها، كلها جاءت في سياق تقرير سنن الله المتعلقة بالإنسان، كنصر أوليائه وخذلان أعدائه. وليس فيها آية واحدة جاءت بمناسبة تقرير سنة من سنن الله في الكون المادي[١].

الثاني: أنّه قد ثبت في مرات عديدة، أنّ الله يخرق سننه في الكون المادي وينقضها لتحقيق ما وعد به من اطراد سننه المتعلقة بالإنسان.

وقد أوضح هذين الأمرين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهو يتحدَّث عن لفظ «السنن» في القرآن، فقال ـ بعد أن ذكر الآيات التي جاء لفظ السُّنة فيها صريحاً، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. وكقوله سبحانه: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧]... ونحوها من الآيات ـ قال: فهذه كلها تتعلّق بأوليائه ـ كمطيعيه وعصاته، كالمؤمنين والكافرين ـ فسنته في هؤلاء إكرامهم، وسنته في هؤلاء إهانتهم وعقوبتهم... وهذه السنن كلها سنن تتعلّق بدينه وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية، كسنته في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات، فإنَّ هذه السنة ينقضها إذا شاء بما شاءه من الحكم: كما حبس الشمس على يوشع ﷺ[٢]، وكما شقَّ القمر لمحمد ﷺ، وكما ملأ السماء بالشُّهُب، وكما أحيا الموتى غير مرَّة[٣]، وكما جعل العصا حيَّة، وكما أنبع الماء من الصخرة بعصا، وكما أنبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ.

---

(١) وستقف على هذه الآيات مع شيء من التفصيل، في فصل: (خصائص سنن الله في الأمم) عند تقرير خاصيتي: الثبات والاطراد، بإذن الله.

(٢) أحد أنبياء بني إسرائيل. والخبر ثابت عند أحمد، وأخرجه الشيخان وغيرهما، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وسيأتي تخريجه، إن شاء الله.

(٣) كما أحيا طائفة من بني إسرائيل بعد موتهم بالصاعقة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۞ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦]. وكما في قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. وقوله سبحانه: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وغيرها.

وأيضاً فقد عرف انتقاض عامة العادات. فالعادة في بني آدم ألا يخلقوا إلا من أبوين، وقد خلق المسيح من أم، وحواء من أب، وآدم من غير أم ولا أب. وهذا خلاف عادته التي وعد بها وأخبر أنها لا تتغيّر لنصرة أوليائه وإهانة أعدائه، فإنَّ هذا علم بخبره وحكمته.

أمّا خبره: فإنّه أخبر بذلك ووعد به، وهو الصادق الذي لا يخلف الميعاد[١].

وأمّا حكمته: فإنَّ جميع طوائف أهل الملل يقولون: مقتضى حكمته أن تكون العاقبة والنصر لأوليائه دون أعدائه، كما بسط ذلك في مواضع. فَعُلِمَ أنَّ هذه السُّنن دينيات لا طبيعيات»[٢].

وليس معنى ذلك أن سنن الله في الكون المادي(الطبيعيات) ليست محكمة ولا منضبطة... كلا، ولكن يقال: إنَّ سنن الله الدينية تمتاز على سننه الطبيعية، فإنَّ الأولى متعلقة بشرعه ودينه، والأخرى متعلقة بخلقه، ومقتضى هذا الامتياز والتفضيل أن تنخرق الثانية لتحقق اطراد الأولى وثباتها، إذا اقتضت الحكمة ذلك، فتكون الثانية وسيلة من وسائل تحقيق الأولى.

ويمكن إيضاح ذلك بأن يُقَال: إنَّ الله أجرى سنته بأنه ينقض سننه الطبيعية لتحقيق ما وعد به من سننه الدينية الشرعية، فنقضه إياها لوصف اختصَّت به تلك الحال عن غيرها، فهذا النقض ليس وصفاً عاماً، ولكنه من جنس تخصيص العلّة لفوات شرط أو وجود مانع[٣].

وعلى هذا، فحتى لو قال قائل: إنَّ قوله سبحانه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] وما ماثل ذلك من الآيات، عام شامل لسننه «في خلقه وأمره، في الطبيعيات والدينيات»[٤]، فإنّه يُقال له: «لكن الشأن أن تعرف سنته، وحقيقة هذا أنه إذا نقض العادة فإنّما ينقضها لاختصاص تلك الحال بوصف امتازت به عن غيره، فلم تكن سنته

---

(١) كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١]، وغير ذلك من الآيات الدالة على نصرة أوليائه المؤمنين وخذلان أعدائه.

(٢) جامع الرسائل، لابن تيمية (١/ ٥٢ ـ ٥٤)، باختصار وتصرف.

(٣) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية (١/ ٥٤).

(٤) جامع الرسائل، لابن تيمية (١/ ٥٤).

مع ذلك الاختصاص بسنته مع عدمه، كما نقول إذا خصت العلة لفوات شرط أو وجود مانع، وكما نقول في الاستحسان الصحيح، وهو تخصيص بعض أفراد العام بحكم يختص به لامتيازه عن نظائره بوصف يختص به»[1].

وخلاصة هذا المبحث: أن نعرف الفرق ما بين سنن الله في الكون المادي؛ وهي السنن التي يصل الإنسان عن طريقها إلى تسخير ما في هذا الكون والإفادة منه واتقاء ضرره، وبين سننه ـ تعالى ـ في الإنسان، وهي السنن التي جعلها الله نظاماً لحياته، وطريقاً إلى سعادته أو شقائه في دنياه وآخرته.

وأنَّ موضوع هذه الدراسة هي الثانية دون الأولى.

وقد ذكرتُ في بداية هذا المبحث: أنَّ سنن الله في الإنسان، تشمل عند الإطلاق الأفراد والأمم، وأن موضوع هذه الدراسة الثاني دون الأول.

وعلى هذا، فلا بد من بيان يكشف ماهية الفرق بينهما، ويساعد في التعرف على كيفية عمل السنن الإلهية في كل منهما. وهذا هو موضوع المبحث الثالث.

* * *

(١) جامع الرسائل، لابن تيمية (١/ ٥٤، ٥٥)، وسيأتي لهذه المسألة مزيد بيان في فصل: (خصائص سنن الله في الأمم)، من الباب الأول، بإذن الله.

المبحث الثالث

الفرق بين سنن الله في الأفراد وسننه في الأمم

الفرد جزء الأمة وبعضها، وعندما نقول: الأمة، فإنّنا نعني: مجموعة الأفراد، وحين نقول: أفراد، فإنّنا نعني: أجزاء الأمة، الذين يؤلفون كيانها في نهاية المطاف.

فلا خصومة بين الفرد والأمة، ولا تناقض في الرغبات والحاجات، في المجتمع السوي الذي يرعى منطق الفطرة ويلتزم بأدب الشرع.

فَفِيمَ الاختلاف إذن؟ ولم اختلفت السنن بين الفرد والأمَّة؟

والجواب أن يُقَالَ: إنَّ الفردَ والأمةَ ليسا اسمين مترادفين للإنسان، وإنَّما وصفان له في وضعين مختلفين، لكل وصف منهما نوع تميّز في الوظيفة والمسؤولية، واختلاف في كيفية الجزاء ووقته.

فهو إذن ـ أي الإنسان ـ في كليهما يؤدي وظيفته، ويتحمَّل مسؤوليته، ويتلقى جزاءه، ولكن في صورتين مختلفتين بعض الاختلاف، في بعض الجوانب. ولهذا التلازم بين الإنسان في حاليه، فإنَّ مظاهر الاتفاق بين الفرد والأمة كثيرة، وهي الأصل. وهذا بدهي؛ لأنَّ الظواهر الاجتماعية هي في أصلها أعمال فردية. والاختلاف بينهما راجع إلى ذاك الاختلاف الذي أشرتُ إليه آنفاً.

ولا بأس من الإشارة إلى بعض الصور والأمثال لهذا التوافق بينهما.

فمن ذلك: أنَّ الدعاء والتضرع سبب في إنقاذ الأفراد والأمم، وأنّه ـ سبحانه ـ يجيب دعاء المضطرين حتى ولو كانوا كفَّاراً، فضلاً عن إجابة دعاء أوليائه من أنبيائه ورسله وأتباعهم من المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

يندب ـ تعالى ـ عباده ويستحثهم أن يدعوه، و«ينبه أنّه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾

[الإسراء: ٦٧]؛ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضرّ المضرورين سواه»(١).

وقال مخبراً عن إجابته دعاء نبيه نوح ﷺ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ٩ ـ ١٣].

وعبده مؤمن آل فرعون: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر: ٤٤، ٤٥]. وتلك سنته ـ سبحانه ـ في أوليائه(٢).

وقال مخبراً عن حال المكذبين المجرمين: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]؛ أي: ما دعوا حتى يكشف الله ما بهم، وقد أمروا بذلك، كما قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣]؛ أي: هلاَّ تضرَّعوا واستكانوا لربهم وخضعوا لطاعته فيصرف ربهم عنهم بأسه(٣).

وأخبر عن حال المشركين أنّهم إذا ﴿رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. في مواضع من كتابه(٤).

ومنها: أن التوبة والإيمان عند معاينة الموت لا تنفع الأفراد، وعند معاينة العذاب ـ الذي فيه موت الأمة أو القوم ـ لا تدفع عن الأمم العقوبة النازلة بهم.

قال تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٠).
(٢) أضواء البيان (٤/ ٣٩٨)، وسيأتي لهذه المسألة مزيد بيان في الفصل الأول من الباب الثاني، بإذن الله.
(٣) انظر: تفسير ابن جرير (٧/ ١٩٢)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٥١).
(٤) اقرأ مثلاً: الآيات [٤٠، ٤١، ٦٣، ٦٤] من سورة الأنعام، والآيات [٢١ ـ ٢٣] من سورة يونس، والآية [٣٣] من سورة الروم... وغيرها.

وقال مخبراً عن حال المكذبين من الأمم السابقة: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

ومنها: أنَّ الإنسان، سواء كان فرداً أو أمة، إذا استغنى طغى وتجبّر إلا من رحم الله من المؤمنين(١).

قال جل وعلا: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧].

وقال عن فرعون أنه قال عن نفسه: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣].

وحكى قول قارون عن نفسه، أنّه لما وعظه قومه وحذّروه عاقبة الفرح والأشر وأمروه بالإحسان وأن يقصد وجه الله والدار الآخرة، أنه قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

وقال مخبراً عن الأمم أنهم إذا: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

وفي المقابل قال عن نبيه سليمان ﷺ أنّه لما رأى من سعة ملكه وقوته واقتداره وكثرة جنوده: ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

ومنها: أنَّ للأمم آجالاً كما أن للأفراد آجالاً.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقال: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: ٤، ٥]. وقال سبحانه: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون:

---

(١) انظر: أضواء البيان (٤/٢٩٨)، (٩/٣٦٩).

١١] . وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: ١٤٥] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

هذه إشارات لما وراءها من مظاهر الاتفاق والتشابه بين الفرد والأمّة ، أردتُ بها مجرد التمثيل .

وبالجملة فإنَّ ما كان محموداً من الخصال والأفعال في الفرد فهو محمودٌ في الأمّة ، والعكس صحيح . إلا أنَّ عمر الفرد المحدود بالنسبة إلى عمر الأمّة المتطاول عادة ، والاختلاف في وظيفته ومسؤوليته . وفي صورة الجزاء على الأعمال ، وكيفيته ووقته . . . كل هذه لا بد أن تكون أوصافاً مؤثرة ، مراعى شأنها في هذا النظام البديع الذي يحكم الحياة ، والسنن التي تسير على وفقها .

وحتى نتصور ماهية الفروق بين وظيفة ومسؤولية وجزاء الناس أفراداً ، ووظيفتهم ومسؤوليتهم وجزائهم أُمماً ومجتمعات ، أُقَدِّمُ بهذه الجمل الموطئة:

قد نحكم على مجتمع ما ، بأنّه مجتمع آمن ، لكننا لا نتصور خلوّه من سرقة أو سطو . وقد نقول عن مجتمع آخر إنه مجتمع ماجن مستهتر ، متحلل من قيود الفضيلة ، قد عُوقِبَ بالإذلال وشيوع الأمراض ، مع وجود أناس صالحين متطهرين . وكذلك العكس . . . هذه واحدة .

والثانية: كثيراً ما يمرّ بخيالك أشخاص خيرون ، وآخرون شريرون . هؤلاء وهؤلاء ذهبوا ويذهبون ، وأنت ترى أن من هؤلاء وأولئك من لم يلق جزاءه الذي يستحقه في الدنيا!

لكنك لا تحفظ اسم أمّة واحدة ذهبت دون أن تتلقى جزاءها الدنيوي موفوراً(١) .

والثالثة: أن الأمة والمجتمع(المسؤولية الجماعية) غاية تنتهي في الحياة الدنيا ، أمّا الفرد(المسؤولية الفردية) فهي قائمة في الدنيا ، وهي وحدها الباقية في الآخرة . وما يكون من ثمرات المسؤولية الجماعية في الدنيا ، من خير أو شر ، يُضَافُ إلى رصيد الفرد ويُجزى به هناك بصورة فردية ، وكل المظاهر الجماعية في الآخرة فهي لوظائف غير تلك التي تكون في الدنيا .

---

(١) لا بد لإدراك هذه القاعدة ، أن يكون الناظر فيها مهتدياً بهدي القرآن . مدركاً لحدود معنى الأمة وحدود عمرها الزمني مقارنة بأعمار الأفراد ، والقاعدة مسئولة عن فساد النظر والتصوّر .

وأحسب أن الطريق تمهَّدت أمامك، ولاحت لك بعض الفروق بين الفرد والأمة. وهي ـ بلا شك ـ فروق مؤثرة، ولهذا اختلفت السنن التي تحكم الأفراد عن السنن التي تحكم الأمم والأقوام، تبعاً لذلك. وسأعود إلى بيان تلك الفروق المجملة بصورة أبسط؛ ليزول ما قد يكون فيها من إبهام أو إجمال، فأقول مستعيناً بالله:

تتلخَّص أهم الفروق بين الفرد والأمَّة ـ على ما ظهر لي ـ في ثلاثة فروق:

الأول: أنَّ النتائج التي تقع على الأمة والمجتمع منظورٌ فيها إلى الأغلبية، فلا يتعلَّق حصولها بمباشرة أسبابها من جميع الأفراد، ولا ترتفع النتيجة بسبب مخالفة أفراد محدودين. وبالتالي فالأفراد بموجب قانون السنن، مشمولون بالنتائج الجماعية، وإن لم يكونوا من صنَّاعها المباشرين لها. بخلاف الأمَّة فلا يغير من حالها مخالفة أفراد محدودين لاتجاهها العام[1]. وهذا الفرق هو معنى ما ذكرته في الجملة الأولى، وله شواهد من كتاب الله تعالى، ومن سُنَّة رسوله ﷺ.

منها: قوله سبحانه: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥][2].

يحذِّر الله «جميع المؤمنين من فتنة إن أصابت لم تخص الظَّلَمة فقط، بل تصيب الكل من ظالم وبريء»[3]. بشؤم صحبتهم وتعدِّي رذيلتهم إلى من يخالطهم، كقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم: ٤١]، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «أمرَ الله ـ عز وجل ـ المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم»[4].

وأصل ذلك: أن مصالح الأمَّة لا تقوم إلا على أساس قيام أفرادها بشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما لم تقم بهذا الواجب، فإنَّ مصالحها جميعاً تتأثر، ويَجُرّ بعضها بعضاً إلى أسوأ العواقب[5].

---

(١) ولا يعني هذا، انعدام التأثير في واقع الأمة، بل لا بد من وجوده، لكنه محدود لا يرقى إلى درجة قلب النتيجة. وهذا هو المقصود.
(٢) المحرر الوجيز، لابن عطية (٨/ ٤١).
(٣) محاسن التأويل، للقاسمي (٨/ ٣٦)، ونسبه للقاشاني.
(٤) تفسير ابن جرير (٩/ ٢١٨)، والمحرر الوجيز (٨/ ٤١)، وتفسير البغوي (٢/ ٢٤١)، ومن تفسيره نقلتُ.
(٥) وسيأتي لهذه النقطة مزيد بيان في الفصل الثالث من الباب الرابع، بإذن الله.

قال القاسمي[(١)]: «وقد روى الإمام أحمد عن جرير[(٢)] ﷺ أنّ رسولَ الله ﷺ قال: **«ما من قوم يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعملون، ثم لم يغيروه إلا عمَّهم الله بعقاب»**[(٣)].

وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]. والمعنى: أهلكوا قومهم وأحلُّوا بهم المثلات والعقوبات الدنيوية من القتل والأسْر، بسبب حملهم إياهم على الْكُفْر والشِّرْك ومناوأة الحق وأهله، وكان مصيرهم إلى النَّار التي هي دار البوار في الآخرة[(٤)].

وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. والمترفون هم بعض أفراد الأمَّة، وليسوا كلهم، كما يفيد ذلك لفظ الآية.

وفي حديث زينب بن جحش زوج النبي ﷺ رضي الله عنها: أنها لَمَّا قالت: «أفنلهك وفينا الصَّالِحُون؟»، قال النبيّ ﷺ: **«نعم، إذا كَثُرَ الْخَبَث»**[(٥)].

فرتَّب الهلاك على كثرة الخبث وغلبته، لا على استحكامه ووقوع الناس كافة فيه.

قال في الفتح: «قال ابن العربي[(٦)]: فيه البيان بأنَّ الْخَيِّرَ يُهْلَكُ بِهلاكِ الشِّرير إذا لم يغيِّر عليه خبثه، وكذلك إذا غيِّر عليه لكن حيث لا يجدي ذلك، ويصرّ الشرير على عمله السيِّئ، ويفشو ذلك ويكثر حتى يعمّ الفساد فيهلك حينئذٍ القليل والكثير، ثم يحشر كل أحد على نيته»[(٧)].

---

(١) هو: جمال الدين ـ أو محمد جمال الدين ـ بن محمد، من سلالة الحسين السبط، إمام الشام في عصره في العلم والأدب، كان سلفي الاعتقاد، نابذاً للتقليد، واتهم بتأسيس مذهب جديد سموه (المذهب الجمالي)، حسداً من شانئيه، فانقطع في منزله للتعليم والتأليف. توفي سنة (١٣٣٢هـ). انظر: الأعلام (٢/ ١٣٥).

(٢) هو: ابن عبد الله البجلي، أسلم قبل سنة عشر، على الصحيح. كان جميلاً حتى قال عمر: هو يوسف هذه الأمة. توفي سنة إحدى ـ أو أربع ـ وخمسين. انظر: الإصابة (١/ ٢٤٢).

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود وغيرهم، وهو حديث صحيح، وسيأتي تخريجه. (وروي نحوه عن عدي بن عميرة وحذيفة والنعمان وعائشة وأم سلمة). [محاسن التأويل (٨/ ٣٦)].

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٣٨)، وتفسير السعدي (٤/ ١٤١).

(٥) رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري. انظر: فتح الباري (١٣/ ١٠٦)، وصحيح مسلم بشرح النووي (١٨/ ٢).

(٦) هو: محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي، يكنى: أبا بكر، إمامٌ متبحر في العلوم، درس وصنَّف وتولَّى القضاء، وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة. توفي ـ رحمه الله ـ سنة (٥٤٣هـ). انظر في ترجمته: أحكام القرآن، لابن العربي (١/ ٤) وما بعدها، بقلم المحقق.

(٧) فتح الباري (١٣/ ١٠٩).

وعن أمّ سلمة زوج النبي ﷺ رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: **«يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم»**، فقلتُ: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: **«يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته»**[1].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: **«... حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم»**، فقلنا: يا رسول الله، إنَّ الطريقَ قد يجمع الناس. قال: **«نعم، فيه المستبصر والمجبور وابن السبيل يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتّى، يبعثهم الله على نياتهم»**[2].

إلى غير ذلك من الأدلّة.

وبتأمُّل النصوص السابقة يتبيَّن لنا أنَّ الغلبة المؤثرة تكون: إما بالكثرة العددية، إذا كانت ذات فاعلية وتأثير في مجرى الأحداث، وهذا ظاهرٌ. أو بقوة التأثير وامتلاك القرار في الأمة، ولو من أقليَّة، إذا كانت الأكثرية فيها سلبية تابعة، كما في آية الإسراء: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا . . .﴾ الآية، ونحوها.

والفرق الثاني: أنَّ الأمم لا بد أن تنال جزاءها خيراً كان أم شرّاً، عاجلاً في الدنيا، أما الأفراد فليس ذلك بمطرد فيهم ولا لازم في حقهم، فقد ينالونه في الدنيا، وقد يموتون دون أن يُجْزَوْا بأعمالهم.

وكم شهدنا وشهد الناس قبلنا، من الطغاة والمتجبرين، ممن سام الناس سوء العذاب، ثم هلك دون أن يلاقي عُشْر معشار ما يستحقه في نظر الناس وفي تقديرهم.

وبالمقابل، فكم من الأنبياء، ومن الدُّعاة والمصلحين، ممن أنقذ الله بهم خلائق لا يُحْصَوْنَ من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة، يموتون يوم يموتون ما بين مطرود ومسجون ومعذّب!

ولو كان هؤلاء وأولئك ينالون ما يستحقونه من ثواب أو عقاب مادي أو أدبي من قبل أممهم في الدنيا، لكانت السجون والمشانق للطغاة والمتجبرين، ولصيغت للأنبياء والمصلحين الأمجاد وفُرِشَت في طريقهم الورود وذلّلت لهم الصِّعاب، ولكن الذي يقع هو بعكس ذلك عادة.

---

(١) رواه مسلم. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٨/ ٤).

(٢) رواه مسلم. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٨/ ٦). قال النووي: «المستبصر هو المستبين لذلك، القاصد له عمداً». السابق (١٨/ ٧) بتصرف يسير.

وقد يقول قائل: فكيف تجيب عن مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴾ [غافر: ٥١]؟ وقوله: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَـٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣] . . . وأمثالها من الآيات، التي ضمنت لهم النصر والغلبة في الدنيا؟!

والجواب عن مثل هذه الآيات يتلخّص في أمرين:

الأول: أنّه يجب أن نفهم معنى النصر المقصود بهذه الآيات وأمثالها.

والثاني: يجب أن نفرّقَ بين نصر الفرد، ونصر الفئة والجماعة والأمّة. وأنّه لا تعارض بين انتصار الفكرة أو الفئة والأمّة، وبين أن لا يلقى الفرد جزاءه الذي يستحقه في الدنيا.

وبإيجازٍ شديدٍ أقول: أمّا معنى النّصر، فإنّه أعمّ بكثير مما يتبادر إلى الأذهان، فإنَّ أكثر الناس لا يرى النصر إلا مرادفاً للغلبة الحسيَّة، كالنصر في الحروب، أو الغلبة بالحجّة والبرهان في مجال المجادلة. والمعنى أعم من ذلك بكثير.

فهذا وذاك، من صور الغلبة.

وصبر الداعي وثباته في دعوته، أعني استمراره في طريق الدعوة، من صور النصر. وصبره على البلاء والشدائد، من وشاية واشٍ وحسد حاسد وتعذيب جبّار وغربة واغتراب . . . كل ذلك صورة من صور النصر.

وهلاك عدوّه والانتقام منه، ولو بعد موته، من صور النّصر.

وانتشار فكرته ومبادئه بين الناس، ولو بعد موته، من صور النصر . . . إلى آخر ما هنالك من صور النّصر[1].

والمقصود بالجزاء الذي يلقاه في الدنيا، ليس هو المرادف للنصر بمعناه الأعمّ ضرورة، وإنّما المقصود هو الجزاء الدنيوي الذي يلقاه الفرد بذاته من عموم الأمّة؛ من أجيالها المتعاقبة، لقاء ما قدمه لهم من خير وإصلاح.

---

(١) انظر مثلاً: الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٣٢٢)، وفي ظلال القرآن في مواضع، منها (٥/ ٢٧٥٣، ٣٠٨٥)، (٦/ ٣٥١٤). وقد فصّل في معنى النصر وحقيقته وعدد مظاهره، الدكتور/ ناصر العمر، في كتابه (حقيقة الانتصار).

وكذلك يُقالُ في الجزاء الذي يلقاه الطاغية والمجرم، من الأمة التي يعيش بينها، أو يمر بذاكرتها.

ثم إنَّه لا بد لنا أن نفرِّق بين نصر الفكرة أو الفئة والجماعة المؤمنة إذا تحققت فيها شروط النصر وأسبابه، وبين نصر الفرد بذاته.

بل إنَّ من نَصْرِ الدِّينِ والمبدأ الذي تحمله الأمَّة وتدعو إليه، أن يكون بعض أفرادها قرابين لهذا النصر. وهؤلاء الأفراد القرابين يحملون الأفكار والمبادئ ذاتها التي تحملها الأمَّة وتدعو إليها، فهم يستحقُّون ـ على ما معهم من الحقِّ والخير ـ الإجلال والتوقير، ولكن الذي جرى ويجري لهم هو بعكس ذلك من أغلب الخلق. أي أنَّ الدين والمبدأ سيتحقق له النصر والغلبة، بموجب وعد الله، كما قال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨، ٩].

والأمَّة التي تنصر الحق ـ بمجموعها ـ سوف تنتصر بموجب وعد الله الذي لا يتخلَّف، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾ [غافر: ٥١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]... وغيرها من الآيات.

وقد اجتمع الأمران؛ تَحقُّق النصر على مستوى الأمَّة، وتأخير الجزاء الدنيوي على مستوى بعض الأفراد. اجتمعا في قوله سبحانه: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنَّ حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لطائفة أو شخص، لا ينافي ما يقع خلال ذلك من قتل بعضهم وجرحه، ومن أنواع الأذى، وذلك أن الخلق كلهم يموتون، فليس في قتل الشهداء مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم، فمن عدّ القتل في سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس...»(١).

«ثم إنَّ الدِّين الذي قاتل عليه الشهداء ينتصر ويظهر، فيكون لطائفته السعادة في الدنيا

---

(١) جامع الرسائل، لابن تيمية (٢/ ٣٣٥).

والآخرة، ومن قُتِلَ منهم كان شهيداً، ومن عاش منهم، كان منصوراً سعيداً، وهذا غاية ما يكون من النصر؛ إذ كان الموت لا بد منه، فالموت على الوجه الذي تحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل، بخلاف من يموت هو وطائفته، فلا يفوز هو ولا هم بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة»[١].

أمَّا على مستوى الأمم، فلا يمكن أن تفلت أمّة من عقابها، أو تحرم من ثوابها. لا تُحْرَم من ثوابها، بالتمكين لها ونصرها وخذلان عدوّها، وإنزال البركات عليها... ونحو ذلك من مظاهر الإثابة الدنيوية.

ولا تفلت من عقاب الله لها، إمَّا بالإهلاك الجماعي، أو بالإدالة عليها، أو بغير ذلك من أنواع العقوبات.

قال تعالى مبيناً سُنَّته في هذا وذاك: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ... ﴾ [يونس: ١٣]، وقال: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾[الإسراء: ٥٨]، وقال: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... ﴾ [النور: ٥٥] الآية.

ومن الحكم الظاهرة لنا في كون الأمم لا بد أن تلقى جزاءها عاجلاً في الدنيا، وأن الأفراد ليسوا كذلك، فقد... وقد. أقول: من الحكم في ذلك ـ علاوة على ما سبق بيانه ـ ما سيتضح عند تقرير:

الفرق الثالث، وهو: أنَّ العمل الجماعي والمسؤولية الجماعية للأمَّة، إنَّما وجدا لتحقيق أهداف وبلوغ غايات تنتهي بنهاية الدنيا. وفي الآخرة تنحل الأمَّة(الكيان) إلى أفراد، وتصبح المسؤولية في الآخرة مسؤولية فردية لا غير[٢].

وإذا كُنَّا متَّفقين على أنه لا بد لكل عامل من جزاء، وهو كذلك. فإنَّ الأمَّة(الكيان الجماعي ذا المسؤوليات المحددة) يجب أنْ تَلْقَى جزاءها الجماعي في الدنيا؛ لأنَّها غاية تنتهي، ولأنَّ قيمتها وثمرتها لا تحصل إلا في إيقاع الجزاء وتلقّيه في الدنيا.

---

(١) مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، بشرح: محمود شكري الألوسي، ص ٧٩.
(٢) وليس معنى ذلك أن هذه الأعمال الجماعية لا يترتب عليها جزاء أو تبعة في الآخرة. كلاَّ إنَّما المقصود أن مسؤوليات الأمة الجماعية تنتهي. ويبقى تلقي الجزاء عليها، كما سيتضح لك ذلك.

ثم إنَّ تأخير هذا الجزاء الجماعي عن الدنيا، فيه من المفاسد ما لا يحصى: من غلبة الباطل، وسيادة المبطلين، وفساد الأرض، وضعف الحق وقهره وإذلال أهله.

وفي إيقاعه في العاجلة من المنافع والْحِكَم ما لا يعلمه إلا الله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ...﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

أمَّا الجزاء الفردي، فيقع منه في الدنيا ما يقع، وهناك في الآخرة يكون الجزاء الأوفى، ويكون حتماً لازماً لكل الأفراد، على كل الأعمال.

قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥]. حتى الأعمال ذات البُعْد الجماعي، يستقل كل فرد بنصيبه منها، على أنَّها من كسبه، ويأتي بصفته الفردية، مجرداً من الْحَوْلِ والقوَّة والسلطان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

فمن كان إماماً في الْهُدَى، كان ثوابه أعظم وحظّه أوفر، كالأنبياء والمصلحين. ومن كان مقدماً في الضلال والكفر، كان عذابه مضاعفاً ونكاله وبيلاً، كأئمة الكفر والضلال، كفرعون وهامان وأبي جهل، وسائر أئمة الضلال ورؤوس الكفر.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]. وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ *

وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣].

وقال سبحانه مبيناً فساد ظن العاص بن وائل أنه يكون معه يوم القيامة مالٌ يقضي به ما عليه من حقوق: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا * كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا * وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴾ [مريم: ٧٧ ـ ٨٠] . . . إلى غير ذلك من الآيات.

فامتاز أولئك بعظيم الأجر، وَبَاءَ هؤلاء بفادح الوزر؛ نتيجة أعمالهم ذات البُعْد الجماعي، على مستوى الأمة، فضلاً عن الأعمال الخاصة القاصرة، المتعلِّقة بذواتهم.

وقد يقول قائل: كيف نجمع بين ما ذكرت وبين أمثال قوله تعالى عن أهل النَّار: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ . . .﴾ [الأعراف: ٣٨]؟ وقوله: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ . . .﴾ [البقرة: ١٦٦]؟ وما ورد من الآيات في محاجة أهل النار بعضهم بعضاً، وهي آيات كثيرة، وردت بأساليب متعددة[1]. وكقوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [يونس: ٤٧]، وإخباره عن فرعون أنّه: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ . . .﴾ [هود: ٩٨]. وما في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ في حديث الرؤية الطويل عن النبي ﷺ أنّه قال: «**يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمسَ الشمسَ، ويتبع من كان يعبد القمرَ القمرَ، ويتبع من كان يعبد الطواغيتَ الطواغيتَ. . .**» الحديث[2]؟ وغير ذلك من النصوص.

وهي تفيد أنَّ الأمم يوم القيامة تُحْشَرُ بصورة جماعية، وتدخل النار بصورة جماعية، ويجري بينها من التقاول بعد دخول النار ما يجري. فكيف نجمع بين ذلك، وبين ما قررت قبل من أن جزاء الأمَّة بكيانها الجماعي شيءٌ ينتهي في الدنيا؟!

---

(١) وسيأتي ذكر بعضها قريباً.

(٢) انظر: فتح الباري (٢/ ٢٩٢)، وصحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ١٧)، واللفظ لمسلم.

وأقول جواباً عن ذلك: إنَّه لا تعارض ـ بحمد الله ـ بين هذه النصوص، وبين ما قررته من أن الجزاء الجماعي للأمَّة شيء ينتهي في الدنيا.

ولدفع هذا التعارض المتوهم، يجب أن نعرف الفرق بين الجزاء الجماعي الدنيوي للأمَّة وبين ما يجري لهم، ويكون منهم وبينهم في الدار الآخرة، مما جاء ذكره في الآيات.

فأمَّا الذي يقع في الدنيا من الجزاء الجماعي للأمم، فواضحٌ، وقد بيَّنْتُهُ فيما سبق.

وخلاصته: أنَّ هذا الجزاء ضروري لكي يندفع الفساد وتبقى الحياة صالحة للعيش فيها، ولئلا يسرع إليها الدَّمار ما لم يوجد هذا التوازن بين القوى، وما لم يستمر هذا التدافع بصورته الإيجابية؛ أي أنَّه جزاء لكي تبقى الحياة إلى أن يأذن الله بخراب هذا العالم.

ولهذا، فإنَّهُ لتحقيق هذه الغاية، قد تنال العقوبة البريء إذا كان في مجتمع منحرف، وقد ينعم بالأمن المجرم إذا كان في مجتمع صالح.

وأمَّا الذي يجري في الآخرة فشيءٌ آخر.

وليكن حديثنا عن الجزاء الجماعي للكافرين في الآخرة، فإنَّ عامة النصوص وردت فيه. إنَّه ـ أعني جزاء الكافرين ـ أشبه بتصفية الحسابات بين الشركاء في تجارة فاشلة، ومراجعة النتائج ونقد الأوضاع بعد فوات الأوان وذهاب الفرص، كلٌّ يريد أن يأخذ لنفسه ويُلقي بالتَّبِعَة على غيره ويُبَرِّئُ ساحته. ولهذا ترتفع أصوات الأتباع ـ على غير عادتهم في الدنيا ـ وتظهر العداوة بينهم وبين متبوعيهم على أشدها، ويطالبون بإنزال أشد العقوبات بهم، ويكون موقف المتبوعين الذين استكبروا موقف المدافع العاجز عن فعل أي شيء. ولا يُخْفِي الفريقان بالغ الحسرة والنَّدامة على ما كان منهم في الدنيا[1].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ

(١) انظر: تفسير المنار (٨/ ٤١٦).

وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣].

وقال في آية أخرى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقال: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وقال: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ [الصافات: ٢٢ - ٣٢].

وقال: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

وقال: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ [سورة ص: ٥٩ - ٦١].

فما يجري لهم هناك في الآخرة أشبه بمحاكمة جماعية لجماعة من المجرمين في قضية واحدة، فهم إبان المحاكمة لا يتمتعون بشيء من مواصفات الجماعة إلا مجرد مظهرها وشكلها، فلا يملكون من أمرهم شيئاً، ولا ينصر بعضهم بعضاً، وليس فيهم آمرٌ ولا مأمورٌ على الحقيقة، بل الأمر كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

ومما يؤكد هذا المعنى، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧].

فإنَّ «كل أمَّة تُعرَضُ على الله بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً، أمَّة بعد أمَّة»[(١)].

ولا أدلّ على انحلال روابط الأمَّة ككيان يمارس دوره الجماعي من أنه لا يدخل معهم النار إلا من كان على مثل ما هم عليه، أمَّا من هلكَ معهم في الدنيا ولم يكن على طريقتهم، فإنَّه يبعث على نيته، كما سبق ذلك في الحديث، وهذا بخلاف عقوبات الدنيا التي تعم الصالح والطَّالح، كما سبق أيضاً بيانه في الفرق الأول.

فإذا عرفت ذلك، وتبيَّن لك الفرق بين الأمَّة ذات الكيان، القادرة على ممارسة خصائص الأمة في الدنيا، وبين الأمَّة في شكلها وصورتها مسلوبة الخصائص والإمكانات في الآخرة. فاعلم أنّي عنيتُ أن الذي ينتهي في الدنيا هو(الأمة) بالمعنى الأول دون الثاني. وأنَّ جزاء(الأمَّة) بالمعنى الثاني أدخل في معنى الجزاء الفردي على الأعمال منه في معنى الجزاء الجماعي، وإن حصل بصورة جماعية.

أو يُقال: إنَّه جزاء جماعي، مختلف تماماً عن الجزاء الإلهي الجماعي بصورته التي تكون في الدنيا. ولا مشاحة في التسمية إذا ما لاحظنا تلك الفروق والملابسات، والله أعلم.

واعلم أنَّهُ لا يمكن لأحد ـ كائناً من كان ـ أن يفلت من ذلك الجزاء في الآخرة أو يمتنع منه؛ إذ هو غاية الغايات لكل عمل، وآخر المشوار في رحلة الإنسان.

فثبت أن الجزاء على أنواع:

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٤١٩).

منه ما يقع في الدنيا دون الآخرة ، وهو جزاء الأمم ، على التفصيل السابق .

ومنه ما قد يقع في الدنيا ، وقد لا يقع ، وهو جزاء الأفراد في الدنيا .

ومنه ما لا بد أن يقع في الآخرة ، وهو جزاء الأفراد ـ كل الأفراد ـ على أعمالهم التي عملوها في الدنيا[١] .

وإذا ثبت أنَّ هذه الفروق الثلاثة بين الفرد والأمة ، فروقٌ معتبرة ومؤثرة ، فإنَّ اختلاف السُّنن الإلهية ـ تبعاً لذلك ـ من أعظم مظاهر الحكمة الإلهية ، وبراهين العدل الربَّانِي ، فسبحان من هذا بعض شأنه في خلقه ، وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

* * *

(١) وسيأتي لهذه الفروق مزيد بيان في فصل: (خصائص سنن الله في الأمم) عند الحديث عن الخاصيتين الخامسة والسادسة ، إن شاء الله .

المبحث الرابع

أهمية دراسة سُنن الله في الأمم من خلال القرآن الكريم

السنن الإلهية في الحياة الإنسانية عموماً، وفي حياة الأمم خصوصاً، موضوع ضخمٌ في حجمه، بالغ الأهمية من حيث قيمته وخطره، فالسُّنن هي: النظام الإلهي لحياة البشر، ومعرفتها تعني: القدرة على تفسير التاريخ تفسيراً صحيحاً.

والأمّة التي لا تعرف هذه السُّنن، أو لا تعرفها معرفة صحيحة، أمة غير مأمونة العثار، تخبط خبط عشواء وتسعى إلى حتفها بظلفها، وغالباً ما تُوعظ بنفسها، وهي ـ وإن نجحت في بعض شؤونها ـ فهو نجاح مؤقت، يكتنفه الغرور والحيرة.

ومن هنا كانت محاولات البشر للتعرف على هذا النظام قديمة، وكل أمة تحاول فهم هذا النظام، وتفسير حركة التاريخ من وجهة نظرها، المنبثقة من تراثها الفكري والعقائدي، ومن تصورها للحياة، ولما بعد الحياة، المتمشية مع حاجاتها ومتطلباتها؛ أي من مكوناتها الحضارية وطموحاتها[(١)].

وكان كل ما نُقِلَ عن أمم الحضارات الجاهلية القديمة في هذا الجانب(نظرات متفرِّقة) لا ترقى إلى مستوى(النظرية المتكاملة) [(٢)].

«فلما ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي(٦١٠م)، وتكامل نزول القرآن بعد ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً من هذا التاريخ، وجد الباحثون النطاسيون[(٣)] في القرآن إطاراً متكاملاً لتفسير التاريخ، وهو إطارٌ متكاملٌ في تفسيره للتاريخ؛ يتناول الواقعة التاريخية تناولاً تحليلياً، ويتناول الحضارة تناولاً تركيبياً، ويقدّم من خلال منهجي التحليل والتركيب ـ في أروع تكاملهما ـ تفسيراً للعملية الحضارية في سائر مراحلها:

فهناك إطارٌ لعوامل نشأة الحضارة. وهناك إطارٌ لعوامل ازدهارها وبقائها. وهناك إطارٌ لعوامل انهيارها.

---

(١) انظر: تفسير التاريخ علم إسلامي، د. عبد الحليم عويس، ص ٥١ وما بعدها.
(٢) انظر: تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١٠٣. وانظر: كلمة في تعليل التاريخ، لعمر فروخ، ص ٥ وما بعدها.
(٣) الحذاق العالمون بالأمور. انظر: اللسان، مادة (نطس).

وهناك مؤشرات ومعالم لعوامل النهوض والاستئناف للمسيرة الحضارية بعد كل عملية انحدار»[١].

كما أنه ـ أعني القرآن ـ إضافة إلى اشتماله على الإطار المتكامل لتفسير التاريخ، إضافة إلى ذلك، يتميَّز بأن غايته من عرض السنن وتعليل الأحداث، تهذيب البشر وتربيتهم وتزكية نفوسهم، وإبراز دور الإنسان وتأثيره الضخم في صناعة الأحداث وسيرها[٢].

وحتى نتبيَّن أهمية هذه الدراسة لسنن الله في الأمم من خلال القرآن الكريم ـ بصورتها الموضوعية المتكاملة ـ فإنَّ علينا أن نعرف أوجه النقص والقصور في الدراسات الأُخَر. وحتى نصل إلى ذلك، سأحاول ـ بصورة مختصرة ـ الإجابة على التساؤلات التالية:

* إلى أي حد كانت صلة العلماء من المفسرين والمؤرخين وغيرهم بهذا الإطار القرآني المتكامل لتفسير التاريخ في كتاباتهم، وتفسيرهم للنصوص، ومعالجتهم لأدواء الأمَّة؟
* ومتى أصبحت دراسة السنن علماً قائماً برأسه، ذا حدود ومعالم، وصنفت فيه المصنفات، وقامت حوله الدراسات؟
* وما مدى صلته في طوره الأخير بهذا الإطار القرآني المتكامل؟

فأقول مستعيناً بالله:

إنَّه على الرغم من وجود هذه المنظومة المتكاملة للسنن، وهذا الإطار المتكامل لتفسير التاريخ في القرآن الكريم، فقد كانت عناية العلماء بهذا العلم أقل بكثير من عنايتهم بأنواع العلوم الأُخَر؛ الشرعية واللغوية، المستمدة من القرآن الكريم[٣].

ولا أشُكّ أنهم ـ رحمهم الله ـ لم يتركوا هذا الجانب الحيوي من كتاب الله تعالى دون بيان شافٍ غفلة منهم أو إغفالاً[٤] ـ وما هم بمعصومين ـ ولكن كيف يدعونه وهم الذين تفنَّنوا في استنباط العلوم، وأوسعوها دراسة وبحثاً، أصبح كل من جاء بعدهم عيالاً

---

(١) تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١٠٣.

(٢) انظر: كلمة في تعليل التاريخ، لعمر فروخ، ص ٩.

(٣) انظر: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩، وتفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١٠٤.

(٤) قال ابن خلدون في هذا المعنى معتذراً عن الأوائل عموماً: «ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة، ما أدري ألغفلتهم عن ذلك ـ وليس الظن بهم ـ أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه، ولم يصل إلينا). انظر: تاريخ ابن خلدون (٣٢/١٢).

عليهم، إلا في القليل منها، وكيف يغفلونه عمداً وقد فنيت أعمارهم فيما دونه من العلوم؟!

والحقّ أنهم لم يغفلوا علم السنن وتفسير التاريخ بإطلاق، كما يظن ذلك من يظنه فيهم، بل بيّنوه بما يتناسب والظروف التاريخية المحيطة بهم والأساليب والمناهج العلمية المتبعة في زمانهم، وكان بيانهم له بطريقين: علمي، وعملي.

أمّا الْعَمَلِيّ:

فقد كان المسلمون إبان ظهور الإسلام، أمّة قد خلقت خلقاً جديداً؛ أمّة انبثقت من خلال نصوص الكتاب، بقيادة الرسول ﷺ، وكان الدّين الذي يحملونه «قوة عقدية حضارية جاءت تغير العالم وتبنيه من جديد، فلم يكن لدى المسلمين الوقت لكي يفسّروا العالم، لقد كانوا مشغولين بأخطر عملية في التاريخ، كانوا يجاهدون في سبيل تغيير العالم، دون أن يتكلّموا كثيراً في القضايا التنظيرية»[(١)] ... يغيّرون العالم، منطلقين من أقوى إحساس تاريخي، ومسؤولية حضارية يمكن أن تتشبع بها أمة من الأمم. والجندي المسلم يحسّ بأنه رسول حضارة جديدة، ويترجم حقيقة هذه الحضارة في كلمات وجيزة بليغة في موقف تاريخي وليس من فوق برج عاجي....

«إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[(٢)].

وهذا البيان العملي، أكبر دليل على أنهم استوعبوا السنن الإلهية التي تعلّموها من كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، وهو بيان لا يصح أن يُستهَان به، أو أن يفصل من عملية تفسير التاريخ؛ إذ هو تجربة واقعية ناجحة، وعلى ضوء هذه التجربة يمكن فهم بيانهم العلمي؛ وهو(الطريق الثاني) ووضعه موضعه الطبيعي.

الطريق الثاني: البيان الْعِلْمِيّ:

وفيما يتعلّق بالطريق العلمي، فإنَّ أهل العلم من المفسرين وغيرهم فيما مضى، قد بيّنوا السنن وتكلّموا فيها بقدر ما كانوا يرون الحاجة ماسّة إليه، وبالأسلوب الذي كانت تتناول به الدراسات الإنسانية التنظيرية آنذاك، وكانوا يلفتون الأنظار إلى السنن المبثوثة في القرآن في كثير من المناسبات.

---

(١) انظر: في الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (١/ ٥٩٠، ٥٩١)، من بحث بعنوان: (ماهية الحضارة وموقع الحضارة الإسلامية)، للشيخ عثمان عبد القادر صافي. وانظر: كلمة في تعليل التاريخ، لعمر فروخ، ص ١٠.

(٢) تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١٠٦ بتصرف. وقائل هذه الكلمات: ربعي بن عامر، في مواجهة رستم قائد الفرس.

ومن يطالع كتب التفسير، بدءاً بتفسير ابن جرير[(١)] فمن بعده كتفسير ابن عطية[(٢)] والبغوي[(٣)] وابن كثير[(٤)] وغيرهم، يقف من ذلك على الكثير والكثير من الإشارات والتنبيهات[(٥)].

صحيح أنهم لم يتوسَّعوا في الكلام على السُّنن، ويعالجوا الواقع من خلالها، كما فعل بعض المتأخرين، وصحيح أنهم لم يفردوا بحثها في كتب خاصة، كما فعلوا ذلك في بقية العلوم.

وعذرهم في ذلك: طبيعة العصر، ومدى الحاجة إلى التوفر على مثل هذا اللون من الدراسات[(٦)]. عذرهم أنّهم كانوا يعيشون في ظل أمّة غالبة قاهرة قروناً من الزمان، فاشتغلوا بتفاصيل الأحكام ودقائق العلاقات، ولم تنحرف المسيرة التاريخية بهم بصورة واضحة كما هي الحال في القرون المتأخِّرة. ومثل تلك الأجواء لا تستثير النفوس والعقول عادة للعكوف على دراسة السنن على النمط الذي ننشده اليوم.

ولا أدلّ على ذلك من أنّه لما تفاقمت الخطوب، وانتُقِصت أرض الإسلام من أطرافها، وضؤلَ الإبداع وفشا التعصب والجمود، ظهرت كتابات مختلفة؛ تاريخية وغير تاريخية، ألقت الأضواء على جوانب مأساة الأمّة، في المشرق الإسلامي وفي المغرب على حدٍّ سواء.

وهي تؤلف في مجموعها تياراً غير منظور في هذا الاتجاه، إلا للمتأمِّل الفطن، فالموسوعات التاريخية فيها إشارات قويَّة إلى أهمية التاريخ، وأوجه الاعتبار به. ومن يطالع مقدمات أسفارهم، ويقتنص من بطون كتبهم فرائد إشاراتهم، يجد معالم تفسير التاريخ غير خافية[(٧)]. ولنأخذ أمثلة على ذلك:

---

(١) محمد بن جرير الطبري، إمام المفسِّرين والمؤرخين. توفي سنة (٣١٠هـ).

(٢) القاضي الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب الغرناطي، فقيه وإمام في اللغة والتفسير، وكتابه (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) من التفاسير الجامعة بحق بين المنقول والمعقول، ولي قضاء المرية، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين. توفي سنة (٥٤٦هـ). انظر: المعجم، لابن الأبار، ص ٢٦٩، بغية الملتمس، ص ٣٨٩.

(٣) شيخ الإسلام، محيي السُّنة، أبو محمد، الحسين بن مسعود، صاحب السفر العظيم (شرح السُّنة)، ومصنف (معالم التنزيل) في تفسير القرآن، توفي بمرو الروذ سنة (٥١٦هـ). انظر: البداية والنهاية (١٢/١٩٣)، وله ترجمة مطولة في: شرح السنة (١/١٩) بقلم المحقق.

(٤) الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير، القرشي، الدمشقي، أحد تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية المبرزين، فقيه محدِّث ومفسِّر مؤرخ، اشتهرت تصانيفه في حياته وبعد مماته، وكتاباه في التفسير والتاريخ شاهدان بإمامته وعلوّ كعبه. كانت وفاته في دمشق سنة (٧٧٤هـ). انظر: طبقات المفسرين، للداودي (١/١١١)، والبدر الطالع (١/١٥٣).

(٥) وسيمرّ بك في ثنايا البحث، نقول ونصوص عن طائفة منهم، في كثير من المواضع.

(٦) انظر: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩.

(٧) انظر: تاريخ ابن خلدون (١/٣٣).

من المؤرخين ـ مثلاً ـ المسعودي[(١)] .

«ونستطيع أن ندرك اهتمام المسعودي بتفسير التاريخ، فيما ذكره في مقدمة كتابه «التنبيه والإشراف» تعقيباً على كتبه التي لم تصل إلينا، فقد ذكر أنَّه تناول فيها الأخبار عن بدء العالم والخلق، وتفرقهم في الأرض والممالك والبر والبحر، والقرون البائدة والأمم الخالية . . . والأنبياء وذكر قصصهم، وسير الملوك وسياساتهم، ومساكن الأمم، وتباينها في عاداتها واختلافها في آرائها . . . وما قاله حكماء الأمم في كيفية شبابها وهرمها، وعلل جميع ذلك . . . وعلَّة طول الأعمار، وآداب الرياسة وضروب أقسام السياسة الدينية، ولأي علَّة لا بد للمُلك من دين، كما لا بد للدِّين من مُلك، ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، ولِمَ وجب ذلك وما سببه؟ وكيف تدخل الآفات على الملك، وتزول الدول وتبيد الشرائع والْملل؟ والآفات التي تحدث في نفس الملك والدِّين، والآفات الخارجة المعترضة لذلك، وتحصين الدِّين والملك، وكيف يعالج كل واحد منهما بصاحبه إذا اعتلَّ من نفسه»[(٢)] .

ومنهم: ابن الجوزي[(٣)] في كتابه «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»، يقول في مقدمته مشيراً إلى أهمية علم التاريخ وفائدته: «إنَّ للسير والتاريخ فوائد كثيرة، أهمها: فائدتان:

إحداهما: أنَّه إذا ذكرت سيرة حازم، ووصف عاقبة حاله، أفادت حُسْن التدبير، واستعمال الحزم، وإن ذكرت سيرة مفرط ووصفت عاقبته، أفادت الخوف من التفريط . فيتأدَّب المتسلِّط، ويعتبر الْمُتَذكِّر، ويتضمن ذلك شحذ صوارم العقول، ويكون روضة للمتنزه في المنقول .

والثانية: أن يطلع بذلك على عجائب الأمور، وتقلُّبات الزمان، وتصاريف القدر . . .»[(٤)] .

---

(١) هو: أبو الحسين علي بن الحسين، يتصل نسبه بعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، من أهل بغداد، له مصنفات في التاريخ، من أشهرها: كتابه (مروج الذهب)، وكان معتزلياً. توفي سنة (٣٤٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٥/ ٥٦٩)، والأعلام (٤/ ٢٧٧).

(٢) تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١١٣، وانظر: التنبيه والإشراف، للمسعودي، ص ١ ـ ٣.

(٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحنبلي، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، صاحب التفسير والتاريخ، الواعظ المشهور، ولد وتوفي ببغداد سنة (٥٩٧هـ). انظر ترجمته مطولة في: وفيات الأعيان (٣/ ١٤٠)، والبداية والنهاية (١٣/ ٢٨)، والأعلام (٣/ ٣١٦).

(٤) تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١١٨.

ويشير العماد الأصبهاني[(١)] في كتابه المعروف «الفتح القسي في الفتح القدسي» إلى فائدة التاريخ، فيقول: «ولولا التاريخ، لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة، وتعذر الاعتبار بمسالمة الأيام وعقوبتها، وجُهِلَ ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها، وما وراء سهولتها من صعوبتها»[(٢)].

وفي المغرب طلعت شمس ابن خلدون[(٣)] في مقدمته الشهيرة في علم الاجتماع، وأحوال العمران، وتفسير التاريخ، وهو بحق يُعَدّ رائد هذا العلم، وإمام أئمته، وصاحب النظرية الشمولية والرؤية الأكثر تكاملاً في هذا الباب[(٤)].

وقد بنى ابن خلدون تعليله للتاريخ، وكيفية تفسيره «على أساسين:

الأول: استقراء القوانين المسيطرة على سير التاريخ، من حوادث التاريخ نفسها.

والثاني: الإلمام بأكبر عدد ممكن من العوامل التي يجوز أن تؤثر في تطوُّر المجتمع؛ لأنَّ أحداث التاريخ ترجع ـ عادة ـ إلى أسباب متنوعة متشابكة، يكون لها نتائج كثيرة مختلفة، فدرس التاريخ إذن، محتاج إلى الإلمام بتلك العوامل كلها...»[(٥)].

تلك مجرد إشارات في الجانب التاريخي، واستطلاع خاطف لآراء بعض المؤرخين.

وفي الصفحات التالية نستكمل المشوار، ونقف مع بعض الدراسات المحدثة في هذا الجانب، وهي أشبه بدراسات متخصصة في باب تفسير التاريخ، ودراسة السنن والقوانين الإلهية التي تحكم البشر، وتنظم شؤونهم في هذه الحياة.

ونحن إذا تجاوزنا مواقف المؤرخين وآراءهم، فإنَّ هناك من غير المؤرخين؛ أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية ، الذي ضمَّت فتاواه وكتاباته نظرات رائعة وتنبيهات نفيسة، في

---

(١) هو: محمد بن محمد صفي الدين، أبو عبد الله، عماد الدين الكاتب الأصبهاني، فقيه مؤرخ عالم بالأدب، اتصل بالوزير ابن هبيرة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط، ورحل إلى دمشق فتولى ديوان الإنشاء عند نور الدين، ثم لحق بصلاح الدين من بعده. ثم لزم مدرسته المعروفة بالعمادية بدمشق، وتوفي بها سنة (٥٩٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٤٥)، والأعلام (٧/ ٢٦).

(٢) تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١١٩. وانظر: الفتح القسي (١/ ٤٤).

(٣) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الحضرمي، الإشبيلي. اشتهر بكتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر)، ومقدمته التي تعد من أصول علم الاجتماع، توفي بالقاهرة فجأة، سنة (٨٠٨هـ). انظر: الأعلام (٣/ ٣٣٠).

(٤) انظر: ابن خلدون إسلامياً، د. عماد الدين خليل، وكلمة في تعليل التاريخ لعمر فروخ، ص ١١. وتفسير التاريخ علم إسلامي، لعبد الحليم عويس، ص ١٤٠. وقد عرض هذا الأخير لطائفة من المؤرخين، ولَخَّصَ آراءهم في تفسير التاريخ وثمرة دراسته.

(٥) كلمة في تعليل التاريخ، لعمر فروخ، ص ١٢.

مجال السنن الإلهية، وتفسير التاريخ[١].

ويُعَدُّ في طليعة من أبرز السنن الإلهية من خلال النصوص، ووظَّفها لمداواة أدواء الأمَّة.

بل نستطيع أن نلمح جانب العبرة من التاريخ والإفادة من المواقف والأحداث حتى في بعض التجارب الشخصية لمن عاصر تحول الأحوال، أو أصابته النوائب في شخصه أو أهله أو موطنه وبني دينه وقومه.. فانبعثت همته على تسطير ما حدث، وربطه بما سبقه وما حوله، وتوجيه الأنظار للاعتبار به.. وهذا وإن كان عاماً في المسلمين وغيرهم، إلا أن المسلمين ينفردون ـ في الجملة ـ عن غيرهم برؤية خاصة، وتعليل للأحداث متميز.

ومن أمثلة ذلك: ما سطَّره الشاعر الأمير أسامة بن منقذ بعد إصابة أسرته وآله بالزلزال في قلعة (شيزر) في كتاب (الاعتبار، والمنازل والديار)، وما حبره الشاعر أبو البقاء الرندي في نونيته التي رثى بها الأندلس وأهلها وما حلَّ بها.

كما نجد مادة وفيرة في هذا الجانب في الموسوعات الجامعة للحكم والأمثال ونوادر الأشعار في مختلف شئون الحياة، ومنها مثلاً: كتاب (الأدب الصغير) لابن المقفع، و(الأخلاق والسير في مداواة النفوس) لابن حزم، و(أدب الدنيا والدين) للماوردي، و(عيون الأخبار) لابن قتيبة، و(بهجة المجالس، وأنس المجالس) لابن عبد البر القرطبي، و(لباب الآداب) لابن منقذ... وغيرها. فإنَّ فيها من النصوص والحكم والدلائل ما لو جمع وهذب ورتب لكان شيئاً عظيماً، خاصة فيما يتعلَّق بما نحن بصدده وهو موضوع سنن الله في الأمم.

ثم تتابعت بعد ذلك الدراسات في هذا الميدان، عند المسلمين وغير المسلمين، ولكن بأزمنة متفاوتة.

فقد «تيقَّظ الأوربيون منذ بداية عصر النهضة[٢]، وبدأوا بالنظر إلى التاريخ نظرة

---

(١) وقد مرَّ بك رأيه في مسألة: واطراد السنن الإلهية المتعلقة بدينه وشرعه، وستقف على شيء من آرائه في ثنايا البحث، بإذن الله تعالى.

(٢) المقصود بها: النهضة الأوربية، التي توجت بالثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر، وهو توقيت صحيح بالنسبة للأوربيين. وبالمناسبة أقول: لقد درج على ألسنة الكتّاب والمتحدثين في العالم الإسلامي، إطلاق عصر النهضة على يقظة العالم الإسلامي، ويؤرخون لبدايته بحكم محمد علي لمصر وبالحملة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. وربط نهضة العالم الإسلامي بهذين الحدثين فيه نظر من الناحية التاريخية والدلالية ـ وليس هذا مجال تحقيق ذلك ـ ويكفي أن تعلم أنَّ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحركته الجهادية كانت سابقة لذلك كله، ومع ذلك قلَّ من يؤرخ للنهضة بها أو يذكرها كسبب رئيس من أسبابها. نعم، إن كانوا يقصدون بالنهضة، تلك التي يممت وجهها =

أقرب إلى الشمولية والتكاملية»[١].

وتأخَّر بحث تفسير التاريخ ودراسة السنن الإلهية في حياة الأمم على مستوى العالم الإسلامي ـ بعد ابن خلدون ـ إلى وقت قريب، بعد أن صبغه الغربيون بلوثاتهم الجاهلية، فحسب أكثر الناس ـ لجهلهم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وبتراث سلفهم ـ أنَّ تفسير التاريخ علم غربي المولد والنَّشْأة.

لقد تأخَّر ككل شيء في العالم الإسلامي المعاصر، ولكنه بدأ، وشاعت كلمة السُّنن. وكثر الحديث عن هذا الجانب، وعن ضرورة إحيائه، ومعالجة واقع الأمَّة المرير على ضوئه. وتكلَّم فيه مفكِّرون ومفسِّرون.

وكان الحديث في أول الأمر أشبه بحديث المناسبات، وكانت الكتابة فيه عبارة عن مقالات في الصحف والمجلات.

وتُعَدّ «مجلة المنار» التي أصدرها الشيخ رشيد رضا، خير ما يمثل هذا الاتجاه.

ثم تحوَّل إلى فكرة مسيطرة، ونذر رجال أنفسهم لشرحها، فكانت جلّ كتاباتهم وأحاديثهم تدور حول محورها.

وممن تميز بذلك: الكاتب والمفكر الإسلامي «مالك بن نبي»[٢]، الذي يُعَدّ مدرسة في هذا الاتجاه[٣].

ثم خَطَتْ الدراسات نحو الأمام أكثر فأكثر، فأصبحت ترى كتباً ودراسات تخصصية في(تفسير التاريخ) وفي(دراسة السُّنن) من منظور إسلامي[٤].

منها على سبيل المثال: «تفسير التاريخ» لعبد الحميد صديقي، و«التفسير الإسلامي للتاريخ» للدكتور عماد الدين خليل، و«تفسير التاريخ علم إسلامي»، و«الصفحات

= جهة الغرب، أو كما قال أحدهم: النهضة التي أشرقت غرباً. فيكفي برهاناً على فساد هذه النهضة، أن يكون محمد علي والحملة الفرنسية روَّادها وقادتها.

(١) تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١٣٩. وقوله: «أقرب إلى الشمولية والتكاملية»، أي في مقابل النظرات الجزئية، بغض النظر عن الصواب والخطأ في النتائج. وانظر تفصيل مناهجهم باختصار في تعليل التاريخ في: كلمة في تعليل التاريخ، ص ٢١ وما بعدها، وبتوسع في: فكرة التاريخ، ر. ج. كولنجوود، ترجمة: محمد بكير خليل.

(٢) من مواليد قسنطينة في الجزائر، تخرَّج مهندساً كهربائياً من باريس، واتجه نحو تحليل الأحداث التي كانت تحيط بالعالم الإسلامي عموماً والمغرب العربي خصوصاً، كان يرى أن مشكلة العالم المتخلف مشكلة حضارية أولاً وقبل كل شيء. ولهذا وضع كتبه كلها تحت عنوان (مشكلات الحضارة)، كان كاتباً متميزاً، يكتب باللغتين العربية والفرنسية. توفي سنة (١٣٩٣هـ). انظر في ترجمته: الأعلام (٥/ ٢٦٦)، وله ترجمة موجزة على غلاف العديد من كتبه المطبوعة.

(٣) وتستطيع أن تلحظ هذا الاتجاه فور قراءتك لأي من كتبه، بل إن عناوين كتبه شاهدة بذلك.

(٤) على ما بينها من تفاوت، وما قد يكون في بعضها من ملحوظات. وليس المقام هنا مقام دراسة وتقويم لها.

الأخيرة من حضارتنا»، كلاهما للدكتور عبد الحليم عويس، و«النظام الإلهي للرقي، والانحطاط» لمحمد تقي أميني، و«أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين» لعبد الله التليدي، وغيرها.

وأصبحت ترى من بين هذه الكتب دراسات في تفسير التاريخ واستقراء السنن الربانية، تستند في رؤيتها واستنباطها على نصوص القرآن بصورة شبه كلية.

وهذه مرحلة متقدمة في التعامل مع كتاب الله فيما يتعلق بتفسير التاريخ واستقراء السنن الإلهية من خلاله. وإلى جانب هذه الدراسات التاريخية المستقلة، كانت هناك كتب التفسير التي برزت فيها العناية بقضايا الأمّة المعاصرة، وكان تخلف الأمّة الحضاري، ومحاولة بعثها من جديد هما ملازما وقضية حيَّة في أذهان هؤلاء المفسرين، وهم يكتبون تفاسيرهم.

ولا شك أنَّ قدراً من هذا الْهَمِّ يكاد يكون عاماً في تفاسير المعاصرين، إلا أن تميز بعضهم بوضوح الفكرة في ذهنه، وشدَّة الاهتمام بهذا الجانب، أمرٌ ظاهرٌ بيِّنٌ، وشيءٌ مشهورٌ مشهودٌ.

وعلى رأس هذه التفاسير، وفي مقدمتها: «تفسير المنار» لرشيد رضا، و«في ظلال القرآن» لسيد قطب، و«تفسير التحرير والتنوير» للطاهر ابن عاشور[(١)].

وبهذا الاستعراض الخاطف، والعرض التاريخي المقارب للجهود المبذولة، والظروف والملابسات التي اكتنفت دراسة السنن، يتبيَّن لنا بجلاء: أنَّ مصطلح «تفسير التاريخ»، أو «فلسفة التاريخ»، و«دراسة السنن» التي هي النظام الإلهي لحياة الأمم، بالنظر إليه علماً قائماً برأسه، ومصطلحاً له حدوده وأبعاده، أنَّ هذا شيء «حديث النشأة، شأنه شأن كثير من المصطلحات التي تكون مضامينها موجودة ومبعثرة في الفكر الإنساني، ومختلطة بغيرها من المفاهيم، دون أن تحمل اسماً خاصاً مستقلاً.

ولا يعني عدم استقلال أي مصطلح أو مفهوم من هذه المصطلحات أو المفاهيم، أنَّها لم تكن موجودة في الوعي الإنساني. فكل ما هنالك أنَّها لم تكن قادرة على الوقوف مستقلة؛ لأنَّ أركانها ـ كعلم ـ لم تكن قد اكتملت بعد»[(٢)].

---

(١) أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند ابن عاشور في كتابه التحرير والتنوير، وهي رسالة دكتوراة للباحث مشرف بن أحمد بن جمعان، في جامعة أم القرى.

(٢) تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ٤٧ بتصرف يسير.

وها هنا أُعِيدُ إلى الأذهان سؤالاً سابقاً، وهو: ما مدى الارتباط بين تلك الجهود المبذولة من المتقدمين والمتأخرين في مجالي تفسير التاريخ، ودراسة السنن التي يقوم عليها نظام الحياة؟ ما مدى الارتباط بينها وبين كتاب الله تعالى؟ وإلى أي حدٍّ يمكن القول: إنَّ هذه النظرات والنظريات والفهوم مبنيَّةٌ على أساس من نصوص الوحي؟

وباختصار أقول: إنَّ تلكَ الجهود المبذولة على مستوى العالم الإسلامي، يجمعها أنها كتبت ـ في جملتها ـ بروح إسلامية، ومن منظورٍ إسلاميٍّ.

يشهد لذلك ويؤكده، تفسيرهم لأهم الظواهر التاريخية، كأسباب هلاك الأمم، والتأكيد على حُسْن عاقبة الرُّسل وأتباعهم، وابتلاء المؤمنين، والإمهال للكافرين، ونحوها من الأحداث التي تشكل أهم مظاهر حركة التاريخ.. إنهم يستندون إلى نصوص الوحي صراحة، أو تضمين وتبني رؤيته وتفسيره لها. وتلك حقيقة يشهد بها كل منصف طالب للحق.

لكنها عند التأمّل لا تخرج عن إحدى صور ثلاث:

* فهي إمَّا نظرات وإشارات في كتب التاريخ، فهي متفرقة بحسب الحوادث لا يجمعها نظام ولا تشكل منظومة واحدة، كما أنها ليست منبثقة من النصوص مباشرة.

* وإمَّا إشارات وتنبيهات في كتب التفسير، وتلك ـ وإن انبثقت من النصوص مباشرة ـ ففيها ما في سابقتها من إشكالية التفرق؛ لارتباطها بمناسبة تفسير الآيات أكثر من ارتباطها بدراسة السنن دراسة موضوعية.

* وقد تكون دراسات وبحوثاً مستقلة في دراسة السُّنن وتفسير التاريخ، وهذه ـ على جودة الكثير منها ـ لم يبلغ اعتمادها على النصوص واستمدادها منها الحد المأمول، وإنَّما كانت النصوص تشكل مرجعية ورافداً لها.

فأنْتَ ترى أن في كل منها جانباً يكمل نقص صاحبيه، والمطلوب جمع حسنات هذه الصور الثلاث.

وقد تنبَّه بعض الباحثين إلى ضرورة هذا التكامل في دراسة السنن، بحيث تكون منبثقة من النصوص، معتمدة عليها، جاعلة من مادة التاريخ وأحداثه ميداناً لتطبيقها، وأنْ تُصَاغَ صياغةً موضوعيةً مستقلة، آخذاً بعضها برقاب بعض.

ويعد الدكتور عماد الدين خليل في كتابه «التفسير الإسلامي للتاريخ» ـ من وجهة نظري[١] ـ من روّاد هذا المنهج التكاملي في دراسة السنن، من الناحيتين: النظرية، والتطبيقية على حوادث التاريخ؛ وذلك لأمور، منها:

ـ تأكيده الشديد على أن القرآن مشتملٌ على أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب، إلى محاولة استخلاص القوانين التي حكمت وتحكم الظواهر الاجتماعية ـ على امتداد التاريخ ـ وهذا يتمثّل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء وتواريخ الجماعات والأمم السابقة، وعلى وجود(سنن) و(نواميس) تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها وانتقالها من حال إلى حال[٢].

ويقول: «إنَّ الرؤية التاريخية ترتبط بالقرآن الكريم ارتباطاً وثيقاً... أي سورة قرأت... أي صفحة شاهدت، طالعتك هذه العروض والإشارات المسهبة أو الموجزة، إلى مواقف تاريخية، لا ريب أنها تشكل بمجموعها نسقاً رائعاً ومتكاملاً للتفسير الإسلامي للتاريخ»[٣].

وانتقدَ من أغفل هذا المنهج الواضح في القرآن من الباحثين، ونبّه إلى «أنَّ ابن خلدون هو أول من مارس هذا(المنهج)، وأنّه لا توجد قبله أية محاولة في هذا السبيل»[٤].

كما انتقد ابن خلدون نفسه حيث «وقع في الخطأ ذاته عندما أكّد في مقدمته أنه لم يعثر على أية محاولة في هذا المجال. وكان أحرى به أن يبيِّن ما يتضمنه القرآن من إشارات تدلُّ على الطريق»[٥]، وقال: إنَّ «ابن خلدون غير ملم تماماً بالمنهج القرآني في تفسير الواقعة التاريخية، وأنَّ رؤيته الدينية لا تمثل انعكاساً كاملاً وأميناً للمعطيات القرآنية؛ لأنّه لم تكن قد تواجدت بعد تفاسير شمولية للقرآن الكريم تتيح للباحثين الاستمداد

(١) وانظر: تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ٥.
(٢) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٨، ٩.
(٣) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٧.
(٤) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩. وقد أشار ابن خلدون في تاريخه (١/ ٣١، ٣٢) إلى أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة، وكأنه علم مستنبط النشأة، ولعل مقصوده: أن التنظير لهذا العلم والتصنيف فيه من جهة العلماء شيء حادث.
(٥) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩.

الأكثر موضوعية وامتداداً من كتاب الله . . . وإن كان ـ من جهة أخرى ـ على إلمام تام بمعطيات كتاب الله تعالى في حقل التاريخ والاجتماع . . .»[١] .

ـ محاولته تطبيق هذا المنهج عملياً من خلال النصوص مباشرة .

يقول: «لقد أدركتُ من خلال تدريسي مادة «مناهج البحث وفلسفة التاريخ» مدى ضرورة عرض التفسير الإسلامي للتاريخ في بحث موسع شامل ، يستمد رؤيته من كتاب الله مباشرة ، ويتجاوز ـ كليَّة ـ معطيات الفلاسفة والمفكرين القدماء والمحدثين الذين تأرجح كثير منهم بين تهاويل الخيال القصصي الإسرائيلي ، وبين أطروحات الفلسفة اليونانية ذات التصور الوثني ، وبين النزعات العقلية والطبيعية التي سادت القرنين الأخيرين ، ولقد قادهم هذا التأرجح والجنوح إلى مواقع ما تلبث أن تتفكك ويبدو زيفها واصطناعها الكيفي بمجرد عرضها على المعطيات القرآنية مباشرة .

وما دام الأمر يستهدف عرض وتحليل الموقف الإسلامي من حركة التاريخ ، فإنَّ لنا ، إذا ما توخَّيْنا الدِّقة والموضوعية ، ألا نرجع إلا إلى مصدره الأول والأخير: القرآن . وهكذا وجدتني ملزماً أن أقف ، بالصرامة التي يتطلبها منهج البحث العلمي ، عند معطيات هذا المصدر اليقيني الثابت منذ أول خطوة في البحث ، وحتى آخر كلمة فيه . . .»[٢] .

ثم ابتدأ ذلك عملياً باستعراض منهج القرآن في عرض الواقعة التاريخية ، وثنَّى بالحديث عن نشوء وتطور الأمم ، ويسميها: المسألة الحضارية .

وأخيراً بموقف القرآن ونظرته إلى مسألة سقوط الدول والحضارات ، كل ذلك من خلال النصوص القرآنية مباشرة ، فهو يجعل النصوص أصلاً وأساساً ، ويحاكم إليها كل الظواهر التاريخية[٣] .

ـ كما يُعَدُّ الأستاذ محمد قطب في كتابه «حول التفسير الإسلامي للتاريخ» من أولئك القلَّة الذين تنبهوا لهذا الأمر ـ تنظيراً وتطبيقاً ـ وإن كان أولى الناحية التنظيرية التصورية عناية خاصة . فقد عرض بوضوح لأهم القضايا التي يرتكز عليها التفسير الإسلامي للتاريخ ، وشفع ذلك بأمثال تطبيقية ، ومن ذلك:

---

(١) ابن خلدون إسلامياً ، ص ٨ ـ ١٢ بتصرف .
(٢) التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ١٧ .
(٣) انظر: التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ٩٥ إلى نهاية الكتاب ص ٣٢٥ .

ـ تأكيده الشديد على ضرورة الإيمان بوجود فرق هائل بين التفسير الإسلامي للتاريخ، وبين التفاسير الجاهلية له.. فرقٌ في كل شيء؛ في النظر إلى ماهية الإنسان وحقيقته، وفي علاقته بقدر الله وموقفه منه، وفي نظرته إلى السنن، وتقويمه لطبيعة الصراع الدائر بين البشر، وفي معيار الإنجاز البشري... فرق في كل شيء، تماماً كالفرق بين الجاهلية والإسلام.

وحينما دعا إلى ضرورة هذا الإيمان بوجود ذلك الفرق بين التفسيرين، التفسير الإسلامي، والتفاسير الجاهلية، لم يدع دعوة مجردة لا يملك الدليل عليها... كلا، بل بَيَّنَ وفصَّلَ، ووضع النقاط على الحروف، كلما دعت إلى ذلك البيان حاجةٌ[1]. وهنا تكمن قيمة هذا الكتاب.

ـ التأكيد على وجود منهج متكامل للسنن الربانية في كتاب الله تعالى، وعلى أهمية هذا المنهج وعرض نماذج من هذه السُّنن من خلال النصوص على طريقة القرآن.

ونحن أحوج ما نكون إلى إبراز هذه الحقيقة، والعمل على خلق قناعة عامة بها، خلق قناعة بأن القرآن لا يحوي مجرد إشارات، بل يشتمل على أصول المنهج وعلى تطبيقاته، ومن ثم طرح نماذج عملية تُحْتَذَى.

يقول مبيناً ذلك: «لا بد من دراسة مستوعبة للسنن الربانية، ولا بد من دراسة التاريخ من خلال تلك السنن، وإن المتدبّر لكتاب الله ولسُنَّة رسوله ﷺ، لَيَجِدُ عناية ملحوظة بإبراز تلك السُّنن، وتوجيه النظر إليها، واستخراج العبرة منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع السليم المستقيم على أمر الله، والسُّنن الواردة في كتاب الله وفي السُّنة المطهَّرة كثيرة متعددة، وإنَّما حسبنا هنا أنْ نشير إلى أهمية دراسة السُّنن وإبرازها في التفسير الإسلامي للتاريخ، مع إشارة سريعة إلى نماذج منها»[2].

وقبل أن يعرض لشيء من تلك السنن الربانية، قدم لها بمقدمة هامة، قال فيها: «إن من أول ما يلحظه الدارس لموضوع السنن في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أن هناك سنناً عامةً ـ وهي الأكثر عدداً والأوسع مساحة في التاريخ البشري ـ تشمل(الإنسان) مؤمنه وكافره.. وسنناً خاصة ـ وهي الأقل ـ تقع للمؤمنين وحدهم، أو للكافرين وحدهم،

---

(١) انظر على سبيل المثال: ص ١١ وما بعدها، ص ٢٧ وما بعدها، ص ٧١ وما بعدها، ص ١٢٥ وما بعدها، ص ١٦٤ وما بعدها، ص ١٩٤ وما بعدها.

(٢) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٨٦، ٨٧.

ولكنها رغم خصوصيتها سنن جارية؛ أي أنها تتكرر للمؤمنين ولا تقع للكفّار، أو تتكرر للكفار ولا تقع للمؤمنين»(١).

ثم ذكر أمثلة لذلك كله، وكان مما ذكر من هذه السُّنن: «إن الله أعطى عطاءه لجميع البشر مؤمنهم وكافرهم، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً»(٢).

ومنها: «بيان حال المؤمنين وحال الكفّار في الحياة الدنيا، وبيان مصيرهم في الآخرة، فهؤلاء وهؤلاء يمكنون، ولكن يختلف نوع الحياة بين هؤلاء وهؤلاء اختلافاً كبيراً رغم اشتراكهما الظاهري في التمكين؛ لأنَّ كلا منهما مُمَكَّنٌ لأسباب مختلفة عن الآخر».

المؤمنون ممكنون تمكين الرضا، والكافرون ممكنون تمكين الاستدراج.

ويختص المؤمنون ـ في تمكنهم ـ بصفتين لا تنالان الكفار أبداً:

البركة والطمأنينة(٣).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

ومنها: «تحقق التمكين للكفار وهم عصاة، وعدم تحققه للمؤمنين إلا وهم مستقيمون على الطريق»(٤).

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. وقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]... إلى آخر ما ذكر هنالك من السُّنن.

---

(١) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٨٦، ٨٧.
(٢) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٨٧.
(٣) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩٥.
(٤) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩٥.

ومن تلك الدراسات القيّمة في هذا المجال: كتاب «الصفحات الأخيرة من حضارتنا»، للدكتور عبد الحليم عويس.

والكتاب كله دراسة نقدية تقويمية لجوانب من التاريخ الإسلامي بمنهجية المسلم المستوعب للسنن الإلهية التي تحكم تصرفات البشر، وتخضع لها الأمم والدول، والمسلمون أولى من تنطبق عليهم تلك السنن وهذه القوانين.

ويبدأ الكاتب بحثه بالإشارة إلى أنَّ «المكتبة الإسلامية والتاريخية حافلة بالدراسات والقصص حول الصفحات الوضيئة من تاريخنا. وَلَكَمْ كَتَبَ الكاتبون حول صنَّاع الحضارة الإسلامية، ولَكَمْ أطنبوا في الحديث عن أبطالنا وعن فضلنا على أوربا.

ولقد ظهر تاريخنا من خلال هذا التركيز وكأنَّه تاريخ أسطوري، وكأنَّ الذين عاشوا وأسهموا في صنعه ملائكة وليسوا بشراً»[(١)].

ثم يستعرض النتائج الخطيرة التي تمخَّضت عن هذا (المنهج):

وأولاها: ترك مهمة التحليل العلمي لتاريخنا لأعداء هذا التاريخ، الذين راحوا يركزون على الجوانب السلبية منه.

وثانيها: ضياع الحقائق الموضوعية المتصلة بهذا التاريخ، وانقسام الناس بصدده إلى قسمين: قسمٌ يرفضه بالجملة، وآخر يراه كل شيء.

وثالثها: أنّ التركيز المتزايد على(المديح) صرفنا عن الاستفادة الحقيقية من تاريخنا، ودفع البعض إلى الاعتقاد بأن ما نعانيه في هذا القرن من مشاكل وتحديات نموذج لم يتكرر في تاريخنا، فقادهم إلى طريق اليأس المسدود.

ويبني الباحث منهجه ـ استناداً إلى الرغبة الجادة في تجاوز هذا الموقف ـ على تناول الصفحات الأخيرة في حضارتنا من خلال التركيز «على سقوط دول إسلامية، بعضها كان درساً أبدياً، حين كانت الأمراض خبيثة وفتّاكة، وحينما ذهبنا نطلب الدواء من عدوّنا، فكانت فرصته لإعطائنا السموم القاتلة...»[(٢)].

ويشير الباحث في نهاية مقدمته إلى أنّ «هذا البحث دعوة لتشريح تاريخنا من جديد.. وبجرأة، فلأن نشرحه نحن ـ بإنصاف ـ أَوْلَى من أن نتركه لأدْعياء المنهج العلمي

---

(١) الصفحات الأخيرة من حضارتنا، ص ٤.
(٢) الصفحات الأخيرة من حضارتنا، ص ٥.

يشرحونه بحقد وعنف وإجحاف»[١] .

وقد تنقل الباحث في المساحة الإسلامية الواسعة الأرجاء ، الممتدة في الزمان ، فعرض لخطوات السقوط الأخيرة عبر ساحات ثلاث: الساحة الأندلسية ، فالمشرقيَّة ، ثم المغربية .

يقف في كل ساحة منها عند تجاربها المؤلمة وأخطائها المدمِّرة وممارساتها الخاطئة التي قادت تجاربها السياسية إلى التدهور والسقوط [٢] .

وهذه الدراسات المتميزة وأمثالها هي خطوات على الطريق الصحيح نحو الغاية المنشودة ، ألا وهي العودة بالأمَّة الإسلامية إلى جادة الصواب على هدى من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، وقيادة البشرية بهذا المنهج ، وإظهار حجَّة الله على من أبى منهم .

* ومن المسلَّمات عندنا ـ نحن المسلمين ـ أو هكذا يجب أن تكون أن معرفة هذا النظام(السنن الإلهية) بصورة صحيحة هو الطريق الوحيد المأمون إلى:

- تفسير حركة الإنسان في التاريخ تفسيراً شمولياً صحيحاً .
- وتحديد موقع الإنسان في هذا الوجود ، وقيمته بين مكوناته .
- ورد كل حادثة وكل ظاهرة إلى سببها الطبيعي الشرعي .
- وإبراز حكمة الله من وراء خلق هذا الوجود ، وجديَّة الحياة ، وخلوّها من العبث[٣] .

- كما أنَّ من المسلمات عندنا ـ أيضاً: أنَّه لا سبيل إلى معرفة تلك السُّنن معرفة صحيحة إلاَّ من خلال القرآن ، الذي أنزله خالق الإنسان إلى هذا الإنسان لينظِّمَ به ومن خلاله حياته الدنيا ، وليسعد به في الدنيا والآخرة .

وأنه لا حجة لأحد في العدول عن القرآن إلى غيره ، وقد وفَّى القرآن هذا الجانب وكفى ، وأبلغ في البيان فشفى[٤] .

أوليس هو الذي أعلن عن وجود السُّنن التي تضبط الحياة والأحياء؟!

---

(١) الصفحات الأخيرة من حضارتنا ، ص ٨ .

(٢) وقد عرض لهذا الكتاب وحلل فصوله ولخص فوائده ، الدكتور/ عماد الدين خليل في: مجلة المسلم المعاصر ، عدد ٦ لسنة ١٣٩٦هـ . في ثلاث عشرة صفحة (١٢٣ ـ ١٣٦) . وهي أساس في هذه الإشارات .

(٣) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ١٠ وما بعدها ، ص ٥٥ ، ١١٦ . وتفسير التاريخ ، لصديقي ، ص ١٣١ .

(٤) انظر: مجلة (المسلم المعاصر) ، عدد (٧) ، لسنة (١٣٩٦هـ) ، صفحة ١٦٥ ، ١٨٥ .

﴿ ... ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ... ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [سورة ص: ٢٧].

وإن كنتم في شك من جديَّة الحياة وانضباطها بالسُّنن.. فسيروا وتأمَّلوا، لتعلموا وتتعلَّموا..

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [غافر: ٢١].

والله ـ سبحانه ـ يطلعكم على ما تعجزون عن بلوغه، ويزيدكم علم ما لم تعلموه، ويقصّ عليكم الحق لئلاَّ تختلفوا فيه، ولكي تعتبروا به.

﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ... ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ ... ﴾ [آل عمران: ٦٢]... إلى آخر ما هنالك من الآيات، وهي كثيرة جداً.

ثم إنه ـ بعد أن أخبر بوجود هذه السنن ـ عني ببيانها وإبرازها. فقصَّ من أحوال الأمم؛ ما كان منها، وما وقع لها أو عليها، وبيَّن أسباب ذلك وموانعه، وقال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ [فصلت: ٥٣] (١). وندب العباد إلى معرفتها وفقهها، والعمل بمقتضاها.

ونعى على أهل الغفلة والإعراض ما هم فيه، فقال جل وعلا: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

(١) وقد مرَّ ـ وسيمرُّ بك ـ من السنن الإلهية المستفادة من كتاب الله أشياء، فلا أطيل هاهنا بإعادتها.

لِذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٦، ٣٧]. وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥]. وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

والآيات في هذا كثيرة معلومة(١).

وقد شغل ذلك كله مساحة واسعة من آيات القرآن وسوره، فأعطى بذلك كله أصدق تفسير إسلامي للتاريخ البشري وأشمله، ماضيه وحاضره ومستقبله، وعرّى في طريقه كل التفسيرات المادية الجاهلية للتاريخ البشري، وكشف زيفها، وطوّح بها في مهبّ الريح.

لهذا كله، فإنّ دراسة سنن الله في الأمم دراسةً مستقلةً، من خلال نصوص القرآن الكريم، ضرورة ملحّة، وواجب ضخم على عاتق القادرين من أهل العلم والفكر، الغيورين على دين الأمة ومستقبل البشرية، فعليهم أن يحملوا هذا الواجب بقوّة وأمانة.

وإنّ ما وُجِدَ من دراسات ومحاولات، يُعَدُّ بداية مشجّعة، ويعطي مزيداً من الأمل في المضي قدماً لتحقيق نتائج أفضل، وهو ـ بإذن الله تعالى ـ إرهاص بانطلاقة كبرى نحو وعي شمولي، وعودة إلى النّبع الصّافي على مستوى الأمّة كلها.

* * *

---

(١) وسيأتي لهذه الجوانب مزيد بيان في الفصل الثاني من الباب الأول، بإذن الله تعالى

الباب الأول

خصائص سنن الله في الأمم ومنهج القرآن في عرضها

وفيه فصلان:

الفصل الأول: خصائص سنن الله في الأمم.

الفصل الثاني: منهج القرآن في عرضها.

الفصل الأول

خصائص سنن الله في الأمم

تمهيد:

بعد معرفتنا لمعنى السنن عامة، ووقوفنا على أهم الفروق بين السُّنن المتعلقة بالإنسان ـ وهي موضوع الدراسة ـ وبين السّنن التي تحكم الكون، والتي عن طريقها يتمكَّن الإنسان من تسخيره والانتفاع منه. وبعد جولة مختصرة، تبيّنًا من خلالها أهمية دراسة تلك السُّنن وضرورة إشاعة العلم بها والسير وفق ضوابطها.

بعد تلك الجولات: فإنَّ أول خطوة في هذه الدراسة، هي معرفة ما لهذه السُّنن من خصائص، وما تمتاز به من سمات.

ومعلوم أنَّ معرفة خصائص الأشياء، هي مفتاح فهمها، والإفادة منها، وسبيل التوقي من مخالفتها.

والمقصود بـ «خصائص السُّنن»: تلك المميزات الثابتة المطردة التي تشكل المظهر الموحد للسنن، بحيث لا يشاركها في هذه المميزات والخصائص مجتمعة شيء آخر.

وهذه الخصائص والمميزات لسنن الله في الأمم ظاهرة لكل من أعمل عقله وتأمَّل في سير الأحداث سرعة وإبطاءً، اجتماعاً وافتراقاً، أفراحاً وأتراحاً، في قديم الدهر وحديثه. فكيف بمن تأمَّل هذا ثم نظر في كتاب الله تعالى وفي سُنَّة رسوله ﷺ ليجد دون عناء هذه الخصائص منصوصاً عليها، مبينة أتم بيان وأوضحه؟! إنَّه سيجد من برد اليقين وقوة التصديق والثقة بالمنهج، شيئاً لا مزيد عليه.

أمَّا القرآن الكريم، فقد عني بإبراز هذه الخصائص أيما عناية، وهذا أمر بدهي. وكيف لا تكون خصائص السنن محل عناية كتاب الله المنزَّل لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، على هدى وبصيرة، لا بالطلاسم والألغاز التي لا قِبَلَ لعقول البشر وقدراتهم بها، ولكن بالعمل الهادف وبذل الجهد وتحمّل النتائج.

وبقدر ما تدرك الأمة من هذه الخصائص وتتعامل معها بصورة صحيحة، بقدر ما يحصل لها من السعادة والقوَّة والرخاء، والعكس بالعكس.

وقبل أن أتجاوز هذا التمهيد، لا بد من التنبيه إلى أنَّ الآيات القرآنية كثيراً ما تتجلَّى فيها جملة خصائص، بحيث يتعيَّن إيرادها في أكثر من موضع إذا لزم الأمر.

فمثلاً: قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، فيها دلالة ظاهرة على خاصية: الاطراد، وعلى خاصية: ارتباط السُّنن بالكسب البشري... وهكذا. وستمرُّ بك أشياء من ذلك، فتنبَّه لها وأَنْزِلْهَا منازلها.

ومن هذا التمهيد، ندلف إلى تفصيل القول في هذه الخصائص، مبتدئين بخاصيتي الثبات والاطراد.

* * *

الخاصية الأولى والثانية: الثبات والاطراد

الثبات: ضد الزوال، ونقيض التبدّل والتحوّل[١]، فهو بمعنى الدوام والاستقرار، وليس بمعنى السكون الذي هو ضد الحركة[٢].

والتبدّل: من الإبدال والتبديل، وهو جعل شيء مكان آخر، وربما أطلق على التغيير ولو بغير عوض[٣].

وسنن الله لا تتبدل بغيرها فتنسخها «لابتنائها على أساس من الحكمة.. ولا تغير لخصائص سنة من السُّنن، بل كل سُنَّة ثابتة لا تتغيَّر»[٤].

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [فاطر: ٤٣]؛ أي: لا يقدر أحد أن يبدّل سُنَّة الله التي سنَّها بالأمم المكذبة من إنزال عذابه بهم بأن يضع موضعه غيره بدلاً عنه[٥].

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٢]؛ أي: «ولن تجد يا محمد لسنَّة الله التي سنَّها في خلقه تغييراً، فأيقن أنه غير مغيِّر في هؤلاء المنافقين سُنَّته»[٦].

والتحوّل: من الحول، وأصله «تغيّر الشيء وانفصاله عن غيره. وحول الشيء جانبه الذي يمكنه أن يحوّل إليه»[٧].

«والتحويل: أن تحول من محل إلى محل»[٨]، ومن حال إلى أخرى، وكل هذا لا يكون شيء منه في سنن الله في الأمم.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، بأن يُحوّل ما جرت به سُنَّة الله من العذاب فيدفعه عنهم ويضعه على غيرهم. ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما[٩].

---

(١) انظر: مفردات الراغب، واللسان، مادة (ثبت).
(٢) كما سيتضح لك ذلك عند الحديث عن خاصية (الاطراد) وهي الخاصية الثانية، إن شاء الله.
(٣) مفردات الراغب، مادة (بدل).
(٤) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١/ ٢٦).
(٥) فتح القدير (٤/ ٣٥٦).
(٦) تفسير ابن جرير (٢٢/ ٤٩).
(٧) مفردات الراغب، مادة (حول).
(٨) جامع الرسائل، لابن تيمية (١/ ٥٥).
(٩) فتح القدير (٤/ ٣٥٦).

﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧]؛ أي: لا خلف في وعدها ولا تغيير[١].

والاطراد: من التتابع «واطرد الشيء: تبع بعضه بعضاً وجرى»[٢]، واطراد السُّنن: تتابع حدوثها وتكرره على نظام واحد كلما توافرت شروطها وانتفت موانعها.

والاطراد دليلٌ على ثبات السنن وعدم تغيرها، فإنَّ تكرّر الحدوث بصورة متماثلة كلما وجدت أسباب معينة دليل على الثبات.

كما أنَّ الثبات بمعنى الدوام لا بمعنى السكون يستلزم الاطراد وتجدد الحدوث، وإلا صار بمعنى السكون لا محالةٍ؟!

ولهذا التلازم من جهة، وتمشياً مع أسلوب القرآن في عرض هاتين الخاصيتين بصورة متداخلة في كثير من الآيات من جهة أخرى، آثرت الحديث عنهما تحت عنوان واحد.

و«الثبات» و«الاطراد» بهذا المعنى، خاصيتان من خصائص سنن الله في الأمم بدلالة النصوص القواطع ـ كما سبقت الإشارة إلى طرف من ذلك ـ وبشهادة العقل والواقع، وهذا ظاهر عند أدنى تأمّل.

وبما أنَّ حديثنا عن خصائص سنن الله في الأمم من خلال الآيات القرآنية، فإنّني أقول:

إنّه بتأمّل نصوص القرآن الكريم، فإننا نجد أن خاصيتي الثبات والاطراد في السنن واضحتان بلا غموض، ودلائلها كثيرة ومتنوعة، وهذه الدلائل تدور حول جانبين:

الأول: ما يتصل بتقريرهما، وتحديد معناهما.

والثاني: أمثلة وتطبيقات لبيان مصداقية هذه الخاصية أو تلك.

وإن كان القرآن لا يفصل ـ غالباً ـ بين تقرير الخاصية وبين تطبيقاتها[٣]. وسأحاول ذكر جملة من الآيات مما يتعلّق بكل منهما على الترتيب المذكور، مع بيان يكشف عن المبهم ولا يورث الملالة والسأم بالتطويل، وسأحرص على ذكر الآيات في سياقاتها غير مقتصر على محل الشاهد منها؛ فإنَّ ذلك أعون على فهم المقصود.

إذا تبيّن لك ذلك، فاعلم أنّه قد جاءت آيات كثيرة في مواضع من كتاب الله تعالى توضح هاتين الخاصيتين، منها:

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٠/ ٣٠٢)، وتفسير أبي السعود (٥/ ١٨٩).

(٢) اللسان، مادة (طرد).

(٣) وتلك سمة من سمات منهج القرآن في عرض السنن. كما سيتضح لك ذلك في الفصل التالي.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣].

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وقوله سبحانه: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢].

وقوله: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧].

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠ ـ ١٣٩].

وقوله: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٢، ٢٣].

ومنها، قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ [الكهف: ٥٥].

وقوله: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨] .

والمتأمِّلُ لهذه الآيات، يلحظ أموراً هامة، منها:

ـ أنها كلها جاءت في سياق تقرير سنن الله في الحياة الإنسانية مما يتعلّق بأمر الله الديني الشرعي أمرا ونهيا، دون الأمور الكونية المتعلّقة بالمادة والأمور الطبيعية، مما يدلّ على آكدية خاصية الثبات في الأولى دون الثانية، وأنّها لا تنتقض ولا تتخلف بحال من الأحوال؛ لأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي سنَّها هو الذي حكم بثباتها واطرادها، ونفى أن تتبدَّل أو تتحول، و﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١]، ولا خلف لوعده سبحانه وتعالى.

وهذا بخلاف سننه المتعلّقة بالمادة، فلم يحكم لها بهذا الحكم، ولا بهذه الخصوصية، وقد أكد شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هذا الفرق بقوله: «وهذه السُّنن ـ أي الواردة في الآيات السابقة ـ كلها سنن تتعلّق بدينه وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته في الشمس والقمر والكواكب... وغير ذلك من العادات.

فإنَّ هذه السُّنة ينقضها إذا شاء بما شاء من الحكم: كما حبس الشمس على يُوشَع ﷺ، وكما شقَّ القمر لمحمد ﷺ، وكما ملأ السماء بالشُّهب، وكما أحيا الموتى غير مرَّة، وكما جعل العصا حيَّة، وكما أنبع الماء من الصخرة بعصا، وكما أنبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ»[(١)].

والأمر الثاني الذي يلحظه النّاظر المتأمّل في الآيات السابقة: أنّها جاءت في سياق مخاطبة الجماعات والأمم لا الأفراد. يؤكد هذا ورودها جميعاً بصيغ الجمع، سواء في ذلك من سيقت السُّنة لأجلهم، تعدهم أو تتوعدهم من هذه الأمة، ومن جاءت السُّنة مؤكدة وقوع ما تضمنته من الثواب أو العقاب بهم من الأمم السابقة.

ـ وأنّها قررت هاتين الخاصيتين بصورة واضحة حاسمة؛ وذلك بتأكيد خاصية «الثبات» و«الاطراد» عن طريق نفي ما يضاد أيّاً منهما بأحد حرفي النفي «لا» أو «لن» نفياً مفصّلاً لا لبس فيه.

---

(١) جامع الرسائل، لابن تيمية (١/ ٥٢)، وقد سبق لهذه المسألة مزيد بيان في مبحث: (الفرق بين سنن الله في الكون وسننه في الأمم).

وربما وقع النفي لا على لفظ «السُّنة» ذاتها، وإنَّما على جدوى السلوك الصادر من القوم تجاهها؛ ظنّاً منهم أن ذلك السلوك قد يغيرها أو يبدلها، أو يحول دون اطرادها فيهم، فكان ذلك إيذاناً بثباتها واطرادها أيضاً.

وشاهِدُ ذلك: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۞ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وتأمَّل آية الأحزاب: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، تجد أنَّه ـ جلَّ وعلا ـ لم يقل: ولن تجد لسنتنا تبديلاً؛ لأنَّه لا نبي بعد محمد ﷺ[(١)]. وإنَّما قال هاهنا: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من رسله، فإنَّ سنته فيهم أنَّه لا حرج عليهم فيما فرض الله لهم، ولم يكن محمد ﷺ بدعاً منهم[(٢)]. ثم إنَّ القضايا التي جاء الحديث عن ثبات السنن واطرادها في سياقاتها هي من القضايا الكبرى، ذات الشأن والخطر في حياة الأمم ومصائر الأقوام. ويمكن القول ـ من جهة أخرى ـ أنَّ القرآن قد قرَّر في هذه الآيات أمهات السنن، ونبَّه إلى أصولها، وهي راجعة في عمومها إلى تقرير سنته في أوليائه، كنصرتهم وتأييدهم، وتولِّيهم، وحياطتهم بأنواع لطفه ورعايته، وسنته في أعدائه؛ كإذلالهم والتنكيل بهم وتسليط المؤمنين عليهم وفضحهم، سواء كانوا من الكفَّار أو المنافقين؛ «فسُنَّته في هؤلاء: إكرامهم، وسنته في هؤلاء: إهانتهم وعقوبتهم»[(٣)].

وأحسب أن السنن المذكورة في هذه الآيات ظاهرة عند أدنى تأمّل، ولتفصيلها مع نظائرها موضع آخر بإذن الله تعالى[(٤)].

وإذا تجاوزنا الآيات التي صرحت بثبات السنن واطرادها ـ وهي التي سبقت الإشارة إليها ـ فإنَّ هناك دلائل كثيرة ومتنوعة تؤكد ثبات السنن واطرادها في كتاب الله تعالى، وإنَّك لن تجد عناء في اكتشاف خاصيتي الثبات والاطراد عندما تقرأ ـ مثلاً ـ هذه الآيات:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً

---

(١) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية (١/ ٥٠).
(٢) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية (١/ ٥٠).
(٣) جامع الرسائل، لابن تيمية (١/ ٥٠).
(٤) يُنظَرُ في تفصيلها: الباب الثاني من أبواب هذه الدراسة.

ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]، ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦]، ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ [يونس: ١٣]، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨]، ونظائرها من كتاب الله تعالى.

ولمزيد من الإيضاح هاك بعض السنن الإلهية بصورة أكثر تفصيلاً لتقرأ بوضوح هاتين الخاصيتين من خلالها. فمثلاً: نصر الله المؤمنين الصادقين سنة ثابتة ومطردة في حقهم، متى نصروا الله بنصرة دينه، والجهاد في سبيله. قال تعالى مبيناً ثباتها: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، وقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

وإهلاك الكافرين والتدمير عليهم وإبطال مساعيهم، سُنَّة إلهية ثابتة ومطردة في أمثالهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة: ٢٠]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٥١]، وقال: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ

ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وقال: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

ومن السُّنن: أنَّ الحقَّ والباطلَ مختلفان لا يستويان، وضدان لا يجتمعان ولا يصطلحان، وأنَّ المدافعة بينهما دائمة لا يمكن أن تتوقف ما وُجِدَ حقٌّ وباطلٌ.

قال تعالى مبيناً اختلاف ما بينهما: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقال: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم: ٣٥]، وقال: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨]، وقال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر: ٥٨]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٠١]، وقال تعالى مبيناً استمرار الخصومة والصراع بسبب هذا التباين والاختلاف: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْۚ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ ﴾ [النساء: ٨٩]، وقال: ﴿ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة: ٢]، وقال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وأخبر أنَّ هذين الحزبين لا يكون بينهما ولاية؛ بسبب هذا الاختلاف والتباين، بل كل حزب يكون أفراده بعضهم لبعض أولياء من دون الحزب الآخر.

قال سبحانه: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٢، ٧٣].

كل ذلك جَارٍ وفق سنن إلهية ثابتة لا يعتورها تبدل ولا تحول، مطردة لا يطرأ عليها تخلّف. وتاريخ البشرية على هذه الأرض يشهد لهذه السنن بالثبات والاطراد، على أنها حقائق لا تقبل النقض، ولهذا فكل محاولة لخرق مصداقية هذه السنن أو التنصل من آثارها ـ عمداً أو جهلاً ـ فهي محاولة خاطئة خاسرة؛ لأنَّها ـ ببساطة ـ مصادمة للمُسلَّمات ومجابهة لطبيعة الأشياء.

ومما يؤكد هذا الاستنتاج ويزيده وضوحاً، أنك لا تجد أمّة من الأمم حاولت أن تقتحم هذه المسلَّمات بنوع معارضة أو إهمال، إلا وُجِد في حياتها وحصل لها مصداق ما أخبر الله أن مثله يكون في أمثالها.

فالحقّ والباطل لا هدنة بينهما، بل مدافعة وخصومة أبد الآبدين. وكل أمّة أو جماعة تدَّعِي خلاف ذلك، فتؤسس حياتها على أساس هدنة أو وفاق بينهما، وتسقط من حسابها حتمية الصراع، وضرورة التمايز، وما يستلزمه من الولاية والنُّصْرَة لأهل المبدأ الواحد دون غيرهم... حينما تفعل أمّة ما ذلك، فإنَّها لا تستطيع أن تنجو من نتائجه التي منها:

وقوع الفتنة في الأرض والفساد الكبير.

إمَّا بسبب ترك ولاية المؤمنين بعضهم بعضاً، على حين أن مثل هذه الولاية قائمة بين الكافرين. ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وإمَّا بسبب ترك مدافعتهم. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. فكيف بتوليهم من دون المؤمنين، وترك ولاية المؤمنين؟!

ومنها: دخول الأمة في سمت أعدائها وكونهم منهم، وعدم امتيازهم واختصاصهم بما جعله الله من خصائصهم. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

وقد استقرَّ في الحسّ والشرع أنّه: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُم» .

ومنها: فشل الأمّة وذهاب ريحها ؛ نتيجة تفرّقها فيما بينها ، ومناصرتها عدوّها .

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۞ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ١ ، ٢] . وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] .

والخلاصة: أنّ الثبات والاطراد ، من الخصائص المميزة لسنن الله في الأمم ، وهما مما قرّره القرآن وبيَّنه أوضح بيان .

وأختم هذا المبحث بسؤالين ، أختصر الإجابة عنهما:

الأول: هل يمكن ثبوت سنن الله في الأمم مجردة من خاصيتي الثبات والاطراد؟

والثاني: ما هي ثمرة العلم بهاتين الخاصيتين للأمم والجماعات البشرية؟

وجواباً عنهما أقول[1]:

أمّا عن السؤال الأول: فإنّه لا يمكن تصور سنن الله في الأمم مجردة من خاصتيي الثبات والاطراد ، ولا يجوز أن يخطر ببال مؤمن تصور إمكان ذلك .

إنّ سنن الله في الأمم ، هي القوانين التي أجرى الله عليها نظام الخليقة ، وقوانينُ الله لا يمكن تغيرها ، فهي ليست وليدة ظروف أو ملابساتٍ في الدولة التي تعيش فيها الأمّة ، ولا هي ناتجة عن البيئة الاقتصادية ووسائل الإنتاج . . . ولا يمكن تغييرها ؛ لأنّ طبيعة الإنسان لا تتغيَّر . فالحوافز الإنسانية لم تزل نفسها اليوم كما كانت منذ فجر الحضارة الإنسانية . . . وإنّ بقاء طبيعة الإنسان ثابتة لا تتغيّر ، هو الذي حدا بالمؤرخ الشهير ابن خلدون إلى أن يقول: «إنّ الماءَ الذي يجري في الماضي هو الذي يجري في المستقبل . . .»[2] .

ولا يمكن تصـوّر سنن الله في الأمم مجرَّدة من خاصيتي: الثبـات ، والاطـراد ؛ لأنّ

---

(١) هذه الأسئلة والأجوبة ، يمكن استصحابها وتطبيقها على الخصائص الأخرى الآتي ذكرها بصورة مطابقة أو مقاربة ، مع ملاحظة الفروق بين وظائف هذه الخصائص .

(٢) تفسير التاريخ ، لعبد الحميد صديقي ، ترجمة: د/ كاظم الجوادي ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

الثبات والاطراد من أعظم مظاهر الحكمة الإلهية والعدل الرَّبَّانِي، بل وسائر الصفات الإلهية العليَّة؛ كالعلم والقدرة وغيرها، وإنَّ «أي تأخّر أو اهتزاز في نفاذ هذه السنن سوف يؤول إلى تمييع الحركة التاريخية وعدم انضباطها جزائياً، وبالتالي سيؤول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل . . . ومن أجل أن نطمئن، يبيِّنُ لنا القرآن في أكثر من موضع ثبات هذه السُّنن ونفاذها، وعدم تبدلها أو تحوّلها . . .»(١).

وأمَّا عن السؤال الثاني: فإنَّ من أبرز ثمرات العلم بكون الثبات والاطراد خاصيتين من خصائص سنن الله في الأمم:

ـ أنَّ الثبات؛ أي عدم الاختلاف «من زمن إلى زمن، ومن مكان إلى مكان، والاطراد؛ أي عدم التخلف ـ يجعل كل أمَّة توجه حياتها وفقاً لهذه القوانين تحصل من الفائدة على ما تحصل عليه أية أمة أخرى سلكت هذه السبيل نفسها»(٢).

والعكس صحيح، فكل أمَّة تتنكَّب الجادة وتصادم السنن والقوانين، يحلّ بها ما يحلّ بأية أمة أخرى سلكت هذه السبيل نفسها.

«وإنَّ مَنْ يُدقق النظر في أحكام الشرع المختلفة، يجد أنَّها تعبِّر عن نوع من السنن المطردة، التي لا تتخلف نتائجها عن مقدماتها، فإن ترك شيء مما أمر به الشارع الحكيم يترتب عليه عاقبة وخيمة، في الدنيا قبل الآخرة. وإنَّ الإتيان بشيء قد نهى الله عنه يترتب عليه كذلك عواقب وخيمة في الدنيا قبل الآخرة»(٣).

قال ابن القيم: و«لهذا يذكر الشارع العلَّة والأوصاف المؤثرة، والمعاني المعتبرة في الأحكام القدرية والجزائية ليدلّك بذلك على تعلّق الحكم بها أين وجدت، واقتضائها لأحكامها، وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضاءها، ويُوجب تخلّف أثرها عنها»(٤).

ومن ثمرات معرفة خاصيتي الثبات والاطراد في سنن الله في الأمم:

الاعتبار بحوادث الماضي وتجارب الأمم، وتصحيح المسار وتجنّب الأخطاء بصورة علمية دقيقة، مع توفير الجهد والوقت؛ لأنَّه لا بد لأهل كل عصر من أن يواجهوا النوع

---

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، د/ عماد الدين خليل، ص ١٠٩.
(٢) تفسير التاريخ، لصديقي، ص ١٤٤ بتصرف وزيادة اقتضاها المقام.
(٣) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، د/ أحمد محمد كنعان، ص ٧٨ بتصرف.
(٤) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، د/ أحمد محمد كنعان، ص ٧٨ عن كتاب: إعلام الموقعين، لابن القيم (١/ ٩٦) بتصرف.

ذاته من التعقيدات التي واجهها أسلافهم، فمواضع الخطر في طريق الأمَّة تكاد تكون نفسها في الماضي والحاضر.

إنَّ التاريخ ـ كما ينبّه إلى ذلك القرآن الكريم ـ ليس مجرد قصص يُروَى عن الأيام الغابرة، وإنَّما هو تحذير من المهاوي الواقعة في طريقنا.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

«إنَّ سجل التاريخ، ما هو إلا الدليل والمُعلِّم الذي ينبئ الملاحين الجدد الذين يمخرون عباب الحياة عن الصخور المهلكة التي قد تكون خافية تحت سطح بحر الوجود الإنساني الذي لا يُدرَكُ غوره.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩].

... وما في العالم من أمة لم تمسك بعصا السلطة، فالذين لا تطغيهم الأفراح، والذين لا تفقدهم السعادة اتزان عقولهم، والذين لا يسمحون لأنفسهم بأن ينهاروا تحت وطأة المصائب، هم الذين يسمح لهم قانون الحياة بالبقاء. أمَّا الذين لا يستطيعون التماسك أمام الشهوات وفي وجه المتغيرات، فأولئك الذين يجرفون خارج نطاق الوجود الفعَّال»[1].

وأكتفي بهذه الإشارات خشية الإطالة، وأنتقلُ إلى الخاصية الثالثة، وهي: خاصية العموم والشمول.

* * *

---

(١) تفسير التاريخ، لصديقي، ص ١٤٦، ١٤٧ بزيادة وتصرف.

الخاصية الثالثة

خاصية العموم والشمول

ومن خصائص سنن الله في الأمم، أنّها عامّة وشاملة للأمم والأقوام والأجناس، في كل زمان ومكان، فلا استثناء لأمة، ولا محاباة لجنس أو لون أو ديانة.. في حسنة أو سيئة. فالكل أمام القانون الإلهي سواء؛ المتقدم والمتأخر، القوي والضعيف.. الكل تحت طائلة السنن.

ذلك باختصار هو معنى العموم والشمول الذي يميز هذه السنن، وهو مقتضى العدل الرباني، ومظهر من مظاهر الحكمة الإلهية، كما أنّه يمثل جزءًا هاماً من التصور الصحيح لحقيقة الألوهية وخصائصها، وحقيقة العبودية ووظائفها، وحقيقة الجزاء على الأعمال. وأي انحراف عن جادة الصواب في تصور هذه الخاصية ينتج عنها نتائج مرة مدمرة، تفسد الحياة والأحياء. ومن هنا فقد كشف القرآن عن هذه الخاصية بوضوح، في مواضع كثيرة. وأكدّها بصورة حاسمة جازمة تليق بجدية الحياة، فلا فوضى ولا محاباة ولا سلبية.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقال سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۞ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤٠].

فالأمر جدٌّ كما ترى، والناس أمام السُّنن سواء، الرسل فمن دونهم. قال تعالى مبيناً قيل الرسل لأقوامهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

وأمرَ ﷺ أن يقول لقومه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

وبلغ القرآن من تجريد الأشخاص من أي خصوصية بلا استحقاق، أنْ قال الله لرسوله ﷺ في شأن الوحي: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

ومع هذا الوضوح البيِّن في شأن هذه الخاصية، خاصية العموم والشمول في سنن الله في الأمم ـ فإنَّ الأمم والأقوام الجاهلية عبر تاريخ البشرية الطويل ـ على حال مناقضة للحق في هذه الخاصية؛ بسبب الجهل والظلم والاستكبار عن اتباع هدى الله الذي جاءت به الأنبياء. سواء في ذلك الأمم الوثنية المشركة، ومَنْ يدَّعُونَ اتِّباع الأنبياء والانتساب إليهم كذباً وادِّعاءً. ولكل من هؤلاء وهؤلاء وجهة هو موليها، وشبهة هو متمسك بها.

ولكن القرآن وهو يربي هذه الأمَّة على الحقِّ وعلى الجدِّ في أخذه، قد حسم الأمر، ولم يدع مجالاً لاستقرار هذه التصورات الخاطئة في النفوس. ففي كل موطن يسوق فيه شبهة أو يحكي ادِّعاء أمَّة ما أو قوم خصوصية لسبب من الأسباب، يكرّ على هذه الشبهة والدعوى بالإبطال، وعلى رأي أهلها بالتسفيه، مبيناً وجه الصواب الذي يجب اتباعه.

وسوف أسوق لك ـ فيما يلي ـ أمثلة من تلك الدعاوى مقرونة بتعقيب القرآن عليها، وكيف أبرز خاصية العموم والشمول في السنن في كل موطن.

فالمشركون أهل الأوثان يدَّعون الخصوصية، وأنهم مستثنون من عموم السُّنة، بما لهم من الأموال والأولاد والجاه والسلطان، ويرون أن هذه الإمكانات هي مناط الفضل، ودليل التفضيل. وطردوا هذه القاعدة، فزعموا أن العذاب لا يقع عليهم. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥].

فماذا كان جواب القرآن على زعم المترفين هذا؟

لقد قال ـ سبحانه ـ بعد حكاية زَعْمِهم السابق ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ * وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٦ ـ ٣٩].

وزعموا لأنفسهم الصلاح، وأنّه لا يسبقهم إلى الخير سابق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ...﴾ [الأحقاف: ١١].

فأكذبهم الله وكشف دخيلة نفوسهم بقوله: ﴿...وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]. فجعلوا عدم اهتدائهم ذريعة للطعن في الحق وردِّه؛ ليسلموا من الإلزام العقلي لهم بالمخالفة لمجرد أنه جاء على يد غيرهم، وخالف أهواءهم.

وجرياً على قاعدتهم تلك في ادِّعاء الخصوصية، تَعَجَّبُوا مستنكرين أن يكون المؤمنون المستضعفون الفقراء محل مِنَّة الله وتفضيله.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]؛ أي: ونحن لا نرى مبرراً لتفضيلهم من وجهة نظرنا. فقال الله موبخاً إيّاهم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]؟ بَلَى سبحانه.

وحتى منصب النبوّة، الذي لا علم لهم به. ينطلقون فيه من ذلك الأساس الجاهلي الجائر!

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

فما كان شيء أبلغ من ردّ القرآن في هذا المقام.. ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

أمّا الذين يزعمون أنّهم أهل ملّة، ويدَّعون اتباع الأنبياء، فقد عرض القرآن لنماذج منهم، خصوصاً أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

وهؤلاء شرّ من أولئك في ادِّعاء الخصوصية لأنفسهم، واعتقاد أن عموم السنن لا يشملهم، لانتسابهم إلى هذا النبي أو ذاك، وكونهم أهل هذه الديانة أو تلك الملّة.

ولنأخذ مثالاً لذلك: أهل الكتاب من اليهود والنصارى، لَمَّا قام في نفوسهم وَهْم الاختصاص بغير عمل ولا استحقاق، بل بمجرد الظنون والأماني، والانتساب الكاذب. ولنقف مع مظاهر الْوَهْم الكبير وإفرازاته.

فقد ادَّعُوا أنَّهم وحدهم المهتدون، المستحقُّون لدخول الجنة دون من سواهم: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥]، ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١].

ومن دخل منهم النار فأيام معدودة ثم يخرج منها، ولو كانت جريمتهم الكذب على الله، أو رفض التحاكم إلى كتابه: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]

وما كانت دعواهم تلك لِتُقرّ، وكيف يقرّ الله أمراً يطعن في حكمته ويناقض عدله؟! هذا لا يكون أبداً.

ولذا أمرَ الله رسوله ﷺ أن يقول لهم عن ربه الحق والعدل، لا ما يزعمون: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ . . .﴾ [البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٧]، ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠، ٨١].

وكشف في الآية الأخرى أيّ نفسية مغرورة بالأماني والكذب، كانت تقف وراء إعراضهم عن كتاب الله، وتبرر رفضهم التحاكم إليه أو قبول أحكامه.

إنّه الوهم المغرور ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]!

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣، ٢٤].

فهم أرادوا نجاة وفوزاً بمجرد الانتماء بلا عمل، وهيهات(١)!

وزعموا أنَّ لهم من الحظوة والزلفى عند الله ما ليس لغيرهم، فهم ليسوا كسائر البشر، ولا يلزمهم نحو غيرهم ما يلزم غيرهم نحوهم.

﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ [آل عمران: ٧٥].

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]. تعالى الله وتقدَّس عن قولهم علواً كبيراً.

ولم يكن الله ليدعهم يستمتعون بهذه الأماني الباطلة دون أن يدمغهم بالحق الذي يزهق باطلهم.

فقال سبحانه معقباً على قولهم: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾: عقَّب عليه بفضحهم بالكذب وتكذيبهم في دعواهم: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ * بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٥، ٧٦].

ودحض ادِّعاءهم أنهم أبناء الله وأحباؤه بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وهذه الخصوصية التي اعتقدوها لأنفسهم قادتهم إلى منكرات عظيمة وجرائر وَبيلَة، لا في حق أنفسهم فحسب، وإنّما في حق البشرية من ورائهم كذلك، وما ذاك إلا لأمنهم المعاقبة وغرورهم في أنفسهم. ومن أمن العقوبة أساء الأدب.

---

(١) انظر: تفسير المنار (١/ ١١٢).

ومثل آخر فيما نحن بصدد الحديث عنه . . .

فقد تفاخر النصارى ـ وفي رواية: أهل الكتاب ـ وأهل الإسلام، فقال هؤلاء: نحن أفضل منكم، وقال هؤلاء: نحن أفضل منكم، فنزل قوله تعالى[1]: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

قال ابن كثير: «والمعنى في هذه الآية: أنَّ الدِّينَ ليس بالتحلِّي ولا بالتمنِّي، ولكن ما وقرَ في القلوب وصدَّقته الأعمال، وليس كل من ادَّعى شيئاً حصلَ له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنَّه هو على الحق سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان، ولهذا قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣]؛ أي ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله سبحانه، واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام»[2].

وقال صاحب المنار في هذا المعنى: «إنَّ الجزاءَ على الإيمان والعمل معاً؛ لأنَّ الدِّينَ إيمانٌ وعمل. ومن الغرور أن يظن المنتمي إلى دين نبي من الأنبياء أنَّه ينجو من الخلود في النَّار بمجرد الانتماء»[3] والتمني.

بل تعالَ بنا إلى المؤمنين أنفسهم، فقد خطر ببالهم مرة ـ وهم بشر غير معصومين ـ أنَّهم أهل للنصر لأنَّهم مؤمنون يجاهدون مع رسول الله ﷺ أعداء الله، فغفلوا عن أنفسهم بعض الغفلة، فلما انهزموا عجبوا مما حصل لهم وكيف هُزِمُوا!

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ﴾؟ [آل عمران: ١٦٥].

«أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهُزِمْنَا»[4]؟! ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، «حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية»[5].

---

(١) وهو مروي عن ابن عباس والضحاك ومسروق وقتادة والسّدي . . . وآخرين. وروي أنها في المشركين وأهل الكتاب خاصة، وهو مروي عن مجاهد وابن زيد.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٥٧).

(٣) تفسير المنار (١/ ١١٢).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٤٥١).

(٥) تفسير السعدي (١/ ٤٥١).

وأحسب أن ما مضى من الأمثلة كافٍ في إبراز خاصية العموم والشمول في سنن الله في الأمم وأنه لا استثناء فيها ولا محاباة .

وبرغم هذا الوضوح البيِّن ، فإنَّ «المسلمَ ، خصوصاً في هذه الأزمنة ـ بشعور منه أو لا شعور ـ يريد أن ينظرَ إلى الأمور بشيءٍ من الخصوصية . . . فهو يرى أنه ينبغي أن تكون مشكلة المسلمين غير خاضعة لما يخضع له سائر البشر في مشكلاتهم ، ويفعل المسلم هذا حين يفعل بروح من التسامي والتقديس ؛ ذلك أنَّه يظن أن رفع شأن المسلمين إنَّما يكون بعدم خضوعهم للسنن التي يخضع لها سائر البشر . حتى وإن كان ينطبق عليه ما ينطبق على البشر من غفلة وجهل ، وعنجهية وغرور ، وطيبة ووداعة ، وسذاجة وحماقة .

وليس معنى هذا أن مشكلة المسلمين لا تتميز بخصوصية من حيث العوارض والملابسات الخاصة ، التي ينبغي أن يراعيها المسلم حين يأخذ في معالجة المشكلة ، إلا أن القصد هنا أن لا يختلط على المسلم:

القاعدة العامة التي يخضع لها كل الأقوام، مع الأمر الخاص الذي يخص المسلمين.

فمثلاً: قد يكون الانخداع بالوهم ، والتعلُّق به مما يحول بينهم وبين رؤية طريق الصواب ، وهذا سنة عامة في البشر . ولكن لا يشترط أن يكون الوهم الذي يتعلق به كل قوم نوعاً واحداً من الأوهام ، بل يمكن أن تكون أوهاماً متعددة ، ولكن سنة التعلق بالوهم واحدة ، وإن كان نوع الوهم مختلفاً ، فعلينا أن نراعي هذا في بحث مشكلة المسلمين . . .

إنَّ المسلمَ حين يرى المشكلة خاضعة لسنن عامة تنطبق على سائر البشر ، يدرك أنه يمكن أن يستفيد من الوقائع التاريخية البشرية التي حدثت للأقوام قديماً وحديثاً ، والتي لا تزال تحدث الآن . . . وهي تجارب كثيرة تظهر فيها سنن تغيير الأقوام ، التي يخضع لها المسلمون أيضاً .

ومثل هذا النظر إلى الموضوع ـ وهو الذي جاء القرآن ليعلمنا إياه ـ هو الذي نفتقده الآن ، وعلينا أن نكتسبه لأمورٍ ؛ منها:

أنَّ هذا النظر هو الذي يجعل «المسلم قادراً على الاعتبار الذي يلح عليه القرآن». كما أنَّه هو الذي «يجرد الإنسان من ملابساته، ويرجعه إلى أصله المجرد الذي يخضع للسنن».

ويخرج «المشكلة من مجال الغموض والتكهنات إلى مجال الرؤية الواضحة»[(١)].

* * *

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص ٣١، ٣٥ باختصار وتصرف.

الخاصية الرابعة

انطباقها على الأمم والأقوام دون الأفراد

أي أنها: سنن مختصة بالأمم والأقوام والجماعات، بحيث إن سلطانها، وآثارها ونتائجها، كل ذلك يطرد وينعكس فيهم، وليس كذلك آحاد الأفراد.

أي أن الوعد والوعيد في الدنيا «إضافي مطرد في الأمم، وإضافي مقيد غير مطرد في الأفراد»[١].

ولا ينقض ذلك وجود تشابه أحياناً؛ لأنَّ المنتفي وجود التماثل التام، كما سبق تقرير ذلك[٢].

وعلى هذا الأساس، ومن هذا المنطلق أصبحت(الجماعية) خاصية من خصائص سنن الله في الأمم.

ولكي تتضح هذه الخاصية، لا بد من استحضار وملاحظة الأمور التالية:

هناك فرقٌ كبيرٌ بين أعمار الأمم وأعمار الأفراد، ولهذا الفرق الهائل أثرٌ في اختلاف السنن التي تحكم كلا منهما.

لا فرق في حكم الله وتقديره «في المعايير التي تُوزَن بها الأعمال، ولا خلاف في مبدأ ترتب النتائج على الأعمال، ولا خلاف في مبدأ مسؤولية كل إنسان عن عمله»[٣]. لا فرق في ذلك كله بين الأمم والأقوام وبين آحاد الأفراد، كما أن «معيار الدنيا، هو ذاته معيار الآخرة، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ما دام الحساب والجزاء في الآخرة هو على أعمال الإنسان في الحياة الدنيا»[٤].

لا فرق في «المعايير التي تُوزن بها الأعمال» بين الأمم والأفراد، أو بين الدنيا والآخرة. إنَّما الفرقُ بينها راجع إلى «توقيت الجزاء، وكيفية إيقاعه، وإلى نوعه»[٥].

وتلك مسألةٌ تحتاجُ إلى شيءٍ من الإيضاح، فأقول:

---

(١) انظر: تفسير المنار (١/ ١١١).

(٢) انظر المبحث الثالث من مباحث التمهيد.

(٣) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٠١.

(٤) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٠٨.

(٥) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٠١، ٢٠٨، ٢٠٩.

* بالنسبة للأفراد:

«قد يملي الله للظالمين حياتهم كلها فيموتون على ضلالهم وظلمهم وطغيانهم، لا ينتقم الله منهم في الحياة الدنيا، ويؤجل لهم جزاءهم كله في الآخرة... وقد يقضي المؤمن حياته كلها مبتلًى، لا ينتقم الله له في الحياة الدنيا، ويؤجل له جزاءه كله في نعيم الآخرة...»[١].

لكن هؤلاء وأولئك، سوف يلقى كل منهم جزاءه في الدار الآخرة موفوراً كاملاً، فور الانتهاء من الحساب بلا تأجيل، فلا الظالم بناجٍ من الانتقام والعقوبة، ولا المؤمن بمبخوس أجره وثوابه.

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۞ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥].

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

هذه حال الأفراد في الدنيا والآخرة.

* أمَّا الأمم والمجتمعات:

«فلا بد أن تنالها سُنَّة الله في الحياة الدنيا»[٢]، لا بد أن تلقى جزاءها، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشرّ، في فترة ما من فترات حياتها.

نعم، قد تطول هذه الفترة لسبب أو لآخر حتى ليخيل لآحاد الأفراد أن هذه الأمة لن تلقى جزاءًا، وقد تقصر لأسباب كذلك، حتى لربما شهد آحاد الأفراد جزاءها في حياتهم القصيرة، المحدودة بالنسبة لأعمار الأمم عادة.

لا بد أن تلقى جزاءها في الدنيا؛ لأنَّه لا جزاء لها بالنظر إليها أمة ومجتمعاً في الآخرة[٣]، وإنْ تشابه أفرادها في الجزاء هناك لتشابه أعمالهم.

---

(١) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٠٨. وانظر: المبحث الثالث من مباحث المقدمة.
(٢) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٠٨، ٢٠٩.
(٣) وقد أوضحتُ الفرق بين كيان الأمة ووظيفتها في الدنيا، وبين الأمة في موقف الحساب والعرض على الله، في المبحث الثالث من مباحث المقدمة.

والخلاصة: إنَّ هناك مسؤولية فردية، يلتزم فيها كل فرد بأن يُحْسِنَ عمله، ويتحمَّل فيها ـ وحده ـ نتيجة سوء عمله.

وهناك مسؤولية جماعية، يحمل كل فرد نصيبه منها، ويتحمَّل نتيجة عدم قيام الجماعة(الأمة) بواجبها، ولو لم يكن مسيئاً بشخصه[1].

وفي الصورة الأخيرة لا بد من جزاء في الدنيا يقع على الجماعة، أمَّا في الصورة الأولى فقد يقع الجزاء في الدنيا وقد يؤجل في الآخرة.

وفي كلتا الصورتين لا بد من جزاء على الإحسان وعلى الإساءة هناك في الآخرة، ولكن بصورة فردية.

وأكتفي بهذه الإشارات في بيان أن الفرق بين الأمم والأقوام من جهة، وبين آحاد الأفراد من جهة أخرى ليس في المعايير، فهي لا تختلف، وإنَّما في توقيت الجزاء ونوعه، وكيفية إيقاعه.

وبقي أن نلم بالضابط الذي نعرف من خلاله: متى تكون الأمَّة محلاً لوقوع هذه السُّنة الإلهية أو تلك؛ أي: المعيار الذي تُوزَن به الأمَّة، فيحكم عليها من خلاله بالصلاح أو ضده.

ولمعرفة هذا المعيار أو الضابط، تأمَّل معي هذه النصوص:

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥]. وقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وفي حديث النعمان بن بشير ﷺ[2] عن النبي ﷺ أنَّه قال: **«مَثَلُ القَائِمُ على حُدُود الله والواقع فيها، كمثل قوم استَهَمُوا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استَقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن يأخذوا على أيديهم نجوا**

(١) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٠١ بتصرف.

(٢) ابن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الله، الأمير العالم، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، ولد عام الهجرة، وكان من أمراء معاوية، قُتِلَ بقرية بيرين، قتله خالد بن خلي بعد وقعة مرج راهط سنة (٦٤هـ)، وقيل: غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤١١).

ونجوا جميعاً»[١] .

وفي الحديث الآخر: قالت زينب بنت جحش، زوج النبي ﷺ رضي الله عنها: «يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟»، قال ﷺ: «نعم، إذا كثر الْخَبَث»[٢] .

وعن عَدِيّ بن عميرة[٣] قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللَّهَ عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة**»[٤] .

إلى غير ذلك من النصوص[٥] .

وما تضمنته هذه النصوص والآثار من معانٍ هي «عامة إلى يوم القيامة؛ لأنَّها بيان لسنة من سنن الله في الأمم والملل»[٦] .

ومن مجموعها ـ وما جاء في معناها ـ نستخلص المعيار والضابط للأمَّة أو القوم محل انطباق السُّنن، أي الذين تشملهم نتائج السُّنن على مستوى الأمة.

والمعيار الذي يؤثر في النتائج عادة أحد أمرين، أو كلاهما:

الأول: الكثرة، وتدخل فيها القوَّة، وتقابلها القِلَّة، وفي معناها الضعف.

فالكثرة أو القوة، أو هما معاً، هي التي تتحكم ـ غالباً ـ في مجريات الأحداث، وتكون النتائج لصالحها عادة، وفق المعايير المادية.

والثاني: الفاعلية، وأعني بها: التأثير. وتقابلها السلبية، وتعني: انعدام التأثير. فإنَّ القلَّة الفاعلة المؤثرة تتحكم عادة بمصائر الكثرة السلبية التابعة.

وبالنظر إلى هذين الوصفين ـ الكثرة والفاعلية ـ في أحوالهما المختلفة، اجتماعاً

---

(١) مسند الإمام أحمد (٤/٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٤)، وصحيح البخاري، واللفظ له. انظر: فتح الباري، كتاب الشركة (٥/ ١٣٢).

(٢) مسند أحمد (٦/ ٤٢٨، ٤٢٩). والبخاري في الفتن، انظر: فتح الباري (١٣/ ١١)، ومسلم في الفتن، انظر: النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٢، ٣). وغيرهم.

(٣) ابن فروة بن زرارة الكندي، صحابي معروف، يُكنَّى أبا زرارة، له أحاديث في مسلم وغيره، روى عنه أخوه العرس بن عميرة، قيل: مات بالجزيرة أو بالكوفة سنة أربعين. انظر: الإصابة، لابن حجر (٤/ ٢٣١).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٩٢)، وحسن إسناده رشيد رضا في تفسير المنار (٩/ ٦٣٨)، وأخرجه عبد الله بن المبارك في الزهد ح (١٣٥٢)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٤٦)، عن عدي بن عدي الكندي أنَّه حدَّثه مولى لهم، وهو غير عدي بن عميرة، ووهم من سوَّى بينهما. انظر: الإصابة (٤/ ٢٣١).

(٥) وسيأتي لهذه المسألة مزيد بحث في الفصل الثالث من الباب الرابع، بإذن الله تعالى.

(٦) تفسير المنار (٩/ ٦٣٨).

وافتراقاً، قوة وضعفاً، وإلى ما يمثلانه من الخير والشر، يمكن تحديد ماهية الجزاء الذي تستحقه الأمّة إلى حد كبير.

وأعود الآن إلى تقرير ما نحن بصدده من خاصية انطباق هذه السُّنن على الأمم والأقوام بالنظر إليهم أمماً وجماعات، لا باعتبارهم أفراداً، بعد أن تبين لنا: الفرق بين الأمم والأفراد، في أحوالهما، وجزائهما.

وعرفنا المعيار الذي نرشح من خلاله الأمة لهذا الجزاء أو ذاك على وجه التقريب، نتيجة معرفتنا قربها أو بُعْدها من أسبابه، بالنظر إلى القلة والكثرة، وبالنظر إلى وجود أو انعدام المقاوم المكافئ.

أعود إلى الحديث عن خاصية الجماعية في سنن الله في الأمم بشيء من التفصيل مذكراً ببعض الشواهد والأمثلة من كتاب الله تعالى، فأقول:

إنَّ ظهور آثار السنن في الأمم والجماعات بوصفهم أمة أو جماعة أو قوماً، لا يلزم منه وجود السبب الموجب للجزاء في جميعهم، وإن كان اجتماعهم على السبب الموجب ممكناً، وهو حينئذٍ أسرع في إيقاع الجزاء واستحقاقه. بل يكفي في استحقاق الأمة الجزاء - ثواباً أو عقاباً - أن يغلب السبب الموجب ويفشو، بحيث يكون ديناً وعادة، ومألوفاً فلا يغيرونه ولا ينكرونه، بل ربما أنكروا ما خالفه، وقاوموا من خالفه، فهو لهذا يزيد فيهم ولا ينقص، ويفشو ولا يقل، فهم في هذه الحال - وإن لم يكونوا جميعاً ممن يفعله ويواقعه - فهم جميعاً - بقصد أو بغير قصد - ممن يحرسه ويسهم في بقائه، أولئك بفعلهم، وهؤلاء بسكوتهم، حتى وإن كان الفاعلون أقل من الساكتين.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

قال ابن عباس: **«أمرَ الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب»**(١).

وعن أبي بكر الصديق ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ النَّاسَ إذَا رَأوا الظَّالِم فَلَمْ يأخُذُوا على يَدِهِ أَوْشَكَ أن يعمّهم الله تعالى بعقاب»**(٢).

---

(١) تفسير ابن جرير (٩/ ٢١٨).

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه، كلهم من حديث أبي بكر الصديق ﷺ.

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية ما معناه: أنه لما حرض سبحانه المؤمنين جميعاً على الاستجابة لله وللرسول في الآية السابقة[١] ، حذّر في هذه الآية المستجيبين منهم من إعراض المعرضين ليعلموا أنه قد يلحقهم أذى من جرّاء فعل غيرهم إذا هم لم يقوموا عوج قومهم ، كيلا يحسبوا أنَّ امتثالهم كافٍ إذا عصى دهماؤهم . . . فعلى عقلاء الأقوام وأصحاب الأحلام منهم إذا رأوا دبيب الفساد ، أن يبادروا للسعي إلى بيان ما حلَّ بالناس من الضلال في نفوسهم ، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه ، وأن يمنعوهم منه بما أوتوا من الموعظة والسلطان ، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتى يرتدعوا ، فإنْ هم تركوا ذلك لم يلبث الفساد في النفوس ، بل ينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره ، حتى ينتهي إلى صلحائهم فينكد عيشهم ، على الرغم من صلاحهم واستقامتهم .

فظهر أن الفتنة إذا حلت بقوم لا تصيب الظالم خاصة ، بل تعمه والصالح ، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكل ؛ لأنَّ أضرار حلولها تصيب جميعهم[٢] .

ومثل هذا المعنى في الآية ، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] . على أنهم قادة المشركين تسببوا في إهلاك قومهم الذين اتبعوهم في بدر ، وأحلوهم دار البوار وهي جهنم في الآخرة[٣] .

ويؤكد معنى العموم في تينك الآيتين ، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] .

فإنَّ هذه «الآية تقرر سُنَّة إلهية ، فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة ؛ لأنَّها أخذت بأسباب الهلاك ، فكثر فيها المترفون فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم ، سلَّط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها فعم فيها الفسق فتحللت وترهلت ، فحقت عليها سُنَّة الله ، وأصابها الدمار والهلاك . وهي المسؤولة عما يحل بها ؛ لأنَّها لم تضرب على أيدي المترفين ، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين . فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا ، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك ، وما سلَّط الله عليها من يفسق فيها ويفسد ، فيقودها إلى الهلاك . . .

(١) وهي قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] .
(٢) تفسير التحرير والتنوير (٩/٣١٦ ، ٣١٧) بتصرف يسير . وانظر: محاسن التأويل ، للقاسمي (٨/٣٦ ، ٣٧) . وتفسير المنار (٩/ ٦٣٧) .
(٣) انظر: تفسير ابن جرير (١٣/ ٣١٩) . والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/ ٣٩٥) .

وهنا تبرز تبعة الجماعة (الأمة) في ترك النظم الفاسدة تنشئ آثارها التي لا مفرَّ منها»[1] والتي تتحمل نتائجها الأمة كلها في نهاية المطاف.

ويزيد القرآن هذا الأمر وضوحاً عندما يحدثنا أن فرداً واحداً عبث بمصير قوم ومستقبل أمة فأهلكوا بسبب هذا العبث، وهي واقعة تكشف غاية السلبية وعدم الفاعلية على مستوى الأمة.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٦]. إنه شخص واحد تفرعن، والناس من حوله صُموتٌ لايجرِّمون ما يفعل. حتى على المستوى الشخصي، لم يمتنعوا من الموافقة له واتباعه، وهو يبتزّهم ويستخف بهم! فكان ما قصه الله عنهم، فذهبوا أجمعين غير مأسوف عليهم.

ويشهد لهذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

فإنَّ «أل» في «الفساد» و«الناس» للجنس[2]، «فيعم كل فساد... سواء كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم واقترافهم السيئات، وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم، أو راجعاً إلى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب ذنوبهم كالقحط وكثرة الخوف والمُوْتان ونقصان الزرائع ونقصان الثمار»[3]. وظهور الفساد في الأرض ليس موقوفاً على حصول هذه المفاسد من كل الناس، بل يكفي أن تقع من عمومهم الصادق على بعضهم، بينما الأذى الدنيوي المترتب عليها قد لا يسلم منه أحد منهم، وعلى الأقل فإنَّ الذين يلحقهم الأذى بسبب الفساد هم أضعاف من يباشرون إيقاع الفساد بأنفسهم.

ونحن لو عدنا إلى النصوص والأمثلة السابقة وتأمّلناها، لم نجد في أي منها تنصيصاً

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢١٧، ٢٢١٨).
(٢) وهو أولى ما تحمل عليه في مثل هذا السياق. انظر: فتح القدير (٤/ ٢٢٨)، والتحرير والتنوير (٢١/ ١١٠، ١١٢).
(٣) فتح القدير (٤/ ٢٢٨).

على الكثرة العددية[١]، وأنّها كانت السبب في حلول السُّنة الإلهية، بل إن في الآيات إيماءً إلى أن العكس ربما يكون هو الواقع، خصوصاً في آية الإسراء وآيات الزخرف.

لا نجد تنصيصاً على العدد بقدر ما نجد التأكيد على أهمية الفاعلية، والتذكير بضرورة تحمّل الأمة للمسؤولية، وبيان وخيم العواقب للأمّة عندما تطغى عليها السلبية، وتتخلى عن تحمّل المسئولية.

تلك صورة. وثمّة صورة أخرى أشار إليها القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ففي الآيتين تنبيه إلى أن التغيير المؤثر هو التغيير الجم ي، تغيير ما «بأنفس القوم» فلا يغير من حال الأمة أن يغيّر فرد أو أفراد قلائل ما بأ سهم، كما لا يؤثر في النتيجة سلباً أن يتخلّف فرد أو أفراد قلائل فلا يغيروا ما بأنفسهم.

المهم في الأمر ـ أمر التغيير ـ أن تريد الأمة بمجموعها ذلك الشيء إرادة جازمة، ثم تترجم هذه الإرادة إلى عمل وإلى واقع مشاهد. وفي هذه العملية قد يتخلف أفراد فلا توجد لديهم هذه الإرادة، وبالتالي لا يوجد منهم عمل.

كما أنّ «القوم» بينهم من التفاوت في الإرادة وفي العمل؛ نتيجة تفاوت أقدارهم ومواهبهم وإيمانهم بالفكرة . . . قدرٌ كبير.

هذا وذاك، لا يؤثران، فلا تقف عجلة التغيير، ما لم يخرج التخلف عن إرادة التغيير عن حد «الأفراد القلائل»، وما دام «القوم» الذين وقعت منهم إرادة التغيير الجازمة يبذلون جهدهم في تحقيق هذه الإرادة.

هذا وذاك لا يؤثران؛ لأنّ وجودهما في الأمّة ـ أية أمّة ـ أمر طبعي، وظاهرة لا يمكن أن تزول. نعم يمكن أن تتقلص إلى حد كبير، لأسباب معينة، فيكون التغيير أسرع وأعمق وأقوى، لكنها لا تزول.

والقرآن بواقعيته يقرر هذه السُّنة بهذه الاعتبارات.

---

(١) أعني: التنصيص على كونها المباشرة للأسباب.

فما الجديد في هذه الصورة؟

في هذه الآيات نلحظ أهمية الكثرة الفاعلة الإيجابية وقيمتها في تحقق النتائج الجماعية على مستوى الأمة. فحتى وإن تخلّف أفراد عن مواكبة المسيرة، وحتى وإن تفاوتت الفاعلية في الاتجاه الجماعي الواحد، فإنَّ عملية التغيير تتم وتتحقق، وينعم بخيراتها، أو يصطلي بنارها هؤلاء وهؤلاء.

إذا تقرَّر هذا المعنى، أمكننا أن نفهم جيداً مثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

قال ابن عاشور منبهاً على هذا المعنى عند هذه الآية: «والموصول[1] عام لا يختص بمعين، وعمومه عُرفيّ؛ أي غالب فلا يناكده ما يكون في الأمة من مقصرين في عمل الصالحات، فإن تلك المنافع عائدة على مجموع الأمة»[2].

هذا فيما يتعلَّق بالأشخاص.

أما ما يتعلق بالأعمال فقد نبَّه إليه بقوله عند تفسير قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: «والتعريف في الصالحات للاستغراق، أي عملوا جميع الصالحات، وهو استغراق عُرفي، أي عملوا معظم الصالحات ومهماتها ومراجعها مما يعود إلى تحقيق كليات الشريعة، وجري حالة مجتمع الأمة على مسلك الاستقامة، وذلك في غالب أحوال تصرفاتهم، ولا التفات إلى الفلتات المناقضة فإنَّها معفو عنها، إذا لم يسترسل عليها، وإذا ما وقع السعي في تداركها»[3].

ولعلّي أكتفي بهذا البيان وتلك الإشارات في تقرير خاصية: ارتباط هذه السُّنن بالأمم والأقوام والجماعات، وظهور آثارها فيهم دون الأفراد. وأحسب أن السبيل تمهَّدت للحديث عن الخاصية الخامسة، وهي: أنَّ نتائج هذه السُّنن تتحقق في الدنيا قبل الآخرة.

* * *

---

(١) عني به ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النور: ٥٥].
(٢) تفسير التحرير والتنوير (١٨/ ٢٨٣).
(٣) تفسير التحرير والتنوير (١٨/ ٢٨٣).

الخاصية الخامسة

نتائج هذه السُّنن تتحقق في الدنيا قبل الآخرة[1]

أي أن الأمم تلقى جزاءها على أعمالها الجماعية، خيراً كان هذا الجزاء أم شراً في هذه الحياة الدنيا. وبعبارة أدق: في حياة الأمة نفسها.

وقد أوضحت معنى هذه الخاصية بشيء من الإجمال في الخاصية السابقة، وأزيده هاهنا إيضاحاً وتفصيلاً، وذلك من خلال النقاط التالية:

أولاً: الجزاء على الأعمال منه ما يقع في الدنيا، ومنه ما يكون في الآخرة، ومنه ما يكون فيهما معاً.

فالذي لا بد أن يكون في الدنيا هو الجزاء الجماعي على أعمال الأمم، بالنظر إلى هذه الأعمال من جهة كونها مظهراً جماعياً، لا أعمالاً فردية. هذا اللون من الجزاء لا بد أن تُجْزَاهُ الأمم ـ كل الأمم ـ في الدنيا لا محالة.

والذي لا بد أن يكون في الآخرة ـ وقد يقع في الدنيا، وقد لا يقع ـ هو الجزاء الفردي على الأعمال من جهة كونها مسؤولية فردية. فهذا الجزاء لا بد أن يلقاه كل فرد بمفرده، وكل إنسان مهما كان صفته.

قال الشيخ رضا في تقرير هذين المعنيين: «إنَّ اتِّبَاعَ هدى الله المنزّل على رسله ـ وهو الدِّين ـ موجب للسعادة، بأن أصحابه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهذا وعد يشمل الدنيا والآخرة لإطلاقه، ولكنه في الدنيا إضافي مطرد في الأمم، وإضافي مقيد غير مطرد في الأفراد، وفي الآخرة حقيقي مطرد للجميع»[2].

وقد يجتمع الجزاءان، الدنيوي والأخروي، ولهذا إحدى صورتين:

الأولى: أن يلقى الفرد جزاءه فيهما بصورة فردية، كقارون مثلاً، فإنَّ الله خسفَ به وبداره الأرض. وهو في الآخرة من المخلدين في النار.

---

(١) وقد ألممتُ بشيء مما يتعلق بهذه الخاصية في المبحث الثالث من مباحث المقدمة (الفرق بين سنن الله في الأمم وسننه في الأفراد).

(٢) تفسير المنار (١/ ١١).

الثانية: أن يلقى الفرد جزاءه في الدنيا بصورة جماعية، كفرعون مثلاً، فإنَّ الله أغرقه في اليم مع قومه أجمعين.

والحديث هنا عن الجزاء الجماعي، وهو ما لا يكون إلا في الدنيا، وهذه الخاصية التي بين يدينا تقرر بصورة حاسمة: أنَّ هذا الجزاء الذي لا يكون إلا في الدنيا، لا بد أن يقع. يوضح ذلك النقطة الثانية:

وهي: أنَّ مقتضى العدل والحكمة الإلهية، إيقاع هذا اللون من الجزاء في الدنيا، وعدم تأخيره إلى الدار الآخرة، وأن يكون ذلك سُنَّة مطردة تعلمها الأمم ويعلمها الأقوام.

ذلك أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أوجد هذا الكون بما فيه ومن فيه، وجعل الإنسان فيه خليفة، واستأمنه على عمارته، وهذا الخليفة لا يعمر هذا الكون بصفة فردية، بل بصورة جماعية، ولهذا لا تظهر آثار أفعاله عادة إلا من خلال الجماعة والأمة.

وجعل لهذا الكون غاية لا بد أن يبلغها وأجلاً لا بد أن يستوفيه، قبل أن يصيبه العطب ويحل به الفساد، الذي لا يرجى بعده صلاح.

فلكي يبلغ هذا الكون مداه وغايته على الوجه الذي أراده الله، كان لا بد من الثواب والعقاب العاجل؛ إذ لا يكفي لبلوغ هذا الكون غايته على مستوى الأمم مجرد التلويح بالجزاء الأخروي ـ وإن كان له أثر بالغ الأهمية ـ بل لا بد أن تنال الأمة أو القوم سُنَّة الله في الحياة الدنيا؛ لأنَّ لها ـ بكيانها الجماعي ـ مسؤولية محددة، هذه المسؤولية تنتهي في هذه الحياة الدنيا، ويكون الجزاء في الدار الآخرة بصورة مختلفة، وليس من العدل ولا من الحكمة أن تترك بلا حساب، وإلا لم تكن أمة مسؤولة، ولم يُعد لاجتماعها ثمرة وهدف.

وإذن، فلا بد من الجزاء، ولا بد أن يكون الجزاء في هذه الدنيا.

وقد جاءت هذه المعاني واضحة في كتاب الله تعالى:

قال جل وعلا: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

وقال سبحانه مبيناً جزاء قوم هود في الدنيا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وقال سبحانه مسلياً رسوله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين، ومبيناً أن العقوبة لا محالة نازلة بهم: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. وقال تبارك وتعالى في قصة سبأ: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ . . . الآيات إلى قوله: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٦ ـ ١٩].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

فهذا كله في الدنيا، وعلى مستوى الأمم والأقوام، كما هو ظاهر النصوص.

ومن ذلك أيضاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥].

ومما يؤكد الحكمة من كون جزاء هذه السنن في الدنيا، قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقوله في الآية الأخرى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠].

ففي هاتين الآيتين يقرر سبحانه أن دفع الفساد عن الأرض وحماية ما عليها، وحماية الحق الذي أنزله وأمر باتباعه هو الغاية من إقرار سُنَّة التدافع. ومعلوم أنه يحصل بسبب هذا التدافع نصر وهزيمة، وظهور وانكسار... وكل ذلك من الآثار التي تجنيها الأمم في عاجل أمرها.

والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة.

كل هذا فيما يتعلق بالأمم والأقوام، أمَّا الأفراد فقد لا يحصل كل منهم على جزاء عمله ناجزاً في الدنيا، وإن حصل عليه فقد لا يحصل عليه كله.

قال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

أمَّا في الآخرة، فقد قال سبحانه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

والمقصود: أنَّ من خصائص سنن الله في الأمم، انطباقها وظهور آثارها على الأمم والأقوام في الدنيا قبل الآخرة، وأن ذلك راجع إلى اختلاف الأمم عن الأفراد، واختلاف وظيفة هذه السنن عن غيرها من النواميس التي تحكم الكون، وعالم الآخرة.

وبعد، فإنَّ أعظم ثمرة تجتنيها الأمة من معرفة: أنَّ آثار أعمالها ومواقفها، سلبية كانت أم إيجابية، سوف تلقاها وجهاً لوجه، فلا تملك التهرب منها، إن كانت أعمالاً تشينها، وسوف تنعم بها إن كانت أعمالاً صالحة تزينها.

إنَّ أعظم ثمرة تجتنيها الأمة من معرفة ذلك:

أن تخطط بدقة وعمق وإخلاص في الحال واللحظة، وأن لا تتهاون أو تغض الطرف عن أي خطأ أو تقصير، سواء كان واقعاً أو مما قد يقع في المستقبل؛ ذلك أنَّها تعلم أنها

في يومها ترسم مستقبلها في غدها ، ليس رجماً بالغيب ولكنه اليقين الذي لا يخالطه شك ، كما تعلم أن هذا الغد سوف تواجهه هي بكل ما فيه لا محالة . وحينئذٍ ستختار لنفسها فتحسن الاختيار .

ومما يؤسف له أن المسلمين اليوم أبعد ما يكونون عن فقه هذه المعاني والعمل بموجبها ، مع أنهم أهل القرآن ، وهُمْ أولى الناس باتِّباعه .

* * *

الخاصية السادسة

أنَّها سنن مرتبطة بالكسب البشري

وهذا يعني ببساطة: أنَّ نوع الكسب البشري وكيفيته وكميته، هي التي تحدد نوع السُّنة المستحقة، وتتحكم في سرعة وقوعها، وقوة تأثيرها.

وبمعنى آخر: البشر هم الذي يصنعون أسبابها باختيارهم وكسبهم، ويتحملون نتائج ذلك، لهم أو عليهم. ذلك أنَّ الله الذي خلق الخلق وأفعالهم، وخلق الأسباب وقدَّرها، هو الذي جعل بينها هذا النوع من العلاقة والارتباط، ورتَّب عليها ما رتَّب من النتائج.

ونحن البشر ما علينا إلا أن نجتهد في إدراك:

- طبيعة العلاقة بين كسبنا وعملنا، وبين السنن التي تضبط هذا الكسب وذلك العمل.

- وأن نلتمس الحكمة من وراء جعل العلاقة بينهما بهذه الكيفية دون ما سواها. بعد أن يكون قد تقرر عندنا أن ذلك كله من صنع الله العليم الحكيم.

إن إدراك طبيعة العلاقة بين كسبنا وبين السنن الإلهية هو جوهر هذه الخاصية.

كما أنَّ معرفة الحكمة من ذلك هي ثمرة دراسة هذه الخاصية.

وقد أولى القرآن الكريم ذلك كله عناية بالغة؛ لما لمعرفته من عظيم النفع للفرد والأمَّة.

فمن ذا الذي لا يستطيع أن يكشف بنفسه طبيعة العلاقة بين كسب البشر وبين الجزاء الذي يحصلون عليه وفق السنن التي تضبط حياتهم، ويعقل الحكمة من وراء ذلك، فور قراءته لمثل هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم

مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٥]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنفال: ٥٣]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ [الرعد: ١١]. وقال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وفور قراءته لمثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ ﴾[محمد: ٤]. وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوله تعالى على لسان نبيه نوح ﷺ: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وقوله على لسان هود ﷺ: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: ٣]... إلى غير ذلك من الآيات، وما أكثرها. وكلها تؤكد رسوخ هذه الخاصية في سنن الله في الأمم، خاصية ارتباط هذه السنن بكسب البشر وأعمالهم. يضع الله الأمة أو القوم حيث يضعون هم أنفسهم، ويمنحهم بقدر ما يتأهلون له من العزّة والذلّة، والغنى والفقر، والأمن والخوف، ومن الصلاح والفساد و... و... فلا محاباة ولا خصوصية، ولا مجال للخوارق والمعجزات التي لا تسندها الأسباب الشرعية، بل الأمر كما قال سبحانه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾ [الإسراء: ٧]. وقال: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ

﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣] .

وهذه الخاصية ، مع شدَّة وضوحها ، وجريان شؤون الخلق على ما يصدقها ، سواء في ذلك شؤون دينهم وشؤون دنياهم فإنَّ أكثرهم في غفلة عنها ، وخصوصاً ما يتصل بإقامة دين الله وشرعه من نصره والعمل بهدايته .

وقد جلى الأستاذ سيد قطب هذه الخاصية ، وقررها أحسن تقرير في كتابه النفيس «هذا الدين» وبهذه المناسبة أنقل مقتطفات من كلامه ، تضع النقاط على الحروف وتلخص معاني ما سبق .

يقول ـ رحمه الله ـ تحت عنوان: منهج للبشر: «هنالك حقيقة أولية عن طبيعة هذا الدين ، وطريقة عمله في حياة البشر ، حقيقة أولية بسيطة(١) . ولكنها مع بساطتها كثيراً ما تنسى ، أو لا تُدْرك ابتداءً ، فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين ، حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي ، حاضره ومستقبله كذلك .

إنَّ البعض ينتظر من هذا الدين ـ ما دام منزلاً من عند الله ـ أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب! ودون أي اعتبار لطبيعة البشر ، ولطاقاتهم الفطرية ، ولواقعهم المادي ، في أي مرحلة من مراحل نموهم ، وفي أية بيئة من بيئاتهم .

وحين لا يرون أنه يعمل بهذه الطريقة ، وحين يرون أن الطاقة البشرية المحدودة ، والواقع المادي للحياة الإنسانية يتفاعلان معه ، فيتأثران به ـ في فترات ـ تأثراً واضحاً ، على حين أنهما في فترات أخرى يؤثران تأثيراً مضاداً لاتجاهه . حين يرون هذا ، فإنَّهم يصابون بخيبة أمل .

إنَّ هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية ، يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم ، والله قادر ـ طبعاً ـ على تبديل فطرة الإنسان ، ولكنه ـ سبحانه ـ شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة لحكمة يعلمها ، وشاء أن يجعل الهدى ثمرة للجهد والرغبة في الهدى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

وشاء أن تعمل فطرة الإنسان دائماً ولا تمحى ولا تعطل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠] .

---

(١) هذه الحقيقة ، هي هذه الخاصية ، وهي ليست خاصة بطبيعة هذا الدين ، بل هي عامة في كل عمل وكسب يقوم به البشر ، كما أوضحت ذلك فيما سبق ، ولكن المؤلف ذكرها لمناسبة الحديث عن طبيعة هذا الدين .

وشاء أن يتم تحقيق منهجه الإلهي للحياة البشرية عن طريق الجهد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وشاء أن يبلغ الإنسان من هذا كله بقدر ما يبذل من الجهد وما ينفق من الطاقة.. وليس لأحد من خلق الله أن يسأله ـ سبحانه ـ لماذا شاء هذا كله على هذا النحو الذي أراده فكان؟ لماذا شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة؟ ولماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهي لحياته البشرية يتحقق عن طريق الجهد البشري، ولم يشأ أن يجعله يتم بوسيلة خارقة، وبأسباب مبهمة غامضة؟!

ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقائق ويعرفها، ويراها وهي تعمل في واقع الحياة البشرية، ويفسر أحداث التاريخ البشري على ضوئها. فيفقه خط سيرها التاريخي من ناحية، ويعرف كيف يواجه هذا الخط ويوجهه من ناحية أخرى، ويعيش مع حكمة الله وقدره، فينطبع بهما الانطباع الصحيح من ناحية ثالثة.

على أنّه من الملاحظ الواضح، أن ترك المنهج الإلهي للجهد البشري، يتولى تحقيقه في حدود الطاقة البشرية، يُصْلِحُ النفوس البشرية، ويُصْلِح الحياة البشرية.

نقول هذا، لا لنعلل به مشيئة الله ـ سبحانه ـ في جعل الأمر على ما جعله، ولكن لنسجل فقط ملاحظة واقعية لآثار هذه المشيئة في حياة العباد.

ولا يتم تمام القول في طبيعة هذا الدين وطريقته، حتى نضيف إلى تلك الحقيقة تكملة ضرورية لها لا بد من بيانها كذلك.

إنّ كون هذا المنهج الإلهي متروكٌ تحقيقه للجهد البشري، لا يعني استقلال الإنسان نهائياً بهذا الأمر وانقطاعه عن قدر الله وتدبيره، فإرادة الله هي الفاعلة في النهاية، ولكن هذه الإرادة تعين من يعرف طريقها، ويستمد عونها، ويجاهد في الله ليبلغ رضاه.

وإذن فهو في النهاية تدبير الله ومشيئته وقدره؛ ليتم ما يريده من وراء الأسباب والأحداث[1].

بقي علينا أن ندرك معنى مهماً ألمحت إليه في ثنايا الحديث، ولا بد من التذكير به وإيضاحه.

---

(١) هذا الدين، ص ٣ ـ ١٤ باختصار وتصرف يسير.

فقد قلتُ في تقرير معنى هذه الخاصية: البشر هم الذين يصنعون أسبابها باختيارهم وكسبهم، ويتحمَّلون نتائج ذلك لهم أو عليهم.

وأقول هنا: إنَّ تحمل البشر، أمَّةً أو قوماً لهذه النتائج، أمر لا مفر منه ولا خيار لهم فيه؛ لأنَّ نتائج كسبهم ضرب من ضروب الجزاء على هذا الكسب، وهو جزاء لا بد أن ينالوه في الدنيا قبل الآخرة، لأنَّه جزاء جماعي لا فردي، كما تقرر ذلك في غير هذا الموضع.

ومن هنا يبدو الفرق واضحاً بين السبب والنتيجة، بين فعل الأمة وكسبها، وبين نتيجة ذلك. الأول اختياري راجعٌ إلى إرادة الأمة، والثاني لازمٌ لا فكاك للأمة عنه.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ * يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٥، ٧٦].

وهذا هو معنى كون ارتباط السنن بالكسب البشري خاصية من خصائص السنن الإلهية.

* * *

الخاصية السابعة

السنن منظومة واحدة

أي أن بعضها يُكمّل بعضاً، ويؤثر فيه إيجاباً وسلباً. فهي - وإن كانت سنناً متعددة - تحكم أوضاعاً مختلفة، إلا أن بينها من التناسق والتكامل ما يجعل تفسير أي حدث تاريخي من خلال عامل(سُنّة) واحدة يُعدّ خطأ منهجيا، يفضي لا محالة إلى نتائج مدمرة.

ومعنى هذا، أنَّ للسُّنَّةِ الواحدة تأثيراً باعتبارين:

الأول: باعتبارها السُّنة المباشرة للحال؛ أي الجزاء المطابق للكسب.

والثاني: باعتبارها لازماً، أو سبباً لتلك الحال، أو ما شابه ذلك، فهي بالتالي ذات علاقة بنوعية الجزاء بصورة ما من الصور.

وهي في الحالين تشكل حلقة في سلسلة، وخرزة في نظام غير منفصلة عنه، ولا يتصور أن تكون غير مؤثرة فيه[١].

«إنَّ السببَ المباشر ليس في الحقيقة سبباً، إنَّه مجرد نقطة في سلسلة من الحوادث والاتجاهات والتأثيرات والقوى التي تبدأ فيها النتيجة بالظهور أمام العيان. إنَّ السبب المباشر هو الحادث المعجل لحدوث الأمر، كما يعمل سقوط عود من الثقاب على كومة قابلة للاشتعال في إشعالها. ومن هنا لا يكون الطريق الأفضل في تقصي الأسباب لأمر ما أن نسأل: ما الذي يمكن أن يحدث لو أن هذه الحادثة لم تقع؟ بل الأفضل أن يكون السؤال: كيف أدت الظروف إلى مثل النتيجة في وقت لاحق؛؟ لأنَّ الاتجاهات والتأثيرات والعوامل المقررة لتلك النتيجة كانت وما تزال تؤدي عملها؟!»[٢].

ولإيضاح المقصود بهذا الكلام، أضربُ المثلَ التالي:

نقول مثلاً: جرت العادة أن النصر سبب للظهور والتمكين، والهزيمة سبب للذلّ والهوان فالزوال.

ونقول أيضاً: الصبر سبب من أسباب النصر، والخوف والخور من أسباب الهزيمة.

---

(١) انظر: كلمة في تعليل التاريخ، لعمر فروخ، ص ١٢ وما بعدها، وكتاب: كيف نفهم التاريخ، للويس جوتشلك، ص ٢٤١.

(٢) كيف نفهم التاريخ، ص ٢٤٢، ٢٤٣، تحت عنوان: (مشكلة السبب والدافع والتأثير) بتصرف.

ثم نقول ثالثاً: إنَّ من السنن الإلهية أن الإيمان مصدر القوة والأمن، وأن المعصية والكفر والشرك من عوامل القلق والخوف.

فأنت ترى أن النصر ـ مثلاً ـ لا يمكن أن يتحقق بعامل واحد كالصبر مثلاً، بل ولا حتى الإيمان بالله وحده دون مراعاة بقية الأسباب واللوازم والمقدمات.

فإذا كان الإيمان بالله يورث الصبر، فقد يوجد الصبر عند غير المؤمن فينتصر، إذا استجمع الأسباب الأُخَر، وفرط فيها المؤمن.

وهذا لا يعني أن المؤمن لم يصبر، وإنَّما معناه: أنَّه مع صبره، قد لا ينتصر! لتخلّف أسباب أُخَر؛ كالتخطيط أو إعداد القوة... أو غيرها، وبالتالي لا يستحق الظهور والتمكين.

لكن إذا حصل النصر ـ وهو يتم عادة بأسباب في مقدمتها الإيمان والصبر ـ كان ذلك علامة على الظهور، ودليلاً على أهلية التمكين.

والكفر والشرك يورثان الخور والخوف، وهما من أسباب الهزيمة عادة، لكن قد ينتصر الكافر والمشرك، لا لأنَّ الكفر أو الخوف من أسباب النصر! ولكن لأنَّ معه من الأسباب الأُخَر، المؤهلة للنصر أكثر مما مع عدوه.

أمَّا إذا حلَّت الهزيمة، من جرَّاء تضافر أسباب عدَّة، فهي دليل التقهقر، وعنوان الهوان، ويكون الخور والخوف حينئذٍ في مقدمة الأسباب التي قادت إلى تلك الهزيمة.

وواضح ـ كما ترى ـ أنَّه لا يصح القول بانفراد سبب واحد بتحقيق النصر أو إحداث الهزيمة، وإن كنا نقول تجوّزاً: إنَّ صبرَ الجنود في ساحات القتال واستبسالهم كان سبب النصر، وإن فرارهم وتركهم الميدان كان سبب هزيمتهم؛ لأنَّ للصبر أسباباً وللفرار أسباباً... وهكذا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]؛ أي: فأنتم أحق بالصبر منهم.

وإذن، فكل سُنَّة من تلك السُّنن هي جزاء لكسب، وهي أيضاً لازم أو سبب لسنة أو سنن أُخَر.

ولهذا التلازم، بل التكامل بين منظومة السنن نجد تفاوتاً في صور النصر وصور الهزيمة: فهذا نصر حاسم وذاك نصر قريب من الهزيمة... وكذا الهزيمة. وما ذاك إلا لتفاوت مقدار الأسباب المأخوذ بها، وتفاوت كيفية الأخذ بها كذلك.

ونجد مثل هذا التفاوت في صور الاستخلاف والتمكين في الأرض، طولاً وقصراً، استقراراً واضطراباً؛ لاختلاف أسبابه.

فتمكين الأمَّة المسلمة في الصدر الأول، تمكين واستخلاف اجتمعت فيه الأسباب المادية والمعنوية، بصورة جمعت بين التكامل والعمق. وتمكين الأمم الكافرة اليوم، تمكين واستخلاف اجتمعت فيه أسباب القوة المادية. ولأنَّ لكل منهما أسبابه ودوافعه، اختلفت آثارهما اختلافاً كبيراً، وإن اشتركا في الظاهر وفي المسمَّى اللغوي.

ثم إنَّ هذا التفاوت في مقدار وكيفية الأخذ بالأسباب، وما يترتب عليه من اختلاف الآثار... يؤكد أنَّ تمكين الأمة المسلمة في الصدر الأول لا دليل فيه على ثانوية الأخذ بالأسباب المادية، وأنه حصل بالإيمان وحده، بلا قوة مادية ودون أخذ بالأسباب.

كما أنَّ تمكين الأمم الكافرة، الآخذة بأسباب القوة المادية اليوم ليس دليلاً على ثانوية أسباب القوة المعنوية كالإيمان بالله، والالتزام الأخلاقي.

بدليل أنَّ تمكين الأولين كان أتم وأكمل، وكان أسعد للإنسان، وأطول عمراً في الزمان؛ لأنَّهم كانوا أجمع لشروط التمكين والاستخلاف. ومع ذلك فقد مكَّن للأمم الكافرة اليوم بما معها من أسباب القوة المادية تمكيناً يوازي أهمية تلك الأسباب.

ليس هذا فقط، بل إنَّ ما مع الأمة من الأسباب، تتحدد قيمته بالنظر إلى ما مع خصومها من تلك الأسباب أو غيرها؛ لأنَّ لذلك أثراً في فاعلية ما معها هي من الأسباب.

فالأمم الكافرة اليوم، لم تتمكن بفضل ما معها من أسباب القوة المادية فقط، ولكن بسببها، وبسبب فقد المسلمين لهذه الأسباب المادية، ولغيرها من الأسباب المعنوية، من الإيمان الصادق والعمل الصالح، فاجتمع للأمم الكافرة قوتهم، وضعف خصومهم.

وكل هذا يؤكد لنا معنى هذه الخاصية في سنن الله في الأمم، ألا وهي التكامل، والاشتراك في التأثير، وكونها تشكل منظومة واحدة، غير قابلة للتجزئة.

فما سبب كونها كذلك؟ لِمَ لا تعمل كل سُنَّة منها بصورة منفردة وعلى حدة، وتستقل بأسبابها وآثارها؟

سبب ذلك راجعٌ إلى طبيعة الإنسان، الذي جاءت هذه السنن لتنظم حياته وتضبطها، وإلى هذه الحياة نفسها، والوظيفة التي أوجد هذا الإنسان أساساً ليقوم بها ويؤديها فيها.

فلا الإنسان تصلح دوافعه ونوازعه المختلفة لأنْ تُلَبَّى من خلال تلبية جانب أو جوانب منها، دون سائرها. ولا الحياة التي أبدعها الله متلائمة وطبيعة هذا الإنسان، والوظيفة التي كلفه القيام بها، يمكن أن تصلح جوانبها المختلفة باستصلاح جانب أو جوانب منها دون سائرها. وبالتالي لا جرم أنه لا تصلح هذه السنن لأنْ تعمل متفرقة، ولا آثارها؛ لأن تفسّر بالعامل الواحد!

يقول الدكتور عويس في فصل «نشوء الحضارات في ضوء التفسير الإسلامي للتاريخ»: «إنَّ الطبيعة متعددة، لكنها ـ أيضاً ـ متناسقة ذات علاقة مشتركة، والإنسان متعدد، ولكنه أيضاً متشابك منسجم ذو علاقة مشتركة، وبالتالي فالتفسير الذي يجب أن يعتمد لنشوء الحضارات يجب أن يكون تفسيراً متعدداً، لكنه في الوقت نفسه منسجمٌ ذو علاقة مشتركة. وعلى أساس هذا المقياس الواضح... يجب أن تُعْرَض كل التفسيرات»[1].

ومن هنا فـ «إنَّ القرآن يرفض في نظرته للمسألة الحضارية أشد ما يرفض موقف التجزئة والفصل، وإقامة الجدران بين مساحات التجربة البشرية، ويرى فيها وحدة حيوية تسري فيها روح واحدة وتغذيها دماء واحدة. وأن تجزئتها وعزل بعض جوانبها خلال العمل عن بعضها، ليس خطأً فحسب، لكنه مسألة تكاد تكون مستحيلة، إذا ما أردنا مسبقاً أن نصل إلى نتائج صحيحة»[2].

«ومن هنا يقرر التفسير الإسلامي، أنَّ تاريخ الإنسان هو تسجيل لمحاولة الإنسان أن يحقق كيانه كله، بكل مقوماته وكل مكوناته، سواء منها توجهه إلى خالقه بالعبادة (أي قضية الدِّين)، أو توجهه إلى إقامة مجتمع فاضل (أي قضية الأخلاق والقيم)، أو توجهه للتعرُّف على الكون المادي (أي قضية العلم)، أو توجهه لاستثمار معرفته في تحسين

(١) تفسير التاريخ علم إسلامي، د/ عبد الحليم عويس، ص ٢٠٨.
(٢) التفسير الإسلامي للتاريخ، د/ عماد الدين خليل، ص ١٩٨.

أحواله المعيشية وترقيتها (أي قضية الحضارة المادية وعمارة الأرض)، أو توجهه نحو الكون والحياة بالحسّ الجمالي (أي قضية الفن)، أو توجهه بفكره لمعرفة السنن التي تسيّر الحياة البشرية ومحاولة استخراج دلالتها (أي قضية الفكر). كلها توجهات أصيلة، صادرة صدوراً مباشراً عن الكيان الإنساني الشامل المترابط، وليس أحدها انعكاساً لغيره من توجهات ذلك الكيان، وإن كانت كلها تتأثر ببعضها البعض، ويؤثر بعضها في بعض بدرجات مختلفة، تعتمد على مساحة الدافع في النفس، ونوعية الفرد أو الجماعة أو الجيل موضع الدراسة، والظروف المادية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي تواجهه، مما يُوجد الاختلاف بين فرد وفرد وجماعة وجماعة وجيل وجيل.

والحقيقة التي يراها التفسير الإسلامي للتاريخ، أنَّ هناك وحدة تشمل هذا كله، في المنبع والمصبّ. في المنبع عند صدورها من النفس البشرية المتشابكة المترابطة بطبيعة تكوينها، وفي المصب عند تأثيرها في المجتمع البشري تأثيراً مجتمعاً متشابكاً، وإن جاءت التأثيرات فرادى في ظاهر الأمر.

فالموقف الفني لفرد أو لأمة، لا يمكن فصله مثلاً عن الموقف الاعتقادي ولا الموقف الأخلاقي، فضلاً عن التأثيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمادية التي تؤثر بوعي أو بغير وعي في الفرد، أو الأمَّة صاحبة الإنتاج الفني»[1].

ويمكننا الآن ـ بعد تقرير هذه الخاصية من الناحية النظرية ـ أن نقف وقفة أخرى مع بعض الشواهد والأمثلة من كتاب الله تعالى، وهي كثيرة جداً.

فمثلاً: نجد في آيات كثيرة، الارتباط ما بين الإيمان بالله تعالى وبين عدد من مظاهر الحياة المادية، كرغد العيش وكثرة البركات، وكالتمكين والاستخلاف في الأرض. ومظاهر الحياة المعنوية، كالأمن والطمأنينة. وما هو مؤلف منهما معاً؛ كالحياة الطيبة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال هود ﷺ لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]. وقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا

---

(١) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، للأستاذ/ محمد قطب، ص ٤٨، ٥١ باختصار.

قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٨ ، ٤٩] .

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] . وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] . وقال سبحانه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] . . . إلى آيات أخر في هذا المعنى .

وهكذا يبرهن القرآن على عمق هذه الخاصية بوضوح ، زاده التكرار وضوحاً ، ويؤكد لنا الطبيعة التكاملية بين مجموعة السنن التي تضبط حياة الأمم والمجتمعات ، حينما يمزج ما بين المعنوي والحسيّ ، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح ؛ ليخلق منها إنساناً سوياً ، وأمّة خلاّقة رائدة .

ومثل آخر نتبين من خلاله خاصية التناسق والتأثير المتبادل بين مجموعة السنن المتعلقة بالإنسان:

النصر!

فإنَّ حصوله متعلّق بعدة أسباب ، منها ما هو معنوي ، ومنها ما هو مادي .

ثمَّ إنّه لا غنى عن شيء منها ، فكلها ذات تأثير .

ويمكن أن يقف على هذه الحقيقة وتلك ، من يقرأ هذه الآيات من سورة الأنفال .

قال جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٥ ـ ٤٧] .

ويُقَاسُ على الإيمان بالله . . . والنصر ، سائر شؤون الحياة .

ومن تأمَّل مجريات الأحداث ، كيف تتكون ، ثم كيف تتحول ، آمن بمصداقية هذه الخاصية ، وأنها ضرورة لا تصلح الحياة ، ولا يصلح الإنسان إلا بها(١) .

ولوضوح هذه الخاصية واستقرارها في حسّ الأفراد والأمم ، ثمراتٌ وفوائد عظيمة ، في مقدمتها: أن تؤمن بضرورة الإصلاح الشامل لكل نواحي الحياة ، المادية منها والمعنوية ، الدينية والدنيوية ؛ لعلمها بأنَّ السُّنن لا تتعامل مع جانب منها وتهمل الجوانب الأُخَر ، وأن أي تقصير هنا يظهر أثره هنا وهناك حتماً . وبالتالي فلا مجال للاستهانة بهذا الجانب أو ذاك .

وأن تتعامل الأمَّة مع الأحداث ومع الواقع بصورة صحيحة ، فلا تفسر الأشياء تفسيراً جزئياً ، فتحمِّل جانباً أكثر مما يحتمل ، أو تلغي تأثير جانب ما من حياتها ؛ وذلك لعلمها أنَّه لا يستقل ـ عادة ـ سبب واحد في إحداث نتيجة مَّا على مستوى الأمة ، حتى الكفر ـ على قبحه ـ لا تؤخذ الأمم به عادة إلا بعد أن يُجامِع غيره من الأسباب كالبغي والظلم ، وشيوع الفواحش ، وكتكذيب الرُّسُل وإهانتهم . . . ونحو ذلك(٢) .

تلك هي ـ فيما ظهر لي ـ أهم وأبرز خصائص سنن الله في الأمم .

وقد تتساءل بعد ذلك: وهل للقرآن طريقة خاصة ومنهج متميِّز ، نستطيع أن نقف على هذه السنن وتلك الخصائص مظانّها من خلاله؟

وأقول: نعم . وإنَّه لمنهج متفرِّدٌ . فهلم إلى الحديث عنه في الفصل الثاني ، حيث «منهج القرآن في عرض السُّنن» .

* * *

(١) ولمن شاء المزيد ، مراجعة كتاب: التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ١٦ ، ١٤٣ ، ١٩٦ ، ٢١٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ ، وكتاب: حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ١٢ ، ٤٤ ، ٥٠ ، وكتاب: تفسير التاريخ علم إسلامي ، ص ٢٠٧ . . . وغيرها .

(٢) انظر: أقسام القرآن ، لابن القيم (١/ ٨١) وما بعدها ، ونسبه إلى شيخ الإسلام ابن تيمية .

الفصل الثاني

منهج القرآن في عرض سنن الله في الأمم

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: في الأسلوب والصياغة.

المبحث الثاني: في طريقة العرض.

منهج القرآن في عرض سنن الله في الأمم

تمهيد:

قد تقرَّر فيما سلف ، أنَّ القرآن قد عُنِيَ ببيان سنن الله في الأمم عناية فائقة ، وأنه بالاستقراء ، تبيَّنَ لنا أن السُّنن بمجموعها تحتل مساحة واسعة في كتاب الله تعالى ، كيف لا وقد «بلغت آيات القصص ، وهي تمثل جانباً من الجوانب التي يعرض القرآن من خلالها السنن ، ما يقارب ألفاً وخمسمائة آية ، وهو ما يوازي ربع آي القرآن الكريم على وجه التقريب ، ويوازي ثلاثة أضعاف آيات الأحكام ، والتي بلغت خمسمائة آية تقريباً»[(١)] .

وهذه الكثرة ، وتلك العناية ، تدلُّ ـ بلا شك ـ على أهمية معرفة تلك السنن ، بل ضرورة تلك المعرفة وما لها من الثمرات والمنافع ، كما تدلُّ على تعددها وكثرتها من جهة ثانية .

يقول الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ : إنَّ «ثلاثة أرباع القرآن تقريباً ، قصص وتوجيه للأنظار إلى الاعتبار بأحوال الأمم في كفرهم وإيمانهم وشقاوتهم وسعادتهم ، ولا شيء يهدي الإنسان كالمثلات والوقائع ، فإذا امتثلنا الأمر والإرشاد ونظرنا في أحوال الأمم السالفة وأسباب علمهم وجهلهم وقوتهم وضعفهم وعزهم وذلهم ، وغير ذلك مما يعرض للأمم ، كان لهذا النظر أثرٌ في نفوسنا ، يحملنا على حُسْن الأُسوة والاقتداء بأخبار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكين في الأرض ، واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار»[(٢)] .

ومن هنا نجزم ابتداءً بأن القرآن ـ وهو الكتاب الذي أنزل ليكون دستور حياة ودليل أمة ، بل أمم وشعوب ـ لا يمكن أن يعرض لهذه السنن كيفما اتفق دون قصد أو حكمة . وكيف يمكن أن يكون هذا ، وهذه السنن هي مظهر من مظاهر حكمته ورحمته ، والقرآن الكريم هو كلامه . وفعله تعالى وخلقه ، وكلامه وأمره هو عين الحكمة والصواب .

نجزم أنّه ـ سبحانه ـ كما خلق هذه السُّنن وقدَّرها بعلم وحكمة ، فإنّه سبحانه سيُعلمها لعبادة ويدلُّهم عليها بعلم وحكمة كذلك ، وعلى البشر أنفسهم أن يتعرَّفوا على هذه السُّنن ، بتدبر كلامه ، وتأمّل آيات كتابه ليعرفوا ويعلموا:

---

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١/ ٢٢) بتصرف .

(٢) تفسير المنار (١/ ٦٧) .

- في أي مناسبة يعرض كتاب الله تعالى لهذه السنن؟
- وكيف يعرض لها؟ وبأي أسلوب وصيغة؟

ويقارنوا، ويوازنوا... وإذا فعلوا ذلك، فسيلوح لهم الفرقان، وتصبح الآيات والأحداث المتفرقة في النظرة الأولية الساذجة، تؤلف منهجاً محكماً وبنياناً مرصوصاً.

أجل! كيف تكون السنن بهذه الضخامة وتلك الأهمية؟! وكيف يطلب من البشر أن يتعلّموها ويعملوا بمقتضاها؟! ثم لا يكون للقرآن الكريم منهج واضحٌ محدد في عرضها وتبيانها؟!

بلى، إنَّ للقرآنِ نهجاً متميزاً في أسلوبه، متميزاً في طريقة عرضه، تمتزج فيه روعة الأسلوب بجمال العرض ودقته وجاذبيته؛ لإحداث الأثر المطلوب في الحسّ والوجدان.

ولعل من المناسب أن أعرض لمنهج القرآن في عرض السنن الإلهية في مبحثين، كلاً على حدةٍ ما أمكن؛ وذلك لمجرد الإيضاح، مع ملاحظة أنهما في حقيقة الأمر يمثلان شيئاً واحداً[1]. وذلك من خلال مبحثين:

المبحث الأول: في الأسلوب والصياغة.

المبحث الثاني: في طريقة العرض.

***

(١) ولذا، فقد تتكرر الأمثلة، لهذا السبب.

المبحث الأول

في الأساليب والصيغ

وأعني بالأساليب والصيغ: فنون القول وطرائق البلاغة، كالتصريح، والإيماء، وكالخبر وأنواع الإنشاء، وكالتشبيهات وضرب الأمثال، وأساليب الشرط... ونحو ذلك من الأساليب التي لا تخطئ العين رؤيتها، والحسّ إدراكها، كلما قرأ قارئ أو استمع مستمع إلى آيات السنن الكثيرة المبثوثة في ثنايا القرآن الكريم. وقد استودع الله في كتابه متخيرها، وما يكفل إحداث أبلغ الآثار في نفوس وعقول المخاطبين.

وإليك جملة هذه الأساليب والصيغ التي عرضت من خلالها السُّنن، مشفوعة بنماذج، أذكرها على سبيل التمثيل لا الحصر، ومنها:

أولاً: الصيغ الصريحة(١):

أي الصيغ التي ورد فيها ذكر السُّنة أو السُّنن بلفظها الصريح. وذلك في مواضع عدَّة بلغت أحد عشر موضعاً، كلها مما يتعلَّق بسنن الله في الأمم، «وقد أبرزت هذه الآيات في سياقها السنن الرئيسة من سنن الله عز وجل في الحياة الإنسانية»(٢).

وقد توخَّى القرآن من التصريح بلفظ السُّنة أو السُّنن التأكيد على صدقها وثباتها واستمرارها، وذلك مُستَفادٌ من:

دلالة اللفظ: فإنَّ السُّنة هي الطريقة والعادة المتبعة في الشيء.

كما أنه مستفاد من الأسلوب الجامع بين الإثبات والنفي، كما هو ظاهر عامة الآيات الواردة بهذا الصدد.

ومن الآيات التي جاء لفظ السُّنة أو السنن صريحاً فيها:

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

---

(١) انظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١/ ١١).

(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١/ ١١). وانظر تفصيل ذلك: في الخاصيتين الأولى والثانية من خصائص سنن الله في الأمم.

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ [الكهف: ٥٥].

وقوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢].

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣]. وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٣ ـ ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢١، ٢٢].

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧].

وقوله: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

ولو تأملنا هذه الآيات، لوجدنا أن كثيراً منها عرضت للسنن بصيغة الخبر ابتداءً، ثم أكدت هذا الخبر بالأسلوب الإنشائي[1]، كما أنها لا تكاد تخلو من أسلوب أو أكثر من أساليب التأكيد[2].

---

(١) فمثلاً قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ ﴾ صيغة خبرية، وقوله بعد ذلك: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أسلوب إنشائي... وهكذا.

(٢) كإثبات الشيء ونفي ما يضاده.

ثانياً: الألفاظ التي تدل على معان كونية[١]:

ومن منهج القرآن في عرض السُّنن، أنّه كما يعرضها بألفاظها الصريحة، فإنّه يعرضها بألفاظ وصيغ كونية عامة، تتعلق بربوبية الله وخلقه، وهو قضاؤه وقدره الكونيان، وهي غير الدينية المتعلقة بإلهيته وشرعه، فتلك عامة وهذه خاصة، ولا خروج لأحد عن حُكمه الكوني القدري. وأمّا حكمه الديني الشرعي، فيعصيه الفجار والفسّاق[٢].

والألفاظ والصيغ المقصودة في سُنن الله في الأمم، هي الكونية العامة، فهي التي تناسب عموم السُّنن واطرادها.

* ومن تلك الألفاظ: الحكم الكوني، كقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢]. ومعناه: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق، وافعل ما تنصر به عبادك وتخذل به أعداءك[٣].

وكذلك قوله تعالى على لسان شعيب ﷺ: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]. وحكمه تعالى بينهم: أن ينصر الحق ويوقع العقوبة على المبطل[٤] على ما جرت به سنته ومضت عادته.

* ومنها: الإرادة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

«ومعنى إرادة الله إهلاك قرية: التعلق التنجيزي لإرادته، وتلك الإرادة تتوجه إلى المراد عند حصول أسبابه، وهي المشار إليها بقوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ إلى آخره»[٥].

وفسوق المترفين عند أمرهم بالطاعة واستحقاق القرى الإهلاك بسبب ذلك، أمرٌ واقع، وإذن فقوله: ﴿أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ هي الإرادة الكونية، وهي متحققة لا محالة؛

---

(١) انظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١/ ١٦).
(٢) انظر: شفاء العليل، ص ٥٤٩.
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٠٣)، وشفاء العليل، ص ٥٥٠.
(٤) تفسير السعدي (٣/ ٦١).
(٥) التحرير والتنوير (١٥/ ٥٣).

لأنَّ فسق المترفين عن الطاعة وعصيانهم الأمر، هو مما قضاه الله وقدَّره كوناً، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

فالأمر في قوله: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾، وإن كان هو الأمر الشرعي الذي هو ضد النهي ـ وهو قول جماعة من السلف[١] ـ أي أمرناهم بالطاعة، فإنَّ فسق المترفين وعدم طاعتهم كلما أُمِرُوا بالطاعة، هو قضاء وقدر كوني.

هذا قولٌ في معنى الآية.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: إنَّ الأمرَ في الآية أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي، ورجح ذلك من وجوه، أنقلُ منها قوله في الوجه السابع: «إنَّ إرادة الله سبحانه لإهلاك القرية، إنَّما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم، وإلا فقبل ذلك هو لا يريد إهلاكهم. فإذا أرسل الرسل فكذَّبوهم، أراد إهلاكها فأمر رؤساءها ومترفيها أمراً كونياً قدرياً لا شرعياً دينياً بالفسق»[٢].

وعلى هذا، فالإرادة والأمر في الآية كونيان[٣].

وتلك سُنته تعالى في القرى التي يفسق أهلها تبعاً لفسوق مترفيها.

* ومن الإرادة الكونية: قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥].

وقد فعل ـ جل وعلا ـ ذلك بهم كما قال: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٩].

«ولن ينفع حذر من قدر؛ لأنَّ ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]. و﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ [الرعد: ٣٨].

---

(١) كابن عباس وسعيد بن جبير، واختاره ابن جرير في تفسيره (١٥/ ٥٧)، والشوكاني في التفسير (٣/ ٢١٤)، والشنقيطي في أضواء البيان (٣/ ٤٨٤)، وغيرهم.
(٢) شفاء العليل، ص ٥٥٢، ٥٥٣.
(٣) وهو قول طائفة من السلف وأهل التفسير. وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢).

أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ولا يغلب، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه»(١).

وقوله سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. ثم قال بعد ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾، وهو هنا الخبال والضلال ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠].

فذكر ـ سبحانه ـ في هذه الآيات لفظ الإرادة ولفظ الجعل الكونيين في سياق تقرير سنته في الهداية والإضلال «وهو العادل في كل ذلك؛ في هداية من هدى وإضلال من ضلّ»(٢).

* ومنها: **لفظ الكتابة**، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]؛؟ أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول، وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين، وهذا قدر محكم وأمر مبرم.

وقد أكد ـ سبحانه ـ مضمون هذه السُّنة بما حكم به على أعدائهم من الذل والهوان حكماً مؤكداً في الآية قبلها وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠] (٣). فبيَّن ـ سبحانه ـ سنته في دينه وأوليائه أن لهم الغلبة والنصر، بعد ما قرر بصيغة جازمة أن الذلّ والهوان مكتوب على من حادّ الله ورسوله، هذا حكمه وهذه سُنته فيهم ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وكقوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٠).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٢).
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٧/ ٣٠٦)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٩)، وفتح القدير (٥/ ١٩٣).

يقول تعالى مخبراً عمّا حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة... وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية، وهو كائن لا محالة.

والمعنى: أنّه ـ سبحانه ـ قد كتب في الكتب المنزّلة على الأنبياء ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ بعد أن كتب ذلك في أم الكتاب[1].

* ومن الألفاظ الكونية التي عرض القرآن للسنن من خلالها، كلمات الله، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]؛ أي: وجب عليهم قضاؤه وحكمه في السابق من علمه أنّهم لا يصدقون بوحدانية الله ولا بنبوة نبيه ﷺ، بما أعرضوا عن الحق بعد معرفته، وانصرفوا عنه إلى الضلال وجاروا عن قصد السبيل[2]... يفسر هذا: الآيات المذكورة قبل هذه الآية: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ * كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣١ ـ ٣٣].

وهذه الآيات مما كشف الله بها سنته في إضلال من استحق الضلال، وقد مرَّ بنا هذا قريباً.

ومن كلماته: قوله سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧]؛ أي: مضت واستمرت على التمام. وكلمته الحسنى: قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦][3].

---

(١) هذا أحد معنيين فسرت بهما الآية، أن الأرض أرض العدو، والمعنى الآخر: أن الأرض أرض الجنة يورثها الله يوم القيامة عباده الصالحين. انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١١/٣٤٩)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٠١)، وتفسير السعدي (٥/ ٢٦٦)، وأضواء البيان (٤/ ٦٩٣).
(٢) تفسير ابن جرير (١١/ ١١٤).
(٣) تفسير ابن جرير (٩/ ٤٤).

وهذا وعد من الله سبحانه بالنصر، والظفر بالأعداء والاستيلاء على أملاكهم[(١)]، أنجزه الله لهم وفق سنته القاضية بنصر أوليائه متى ما صدقوا الله وصبروا على طاعته وأمره.

* ومنها: لفظ الإيتاء، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ففيهما إشارة إلى سُنَّة مداولة الأيام بين الناس، وفق أسباب معلومة، فـ «الله سبحانه وتعالى هو صاحب السلطان الأعلى والتصرف المطلق... يؤتي الملك في بعض البلاد من يشاء من عباده، وينزعه ممن يشاء من الأفراد ومن الأسر والعشائر والفصائل والشعوب، بتنكبهم سننه الحافظة للملك»[(٢)].

ثالثاً: الأساليب الشرطية[(٣)]:

وهي على ضربين:

الأول: الأساليب الشرطية الصريحة.

والثاني: الأساليب الشبيهة بها، وهي المتضمنة لمعنى الشرطية، لكن بغير أدوات الشرط.

وفي القرآن الكريم من كلا الضربين أمثلة وفيرة، خصوصاً ما يتصل بسنن الله في الأمم، مما يُظهر بجلاء قيمة خاصة لمثل هذه الأساليب، وبالتالي كونها ركيزة وأساساً في منهج القرآن في عرض السُّنن.

ولبيان أهميتها في هذا الباب، أقول: إنَّ سنن الله في الأمم، هي مجموعة الحوافز والكوابح؛ أي مجموعة الضوابط التي تضبط حركة الجماعات البشرية عن طريق إبراز الجزاء المناسب للحدث، ثواباً أو عقاباً... وأساليب الشرط الصريحة، أو ما فيها معنى الشرط ... في مقدمة الأساليب التي تبرز ترتب الجزاء (السُّنة) على مقدمتها وسببها (الحدث) بصورة مباشرة. وربطُ ما بين الفعل والجزاء بهذا الأسلوب ذو أثر بليغ،

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٩/ ٤٤)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٢)، وفتح القدير، للشوكاني (٢/ ٢٤٠).
(٢) تفسير المنار (٣/ ٢٧٠، ٢٧١).
(٣) انظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١/ ٢٠) وما بعدها.

يُحدثه تقارب ما بين المقدمة والنتيجة في ذهن السامع، ويغذيه شعوره الأكيد بأنَّ هذا الجزاء مسبب عن هذا الحدث، بصورة لا تقبل التأويل.

وإليكها بشيء من التفصيل:

الضرب الأول: أساليب الشرط الصريحة.

ولنأخذ بعض الأمثلة على هذا الضرب في سياق آيات تبرز جوانب من سنن الله في الأمم؛ لإيضاح قيمة هذا الأسلوب:

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] (١).

وقال جل من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

وقال: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال عن بني إسرائيل محذراً لهم من الإفساد الذي وقع منهم غير مرة: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨].

وقال سبحانه كاشفاً دخيلة جنس المنافقين، وما طبعوا عليه من مكر وشغف بممارسة الفساد: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا

---

(١) وقد اجتمع في هذه الآية شرط وقسم.

﴿يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

وقال تعالى مبيناً سنته في إيتاء حرث الآخرة ونصيبها، وحرث الدنيا، لمن أراد أياً منهما واجتهد في طلبها وتحصيلها: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال أيضاً: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۞ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢٠].

وقال في آية أخرى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

إلى غير ذلك من الآيات التي لا تخفى على اللبيب الفطن.

الضرب الثاني: ما تضمن معنى الشرط.

وذلك كأسلوب القَسَم، والاسم الموصول، وصيغة الأمر وجوابها، وما جاء بصيغة الجزم، كالوعد والوعيد الإلهيين. ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد اجتمع في هذه الآية أسلوب القسم والشرط، وتقدم القسم فوقع الجواب له، وأغنى عن جواب الشرط[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وقوله سبحانه: ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

---

(١) على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخرت فهو ملتزم

وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥]. وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩]. وقوله: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠].

وعهد الله الذي أمرهم الله بالوفاء به «يعرف من الكتاب الذي نزله إليهم، ومنه عهده إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وأن يؤمنوا برسله متى قامت الأدلة على صدقهم، وأن يخضعوا لأحكامه وشرائعه. وأمَّا عهدهم فهو التمكين في الأرض المقدسة والنصر على الأمم الكافرة، والرفعة في الدنيا وخفض العيش فيها»[1].

وقوله: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقوله جل وعلا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾[مريم: ٩٦].

وقبل أن أختتم هذا المبحث، أذكرك بأنَّ الكلام إما خبر أو إنشاء[2]. وأن أساليب لغة العرب التي نزل القرآن بها لا تخرج عن أحد هذين الأسلوبين، وقد مرَّ بك طائفة من كل منهما.

وحيثما مرَّ بك أمرٌ أو نهيٌ أو فروعهما، فتلك من أساليب الإنشاء. وما عدا ذلك من الأساليب فهي أساليب خبرية.

والأخبار الخالصة الصادرة عن الله ـ جل وعلا ـ لا يدخلها النسخ[3]، ولا تحتمل غير الصدق، بالنظر إلى المخبر بها وهو الله تبارك وتعالى.

ومن جملة الأخبار: العقائد، والقصص، وأخبار الأمم، ما غبر منها وما يستقبل، وكأحوال القيامة والجنة والنار، فهذه كلها أخبار لا نقض لها، بخلاف الأمر والنهي،

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٩٠) بتصرف.

(٢) الخبر: هو ما يحتمل الصدق والكذب لذاته، كقولك: طلعت الشمس. والإنشاء: هو ما لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، كقولك: أكرم زيداً. انظر: الأساليب الإنشائية، لعبد السلام هارون، ص ١٣.

(٣) انظر: نواسخ القرآن، لابن الجوزي، ص ٩٣. أمَّا ما كان لفظه لفظ الخبر، ومعناه معنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩]. فهذا لاحق بخطاب التكليف في جواز النسخ عليه. انظر: تفسير المنار (١/ ٩٤).

والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة[١]. فتلك أساليب إنشائية ـ كما عرفت ـ يدخلها النسخ، ويكون فيها المنسوخ.

وسنن الله في الأمم ـ مع كونها قد جاءت بكلا الأسلوبين، الخبري والإنشائي ـ فإن ما كان منها بصيغة الخبر فهي صادقة؛ لأنها أخبار إلهية ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]؟

وما كان منها بصيغة الإنشاء، فهو محكم غير منسوخ؛ لأنَّ مضمون تلك السُّنن أحكام كونية عامة، والنسخ يقع في الأحكام التكليفية التشريعية.

* * *

---

(١) تفسير المنار (١/ ٩٣)، وانظر: تفسير ابن جرير (١/ ٤٧٥).

المبحث الثاني

طريقة العرض

تحدثت في المبحث الأول عن الجانب الأول من جانبي منهج القرآن في عرض السنن، وهو: جانب الأسلوب والصياغة، وعنيت به: ما يتصل بالأساليب اللفظية، والصيغ التي أُديت بها المعاني، وعرضت في قالبها السنن.

وفي هذا المبحث سوف أتناول الجانب الثاني من ذينك الجانبين، ألا وهو: كيف عرض القرآن لسنن الله في الأمم؟ ما طريقته في عرضها؟

وبعبارة أخرى: إذا كنا عرفنا في المبحث السابق بعض الملامح الأسلوبية والصيغ اللفظية التي توخّى القرآن عرض السنن من خلالها، فهذا لفظ صريح، وذاك لفظ كوني عام، وذلك أسلوب شرط... وهكذا. فهل نستطيع التعرف على الكيفية والطريقة التي يوظف القرآن فيها هذه الأساليب والصيغ، لتجلية السنن وإحداث الأثر المطلوب؟.

ما هي السياقات والمشاهد والأحداث التي هي مظان السنن عادة؟

وما هي الأجواء والمؤثرات التي يحشدها القرآن وهو يعرض هذه السنة أو تلك؟

أهو الترغيب أم الترهيب أم العرض المجرد أم ماذا؟

أهي المؤثرات الحسيَّة أم المعنوية؟

ولِمَ عُني القرآن ـ مثلاً ـ بإبراز سنن معينة أكثر من غيرها، ويتفنن في عرضها؟

ما المعايير والاعتبارات التي تحكم ذلك كله؟

وهي تساؤلات كلها ذات صلة وثيقة بمنهج القرآن، وطريقته في عرض سنن الله في الأمم.

وفي الصفحات التالية سأحاول تبيان ذلك على التفصيل، في مطلبين:

المطلب الأول: في ذكر المناسبات والأحداث والسياقات التي يعرض القرآن السنن من خلالها.

المطلب الثاني: في ذكر المؤثرات التي يحشدها القرآن وهو يعرض هذه السنن.

أُضَمِّنُ كل مطلب منهما الإجابة على جانب من تلك التساؤلات على الترتيب المذكور، وأختم هذا المبحث بالإشارة إلى أهم الأسباب التي ظهر لي أنها وراء عناية القرآن ببعض السنن عرضاً وتفصيلاً. ومن الله أستمدُ العونَ.

المطلب الأول: في ذكر الأحداث والمناسبات والسياقات التي يعرض القرآن السنن من خلالها.

وهي كثيرة ومتنوعة، مبثوثة في آي القرآن المكي والمدني، وفي أول القرآن وأوسطه وآخره، ومن هنا كانت السنن بهذا التنوع والانتشار.

وسرّ ذلك والحكمة منه ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ القرآن كتاب تشريع وتربية في آن واحد، تنزّل ليقود خطى الأمة نحو الأمام بما تسمح به إمكاناتها، وبمقدار ما يكون منها من تفاعل وانقياد.

ويفصل في قضاياها في المناسبات، ويصحح أخطاءها؛ ما كان منها موروثاً، وما يستجد منها ويحدث... ويسوق من الأحداث والقصص للدرس والعبرة، ويقرر من الأحكام والتشريعات ما يناسب الحال.

وهو في ذلك كله، لا يطرح حلاً جزئياً فحسب، ولا يعالج قضية محدودة فقط، وإن كان لا يغفل ذلك، وإنّما يقرر من القواعد والضوابط، ويذكر من الأسس والثوابت ما يعالج به قضية الأمة الكبرى من وراء الحدث المحدود، ويحل مشاكل المستقبل المتطاول من خلال الحدث الحاضر المؤقت، ويضيف إلى رصيد الأمّة المعرفي والتجريبي المحدود تجارب الأمم ورصيد القرون.

وبالاستقراء حاولت أن أرصد أبرز الأحداث و المناسبات، والسياقات التي يذكر القرآن السنن فيها ومن خلالها، فظهر لي أنه يذكرها غالباً في سياق:

ـ أحداث وأخبار الأمم السابقة، والمعاصرة للتنزيل. وهذا المجال هو أوسع مجال عرضت فيه سنن الله في الأمم، كما سيأتي. وكذا أحداث المستقبل، وأحداث اليوم الآخر.

ـ وفي سياق الحوادث الفردية.

ـ ومن خلال ضرب الأمثال والتشبيهات[1].

ـ وأخيراً، بمناسبة تقرير الأحكام والتشريعات.

فهلم إلى تفصيل هذه الفقرات، وتفسير تلك الإشارات.

---

(١) وبين هذه الفقرة وما قبلها تداخل من بعض الوجوه لا يخفى، كما سيتضح ذلك فيما يأتي.

أولاً: السنن في سياق أحداث وقصص الأمم السابقة، والمعاصرة للتنزيل:

تجارب بشرية متكررة، تلك التي يدونها التاريخ في ذاكرته عن هذه الأمَّة وتلك الجماعة وهؤلاء القوم، وكلما تطاول العهد كلما تكررت التجارب وتنوعت مظاهرها.. ووجدت الأمَّة اللاحقة نفسها؛ أمام أمثلة تتكرر، إن سلباً وإن إيجاباً، وما عليها إلا أن تأخذ بأحسن ما ترى، وتحذر كل مسلك شائن، وكل تجربة فاشلة إن كانت أمة مدركة واعية.

إن عليها أن تفعل ذلك، ولو لم يكن بين يديها إلا تاريخ يكتبه الإنسان عن الإنسان، مع ما يعتوره من قصور وجهل وهوى!

فكيف إذا كان الذي يعرض سجل البشرية هو خالق البشرية العليم بما يصلحها، وخالق الحياة والأحداث والأشياء من حولها، فلا يخفى عليه ماضٍ لبعده، ولا مستقبل لم يكن بعد، فالزمن عنده كله سواء: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

يعرض على البشرية تاريخها مبرَّءً من الهوى والجهل، ومن العصبية والأنانية، في كتاب تكفل بحفظه، وضمن له البقاء.

وأخيراً ـ وهذا لبّ المسألة ـ كيف يقص الله في كتابه على البشرية تاريخها، ويعرض عليها تجاربها؟

أهو الجمع والسرد؟ أم غايته مراعاة تسلسل الأحداث وحسن الإخراج والعرض؟

كلا، كلا. إنَّ القرآن ـ باختصار شديد ـ يقص من تاريخ البشرية نماذج معبرة، شاملة لجوانب التجربة الإنسانية، وافية بحاجاتها. هذه النماذج ذات أعراض محددة، يعرضها بأسلوب قصصي رائع، تربوي واعظ.

وهذه الطريقة في العرض هي التي يحتاج إليها الإنسان، وهي التي ينتفع منها أيضاً.

«إنَّ القرآنَ لا يقدم(قصصه) و(صوره) و(مشاهداته) لمجرد ترف ذهني، أو إشباع حاجة المؤمنين إلى القصص والصور والمشاهدات، ولا لِنَزْعَةٍ أكاديميةٍ فيه تسعى إلى تتبع ما حدث فعلاً بأكبر قدر من الأمانة، ودون اكتراث للمدلولات الكبرى لهذا الذي حدث وإشاراته الأخلاقية.

إنَّ القرآنَ يجيء بمعطياته التاريخية تلك ، من أجل أن يحرك الإنسان صوب الأهداف التي رسمها الإسلام ، ويبعده ـ في الوقت ذاته ـ فرداً أو جماعة ، عن المزالق والمنعرجات التي أودت بمصائر عشرات ، بل مئات من الأمم والجماعات والشعوب .

كما يجيء بها من أجل أن يبرز الفروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والإسلامية(بعموم معنى الإسلام) ، كأنّه يريد أن يقول للإنسان الواعي: إنَّ أمامك صيغتين للعمل في العالم ، لا ثالثة لهما ، وإن عليك أن تختار: إما هذه أو تلك .

إنَّ القرآن الكريم يقدم أصول(منهج) متكامل في التعامل مع التاريخ البشري ، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب ، إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية[١] .

ومن هنا ، فإنَّ «القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه . إنّما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه»[٢] التي جِمَاعُها إصلاح الحياة والأحياء في العاجل والآجل .

ومن أهمها: تقرير السنن التي أجرى عليها نظام الأمم والأقوام ، ومحاكمة تجاربهم ومواقفهم إزاءها ، وتسجيل النتائج وإبرازها .

هذه هي أبرز الأهداف ، وتلك هي أهم العبر من سياق أحداث الأمم وقصص الأولين .

وقد نبّه القرآن إليها في آيات عدّة ، فقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١] .

وقال: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] .

وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾[هود: ١٠٠] .

وقال: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ﴾ [الأعراف: ١٠١] .

إلى آيات أخر ، ليس هذا محل بسطها[٣] .

---

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ٨ .

(٢) التصوير الفني في القرآن ، لسيد قطب ، ص ١١٧ . ولمن أراد المزيد ، مراجعة مباحث: (أغراض القصة) ، و(آثار خضوع القصة للغرض الديني) ، من الكتاب نفسه .

(٣) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الأول من الباب الرابع ، بإذن الله وعونه .

ومن هنا ندرك سرّ كثرة السنن وتنوعها في سياق القصص وأحداث التاريخ.

فَقُلْ لي بربك أي سجل للبشرية أصدق وأدق من هذا السجل، يمكن للبشرية أن تراجعه وتتعلم منه؟!

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

وبعد، فما هي السنن التي توخّى القرآن إبرازها أو تأكيدها في ثنايا قصص وأحداث الأمم السابقة أو المعاصرة للتنزيل؟

أسلفت القول بأن قصص وأحداث الأمم السابقة والمعاصرة للتنزيل هي تجارب تمثل حياة أمم وأجيال، ففيها الخير والأخيار، وفيها الشر والأشرار، وفيها ـ تبعاً لذلك ـ ما يكون من كل منهما، وما يكون بينهما، وما يؤول إليه أمرهما عادة. وهي قضايا متشابكة تتناول جوانب الحياة العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والفكرية والسياسية والاقتصادية، وغيرها. وإن كانت هناك سنن تبدو لنا أكثر من غيرها، كلما أمعنا النظر في هذا الضرب من كلام الله تبارك وتعالى.

* **وفيما يلي أذكر منها نماذج على سبيل التمثيل؛ فمن ذلك:**

* **سُنّة المدافعة (الصراع) بين الحق والباطل:**

وقد أشار القرآن إلى أن هذه السُّنة مما جبل الإنسان عليها، وأنها لذلك ضرورة لا غنى له عنها لإصلاحه واستمراره.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

وأخبر ـ جل وعلا ـ عن ساكني هذه الأرض أنهم حزبان: حزب الله وحزب الشيطان. وفريقان: فريق في الجنة وفريق في السعير، وأنهم يمثلون منهجين مختلفين تمام الاختلاف، وأن بعضهم لبعض عدو.

ثم لما بين ذلك قصَّ من أخبارهم، وذكر من الحوادث التي جرت بينهم ما يصدق سنته تعالى فيهم أعظم تصديق. وتكاد قصص القرآن وأخبار الغابرين أن تكون كلها

فصولاً في تاريخ هذه المدافعة، وحلقات في سلسلة هذا الصراع، ونماذج تكشف عن مختلف جوانبه[١].

وحسبنا أن نقرأ ما قصَّه الله في كتابه من خبر آدم ﷺ وإبليس، وما حصل بين الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأتباعهم من جهة، وبين مخالفيهم من الأمم والأقوام من جهة أخرى من صور التدافع والخصومة لإحقاق الحق وإبطال الباطل من جانب الأولين، وعكس ذلك من جانب الثانين.

وهذه المدافعة أو الصراع، كلفت الفريقين الكثير، كما كشفت دخائلهم وأظهرت الفروق فيما بينهم، على مدار التاريخ البشري.

نعم، كلفت الرسل وأتباعهم أنفسهم وأموالهم، وجلبت لهم من العداوة والشنئان، ومن الأذى والتشريد، ومن حرمان الحقوق وتشويه السمعة... وغير ذلك الكثير الكثير. وكشفت عن عظيم صبرهم، وحُسْن بلائهم، وقوة حجتهم، وصدق لهجتهم، وأن العاقبة في الدنيا قبل الآخرة لهم. وكلفت مخالفيهم العقوبات المتتابعة، ثم التدمير عليهم وتفويت ما جمعوا وخسران ما أملوا. وفي الآخرة لهم عذاب النار وبئس القرار. وكشفت عن فساد تصوراتهم وقبح فعائلهم، وتضعضع حجتهم، وتناقضهم فيما بينهم، وسوء منقلبهم ومثواهم.

وما كان لهذه المعاني وأمثالها أن تكون دروساً للأمم اللاحقة، أو أن تعيها بصورة مؤثرة لو لم يعمد القرآن إلى أسلوب رواية القصة ونقل الحادثة، ثم التعليق عليها والوعظ من خلالها.

* **ومنها: تقرير سُنَّة الله في أوليائه أنه ينصرهم ويؤيدهم، وفي أعدائه أنه ينتقم منهم ويهلكهم ويدمّر عليهم.**

وأولياء الله: هم رسله وأنبياؤه وأتباعهم من المؤمنين، وهم حزبه المفلحون وجنده الغالبون.

وأعداؤه: هم سائر من خالفهم من الكفار والمشركين والمنافقين.

وسبقت الإشارة إلى أن الله ـ تعالى ـ قضى في سابق علمه، وحكم حكماً جازماً أنه ينصر أولياءه، ويهلك أعداءه ويخذلهم، و﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾[الرعد: ٤١]، ﴿وَلَا

---

(١) وقد أفردتُ لسنة المدافعة مبحثاً خاصاً في الفصل الثاني من الباب الثاني، وستمرّ بك قريباً أمثلة لذلك عند تقرير سُنَّة الله في نصر أوليائه وخذلان أعدائه.

مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤] ؛ حيث قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢] .

وقال سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٢ ـ ١٠٣] .

وأخبر أن نصره أولياءه مشروط بنصرهم له، وأن استحقاق أعدائه الإهلاك والتدمير إنّما كان بسبب مخالفة أمره ومحادة أوليائه وترك نصرته، فقال سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[الحج: ٤٠، ٤١] .

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٧، ٨] .

ولم يزل الرسل والأنبياء والصادقون من أتباعهم من المؤمنين جيلاً بعد جيل وأمة بعد أمة، قائمين بأمر الله ناصرين له، آمرين بالمعروف الذي أمر الله به، ناهين عن المنكر الذي نهى الله عنه. فكانوا لذلك أهلاً لنصرة الله وتأييده كما وعدهم .

وكان أعداؤهم على ما وصفهم الله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٧] . فأوقع بهم ما أوعدهم من العقوبات وأحلّ بهم ما أنذرهم من المثلات .

وأظهر سنته في هؤلاء وهؤلاء، فهذه أخبارهم شائعة ذائعة في كتاب الله، معلنة سنة الله أنه ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وأنّه ﴿لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١] .

وإليك هذه الأمثلة والشواهد فتأمّلها، وتطلّب نظائرها في القرآن الكريم[1] .

---

(١) وستجدها أكثر تفصيلاً في الباب الثاني، في فصل: (مجال الجزاء)، إن شاء الله .

قال تعالى مبيناً أن هذا النصر الذي وعد به أولياءه، وتلك العقوبات التي توعد بها أعداءه، قد وقع كل منها بالفعل في الوقت المناسب: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال في سورة يوسف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

ثم قصَّ أنباءهم مفصَّلة[1] ... فنصر نوحاً ﷺ ومن آمن معه.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٩ - ١٥].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤، ١٥].

وأنجى هوداً ﷺ ومن آمن معه وأهلك عاداً المكذبين الجاحدين فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٨ - ٦٠].

ونجى صالحاً ﷺ والمؤمنين معه، فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾، وأخذ أعداءهم بالعذاب

---

(١) ولن أذكر مما قصَّه الله إلا نماذج فحسب، وسيأتي لذلك مزيد بسط في الفصل الثاني من الباب الثاني.

فقال: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٦ ـ ٦٨].

وكذلك فعل مع خليله إبراهيم ﷺ: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وقال: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ * قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠].

وفي الآية الأخرى: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧، ٩٨].

أمَّا لوط ﷺ، فقد قال الله له: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر: ٦٥ ـ ٦٦].

وقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ [القمر: ٣٣ ـ ٣٥].

وهذا موسى ﷺ، ينجيه الله ومن معه من بني إسرائيل ويغرق الجبابرة من الفراعنة ومن شايعهم.

قال سبحانه: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٦٥ ـ ٦٨].

وقال: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ * وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الصافات: ١١٤ ـ ١١٦].

ونصر نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين به في مواطن كثيرة:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ الآية، إلى أن قال سبحانه: ﴿ وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

وتفصيل هذا يطول، والغرض التنبيه إلى أن من منهج القرآن أنه يعرض أمثال تلك السنن في سياق قصص الأمم، وفي ثنايا الأحداث التاريخية.

*** ومن السنن التي لا تخطئ العين ملاحظتها في مثل هذه السياقات على سبيل الإجمال:**

قلة المؤمنين وأنصار الحق في مقابل كثرة المبطلين. وهذا هو الواقع على مدار التاريخ، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الأنعام: ١١٦]... وغيرها من الآيات.

وقد جاءت تفاصيل أخبار الأمم تتراً، مطابقة لهذه الأخبار العامة، مصدقة لها. فأنت تجد في تفاصيل هذه الأخبار: أنَّ المؤمنين يتعرضون ـ دائماً ـ للأذى والطرد، وحتى القتل. ثم لا تكون لهم يد في دفع ذلك عن أنفسهم.

وفي مواضع كثيرة نستوحي من السياق أنهم قلَّة، وأن عدوهم كثير، وربَّما جاء ذلك صريحاً:

فنوح ﷺ: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠]. والملأ من قومه: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١].

وقال فرعون عن موسى ﷺ ومن معه: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٤].

وقال الطاغية عن نفسه: ﴿ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ * أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]؟!

والذين آمنوا بنبي الله صالح ﷺ، مستضعفون من قومهم: ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ ﴾ [الأعراف: ٧٥]. فهم ـ كما ترى ـ بعض المستضعفين.

فكذَّبوا صالحاً ﷺ وكفروا بما آمن به غيرهم من المستضعفين!

﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧].

وتآمروا على قتله خفية بالليل(١).

وكان هذا دأب المبطلين مع كل نبي وكل داعية من المؤمنين، وما أخبارهم مع أنبياء الله، إبراهيم ولوط وموسى وعيسى ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ بخافية(٢).

* **ومن السُّنن أيضاً**: سُنَّة الله ـ تعالى ـ في تغيير أحوال الأمم والأقوام. وقد جمع سبحانه ما تفرق من لوازم هذه السُّنة بأوجز عبارة وأوفاها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

ثم عرض أحوال الأمم وأخبار الأقوام، وذكَّرهم بهذه السُّنة وأنها هي بوابة التغيير، فالإيمان بالله، والتوبة والإنابة إليه، وترك الظلم وإيفاء الكيل والوزن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... ونحو ذلك من صور ومظاهر التغيير، هي التي تستنزل تغيير ما بهم مما يكرهون. والعكس كذلك.

﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا * يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ [نوح: ١٠، ١١].

﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]... إلى غير ذلك من الآيات، وهي كثيرة معلومة.

وأكتفي بما ذكرت من الأمثلة؛ لأنَّ الغرض هو التنبيه إلى أهمية هذا الجانب ـ أعني أخبار الأمم والأحداث التاريخية الجماعية ـ لمن يتصدَّى لدراسة السنن، ويروم معرفتها.

وأنتقل إلى نوع آخر من الأحداث والقصص، درج القرآن على تقرير السنن، أو التأكيد عليها من خلالها، وهو:

---

(١) كما في [النمل: ٤٩].

(٢) وسيأتي الحديث عن (الملا) مفصلاً، بإذن الله، في الفصل الخامس، من الباب الثاني.

*** تقرير السنن في سياق القصص والأحداث الفردية:**

ولتقرير السنن الإلهية على مستوى الأمم بمناسبة ذكر القصص والأحداث الفردية فائدة تتصل بموضوعنا، وهي: التنبيه إلى جنس الجزاء المترتب على جنس هذا العمل أو ذاك، إذا ما تجاوز (العمل الفردي المحدود) إلى إطار(العمل الجماعي).

وقد مرَّ بنا أن الأول ينتهي ـ عادة ـ إلى الثاني، إذا كتب له الانتشار عن طريق الممارسة الفعلية من الآخرين، أو لقي القبول بواسطة رضا الآخرين به.

ولنأخذ على هذا بعض الأمثلة:

قال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ * وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

«شبَّه سبحانه وتعالى من آتاه كتابه وعلَّمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به واتبع هواه، بالكلب الذي هو من أخسّ الحيوانات وأوضعها قدراً وأخسها نفساً، وهمته لا تتعدَّى بطنه...»[1].

فهذه الآية تقرر سنة الله فيمن ترك اتِّباع الحق والاهتداء به أن الله يعاقبه بأن يجعل همته دنيَّة، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾ [محمد: ١٢].

ويخذله فلا يرتفع إلى المقام اللائق بالإنسان لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ويسدّ طريق معرفة الحق في وجهه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ [الصف: ٥].

وقال: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

---

(١) التفسير القيم، للإمام ابن القيم، ص ٢٨٠.

«وهذا الذي آتاه الله آياته، يحتمل أن المراد به شخص معين قد كان منه ما ذكره الله، فقصَّ الله قصته وبيَّنها للعباد، ويحتمل أن المراد بذلك: أنَّه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه آياته فانسلخ منها»(١).

وسواء كان هذا أو ذاك، فإنَّ العبرة من سوق النبأ ظاهرة، وهي شاملة للفرد وللأمة. ولهذا قال معقباً على المثل: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

والقوم: هم المشركون ومن على شاكلتهم، والقصص: شامل لهذه القصة وغيرها من القصص التي في القرآن(٢).

فإن كان المعنى على الاحتمال الأول، فقد وظف القرآن الحادثة الفردية لتقرير سُنَّة جماعية. وإن كان على الاحتمال الثاني، فإرادة العموم والشمول ظاهرة، وحينئذٍ يكون الفرد وتكون الأمة مقصودين داخلين في العموم الذي يفيده اسم الجنس عادة.

وبالجملة، فإنَّ «شأن القصص المفتتحة بقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أن يقصد منها وعظ المشركين بصاحب القصة بقرينة قوله: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ إلخ، ويحصل من ذلك أيضاً تعليم، مثل قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١]. ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩]. ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ [القصص: ٣]. ونظائر ذلك.

فضمير (عليهم) راجع إلى المشركين الذين وجهت إليهم العبر والمواعظ من أول هذه السورة، وقصت عليهم قصص الأمم مع رسلهم»(٣).

ومثال آخر نجده في سياق قصة قارون، وفي التعقيب القرآني عليها.

فمما جاء في سياقها: دعوى قارون أن ما عنده من المال والكنوز كان عن استحقاق وعلم عنده: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

(١) تفسير السعدي (٣/ ١١٧).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (٩/ ١٧٩).
(٣) التحرير والتنوير (٩/ ١٧٣).

والمراد بالقرون الخالية: الكثيرة، بحيث صار إهلاكهم سُنَّة له مطردة في أمثالهم[1]، وقد وصفهم الله في آيات من كتابه بالقوة والكثرة وأنها لم تغن عنهم شيئاً.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2] [غافر: ٨٢].

ثم عقَّب ـ جل وعلا ـ على مشهد إهلاك قارون بالخسف بقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

فجمع لقارون بين الخسارتين: خسارة الآخرة، وقد نبه إليها في هذه الآية. وخسارة الدنيا وهي الخسف، وقد أشار إليها بقوله قبل ذلك: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]. ثم أخبر أنَّ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]؛ أي: الخير والفلاح لهم في الدنيا والآخرة، كما قال موسى لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فقرَّر ـ تبارك اسمه ـ بمناسبة هذه القصة، سُنَّته في أعدائه في هذه الدنيا، وهي إهلاكهم جزاء علوهم وفسادهم، وسنته في أوليائه الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، أن العاقبة الحميدة لهم في الدارين.

ومثل ثالث: قصة مؤمن آل فرعون.

والقصة بطولها تحكي صورة من صور المواجهة بين الحق والباطل، وتكشف جوانب من سنن الله في هذا الجانب.

تكشف عن ديمومة الصراع بين الحق والباطل. وعن النهاية التي ينتهي إليها كل منهما.

وبين هذا وذاك، تكشف عن الحق بوضوحه وواقعيته وقوة حجته، وعن انتصاره وغلبته في نهاية المطاف، متمثلة في شخص مؤمن آل فرعون، وفي الحق الذي معه.

---

(١) انظر: فتح القدير (٣/ ١٨٧)، وتفسير القاسمي (١٣/ ١٢٦)، وتفسير السعدي (٦/ ٥٨).
(٢) وانظر: الآية ٩ من سورة الروم، والآية ٤٤ من سورة فاطر، والآية ٢١ من سورة فاطر... وغيرها.

وتكشف الباطل بغروره وعنجهيته، وتهافت حجته، وبزواله وسحقه وسدنته في آخر المشوار، متمثلة في فرعون وقومه.

إنّها قصة ذات شأن «تبدأ من موقف عرض الرسالة على فرعون وملئه، وتنتهي هنالك في الآخرة، وهم يتحاجون في النار...»[(١)] تبدأ فصولها بين موسى الكليم ﷺ وفرعون الطاغية وملئه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤].

وتمضي عامة فصولها بين مؤمن آل فرعون وبين فرعون وقومه.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] في صراع محتدم حذر فيه هذا الداعية وأنذر، ورغب ورهب. ثم لم يسفر عمله هذا عن شيء إلا عن إقامة الحجّة والإعذار إلى الله.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: الآيتان ٤٤، ٤٥].

وهي قصة طويلة، استغرق عرضها قرابة خمس وعشرين آية، ولكنها حية متحركة ومثيرة، وقراءتها في سياقها القرآني المجرد أبلغ في أثراً من أي عرض آخر.

وهناك أمثلة كثيرة قصَّها الله في كتابه عن أفراد، وقرَّر في ثناياها بعض السُّنن المتعلّقة بالجماعات والأمم، وسيأتي بيان بعضها عند الحديث عن الجانب الثالث من الجوانب التي عرض القرآن للسنن في سياقها ومن خلالها. وهو أنّه يعرضها في سياق الأمثال والتشبيهات.

* عرض السنن عن طريق ضرب الأمثال والتشبيهات:

المثل: بفتحتين، وبكسر ـ فسكون هو النظير والمشابه[(٢)]. ويُقالُ أيضاً: هو قول شبه مضربه بمورده[(٣)].

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٧٧).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (١/ ٣٠٢).

(٣) ومعناه: «أن تحصل حالة لها شبه بالحالة التي صدر فيها ذلك القول، فيستحضر المتكلم تلك الحالة التي صدر فيها القول ويشبه بها الحالة التي عرضت، وينطق بالقول الذي كان صدر في أثناء الحالة المشبهة بها، ليذكر السامع بتلك الحالة، وبأن حالة اليوم شبيهة بها». [التحرير والتنوير (١/ ٣٠٥)].

وضرب الأمثال في المعاني نوعان:

أحدها: الأمثال المعينة التي يُقاسُ فيها الفرع بأصل معين، موجود أو مقدّر، وهي في القرآن بضعة وأربعون مثلاً، كقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] ... إلى آخره. وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

النوع الثاني: الأمثال الكليَّة، وهذه التي أشكل تسميتها أمثالاً... حتى اعترض بعضهم قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الحج: ٧٣] فقال: أين المثل المضروب؟

«وكذلك إذا سمعوا قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الزمر: ٢٧] يبقون حيارى لا يدرون ما هذه الأمثال، وقد رأوا عدد ما فيه من تلك الأمثال المعينة بضعة وأربعين مثلاً»[١].

وأصل ذلك: أنَّ «القضية المعينة إما أن تكون شبهاً معيناً، أو عاماً كلياً، فإن القضايا الكلية التي تعلم وتُقال هي مطابقة لكل ما يندرج فيها، وهذا يسمى قياساً في لغة السلف واصطلاح المنطقيين، وتمثيل الشيء المعين بشيء معين هو أيضاً يسمَّى قياساً في لغة السلف واصطلاح الفقهاء، وهو الذي يسمَّى قياس التمثيل... فكلاهما قياس وتمثيل واعتبار»[٢].

ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي، في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد... ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء.

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ومن سور الإنجيل: سورة الأمثال[٣].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/ ٥٦ ـ ٥٨).
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/ ٥٤، ٥٥) بتصرف يسير.
(٣) الكشاف، للزمخشري (١/ ١٩٥).

وفي كتاب الله تعالى من الأمثال المضروبة، المعينة والكلية، في مختلف شؤون البشر أفراداً وجماعات جم غفير، «منها ما يصرح فيه بتسميته مثلاً، ومنها ما لا يسمى بذلك»[١]. يعظ الله بها عباده ويعلمهم، ويحذرهم من خلالها وينذرهم، ويقوم اعوجاجهم ويذكرهم بأمثالهم ونظرائهم... و... إلى آخر ما تنطوي عليه هذه الأمثال من المنافع، لعلهم يتذكرون ويعتبرون.

قال سبحانه منبهاً إلى ذلك: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قال بعض السلف: كنتُ إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه، بكيت على نفسي؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣][٢].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وقال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨].

وقال في الثالثة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]. وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]... إلى غير ذلك من الآيات.

والآن بعد هذه المقدمة الوجيزة التي وقفنا من خلالها على معنى الأمثال، وأنواعها، وقيمتها في إبراز المعاني، وتأثيرها في النفوس، وعرفنا أن الله قد ذكر في القرآن من كل الأمثال النافعة التي يحتاج إليها البشر. بعد تلك المقدمة تمهدت السبيل للوقوف بصورة خاصة على السنن التي عُني القرآن بإبرازها في سياق «الأمثال والتشبيهات».

وبادي بدء أقول: إنَّ السُّنن في سياق الأمثال ـ بنوعيها المعينة والكلية ـ كثيرة، ومتصلة بعدة جوانب من حياة الأمم، ذلك أن القرآن يعرض(الأمثال) حيث يسوق الأحداث التاريخية وقصص الأمم، بل حتى هذه الأخيرة يمكن أن تعد من بعض الوجوه من الأمثال، فإنَّ المثل هو الشبيه والنظير، كما سبق بيان ذلك. ومن سلف من القرون،

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/ ٦٥)، وقد ساق شيخ الإسلام أمثلة لكلا النوعين، وسيأتي من ذلك أشياء.
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٨).

ومن خلف منهم، بعضهم لبعض شبيه ومماثل في أحوالهم، وفي عاقبة أمرهم، وقد قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٣].

وقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣]... الآيات.

وقال سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ * وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٠ ـ ١٢]... وغير ذلك من الأمثال، على مستوى الأمم وعلى مستوى الأفراد.

وهناك من الأمثال ما ليس من هذا الباب صراحة، وهو كثير، ومنه الأمثال المضروبة لتقرير حقيقة الألوهية ووحدانية الله، وبيان فساد الشرك وقبحه، كقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في ثنايا حديثه عن الأمثال المعينة، وأن القصص منها: «... ونظير ذلك ذكر القصص، فإنها كلها أمثال، هي أصول قياس واعتبار، ولا يمكن هناك تعديد ما يعتبر بها؛ لأنَّ كل إنسان له في حالة منها نصيب. فيُقال فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، ويُقال عقب حكايتها: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]. ويُقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

والاعتبار هو القياس بعينه، كما قال ابن عباس لما سُئِلَ عن دية الأصابع، فقال: هي سواء واعتبروا ذلك بالأسنان؛ أي قيسوها بها»[1].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/ ٥٧، ٥٨).

وهذا التداخل بين الأمثال والقصص، هو التداخل الذي أشعرتك به في صدر هذا المبحث[1].

وفيما يلي أسوق لك عدداً من الآيات المشتملة على بعض(السنن) الواردة في سياق(الأمثال).

وأبدؤها بهذا المثل الكاشف لطبيعة الحق والباطل:

قال الله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

فقد ضرب الله في هذه الآية مثل الحق في ثباته ودوامه ونفعه، والباطل في زواله وخبثه، وأظهر حظ قلوب البشر ونفوسهم من هذا وذاك، وكشف عن عدم إمكان اجتماع الحق والباطل مكاناً واحداً، لا في النفوس ولا في واقع الحياة، إلا ليصطرعا، فيذهب الباطل جفاءً، ويبقى الحق الذي ينفع الناس ويمكث في الأرض، كما قال سبحانه: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ عند قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ ﴾ . . . الآية. قال: «أي إذا اجتمعا، لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ ﴾؛ أي: لا ينتفع به. بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح . . . وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس، يذهب ولا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧]»[2].

المثل الثاني: قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا

---

(١) وهذا وذاك قانون إلهي وسنة مستقرة .
(٢) تفسير ابن كثير (٢/٥٠٨).

رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

«اختلف المفسِّرون: هل المراد بالقرية المذكورة في الآية قرية معينة، أو أن المراد الجنس وأنها غير معينة، فهي مثل لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة؟

فذهب الأكثرون إلى الأول[١]، وصرَّحوا بأنَّها مكة، وذلك لما دعا عليهم رسول الله ﷺ، وقال: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»[٢]، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام.

وجوَّز آخرون إرادة المعنى الثاني، واستظهره بعضهم[٣]؛ لأنَّ تنكير ﴿قَرْيَةً﴾ يفيد ذلك، ومكة تدخل في هذا العموم البدلي دخولاً أولياً.

وأيضاً يكون الوعيد أبلغ، والمثل أكمل، وغير مكة مثلها.

وعلى فرض إرادتها ففي المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها[٤] وعظة لمن يأتي بمثل ما أتوا به من إنكار نعمة الله»[٥].

وعلى كل حال، فيجب على كل عاقل أن يعتبر بهذا المثل، وألا يقابل نعم الله بالكفر والطغيان؛ لئلا يحل به ما حلَّ بهذه القرية المذكورة، ولكن الأمثال لا يعقلها عن الله إلا من أعطاه الله علماً؛ لقوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

المثل الثالث: قال تعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [آل عمران: ١١].

وفي الآية الأخرى: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٥٢].

---

(١) رواه: (العوفي عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وحكاه مالك عن الزهري - رحمهم الله). انظر: تفسير ابن جرير (١٤/ ١٨٥)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٩)، وتفسير السعدي (٤/ ٢٤٨)، وأضواء البيان (٣/ ٣٧٢)، وغيرها.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٥/ ١٧٧)، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة.

(٣) انظر: فتح القدير، للشوكاني (٣/ ١٩٩).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٠/ ١٩٤)، وتفسير القاسمي (١٠/ ١٦٨)، وأضواء البيان (٣/ ٣٧٧)، وغيرها.

(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٠٣).

وفي الثالثة: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤].

الكاف في قوله: ﴿كَدَأْبِ﴾ في موضع رفع، خبر لمبتدأ محذوف يدل عليه المشبه به، والتقدير: دأبهم في ذلك كدأب آل فرعون، هذا أرجح الأقوال في إعرابها[١].

و«الدأب: أصله الكدح في العمل وتكريره. ثم أطلق على العادة؛ لأنها تأتي من كثرة العمل، فصار حقيقة شائعة، قال النابغة[٢].

كدأبك في قوم أراك اصطنعتهم ....

أي: عادتك، ثم استعمل بمعنى الشأن، كقول امرئ القيس[٣]:

كدأبك من أم الحويرث قبلهـــا ....

وهو المراد هنا في قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران: ١١]، والمعنى: شأنهم في ذلك كشأن آل فرعون؛ إذ ليس في ذلك عادة متكررة[٤].

«والمعنى في الآية: أن الكافرين لن تغني عنهم الأموال ولا الأولاد، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاءوا به من آيات الله وحججه»[٥].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٢٨، ٢٩).

(٢) هو: النابغة الذبياني، زياد بن معاوية الغطفاني المضري، أبو أمامة، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها. كانت وفاته قبل الهجرة بنحو ثمانية عشر عاماً. انظر: الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص ٦١، والأعلام (٣/ ٥٤).
والبيتُ من قصيدة له يمدح النعمان ويعتذر إليه.. وهو بتمامه:

كدأبك في قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم في شكر ذلك أذنبـــوا

انظر: ديوان النابغة الذبياني، ص ٧٣، وفي الديوان (كفعلك) وعليه فلا شاهد في البيت

(٣) هو: امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، أشهر شعراء العرب، يماني الأصل، مولده بنجد أو باليمن، صاحب أولى المعلقات الجاهلية المشهورة، ثار بنو أسد على أبيه فقتلوه، لم يزل حتى ثأر لأبيه، وقال في ذلك شعراً كثيراً. انظر: الشعر والشعراء، ص ٣٦، والأعلام (٢/ ١١).
ومما قال في ذلك:

ولو أنَّ ما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنني أسعى لمجـــد مؤثـــل ... وقد يدرك المـــجد المؤثل أمثالي

والبيت في الديوان، ص ٩، وروايته هكذا:

كدينك من أم الحويرث قبلها ... وجارتها أم الرباب بمأسل

(٤) التحرير والتنوير (٣/ ٤٥)

(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٩).

وقد ضرب الله لهم هذا المثل عبرة وموعظة؛ لأنَّهم إذا استقرأوا حالة الأمم التي أصابها العذاب، وجدوا جميعهم قد تماثلوا في الكفر بالله، وبرسله، وبآياته، وكفى بهذا الاستقراء موعظة لأمثال مشركي العرب».

وقال ابن عطية: «المعنى في الآية: تشبيه هؤلاء في لزومهم الكفر ودوامهم عليه بأولئك المتقدمين، وآخر الآية يقتضي الوعيد بأن يصيب هؤلاء مثل ما أصاب أولئك من العقاب»[1].

«والأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ هو أخذ الانتقام في الدنيا»[2].

المثل الرابع: قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ﴾ الآية تحتمل أن يخاطب بها المؤمنون، وأن يخاطب بها جميع الكفار، وأن يخاطب بها يهود المدينة، وبكل احتمال منها قد قال قوم.

فمن رأى أن الخطاب بها للمؤمنين فمعنى الآية تثبيت النفوس وتشجيعها؛ لأنَّه لما قال للكفار ما أمر به أمكن أن يستبعد ذلك المنافقون وبعض ضعفة المؤمنين، كما قال قائل يوم الخندق: يعدنا محمد أموال كسرى وقيصر، ونحن لا نأمن على أنفسنا في المذهب، وكما قال عدي بن حاتم[3] حين أخبره النبي ﷺ بالأَمَنَة التي تأتي: فقلت في نفسي: وأين دُعَّارُ طيء الذين سعروا البلاد؟ الحديث بكماله[4]، فنزلت الآية مقوية لنفوس المؤمنين، ومبينة صحة ما أخبر به بالمثال الواقع.

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ٣٨٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ١٠٢). وقولة عدي بن حاتم هذه، وردت في رواية الحافظ، وأراد (دعار طيء): قطَّاع الطريق. [اللسان، مادة (دعر)].

(٣) أبو طريف، ابن حاتم الطائي، الجواد المشهور، أسلم سنة تسع، وقيل: سنة عشر، وكان نصرانياً قبل ذلك، وثبت على إسلامه في الردة، وأحضر صدقة قومه إلى أبي بكر، وشهد فتوح العراق، ثم سكن الكوفة، ومات بعد الستين، وأناف عمره على مائة وعشرين. انظر: الإصابة (٤/ ٢٢٨)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٢).

(٤) انظر الخبر مطولاً برواياته وتخاريجه في: السيرة النبوية، لابن هشام (٤/ ٢٩٨ ـ ٣٠١)، والبداية والنهاية (٥/ ٦٣ ـ ٦٨)، وفتح الباري (٨/ ١٠٢). وقولة عدي بن حاتم هذه، وردت في رواية الحافظ، أبي بكر البيهقي، انظر: البداية والنهاية (٥/ ٦٦). وأراد (دعار طيء): قطَّاع الطريق. [اللسان، مادة (دعر)].

ومن رأى أن الخطابَ لجميع الكفار، ومن رأى أنه لليهود فالآية عنده داخلة فيما أمر محمد ﷺ أن يقوله لهم احتجاجاً عليهم، وتبييناً لصورة الوعيد المتقدم في أنهم سيغلبون»[١]. فكأن الآية تقول لهم: «لا تغرنكم كثرة العدد، ولا بما يأتي به المال من العدد، ولا تحسبوا أن هذا هو السبب الذي يفضي إلى النصر والغلب، فإنَّ الاعتبار ببعض حوادث الزمان أوضح آية على بطلان هذا الحسبان، فذكر الفئتين أي الطائفتين اللتين التقتا في القتال هو من قبيل المثال»[٢].

وأخيراً: يقول الله تبارك وتعالى في أول سورة محمد ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ١ ـ ٣].

«هذه الآيات مشتملات على ذكر ثواب المؤمنين وعقاب العاصين، والسبب في ذلك دعوة الخلق إلى الاعتبار بذلك. فـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ أي: أبطلها، وأشقاهم بسببها.

وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، وأن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئاً، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]. وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها، أن الله سيحبطها عليهم؛ والسبب في ذلك أنهم ﴿ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ﴾؛ أي: اختاروه وعملوا به، والباطل: كل غاية لا يُرادُ بها وجه الله، والأعمال لما كانت في نصر الباطل أصبحت باطلة»[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٢٨، ٢٩).
(٢) تفسير المنار (٣/ ٢٣٤).
(٣) تفسير السعدي (٧/ ٦٢، ٦٣) بتصرف، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٢)، والتحرير والتنوير (٢٦/ ٧٧).

وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ . والبال: يطلق على القلب، أي العقل وما يخطر للمرء من التفكير، وهو أكثر إطلاقه، ولعله حقيقة فيهن . قال امرؤ القيس:

فعادى عداء بين ثــور ونعجــة ... وكان عداء الوحش مني على بال[1]

وقال:

.... عليه القتام سيئ الظن والبال[2]

ومنه: قولهم: ما بالك؟ أي ماذا ظننت حين فعلت كذا؟ وقولهم: لا يبالي، كأنّه مشتق منه؛ أي: لا يخطر بباله، ومنه بيت العقيلي في الحماسة[3]:

ونبكي حين نقتلكم عليكم ... ونقتلكم كأنـــا لا نبالــي

أي: لا نفكر[4]. والمعنى: أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم[5]، فإنّ «إصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها؛ لأنّ تصرفات الإنسان تأتي على حسب رأيه، فالتوحيد أصل صلاح بال المؤمن، ومنه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي تلبس بها المشركون. والمعنى: أقام أنظارهم وعقولهم فلا يفكرون إلا صالحاً، ولا يتدبرون إلا ناجحاً»[6] .

«وَلِمَ كان هذا وذاك؟ إنّها ليست المحاباة وليست المصادفة، وليس الجزاف، إنّما هو أمر له أصله الثابت المرتبط بالناموس الأصيل الذي قام عليه الوجود، يوم خلق الله السماوات والأرض بالحق، وجعل الحق هو الأساس»[7] . إنّ سبب هذا الفرقان بين الفريقين، هو ما قرره سبحانه بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد: ٣] .

---

(١) انظر: ديوان امرئ القيس، ص ٢٢ .

(٢) الديوان، ص ٣٢ . والبيتُ بتمامه:

فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلها ... عليه القتام سيئ الظنّ والبال

(٣) انظر: ديوان الحماسة، لأبي تمام (١/ ٦٢)، ونسبه إلى رجل من بني عقيل .

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٧٥) .

(٥) تفسير السعدي (٧/ ٦٣) .

(٦) التحرير والتنوير (٢٦/ ٧٥، ٧٦) .

(٧) في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٨١) .

وبعد تبين حال الفريقين، وذكر السبب الأصيل في إضلال أعمال الكافرين، وإصلاح بال المؤمنين، أخبر سبحانه ـ بمناسبة ذلك ـ أنه كهذا التبيين يمثل الله للناس أحوالهم[١]. ويضع لهم القواعد التي يقيسون عليها أنفسهم وأعمالهم[٢].

وأكتفي بهذه الأمثلة والشواهد الكاشفة عن أن من منهج القرآن في عرض السنن، أنه يعرضها عن طريق ضرب الأمثال وفي سياقاتها، وأنتقل إلى الجانب الرابع والأخير، وهو: عرض السنن في سياق الأحكام.

* * *

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٦/ ٧٦، ٧٧).
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٨١).

عرض السنن في سياق الأحكام

وأعني بها الأحكام التكليفية من الأمر والنهي ، والتحريم والإباحة ، ونحوها .

والأحكام التكليفية إنّما شرعت لإسعاد المكلفين الممتثلين لها في معاشهم ومعادهم ، وتنظيم شؤون معاشهم فيما بينهم ، فهي قانونهم ودستورهم ، ومن خالفها أو نبذها عُوقِب بما يستحقه بأنواع العقوبات الشرعية والكونية . ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] .

وأصل ذلك: أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ إنّما خلق جنس الإنسان ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤] ، وسَنَّ له الاجتماع ، وجبله على حبه . وهو ـ سبحانه ـ إنّما فعل به ذلك ؛ ليبتليه بالأوامر والنواهي ، وهي الأحكام التكليفية .

وهذه الأحكام تتعلق بكل شيء يتصل بالإنسان ، وتتدخل في تحديد صلته وكيفية علاقته بهذا الشيء ، سواء في ذلك أحكام العبادات ، والمعاملات ، والأحوال الشخصية الفردية والجماعية .

ومن هنا ، فإنَّ القرآنَ ـ وفق منهجه الشمولي ـ يعرض للآثار الحسنة المترتبة على التزام تلك الأحكام والامتثال لها ، كما يعرض للآثار السيئة الناتجة عن مخالفتها أو نبذها ، بحيث لا يكاد يذكر شيئاً من هذه الأحكام إلا مصحوباً بالأثر(الجزاء) المترتب عليه ، فعلاً أو تركاً . وهذا معلوم لكل متدبر لكلام الله تبارك وتعالى .

وذلك الأثر أو(الجزاء) الحسن أو السيئ يحصل ويتحقق كلما وجد سببه ، وهو الفعل أو الترك ، ويظهر بصورة واضحة مطردة على مستوى الأمة ، ويأخذ صفة(السُّنَّة) .

وبعد هذا التقرير لمكانة الأحكام التكليفية من حياة الأفراد والأمم ، أقول: إنَّ صحة الأمة وعافيتها وانتظام أحوالها وحُسْن سير الأمور فيها ، مبناه على تحقيق أمور ، في مقدمتها: تحقيق التوحيد بأقسامه الثلاثة ، وإقامة العدل ، وأداء الأمانات ، وتولية الأكفاء ، وتولي المؤمنين ، والبراءة من الكفار ، وقوامة الرجال على النساء ، وقيام سوق

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك التعامل بالربا، وتطهير الأمة من الفواحش؛ كالزنا وشُرْب الخمر . . . وأمثال ذلك .

وأن تحيط ذلك كله بسياج من تقوى الله ومراقبته، بالقيام بشعائر العبادة وتعظيم حرمات الله عامة، وبهذه وتلك تحقق الأمة معنى(التقوى)، وهي: أن تجعل بينها وبين عذاب الله وعقوباته الدنيوية وقاية .

ونحن إذا تأملنا ما ذكر آنفاً من الأمور التي بها وبأمثالها تستحق الأمة لقب التقوى من العقاب الدنيوي . إذا تأمّلنا فيها، وجدناها من جملة الأحكام التكليفية، فلا جرم سيعرض القرآن للسنن في سياقاتها وبمناسبة الحديث عنها .

ولنأخذ أمثلة وشواهد على ذلك:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ * وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[النحل: ٣٥، ٣٦] .

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك، واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ . ومضمون كلامهم: أنّه لو كان ـ تعالى ـ كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه . قال الله تعالى رادًا عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾؟ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة، أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله، وينهون عن عبادة ما سواه ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ

﴿مِن شَيْءٍ﴾؟ فمشيئته تعالى الشرعية منتفية عنهم؛ لأنَّه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأمَّا مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدراً فلا حجة لهم فيها. ثم إنَّه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]؛ أي: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف دمر الله عليهم ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾(١) [محمد: ١٠].

إذن، فتحقيق التوحيد الذي ركناه: عبادة الله وحده، واجتناب الطاغوت والكفر به، حكمٌ تكليفي، ترتَّب على مخالفته أشد العقوبات في الدنيا، ليس لأمة دون أمة، بل للأمم جميعاً، وقد قرَّر الله هذه السنة بهذه المناسبة.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. وقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ۞ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٦، ٢٧].

هذه الآيات وغيرها مما جاء في معناها، صريحةٌ في الأمر بأداء الأمانات، والعدل في الحكومة بين الناس، «والخطاب فيها لكل من يصلح لتلقي هذا الخطاب والعمل به من كل مؤتمن على شيء، ومن كل من تولى الحكم بين الناس في الحقوق»(٢).

«والأمانات من صيغ العموم، والأداء حقيقة في تسليم ذات لمن يستحقها، ويطلق الأداء مجازاً على الاعتراف والوفاء بشيء... فتكون الآية آمرة بجميع أنواع الإيصال والوفاءات»(٣).

كما أنَّها صريحة في إيجاب ذلك، كما قال ـ سبحانه ـ لرسوله ﷺ، آمراً إياه بامتثاله وأن يبلغه للناس: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ﴾(٤) [الشورى: ١٥].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٦٨، ٥٦٩).
(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٩١).
(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٩١، ٩٢، ٩٣) بتصرف.
(٤) انظر: تفسير المنار (٥/ ١٧٩).

وقال رسول الله ﷺ: «**أدِّ الأمَانَةَ إلى مَنْ ائْتَمَنَكَ ولا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»[١].

وأخبر ـ جلا وعلا ـ أن من أعظم غايات إرسال الرسل وإنزال الكتب، أنْ يقوم الناس بالقسط، وهو العدل، بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وواضح أنَّ الأمر بأداء الأمانات والحكم بين الناس بالعدل، والنهي عن ضد ذلك من الخيانة والجور، أن ذلك من جملة الأحكام التكليفية؛ لأنَّ إمكان ألا تؤدى الأمانات، وألا يحكم بالعدل في مقدور البشر، وهو واقع منهم مشاهد بينهم، لكن الله أمرهم بأداء الأمانات وأن يحكموا بالعدل، وأخبر أنَّه يعظهم بذلك، وأثنى على هذه الموعظة، وحذرهم من مخالفتها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

والعدل الذي يحتاج إلى شيء من البيان بهذه المناسبة هو العدل على مستوى الأمم، وقد أجاد العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في إيضاح هذا النوع من العدل؛ إذ قال: «والعدل مساواة بين الناس أو بين أفراد أمة: في تعيين الأشياء لمستحقيها، وفي تمكين كل ذي حق من حقه، بدون تأخير، فهو مساواة في استحقاق الأشياء، وفي وسائل تمكينها بأيدي أربابها، فالأول هو العدل في تعيين الحقوق، والثاني هو العدل في التنفيذ، وليس العدل في توزيع الأشياء بين الناس سواء بدون استحقاق.

فالعدل وسط بين طرفين، هما: الإفراط في تخويل ذي الحق حقه؛ أي: بإعطائه أكثر من حقه. والتفريط في ذلك؛ أي: بالإجحاف له من حقه.

وكلا الطرفين يسمى جوراً، وكذلك الإفراط والتفريط في تنفيذ الإعطاء، بتقديمه على وقته، كإعطاء المال بيد السفيه، أو تأخيره كإبقاء المال بيد الوصي بعد الرشد... وهو ـ أي العدل ـ حسن في الفطرة؛ لأنه كما يصد المعتدي عن اعتدائه، كذلك يصد غيره عن الاعتداء عليه»[٢].

---

(١) حديث حسن. أخرجه الترمذي في البيوع ح (١٢٦٤)، وقال: «حديث حسن غريب». وأبو داود في البيوع، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده (٣/ ٨٠٥) ح (٣٥٣٥). والدارمي في سننه (٢/ ٢٦٤)، وقال في «الجامع الصغير» للسيوطي (١/ ٥١)، ح (٣٠٨): «وأخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة، والدارقطني في «السنن» عن أنس وأبي ابن كعب، والضياء عن أنس، والطبراني في «الكبير» عن أبي أُمامة». قال عبد القادر الأرناؤوط في تخريج الحديث في جامع الأصول (١/ ٣٢٣): «إسناده حسن. وتضعيف ابن حزم له في المحلّى ضعيف لا يلتفت إليه».

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٩٤، ٩٥).

ومن تمام إقامة العدل وأداء الأمانة، تولية الأصلح والأكفأ «فيجب على كل من ولي شيئاً من أمور المسلمين، أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه. وقد لا يكون في موجوده من هو صالح لتلك الولاية، فيختار الأمثل فالأمثل في كل منصب بحسبه، وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام وأخذه للولاية بحقها فقد أدَّى الأمانة وقام بالواجب في هذا، وصار في هذا الموضع من أئمة العدل والمقسطين عند الله»[1]. وإذا لم يفعل ذلك كان الجور لامحالة، وكانت الأثرة، وفشت في الناس الرشوة وهضم الحقوق، فاستحقت الأمة بعمومها من العقوبات الدنيوية مايكدر صفو عيشها، ومنها ما نشاهد ونعايش في أيامنا، التي تعتبر مثالا لما جرى به الحديث.

وقد فصَّل شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعيَّة» ما تصلح به أحوال الأمة، وجعل مدار ذلك على إقامة العدل فيهم، ورعاية الأمانات، فليراجعه الراغب في المزيد فإنه نفيس.

ومن المفاسد التي نهى الله عباده أن يتلبسوا بها أمما وأفراداً: أكل الربا، والتعامل به. قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ * يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ * فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

فأخبر ـ سبحانه ـ في هذه الآيات عن سوء حال المرابين، ومحق الربا وإذهاب بركته، في الدنيا والآخرة.

فأمَّا ما يقع ويحصل لهم في الدنيا من محق البركات وإهلاك الأموال التي يخالطها الربا «فقد اشتهر هذا حتى عرفه العامة، فهم يذكرون دائماً ما يحفظون من أخبار آكلي الربا، الذين ذهبت أموالهم وخربت بيوتهم. فإنَّ الربا ـ وإن كثر ـ فعاقبته تصير إلى قل»[2] بما

---

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٨، ١٣ بتصرف.
(٢) تفسير المنار (٣/٩٩) بتصرف يسير.

يصيبه من أنواع الجوائح، مع ما ينشأ في نفوسهم من شدّة التعلّق بالأموال وجمعها واكتنازها، فيشغلهم ذلك عن شأن نفوسهم وأهليهم، ويحملهم على ركوب المخاطر، مما هو مخالف للمقصود من جمع المال بغية الاستغناء به، وأن يكون سبيلاً إلى الأُنس والمُتْعَة. وما يجلبون إلى أنفسهم من كراهية الناس لهم وعداوتهم إياهم؛ لأنَّ الناس يشعرون بأنَّ هؤلاء المرابين هم أعداء الفقراء، ومصاصو الدماء، بل هم أسباب حلول البلايا، فهؤلاء المرابون ينظرون إلى عامة الناس كما ينظر إليهم حفار القبور.

ومن أعظم مظاهر محق البركة أنك لا تجد بلداً ربوياً إلا وتجد فيه الطبقية في أجلى صورها، يكون المال فيه دولة بين جماعة من المرابين، وعامة الناس دون مستوى الفقر.

وفوق ذلك وأعظم منه أنها لا تربو عند الله، بل هي سبب للعقوبة ودخول النار، وأن المجتمع القائم على أساس الربا مجتمع محارب لله ورسوله.

ومن ذا الذي يطيق هذه الحرب أو يصبر لها؟ بل من ذا الذي يرضى بأن يكون حرباً لله ورسوله؟ وكفى... فإنَّ من لم ير في تلك العقوبات واعظاً وزجراً، فقد مات حسّه وتودع منه.

ومثل آخر:

قد ثبت تحريم الفواحش، كالزنا واللواط وشرب الخمور ونحوها في سائر الملل والأديان السماوية. قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾... الآية إلى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[الأنعام: ١٥١]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

وقد حكى الله شأن أمة من الأمم أصروا على مواقعة جريمة اللواط، وقصَّ ما آل إليه أمرهم وكيف كانت عاقبتهم، في مواضع من كتابه، منها قوله سبحانه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ

أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٨].

وروى لنا التاريخ كيف انهارت دولة الرومان لما عملت فيها معاول الفساد والانحلال[1].

وهذه الأمم الكافرة المعاصرة وما شاع فيها من الأمراض الفتَّاكة، كالإيدز وغيره، بسبب إباحة الفواحش، خير شاهد على ذلك[2].

والخلاصة: أنَّ القرآن الكريم قد عنى بإبراز سنن الله في الأمم في سياق تقرير الأحكام التكليفية من الأوامر والنواهي، لكن ذلك قد يخفى على بعض الناس لأسباب:

منها: ما يتعلق بطريقة عرض السنن في سياق هذه الأحكام.

ومنها: ما يتصل بفهم الناس لوظائف الأحكام وآثارها في دنياهم.

فأمَّا الأول: فإنَّ القرآن لا يذكر السنن في سياق الأحكام بصورة صريحة، لكن تنبيهاً وإيماءً، بخلاف الأحداث التاريخية والأمثال المضروبة، فتحتاج معرفة السنن في سياق الأحكام إلى نوع تتبع واستقراء، فأنت ـ مثلاً ـ عندما تقرأ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، قد لا ينقدح في ذهنك أنك أمام رافد من روافد التقوى وسبب من أسبابها التي أمضى الله سنته في خلقه أنها لا تحصل ولا تتحقق إلا من هذا الطريق وأمثاله.

وقد تغفل عن أن القرآن حين يختتم الأحكام المتعلقة بالصيام بالتعليل ذاته، بقوله: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٧]. فإنَّما يريد التأكيد على معنى: أن تقوى الله بالصيام، سببٌ من أسباب وقاية عذاب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة.

وعندما يتحدَّث القرآن عن أحكام الطلاق، وعن ضرورة إقامتها على وفق شرع الله، يفصل بينها بجملة معترضة تنبه إلى أن: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

---

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي، ص ٧١ وما بعدها. والإسلام ومشكلات الحضارة، لسيد قطب، ص ٥٦ وما بعدها.

(٢) وسيأتي لهذه المسألة مزيد بيان وتفصيل في الفصل الثاني من الباب الثالث، إن شاء الله تعالى.

وحدود الله: هي أوامره ونواهيه الشرعية، وإقامتها: إظهارها والعمل بها، وذلك يورث التقوى وصلاح الحال، وتعديها ظلم أي ظلم يستوجب العقوبة والنكال.

ومعلوم أن المذكور في الآيات ليس هو كل حدود الله، ولكن الله يقرر السُّنة العامة: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، بمناسبة تقرير حكم من الأحكام الخاصة؛ لأنَّ الكل من واد واحد.

وعندما تقرأ قوله سبحانه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، يتبادر إلى ذهنك مجموعة الخصائص التي أهلت الرجال للقيام بمسئولية القوامة، والتي أشارت الآية إليها إجمالاً، ولكن هل تذهب إلى أبعد من ذلك لتتصور الآثار المدمرة التي لا شك في وقوعها على مستوى الأمة حينما يترك الرجل القوامة، أو حينما تكون القوامة من حقوق المرأة!

إنَّ القرآنَ في هذه الآية لا يقترح اقتراحاً أن تكون القوامة للرجال على النساء، ولكنه يخبر عن وظيفة محددة لكل منهما، ويطالب بالالتزام بها، ولا يرضى بسوى ذلك، فالآية لفظها لفظ الخبر ومعناها الأمر.

ويوم يرضى الناس لأنفسهم غير ما ارتضاه الله لهم، فإنَّ عليهم أن يستعدوا لتحمّل نتائج مخالفتهم.

وأمَّا الثاني: وهو ما يتصل بفهم الناس لوظائف الأحكام وآثارها في دنياهم، فإنَّه قد وضع فصام نكد في أذهان كثيرين من الناس، مؤداه أنهم يجعلون الأحكام التكليفية على نوعين:

نوع يرون خطورة التهاون به. فتجدهم يطالبون ـ مثلاً ـ بإقامة العدل في توزيع الأموال، وفي إيقاع العقوبات، ويحاربون المخدرات، ويجابهون العنف وينزعجون من ظاهرة السرقة... وما إلى ذلك من المخالفات التي يواجهون آثارها السلبية بصورة مادية مباشرة.

وكل هذه القضايا مما يجب على الأمة أن تعنَى بها وتكون في دائرة اهتمامها، ولا شك في خطورة التهاون بها.

لكن يجنح بهم القطار حين لا يقيمون وزناً لجوانب أُخَر من الأحكام التكليفية، وهي ما أعنيه بالنوع الثاني.

وهذا النوع لا ينتبهون لأهميته وخطورة آثاره على مستوى الأمة ؛ وذلك كالشعائر التعبدية وأعمال القلوب ، وما لها من آثار على الأخلاق والسلوك ، وأنها هي الشرطي الداخلي الذي إذا غاب لا يغني عنه جحفل من الحراس والرقباء .

لا يتنبهون لمنزلتها تلك فيستبعدونها من أي عملية تقويمية لأسباب النجاح أو الفشل على مستوى الأمة . وهذا ذهول قد يوقع الأمة في شراك العلمنة من حيث لا تشعر .

والحق الذي لا تكون النجاة إلا به ، ينحصر في أخذ الإسلام جملة وتطبيق تعاليمه كلها على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة ، فإنَّه كله مما أمر الله به ، وهو من عبادة الله تعالى . . ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣] ، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

كما أنَّه ، وبالمشاهدة والتتبع ، قد ثبت أن الأمة التي تستهتر بالجوانب التعبدية ولا تجعل من نفسها حارساً لأخلاقها وسلوكها ، أنها أمة مرشحة لأنواع الانحرافات الأخلاقية والمفاسد الاجتماعية التي تقوض أمنها واستقرارها ، وتجعل منها بيئة صالحة لاستنبات الأمراض والعنف والقلق ، وغيرها . مصداقُ ذلك ، ما ذكر الله في كتابه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤] .

وأكتفي بهذا القدر ، وهذا أوان الشروع في المطلب الثاني ، في ذكر المؤثرات التي يحشدها القرآن وهو يعرض سنن الله في الأمم .

* * *

المطلب الثاني: في ذكر المؤثرات التي يحشدها القرآن وهو يعرض سنن الله في الأمم.

وهي مؤثرات كثيرة ومتنوعة حسب تنوع أغراض السُّنن، واختلاف المخاطبين بها. وإدراكها والتنبهُ لها عند محاولة استخلاص السنن واستنباطها، أمرٌ ذو أهمية بالغة. كما أن دراستها وتسجيلها يُعَدُّ جزءًا لا يتجزأ من دراسة منهج القرآن في عرض السُّنن.

وقد عرفنا فيما مضى أن القرآن بأسلوبه المعجز ونَظْمِهِ المحكم، قد وظف أروع ما في لغة العرب من الصيغ والأساليب، واستخدم كل وسيلة في التعبير؛ كي يبلغ التأثير أقصى مداه في النفوس، وتبلغ حجته الغاية في الإِحْكَام والظهور.

وتوّج ذلك كله بحشد من المؤثرات تغمر القلوب والمشاعر، بحيث لا تعرض(السنن) إلا وقد تهيّأت النفوس لتلقيها في جو يناسبها، ولا تغادر الحسّ إلا بعد أن تكون قد تركت أثرها في أغوار النفس... وهذا كله ـ بطبيعة الحال ـ إنّما يفقهه وينتفع به من ﴿كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. أمّا أعمى القلب مطموس البصيرة، فإنّها لا ﴿تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، و﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومما يجب أن تعلمه أن القرآن يذكر عند كل سُنة ما يناسبها، ويلائم الجو المراد إحداثه، ولهذا فقد تعرض السُّنة نفسُها في أكثر من موضع في جو مختلف، وهذا الاختلاف ذاته يترك أثراً جديداً، وكلاهما مقصود، كما سيتضح لك ذلك بإذن الله.

ويمكن تلخيص أبرز هذه المؤثرات ـ فيما ظهر لي ـ في النقاط التالية:

ـ أنّ القرآنَ يجمع بين الإنذار والذكرى، والبشارة والنذارة، في المقام والسياق الواحد

ـ وأنّه يتوخّى الأشباه والنظائر والموالاة بينها؛ ليتوالى التأثير على الحسّ.

ـ وأنّه يعرض الحدث (موضع العبرة) في مواضع متفرّقة ليذكّر به، وبصور مختلفة ليعالج صور الانحراف كافة، ويخاطب مختلف المدارك.

ـ وأنه يحشد المؤثرات الحسيَّة المادية، ويجسد المواقف والأحداث، لحمل الآخرين على التعاطف معها أو إثارة الحنق عليها، ولهذا الجانب من التأثير ما ليس لغيره.

وسـوف أبسـط في الصفحات التالية أمثلة وشواهد لكل نقطة، وأسأل الله الإعانة

والتسديد .

أولاً: الجمع بين الإنذار والذكرى، والبشارة والنذارة.

الإنذار والنذارة في لغة العرب: الإعلام المقترن بتهديد ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذاراً[(١)] .

والذكرى: كثرة الذِّكر ، وهي أبلغ من الذكر ، وهي بمعنى التذكرة والموعظة أيضاً .

والبشارة: الإخبار بما يسُر ، وتطلق على ضده من باب التهكم[(٢)] .

وقد أخبر الله ـ عز وجل ـ عن كتابه أنّه أنزله لذلك كله[(٣)] .

قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢] ، وقال: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

والجمع بين الإنذار والذكرى أو بين البشارة والنذارة ، شائعٌ في القرآن ، وهو من المقابلة بين الضِّدّين ، وله أثر عظيم في إحداث التوازن في تصور الأشياء وتربية النفوس ، وسد باب اليأس القاتل أو فتح باب الرجاء المفسد .

فالوعد يقابله الوعيد ، والجنة ونعيمها يذكر بإزائها النار وعذابها ، والخوف يسكنه الرجاء . . . وهكذا .

وسنن الله في الأمم غير مستثناة من هذه الميزة ، وكيف تستثنى ومسألة إحداث التوازن في الأمة والمجتمع هي إحدى أهم الغايات التي تُعنى السنن بإيجادها والحفاظ عليها في حياة الأمم!

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥] .

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٢٨٨) .
(٢) مفردات الراغب ، مادة (ذكر) ، و(بشر) .
(٣) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٨٦) وما بعدها .

والجمع بين البشارة والنذارة، وبين الإنذار والذكرى فيما يتعلَّقُ بالسُّنن على نوعين، عام وخاص.

النوع الأول: العام، وهو أن يقال: قد اشتمل القرآن الكريم على سنن هي نذر للكافرين والمنافقين، كإهلاك أشياعهم وأسلافهم، وكهزيمتهم وظهور المؤمنين عليهم، وكإحباط كيدهم وجعله وبالاً عليهم، ونحو ذلك.

كما اشتمل على سنن أُخَر هي بشائر للمؤمنين، كإنجاء أسلافهم ونصرهم على أعدائهم، مع قلتهم، وكون العاقبة لهم... ونحو ذلك.

وأمثلة هـذه وتلك، ظاهرة بيِّنة، بل إنَّ مدار السُّنن كلها عليها، صراحةً أو تضمناً.

وبهذا النظر يُقال: إنَّ من منهج القرآن أنه يعرض السُّنن المبشرة كما يعرض السُّنن المنذرة المتوعدة. وهذا النوع ـ وإن كان مهماً ـ فلن أتوقف عنده؛ لظهوره، وتكفي فيه إشارة كالتي أسلفتُ.

النوع الثاني: خاص، وأعني به: الجمع بين البشارة والنذارة، وبين الإنذار والذكرى في سياق واحد وبمناسبة تقرير سُنَّة واحدة.

ومجيء السُّنن بهذه الصفة كثير أيضاً، ومن أمثلته:

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۞ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۞ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١].

في هذه الآيات يبيِّنُ الله لعباده سنته في مدده وعطائه الدنيوي والأخروي، فمن «أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها، فإنَّ الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء، تعجيلاً غير مشكور، ومتاعاً غير حسن، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق. والذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها، فيؤدي تكاليفها، وينهض بتبعاتها، ويقيم سعيه لها على الإيمان. والسعيُ للآخرة لا

يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة ، إنّما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى ، فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية»[١] .

وتأمّل قوله: ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ فإنّ فيه إيماء و«دلالة على أن الوصف تحقق فيه من قبل ، أي من الدنيا ؛ لأنّ الطاعة تقتضي ترتب الشكر عاجلاً والثواب آجلاً . وقد جمع كونه مشكوراً خيرات كثيرة يطول تفصيلها لو أُرِيدَ تفصيله»[٢] .

وتأمّل قوله: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ إشارةٌ إلى أن هؤلاء وهؤلاء إنّما ينالون من عطاء الله «حتى الكفرة منهم الذين لا يؤمنون بلقائه ، فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدّر لهم ، وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة»[٣] .

وفي قوله: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ ، تنظير ، من مقاصده: التنبيه إلى أن «التفاوت في الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم»[٤] ، وأنه «غير منوط بصلاح الأعمال ، ألا ترى إلى ما فيه من تفاضل بين أهل العمل المتحد ، وقد يفضل المسلم فيه الكافر ، ويفضل الكافر المسلم ، ويفضل بعض المسلمين بعضاً ، وبعض الكفرة بعضاً . وكفاك بذلك هادياً إلى أن مناط عطاء الدنيا أسباب ليست من وادي العمل الصالح ، ولا مما يساق إلى النفوس الخيّرة»[٥] .

والمقصود من إيراد هذا المثل: بيان أن الله بشّر المؤمنين بأنهم إن سعوا واجتهدوا ، فإنّ لهم خيري الدنيا والآخرة ، كما أعلمهم بأن عطاء الدنيا ممنوح لهم ولغيرهم ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ ، فلا غرابة إن جد غيرهم واجتهد أن ينال من هذا العطاء أكثر مما نالوا! فضلاً عما فيه من مُطامَنة لكبرياء الكافرين ونعي عليهم ، فهم مع أنهم لا حَظَّ لهم في الآخرة ، فليس كل ما أرادوا وطلبوا في هذه الدنيا يحصل لهم . وهذا وذاك سنة وقانون ، وقد حصل من كل منهما لِما لا يحصى من البشر .

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢١٨) .
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٦١) .
(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٦١) .
(٤) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢١٨) .
(٥) التحرير والتنوير (١٥/ ٦٣) .

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ۞ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۞ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤ ـ ٩٦].

«لما بيَّن ـ جل وعلا ـ في الآية الأولى أن الذين عصوا وتمردوا أخذهم الله بغتة، بيَّن في هذه الآية أنهم لو أطاعوا، لفتح الله عليهم أبواب الخيرات. ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ يعني: الرسل، ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ بالجدوبة والقحط، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ من الكفر والمعصية»(١).

وقال الشوكاني: «اللام في ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ للعهد؛ أي ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ التي أرسلنا إليها رسلنا ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالرسل المرسلين إليهم، ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ ما صمموا عليه من الكفر ولم يصرُّوا على ما فعلوا من القبائح ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: يسَّرنا لهم خير السماء والأرض، كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها. ويجوز أن تكون اللام في ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ للجنس، والمراد: لو أن أهل القرى أين كانوا في أي بلاد سكنوا ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ إلى آخر الآية، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ بالآيات والأنبياء ولم يؤمنوا ولا اتقوا ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ بالعذاب ﴿بِـ﴾ سبب ﴿ما كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ من الذنوب الموجبة لعذابهم»(٢).

ففي هذه الآيات تجلت سُنَّة من سنن الله في الأمم، وهي: أن سعادة الأمم وشقاءها منوطٌ بكسبها وعملها، وسُنَّة أخرى، وهي: أن البركات والنماء يمنح للأمَّة المؤمنة المتقية، وأن البركات تنزع منها، وتحل بها المساخط متى عصت وكذَّبت.

واجتماع البشارة والنذارة في هذه الآيات بيِّنٌ ظاهرٌ.

ومن الآيات الناطقة باجتماع البشارة مع الإنذار والذكرى، قوله جل وعلا في شأن بني إسرائيل، ما حصل لهم من العقوبة بسبب الإفساد في الأرض، ثم التمكين لهم بعد

(١) التفسير الكبير، للرازي (١٤/ ١٨٥).
(٢) فتح القدير (٢/ ٢٢٧، ٢٢٨).

توبتهم ورجوعهم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۞ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۞ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۞ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۞ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٨].

ففي هذه الآيات أخبر سبحانه أنه قضى وحكم وأبلغ بني إسرائيل أنهم يفسدون في الأرض مرتين مشهودتين، وأن الله سيوقع بهم مع كل إفسادة عقوبة، فيسلّط عليهم عباداً وجنداً يذلونهم ويستبيحون ديارهم، وأخبر أنه في كل مرة لا يرفع ذلك عنهم إلا إذا أحدثوا توبة ورجوعاً إليه[١].

ولنتأمّل قوله تعالى بعد ما ذكر إفسادهم الأول: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۞ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾.

والمعنى: «أنّنا نُردّ لكم الكرّة لأجل التوبة وتجدد الجيل، وقد أصبحتم في حالة نعمة، فإن أحسنتم كان جزاؤكم حسناً، وإن أسأتم أسأتم لأنفسكم، فكما أهلكنا مَنْ قبلكم بذنوبهم فقد أحسنا إليكم بتوبتكم، فاحذروا الإساءة كيلا تصيروا إلى مصير مَنْ قبلكم»[٢].

ولما ذكر ما عاقبهم به جزاء إفسادهم للمرة الثانية، قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾. والمعنى: «بعد أن يرحمكم ربكم ويؤمنكم في البلاد التي تلجأون إليها، إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى عقابكم؛ أي عدنا لمثل ما تقدّم من عقاب الدنيا»[٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٨).

ومن أمثلته أيضاً: قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۞ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٦، ٧].

قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ الآية. قيل: هذا من جملة ما قال موسى ﷺ لقومه، فيكون معطوفاً على ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾، أي اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذّن ربكم.

وقيل: هو معطوف على قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنجَاكُم﴾، أي اذكروا نعمته تعالى في هذين الوقتين، فإنَّ هذا التأذن أيضاً نعمة من الله تعالى عليهم ينالون بها خيري الدنيا والآخرة[(١)].

والمعنى: وإذ آذن ربكم وأعلم إعلاماً بليغاً ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وإهلاك العدو، وغير ذلك من النعم والآلاء الفائتة للحصر، وقابلتموه بالإيمان والطاعة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمة إلى نعمة، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ذلك وغمصتموه ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم[(٢)]، فقد وعدهم الزيادة على الشكر، وأوعدهم العذاب على الكفر[(٣)].

وأكتفي بهذه النماذج في الإبانة عما قصدت إليه من أن من منهج القرآن أنّه يجمع في عرضه للسُّنن ـ بصفة عامة ـ بين البشارة والنذارة، وبين التخويف والإطماع، لإحداث التوازن البنّاء، وحسم مادة اليأس والخوف المفضي إلى القنوط، وقطع دابر الرجاء والأماني المولّدة للخمول والتفريط، والدعاوى العريضة بلا عمل وجِدّ. وإليك النقطة الثانية، ألا وهي:

توخّي الأشباه والنظائر في عرض السُّنن:

الشبه والنظير: هو المماثل والمشاكل.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٥/ ٣٤).
(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٥/ ٣٥)، وتفسير القاسمي (١٠/ ١٠).
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٩/ ٣٤٣)، والتفسير الكبير (١٩/ ٧٨).

وأوجه الشبه بين الأشياء لا تنحصر، فقد يشبه هذا هذا من بعض الوجوه، ويشبه كل منهما شيئاً آخر من وجوه أُخَر... وهكذا.

وانجذاب الأشباه إلى ما يشابهها والنظائر إلى ما يشاكلها، أمرٌ مركوز في الفِطَر مجبولة عليه النفوس، والتأليف بينها في الكلام من محاسن البلاغة، وهو أسلوب بديع، ينطوي على فوائد.

منها: أنه يكسب الكلام قوّة، والحجّة ثباتاً، ويحمل على الإذعان والتسليم، ويترك في النفوس أثراً مضاعفاً، ويعين على فهم المراد... وغير ذلك.

ولا يعني هذا أنّه لا وجه يعرض في الكلام يحسن معه التفريق بين الأشباه، والتأليف بين الأضداد! كلا. بل لهذا مواطن، ولذاك مواضع:

والشبه منجذب إلى شبهه   والضد يظهر حسنه الضد

وبضدها تتميز الأشياء. ويمكن أن ننظر إلى ما سبق الكلام فيه في الفقرة الأولى من الجمع بين البشارة والنذارة، على أنّه من الضد الذي يظهر حُسْنه الضد، وهو كذلك.

وجمع الأشباه والنظائر والتأليف بينها فيما يتعلّق بالسنن(موضوع الدراسة) شيء لا ينقضي من حُسنه العجب، ومن استبطن هذا المعنى واصطحبه في تعامله مع نصوص القرآن، عرف من أسرار التكرار، وحكم التقديم والتأخير والاختصار في الأخبار أشياء قد لا يظفر بمثلها في كثير من الأسفار.

فدونك هذه الأمثلة، فخذها وقس عليها غيرها.

فمثلاً: حينما يكون الغرض: بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة واحدة. وأنّ العاقبة لهم. وأنّ استقبال قومهم لهم متشابه. وأنّ عاقبة قومهم التدمير والهلاك.

حينما يكون الغرض هو ذلك... دون أن يكون مقصوداً تفصيل الفروق فيما بينهم، لا في كيفية الإنجاء، ولا في كيفية الهلاك «ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة... مكررة فيها طريقة الدعوة»[1]، وأساليب استقبال الأقوام للدعوة ولشخص الداعي، ومشاهد الإنجاء والإهلاك.

ولإبراز هذه السنن يحشد القرآن أكبر قدر ممكن من القصص والأحداث التاريخية ويوالي بين سياقاتها؛ لأنّ الغرض متعلّق بجميعهم، فلا حاجة إلى التخصيص والاختيار. ولهذا نلاحظ أنه يراعي في عرضها التسلسل التاريخي غالباً.

(١) التصوير الفني في القرآن، ص ١٢٢.

وإذا أردنا التمثيل لذلك، فهناك سور ثلاث عرض القرآن فيها هذه السنن بهذه الكيفية تقريباً، وكل منها تصلح لأن تكون مثالاً لهذه الظاهرة على ما بينها من فروق[١] وهي: الأعراف[٢]، وهود[٣]، والشعراء[٤].

وسأضرب لما نحن بصدده مثالاً من سورة هود.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٧]... الآيات. إلى أن جاء مشهد إهلاك الكافرين وإنجاء نوح ومن معه من المؤمنين، وذلك قوله سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٤٠ ـ ٤٤].

وقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾... الآيات إلى قوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٠ ـ ٦٠].

وقال في شأن صالح ﷺ وقومه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ * قَالُوا۟

---

(١) فمن الفروق: الاختلاف في طريقة العرض تبعاً لأهداف ومقاصد كل منها. ومنها: الاختلاف في ترتيب الأحداث، وفي اختزال بعضها، ففي سورة الشعراء ـ مثلاً ـ نجد أن قصة موسى ﷺ أول ما عُرِضَ من القصص، في الوقت الذي لا نجد لخبر إبراهيم ﷺ ذكراً في سورة الأعراف... إلى غير ذلك من الفروق.

(٢) الآيات: ٥٩ ـ ١٣٧.

(٣) الآيات: ٢٥ ـ ١٠٠.

(٤) الآيات: ١٠ ـ ١٩١.

يَصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ . . . الآيات إلى قوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۞ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۞ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦١ - ٦٨].

وقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۞ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾ . . . الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۞ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۞ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٧٧ - ٨٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ . . . الآيات، إلى قوله: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ . . . الآيات، إلى قوله: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ . . . الآيات، إلى قوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۞ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود: ٨٤ - ٩٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۞ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۞ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۞ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود: ٩٦ - ٩٩].

وقال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ في شأن قومه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

وتهددهم بمصير أسلافهم فقال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ * وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢].

ولا شك أنَّ لهذا الحشد من الأحداث، مع توخي إبراز قضايا محددة عن طريق التأكيد عليها في كل حادثة، أن لذلك أثراً لا يستهان به، حتى لكأن السورة تحكي أطول ملحمة تاريخية في عمر الدنيا. تُبرز فيها خطوط معلمة تشير إلى طبيعة هذه الملحمة، ونتيجتها، وتعين أطراف الصراع فيها.

ومما يؤكد هذا المعنى آنف الذكر، أنَّ القرآن في غير ما موضع، يُجري مقارنات سريعة بين كفار قريش في جانب معين وبين حشد من الأمم السابقة، دون مراعاة لجانب التسلسل التاريخي، الذي ـ غالباً ـ ما تكون مراعاته في المشاهد التفصيلية.

فمثلاً في باب تكذيب الرسول صلى الله ﷺ وإنكار وحدانية الله:

قال تعالى في أول سورة ص: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ * وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ * أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ * جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [سورة ص: ١ ـ ١٤].

وقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ ـ ٤٤].

ومثل آخر في باب تكذيب الرسل وإنكار البعث بعد الموت:

قال تعالى في أول سورة ق: ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: ١٢ ـ ١٥].

وهذه الأمثلة تقودنا إلى تصور أمثلة أُخَر!

فمما لا شك فيه، أنَّ لهؤلاء الأقوام الذين أشارت إليهم سورة هود وأختاها بأسلوب معين لبلوغ غاية أو غايات محددة... هؤلاء الأقوام بين بعضهم من صور التشابه في غير تلك الأمور التي أسلفت بيانها في الأمثلة السابقة أشياء كثيرة، في إمكانات القوم، وفي أسلوب المواجهة، وفي كيفية الإهلاك، وفي كيفية الإنجاء... وفي أشياء أُخَر تظهر عند التأمّل.

والقرآن كما أنه يرسم لجميعهم صوراً كليَّة، فهو أيضاً يقصد إلى مواطن التشابه بينهم وهي أوجه شبه ليست كلية، فقد تكون ثنائية أو أكثر فيبرزها عن طريق الجمع بينها، وعلى هذا شواهد، منها:

ما جاء في سورة البروج من ذكر لفرعون وثمود. قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ [البروج: ١٧، ١٨].

جاء ذكرهما بعد عرض قصة أصحاب الأخدود في سياق حي مؤثر.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ * وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ * ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ١ ـ ٧]... الآيات، إلى آخر القصة.

وجاء «اختيار فرعون هنا بعد أصحاب الأخدود، لما بينهما من المشاكلة والمشابهة، إذ فرعون طغى وادَّعى الربوبية، كملك أصحاب الأخدود الذي قال لجليسه: ألك رب غيري؟ ولتعذيبه بني إسرائيل بتقتيل الأولاد واستحياء النساء. ولتقديم الآيات والبراهين على صدق الداعية؛ إذ موسى ﷺ قدَّم لفرعون من آيات ربه الكبرى فكذَّب وعصى،

والغلام قدَّم لهذا الملك الآيات الكبرى: إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، وعجز فرعون عن موسى وإدراكه، وعجز الملك عن قتل الغلام إذ نجَّاه الله من الإغراق والدهدهة من قمة الجبل، فكان لهذا أن يرعوي عن ذلك ويتفطن للحقيقة، ولكن سلطانه أعماه، كما أعمى فرعون.

وكذلك آمن السحرة لما رأوا موسى وخرُّوا لله سجداً، وهكذا هنا آمن الناس برب الغلام، فوقع الملك فيما وقع فيه فرعون؛ إذ جمع فرعون السحرة ليشهد الناس عجز موسى وقدرته، فانقلب الموقف عليه، وكان أول الناس إيماناً هم أعوان فرعون على موسى، وهكذا هنا كان أسرع الناس إيماناً الذين جمعهم الملك ليشهدوا قتله للغلام.

فظهر تناسب ذكر فرعون دون غيره من الأمم الطاغية السابقة، وإن كان في الكل عظة وعبرة، ولكن هذا منتهى الإعجاز في قصص القرآن وأسلوبه، والله تعالى أعلم»[١].

ولما كان المقصود من ذِكْر قصة أصحاب الأخدود وحديث الجنود تسلية المؤمنين وتثبيتهم، وزجر المشركين وردعهم، ذَكَرَت ثمود مع فرعون في هذا السياق؛ لما بين قصتهم وبين القصتين الأخريين، والمخاطبين بها من الشَّبَه والمناسبة، فإنَّ «ثمود كان منهم من مظاهر القوة والطغيان»[٢]، وحصل منهم التآمر على القتل، و«كانوا في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة»[٣]، كما أن قصة فرعون مشهورة كذلك، «فذكر تعالى من المتأخرين فرعون، ومن المتقدمين ثمود»[٤].

وشيء آخر وهو أن «ثمود» تحقق تناسباً في رؤوس الآي[٥]، وهذا وإن كان شيئاً تابعاً إلا أنَّه مما تنبغي ملاحظته.

ومثل آخر للجمع بين الأشباه والنظائر في بعض الجوانب لمناسبة معينة. حين يكون الغرض والغاية إظهار قوة الله وشدة بطشه بالمكذبين، فإنَّ الذي يناسب ذلك عادة، أن تذكر الأمم والأقوام ذوو البأس والشدَّة، الذين اعتدّوا بأنفسهم ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؟ فإنَّ التنكيل بذي القوة أدلّ على قوة المنكل وشدَّة بطشه.

---

(١) أضواء البيان (٩/ ١٤٩، ١٥٠) باختصار.
(٢) أضواء البيان (٩/ ١٥٠).
(٣) التفسير الكبير (٣١/ ١٢٤).
(٤) التفسير الكبير (٣١/ ١٢٤).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٥١).

وكذلك فعل القرآن الكريم .

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤] .

وقد ذكر القرآن هذه الأمم الثلاث في سورة الحاقة في قوله جل وعلا: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ [الحاقة: ٤ ـ ١٠] .

والمتأمّل لسياق الآيات في الموضعين ، يجد أن القرآن عني في سورة الفجر بإظهار قوتهم وجبروتهم وفصَّل ذلك ، وفي سورة الحاقة عني ببيان كيفية أخذهم ، وأظهر شدَّة النكال الواقع عليهم .

وهكذا يتوخّى القرآن الأشباه والنظائر ، فيجمع بينها ؛ لإحداث الأثر في النفوس ويقطع شبهة التردد بيقين الحجَّة ، التي لم تكتسب قوتها من كونها حقا في ذاتها فحسب ، وإنّما بتوالي الأمثال والأشباه كذلك ، فيخرج المثال من شبح التفرد إلى دائرة الكثرة ، المفيدة للقوة ، فتنضاف قوة إلى قوة .

ثالثاً: عرض الحدث(الشاهد) والجزاء(السُّنّة) في مواضع مختلفة، وبصور متنوعة.

وهذا العرض في مواضع مختلفة ، ليس مجرد تكرار لا جديد فيه ولا مناسبة تستدعيه ، كلا . فهو تكرار مقصود بحد ذاته ؛ لأنَّ التكرار من أقوى أسباب رسوخ المعاني والأفكار . وهو تكرار لا ينفك عن إضافة جديدة في كل مرة ، وهذه الإضافة عند التأمل ملحوظة ، وهي إضافة مقصودة لذاتها .

وهذا التنويع في الصيغ ليس لمجرد التفنن في العرض بلا إضافة وبلا فائدة ، وإن كان التفنن في العرض مطلوباً ومقصوداً .

إن لتكرار العرض وتنويع الصيغ فوائد .

فمن فوائد التكرار: أنه دليل على أهمية الشيء ، ووسيلة إلى استذكاره ، ومعين على رسوخه ، وحافز إلى الاعتبار به .

ومن فوائد التنويع في الصيغ: مخاطبة مختلف العقول والمدارك. وإزالة سبب الاستثقال الناشئ من توهم مجرد التكرار، وكشف خفايا النفوس، ومعالجة مختلف الصور والانحرافات.

إذن، فالتكرار الملحوظ فيه جانبا الإضافة والتنويع ينطوي على مزايا أسلوبية رائعة، ويحتوي على معانٍ جديدة هادفة. وهذه وتلك وراء ما له من تأثير ملموس. وهي جزء من منهج القرآن في تقرير العقائد والأحكام والآداب والوعد والوعيد، وغيرها مما اشتمل عليه القرآن. ومن ذلك السنن التي تضبط حياة الأمم وتؤلف نظامها.

قال تبارك اسمه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

ومعنى ﴿مَّثَانِيَ﴾: أنَّ الله ـ تعالى ـ يردد في كتابه القول لعباده ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى. وقيل: ﴿مَّثَانِيَ﴾: مردد، ردد موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في أمكنة كثيرة[1].

وإليك بعض الأمثلة والشواهد على ذلك:

فمن ذلك: أن الله ـ جل وعلا ـ أخبر في كتابه عن قوم لوط ﷺ أنه معذبهم بقوله: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ [هود: ٧٦].

و«هذا العذاب الذي صرَّح هنا بأنه آت قوم لوط، لا محالة، وأنه لا مرد له، بينه في مواضع متعددة»[2]، وفي كل موضع نجد لهذا البيان وظيفة جديدة، ويطرق القرآن في كل منها معنى خاصاً.

ففي موضع منها: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وفي آخر: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٤ ـ ٧٦].

---

(١) تفسير ابن جرير (٢٣/ ٢١٠)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٠). والقول الأول مروي عن الضّحاك، والثاني عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.
(٢) أضواء البيان (٣/ ٣٢).

وفي موضع ثالث: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٢ ـ ١٧٣].

وفي موضع رابع: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٣، ٣٤].

وفي خامس: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠].

إلى آيات أُخر غير هذه الآيات.

ونحن لو تأمّلنا هذا العرض المتكرر ذا الصيغ المختلفة لهذا المشهد الواحد، مشهد إهلاك وعقوبة قوم لوط، فإنا واجدون أن الله تعالى قد أنذر به ووعظ، ووصف وقرع!

فقوله سبحانه: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣]، تهديدٌ وإنذار بحلول مثل هذه العقوبة بالظالمين الفاعلين مثل فعلهم.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥] موعظة وذكرى؛ إذ المعنى: إنَّ في ذلك العذاب لآيات «للمتأملين.. تحصل لهم بها الموعظة والاعتبار والخوف من معصية الله أن ينزل بهم مثل ذلك... وأصل التوسم: تفعل من الوسم، وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها، يُقال: توسمتُ فيه الخير إذا رأيت ميسمه فيه، أي علامته... وللعلماء فيه أقوال متقاربة»[1].

فقيل: ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾: المعتبرين، وقيل: المتفرسين والناظرين، وقيل: المتأملين والمتفكرين والمستبصرين.. ومرجعها إلى شيء واحد[2].

وفي قوله: ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾: وصف لعذابهم ببالغ السوء، وهو ما يسوء أصحابه، ويدخل عليه الغم[3].

وفي قوله: ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٤]: تسجيل لوصف جديد يُضاف

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤٠).
(٢) أضواء البيان (٣/ ١٥٧) بتصرف يسير.
(٣) انظر: مفردات الراغب، (سوء).

إلى ما وصفوا به من الإجرام في الآية قبلها ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣١، ٣٢] .

فكأنَّ نكتة إيراد هذا الوصف هنا هو تسجيل إفراطهم في الإجرام[١] .

وفي قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠] تقريع وتوبيخ[٢] للمشركين الذين يمرون على هذه القرية المعذبة بمطر السوء ثم لا يعتبرون بها .

فكأنَّ الغرض من ذكر قرية لوط في هذه الآية، ليس الحديث عنها كما في السياقات السابقة، وإنما لتبكيت وتوبيخ غيرهم، ولمزهم بشدَّة الغفلة، وهكذا، ففي كل سياق غرض أساس يعني القرآن بإبرازه من خلال هذا السياق أو ذاك، وهناك أغراض ومعانٍ أُخَر ينبِّهُ إليها ويتضمنها .

وعلى غرار هذا المثال الذي فصلت لك، يمكن أن تستظهر عشرات الأمثلة .

كتكرار وسائل الأنبياء وأساليبهم في الدعوة، وما فيها من التنويع .

وتكرار مواقف الأمم من الرسل وأتباعهم، وما فيها من الإضافة واختلاف الوسائل والأساليب . . . وغيرها، وغيرها . وفي كل منها أبينُ دليل على ما أنبأتك به .

وقد يكون في التكرار وتنوع العرض تفصيل لإجمال، وتفسير له، بذكر أشياء تندرج تحت هذا النص؛ لئلا يظن ظان أنَّها ليست منه، فيقصر مدلوله ويخرج منه ما هو داخل فيه .

ولإيضاح هذا المعنى أبسُطُ لك المثال التالي: قال تعالى في مطلع سورة هود ﷺ: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ١ ـ ٣] الآيات .

قال العلامة الشنقيطي[٣] عند هذه الآية: «هذه الآية الكريمة تدلُّ على أن الاستغفار

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ٧) .

(٢) انظر: فتح القدير، للشوكاني (٤/ ٧٧) .

(٣) هو: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، الإمام الفقيه الأصولي المفسّر اللغوي، من علماء شنقيط، حج عام ١٣٦٧هـ، واستوطن المدينة المنورة، ثم ارتحل إلى الرياض، ثم عاد إلى المدينة في الجامعة الإسلامية، صاحب (أضواء البيان)، و(دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب)، وغيرهما . كانت وفاته ضحوة الخميس ١٧/ ٣/ ١٣٩٣هـ بمكة المكرمة ، =

والتوبة إلى الله تعالى من الذنوب، سببٌ لأنْ يمتع الله من فعل ذلك متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمًّى؛ لأنَّه رتَّبَ ذلك على الاستغفار والتوبة ترتيب الجزاء على شرطه.

والظاهر: أنَّ المراد بالمتاع الحسن: سعة الرزق، ورغد العيش، والعافية في الدنيا، وأن المراد بالأجل المسمى: الموت.

ويدلُّ لذلك: قوله تعالى في هذه السورة الكريمة عن نبيه هود ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢]. وقوله عن نوح: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا * يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا * وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢]. وقوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ [النحل: ٩٧]. وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ [المائدة: ٦٦]. وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]... إلى غير ذلكم من الآيات[1].

فقد ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ في هذه الآيات، الاستغفار والتوبة بألفاظها أو بلوازمها ومسبباتها، وهي عمل الصالحات والإيمان والتقوى، وإقامة الكتب، وهو العمل بما فيها، وما أنزل من عند الله. ورتَّب عليها من مفردات المتاع ا لحسن أنواعاً، أشار إليها الشنقيطي في أول كلامه آنف الذكر.

وأكتفي بهذه الإشارات، التي أرجو أن تكون موفية بالغرض الذي سيقت له.

وأنتقلُ أخيراً إلى الحديث عن النقطة الرابعة، وهي: حشد المؤثرات الحسية المادية وتجسيد المواقف والأحداث.

حشد المؤثرات الحسيَّة المادية، وتجسيد المواقف والأحداث:

وهذا من منهج القرآن في عامة ما يذكر من المعاني ويقرر من المبادئ ويحكى من الأحداث، وفي مقدمة ذلك: السنن الإلهية.

= مرجعه من الحج. انظر ترجمته في: الأعلام (٦/ ٤٥)، وفي المجلد التاسع من (أضواء البيان)، بقلم تلميذه الشيخ/ عطية محمد سالم.

(١) أضواء البيان (٣/ ٩). وفي هذا السفر النفيس عشرات الأمثلة والشواهد.

ذلك أنَّ «التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن. فهو يعبر بالصورة المحسّة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة ومشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حيّ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية.

فأمَّا الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة. فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل. فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نضارة، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يُتلَى، ومثل يُضْرَبُ... والأمثلة على هذا الذي نقول هي القرآن كله، حيثما شاء أن يعبّر عن معنى مجرَّد، أو حالة نفسية، أو صفة معنوية، أو نموذج إنساني، أو حادثة واقعة أو قصة ماضية»[1].

وقد أورد الأستاذ سيد قطب أمثلة كثيرة على كل ذلك، أذكر منها(نماذج) للإيضاح.

قال ـ رحمه الله ـ: «ونبدأ بالمعاني الذهنية تخرج في صورة حسيَّة:

يريد الله أن يبين أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله، ولن يدخلوا الجنة إطلاقاً، وأن الدخول أو القبول أمر مستحيل. هذه هي الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعاني المجردة. ولكن أسلوب التصوير يعرضها في الصورة الآتية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

ويريد أن يبين للناس أن الصدقة التي تبذل رياء، والتي يتبعها المن والأذى، لا تثمر شيئاً ولا تبقى. فينقل إليهم هذا المعنى المجرد في صورة حسيَّة متخيلة على النحو التالي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

(١) التصوير الفني في القرآن، ص ٣٢.

ثم يمضي في التصوير لإبراز المعنى المقابل لمعنى الرياء، ومعنى الذهاب بالصدقة التي يتبعها المن والأذى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥] »[(١)].

هذه نماذج... وهاك نماذج أُخَر من الأمثال القصصية التي تُضْرَبُ في القرآن:

ها نحن أولاء أمام أصحاب الجنة ـ جنة الدنيا لا جنة الآخرة ـ وها هم أولاء يبيِّتون في شأنها أمراً. فلننظر كيف يصنعون: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۞ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: ١٧، ١٨].

فلندعهم على قرارهم، ولننظر ماذا يقع الآن في بهمة الليل، حيث يختفون هم، فماذا يرى النظارة؟ هناك مفاجأة تتم خلسة، وحركة خفيَّة كحركة الأشباح في الظلام!

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩، ٢٠] وهم لا يشعرون.

والآن ها هم أولاء يتصايحون مبكرين! وهم لا يدرون ماذا أصاب جنتهم في الظلام: ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ۞ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۞ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ۞ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ [القلم: ٢١ ـ ٢٤].

ليمسك النظارة ألسنتهم فلا ينبِّهوا أصحاب الجنة إلى ما أصاب جنتهم، وليكتموا ضحكات السخرية التي تكاد تنبعث منهم، وهم يشاهدون أصحاب الجنة المخدوعين... ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥].

وها هم أولاء يفاجأون، فليضحك النظارة كما يشاءون: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ [القلم: ٢٦] ما هذه جنتنا الموقرة بالثمار، فقد ضللنا إليها الطريق! فلتتأكدوا يا جماعة! ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم: ٢٧]. وهذا هو الخبر اليقين»[(٢)]... إلى آخر القصة والمشهد.

وبعد: فإنَّ في خاصية التصوير بمعناه الأعم ـ كما عرفت آنفاً ـ من قوة التأثير، وشدَّة الجاذبية، ما يأسر النفوس الشاردة، على الرغم منها، وينفذ إلى أعماق القلوب

---

(١) انظر: التصوير الفني في القرآن، ص ٣٤، ٣٥ بتصرف يسير.
(٢) التصوير الفني في القرآن، ص ٤٥. ومن أراد التوسع في معرفة هذا الجانب، فليقرأ الكتاب كله، ليعلم جيداً ما كُتِبَ في هذا الباب.

الغافلة، بلا استئذان، فضلاً عما تجد فيه المشاعر المرهفة والنفوس المنقادة من متعة وحيوية.

ولننظر الآن إلى قيمة «خاصية التصوير والتجسيد» التأثيرية، من خلال استعراض شيء من النصوص المشتملة على بعض «سنن الله في الأمم».

فمن ذلك: صورتان رائعتان من بين صور ومشاهد كثيرة، تجلّت فيهما روعة الإنجاء للمؤمنين، والإهلاك للمكذبين المتجبرين.

أولاهما: مشهد إنجاء نوح ﷺ ومن آمن معه، وإهلاك الكافرين المكذبين.

والثانية: قصة نجاة موسى ﷺ وبني إسرائيل وإغراق فرعون ومن معه.

وقد عرض القرآن القصتين كلتيهما في مواضع متعددة، على تفاوت بينها في الطول والقصر. لكن لعرض قصة نوح في سورة هود وقعٌ خاص، كما أن لعرض مشهد نجاة موسى وغرق فرعون في سورة الشعراء إيقاعاً مختلفاً أيضاً.

فتعال إلى المشهد الأول، كما يعرضه النص القرآني.

قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ * وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣٦ ـ ٤٤].

وهلم إلى المشهد الثاني.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ

وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٨] .

وأرى أن إعادة قراءة هذين النصين مرتين أو ثلاثاً بتأمُّلٍ، أحسن من قراءة أي تعليق عليهما!

*** ومثل آخر لحشد المؤثرات الحسيَّة وتجسيد المواقف:**

ماذا تحسّ وأنت تقرأ ـ مثلاً ـ هذه الآيات من سورة النمل؟

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ * وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ * وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٤٥ ـ ٥٢] .

وكيف تجد نفسك غب تلاوة أو سماع هذه الآيات من سورة الأنبياء؟

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ * وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٨] .

وأخيراً ، هذا هو القرآن يرسم صورتين وقعتا للأمّة المسلمة في حياة الرسول ﷺ ،

وهما صورتان متكررتان، لا حادثتان عابرتان.

إحداهما: حال معسكر المسلمين المخترق من داخله بطابور المنافقين وضعاف الإيمان، يوم غزوة الأحزاب.

قال ـ جل وعلا ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا * إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا * وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا * وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴾ [الأحزاب: ٩ ـ ١٣].

«فأية حركة نفسية أو حسيَّة من حركات الهزيمة، وأية سمة ظاهرة أو مضمرة من سمات الموقف لم يبرزها هذا الشريط الدقيق المتحرك المساوق في حركته لحركة الموقف كله؟

هؤلاء هم الأعداء يأتون المؤمنين من كل مكان، وهذه هي الأبصار زائغة والنفوس ضائقة. وهؤلاء هم المؤمنون يزلزلون زلزالاً شديداً. وهؤلاء هم المنافقون ينبعثون بالفتنة والتخذيل، يقولون: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ ويقولون لأهل المدينة: لا بقاء لكم هنا. ارجعوا إلى بيوتكم فهي في خطر. وهؤلاء هم جماعة من ضعاف القلوب يقولون: إن بيوتنا مكشوفة، وليست في حقيقتها مكشوفة: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾.

وقريب من هذه الصورة، صورة أخرى للهزيمة أيضاً، وهي كذلك صورة باقية، لا حادثة مفردة»[(١)].

تلك هي صورة الصف الإسلامي يوم غزوة أحد، يوم انشمر عبد الله ابن أُبيّ بجماعته من المنافقين، وهم يومئذٍ ثلث الجيش.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ

(١) التصوير الفني في القرآن، ص ٤٤، ٤٥.

ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ * ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٢ ـ ١٥٤].

يقول سيد قطب معلقاً على هذه الصورة: «ليخيل إليَّ أنني أشهد المنظر اللحظة بكل من فيه وكل ما فيه»[(١)].

وبعد: فقد تبيَّن لنا من خلال استعراض هذه النماذج أن القرآن ما احتفل بشيء من المؤثرات احتفاله بجانب التصوير والتجسيد والتخييل، للمعاني والأوصاف والأحداث، وقد تبينت شيئاً من قيمتها وطرفاً من تأثيرها.

ولعل هذا كان من أسرار عناية القرآن بهذه النقطة، بل كونها قاعدة أصيلة في منهجه في البيان والإقناع.

وأختم هذا المطلب ـ وهو خاتمة هذا الفصل ـ بخاتمة تتضمن أهم الأسباب التي ظهر لي أنها وراء إبراز القرآن لبعض السنن وعنايته بها أكثر من غيرها.

ولعل هذه الأسباب لم تعد خافية؛ إذ قد تضمنها الكلام السابق من بداية هذا الفصل، وهي مبثوثة عرضاً في ثنايا هذه الدراسة بصفة عامة.

ولكن في جمعها في مكان واحد، ثمرة قد لا تحصل حال تفرّقها. وسأذكر هاهنا ما يتيسَّر منها؛ رجاء حصول تلك الثمرة، فأقول:

* إنَّ القرآن الكريم بواقعيته يذكر السنن بالقدر الذي تحتاجه الأمة ويكفل إصلاح شؤونها في الأولى والآخرة، وفق أهداف محددة وغايات مرسومة، فلا صدفة ولا فوضى. وكذلك يفعل في قضايا الاعتقاد ومسائل الأحكام والسلوك وغيرها.

---

(١) التصوير الفني في القرآن، ص ٤٥.

وهو بمنهجيته التربوية الفذّة المتميّزة لا يحشر السنن في مساحة، أو يجعل لها سورة أو سوراً بعينها، لا يذكرها إلا فيها. لا، بل جعل القرآن كله مساحة لها وميداناً لعرضها. كما أوضحت ذلك في أكثر من مناسبة.

وإذن، فثمة حكم وأسباب تقف وراء ذكر الأشياء ـ ومنها السُّنن ـ ابتداء، ووراء عرضها بهذه الكمية وبتلك الكيفية.

فالكم يتعلق بالأشياء قلة وكثرة. والكيف يتعلق بما سوى ذلك، من تفصيل وإجمال، وأسلوب ومناسبة... ونحو ذلك.

ومما تجدر ملاحظته أنه قد تجتمع عدّة أسباب في السُّنة الواحدة، كل منها يصلح أن يكون سبباً. ومثل هذه السُّنن تستأثر بمساحة أكبر، وتعرض بكيفيات أكثر تنوعاً، وذلك منسجمٌ مع ما لها من أهمية.

وسأحاول الاقتصار على ذكر الأسباب دون الدخول في التفاصيل؛ تلافياً للتكرار. فمن هذه الحكم والأسباب:

أولاً: تعلّق السُّنة بأمر كليّ: وهذه السنن يمكن الاصطلاح على تسميتها بـ «أمهات السُّنن».

وبديهي أن يُقالَ: إن من السُّنن ما يتعلق بأمر كليّ، ومنها ما يتعلق بأمر دون ذلك وهذا لا يعني ـ بحال ـ إغفال الأخيرة أو التهوين من شأنها، أو الشك في كونها سُنَّة تحمل كل خصائص سنن الله في الأمم، وإنّما هو التوازن في النظر إلى الأشياء، وفي التعامل معها.

ومن ذا الذي يسوي ـ مثلاً ـ بين قضية التوحيد الكبرى: الإيمان بالله وإفراده بالعبادة والكفر بالطاغوت، وبين مسألة من مسائل الأحكام التفصيلية؟

لا يستويان! لا في ميزان الله، ولا في واقع الحياة! وإن كانتا جميعاً مطلوبتين مأموراً بهما.

فالسُّنن التي رتَّبها الخالق العليم على تحقيق الإيمان به والإقرار له بالحاكمية وعدم منازعته خصائص الألوهية، أبدى القرآن وأعاد، وفصَّل ونوَّع في بيانها وإقرارها. ومثلها السُّنن المترتبة على جحد الإيمان وعدم الإقرار لله بالحاكمية، ومنازعته خصائص الألوهية.

ولهذا وذاك ، نجد أن السُّنن التي عرضت لجهود الرسل في الدعوة والبلاغ ، والسُّنن التي حصحصت عاقبة ومصير الأمم الكافرة المشركة ، في مقدمة السُّنن كثرة وتنوعاً .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] .

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣] . ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨] .

وما أشبه هذه السُّنن مما تعلقه بأمر كليّ . وتحت هذه السُّنن الجوامع سُنن تفصيلية كثيرة ، مرَّ بك طائفة منها ، وسيمرّ بك طائفة أخرى بإذن الله .

ثانياً: الجهل بالسُّنن والغفلة عنها: وهذان سببان كبيران، فإنّ الجهل بالسُّنن أو الغفلة عنها داء كثير من الأمم، بل أكثرها، والجهل من أعظم أسباب الغفلة.

تغفل الأمم عن كيفية عمل السُّنن في حياتها ، وعن مدى جديتها وعدم محاباتها . يغفلون عنها بسبب الجهل ، وبسبب الغرور ، وبسبب تقادم العهد واستقرار الأحوال . وبأسباب أُخر .

ولهذا، فالقرآن يداوي داء الغفلة بوسائل:

منها: الإعادة والتكرار مع التنويع ، والتعقيب بالعتب على الغافلين ونعيهم إلى أنفسهم .

ومنها: التصريح بجدية السُّنن واطرادها وعدم تبدلها ، مرة إثر مرة .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤ ، ٩٥] .

﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] .

ثالثاً : ومن الأسباب التي تقف وراء كثرة عرض وتكرار بعض السُّنن: إنكارها والسخرية منها.

وهـذا سببٌ قائمٌ برأسه ، مختلف عن سابقه وهو الغفلة ، فإنَّ الغفلة ذهول ، ودواؤه

التذكير والعتاب. والإنكار والسخرية جحد وإلغاء واعتراض، ودواؤه إقامة الحجَّة وإزالة الشُّبهة بتوالي البراهين وتنويع الحجج. ثم توعظ الأمَّة بنفسها ـ إن لم يغن شيء من ذلك ـ فتكون موعظة لغيرها وعبرة لمن بعدها.

نعم، قد تنتهي الغفلة بأصحابها مع مرور الزمن إلى ضرب من ضروب الإنكار، لكنها في الأصل شيء مختلف عنه.

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

فنسف الله حجتهم ودحض شبهتهم، بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٦، ٣٧] . . . الآيات.

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

فأعذر الله إليهم بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

فلما لم يغن عنهم شيء من ذلك، أخذهم الله بذنوبهم ونكل بهم: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

رابعاً: تنوع مظاهر السُّنة واختلاف الموجب لذكرها.

فمثلاً: سُنة المدافعة، لها مظاهر معينة حين تكون المدافعة مجرد صراع على أشياء الأرض ومتاعها بين الأمم الجاهلية، فتتخلف أسباب النصر المعنوية؛ من معية الله ونصره وتأييد القلَّة على الكثرة، وتسخير جنود السماوات والأرض . . . ونحو ذلك. ولها مظاهر متميزة حين يكون الصراع مدافعة بين الحق والباطل . . . هذا ما أعني بتنوع المظاهر.

وأعني باختلاف الموجب لذكرها: أن القرآن اشتمل على كثير من الأحداث والقصص، وبُسِط فيه كثير من الأحكام والآداب، وغيرها . . . والقرآن يذكرها ويبسطها لأغراض شتى، ومن بين تلك الأغراض تقرير السُّنن، فهذا هو اختلاف الموجب لذكرها.

هذه هي أهم الأسباب التي لاح لي أنها في مقدمة الأسباب التي تقف وراء تنوع عرض بعض السنن وتكرارها. وهناك أسباب أُخَر، وهي إما داخلة فيما ذكر، أو مما عزب عن الذهن، والله المستعان.

وبعد هذه الجولة التي تعرَّفنا فيها على:

خصائص سُنن الله في الأمم.

وتبيَّنَّا أشياء في منهج القرآن في عرضها، فإنَّ علينا أن ندرس المجالات التي تعمل السُّنن الإلهية في الأمم من خلالها.

وهذا هو موضوع الباب الثاني من هذه الدراسة، وهو: (**مجالات سُنن الله في الأمم**).

* * *

الباب الثاني

مجالات سنن الله في الأمم

وفيه تمهيد ومقدمة وخمسة فصول:

الفصل الأول: مجال الحماية والوقاية.

الفصل الثاني: مجال الابتلاء والتمحيص.

الفصل الثالث: مجال التحذير والتهديد.

الفصل الرابع: مجال الجزاء.

الفصل الخامس: مجال الكشف والإبانة.

تمهيد ومقدمة

لا بد قبل الدخول في تفصيل مجالات سنن الله في الأمم، من تمهيد نتعرَّف من خلاله على المقصود بهذه المجالات. ومقدمة تتضمن الأسس التي لا بد من توافرها في أي تجمع بشري ليستحق هذا الوصف الاصطلاحي للأمّة، وليكون مؤهلاً لتحمّل المسؤولية وتَلَقّي الجزاء.

أمّا ما يتعلّق بالمقصود بـ «مجالات سُنن الله في الأمم» في هذا الكتاب، فإنني أقول:

المجالات: جمع مجال، وهو مكان الجولان وظرفه وزمانه. يُقال: جال الفرس في الميدان جولاناً[١]، فالفرس جائل، والميدان مجال لجولانه[٢]. وأجالوا الرأي فيما بينهم[٣]: أداروه وصرفوه بغية الوصول إلى أرْشَدِه. ولم يبق له مجال في هذا الأمر[٤]، أي: لم يبقَ له مكان مناسب يتحرَّك فيه، ولم يبقَ لرأيه موضع مناسب.

وعلى هذا، فقولنا: مجالات سُنن الله في الأمم، معناه: المساحة التي تتحرك وتتحكم فيها السُّنن الإلهية في حياة الأمم. وهذه المساحة تشمل المكان والزمان[٥]، وتشمل عموم الأحوال[٦].

وإذا كان شمول السنن الإلهية للزمان والمكان لا تحتاج معرفته إلى كبير عناء، فإنَّ شمولها لأحوال الأمم منذ بدء قيامها ونهوضها، وإلى لحظة سقوطها وانهيارها، وما بين ذلك. إنَّ شمولها ذلك كله، يحتاج إلى بسط وبيان، وإلى رصد وتأمّل واستدلال، ولا تكفي فيه الإشارة المجملة.

ومن هنا كان هذا الباب؛ تلبية لهذه الحاجة، وشرحاً لتلك الإشارات المجملة التي مرَّت بنا في فصل «خصائص سنن الله في الأمم».

وقد جعلتُ هذا الباب خمسة فصول، وهي تمثل ـ فيما ظهر لي ـ المجالات التي تتحرَّك وتتحكَّم فيها السنن الإلهية في حياة الأمم من جهة.

---

(١) أساس البلاغة، للزمخشري، واللسان مادة (جول).
(٢) وأصل (مجال) مجول، نقلت حركة الواو إلى الساكن قبلها، فتحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً.
(٣) أساس البلاغة، مادة (جول).
(٤) أساس البلاغة، مادة (جول).
(٥) وقد أوضحتُ معنى شمول السنن للزمان والمكان فيما مضى. انظر: (فصل خصائص سنن الله في الأمم) ـ خاصية العموم والشمول.
(٦) وهذا الجانب هو موضوع هذا الباب.

كما أنَّها تمثل أحوال الأمم في تقلباتها وتحولاتها صعوداً وهبوطاً قياماً وسقوطاً ، من جهة أخرى .

وهي على الترتيب التالي:

الأول: مجال الوقاية والحماية .

الثاني: مجال الابتلاء والتمحيص .

الثالث: مجال التحذير والتهديد .

الرابع: مجال الجزاء .

الخامس: مجال الكشف والإبانة .

وسوف أعرض لكل مجال من هذه المجالات بشيء من البسط ، ثم أتبع ذلك ببعض السُّنن ، التي أراها أشبه بهذا المجال أو ذاك ، بصورة أكثر تفصيلاً .

ولعل هذه الإشارة كافية في تبيان المقصود بعنوان الباب .

أمَّا المقدمة ، فقد أفردتها لبيان أسس بناء الأمة وتكونها ، **وتشتمل على مبحثين:**

المبحث الأول: في الأسس التي لا بد منها لتكون الأمة وتأهلها لممارسة الحياة بوصفها أمة .

والمبحث الثاني: في الوسائل والأسباب التي أقام الله بها حجته على هذه الأمم . وهي كالمقدمة لفصول هذا الباب . وإليكها في الصفحات التالية:

* * *

المبحث الأول

وفيه أذكر أهم الأسس التي إذا ما توافرت في أمة ما من الناس، أصبحت مؤهلة لانطباق وصف الأمة الاصطلاحي عليها، وبالتالي صارت محلاً لانطباق سنن الله في الأمم عليها في كل مجالات حياتها.

فمن هذه الأسس: وجود الكيان الجماعي:

ووجود الكيان الجماعي شيء جعله الله في طبائع البشر وغرائزهم، لا يكاد يرفضه أو يستحسن الوحدة عليه إنسان سويّ، ولهذا يُقال: الإنسان مدني بالطبع.

وقد اقتضت سنة الله في الأمم أن هذا الكيان الجماعي يتكوَّن في دوائر، كل واحدة منها تمثل لبنة في بنيان هذا الكيان.

أولاها: دائرة التزاوج بين الجنسين.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

والثانية والثالثة: دائرة التجمع على أساس القبائل والأنساب، وعلى أساس المصالح المشتركة.

قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ١٣][(١)].

ومن هذه الأسس: الاستخلاف الطبيعي لهذا الكيان الجماعي:

وأعني به: الاستخلاف في الأرض، وهو استخلاف لا بد منه، لتأخذ الأمة دورتها في مضمار الحياة الجماعية، وتمارس وظائف الأمة وواجباتها.

وبدون هذا الاستخلاف للكيان الجماعي، لا تدخل الجماعة من بوابة التاريخ كأمة، وإنما تدخل كأفراد.

وهذا النوع من الاستخلاف هو المذكور في مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ٣٩]. وقول هود ﷺ لقومه: ﴿ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

---

(١) انظر: سنن الله في المجتمع، للدكتور/ محمد الصادق عرجون، ص ٢٧ ـ ٣١.

فإنَّ دلالة هذه الآيات على معنى الخِلفة من قوم لآخرين سابقين لهم، هو الظاهر المتبادر. وليس فيها بالضرورة دلالة على معنى الاستخلاف عن استحقاق وجهد وعمل سابق. فإنَّ هذا الأخير ـ الاستخلاف عن استحقاق ـ وهو التمكين، هو المذكور في مثل قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٥]. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]... ونحو ذلك من الآيات.

وبهذين الأمرين؛ وجود الكيان الجماعي، ومنحه الفرصة واستخلافه في الأرض، يمكن أن تتكون الأمة واقعاً؛ أي: تكون كياناً قائماً متجسداً، ويبقى بعد ذلك الأساس الثالث والأهم من أجل أن تُحقق الأمة تكوّنها المعنوي، بعد أن تحقق تكونها المادي.

وهذا الأساس هو: إقامة الحجة الإلهية على الأمة بالبيان الشافي والإنذار.

وعند هذه المرحلة، تواجه الأمة أو الجماعة، التحدي الأكبر والأخطر في حياتها. وقيام الحجة الإلهية على الأمة ـ أية أمة ـ يحصل إما على يدي رسولها المبعوث إليها مباشرة، أو على يدي أتباعه المؤمنين به من بعده.

ويعد هذا الأساس فيصلاً بين مرحلتين في حياة الأمم، فإنَّها قبل ذلك لا يعاقبها الله عقوبة من جاءته الرسالة فكذّب بها، أو جحدها وأعرض عنها.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال في الآية الأخرى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩]. وقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ [القصص: ٥٩]. وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [يونس: ١٣].

وأخيراً: **انقسام محتوم على أساس الهدى والضلال:**

وهو انقسام لا بد منه بعد وجود الداعي، وقيام الحجّة الإلهية على يديه. لا بد أن تنقسم الأمة وينقسم القوم ـ هذه المرة ـ على أساس الإيمان والكفر، والهدى والضلال، إلى مصدقين بالحق متبعين له، ومكذبين به معارضين له. ثم تتوالى سنن الله بعد ذلك تعمل عملها في الفريقين.

ولهذا ، أخبر ـ تعالى ـ بوجود الانقسام في الآية التي ذكر فيها بعثة الرسل إلى الأمم ، وذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ ﴾ [النحل: ٣٦] . وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤] . وقال: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] . وقال سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] . . . والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة .

وبهذا الانقسام تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع الحضاري على مستوى الأمة ، بعد اكتمال مقوماتها .

وفي الصفحات التالية ، أَذْكُرُ بالتفصيل ، كيف أن الله ـ تعالى ـ قد أقام الحجَّة على الخلق والأمم ، وأهَّلهم لممارسة الخلافة في هذا الدنيا .

* * *

المبحث الثاني

في أن الله تعالى قد أقام الحجّة على خلقه

قال تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩] . وقال: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] .

تميّز الإنسان عن سائر المخلوقات بتكوينه ووظيفته، وبالتالي بمكانته في نظام هذا الكون، ودوره الذي كلف القيام به .

وإذا كان هذا الكون كله بما فيه ومن فيه، مخلوقاً بالحق وللحق، عابداً لله مسبحاً بحمده، فإنَّ ماعدا الثقلين يؤدي هذا الواجب بصورة قهرية: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

أمّا الإنسان، فإنّه يؤدي هذا الواجب بصورة مختلفة تماماً، بصورة تتفق وتكوينه المتميز ووظيفته في هذا الكون، ومكانته بين سائر المخلوقات .

إنّه مخلوقٌ ليكون خليفة في الأرض .

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] .

متحملاً لأمانة التكليف: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

مسئولاً عن كل حركة وكل خطوة: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] . ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] .

وسخّر له كل ما يحتاج إليه في أداء وظيفته: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣] . ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠] .

وهو ـ أي الإنسان ـ إلى جانب ذلك كله، عاقل حر مختار، ذو نوازع وعواطف ورغبات وشهوات، يستطيع بما أوتي من أمانة أن يرتفع إلى القمة السامقة، وأن يتخلّى عنها فينحدر إلى المستنقع الآسن.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤ ـ ٦].

وقد ابتلاه الله بهذا كله وبما هو أعظم منه، بعدوه إبليس الذي حمل على عاتقه مهمة إغوائه والقعود له بكل سبيل وعلى كل صراط.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].

وقال تعالى عن إبليس أنّه ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة ص: ٨٢، ٨٣]. وأنّه ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

ولما ابتلاه ـ سبحانه ـ لم يتركه، وقد اختار له هذا السبيل. لم يتركه وحده يجتهد في أداء وظيفته، ولو تركه ـ وحاشاه أن يكون فعل ذلك ـ لعاد الإنسان إليه معتذراً بجهله، محتجاً بضعفه وقوّة عدوه متذرعاً بشتى الذرائع عن كل خطأ يرتكبه، سواء كان هذا الاعتذار في هذه الدنيا، أم هناك في الدار الآخرة.

لم يتركه ـ سبحانه ـ بل بيّن له أعظم بيان، كيف يعمر أرضه؟ كيف يعبد ر به ويجاهد عدواً يكيد له، وهداه إلى غايته من خلقه وإيجاده، بياناً وهداية جلّت عن الوصف، أعذر بها إليه، وقطع حجته لديه.

وبسط ذلك يطول، ولكني أذكر جملاً من ذلك مما جاء في القرآن الكريم، وذلك من خلال تأمّل ثلاثة جوانب:

الأول: التجربة الأولى للبشرية: وهي تجربة أبي البشر آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع عدوّه إبليس في الجنة.

الثاني: الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

الثالث: بعثة الرسل وإنزال الكتب. وهي أهم هذه الجوانب، وعليها مدار الجزاء.

الجانب الأول: التجربة الأولى لآدم عليه السلام مع عدوه إبليس ـ لعنه الله.

وفي هذه التجربة تكشفت للإنسان أشياء كثيرة تتعلّق بشخصه، وطبيعة عدوه، ومصدر التلقي الحقيقي والزائف، ونهاية الإنسان، ومصيره الذي ينتهي إليه بناءً على اختياره... و...

ويكفي في تصور أبعاد هذا التجربة ومعرفة أحداثها، أن نقف عليها من خلال النصوص القرآنية، فهي أصدق خبراً وأدق تفصيلاً وأروع بياناً.

ومما قصَّ القرآن من خبر هذه التجربة الفريدة ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ * وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٤ ـ ٣٩].

وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١١٥ ـ ١٢٤].

وقوله سبحانه: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا

عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۞ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٩ ـ ٢٤].

وهي تجربة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان كلها «في عالم التصور وفي عالم الواقع على السواء»[١].

إنَّ استقبال الإنسان حياته الجديدة على هذه الأرض مزوداً بتجربة حيَّة معاشة، لا من قبل أحد، بل من قبله هو نفسه. إنَّ ذلك ينقذه من كثير من الأخطاء، ويمنحه قدرة فائقة في فهم طبيعة الحياة الجديدة بكل ما فيها من خير وشر، وهذه بحد ذاتها حجَّة كبرى لله على هذا الإنسان.

يقول الدكتور محمد تقي أميني: «أسكنه ـ أي آدم ـ الجنة مدة للتدريب، حتى يفهم جيداً نظامها، ويلم ببعض مشاريع العمران والرقي، ويتأهل لأداء مسئوليات الخلافة»[٢].

ومن دلائل إقامة الله الحجة على خلقه:

الجانب الثاني: وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

والصواب أنَّها فطرة الإسلام، وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها يوم أخذ عليهم الميثاق بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة، والاستعداد لقبول العقائد الصحيحة[٣].

وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، على الصحيح من أقوال السلف وأئمة التفسير[٤]، فإنه ـ تعالى ـ امتدح الفطرة

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٦٠).
(٢) النظام الإلهي للرقي والانحطاط، ص ١٤.
(٣) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٢٤٥).
(٤) انظر: تفسير ابن جرير (٢١/ ٤٠)، وابن كثير (٣/ ٤٣٢).

هاهنا بإضافتها إليه، وأمر رسوله ﷺ بملازمتها، ولو لم تكن تعنى «معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره» [(١)]، وإنما كان غايتها الخلوّ من المعرفة والإنكار، من غير أن تكون مقتضية واحداً منهما[(٢)]... لو لم تكن إلا كذلك، ما استحقَّت مدحاً، فإنَّ كل ما كان قابلاً للمدح والذمّ على السواء، لا يستحق مدحاً ولا ذماً، والله يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

ويشهد لهذا، ما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال، فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: **«إنّي خَلَقْتُ عِبَادي حُنَفَاءَ كلّهم فاجتالَتْهم الشّياطين وحرَّمت عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يُشرِكُوا بي ما لم أنَزِّل به سُلْطَاناً»**[(٣)].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«مَا مِنْ مَوْلُود إلا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه ويُنَصِّرَانِه ويُمَجِّسَانِه، كما تنتج البهيمة جَمْعَاء هل تحسّونَ فيها من جَدْعاء، حتى تكونُوا أنْتم تجدعونَها»**، ثم قرأ أبو هريرة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠][(٤)]. وفي لفظ آخر: **«مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إلا على هذه الْمِلَّة»**[(٥)].

فدلَّت الآيات والأحاديث على أن الخلق مفطورون في أصل خلقهم على توحيد الله ومعرفته[(٦)]، وأنهم يولدون على أكمل حال من جهة فطرتهم كما تنتج البهيمة جمعاء مجتمعة الخلق، وهو كمال محمود، وضد ذلك فساد فطرتهم بسبب الأبوين أو غيرهما، وهذا نقص مذموم يشبه أيضاً ما يطرأ على البهيمة من جدع الأنف، فكيف تكون قبل النقص مثلها بعده[(٧)]؟

ومن هنا، فالفطرة دليل على خالقها وباريها، وحجة الله على خلقه؛ لأنَّ معناها قبول الحق، والميل إليه واستحسانه، ورد ما يخالفه والتجانف عنه وكراهيته إذا خلي بينها

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٢).

(٢) انظر: الفتاوى (٤/ ٢٤٣).

(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٧)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ح (٢٨٦٥).

(٤) فتح الباري (٣/ ٢٤٥)، كتاب الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين. وصحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٢٠٩) في القدر، باب: معنى كل مولود يُولَد على الفطرة، ح (٢٦٥٨).

(٥) وهو عند مسلم. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٢١٠). ورواه البغوي بهذا اللفظ، انظر: شرح السنّة (١/ ١٥٩).

(٦) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٨/ ٤٨٨) وما بعدها.

(٧) انظر: فتاوى شيخ الإسلام (٤/ ٢٤٣، ٢٤٤).

وبين ذلك. وهذا هو الذي جاءت به الشرائع وبُعِثَتْ به الرسل وأُنزِلَت من أجله الكتب.

الجانب الثالث: بعثة الرسل وإنزال الكتب.

اقتضت حكمة الله ـ جل وعلا ـ ورحمته بعباده، أن لا يكلهم إلى ما أودع في فطرهم من معرفته والتوجه إليه ومحبته، بل أرسل إليهم من يدلهم إليه، ويبصرهم بهداه الذي يأتي من عنده، ويحفظ عليهم فطرتهم التي فطرهم عليها، وأعلمهم أن من اتبع هذا الهدى ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب في كل أمة بالهدى والنور، وجعل لهم من السلطان المادي والمعنوي ما يبلغون بواسطته ما أنزل إليهم، وجعل الثواب في الدارين مبنياً على متابعتهم والإيمان بهم وبما جاءوا به، وأرصد العقوبة لمن خالفهم وكفر بما جاءوا به، ولم يجعل عقوبة على ما سوى ذلك من آياته وبراهينه الدَّالة على وحدانيته سبحانه. وهذا غاية العدل ومنتهى الحكمة والرحمة.

ولهذا فإنَّه ـ تعالى ـ أخبر أنه إنَّما يحاسبهم ويجازيهم على ما يأتيهم من عنده بقوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]. وقال في الآية الأخرى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

ثم لم يترك أمة أو قرية بلا رسول يتلو عليهم آياته، وهي الهدى الذي وعد أنه يأتي من عنده، فليس أمر عبادته وطاعته متروكاً لاجتهادهم، بل تكفَّل ـ سبحانه ـ ببيان كيفية ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]. وقال: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]... إلى غير ذلك من الآيات.

وأخبر ـ سبحانه ـ أنه لا يعذب أمة غافلة، ولا يؤاخذهم حتى يبعث إليهم رسولاً فيكذبوه ويعاندوه، وهذا عام يشمل عذاب الدنيا والآخرة، على القول الراجح(١).

وهو اللائق بحكمته وعدله ـ جل وعلا(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

«غيّا سبحانه انتفاء التعذيب ببعثة الرسول ﷺ، والمعنى: حتى يبعث رسولاً فيكذَّب ولا يؤمَن بما جاء به من عند الله.

وانتفاء التعذيب أعم من أن يكون في الدنيا بالهلاك وغيره من العذاب، أو في الآخرة بالنار، فهو يشملهما. ويدل على الشمول، قوله في الهلاك في الدنيا بعد هذه الآية: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، وآي كثيرة نصٌّ فيها على الهلاك في الدنيا بأنواع من العذاب حين كذبت الرسل. وذهب الجمهور إلى أن هذا في حكم الدنيا؛ أي أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا من بعد الرسالة إليهم والإنذار»(٣).

وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١]؛ أي: أنذرهم العذاب الأليم على الجملة إن لم يؤمنوا، فليس الإنذار خاصاً بعذاب الآخرة(٤).

وقال لنبيه ﷺ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]؛ أي أنه ـ سبحانه ـ لا يهلك القرى والمدائن الكافر أهلها، حتى يبعث إليهم رسولاً يخبرهم أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا، ولا يهلكهم بعد ذلك إلا بسبب ظلمهم(٥).

---

(١) انظر: أضواء البيان (٣/ ٤٧١).
(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٨/ ٤٩٢) وما بعدها.
(٣) البحر المحيط، لأبي حيان (٦/ ١٦) بتصرف يسير.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٩٨).
(٥) انظر: تفسير البغوي (٣/ ٤٥١).

يبيِّن ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤].

وقوله في سورة القصص: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ٤٧].

بل إنَّه ـ سبحانه ـ لا يحكم بالضلالة على من فعل شيئاً مما يكرهه ـ سبحانه ـ غير عالم بكراهة ذلك، حتى يبين له ما يجب عليه أن يتَّقيه مما يكرهه الله، ثم يكون منه التعدي بترك المأمور أو فعل المنهي، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٥] (١).

وأمَّا في الآخرة، فلأنه ـ سبحانه ـ ذكر في آيات كثيرة «أنَّه لم يدخل أحداً النار إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل، فمن ذلك قوله جل وعلا: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الملك: ٨، ٩]».

ومعلومٌ أنَّ قوله جل وعلا: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ يعم جميع الأفواج الملقين في النار.

قال أبو حيان(٢) في البحر: ﴿ كُلَّمَآ ﴾ تدلُّ على عموم أزمان الإلقاء فتعم الملقين(٣).

ومن ذلك: قوله جل وعلا: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١](٤).

فقوله في هذه الآية: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ عام لجميع الكفار. ونظيره أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾ ... الآيات إلى قوله

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١١/٥٣). وتفسير ابن كثير (٢/٣٩٥).

(٢) محمد بن يوسف، أبو حيان، الأندلسي، الغرناطي، إمام في اللغة والنحو، أقرأ في حياة شيوخه، وسمع الحديث بالمغرب والمشرق. قال الصفدي: لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل، أو يكتب أو ينظر في كتاب. وقال الأدفوي: مالَ إلى مذهب أهل الظاهر. وتفسيره البحر المحيط، تفسيرٌ عظيمُ القدر، جمع فيه من المسائل والقراءات ما لا يكاد يوجد في غيره. توفي بالقاهرة بعد أن كُفَّ بصره، سنة (٧٤٥هـ). انظر: طبقات المفسرين، للداودي (٢/٢٨٧). والأعلام (٧/١٥٢).

(٣) انظر: البحر المحيط (٦/١٦).

(٤) في معنى هذه الآية، الآية: ١٣٠ من سورة الأنعام.

تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

وهذا أيضاً عام في جميع الكفار؛ لأنَّ لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من صيغ العموم»[(١)].

أمَّا الذين لم تبلغهم دعوة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهم أهل الفترات، فإنَّ القول الذي تطمئن إليه النفس وتجتمع عنده الأدلة: أنَّهم معذورون في الدنيا، وأمَّا في الآخرة فإنَّ الله يمتحنهم إما بنار يأمرهم باقتحامها، فمن اقتحمها دخل الجنة، وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا. ومن امتنع، دخل النار وعُذِّبَ فيها، وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا؛ لأنَّ الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل[(٢)]. أو يرسل إليهم رسولاً. «وقد رويت آثار متعددة في أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا، فإنَّه يبعث إليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة»[(٣)]. أو بغير ذلك، فإنَّه لا حجر على مشيئة الله وقدرته، كما أنه لا شك في عدل الله ورحمته وحكمته ـ سبحانه وتعالى.

وقد عرض ابن القيم ـ رحمه الله ـ لهذه المسألة في كتابه «طريق الهجرتين»، وبينها بياناً شافياً، وبناها على أربعة أصول، هذا ملخصها:

قال: «**أحدها**: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

الأصل الثاني: أن العذاب يستحق بسببين: **أحدهما**: الإعراض عن الحجة، وعدم إرادتها والعمل بموجبها. الثاني: العناد لها بعد قيامها، وترك إرادة موجبها. فالأول: كفر إعراض، والثاني: كفر عناد. وأمَّا كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

الأصل الرابع: أن أفعال الله ـ سبحانه وتعالى ـ تابعة لحكمته التي لا يخل بها، وأنَّها مقصودة لغاياتها المحمودة، وعواقبها الحميدة. وهذا الأصل هو أساس الكلام في هذه

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤٧٢) بتصرف يسير واختصار.

(٢) انظر: أضواء البيان (٣/ ٣٨١)، وتفسير ابن جرير (١٥/ ٥٤)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٨). والأدلة لهذا القول مبسوطة في أضواء البيان (الموضع السابق)، فليراجعها من شاء.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٧/ ٣٠٨). وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨) وما بعدها.

الطبقات»[1] .

ولما كانت بعثة الرسل وإنزال الكتب ، من أعظم حجج الله على خلقه ، وأجلّ مننه عليهم ، جعل ـ سبحانه ـ الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة مشروطاً بها ، مداره عليها ، واقتضت حكمته ـ سبحانه ـ في هؤلاء الرسل أموراً تجعلهم أقرب إلى قلوب خلقه ، وأدعى إلى قبول أقوامهم لهم ، وجعل لهم من السلطان والبرهان المادي والمعنوي ما يبهر العقول ، ويخصِم الخصوم ، زيادة في الحجة وإعذاراً إلى الخلق والأمم .

* **فمن ذلك**: أنَّ الله جعلهم بشراً من جنس أقوامهم ، بل منهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤] .

قال الحافظ ابن كثير عند هذه الآية: «هذا من لطفه ـ تعالى ـ بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ، ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم . . .»[2] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٥٩] ، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف: ٦٥] .

وقال مثل ذلك في صالح ، ولوط ، وشعيب ، وإبراهيم ، وموسي ، وعيسى ، ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وعلى إخوانهم من النبيين . وأدلة ذلك في القرآن كثيرة معلومة[3] .

وهذه المنَّة التي امتنَّ الله بها على خلقه من جعل رسلهم بشراً منهم ليفهموا عنهم ، جعلها الكافرون المعاندون مدعاة للطعن في صدق المرسلين ، وسلماً إلى تكذيبهم .

قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۞ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤ ، ٩٥] .

وقال عن قوم نوح مبيناً حجتهم في تكذيب نوح عليه السلام: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود: ٢٧] . وقال عن أصحاب الأيكة قوم شعيب عليه السلام:

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٧١٥ وما بعدها .
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢٢) .
(٣) ومن يقرأ قصص الأنبياء مع أقوامهم في سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء ، وغيرها ، يجد ذلك .

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾[الشعراء: ١٨٥، ١٨٦]. . . إلى غير ذلك من الآيات.

* ومنها: أنَّ الله تخيَّر هؤلاء الرسل من بين أقوامهم فجعلهم خيارهم نسباً وخَلْقاً.

و﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ * ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤]. وقال: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ [الحج: ٧٥].

وقد كان معلوماً فضل هؤلاء الرسول عند أقوامهم قبل أن يدعوهم إلى الله، وينهوهم عما كانوا عليه من الكفر والشرك به، كما قال تعالى عن ثمود وما أجابوا به نبيهم صالحاً ﷺ: ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ ﴾ [هود: ٦٢].

قال السعدي[1] ـ رحمه الله ـ عند هذه الآية: «أي قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذه شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه، ولكنه لما جاء بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة التي مضمونها: أنك كنت كاملاً، والآن أخلفت ظننا فيك وصرت بحالة لا يرجى منك خير، وذنبه ما قالوه عنه: ﴿ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [هود: ٦٢]»[2].

وأثنى على خليله إبراهيم وبنيه من الأنبياء فقال: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ * إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ [سورة ص: ٤٥ ـ ٤٧]. وقال: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ [سورة ص: ٤٨]. . . إلى غير ذلك من الآيات.

ولهذا ردَّ الله على المشركين زعمهم أنهم أهل لمقام النبوة وشرفها، أو أن من يرشحونه وفق أهوائهم ومقاييسهم الرديئة الفاسدة أهل كذلك، بقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ

---

(١) عبد الرحمن بن ناصر السعدي، التميمي، الفقيه، الأصوليّ المفسّر، صاحب التصانيف البديعة، له نحو ثلاثين كتاباً في التفسير والعقيدة والحديث والفقه والمعارف العامة، من أهالي عنيزة، مولده فيها، وبها توفي سنة (١٣٧٦هـ). انظر: الأعلام (٣/ ٣٤٠).

(٢) تفسير السعدي (٣/ ٢٠٦).

ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

* **ومن الأمور التي جعلها الله لرسله:**

أنّه جعل شرائعهم موافقة للحال التي عليها أممهم، محققة لمصالحهم، فيها من البشارة ما يطمِعهم ويرغبهم، ومن النذارة ما يزجرهم ويخوفهم، فمن لم تحمله الرغبة على الطاعة والاستجابة، أزعجته النُّذر والزواجر إليها.

قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال عيسى ابن مريم ﷺ لبني إسرائيل: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقال: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وهؤلاء الأنبياء مع أن شرائعهم شتى، تبعاً لأحوال أممهم، فإنَّ دينهم واحد هو الإسلام، وهم متفقون في أصول الشرائع، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

* **ومنها:** أنه سبحانه أعطاهم من الآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات ما يشهد لهم بالصدق.

وهذه البيِّنات والآيات، قد يعطيهم الله إياها ابتداءً، أو بعد تعنت الأقوام وطلبهم أن يأتيهم هؤلاء الأنبياء بها، أو يجمع لهم بين هذا وهذا.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فالكتاب المنزَّل بالحق هو جنس يشمل الكتب المنزلة جميعاً، وهو آيات بينات، يعني: واضحات في ألفاظها وفي دلالتها ومقاصدها[١].

وقال تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[٢].

وقد ذكر الله في كتابه تعنّت الأمم وإباءها أن تؤمن برسلها، حتى يأتي هؤلاء الرسل بآيات موافقة لما طلبوا، وأن الله قد أيّد رسله، وخرق لهم العوائد بغية تأييدهم وتصديقهم، حتى يقيم الحجّة على المكذبين.

قال تعالى في ثمود وما طلبوه من نبي الله صالح عليه السلام: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۞ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٣ ـ ١٥٥].

وقال في قوم شعيب عليه السلام: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۞ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٧].

---

(١) انظر: تفسير البغوي (١/ ١٨٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٥٠).
(٢) انظر: فتح الباري (٩/ ٣)، حديث رقم (٤٩٨١). وصحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ١٨٦).

وقال في فرعون موسى ﷺ: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۞ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۞ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩ ـ ٣٣]... إلى غير ذلك من الآيات.

وأخبر ـ جل وعلا ـ أنه ما من نبي يأتي بآية إلا بإذن الله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨].

وأخبر أن جميع الأقوام كذَّبوا بالآيات، وأنه يرسل بها للتخويف، يخوِّف بها عباده: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها ـ في حديث كسوف الشمس ـ عن النبي ﷺ أنّه قال: **«إنَّ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ ولا لِحَيَاتِه، لَكِنَّهما من آيات الله يخوِّف الله بهما عباده»**[1].

ومما أقام الله به الحجَّة على عباده: أنّه جعل الهدى والحق الذي جاءت به الرسل هو سبب النجاة في الدنيا والآخرة.

فجعل إصلاح الدارين والفوز فيهما منوطاً باتباعه والإيمان به، وجعله شاملاً لكل خير فيهما، فما من خير في الدنيا إلا كان فيما جاءت به الرسل دلالة عليه وأمرٌ به، وما من شرٍّ إلا وفيما جاءت به الرسل تحذير منه.

أي أنه ـ سبحانه ـ جعل ما ينجيهم في هذه الدنيا هو عين ما ينجيهم في الدار الآخرة، إذا كان مؤسساً على تقوى من الله ورضوان، وأخلصوا القصد واتبعوا سنن المرسلين فيه[2].

قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

وقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن

(١) انظر: فتح الباري (٢/ ٥٣٦)، حديث رقم (١٠٤٨). وصحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٢٠٤).
(٢) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ٣٩٤).

ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦] . . . والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة .

وثمرة ذلك ، أنَّ الله لم يجعل للدنيا عملاً يصلحها ثم لا يكون نافعاً في الدار الآخرة ، إذا حَسُن قصد صاحبه وكان مؤمناً ، كما لم يجعل للآخرة عملاً ينجي فيها ثم هو لا يصلح شأن الإنسان في هذه الدنيا ، بل الأعمال النافعة إذا أريد بها وجه الله فهي قُربة إليه ، سواء كانت عملاً دنيوياً أم عملاً أخروياً ، وتلك هي العبودية الحقَّة ، وهي أكمل أنواع العبودية(١) .

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣] .

وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨] .

وإذا علمنا أن الله قد أعذر إلى خلقه بما ذكر ، وبغيره ، مثل أنَّه ـ سبحانه ـ لا يكلف نفساً إلا وسعها(٢) ، وأنه ﴿ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥](٣) ، وأن لكل نفس ﴿ مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦](٤) . . . إلى غير ذلك مما يمكن أن يكون فيه عذر لمعتذر أو حجة لمحتج ، لو أن الله ـ تعالى ـ لم يفعله كما فعله .

وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والخالق ـ تعالى ـ أرسل الرُّسل ، وأنزل الكتاب ، وأنذر العباد ، وأزاح عللهم ، وفعل بهم من الأسباب التي بها يتمكنون من الطاعة أعظم مما يفعله كل آمر آخر غيره بالمأمورين ، فليس أحد أزاح علل المأمورين أعظم من الله ، فلا تقوم حجة آمر على مأمور إلا وحجة الله على عباده أقوم ، ولا يستحق مأمور من آمره ذماً ولا عقاباً لمعصيته إلا واستحقاق عصاة الله لأمره أعظم

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ٣٩٥) وما بعدها .

(٢) والآية بنصها: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

(٣) جزء من الآية ١٥ من سورة الإسراء ، والآية ١٨ من سورة فاطر .

(٤) والآية بنصها: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

استحقاقاً وذماً. ولا ييسر آمر على مأموريه ويرفع عنهم ما لا يطيقونه إلا والله تعالى أعظم تيسيراً على مأموريه، وأعظم رفعاً لما لا يطيقونه عنهم. وكل من تدبَّر الشرائع، لاسيما شريعة محمد ﷺ، وجد هذا فيها أظهر من الشمس»[١].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من الله عز وجل، من أجل ذلك حرَّم الفواحش، وليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل»**[٢].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلاً، فمنا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جشره، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: **«إنَّه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم...»** الحديث[٣].

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد من هذا الإنسان، فرداً أو جماعة أو أمة، أن يتجه بكليَّته إليه رغبة ورهبة، في المشاعر والسلوك، وفي العبادة والمعاملة، فهذا وحده هو الحجَّة المقبولة عنده؛ لأنَّه ـ سبحانه ـ هو الذي جعل ذلك حجَّة وعذراً، وأخبر أن ما سواه لا يجدي على أهله شيئاً.

فله ـ سبحانه ـ سابغ الحمد وعظيم الثناء على هذه الرحمة الواسعة والحجَّة البالغة.

* * *

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٧٣).
(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ٣٠١)، حديث رقم (٤٦٣٧). وصحيح مسلم بشرح النووي (١٧/ ٧٧).
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٢٣٢)، قوله: «ومِنَّا من يَنْتَضِل» هو من المناضلة وهي: المراماة بالنُّشَّاب. قوله: «ومِنَّا مَنْ هو في جشره»؛ أي: مع دوابه، وأصل الجشر: الدواب التي ترعى وتبيت في مكانها حيث ترعى. انظر: النووي على مسلم، الموضع السابق. وانظر: تعليق الألباني على مختصر صحيح مسلم، للمنذري، ص ٣٢٧.

الفصل الأول

مجال الحماية والوقاية

مرَّ بنا في المقدمة السابقة أن الأمَّة بعد تكونها المادي والمعنوي، وإقامة الحجَّة عليها، تكون مؤهلة لتحمّل مسؤوليات الأمة ذات الكيان الجماعي، وبالتالي مهيأة لأنْ تعمل فيها السنن الإلهية التي تخضع لها الأمم.

وتبينا أنه لا بد أن تنقسم الأمم في نهاية المطاف إلى فريقين، على أساس الهدى والضلال، الإيمان والكفر، وأن تبدأ المدافعة والصراع على كل الْمَحَاوِر.

وهي لهذا وذاك، بحاجة إلى أن تعمل على حماية كيانها الوليد ومكتسباتها الجديدة، المادية والمعنوية، ووقاية نفسها من أسباب العقوبة وعوامل السقوط والانهيار.

وهي حاجة تبدأ يوم ميلاد الأمة، ثم تستمر ضرورة قائمة، لا تنسخ حتى تكون الأمَّة هي التي تنسخها، وتسقطها من حسابها، فلا تلبث حينئذٍ أن ينسخ الله من الوجود وجودها، وأن تسقط على أم رأسها بعد علوها وصعودها.

وهي مع شدة حاجتها إلى هذه الحماية وتلك الوقاية، يواجهها منذ اللحظة الأولى اختلاف بين أفرادها في الكيفية التي تتم بها حماية مكتسبات الأمة، والوسائل التي يمكن اتخاذها لتتوقَّى كارثة السقوط، وتبعد ساعة الانهيار. وهو اختلاف يبدأ ساذجا، ثم لا يلبث أن يتعمق ليحدث شرخا، فصدعا.. فانقساما!.

وهذا الخلاف الذي لا بد أن يكون بين أفراد الأمة مربوط بحبل سريّ بذاك الانقسام المحتوم إلى فريقين مختلفين على أساس الهدى والضلال.

والأمة عندما تكون فتية ناشئة، عادة ماتستهين ببوادر الاختلاف، كما أنه يختلط في حس معظم أفرادها: أيّ الفريقين أحرص على الأمة وأولى بالاتّباع[1]!.

فكيف نظر القرآن الكريم إلى هذا المجال الخطر، المؤثر على حاضر الأمة ومستقبلها؟

لقد أخذ القرآن بيد الأمة منذ البداية، وأقامها على جادة الصواب، ولم يكل إليها حق الاجتهاد في هذا الجانب، كغيره من الجوانب.

---

(١) وذلك لأسباب ستأتي مفصّلة في مبحث: (لا يستوي الخبيث والطيب)، وفي مبحث: (الملأ في الأمم) في الفصل الخامس من هذا الباب.

بل وضع لها من الأسس والقواعد ما ترتكز عليها، وذكر لها من التفصيلات ما تستأنس وتستنير بها . وجعل مسئوليتها في سلامة الفهم، وحُسْن التطبيق . وضمن لها إن هي قامت بذلك ما تحب، وأمَّنها مما تخاف .

وكان القرآن واضحاً حاسماً في هذا المجال؛ مجال حماية الأمة ووقايتها . واضحاً في اختيار الطريق الموصل إلى هذه الغاية، واختيار المنهج المعين على سلوك هذا الطريق بكل تفصيلاته .

كما كان حاسماً في أن هذا الطريق والمنهج هو وحده الطريق والمنهج الصحيح لحماية الأمة ووقايتها .

ومن يستقرئ نصوص القرآن في هذا المجال، فسيظهر له أن الضوابط والأسس التي قررها القرآن وجعلها طريقاً ومنهجاً لحماية الأمم ووقايتها، تدور كلها حول قاعدة: جلب المصالح والمنافع ودرء المفاسد والمضار . وأن الحياة حبل ممدود؛ طرفه في الدنيا وطرفه الآخر في الآخرة .

وبناء على ذلك فإنَّ جميع التفصيلات التي سأذكر نماذج منها فيما بعد، مشمولة في ركني هذا القاعدة، داخلة فيهما .

ولإيضاح هذه القاعدة على مستوى الأمة، يمكن أن يُعبَّر عن شطر القاعدة الأول «جلب المصالح» بـ: أنْ تكون الأمَّة صالحة مصلحة في شؤون دينها ودنياها .

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] . وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] .

ويستلزم ذلك الركن الثاني «درء المفاسد»، ويمكن أن يعبَّر عنه بـ: أن تقاوم الأمة الفساد والمفسدين .

تقاوم الفساد بكل صوره ومظاهره، وتقاوم المفسدين، كل المفسدين على اختلاف مسمياتهم وألقابهم، في شؤون الدين والدنيا .

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾[هود: ١١٦] .

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦] . وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٨١] .

وعلى هذين الأُسّين، ومن هاتين القاعدتين تقوم وتنطلق كل صور وأشكال الحماية والوقاية للأمّة، وفق النظرة القرآنية لمعنى «الصلاح والإصلاح»، و«الفساد والإفساد» لا بما تمليه الأهواء والشهوات، وتوسوس به شياطين الإنس والجن[1] .

وفيما يلي أسوق لك طائفة من الآيات المتضمنة لبعض الأسباب الحافظة للأمّة من الفساد، الواقية لها من الانهيار، فمن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦] .

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ [النساء: ١٧١] .

وقال في الآية الأخرى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٧٧] .

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] . وقال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] . وقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ [آل عمران: ١١٠] . وقال: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى

---

(١) وسأفصِّلُ هاتين القاعدتين تفصيلاً كافياً شافياً، بإذن الله تعالى، بعد الفراغ من استعراض هذا المجال.

ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۞ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال: ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ ﴾ [الحج: ٤٠]. وقال: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾[آل عمران: ١٠٣]. وقال: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٧١]. وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾ [الأنفال: ٧٢، ٧٣]. وقال: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۞ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[الأنفال: ٣٩، ٤٠]. وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ۞ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾[آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠]. وقال: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾[الأنفال: ٦٠]. وقال: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم

بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦]. وقال: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣]. وقال: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]. وقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٧٥ ـ ٢٧٩]. وقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾ [النساء: ٥٨]. وقال: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [سورة ص: ٢٦]. وقال: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وقال: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [المائدة: ٨].

وقال سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠]. وقال: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾ [النساء: ١٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الحشر: ٧] . وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤] . . . إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ، المشتملة على ما يكون سبباً في حماية الأمة ووقايتها ، لو أخذت به .

ونحن لو تأمّلنا في الآيات السابقة ، وغيرها مما جاء في معناها ، لوقفنا دون عناء على مجموعة الضوابط التي ينبغي على الأمة مراعاتها ، وهي تسعى لحماية نفسها ووقايتها من عوامل الفساد والانهيار ، سواء كانت من الداخل أو من الخارج .

وأهم هذه الضوابط:

* الانطلاق من مبدأ وعقيدة صحيحة ، شاملة لجوانب الحياة المختلفة ، قادرة على تفسير ظواهر الوجود الممتد تفسيراً صحيحاً . وهذا كان واضحا في حضور ألفاظ [الإيمان باعتباره قاعدة قبول وانطلاق . . والتوحد على أساس منه . . واتباع الرسول . . وربط الدنيا بالآخرة . . والتحذير من مخالفة أمر الله في أي شأن] .

* أن تبني الأمة نفسها بناءً أخلاقياً متيناً ، في سلوك أفرادها الشخصي ، وفي معاملاتها . فهو اعتدال المزاج بلا غلوّ أو تفريط . . ومجانبة الفواحش ورذائل الأخلاق . . وإشاعة الفضائل وعمل الصالحات . . وهو العدل في الحكم والقول على كل حال . . وحفظ الحقوق وأداء الأمانات . . وسلامة الاقتصاد من آفات الربا المدمرة . .

* أن تعمل على تأسيس مدنية قوية ، على أساس عقائدي وأخلاقي ، وأن تحذر من بناء مدنيتها ، وتشييد قوتها على أساس مادي بحت ، أو على أساس من العداء للدين . ولهذا نجد التأكيد في كل مناسبة على الوازع الديني وإعلاء قيمة التقوى والمراقبة . . والتوازن بين الدنيا والآخرة في الطلب ، وتوحيد مرجعيتهما في الحس ؛ فكلاهما من الله . فلا معنى ولا وجاهة لخلق خصومة أو عداء بين شطري الحياة ، وقد ألف الله بينهما .

* **وأن تحافظ على أسباب وحدة كيانها الجماعي ، بوصفها أمة واحدة ذات خصائص مميزة . فهي الأخوة بين المؤمنين وتقديم ذواتهم وكياناتهم على من سواهم . والتناصر والتراحم بينهم ، واجتناب أسباب العداوة والبغضاء ، والفرقة والاختلاف .**

* وأن تقاوم الفساد الناشئ من التقصير في التزام الجوانب السابقة، أو من الخطأ في فهمها أو في تطبيقها، أو بسبب وجود أفراد أو فئات غير مؤمنة بها أو ببعضها أصلاً.

وصمام الأمان والسبيل إلى تحقيق ذلك كله، شيئان:

القيام بشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والجهاد في سبيل الله.

وهذه الضوابط والركائز وما يندرج تحتها من تفصيلات، كلها مستفادة من نصوص الكتاب العزيز، وقد ذكرتُ آنفاً طائفة منها، لأنبه إلى سائرها.

ولإيضاح ما سبق سوف أتحدث بشيء من التفصيل عن القضايا الآتية:

* **سُنَّة المدافعة (الصراع) في الأرض. والتدافع بين الحق والباطل.**

* **سُنَّة الله في النصر والهزيمة.**

* **شروط التمكين والاستخلاف في الأرض. وأهم عوامل بقاء الأمم واستمرارها.**

* **المصلحون بحق؛ من هم؟ وكيفَ كانوا هم سرّ بقاء الأمم ؟!**

ثم أختم ببيان معنى «الصلاح والفساد»، و«المصلح والمفسد» على ضوء نصوص الكتاب العزيز. وهذه كلها تندرج تحت سقف حماية الأمة، والحفاظ على كيانها ومكتسباتها.

* * *

سُنَّة التدافع (الصراع) في الحياة والمدافعة بين الحق والباطل [(١)]

لا تخلو حياة فرد أو فئة من الناس أو أمة من الأمم من لون أو أكثر من ألوان المدافعة والصراع، ولا يصلح بحال أن تخلو الحياة منها جميعاً، وليس من مصلحة الإنسان أن تخلو الحياة من التدافع؛ لأنه هو الطريق إلى دفع الفساد عن الأرض وإقرار الحق والعدل، و«تحريك الحياة نحو الأحسن، وتخطي مواقع الركون والسكون والفساد، ومنح القدرة للقوى الإنسانية الخيرة كي تشد عزائمها وتصقل قدراتها المقاومة الصاعدة في غمرة التحديات المتعاقبة التي يطرحها الصراع؛ للكشف عن مواقف الجماعة البشرية، والتعرّف على أصالة المؤمنين، وبالتالي تتحوّل التجربة إلى مِنخال كبير، يُسقط وهو يتحرك يميناً وشمالاً كل الضعفة والمنافقين والعاجزين والمترددين في مواصلة الحركة صوب المصير المرسوم»[(٢)].

وبدون ذلك، تأسن الحياة وتسيطر عليها روح السلبية، وتصبح جحيماً لا يُطَاق. ولمصلحة هذا الإنسان وغيره من الأحياء التي تسكن هذا الكوكب الأرضي، ولدفع عوامل الفساد والإفساد التي تضر بهم، اقتضت حكمة الله أن يقرّ هذه السُّنة، وأن يجعل في جبلة هذه الأحياء وفي تضاعيف الكون والحياة، ما يكفل وجودها واستمرارها.

وهذه «المدافعة تتجلى في صور شتى، تبعاً لاختلاف الدوافع والأسباب»[(٣)]، وعند التأمّل يمكن سلك هذه الصور على مستوى الأمم والجماعات البشرية عبر التاريخ في جانبين كبيرين:

الأول: المدافعة أو (الصراع) على أشياء الحياة الدنيا ومتعها ومغانمها وشهواتها (خلا صراع الحق والباطل).

وأهداف هذا الصراع مادية، ومنه ما هو مباح أو مشروع، ومنه ما هو ظلم وبغي وفساد.

---

(١) اشتهر إطلاق لفظ (الصراع) على (سنة التدافع) عند المتحدثين، وفي كتابات كثير من الكتّاب، وفي القرآن جاء لفظ (الدفع) و(الدفاع) و(يدفع) في الآيات التي تحدثتْ عَنْ هذه السُّنة، كما سيأتي.

(٢) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٤٢، ٢٤٣.

(٣) وبديهي أن تختلف تبعاً لذلك، الآثار والنتائج.

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [آل عمران: ١٤]. وقال: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

وفي هاتين الآيتين أجمل ـ سبحانه ـ دوافع هذا الصراع، والأسباب المهيجة إلى التدافع دونه، وذكر غاية ذلك وعاقبته في الدنيا والآخرة.

وإذا كان قدر من الصراع في هذا الجانب موجوداً في كل أمة؛ مؤمنة وكافرة، فإنَّ مما ينبغي أن يعلم أن المجتمعات الجاهلية كل صراعاتها من هذا الجانب، ولهذه الدوافع، حتى وإن كانت الأديان جزءً من محرك هذا الاصطراع، لأنها أديان فاسدة؛ كونها أرضية، أو منسوخة محرفة.

وأصل هذا الصراع ومنشؤه «أنَّ الإرادة الحرَّة والاختيار المفتوح اللَّذَيْن منحا للإنسان فرداً أو جماعة... يقودان بالضرورة إلى عدم توحد البشرية وتحولها إلى معسكر متشابه واحد، أو أرقام في جداول رياضية صماء... إنَّ قيمة الحياة وصيرورتها الحضارية الدائمة تكمن في هذا الصراع القائم بين كتل البشرية المختلفة المتضادة الموزعة... وأن حكمة الله اقتضت، حتى بالنسبة للكتلة أو المعسكر الواحد، أن تشهد انقساماً وتغيراً وتنوعاً وصراعاً... هذه هي طبيعة العلاقات البشرية ما دامت تمارس حريتها بالأخذ والعطاء، وتلك هي إرادة الله المسبقة في أن تكون حياة الناس مغايرة نوعياً لحياة الخلائق الأخرى الأعلى مرتبة أو الأدنى سُلَّماً»[(١)].

و«المدافعة من هذا الجانب ـ بحد ذاته ـ سُنَّة إلهية كما هو ظاهر. ولا أدلّ على ذلك من أن جوانب كثيرة في الحياة لا يمكن أن توجد، بله أن تتقدم وتنمو لولا هذه السُّنَّة»[(٢)].

ومع ذلك، فإنَّ كل أشكال الصراع والمدافعة من هذا الجانب، لا تمثل سوى جزء محدود من الهدف الأكبر لسنَّة (المدافعة)، ولا يندفع بها إلا جزء محدود جداً من الفساد

---

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٣٩، ٢٤٠. انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، لمحمد قطب، ص ١٥٥ وما بعدها.

(٢) وذلك كأنواع الصنائع، وتحصين الممالك وإعداد القوة، وكدفع أنواع الظلم والبغي من أمة على أخرى... ونحو ذلك.

في الأرض، ويتولَّد بسببها لو انفردت ـ وقد علمت أن منها ما هو ظلم وبغي ـ يتولَّد بسببها من الشرّ والفساد أضعاف أضعاف ما يندفع بها، حتى لكأنَّه لم يندفع بها فساد ألبتة!

وبمعنى آخر يُقال: إنَّ جانب المدافعة (المادي) جزء مهمٌّ من هذه السُّنة لا بد منه، وما لم يشفع بالجانب الأهم، وهو جانب: المدافعة بين الحق والباطل، فإنَّ البشرية تشقى به أكثر مما تسعد.

ولهذا ـ والله أعلم ـ كانت عناية القرآن بالجانب الأخير من سُنَّة (المدافعة) وإبرازه، بل جعله هو الوسيلة والطريق إلى دفع الفساد في الأرض أضعاف ما أولاه القرآن للجانب الأول. كما أنه انفرد بأمر الشارع به، ومدح أهله، وترتيب المنافع العظيمة على القيام به، وترتيب أوخم العواقب على تركه. كما سيتضح لك ذلك.

الجانب الثاني: المدافعة أو (الصراع) بين الحق والباطل. بين الخير والشر. بين الكفر والإيمان... وهو صراع «شامل واسع معقَّدٌ متشابك، إنَّه تقابل بين الخير والشرّ على أوسع الجبهات، تقابل لا بد منه إذا ما أُريد للحياة البشرية أن تتجاوز الكسل إلى النشاط، والفتور إلى التمخض، والسكون إلى الحركة، إنَّه ابتلاء فعَّال، لن يأخذ تاريخ البشرية بدونه شكله الإيجابي، ولا يمضي إلى غايته المرسومة منذ هبوط آدم ... إلى يوم الحساب»[1].

وفي القرآن الكريم بيان شافٍ وتفصيل عجيب لكل ما يتصل بهذه السُّنة، أسبابها ودوافعها، وجبهاتها، وجنودها وعساكرها، وأسلحتها، ونتائجها، والحكمة منها...

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۞ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٦، ١١٧]. وقال: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه: ١٢٣].

وقال: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]. وقال عن إبليس أنه قال: ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٣٦.

ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٦٢]. وقال عن أتباعه: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٠١]. وقال: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء: ٨٩]. وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ ﴾ [النساء: ٧٦]. وقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾[البقرة: ٢١٧]. وقال عن المنافقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾[المنافقون: ٤]. وقال: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقال: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وقال ـ جل وعلا ـ منبهاً إلى بعض غايات المدافعة وثمراتها:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. وقال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقال: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ ﴾ [محمد: ٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١]. وقال: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾[الأنفال: ٧٢، ٧٣]. وقال: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ ﴾ [النساء:

٨٤]. وقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. . . إلى غير ذلك من الآيات.

وأعود الآن بعد هذا الإجمال، إلى شيء من التفصيل لهذه السُّنة العظيمة «سُنَّة المدافعة» بجانبيها، وأخص جانب «المدافعة بين الحق والباطل» بمزيد بيان؛ لأهميته، ولأنه من أعظم مظاهر حكمة الله في إيجاد هذا الإنسان، وجعل الخير والشرّ معاً في هذا الوجود، أعود فأقول:

إنَّ المدافعة سُنَّة عالمية غير مختصة بجنس أو لون أو طائفة أو نِحْلَة.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فالله ـ تعالى ـ يدفع الناس «الذين يباشرون أسباب الشرّ والفساد ببعض آخر منهم، وهم الذين يكفونهم عن ذلك ويردونهم عنه»[١].

وهذا الفساد الذي يندفع بسبب إقرار سُنَّة المدافعة، هو الفساد بمعناه الأعم، فساد الأرض بالشرك والكفر والظلم الموجب لهلاك الحرث والنسل، فما دونه من أنواع الفساد التي لا يمكن حصرها.

ولهذا كان الفضل بإقرار هذه السُّنة فضلاً على العالمين كلهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

قال ابن عاشور: «وعلّق الفضل بالعالمين كلهم؛ لأنَّ هذه المنّة لا تختص»[٢].

ولإفادة العموم، ذكر الله تعالى في هذه الآية المدفوع والمدفوع به. . . فأمّا المدفوع عنه، فغير مذكور في الآية. فيحتمل أن المدفوع عنه الشرور في الدين، ويحتمل أن يكون المدفوع عنه الشرور في الدنيا، ويحتمل أن يكون مجموعهما[٣]. وهو الأولَى؛ لأنَّ بينها «قدراً مشتركاً وهو دفع المفسدة»[٤]، ولأنَّ الدين لا يتم تمامه ولا يتصور قيامه إلا باندفاع الشرور في الدنيا، وكذلك الدنيا لا يطيب عيشها، ويأمن أهلها إلا باندفاع الشرور عن الدين وتحقيقه في حياتهم.

وقوله تعالى: ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: حلّ الفساد محلّ الصلاح، والشِّرك والكفر محل التوحيد والإيمان، والظلم والبغي محل العدل والإنصاف. وحلّت سائر

(١) فتح القدير (١/٢٦٦).
(٢) تفسير التحرير والتنوير (٢/٥٠٣).
(٣) التفسير الكبير، للرازي (٦/١٩٢). والمعنى: يدفع بعضهم بعضاً عن الوقوع في الشرور، وعن إيقاعها في الأرض.
(٤) التفسير الكبير، للرازي (٦/١٩٣).

الأحوال الذميمة محلّ الأحوال الحسنة المستقيمة .

والسؤال الآن: مَنْ الذي يدفع الناس عن الشرك والكفر؟ ومن الذي يمنعهم من الظلم والبغي حقيقة ، ويجلب لهم أسباب الأمن وطيب العيش؟

وقبل الإجابة عن السؤال ، لا بد من الإشارة إلى حقيقة لا تكاد تخلو منها أمة من الأمم ، وأخص هنا الأمم الجاهلية ، هذه الحقيقة هي:

أنَّ الناس في ظل غير المنهج الإلهي ، يدافعون عن مصالحهم الشخصية ، ومصالح الذين في الدفاع عن مصالحهم مصلحة راجعة إليهم ، وهذه المصالح لا تتجاوز ـ في الغالب ـ تأمين شهوات البطون والفروج ، وتحقيق نوازع النفس من حب التملك والترؤس والتسلط ، وتوفير الأمن والرفاهية ، وما ينجر تبعاً لذلك .

وهذه الأشياء لا تحصل ـ عادة ـ إلا مع شيء قلّ أو كثر من الظلم والعدوان ، والمنافسة المُفْضِيَة إلى المدافعة والصراع ، الذي لم يكن له من سبب أصلاً إلا إقرار الظلم ، وحماية هياكل الفساد وسدنته .

وهي صراعات كثيرة ، وأكثرها ـ كما ترى ـ غير مشروع ؛ لأنّها لإقرار الفساد لا لدفعه ، أو هي في أحسن أحوالها دفع لأنواع من الفساد ، كالظلم والتسلط ، دون سائر ألوان الفساد ، التي يشترك فيها المظلوم والظالم .

فـ «ليس كل صراع إذن مشروعاً ولا مطلوباً في حياة البشر ، بل إنَّ معظم الصراع الذي يقع في الأرض هو من الفساد الذي ينهى الله عنه ، ويأمر بالجهاد لإزالته»[(١)] .

هذا هو أصل الصراع في كل الجاهليات ، وهو ظلم وتسلّط واعتداء في معظمه ، والله تعالى لا يتركه ولا يقرّ أهله ، حتى وإن كان واقعاً على الكافرين والمشركين ، إنّه فساد في حقيقته ، ولو ترك لأسرع الفساد إلى الأرض أكثر فأكثر .

فما الذي يحدث على مستوى الأمم الجاهلية؟

تَحْدُث المدافعة ويوجد الصراع لمقاومة الظلم ورد العدوان والفساد ولا بد . هذه المدافعة وهذا الصراع ، يندفع بهما ـ ولا شك ـ شيء من الفساد ، ويرتفع شيء من الظلم ، ويتحقق بسببهما شيء من الأمن وطيب العيش قل أو كثر ؛ لأنَّ «دفاع الناس بعضهم بعضاً يصدّ المفسد عن محاولة الفساد ، ونفس شعور المفسد بتأهب غيره لدفاعه يصده عن اقتحام مفاسد جمة»[(٢)] . وهو من معنى فضل الله على العالمين ، كما ترى .

(١) حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، لمحمد قطب ، ص ١٦٠ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير (٢/ ٥٠٣) .

وهذا جزء من هذه السُّنة الإلهية ؛ لأنَّه من دفع الله الناس بعضهم ببعض .

هذا وذاك العدوان والظلم ، ودفعهما ، كلاهما يقع في الجاهلية ، والثاني منهما أنبل قصداً وأسمى هدفاً ، وهو مأذون فيه ، وقد يكون مشروعاً ، إذا لم يتجاوز حدود المعاقبة بالمثل ، وهو قليل إذا ما قورن بالأول[(١)] ، «ويعد صحوة نادرة من صحوات الضمير في الجاهليات ، حيث الأصل الدائم هو العدوان»[(٢)] ، وأثرها محدود ، والفساد المندفع بسببها ضئيل بالنسبة للفساد الواقع في الأرض .

وهذه المدافعة ـ على محدودية مجالها فيما مضى ـ قد اكتشفت شعوب كثيرة منافعها المدنية ـ خاصة أمم أوربا وأمريكا الشمالية ـ فأسست نظم حكمها وشرّعت لهذه المدافعة من القوانين ما يكفل نفاذها ، وها نحن نرى آثارها الإيجابية على هذه المجتمعات والدول فقد اندفع بسبب ترسيخ قيم المدافعة من المفاسد السياسية وغيرها شيء كثير . وتحقق للشعوب من الحريات والحقوق المدنية ما صار مضرب المثل للعالم. فتفرغت تلك الشعوب للإبداع والإنجاز ، وقويت شوكتها ، حتى فتن العالم بكل ذلك . وهذا من أعظم مظاهر الفضل عليهم . لو قابلوه بالشكر ، وبنوه على قاعدة الإيمان والتسليم . .

ولأن ذلك لم يكن فإنه يبقى أن الذين أوقعوا الفساد ، والذين يدفعونهم عنه في تلك المجتمعات ، هؤلاء وهؤلاء واقعون في الفساد الأكبر ، فساد الشرك والكفر بالله ، وتعبيد الناس لغير شريعته ، بل ورفض شريعته وهديه ، ومحاربة رسله وأوليائه ، وهم لذلك غير منفكين عن الظلم والأذى لغيرهم ، وإن كانوا لا يقرونه فيما بينهم .

تلك أبهى صور الجاهلية! والجاهلية التي لا تمارس غير هذه المفاسد هي جاهلية مثالية ! .

وإذن ، هؤلاء وهؤلاء لا بد من دفعهم . وهنا نعود إلى السؤال السابق:

مَنْ يدفعهم عما هم فيه من الفساد الأكبر؟ مَنْ الذي يحظى بشرف إنقاذ الأرض وما عليها ، ويُهدي إلى الإنسان الأمن والسلام؟ ويؤخر بمقتضى السُّنة الإلهية فناء هذا الكوكب بما فيه ومَنْ فيه؟!

---

(١) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ١٦٣ ، ومن أمثلة ذلك ـ وقد أشار إليه المؤلف: (حلف الفضول) الذي كان في دار عبد الله بن جدعان ، وفيه اجتمعت بعض القبائل على ردّ الفضول على أهلها ، وعلى نُصْرَةِ المظلوم ، وردّ الحق إلى صاحب الحق ، وكان قبل مبعثه ﷺ بعشرين سنة .
روى الحُمَيْدِيُّ عن سفيان بن عُيَيْنَة عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابني أبي بكر ، قالا: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ الله بن جدْعَان حِلْفاً لَوْ دُعِيتُ بِهِ في الإسْلام لأجَبْتُ ، تَحَالَفُوا أنْ تُرَدَّ الفُضُولُ إلى أهْلِهَا ، وألاَّ يَعزَّ ظَالِمٌ مَظْلُوماً» . انظر: الرُّوض الأنف ، للسُّهيليّ (٢/ ٧٠) وما بعدها ، والبداية والنهاية ، لابن كثير (٢/ ٢٩١)

(٢) حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ١٦٣) .

إنَّ دفاعه هو الدفاع الأسمى والأشرف والأكمل، وإنَّ صراعه هو الصراع الأكبر، وإنَّه هو الحقيق بأن يحتفى بجهده وجهاده[1]!

وللإجابة عن هذا السؤال، نعود إلى النصوص القرآنية التي قرَّرت هذه السُّنة (سُنَّة المدافعة) في سياقاتها، وما قرَّره أهل العلم في تفسيرها.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١].

وقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١].

قال الإمام ابن جرير في تفسير آية البقرة: «ولولا أن الله يدفع ببعض الناس وهم أهل الطاعة له والإيمان به، بعضاً وهم أهل المعصية لله والشرك به، ﴿لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ يعني: لهلك أهلها بعقوبة الله إياهم ففسدت الأرض، ولكن الله ذو مَنٍّ على خلقه وتطوّل عليهم بدفعه بالبَر من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم، وبالمؤمن عن الكافر»[2].

وقال ابن عطية: «أخبر الله ـ تعالى ـ في هذه الآية أنه لولا دفعه بالمؤمنين في صدور الكفرة على مرّ الدهر لفسدت الأرض؛ لأنَّ الكفر كان يطبقها ويتمادى في جميع أقطارها، ولكنه ـ تعالى ـ لا يخلي الزمان من قائم بحق، وداعٍ إلى الله، ومقاتل عليه، إلى أن جعل ذلك في أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة، فله الحمد كثيراً . . .

---

(١) وهذا ـ بطبيعة الحال ـ لا يجعلنا نُسقِطُ من حسابنا قيمة (المدافعة) التي يمارسها الإنسان في ظل الجاهليات المختلفة وأثرها في دفع الفساد، وهو واضح فيما قرّرته سلفاً.

(٢) تفسير ابن جرير (٢/ ٦٢٣).

قال مكي: وأكثر المفسرين على أنَّ المعنى: لولا أنَّ الله يدفع بمن يصلي عمن لا يصلي، وبمن يتقي عمن لا يتقي؛ لأهْلَكَ الناس بذنوبهم...»[(١)] ورد هذا المعنى ابن عطية. وهو معنى متجه مرضي، غاية ما فيه أنه ليس المعنى الوحيد لهذه الآية، إذ هي أعم منه.

وقال القرطبي: «وقيل: هذا الدفع بما شرع على ألسنة الرسل من الشرائع، ولولا ذلك لتسالب الناس وتناهبوا وهلكوا، وهذا قول حسن فإنَّه عموم في الكف والدفع وغير ذلك»[(٢)].

ومما قال الرازي[(٣)] في معنى الآية: «يحتمل أن يكون المراد: ولولا دفع الله بعض الناس عن المعاصي والمنكرات بسبب البعض. وعلى هذا التقدير، فالدافعون هم القائمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويدخل في هذا الباب الأئمة المنصوبون من قبل الله تعالى لأجل إقامة الحدود وإظهار شعائر الإسلام»[(٤)].

هذه خلاصة أقوال أهل العلم بالتفسير في معنى هذه الآيات، وليس بينها تعارض، بحمد الله، واختلافهم فيها اختلاف تنوع، والآيات تحتمل ما ذكروه، ذلك أن المدافعة بين الحق والباطل ذات دوائر، بعضها محيط ببعض، فمدافعة العصاة من أهل الملة دائرة، ودفع المنافقين وفضحهم دائرة من ورائها، ومدافعة الكفار ومجاهدتهم من بعد ذلك. وإن كان بعضها أسعد بلفظ الآية وسياقها من بعض، خصوصاً ما ذهب إليه ابن عطية ومن وافقه.. يبين ذلك:

أنَّ الآيات في الموضعين، سيقت ضمن آيات تتحدث عن جهاد الكفار، وبيان حكمته وثمرته، وما يترتب على تركه وإبطاله من البغي والفساد في الأرض.

ففي آية البقرة جاء تقرير هذه السُّنة بعد انتصار بني إسرائيل بقيادة طالوت وما حصل من قتل داود جالوت، واجتماع بني إسرائيل واتساع ملكهم.

---

(١) المحرر الوجيز.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٢٦١).

(٣) محمد بن عمر بن حسين، الرازي، التيمي، البكري، أبو عبد الله، الإمام، المفسّر، مقدّم زمانه في المعقول ممن أصل لمذهب الأشاعرة، وُلِد في الرّيّ، وإليها نسبته، ورحل إلى هراة، وفيها توفي سنة (٦٠٦هـ)، له تفسير (مفاتيح الغيب) المشهور بـ (التفسير الكبير). انظر: وفيات الأعيان (٤/ ٢٤٨)، وطبقات المفسرين، للداودي (٢/ ٢١٥).

(٤) التفسير الكبير (٦/ ١٩١)، وقد فصّل في معنى الآية واستوعب. وانظر: الكشاف، للزمخشري (١/ ٣٨٢)، وتفسير المنار (٢/ ٤٩١، ٤٩٦).

وفي آية الحج، جعل سُنَّة (المدافعة) وسيلة لرفع الظلم وحفظ الدين وإحقاق الحق، ولورودها في سياق الإذن بالجهاد.

فآية البقرة قرَّرت السُّنة بعد حصول الثمرة وإحقاق الحق واندفاع الفساد، وآية الحج قررت السُّنة لبيان أنها الطريق إلى رفع الظلم وإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وهذا من بديع إعجاز القرآن.

ونكتة تقرير سُنَّة (المدافعة) في سياق آيات الجهاد والإذن به، أن المدافعة بالمقاتلة والمحاربة أبين صور المدافعة وأكثرها مشقة، وهي غايتها وأعلاها، وإقرار المدافعة بالأعلى ـ وفيه ما فيه من الأضرار والمخاطر ـ تنبيه إلى علوّ شأنه، وأنّه لا غنى عنه في دفع الفساد، ولهذا كان الجهاد ذروة سنام الإسلام. وتسبق هذه الصورة العليا ـ ولا بد ـ صور من المدافعة لا تحصى بالأقوال والأفعال... إلى آخر ما هنالك.

يدل لذلك أيضاً: قوله في آية سورة البقرة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، والفساد لفظ عام، ومنه صور كثيرة يمكن دفعها دون اللجوء إلى القتال.

وبهذا التقرير تجتمع أقوال المفسرين، ويظهر انسجامها.

ولنعد الآن إلى الآية التي في الحج، وهي أخص من الآية التي في البقرة، وأدلّ على مسألة الصراع بين الحق والباطل.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

«أي: لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء... والجهاد، لتُغلِب على الحق في كل أمة... ولما بقي الدين الذي يذبّ عنه... ولهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد ﷺ المساجد»(١).

وهدم المساجد إيماء إلى إطفاء نور الدين والمبالغة في حربه، والحيلولة بين الناس وبين ممارسة شعائره، فإن تهديم دور العبادة، وأماكنها هو آخر سهم في كنانة الكفرة والطُّغاة من أعداء الأديان، وهذا هو الفساد الأكبر والظلم الأعظم الذي أمر الله أولياءه بدفعه ومنازلته، في كل زمان ومكان، بكل وسيلة مأذون فيها، وبذل المهج فداءً له.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٧٠)، وقال: «قال ابن عطية: وهذا أصوب ما قيل في تأويل الآية».

إنَّ المدافعة بين الحق والباطل «صراع دائم بين معسكرين كبيرين، كل منهما يتمي إلى فكرة ويلتزم موقفاً ويعمل في سبيل . . . ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦] »[١].

و«إنَّ قوى الشرّ والضلال تعمل في هذه الأرض . . . والشر جامح والباطل مسلح . وهو يبطش غير متحرّج، ويضرب غير متورع، ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له . . . إلا أن يُدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول»[٢] . وأن يُتخذ لذلك «كل أشكال (الصراع) الخارجي على الإطلاق: مذهبياً، سياسياً، عسكرياً، أخلاقياً، اقتصادياً، وحضارياً . . . أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وقتالاً بالكلمة وكفاحاً مسلحاً»[٣] .

لا بد من هذا كله، «ولا يكفي الحقَ أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه، بل لا بد من القوة، تحميه وتدفع عنه، وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان»[٤] .

والذي يظن أو يتوهَّم أن المدافعة بجانبيها: المادي الجاهلي، ومدافعة الحق للباطل، يمكن أن تتوقف عند حد أو تنتهي لصالح أمة أو طائفة، فظنه خاطئ ووهمه سابح في الخيال، وهو إنَّما أُتِيَ من قبل جهله أو غروره، أو هما معاً، وإلا فمتى حصل هذا في تاريخ البشرية الطويل حتى يستأنس به؟

والعجيب في الأمر: أنَّ هذا الجهل والوهم، يُقال في زمن العلم!

تقول «بعض مذاهب التفسير الوضعية: إنَّه سيجيء اليوم الذي يكف فيه الصراع على مستوى العالم»[٥] ، وذلك في مرحلة الشيوعية المطلقة[٦] .

وتقول أمريكا بعد عقود من الصراع المرير من أجل التفوق: إنَّ العالَم بزعامتها سوف يعيش في ظل النظام العالمي الجديد الأمن والسلام، حيث تتلاشى وتنحسر الحروب والصراعات؛ لأنَّ إرادة العالم الجديدة تقضي بذلك!

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] . فلا الشيوعية وفت للبشرية بما وعدت، بل انهارت هي ذاتها بعد عقود من الصراع وحروب الإبادة . ولا الرأسمالية الغربية بكل إمكاناتها وزخرفها وشهواتها صدقت ببعض ما وعدت ؛

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٤٧ .
(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢٤، ٢٤٢٥).
(٣) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٤٧، ٢٤٩ .
(٤) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢٥).
(٥) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٤٧ . وهذه مقولة الشيوعيين أصحاب التفسير المادي الجدلي للتاريخ .
(٦) انظر: كلمة في تعليل التاريخ، لعمر فروخ، ص ٢٦ .

فهاهي تقود ألوية الحروب وتفتعل الأزمات ، وكلما تمكنت في الأرض زاد العالم خوفا . وهي ماضية نحو مزيد من الإفساد في الأرض .

وإذا كانت المدافعة بين الحق والباطل بكل صورها ، سُنَّة ثابتة مطردة ، لا صلاح للعالم إلا بقيامها واستمرارها ، فإنَّ من البدهي تبعاً لذلك ، أنَّه لا يمكن أن تحسم نتيجة المدافعة والصراع لصالح أمة أو فئة ـ كما أسلفت ـ حتى ولا للفئة المسلمة المؤمنة!

وكيف تُحْسَم والله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] .

لا تحسم لصالح الفئة المؤمنة ، وإن كنا نحب ذلك ونتمنّاه ، ولكنها سُنَّة الله ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣] .

ولو قرأت تاريخ العالم من أوله إلى آخره ، لم تجده إلا كذلك .

وقد تعجب من هذا أو تنكره ، ولا عجب! بل ذلك عين العدل والحكمة الإلهية . ومما يكشف لك طرفاً من حكمة الله في ذلك: أن تعلم علم اليقين أمرين أنت بأمسِّ الحاجة إلى معرفتهما:

الأول: أن الباطل لا يكف عن مجابهة الحق ، والسعي الحثيث للاستيلاء على مواقع جديدة ، وكسب أنصار وأولياء كل يوم ، بل كل لحظة ، ولا يرضى عن الحق أو يهادنه حتى يستأصل شأفته من الوجود إن استطاع[1] .

الثاني: أن الحق الذي تحب أن يستولي على كل شبر في الأرض ، ويكتم أنفاس الباطل ويريح الناس من شرِّه . أنَّ هذا الحق: لا يثبت أهله عليه ، وإن كانوا لا يتركونه بالكليَّة . ولا يأخذونه بجد وشمول ، وإن كانوا ينتسبون إليه ويخلطون فيه . وإن أخذوه بجدٍّ وشمول ، وثبتوا عليه فترة ، وآتى ثماره التي لا بد أن يؤتيها ، لم يصبروا عليه ، وأدركهم من الضعف والغرور والتقصير ما يُديل دولتهم ويعلي دولة الباطل عليهم .

فهم هم الذين تخلَّوا عن مواقعهم ، ووضعوا السلاح عن أكتافهم ، وقد علموا أن الحرب مشبوبة والعدو حاضر مترصد . فهل ظلمهم الله؟!

لقد نصرهم ومكَّن لهم ، بل كتب على نفسه أنه يتولاهم ويدافع عنهم وينصرهم ، وأعلمهم بذلك وآذنهم بأنه سُنَّة مطردة ، ولكنهم هم لم ينصروه كما أمرهم .

(١) وقد ذكرتُ الآيات الدَّالة على ذلك ضمن الآيات المبينة لسُنَّة التدافع بين الحق والباطل ، كما سيأتي القول عن طبيعة الباطل مفصلاً في مبحث: (الملأ ظاهرة تتكرر في كل أمة) ، وفي مبحث: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ .

وسبب ذلك: ما استقر في خَلد طائفة من المسلمين من حُسْن الظن بأنفسهم، واعتقاد أنهم قائمون بما يجب عليهم، فهم لذلك أهل للنصر ولا بد. وأن خصومهم بخلاف ذلك.

وما انتهى إلى عقول وضمائر آخرين من أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره، بل ينصر الكافر عليه، وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا.

وكلا هذين من أعظم الأسباب التي قعدت وتقعد بالمسلمين عن مدافعة الباطل والاستظهار بالله عليه.

وسبب ذلك ومرجعه: ما فيهم من الجهل بأمر الله ونهيه، وبوعده ووعيده، وسنته وقانونه في خلقه[1].

ولإزالة هذا الوهن والوهم فإننا في الصفحات التالية سنقف عند **سنة المدافعة عن الذين آمنوا**، وهي جوهر سُنَّة المدافعة بين الحق والباطل. فما أحوجنا ـ نحن المسلمين ـ إلى شدَّة اليقين بها، وأن نكون على مستوى الوعد الإلهي بالنصر والمدافعة والولاية.

* * *

(١) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية (٢/ ٣٢٤، ٣٢٧) وما بعدها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾

لقد تكاثرت النصوص القرآنية في تقرير هذه السُّنة وبيانها، وبيان من يستحقها ومن هو محروم منها، وأسباب هذا وذاك، كل ذلك بألفاظ كلية جامعة تؤكد اطراد هذه السنة وثباتها.

كما تواترت الحوادث الدالة بمجموعها على ما يجبر العقول بالتسليم بأن أولياء الله المؤمنين بصدق، ينصرهم الله ويدفع عنهم، ولا يتركهم لعدو يستأصلهم.

والقرآن لا يقرر هذه السُّنة ـ كغيرها من السُّنن ـ بصورة نظرية مجردة، بل لا يكاد يذكرها إلا مقرونة بما يشهد بصحتها، قبلها أو بعدها أو أثناءها، على مستوى التاريخ والأمم.

فمن ذلك مثلاً: إخبار الله ـ تبارك وتعالى ـ عن نفسه، في آيات من كتابه أنّه يدافع عن المؤمنين، وأنه لا يحب الكافرين، يخبر الفريقين بذلك قبل أن يأمر أولياءه بمدافعة عدوهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

وبعد أن قويت النفوس واطمأنت إلى جناب الله يخبرهم أنه قادر على نصرهم في دفاعهم العادل عن حقوقهم ومعتقداتهم.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

ثم يعقب على أمرهم بالمدافعة بأنه ـ سبحانه ـ عند وعده لهم بالنصر ما نصروه، لا في هذه الجولة فحسب، بل أبد الآباد.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١].

وفي آيات أُخَر أخبر ـ تعالى ـ أنه يتولى المؤمنين وينصرهم، وأنه وليهم ومولاهم، وأن الكافرين بضد ذلك.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ البقرة: ٢٥٧]. وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[محمد: ٧ ـ ١١]. وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

وفي الحديث الصحيح: «من عادَى لي وَلياً فقدْ آذنْته بالْمُحارَبَة...» الحديث[(١)].

والأدلة على هذا المعنى كثيرة.

ولهذا، فإنَّ أولياء الله ـ على الحقيقة ـ يستمدون قوتهم من قوة الله، وبها يجابهون أعداءهم ويواجهونهم. وأكرمُ أولياء الله محمدٌ ﷺ، يأمره مولاه أن يتحدَّى المشركين وشركاءهم أن ينالوه بأذى والله وليه.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ * إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٥، ١٩٦].

ودفاع الله عن الذين آمنوا في الحياة الدنيا، ونصره إياهم، يتحقق بصور كثيرة، وولايته لهم تتجلَّى في مظاهر شتَّى لا يعلمها إلا هو سبحانه.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧].

وذلك بحسب حال المؤمنين: قوة وضعفاً، قلَّة وكثرة، تمسكاً بالحق وحَيْدَةً عنه، وبحسب حال أعدائهم: قوة وضعفاً، قلَّة وكثرةً، أخذاً بأسباب البقاء وإعراضاً عنها.

وفي القرآن الكريم من ذلك أمثلة، لو تأمَّلها المؤمن بتجرد، لم يتعلق قلبه بعدها بغير الله، ولم يخف من أحد سواه، ولأصبح بموعود الله أشد ثقة منه بما في يديه.

(١) رواه البخاري، من حديث أبي هريرة ﷺ. انظر: الفتح (١١/ ٣٤٠) في كتاب الرقاق، باب: التواضع، ح (٦٥٠٢).

إنَّ دفاع الله عن المؤمنين الصادقين في الحياة الدنيا سُنَّة ثابتة، مطردة، كلما تدافع الحق والباطل، لا استثناء فيها. اللهم إلا أن يكون أهل الحق دون مستوى النصر، لأي سبب من الأسباب، وحينئذٍ تبقى للسُّنة صفة الثبات والاطراد، ويكون تخلف النصر لأسباب موضوعية مؤكداً لهذه السُّنة لا ناقضاً لها.

ولنأخذ بعض الأمثلة والنماذج في فترات تاريخية مختلفة، مع ملاحظة تشابه الظروف، وندرسها على هذا الأساس.

فهناك أحوال يكون دفاع الله عن المؤمنين وانتصاره لهم ظاهراً مكشوفاً، لا يماري أحد في أن ما جرى ليس أمراً عادياً.

وهذا يحدث ـ عادة ـ إذا كان المؤمنون في قلَّة قليلة من العدد وضعف في الإمكانات، وعدوهم أكثر عدداً وعدَّة، أي أن المؤمنين لا يملكون من مقومات النصر المادية ما يغني في مقاومة الباطل وأهله، بل تكون نتيجة المواجهة ـ لو تمت بين الفريقين ـ قضاءً مبرماً على الحق.

في مثل تلك الأحوال، فإنَّ دفاع الله عنهم ونصره إياهم يكون بصورة ظاهرة مكشوفة، يحوطهم بعنايته ويتولاهم برعايته حتى يؤدوا رسالته ويعذروا إلى الأمَّة التي يكونون فيها. ومع تكرر البلاغ والنذارة منهم، تتصاعد موجة الإصرار والعناد من أقوامهم، ويهمون بهم ليأخذوهم وينكلوا بهم. حينئذٍ يستنصر المؤمنون ربهم، ويعلنون براءتهم من كل حول وقوة إلا من حوله تعالى وقوّته. فيتنزل النصر الإلهي بصورة حاسمة ومظهر كوني رهيب، لا قبل لأعدائهم به.

وهذا الأنموذج من النصر والمدافعة عن المؤمنين يكاد يصدق على كل الفئات المؤمنة من لدن نوح ﷺ، حتى زمن موسى ﷺ، بصورة مطردة. ومن استقرأ القرآن، تبيَّن له ذلك.

وللإيضاح، أذكرُ بعض الأمثلة على سبيل الإجمال، لوضوحها في كتاب الله تعالى، متوخياً إبراز مواطن العبرة مما يتعلق بهذه السُّنة، مبتدئاً بنبي الله نوح ﷺ، وكيف أن الله انتصر له ولمن معه من المؤمنين.

لقد كان نوح ﷺ والذين آمنوا معه هم الفئة المؤمنة؛ كل أنصار الحق في ذلك الزمان. وكانوا قلَّة: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، مستضعفين من قومهم: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

والحق الذي جاء به نوح ﷺ من ربه في نظر قومه، محض كذب وضلال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

وكان أهل الباطل كثرة كاثرة: أهل الأرض كلهم، ما عدا القلّة المؤمنة. وقد بلغ بهم الكفر والفجور مبلغاً عظيماً عبّر عنه نوح ﷺ بقوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

ولهذا، فقد ضاقوا ذرعاً بهذه الدعوة وبشخص الداعي: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

ولجأوا إلى أسلوب التهديد بالرجم: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. ولا قِبَلَ لنوح ﷺ والذين آمنوا معه بهذا التهديد، بالمقاييس المادية، فأين نصر الله منهم؟ ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فما هو إلا أن دعا نوح ﷺ ربه واستنصره عليهم بكلمات غيّرت ميزان القوى عندما وقعت موقعها، وكانت القلّة أهلاً للنُّصْرَةِ والمدافعة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨]. وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

وسرعان ما تنزَّل النصر الإلهي الذي لم يخطر مثله للمؤمنين، فضلاً عن القوم المجرمين على بال... طوفان عام لا تعصم منه قمم الجبال الشاهقة، تجري في لجحه سفينة تقل الفئة المؤمنة، تجري بهم باسم الله، آمنة في وسط الأهوال!.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

وقد صوَّر القرآن سرعة هذه الاستجابة تصويراً معبراً في هذه الآيات: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ * فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ

مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٩ ـ ١٥].

وبعد تطهير الأرض من الفساد والمفسدين، وإنجاء نوح ومن معه من المؤمنين، يتنزل الأمر الإلهي لإعادة الحياة إلى طبيعتها كي يستمتع بها المؤمنون: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤].

أمّا المؤمنون، فقد نجوا كلهم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠].

الله أكبر! إنَّ إلهاً، السماوات والأرض من جنده، لحقيق أن لا يُخافَ إلا منه، ولا يُرْجَى إلا هو سبحانه.

إنَّ نوحاً ﷺ والذين آمنوا معه، كانوا هم السبب في دفع هذا الفساد عن الأرض، لا بقوتهم، ولكن بقوة الله... لقد كانوا أداة أنفذ الله بهم مشيئته، وأظهر بهم سنته. وصدق الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨].

وتأتي أمّة أخرى، عاد قوم هود.

وهنا نلتقي بهذه السُّنة ثانية، فكيف أنجى الله هوداً ﷺ والذين آمنوا معه من بين قوم كانوا يقولون فيما يقولون عن أنفسهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]؟!

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود: ٥٨].

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، ولولا رحمتنا إياهم ما نجوا، ولولا أنهم أهل لرحمتنا وعنايتنا ما منحناهم إياها.

ثم قال سبحانه في إنجاء نبيه صالح ﷺ والذين آمنوا معه من قومه المستهترين الذين تجاوزوا ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧].

قال جل وعلا: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾[هود: ٦٦]. على حين ﴿ أخذ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود: ٦٧].

إنّه ليس عبثاً ولا مصادفة أبداً، وحاشا لله أن يكون شيء من كلامه كذلك، أن يذكر سبحانه في كثير من المواضع إنجاء المؤمنين قبل إهلاك الكافرين.

إنَّ من دواعي تقديم الشيء بالذكر، كونه محل عناية المتكلم، وليبيِّن ـ سبحانه ـ أن إنجاءهم مقصود لذاته، وهذا أعظم منَّة من مجرد إشعارهم بهلاك عدوهم.

وقصة إنجاء الله لخليله إبراهيم ﷺ من النار، أعظم برهان على ما نحن بصدد تقريره من دفاع الله عن المؤمنين الصادقين، وأنَّ هذا الدفاع كما يكون عن جماعتهم يكون كذلك عن أفراد منهم بأعيانهم، وأن المدافعة عنهم تكون أيضاً في حياة أقوامهم قبل أن ينزل الله بهؤلاء الأقوام عقوبة عامة.

فكما أن إهلاك القوم بعذاب من عند الله في حياة نبيهم إذا كذّبوه وعصوا أمره مما تقر به عينه[1]... فكذلك إنجاء المؤمنين من كيد عدوهم وهو ينظر مما يسوء عدوهم ويخزيه. فما هي قصة نجاة الخليل إبراهيم ﷺ؟

ها هو القرآن يختصر مشاهدها في ثلاث آيات قصار:

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ * قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠].

وإذا ما جاء الحديث عن إنجاء نبي الله لوط ﷺ وأهله، نجد من عناية الله وقدرته عجباً.

إنَّ أهل القرية كلهم ظالمون، وقد تهددوا لوطاً ﷺ وآله بالإخراج، وهم كل من آمن به، ولا بد أن ينتصر الله لوليه والمؤمنين به ولو كانوا قِلَّة، ولو كانوا أهل بيته... بل ولو كانوا بعض أهل بيته! ينتصر للمؤمنين منهم فقط.. ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ

---

(١) كما في الصحيح، من حديث أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إنَّ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ إذَا أرَادَ رَحْمَةَ أمَّة من عباده، قبضَ نبيها قبلها، فجعله لها فرطاً، وسلفاً بين يديها، وإذا أرَادَ هَلَكَةَ أمَّة عذّبها ونبيها حَيٌّ، فأهلكها وهو ينظر، فأقرَّ عينه بهلكتها حين كذّبوه وعَصَوا أمْرَهُ». انظر: صحيح مسلم، في الفضائل، باب: إذا أراد الله تعالى رحمة أمة قبض نبيها قبلها، ح (٣٢٨٨).

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [الحجر: ٥٧ ـ ٦٠] .

حتى وإن خرجت مع الناجين!

﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾ [هود: ٨١]؟

إنَّ نجاة لوط وآله لم يكن صدفة . . . إنَّه إنجاء مقصود ونعمة من الله عليهم ، جزاءً لهم ولأمثالهم ممن يشكر ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ * إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ * نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴾ [القمر: ٣٣ ـ ٣٥] .

وبعد هذه الأمثال يجدر أن نسجل أمرين ، لهما دلالة بالغة .

الأول: أن الكون كله عابد لله جندي في خدمة الحق ، يتكيف بأمر الله لتحقيق سنة الله .

الثاني: أن انخراق العوائد الكونية ، كما يكون لتأييد الرسل وإظهار حجتهم على أقوامهم ، فكذلك يكون لنصرتهم ومن معهم في ذواتهم ، حتى يعلم عدوهم أنهم في كنف الله ، وأن الله معهم لايتخلى عنهم . فهي حجة بعد حجة لمن كان له مسكة عقل ؛ إذ لو كانوا مبطلين في دعوتهم لم يكونوا في معية الله حتى آخر لحظة ! .

وشعيب ﷺ لما تطاول عليه قومه واستضعفوه ، و﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ [هود: ٩١] . انتصر الله له من فوق سماواته ، وانتقم له وللمؤمنين معه من الظالمين: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود: ٩٤] .

وأختم أمثلة هذا الأنموذج بمدافعة الله عن نبيه وكليمه موسى ﷺ ومن معه من بني إسرائيل .

موسى ﷺ ومن معه من بني إسرائيل قلّة مستضعفون من فرعون وقومه . ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ ﴾ [يونس: ٨٣] . إنهم

في نظر فرعون الطاغية ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ، لا يؤبه بهم ، وقد أعد العدّة لسحقهم وإبادتهم . فماذا كان من شأن الفريقين ؟! .

لقد أصبح فرعون وملؤه يشكّلُونَ عقبة تَحُولُ بين الناس وبين الحق ، بما أوتوا من الملك والزينة والمال ، مع ما هم فيه من الكفر والطغيان ، ولا قِبل لموسى ومن معه من المؤمنين بهم . لقد بذلوا وسعهم ، ولكن الأمر أكبر من طاقتهم . وقد بلغ الصراع مداه ولا بد أن يُحْسَمَ ، ولا بد أن يُحْسَمَ لصالح المؤمنين أيضاً!

فماذا قال موسى لربه؟ وماذا سأله؟

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٨٨ ، ٨٩] .

لقد وقعت الدعوة موقعها ، وكانت القلّة المؤمنة يومها أهلاً لنصر الله ، فنصرهم الله نصراً مؤزراً ، وطهّر بسببهم الأرض من الفساد .

كيف؟ وبماذا؟

يقول تعالى في سورة الشعراء: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٨] .

وتأمّل لفظة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ ؛ لتعلم أنَّ إنجاء المؤمنين مقصودٌ لذاته .

ولعل مما يفيد في هذا المقام أن نتلمس شيئاً من الحكمة في كون عقوبة فرعون ومن معه خارج ديارهم ؛ ربما يكون السبب في ذلك ـ والله أعلم ـ أنه كان «في قوم فرعون مؤمنون لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، فأراد ـ سبحانه ـ أن ينتزع فرعون ومن معه من

الظالمين من بينهم، ولذلك لم ينزل العذاب على أهل مصر، وإنَّما أغرق من خرجوا معه لإعادة بني إسرائيل إلى الاستعباد والظلم»[١].

إنَّ القلَّة المؤمنة التي تحمل الحقّ وتدافع عنه في كل الأمثلة السابقة، لم تتجاوز في إمكانياتها ووسائلها المادية مرحلة البلاغ لإقامة الحجة والجهاد بالكلمة؛ لأنَّ أياً من تلك الأمم الغابرة[٢] ـ ولله في ذلك حكمة بالغة ـ لم تكن مؤهلة لشرف حمل رسالة الحق والدعوة إليه والجهاد من أجله.

ولأن تلك الأمم لم تكن مؤهلة لذلك، كان وجود الفئة المؤمنة بينها يتحقق به، إضافة إلى مهمة البلاغ لإقامة الحجَّة، وهي أول مهمَّة وأساس لما بعدها، يتحقق به قَدَرُ الله في دفع الفساد عن الأرض، بعد اصطفاء واستخلاص العناصر الصالحة.

هذه حال من الأحوال التي يتجلَّى فيها دفاع الله عن المؤمنين.

وحال أخرى يكون دفاع الله فيها عن المؤمنين وانتصاره لهم من خلال جهودهم ومباشرتهم للأسباب بدءً وانتهاء، مع ما يجريه ـ سبحانه ـ من أمور كونية، هي في مصلحتهم وضد عدوهم.

ذلك أن المؤمنين في هذه الحال ذوو عدد وعدَّة، وإن كانوا أقل من عدوهم.

والفرق المعوّل عليه بين الحالين: أنَّ المؤمنين في الحال الأولى، لا يباشرون هزيمة عدوهم ومدافعته بصورة حسيَّة، وإن كانوا يباشرون أسباب ذلك.

أمَّا في الحال الثانية: فهم بذواتهم يباشرون مغالبة عدوهم ودفعه بالقوة المحسوسة.

ولم أقف على أمثلة لهذه الحال، إلا لبني إسرائيل، وهي قليلة، ولهذه الأمة الخاتمة وتكاد تستقل بهذا الفضل؛ لكثرة ما جرى ويجري على أيدي المؤمنين منها من مغالبة الباطل ودفعه، وكثرة المشاهد التي تجلَّى فيها دفاع الله عنهم ونصره إيَّاهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في تقرير هذه المعاني: «ومن هذا، أنَّ الله شرع من عذاب الكفار بعد نزول التوراة بأيدي المؤمنين في الجهاد ما لم يكن قبل ذلك، حتى إنه قيل: لم ينزل بعد التوراة عذاب عام من السماء للأمم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ

---

(١) انظر: تفسير المنار (١٢/ ١٠٩).

(٢) أعني: أقوام الأنبياء.

﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]. فإنَّه قبل ذلك قد أهلك قوم فرعون وشعيب ولوط وعاد وثمود وغيرهم، ولم يهلك الكفَّار بجهاد المؤمنين.

ولما كان موسى أفضل من هؤلاء، وكذلك محمد، وهما الرسولان المبعوثان بالكتابين العظيمين، أمرَ الله هذين الرسولين بالجهاد على الدين، وشريعة محمد ﷺ أكمل، فلهذا كان الجهاد في أمته أعظم منه في غيرهم»(١).

أمَّا بنو إسرائيل، فقد قصَّ الله من خبرهم مع عدوهم، وكيف كان نصره إياهم، في آيات، منها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ... الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥١].

وهؤلاء الذين هزموا جالوت وجنوده، هم صفوة من خرج مع طالوت للجهاد، وكانوا أهلاً لنصر الله؛ لشدَّة إيمانهم بالله وثقتهم بموعوده.

يدلُّ لذلك، ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ومعنى ﴿يَظُنُّونَ﴾: يوقنون بلقاء الله؛ أي بالرجوع إليه بعد البعث، أو يظنون أنهم يُقْتَلُونَ في هذه الوقعة فيلقون الله شهداء، وذلك لعزمهم على صدق القتال(٢).

ولهذا لما سألوه التثبيت واستنصروه، نصرهم. فجعل هزيمة أعدائهم بإذنه، فهم باشروا هزيمتهم، والله هو الذي قدَّر لهم ذلك وهيَّأ أسبابه.

ومن أمثلة ذلك: ما حصل من حبس الشمس ليوشع بن نون ﷺ وجنده، حتى فتح الله عليهم.

(١) جامع الرسائل، لابن تيمية (٢/ ٣٣٦، ٣٣٧).
(٢) انظر: المحرر الوجيز (٢/ ٢٦٤).

وخبرهم في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **«غزا نبي من الأنبياء**[(١)] **فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن بها، ولا أحد بنى بيوتاً ولما يرفع سقوفها، ولا آخر اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر ولادها. فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنّكِ مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليهم...»** الحديث[(٢)].

وفي هذا أعظم دليل على نصر الله عباده المؤمنين، بل وخرق سنن الطبيعة وهي من جند الله لنصرتهم، إذا توافرت فيهم أسباب النصر وكانوا أهلاً لذلك.

أمّا هذه الأمة، أمّة محمد ﷺ، آخر الأمم وأشرفها، أمّة الجهاد والملاحم، فإنّ مظاهر دفاع الله عن المؤمنين الصادقين فيها، ونصره إياهم، لا تكاد تنحصر؛ وذلك لكثرة ما يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولبقاء الحق والخير والصلاح فيها ظاهراً مستمراً، طبق ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ من أنّه: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»**[(٣)].

وأنّه **«لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة»**[(٤)].

فإذا مرج أمر الناس ويئس من صلاحهم، فـ «إنّ الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة ـ وفي رواية: مثقال ذرة ـ من إيمان إلا قبضته»[(٥)]. فلا يبقى إلا شرار الناس، وحينئذٍ يأذن الله ـ جل وعلا ـ بخراب هذا العالم،

---

(١) هو: يُوشَعُ بن نون كما رواه الحاكم من طريق كعب الأحبار... وقد ورد أصله من طريق مرفوعة صحيحة أخرجها أحمد من طريق هشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ لِبَشَرٍ إلاَّ لِيُوشَعَ بن نون ليالي سارَ إلى بيت المقدس...»**. فتح الباري (٦/ ٢٢١).

(٢) انظر: فتح الباري (٦/ ٢٢٠)، باب قول النبي ﷺ: **أُحِلَّتْ لَكُمْ الغنائم**، واللفظ له. وصحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٥١).

(٣) رواه البخاري، عن المغيرة بن شعبة. فتح الباري (١٣/ ٢٩٣)، ح (٧٣١١). وصحيح مسلم بشرح النووي (١٣/ ٦٥).

(٤) رواه مسلم، عن جابر بن سَمُرَة. صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/ ٦٦).

(٥) رواه مسلم عن أنس. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ١٣٢).

فإنّه «لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض: الله الله»[1] .

وأمثلة هذه المدافعة والنصرة كثيرة مشتهرة . وأذكر منها هاهنا ما يتضح به المقصود .

فمن ذلك: الإمداد بالملائكة والريح:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. هذا في غزوة بدر . وفي أحد ، لو أنهم صبروا واتقوا: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ۞ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤ ، ١٢٥][2] .

ومنها: الريح والجنود غير المرئية [الملائكة أو غيرهم] في غزوة الأحزاب:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩] .

وهذه كلها ـ كما ترى ـ من صور المدافعة والنُّصْرَة المحسوسة .

وأمّا المعنوية ، فمنها: كون الواحد من المؤمنين يغلب عشرة في بدء الإسلام ، ثم تخفيف ذلك إلى كونه يغلب اثنين ، مع أن الصبر شرط في كليهما .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۞ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥ ، ٦٦] .

ومن الحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ أنهم كانوا في صدر الإسلام قلّة ، فعوّضهم الله قدرة فائقة على الصبر والتحمّل ، فلما كثروا ، خفّف ذلك عنهم وأبقى فيهم ما يضمن لهم النصر والغلبة .

---

(١) رواه مسلم عن أنس . صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ١٧٨) .

(٢) وهل قاتلت الملائكة يوم بدر وأحد؟! أو أنها قاتلت يوم بدر فقط . أمّا يوم أُحد فقد علّق الإمداد بالملائكة بشرطي الصبر والتقوى ، فلما لم يحصل الصبر لم يحصل المدد . . . كل ذلك محل اختلاف بين أهل العلم ، والأظهر: أن الملائكة قاتلت يوم بدر ، ولم تقاتل يوم أُحد . ومن أراد تفصيل ذلك ، فليراجع أمهات كُتُب التفسير عند الآيات السابقة ، وكذا: زاد المعاد (٣/ ١٧٦) وما بعدها .

قال ابن عباس: «إنما أمر الرجل أن يصبر نفسه لعشرة، والعشرة لمئة إذ المسلمون قليل، فلما كثر المسلمون خفَّف الله عنهم»[(١)].

وهم وإن كانوا مأمورين بهذا الصبر[(٢)] إلا أن منحهم القدرة عليه هو عين النصر والمدد من الله تعالى، فالمنّة في الحالين ظاهرة.

ومنها: تقليل المؤمنين في أعين الكافرين وتقليل الكافرين في أعين المؤمنين قبيل بدء المعركة، ثم تكثير عدد المؤمنين في أعين أعدائهم بعد بدئها، ليدخل في قلوبهم الرعب، وفي أنفسهم الهزيمة.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٣، ٤٤].

وقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

إلى صور كثيرة يأتي ذكرها في ثنايا البحث في مواضع متفرقة[(٣)].

ونحن إذا تأمّلنا ما سبق ذكره من صور الانتصار ومظاهر المدافعة عن المؤمنين، وجدناها جميعاً تمثل مرحلة الحسم بينهم وبين أعدائهم، وهذا يكاد يستغرق حال المؤمنين مع أعدائهم في الأمم السابقة حتى زمن موسى ﷺ، أو مرحلة الحسم المرحلي كحال بني إسرائيل من بعد موسى. أمّا هذه الأمة، فقد كانت وما تزال المواجهات مداولة بين المؤمنين وأعدائهم. وفي كل مرة يصدق المؤمنون ربهم يظهر لهم ـ سبحانه ـ من صور الانتصار لهم ما يثبت به أفئدتهم ويقوي عزائمهم.

وبقي أن نقف على بعض صور ومظاهر مدافعة الله عن المؤمنين قبل مرحلة الحسم. وهي مرحلة متطاولة، والمؤمنون في قلّة وضعف، سواء كانوا جزءًا من المجتمع

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٠/ ٤٠).
(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١٠/ ٤١).
(٣) انظر مثلاً: سُنّة الله في النصر والهزيمة، بعد هذا المبحث.

الجاهلي، وهنا يشتد عليهم أذى الكافرين والمشركين، أم كانوا متميزين عنه في مجتمع مستقل، وفي هذه الحال يضاف إليهم أذى المنافقين والفاسقين الذي يعملون لحساب الكافرين.

فمن مظاهر مدافعة الله عنهم وتوليهم: أن يدفع الله عنهم الأذى بسبب عصبية قومهم وعشيرتهم، كما جرى لشعيب ﷺ ولنبينا محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

وفي الصحيحين عن العباس بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ أنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: **«نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»**[١].

وقد يكون التقليل من شأن المؤمنين عدداً ومكانة، سبباً في اندفاع الأذى عنهم؛ لأنهم في نظر الباطل لا يشكلون خطراً، على الأقل في الوقت القريب.

ولهذا قال قوم نوح في معرض تهوينهم من شأن نوح ﷺ ومن آمن معه، والتقليل من خطرهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]؛ أي: ضعاف العقول ومن لا روية ولا بصر بالأمور عندهم.

ومن ذلك: ما قال فرعون الطاغية عن بني إسرائيل: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾[الشعراء: ٥٤، ٥٥]. والشرذمة: الجمع القليل المحتقر. وغائظون: أي مغيظون لنا بخروجهم من غير إذننا، ومخالفتهم ديننا[٢].

ولعل الأقليات الإسلامية اليوم في بلاد الكفر، في نظر أعدائهم تصلح مثالاً على ذلك. فإنهم عندما كثر عددهم وصار لها نوع تأثير في تلك المجتمعات وأصبحوا مظنة خطر على تلك الدول ولو بعد حين، بدأ مسلسل التضييق عليهم، ووضعت العراقيل في وجه المهاجرين الجدد، وكفروا بما كانوا يؤمنون به من قبل من دعاوى الحرية في الأديان وحماية حقوق الإنسان، وخصوصاً الأقليات!

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤١٧)، ح (٦٥٦٤). وصحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ٨٤).
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٠١).

كما أن الإسلام ذاته في معاقله في العالم الإسلامي ، لما كان إسلاما مهادنا ، لا يعارض السياسة المنحرفة ، بل ربما دعمها وباركها كان إسلاما مقبولا متعايشا . وعندما نهض المسلمون لإصلاح أوضاعهم وتحكيم الإسلام في كافة شئونهم ، عندها تغير مزاج الأنظمة الحاكمة ومن ورائها الاستعمار المدافع عنها ، فاخترعوا للإسلام اسما خاصا ، ونعتوه بالإسلام السياسي ، والإسلام الحركي ، والإقصائي وحاربوه بكل أنواع الحرب! .

وقد يكون غرور الباطل وثقته بنفسه ، لتمكنه من أسباب القوة المادية ، وراء التهوين من شأن الحق وأهله ؛ لاعتقاده أن بإمكانه أن يسحقهم في أي ظرف من الظروف ويحسم الموقف لصالحه ، وهذا مما يندفع عنهم البلاء بسببه .

وهذا ـ والله أعلم ـ هو أيضاً من أسباب استهانة المبطلين بالعقوبات الإلهية ، بل واستعجالها ، عبر التاريخ[1] .

وقد يكون اختلاف أهل الباطل فيما بينهم وانشغالهم بأنفسهم سبباً في انشغالهم عن المؤمنين وكف الأذى عنهم . بل ربما وجدوا ملاذا بين ذلك ، كما حصل للمسلمين عند النجاشي ، وكما هو حاصل نسبيا إبان الحرب الباردة في العقود المنصرمة .

وقد تكون قوة الحق في نفسه ، سبباً في إحجام الباطل عن منازلته بصورة مكشوفة ، وإن كان لا يكف عن الكيد له . كما هو ظاهر أيام ظهور دولة الإسلام خلال قرون من صدر الإسلام .

إلى أسباب أُخَر كثيرة تتنوع في مظاهرها وأسبابها ، وتجتمع وتتوحد في نتيجتها لتحقق هذه السُّنة الإلهية ، ألا وهي «دفاع الله عن المؤمنين» .

*** وخلاصة القول في هذه السُّنة ــ سنة المدافعة عن الذين آمنوا في الحياة الدنيا:**

أنَّ الصراع بين الحق والباطل قديم ، ومستمر ، ولا ينتهي إلا بانتهاء هذا العالم . ولا يمكن عقد هدنة بينهما ، ولا اتفاق على اقتسام مواقع النفوذ .

وأن أهل الحق لا يثبتون في أي فترة من الفترات على الحق الذي يؤمنون به ثباتاً يؤهلهم للنصر إلى ما لا نهاية . بل يقع فيهم ومنهم من أسباب الضعف والانحراف ما يديل عدوهم عليهم .

---

(١) وسيأتي لهذا المعنى مزيد بسط في مبحث: (الملأ ظاهرة تتكرر) ، في الفصل الخامس من هذا الباب ، بإذن الله .

وهم كلما ثبتوا عليه والتزموا به واستفرغوا وسعهم في نصرته، فإنَّ الله ينصرهم ويدفع عنهم بحسب حالهم المادية، بما يعلمون وما لا يعلمون ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤، ٧]. وأنَّ الله ـ جل وعلا ـ يُجري بقدرته من الأسباب المختلفة ما يدفع به عنهم الأذى في كل مرحلة يمرون بها، سواء كانوا بين ظهراني الجاهلية، أو في مجتمع متميز منحاز.

ومن هنا فإنَّ كل ما يظن أن ظاهره يخالف هذه السُّنة ـ سنة المدافعة عن المؤمنين ـ أو ينقضها عبر التاريخ، فهو؛ إمَّا من قبيل الحالات الفردية[1]، بمعنى: أنه لا يشمل الأمة بعمومها، إن كان في مرحلة الحسم. أو يكون من باب الابتلاء والتمحيص، إن كان قبل مرحلة الحسم. وإمَّا لتخلف شرط أو أكثر، أو وجود مانع أو أكثر مما سيأتي تفصيله في مبحث «سُنَّة الله في النصر والهزيمة».

وأخيراً، فإنَّ الغرض من إفراد هذه السُّنة ـ سنة المدافعة ـ بمبحث مستقل، هو التأكيد على أهميتها، وضرورة المراجعة الجادة لها، وإنزالها منزلتها اللائقة بها بين أسباب النصر والهزيمة، في الوقت الذي لا تزال الأمة الإسلامية تعاني من أزمات خانقة، وتجهل أو تتجاهل سرّ هزائمها المتتالية.

وإفراد هذه السُّنة بالحديث، لا يعني بحال، التهوين من شأن الأسباب الأُخر للنصر والهزيمة. كما لا يعني بحال، أن الأمة المسلمة تمنح النصر وتكفى الأذى، لأنَّها الأمة المسلمة وكفى! كلا، لا هذا ولا ذاك.

إنَّ الإيمان والتزام الحق، سبب. ولكنه من أقوى الأسباب وأكثرها فاعلية على الإطلاق. وإذا اجتمع الإيمان والتزم الحق، مع الأخذ بالأسباب الأخر ـ وهي من مستلزماته ـ في أمة ما، فإنَّها تضمن النصر والتفوق بموجب الوعد الإلهي؛ لأنَّه اجتمع لها من أسبابه ما لم يجتمع لغيرها. والله تعالى أعلم.

* * *

---

(١) وقد علمتَ أنَّ من خصائص السُّنن: أنَّها جماعية لا فردية.

سنة الله في النصر والهزيمة

النصر والهزيمة هما نتيجة (المدافعة) بمعناها الأعم، بين قوى الأرض المختلفة بصفة عامة، وبين الحق والباطل بصفة خاصة.

وإذا كنا قد تبيَّنا في المبحث السابق معنى المدافعة، وأنها ضرورة لا بد منها، ووقفنا على أسبابها ومظاهرها، وعرفنا أن المدافعة التي تبني ولا تهدم، وتشكل حجر الزاوية في تقدم الإنسانية وبقائها، أنها مدافعة الباطل بالحق.

إذا كنا قد تبيَّنا ذلك، فإنَّ خلاصة ما انتهينا إليه هو معرفة أسباب ذلك الصراع وميادينه، والعوامل التي تحكمه. وبقي أن نعلم الأسباب والعوامل التي تحكم نتائجه ونهاياته. وهذه النتائج والنهايات لا تعدو أن تكون نصراً أو هزيمة، وهي ما تضمنه هذا المبحث: «سنة الله في النصر والهزيمة».

وقبل الدخول في تفاصيل هذه السُّنة، لا بد أن نعرف معنى النصر والهزيمة في اللغة، ودلالاتها في القرآن الكريم.

ولبيان ذلك أقول:

النصر والهزيمة كلمتان متقابلتان في دلالتهما من الناحية الاصطلاحية، فالنصر ضد الهزيمة ومقابلها. وأصل النصر: العون والمنع، وأصل الهزيمة: من الهزم، وهو غمز الشيء اليابس حتى ينحطم، فهي بمعنى الحطم والكسر[1].

وللنصر عدة معانٍ ذكر أشهرها في كتاب الله تعالى:

«**أحدها**: المنع. ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦].

وفي الشعراء: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣]؛ أي: يمنعوكم من عذاب الله.

وفي المؤمن: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]. وفي الصافات: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥].

(١) مفردات الراغب، مادة (نصر)، (هزم).

والثاني: العون. ومنه قوله تعالى في الحج: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]. وفي الحشر: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١]. وفي سورة محمد ﷺ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

والثالث: الظفر. ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]. ومثله في آل عمران [آية: ١٤٧].

والرابع: الانتقام. ومنه قوله تعالى في الشورى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ [الشورى: ٤١]. وفي سورة محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد: ٤]. وفي القمر: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠][(١)].

ومن هذه المعاني اللغوية، يتضح معنى النصر، وأنه ليس له صورة خاصة ومعنى واحد[(٢)].

بل أي صورة وأي معنى تحقق في عالم الواقع، سواء كان تحققه حسياً أو معنوياً، فإنه يُعَدُّ نصراً، وصاحبه منصوراً، خصوصاً في جانب المؤمنين، وإن بدا لأكثر الناس بخلاف ذلك[(٣)].

وإذا كان النصر أو الهزيمة يقعان للأمة أو الجماعة نتيجة «المدافعة والصراع»، فإنهما لا يقعان إلا بأسباب معقولة معلومة لنا نحن البشر، ثابتة مطردة، يمكن اعتبارها والقياس عليها، وإن اختلفت الأمم والجماعات البشرية في إدراكها والعمل بما تقتضيه.

ومجموع هذه الأسباب والعوامل، يساوي: السنة الإلهية في النصر أو الهزيمة. وقد جاءت هذه السنة مفصلة مبينة في كتاب الله تعالى أحسن تفصيل وبيان.

وقبل البدء في تفصيل الأسباب واستعراضها، أنبه إلى أمرين تجدر ملاحظتهما:

الأول: أن سبب النصر، تركه يكون سبباً في الهزيمة، والعكس.

---

(١) انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، ص ٥٨٦، ٥٨٧ ، ومنه نقلتُ بتصرف يسير. وانظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ـ دراسة وموازنة، للدكتور/ سليمان بن صالح القرعاوي، ص ٦١٨.
ومن معاني النصر، غير ما ذُكِر: أنه قد يطلق على الغيث، يُقال: نصر الغيث الأرض؛ أي: غاثها، وعلى العطاء. انظر: اللسان، مادة (نصر)، وبصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي (٥/ ٦٩).

(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٢/ ٥٩٥).

(٣) ولعله قد اتضح لك شيء من ذلك عند الحديث عن (سنة الله في المدافعة عن الذين آمنوا)، ويمكنك مراجعة كتاب: حقيقة الانتصار، للدكتور/ ناصر العمر.

والقرآن يذكر هذا تارة وهذا تارة، وربما يذكر السبب وما يقابله، وإن كان ذكره للأسباب الجالبة للنصر بالنص عليها أكثر من ذكر الأسباب التي تنتج الهزيمة.

الثاني: أن القرآن قد عنى بذكر الأسباب الجامعة وإبرازها، وهذا هو الأصل. وربما ذكر بعض التفاصيل الهامة عند بعض الأسباب.

إذا علم هذا، فينبغي أن يُرد إلى كل سبب ما يندرج تحته أو يتفرع عنه من الأمثلة والأسباب والوسائل التي تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال.

أمَّا الأسباب والعوامل التي تحكم نتيجة المدافعة والصراع بين الأمم والجماعات البشرية في ميادين الحياة المختلفة، فهي على التفصيل كثيرة، وهي إما أسباب معنوية معقولة، أو محسوسة مشاهدة.

وبين هذه الأسباب المادية والمعنوية تأثر وتأثير متبادل، وبينهما تكامل وتآزر، بحيث لا يغني شيء عن شيء.

وسأفصِّل في الصفحات التالية كلا النوعين، وأبدأ ببيان العوامل المعنوية للنصر والهزيمة.

* * *

العوامل المعنوية للنصر والهزيمة

وابتدأت بها ؛ لأهميتها ، ولأنها تسبق العوامل المادية والمحسوسة في الوجود عادة ، ولأن الأسباب المادية لا تؤدي وظيفتها في أمة أو جماعة فقدت قوتها المعنوية . ولله در القائل:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرامُ

وتشكل هذه العوامل المعنوية حجر الزاوية في كسب المعارك وتحقيق الانتصارات في الميادين العسكرية والفكرية .

ومن مظاهرها الدَّالة على وجودها ، والتي لا تكاد تتخلف ، وإن تفاوتت قوة وضعفاً بحسب حال الأمَّة:

* الطمأنينة في القلوب والسكينة التي تغمر النفوس في الشدائد والأزمات ، وأخصها أيام الحروب وفي ساحات القتال .

* الشجاعة النادرة والإقدام في غير تهيب ولا تردد .

* الصبر والمصابرة والثبات وعدم اليأس .

وللقوة المعنوية أسباب وعوامل ، توجد بوجودها ، وتختل باختلالها ، وتذهب بذهابها .

وأهم هذه الأسباب والعوامل ما يلي:

الإيمان بمبدأ وعقيدة ، والشعور بقدسية الدفاع عن ذلك .

وهذا من أقوى الأسباب وأهم العناصر في رفع معنويات الأمة والجند ؛ ذلك لأنَّ للعقائد سلطاناً أيّما سلطان على القلوب والمشاعر ، وبقدر إيمان الأفراد وقناعتهم بها ، تكون قوتهم المستمدة منها ، ويكون بذلهم وتفانيهم في سبيلها .

والعقائد والمبادئ على ضربين:

الضرب الأول: العقائد والمبادئ السماوية ، وهي إما صحيحة معتبرة ، أو محرفة مبدَّلة ، ولكن بقيت منها رسومها ، وبقيت في الأمة عاطفة وانجذاب نحوها ، وحمية دونها .

والضرب الثاني: مبادئ وعقائد أرضية، وهي إما ملفقة من أديان سماوية بعد أن شوهت وحرّفت، وإما أفكار فلسفية قامت على أساس إنساني أو نفعي، محاولة تفسير ظواهر الوجود.

أمّا العقائد والمبادئ السماوية الصحيحة، فلها في باب النصر والهزيمة شأن خاص، وهي تستقل بخصائص ومميزات، ولا تدانيها أية عقيدة أو مبدأ، فهي في ذاتها حق؛ لأنّها من عند الله، وهي التي تنصر الحق المطلق، وتستقل بتمثيله في الوجود؛ لأنّها منزلة من عند الله، ومعتنقوها يأتمرون بأمر الله، على خطى رسله وأتباعهم من المؤمنين على طريقتهم.

ومن خصائصها التي لا يشاركها فيها أي مبدأ أو عقيدة أخرى، حتى السماوية المحرَّفة:

ـ أنَّ النواميس الكونية والسُّنن التي تحكم الطبيعة المادية تنخرق لتحقيق النصر لأهلها.

ـ أنَّ القِلَّة والكثرة العددية معها، ذات قيمة محدودة، وليس الأمر كذلك مع غيرها.

ولأهمية الإيمان بالله والالتزام بشريعته، وأثرها البالغ في منح القوة المعنوية وتحقيق النصر، أفردتها بمبحث خاص[1]؛ لأنها بذاتها تمثل سُنَّة مستقلة.

وإذا ما تجاوزنا الإيمان الصحيح بالله والالتزام بشرعه، باعتباره شيئاً فريداً في صناعة النصر، وطاقة فذة تمنح الفرد والأمة قوة باهرة ومعنوية عالية. إذا ما تجاوزنا ذلك، فإنّنا نجد الأمة ذات العقيدة والمبدأ ـ الباطل على أية حال ـ تتميَّز بقوة ومقاومة أكثر، وتتمتع بمعنوية أعلى، ويمكن استثارتها إذا جد الجد باسم عقيدتها التي تدين بها، ومبدئها الذي تجتمع عليه، فتبذل وتضحي وتصبر، بخلاف الأمة التي تعيش بلا مبدأ وتحيا بلا انتماء عقدي، فبأي شيء تستثار؟ ولأجل ماذا تبذل وتضحي وتصبر؟

ولهذا تحرص الأمم عبر التاريخ، على ربط أفرادها بمبادئ وعقائد تخدم مصالح الفئات التي تتزعم أمرها، ولا تكاد تستثار هِممها بشيء كما تستثار إذا خوطبت باسم العقيدة والمبدأ!

---

(١) هو مبحث: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾.

وإذا خرجت الأمة دفاعاً عن عقيدتها ومبادئها، فإنها تخرج بروح متوثبة وإصرار عجيب، بل وحنق على العدو لا يكاد يُوصَف؛ لأنَّ كل فرد فيها ـ فضلاً عن مجموعها ـ يرى أنَّه يخوض حرباً مقدسة، ويصارع من منطلق حضاري، وربما اعتقد ـ وهذا غير قليل وتذكيه الدعاية الماكرة ـ بأنَّ الله في صفه يبارك صنيعه، إلى غير ذلك من العوامل التي تلهب عاطفة الجندي فيندفع اندفاعاً ذاتياً. هذا الاندفاع الذاتي، هو حجر الزاوية في القوة المعنوية.

وأمثلة ذلك في القرآن الكريم كثيرة مشهورة، وخير من الإطالة في سردها أنبيك عن قاعدة تهتدي من خلالها إلى مظانها، وأسوق مثالاً أو مثالين بالمناسبة.

أمَّا قاعدة ذلك: فانظر في أحوال الأمم السابقة ممن فُصِّلَ خبرهم في القرآن، تجد الملأ المتنفذين فيهم كلما دهمهم أمر لا يد لهم في مغالبته، أو احتاجوا الأمة في مواجهة جماعية، تنادوا باسم الدين والآلهة للدفاع عنها وحمايتها، فيتم لهم ما يريدون!

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٤].

وبين في قصة إبراهيم ﷺ مع قومه، أن الملأ لما دحض إبراهيم حجتهم: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، ففعلوا ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وفي واقع هذه الأمة من ذلك، أمثلةٌ كثيرة.

هذه الحروب الصليبية الحاقدة مثلاً، ما كان لها أن تتم أو تصمد الكرَّة بعد الكرَّة لولا إذكاء العاطفة الدينية في نفوس النصارى، واستعدائهم على المسلمين على أيدي قسسهم وباباواتهم.

وفي شبه القارة الهندية، يدير الهندوس رحى حرب لا تخبو نارها، ضد المسلمين هناك بقصد إفنائهم، وإلا فهم لا يتمتعون إلا بأقل القليل من حقوقهم، كل ذلك لحماية ديانتهم، ودفع البديل الحضاري الذي يمكن أن ينافسهم(١).

---

(١) وما مذبحة آسام الهندية عام ١٤٠٣هـ، وهدم المسجد البابري في مدينة أيوديا سنة ١٤١٣هـ، وما صاحب ذلك وتلاه من مجازر إلا مجرد شواهد لما عايشناه نحن... وما أحداث كشمير المتطاولة عنّا ببعيد.

وبالجملة فإنَّ العقائد والمبادئ تمنح الأفراد والأمم قوة، وترفع معنوياتها ؛ لأنَّها تضعها أمام مسؤولية محددة، يشترك في حملها والذود عنها الفرد والجماعة، وبقدر إيمانها وقناعتها بها، تكون قوة الأمة المعنوية .

ومما يزيد في إيمان الأمة بمبادئها، وتعلّقها بها:

ـ وضوح هذه المبادئ في أذهان الأفراد، وبساطتها وانسجامها .

ـ والعزيمة والحزم في تربية الأمة عليها، وتسخير الوسائل كافة لخدمتها، وغرسها في نفوس الناشئة، وربط تحركات الأمة بها .

ـ والحيلولة بين الأمة وبين المؤثرات الأجنبية أن تزاحمها، لا في القلوب والمشاعر فحسب، بل في كل ميدان من ميادين الحياة .

* **ومن عوامل قوة الأمة المعنوية:** سمو الهدف وعدالة القضية التي تحملها وتدافع عنها .

فالأمة المتسلطة الظالمة، التي يحدوها الغرور وحبّ التسلّط، ويخرجها البطر والرياء، والصدّ عن سبيل الله، واستعباد الآخرين ونهب ثرواتهم والاستيلاء على ديارهم . . . الأمة التي هذه ـ أو بعضها ـ من دوافعها في حروبها وصراعها، يخالط جنودها ـ غالباً ـ من الزهو والاستهتار والاغترار بالقوة، واعتقاد أن النصر لا يمكن أن يخرج عنهم ما يخالطهم . وهذه تعمل عملها في نفوسهم، وتصبح معنوياتهم مرهونة بنجاح آلتهم العسكرية .

يقاتل الواحد منهم وكل همّه أن يحيا ليعود إلى ما كان فيه من متعة ولهو . وهذا بخلاف الأمة أو الجماعة التي تخرج مدافعة عن حق مشروع لها، أو لرفع ظلم واقع عليها أو نحو ذلك . فإنّها تخرج مستشعرة حاجتها إلى توحد كلمتها، مدركة حجم قوة عدوها، تخرج وهي صاحبة حق، وطالبة ثأر . تشعر بأنها مظلومة لا ظالمة، غير معتدية بل معتدى عليها، يقاتل الجندي فيها ليدافع عن وجوده . . . وشتان بين الحالين!

هذا من ناحية التحليل النفسي البحت . وأمَّا من الناحية الشرعية، فإنَّ من حكمة الله وعدله، أنه ينصر المظلوم على من ظلمه، ويخذل المتكبّر الباغي، أيا كان هؤلاء وأولئك[1] .

---

(١) هذا إذا لم توجد أسباب وموانع أُخَر تغير من نتيجة المواجهة والمدافعة .

وقد بيَّنَ الله ذلك بقوله محذراً المؤمنين: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ الأنفال: ٤٧] .

وأخبر أنه لا يحب المعتدين ، ناهياً عباده أن يكونوا كذلك: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[البقرة: ١٩٠] . وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦] .

جاء في السيرة في خبر وفد بني الحارث بن كعب على رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ قال لهم فيما قال: «بِمَ كُنتُمْ تَغْلِبُونَ مَنْ قَاتَلَكُمْ في الْجَاهليَّة؟» ، قالوا: لم نكن نغلب أحداً . قال: «بلى» . قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحداً بظلم . قال: «صَدَقْتُم»[(١)] .

أقول: وإذا كان هؤلاء يغلبون من قاتلهم ؛ لأنهم لا يبدأون أحداً بظلم ، فلأن ينتصر ويغلب من غايته وكل همه أن يرفع الظلم الأكبر من الأرض ، ويمنع الفتنة الكبرى ، ويدلّ الخليقة إلى ربها . . . لأن ينتصر مَنْ هذه حاله أولى ، وليس ذلك لأحد إلا للمسلمين الصادقين .

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦] . وقال: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الأنفال: ٣٩ ، ٤٠] . وقال سبحانه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] .

ومن أسباب القوة المعنوية للأمّة: عدم الاغترار بالقوة والكثرة أو الإعجاب بها .

وإن شئت فقل: إنّ من عوامل انهيار معنويات الأمة: إعجابها بكثرتها واغترارها بقوتها . حتى وإن كانت خرجت لتقيم الحق والعدل ، فضلاً عن كونها معتدية معادية للحق .

---

(١) انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (٤/ ٣١٩) ، وقال محققا السيرة: إنّ الخبر ضعيف ؛ لأنّ طريق ابن إسحاق لم يصرح فيه بالسماع ، والطريق الأخرى عند ابن سعد في طبقاته (١/ ٢٣٩ ، ٢٤٠) فيها الواقديّ ، وهو ضعيف . وانظر: زاد المعاد (٣/ ٦٢٢) . ولكن معنى الخبر صحيح ، والأسباب التي ذكرها الوفد أسبابٌ تشهد لها النصوص الأخرى من الكتاب والسُّنة ، وهي مقتضى العقل .

وسرّ ذلك ـ والله أعلم ـ: أن نظر الجندي إلى ما يسنده من قوة ، يصيبه بالاسترخاء ، فيستهين بقوة الخصم ، ولا يرى نفسه في حاجة إلى أخذ الحيطة والحذر اللازمين . . . هذه النظرة تبدأ من الجندي الفرد ، وتنتهي بالأمة كلها من ورائه .

قال تعالى واصفاً حال المؤمنين يوم حنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] .

ومما يورث الأمة قوة معنوية: التلاحم الصادق بين القيادة والشعب بين القيادة والقاعدة . وفي أيام الحرب بين القائد والجند بصفة خاصة . وهذا سبب عظيم من أسباب قوة الأمة ، وانتصار جنودها على أعدائهم . فما برهان وجود هذا التلاحم؟ وما الطريق إلى إيجاده إن لم يكن موجوداً؟

أمّا برهان وجوده في الأمة والجند: فحصول الطاعة الاختيارية والانقياد ، وآيته عدم التنازع والاختلاف ؛ أي اجتماع الكلمة ووحدة التوجُّه .

ولهذا أمر الله بالطاعة ، وعطف عليه النهي عن التنازع بقوله:﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] .

إنَّ سيادة روح الطاعة ، والانقياد وترك التنازع والاختلاف ، ضرورة لتحقيق النصر ودرء خطر الهزيمة ، ليس فقط بين أفراد الجند (الجبهة الخارجية المباشرة للعدو) بل بين أفراد الأمة عموماً (الجبهة الداخلية) .

وإذا فشلت الأمة في إشاعة هذه الروح ، ذهبت ريحها ، ووجد أعداؤها ثغرة ينفذون منها لتفريق كلمتها وضرب بعضها ببعض .

إنّها وحدة الكلمة والصف التي كانت وراء انتصارات وفد بني الحارث بن كعب . كما في الخبر السابق ، حيث قالوا: «كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم» . قال ﷺ: «صدقتم»(١) .

وأمّا الطريق إلى إيجاد هذا التلاحم، فأمورٌ، أهمها:

---

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة .

* **قيام أمر الأمة على مبدأ الشورى في كل شئونها**، في الحرب والسلم؛ إذ من المعلوم أنَّ الأمة إذا اختارت شيئاً وارتأته، اندفعت بطبيعتها لتحقيقه والدفاع عنه، لأنَّها حينئذٍ تحقق ذاتها، وتدافع عن اختيارها ورأيها، بخلاف ما إذا كانت لا رأي لها ولا اختيار، بل فكيف إذا كان رأيها بخلافه، وإرادتها على الضد منه؟!

وقد جاء الأمر بالشورى والمشاورة في القرآن الكريم في سياق السلم والحرب.

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فقد جاءت في سياق الحديث عن غزوة أحد.

ومن أسباب التلاحم:

* **أهلية القيادة وكفاءتها، في السلم والحرب**؛ لأنَّ الجندية طاعة[(١)]، والطاعة مبناها على القناعة، والقناعة تخلقها الأهلية والكفاءة في القائد.

وكفاءته تكون: باستعداده الفطري بأن يكون مجبولاً على الشجاعة وكريم الخلال، وسعة علمه وخبرته بشئون ما رَأسه، وهذا الذي يكون به حُسْن التدبير. وبسطة الجسم المستلزم لكمال قواه العقلية وسلامة تفكيره[(٢)].

قال تعالى في قصة الملأ من بني إسرائيل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

ولله درّ الشاعر العربي حيث قال في صفات الجدير بالاختيار لزعامة الأمة وقيادتها:

فقلدوا أمركم لله دركموا	رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده	ولا إذا عض مكروه به خشعا

---

(١) وأعني بها: الطاعة المبصرة، الطاعة الذاتية الاختيارية. أمّا الطاعة العمياء، فلا تحتاج إلى أكثر من سياط تلهب الظهور، وعقوبات متنوعة ليس الموت بأشدها أذى لكل من لا ينفذ قبل أن يسأل أو يناقش، وهذه الطاعة لا ترفع المعنويات، بل تقتلها!ولا تخلق تلاحماً، بل تزرع ضغينة وحقداً!

(٢) انظر: تفسير المنار (٢/ ٤٧٧).

وليس يشغلــه مــال يثمــره عنكم ولا ولد يبغي به الرفعا[(١)]

والجندي يشعر بالغبطة وهو يطيع قائده الكفء، ويتفانى لأنه يرى قدوته أكثر تفانياً منه.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كنا في المعارك إذا حمي الوطيس واحمرّت الحدق واشتدّ القتال، كنا نتقي برسول الله ﷺ، ولم يكن أحد أقرب إلى العدو منه».

وقال بعض الصحابة: «كان أشجعنا يكون خلف رسول الله ﷺ»[(٢)].

ومن أسباب القوة المعنوية الجالبة للنصر: الصبر والمصابرة.

وهو تاج الأسباب وركن ركين في النصر، وهو قبل الأسباب ومعها؛ إذ كل سبب لا بد في تحقيقه من التحلّي بالصبر، ولا بد مع اجتماعها من الصبر على لأواء الحرب، وشدتها، ومصابرة العدو حتى ينفد صبره وتخور عزيمته، وإلا ذهب كل شيء وبطل كل جهد.

والصبر ملكة الثبات والاحتمال، التي تهوّن على صاحبها كل ما يلاقيه[(٣)] في سبيل تحقيق مراده. وهو يُذكر في القرآن تارة بلفظه، وتارة بلازمه أو نتيجته، أمراً به أو نهياً عن ضده.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

فأمرهم ـ جل وعلا ـ بالثبات، وهو لا يكون إلا بصبر، أو هو الصبر في موقف خاص.

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

---

(١) الأبيات من قصيدة للحكيم الجاهلي: لَقيط بن يَعْمر الإياديّ، الشاعر. بعث بها إلى قومه وهو في بلاط كسرى ينذرهم إغارة فارس عليهم. ومطلعها:

يا دار عمرة من محتلها الجرعا هاجت لي الهم والأحزان والوجعا

وهي قصيدة طويلة، تُعَدُّ من عيون الشعر العربي. انظر: ديوان لقيط بن يعمر، ص ٢٧ وما بعدها. والأعلام (٥/ ٢٤٤).

(٢) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير (٦/ ٥٩). و«عوامل النصر والهزيمة»، لشوقي أبو خليل، ص٢٢.

(٣) تفسير المنار (٢/ ٣٥).

وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۞ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

والصبر، وإن كان لكل من اتصف به نصيب منه، إلا أن المؤمنين أتم من غيرهم فيه، وللصابرين منهم مزيَّة على من عداهم، و﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [الجمعة: ٤].

قال تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ ﴾ [الأنفال: ٦٥]. وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ ﴾ [الأنفال: ٦٦]. حتى مع صبرهم.

وامتداحُ الصبر، وتمدُّحُ العرب به، وكونه من سيما الشجعان ومفخرة الأبطال شيء معروف، والعرب كثيراً ما تقرن بين الصبر والشجاعة وبين العفَّة، كما في قول عنترة [(١)]:

يخبرك من شهد الوقيعـــة أنني ... أغشى الوغَى وأعفّ عند الْمَغْنَمِ

وقوله أيضاً:

إنا إذا احمرَّ الوغى نروي القنا ... ونعف عند مقاسم الأنفال [(٢)]

ومن الأسباب المعنوية الجالبة للنصر: الوفاء بالعهود والمواثيق وعدم الغدر والخيانة[(٣)].

وهذا عام في زمن السلم والحرب، وفي حال قوة الأمة وضعفها.

ومعلوم أن الوفاء بالعهود والمواثيق، واجبٌ وأمانة مرعية، وأن الغدر والخيانة ظلمٌ يجلب الدمار على الأفراد والأمم.

---

(١) هو: عنترة بن عمرو بن شداد العبسي، كان لأَمَةٍ سوداء، استعبده ابوه على طريقة الجاهليين، ثم ادَّعاه لما ظهرت مخايل شجاعته في بعض المواقع التي اغار فيها بعض أحياء العرب على قومه العبسيين، ومن قوله يفخر بنفسه:

إني لتعرفُ في الحروب مواطني ... في آل عبس مشهدي وفعَالي

منهم أبي حقـــا فهُمْ لي والــــد ... والأم من حَام فهم أخـــوالي

والبيت في معلقته المشهورة. انظر: الشعر والشعراء، لابن قُتَيْبَة، ص ١١٠.، وشرح المعلقات السَّبع، للزوزني، ص ١٤٧.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٦٢).

(٣) انظر: تفسير المنار (١٠/ ١٤٠).

ورعاية العهود والمواثيق، وعدم الغدر والخيانة عند غير المسلمين الصادقين، مرهونة بمصالحهم لا بحرمة العهود والمواثيق في ذاتها، إلا ما ندر.

ومما يدلُّ على وجوب الوفاء بالعهود وحرمة الغدر والخيانة، أيا كان العدو المعادي لنا: «أنَّ الله تعالى لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين من الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢] »[1].

بل حتى القوم الذين لا يؤمن جانبهم، ويخاف منهم نكث العهد وخيانة الميثاق، لا ينبغي أن نعاجلهم بخيانة من جانبنا، وإنَّما ننبذ إليهم عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ بلا مخادعة.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

ومما يدل لذلك أيضاً: أمر الله بإتمام عهد المعاهدين إلى مدتهم، ما لم يبدأوا هم بنقضه.

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

تلك هي أهم الأسباب المعنوية الجالبة للنصر بصفة عامة.

وهي أسباب يمكن أن توجد عند أية أمة أو جماعة، وإن كان المسلمون الصادقون أسعد بهذه الأسباب من غيرهم، وأكمل حالاً فيها، بل هم أحق بها وأهلها. إن كانوا صادقين.

وبقي من أسباب القوة المعنوية، أسباب خاصة بالمؤمنين لا يشركهم فيها غيرهم، زيادة في تثبيتهم، وتمييزاً لهم عن غيرهم بما تميَّزُوا به من نُصْرَة الحق. وهذه الأسباب ـ في حقيقة الأمر ـ هي من لوازم الإيمان ومقتضياته.

وهي أسباب عظيمة القدر ذات تأثير بالغ في باب النصر والهزيمة، ومنها:

*** ذكر الله ودعاؤه في كل حال وعند لقاء العدو بصفة خاصة:**

(١) تفسير المنار (١٠/ ١٤٠، ١٤١).

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

اذكروه بألسنتكم بأنواع الذكر والثناء، واسألوه التثبيت وأن يمنحكم أكتاف عدوكم. واذكروه بقلوبكم بتذكر قوته التي لا تغلب، ووعده الذي لا يخلف بنصركم والكون معكم على عدوكم.

وأكمل صور الذكر: أن يتواطأ القلب واللسان، وتظهر على الذاكر علائم الذل والافتقار(١).

وذكر الله عند لقاء العدو، دليلٌ على أهمية الذكر وعظيم أثره في تثبيت القلوب التي تثبت بثباتها الأقدام، فإنَّ الذكر يفيض على القلوب طمأنينة وقوة لولاه ما حصلت.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

وإذا اطمأنت القلوب، ثبتت الأقدام، واشتدَّت السواعد، ولم تزغ الأبصار؛ لأنَّها إنَّما تزيغ بسبب الخوف والكرب(٢).

والذين يتذكرون الله عند لقاء العدو ويذكرونه كما أمرهم، أولئك خواص عباد الله الربانيون؛ لأنَّهم ذكروا الله في موطن تذهب فيه الألباب وتذهل فيه العقول، فهو ـ سبحانه ـ عندهم أقرب مذكور وأعظم مأمول، وهم الذين يوهب لهم النصر.

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

وقال عن خواص قوم طالوت: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١].

---

(١) انظر: تفسير المنار (٩/٥٥٧).

(٢) وسيأتي لهذا المعنى مزيد بيان في مبحث: (الإيمان مصدر القوة والطمأنينة)، في الفصل الخامس، بإذن الله تعالى.

ثم إنَّ الجهر بذكر الله من جميع المقاتلين يفت في أعضاد العدو، وهو حسن في مثل هذه الحال[١].

* **ومن أسباب النصر التي اختص الله بها المؤمنين: طاعة الله ورسوله في كل الأحوال**[٢].

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

والأمر بطاعة الله ورسوله، وإن كان مذكوراً في هذه الآية في سياق الأسباب الجالبة للنصر، إلا أن معناه أعم وأشمل.

ولا شك أن طاعة الله ورسوله في شئون الحرب وطاعة الإمام الذي يقاتل المسلم تحت لوائه، وطاعة قواده[٣] في طاعة الله... أن طاعتهم داخلة في عموم الأمر في هذه الآية بلا شك.

بل أقول: إنَّ الطاعة في الحرب تختلف عن السلم، فلا بد فيها من الطاعة التامة الفورية، بصورة جماعية. وإن لم يفعلوا ذلك خسروا الحرب، وربما خسروا أنفسهم، وخسرت أمتهم من ورائهم.

والجندي المسلم حينما يقدم هذه الطاعة، لا يقدمها على أنها طاعة تقتضيها المصلحة فحسب، كما هي حال الجندي من غير المسلمين، إنَّما يفعل ذلك على أنه طاعة لله ورسوله ﷺ. فهو يطيع الأمر ديانة وتقرُّباً إلى الله، والمصلحة العامة داخلة في ذلك، بل ذلك عين المصلحة. وبهذا تميَّزت الطاعة لله ورسوله ﷺ، فالطاعة بحد ذاتها سبب للنصر، وكونها طاعة لله ورسوله ﷺ سبب آخر من أسباب النصر.

لكنني أقول أيضاً: إنَّ طاعة المسلمين في الحرب لقائدهم، لا تغني عن طاعتهم لله ورسوله في زمن السلم، فضلاً عن زمن الحرب؛ لأنَّ الجند جزء من الأمة، وهم إنَّما يدافعون عنها. وصلاح الأمة واستقامتها على أمر الله سبب في نصر جندها، وإن كان فيهم نوع تقصير. فحال الأمة شديد الارتباط بنتيجة الحرب، في كل أمة، وعندنا نحن المسلمين بصفة خاصة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٨/ ٢٤).
(٢) وهي أعم وأشمل من تلك الطاعة التي هي ثمرة للتلاحم بين الرعية والوالي، أو بين الجند والقائد.
(٣) تفسير المنار (١٠/ ١٤٢).

قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

فجعل النصر مشروطاً بالقيام بأمر الله بعد حصوله. وقد جرت العادة أن الأمَّة إن لم تكن مستقيمة على أمر الله قبل النصر، فهي إلى ترك أمره بعد النصر وزوال الخطر أقرب وأشبه.

*** ومن أسباب النصر الخاصة بالمؤمنين: صدق التوكُّل على الله.**

وحقيقته ومعناه: تفويض الأمور إلى الله، والبراءة من كل حول وقوة إلا من حوله تعالى وقوته، مع فعل كل الأسباب الممكنة، والاجتهاد في تحصيلها. وأن تتعلَّق القلوب بالله لا بالأسباب، فهو موجدها، مع كمال الثقة به لا بالوسائل، فهو القادر على إبطال قدرتها وفاعليتها.

ولا يكون التوكُّل على الله حقيقة إلا من المؤمنين الصادقين في إيمانهم كالأنبياء وخواص أتباعهم، فهو من أخص خصائصهم.

قال تعالى حاكياً قيل أنبيائه: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢][١].

وصِدْقُ التَّوكُّل على الله يمنح المتوكلين قوة وثباتاً يعوض قلتهم، فلا يكترثون بكثرة عدد و لا عدة.

قال تعالى في خبر موسى ﷺ مع بني إسرائيل، مبيناً حال أهل التوكُّل منهم في الشدائد: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ

---

(١) وقد ذكر الله في كتابه في مواضع كثيرة، عن كثير منهم، أنهم قالوا ذلك وأعلنوا به، كلما تعالى عليهم الباطل وانتفش. انظر مثلاً: الأعراف ٨٩، ويونس ٧١، وهود ٥٤، ٥٦.

اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٣].

وحكى ـ سبحانه ـ عن فئة أخرى منهم وهم خلاصة من خرج مع طالوت: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩، ٢٥٠].

وقال أصحاب رسول الله ﷺ عندما خوّفهم الناس قريشاً وجمْعها: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

ثم بيّن ـ سبحانه ـ أن المؤمنين لا يليق بهم أن يخافوا أحداً إلا الله: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

بل هو شارة المؤمنين، ومحك اختبار صادق للمتوسمين، كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى على لسان موسى ﷺ امتحاناً لصدق إيمان من آمن معه من بني إسرائيل: ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٣، ٨٤].

ومما ينبغي التنبه له: أن كفاية الله للمتوكلين ونصرتهم، وخذلان عدوهم، لا تكون لمن أتى بصورة التوكل، أو تظاهر به ليستر عجزه وتقصيره. بل من كانت هذه حاله، فإنَّ الله يعامله بما هو أهله.

* ومما اختص الله به هذه الأمة من أسباب النصر: النصر بالرُّعب.

يقذفه الله في قلوب أعداء المؤمنين، فيسبق إليها الوهن والهزيمة قبل أن تطأ جيوش المؤمنين أرضهم.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ [الحشر: ٢]. وقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وقال ﷺ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهْرٍ . . .»(١).

وبالمقابل، فإنَّ الله تعالى ينزل السكينة في قلوب المؤمنين زيادة في تثبيتهم(٢)، كما قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤].

هذه بإيجاز أهم الأسباب والعوامل المعنوية التي من أخذ بها، وعمل على إيجادها من أمة أو قوم، كان خليقاً أن ينتصر إذا قاتل، ويستعيد مكانته، ويفرض على الآخرين احترامه وهيبته، بل ويحول الهزيمة إلى نصر، والضعف إلى قوة، والشتات والفُرْقَة إلى اجتماع ووحدة.

وهذه الأسباب مجتمعة تستلزم الأخذ بأسباب النصر المادية؛ لأنَّ بينهما من التلازم ما لا يخفى على المتأمل.

وإليك في الصفحات التالية أهم الأسباب المادية الجالبة للنصر.

* * *

(١) متفق عليه، من حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما. انظر: الفتح (١/ ٤٣٥)، كتاب التيمم، ح (٣٣٥). ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ح (٥٢١).

(٢) لم أتعرض لمظاهر النصر التي يمنحها الله للمؤمنين إذا أتوا بأسباب النصر؛ لأنها لا تنحصر، وقد ذكرتُ نماذج منها في مبحث: (مدافعة الله عن المؤمنين).

الأسباب المادية للنصر

إذا كانت أسباب النصر المعنوية من الأهمية بمكان كما بيَّنت من قبل، فإنَّ الأسباب المادية لا تقل أهمية عنها، بل هي من لوازمها، فقوَّة الأمَّة المعنوية تستند في جانب كبير منها إلى قوتها المادية.

إنَّ البشرية في أجيالها المتعاقبة في ظل الجاهليات ـ أيا كانت ـ تتحرك بدافع المصالح الذاتية، لا بدافع المبادئ والأخلاق، وإن زعمت خلاف ذلك، بل وإن كانت تنتسب إلى أديان وتفاخر بقيم، لكن لا أثر لها في سلوكها المدني، فضلا عن علاقاتها بالآخرين. إنها تحترم القوة ولا تفهم إلا لغتها، وإن خيل إلى البُسطاء أن الأمم في ظل الحضارات المتعاقبة تهذبت أخلاقها فصارت تحترم القوانين، وتقيم وزناً للعهود والمواثيق!

والله الذي خلق الإنسان، يعلم أنَّ العدوان وحب التسلّط، شيء مركوز في طبيعته، لا يتركه إلا إذا عجز عنه، ما لم تهذبه الشرائع، وتؤدبه الرسالات السماوية.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفّة فلعلة لا يظلم

وقد جعل الله الظلم وصفاً لجنس الإنسان الذي من شأنه أن يحمل أمانة التكليف ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقد قضى ـ سبحانه ـ أن الحق لا يستقر في الأرض، ويمد رواقه ويبسط على الناس سلطانه إلا بقوة تحميه وتدافع عنه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

فما هي الأسباب المادية التي اقتضت السنن الإلهية في الأمم أن من أخذ بها تحقق له من الغلبة والنصر بقدر ما معه منها، وبقدر ما يسندها من أسباب القوة المعنوية بطبيعة الحال.

وإجابة عن هذا السؤال أقول:

هذه الأسباب هي الأخرى مذكورة في كتاب الله تعالى، والقرآن يذكرها بصيغ جامعة لا يشذ منها شيء، ويندرج تحتها كل ما جدَّ ويجدّ من الوسائل.

فمن الأسباب المادية الجالبة للنصر: إعداد ما يُستطاع من القوَّة.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

والأمر بإعداد القوة في هذه الآية عامٌّ، فيدخل فيه كل وسيلة أو سبب حِسّي أو معنويّ يُحقق للأمة شيئًا من القوة، ولا وجه لتخصيص نوع من أنواع القوة بالأمر دون سائرها[١] .

قال أبو حيان عند هذه الآية: (والظاهر العموم في كل ما يتقوى به على حرب العدو مما أورده المفسرون على سبيل الخصوص، والمراد به التمثيل؛ كالرمي وركوب الخيل، وقوّة القلوب واتفاق الكلمة، والحصون المشيدة وآلات الحرب وعُدَدِهَا والأزواد والملابس الباهية، حتى إن مجاهدًا[٢] رُؤِيَ يتجهَّز للجهاد وعنده جُوال[٣] فقال: هذا من القوة)[٤] .

(ويدخل في ذلك عدد المقاتلة)[٥] وإعدادهم روحيًا وفكريًا وأخلاقيا، وتربيتهم على الشجاعة والصبر، وبَثّ روح الجهاد فيهم... إلى آخر ما يتصل بذلك ويتفرع عنه.

(ويدخل فيه السلاح، وهو يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال... ويدخل فيه الزاد ونظام سوق الجيش... وغير ذلك من العلوم والفنون الكثيرة)[٦] .

وإعداد القوّة يكون قبل الحرب ـ وهو المهم ـ وأثناءها، وبعدها؛ لأن الحروب لا تكاد تنقطع عن الأمة إلا بأن تكون مرهوبة الجانب، وهي لا تكون كذلك إلا باستمرار قوتها المادية بالإعداد المتواصل. وعلى هذا المعنى تدل آية: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم﴾ التي نحن بصدد الحديث عنها، فإنها نزلت بعد غزوة بدر الكبرى، وتحقق النصر للمؤمنين، وإليه

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٠/ ٣٢).

(٢) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم، تابعي إمام في التفسير، أخذه عن ابن عباس، يقرأ عليه القرآن ثلاث مرات، يقفه عند كل آية يسأله عنها. توفي سنة (١٠٤هـ)، وقيل: غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٤٩)، والأعلام (٥/ ٢٧٨).

(٣) نوع من الكساء.

(٤) البحر المحيط (٤/ ٥١١)، وانظر: تفسير ابن جرير (١٠/ ٣١).

(٥) تفسير المنار (١٠/ ١٣٩).

(٦) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

أشارت الآية نفسها ، وذلك بقوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

ولإعداد القوة اللازمة ، لا بد من الإنفاق وبذل الأموال ، وهذا هو:

السبب الثاني من الأسباب المادية الجالبة للنصر: الإنفاق وبذل الأموال.

فالمال عصب الحياة ووقود الحروب ، وهو الطريق إلى امتلاك القوة المادية ، ولهذا ختم الله به الآية التي فيها الأمر بإعداد القوة ؛ لأنه الوسيلة إلى تحصيلها .

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الآية ، ثم قال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

ويكفي دليلاً على أهمية الإنفاق على الجهاد والمجاهدين أن جعل الله له مورداً ثابتاً وحقاً مشروعاً لا فضل لأحد فيه ؛ إذ جعله أحد مصارف الزكاة .

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠] . فإنَّ قوله سبحانه: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: وفي النفقة في نصرة دين الله وطريقه وشريعته التي شرعها لعباده بقتال أعدائه ، وذلك هو غزو الكفار(١) .

وهذا غير الترغيب في الإنفاق في سبيل الله بصفة عامة ، وغير كونه داخلاً دخولاً أولياً في أموال الفيء والخُمُس إذا كان ثمة حاجة إليها(٢) .

ويدخل في الإنفاق في سبيل الله: بناء المعاهد والمدارس العسكرية والتدريب وإعداد البحوث والخطط . . . وكل ما من شأنه تقوية الجانب العسكري ، فإنَّه من لازمه وطريق إليه .

وكما رغَّب القرآن في الإنفاق في سبيل الله كما في الآية السابقة وغيرها ، فقد حذَّر من البخل أو التقصير فيه ، ففي سورة البقرة ، قال سبحانه بعد آيات في أحكام القتال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] (٣) .

---

(١) تفسير ابن جرير (١٠/ ١٦٥) .
(٢) انظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٢/ ٧٢٧) .
(٣) تفسير المنار (١٠/ ١٤٠) .

وذم المنفقين في غير سبيله، بل للصدِّ عن سبيله بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ومن الأسباب الجالبة للنصر: أخذ الحيطة والحذر.

وهذا أيضاً سبب عام، تدخل تحته أسباب مادية ومعنوية كثيرة.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾[النساء: ٧١].

فالاستعداد قبل المعركة بالجنود والسلاح، من أخذ الحذر والحيطة[١].

واليقظة التامة أثناء المعركة، من أخذ الحيطة والحذر.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ ﴾ [النساء: ١٠٢].

فأمرهم الله بأخذ الحذر في كل الأحوال، في حال أداء العبادات، وفي حال تغيّر الظروف التي تعوق سير المعركة، وتكون سبباً في إلقاء السلاح.

ومعرفة قدرة العدو وإمكاناته[٢] لتحديد الخطوات اللازم اتخاذها، من أخذ الحيطة والحذر، وأمة تقاتل عدوها دون معرفة قدراته واستعداداته، أمة أقرب إلى الهزيمة منها إلى النصر[٣].

ومن أخذ الحيطة والحذر: سرية التحركات والاستعدادات[٤]؛ بحيث لا يستطيع العدو التنبؤ بما ستكون عليه الحرب، ولا بحجم القوة المُرْصَدة له، وبهذا تحصل

---

(١) وقد سبقت الإشارة إلى هذا السبب.
(٢) عوامل النصر والهزيمة، ص ١٦.
(٣) عوامل النصر والهزيمة، ص ١٧.
(٤) عوامل النصر والهزيمة، ص ١٩.

مباغتته. وأسلوب الكرّ والفرّ من ذلك[١].

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «الحرب خدعة»[٢].

ومن أخذ الحيطة والحذر: التصنيع المحلي والاكتفاء الذاتي[٣]، فيما يتعلق بالسلاح، أو المؤن والذخائر خصوصاً، وما يتعلق بغيرها عموماً. بحيث لا تفرض على الأمة حرب، ويمنع منها السلاح الذي تقاوم به[٤].

وأمَّة لا تملك من العتاد الحربي إلا ما تبتاع من أعدائها، ولا تحسن استخدامه إلا بمعونتهم، أمة عن النصر وأسبابه بمعزل!

ومن أخذ الحيطة والحذر: مهاجمة العدو قبل هجومه، بحيث يكون العدو في مركز المدافع؛ لأنَّ الهجوم دفاع وزيادة، وليس كذلك العكس، كما أنَّه يرفع من روح المقاتلين المعنوية في الوقت الذي يضعف فيه روح الطرف الآخر[٥].

وهناك أسباب أُخَر تجدها مفصلة في الكتب المتخصصة في الأمور العسكرية[٦].

وقد كان الرسول ﷺ وهو القائد والمعلم... كانت سيرته في السلم والحرب مضرب المثل في العناية بالأخذ بالأسباب المعنوية والمادية، ولهذا توالت انتصارات المسلمين بقيادته ﷺ، وورث المسلمون مبدأ الأخذ بالأسباب تأسياً بالنبي ﷺ ففتحوا الدنيا وأخضعوا العالم لحكم الإسلام[٧].

ولما تراجعت الأمة عن هذه المبادئ والمطالب، التي يقتضيها العقل والشرع لأسباب كثيرة[٨]، توالت هزائم المسلمين، وانتقصت أرض الإسلام من أطرافها، وانتهبت ثرواتها، واستذل أهلها، وصدق فينا ـ أمة الإسلام ـ قول الشاعر:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ... ولا يُستأمرون وهم شهـــود

---

(١) انظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٢/ ٧٧٦) وما بعدها.

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب: الحرب خدعة. انظر: فتح الباري (٦/ ١٥٨).

(٣) انظر: عوامل النصر والهزيمة، ص ٢٠.

(٤) وما جرى ويجري للمسلمين في مواجهة أعدائهم مراراً من حصار على الأسلحة أن تصل إليهم، على حين أنها في متناول يد عدوهم... مثالٌ على ذلك.

(٥) انظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٢/ ٧٨٠).

(٦) انظر مثلاً كتاب: المدرسة العسكرية، وكتاب: نظم الحرب، والعبقرية العسكرية، والرسول القائد، وغيرها.

(٧) سأتناول هذا الجانب بمزيد بيان في الباب الثالث، فصل: (آثار رعاية السنن)، المبحث الأول، بإذن الله تعالى. ولهذا آثرتُ عدم الإطالة هاهنا بذكر الأمثلة.

(٨) مكان تفصيلها الباب الثالث، فصل: (عواقب الإعراض عن السنن)، في المبحث الأول، إن شاء الله، وقد عقدتُ لبيان هذا المعنى مبحثاً في فصل: (خصائص سنن الله في الأمم)، الخاصية السابعة.

وقبل أن أختم هذا المبحث، أُذَكِّرُ بأمر هام، ينبغي استحضاره لإدراك كيفية أداء السنن الإلهية لوظيفتها في حياة الأمم، ألا وهو: التداخل الشديد والتلازم الوثيق بين مجموع الأسباب المعنوية والمادية التي تتألف منها سُنَّة الله في النصر والهزيمة، وأي محاولة للفصل أو التجزئة بينها، أو تفسير السُّنة ببعضها، سوف تنتهي بأصحابها ، نتيجة الخطأ في الفهم ، والتطبيق تبعا لذلك إلى نتائج خاطئة مدمرة.

ولا بد لكي ننتهي إلى نتائج صحيحة:

* أن نؤكد على أهمية الأسباب كلها من حيث الجملة.

* وأن نوليها من الاهتمام بصورة تفصيلية بقدر قيمتها التأثيرية.

* * *

سُنَّة الله في التمكين والاستخلاف في الأرض وعوامل بقاء الأمم

من تأمَّل في كتاب الله تعالى تبيَّن له بوضوح، أنَّ النصوص كلها تُقرِّر بصورة حاسمة: أنَّ تمكين الأمم واستخلافها في الأرض ليس غاية في ذاته، بل لعبادة الله وعمارة الأرض وفق منهجه، وهي جزء من العبادة، ولدفع ما يضاد ذلك أو يحول دون تحقيقه.

فلهذه الغاية خلقهم واستخلفهم، ولبلوغها والصبر عليها ابتلاهم وامتحنهم.

فمن وفَّى منهم بهذه الأمور، تحقق له الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، كما وعده الله. ومن فرَّط في ذلك، أو في شيء منه، أو قصَّر فيه، أو عجز عن تحقيقه، حُرِمَ من الاستخلاف والتمكين بقدر ما فرَّط فيه أو قصَّر، ويستخلف الله أمة أخرى ويُمَكِّن لها في الأرض ويبتليهم بمثل ما ابتلى به الأولين.

ومتى ثابَت أمة إلى رُشدها، وتداركت أمرها، وما فرَّطت فيه من أسباب الاستخلاف والتمكين، مكَّن الله لها في الأرض واستخلفها مرة أخرى... وهكذا.

فليس لأحد حق خاص في البقاء في الأرض إلى ما لا نهاية، بل ﴿ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

والتفريط والعجز يكون تارة بعدم تحقيق العبودية لله، وتارة بترك عمارة الأرض وتسخيرها، وتارة باجتماع الأمرين.

تلك هي سنته ـ تعالى ـ في التمكين والاستخلاف لكل الأمم، مؤمنهم وكافرهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة: ٣٠].

هو هذا الإنسان.. يعمرها ويسخر ما فيها، وتكون عمارته لها وفق مرضاتي وعلى هُدَى منّي. ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وبهذا التمكين والتكليف أبتليهم...

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣]. وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ

ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وهذه الأمور الثلاثة: خلافة الأرض، وعبادة الله، والابتلاء، ليست متعارضة فيقع بينها التناقض، إنما هي تفسير لغاية الوجود الإنساني من جوانب مختلفة، كل جانب منها يفسِّر الآخر ويحدد صورته[(١)]. فخلافة الأرض هي الظرف والفرصة والمجال، وعبادة الله هي التكليف الرباني المتضمن برنامج العمل المطلوب، والابتلاء هو مدى القدرة على توظيف النظام الإلهي في الظرف والفرصة والمجال الاختياري.

ولا يستحق الاستخلاف والتمكين بإطلاق، بموجب الوعد الإلهي إلا المؤمنون بالله المهتدون بهديه من الرسل وأتباعهم على طريقتهم، فهم أهل الحق المستجمعون لشروط الاستخلاف والتمكين المنصوص عليها في الآيات الآتي ذكرها.

وكل استخلاف أو تمكين لغيرهم، فهو إملاء واستدراج لهم، كما أنه ابتلاء لأهل الحق، بسبب غيابهم عن الساحة، وغياب المنهج الرباني عن التطبيق[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؛ «أي: ولقد كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء، أنَّ الأرضَ يرثها عبادي الصالحون، بعد أن كتبنا ذلك في أم الكتاب»[(٣)].

والصلاح يستلزم الإصلاح، وهو أن يكون الصالحون في أنفسهم مصلحين لأحوالهم وأحوال غيرهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسل ومن تبعهم جزاء ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه. ﴿وَخَافَ

(١) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٥٨ بتصرف يسير.
(٢) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص ٥٨.
(٣) أضواء البيان (٤/ ٦٩٣).

وَعِيدِ ﴾ ؛ أي: ما توعدت به من عصاني ، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله ، والمبادرة إلى ما يحبه الله(١) .

وقال: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] .

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ : «يقول تعالى ذكره: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله ورسوله ﴿ مِنكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ يقول: وأطاعوا الله ورسوله فيما أمراه ونهياه ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ يقول: ليورثنهم الله أرض المشركين من العرب والعجم ، فيجعلهم ملوكها وساستها ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يقول: كما فعل من قبلهم ذلك ببني إسرائيل ؛ أهلك الجبابرة بالشام ، وجعلهم ملوكها وسكانها»(٢) .

وإذن فالإيمان هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد المثمر للاهتداء ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور: ٥٤] .

وإذا حلَّ الاهتداء في النفوس ، نشأت الصالحات ، فأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة ، فالأسباب هي الإيمان وعمل الصالحات .

والتعريف في ﴿ الصَّالِحَاتِ ﴾ للاستغراق ؛ أي عملوا جميع الصالحات ، وهي الأعمال التي وصفها الشرع بأنها صلاح ، وتركوا الأعمال التي وصفها الشرع بأنها فساد ؛ لأنَّ إبطال الفساد صلاح . واستغراق ﴿ الصَّالِحَاتِ ﴾ استغراق عرفي ؛ أي عمل معظم الصالحات ومهماتها ومراجعها ، مما يعود إلى تحقيق كليات الشريعة ، وجري حالة مجتمع الأمة على مسلك الاستقامة(٣) .

وقال سبحانه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠ ، ٤١] ؛ أي: «وليُعينَنَّ الله من يقاتل في سبيله لتكون كلمته العليا على عدوه ،

(١) تفسير السعدي (٤/ ١٣٢) .
(٢) تفسير ابن جرير (١٨/ ١٥٨) .
(٣) تفسير التحرير والتنوير (١٨/ ٢٨٢ ، ٢٨٣) .

فَنصر الله عبدَه: معونتُه إياه، ونصرُ العبد ربَّه: جهاده في سبيله لتكون كلمته العليا»[(١)].
ونصره دينه ونبيه مخلصاً في ذلك[(٢)].

وقال سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧].
والمعنى: نفذت كلمة الله ومضت على بني إسرائيل تامة كاملة بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه؛ إذ كان وَعْدُ الله ـ تعالى ـ إياهم بما وعدهم مقروناً بأمرهم بالصبر والاستعانة به والتقوى له، كما أمرهم نبيهم ﷺ تبليغاً عنه تعالى.

قال موسى لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وإذا كان قد تمَّ وعد الله بذلك، ثم سَلَبَهم الله تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس، فلم يبق من مقتضى الوعد أن يعودوا إليها مرة أخرى؛ لأنه قد تم ونفذ صدقاً وعدلاً[(٣)].

و ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ قيل: أرض الشام، وقيل: أرض الشام ومصر، وقيل: عموم الأرض.

و ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ في هذه الآية على ما قال أهل العلم بالتفسير، هي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦][(٤)].

تلك هي جملة شروط التمكين والاستخلاف، وأسباب البقاء في الأرض لكافة الأمم، ألخصها لك في نقاط أربع:

---

(١) تفسير ابن جرير (١٧/ ١٧٨).
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٧٢)، وتفسير السعدي (٥/ ٣٠٢).
(٣) تفسير المنار (٩/ ١٠١)، وانظر: فتح القدير (٢/ ٢٤٠).
(٤) انظر: تفسير ابن جرير (٩/ ٤٤)، وزاد المسير (٣/ ٢٥٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٢)، وفتح القدير (٢/ ٢٤٠)، وتفسير السعدي (٦/ ٥)، وغيرها.

* أن تكون الأمّة صالحة مصلحة في أفرادها، مصلحة لشؤونها في المعاش والمعاد. ومن لازم ذلك أن تكون مقاومة للفساد والمفسدين كافة. ولا تكون كذلك بالمعنى الصحيح إلا إذا تحققت بالشرط الثاني، وهو:

* أن تكون الأمة أمّة مؤمنة بالله، عاملة للصالحات؛ أي محققة بمجموعها لمعنى العبودية لله بمعناها الشامل. ولا تكون كذلك إلا إذا كانت على مستوى الشرط الثالث، ألا وهو:

* أن تكون الأمّة شديدة المراقبة لله، شديدة الحذر والتوقّي من مخالفة أمره على كافة المستويات. وكل هذه الشروط لا بد لها من الشرط الرابع، وهو:

* الصبر والاستعانة بالله، الصبر على الإيمان، وعلى القيام بالتكاليف، وعلى عمارة الأرض، وعلى مجاهدة أعدائها.

وبالجملة الصبر على ما تلقاه الأمة في سبيل ذلك كله، والاستعانة بالله في ذلك كله.

وبقدر ما تلتزم الأمة به من هذه الشروط وتحققه في واقعها، بقدر ما يكون لها من التمكين والاستخلاف والبقاء، وبقدر ما تفرط أو تتولى وتعرض يدركها من سنة الله ما يدرك أمثالها. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

ومما ينبغي أن يعلم: أنّ الأمة قد تمكن في الأرض وهي كافرة بالله؛ لأنّها أخذت ببعض أسباب البقاء والتمكين... فقد تكون مصلحة لشؤون دنياها ومعاشها، وقد تكون صابرة مثابرة، وهذا أمرٌ مشاهد. ولكن هذا التمكين محض إمهال وإملاء[١]، ولا تنفك الأمة وهذه حالها من الضنك وأسباب الفناء[٢].

ولقائل أن يقول: هب أنّ أمة ما أخذت بهذه الأسباب أو ببعضها، فمكّن الله لها واستخلفها في الأرض... أهو القرار والاستقرار، أم أنها بداية لمرحلة جديدة؟

وهذا سؤال ينقلنا إلى الحديث عن لحظة الاستخلاف والتمكين، وما بعد ذلك.. وهو حديث طويل.. هلم إلى تفصيله.

ماذا بعد التمكين والاستخلاف؟

(١) وسيأتي بيان هذا المعنى في الفصل الثالث من هذا الباب، إن شاء الله.
(٢) وسيأتي ذلك مفصلاً في الفصل الثاني من الباب الثالث، إن شاء الله.

إنَّ الأمة ـ أية أمة ـ ما إن تستمكن من أسباب القوة وتستخلف في الأرض، سواء كان ذلك عن استحقاق ورضا من الله، أو كان لمحض الابتلاء والاستدراج، ما إن تستمكن وتستخلف، حتى تبدأ مرحلة جديدة من المواجهة والتحدي الحضاري، هي أعنف من كل التحديات التي واجهتها قبل بلوغ هذه القمة؛ وذلك لأسباب، منها:

* أن الأمة قبل مرحلة التمكين والاستخلاف تشعر بالتحدي؛ لأنَّها ما زالت تواجه قوى معادية ومنافسين أقوياء، وبعد مرحلة التمكين، غالباً ما يموت أو يضعف هذا الشعور في نفوس الأفراد، ويحل محله شعور بالقوة والهيمنة، ما يلبث أن يصبح طبلاً أجوف يقرع عند كل مناسبة، وربما نظرت إلى القوى الأخرى على أنها مجرد أحجار على رقعة شطرنج، هي اللاعب الرئيس فيه، وربما نظرت إلى قوتها فخيّل إليها أن عجلة الزمن ستتوقف عندها إلى ما لا نهاية(١).

* ويصاحب هذا الشعور، رغبة عارمة وميل شديد إلى الدَّعَةِ والتَّرف للاستمتاع بأشياء الحضارة بعد طول الجهد والعناء.

* ويُفرز هذا الميل إلى الدّعة والتَّرف ألواناً من الظلم والطبقية، وصوراً من الفساد والانحلال. تبدأ تدريجياً، بحيث لا يحس بخطرها إلا قلَّة لا يؤبه لها غالبا، والأمة في عنفوان قوتها فلا تحسّ بالضعف التدريجي.

* وفي هذه الظروف ـ عادة ـ تولد وتوجد قوى نامية، تجري في عروقها دماء الشباب، وتشعر بضخامة التحديات، وتنظر إلى هذه القوى الْمُمَكَّنَة على أنها عقبات حقيقية لا بد من اجتيازها.

* **ومحصلة ما سبق:** أنَّ الأمة حين تبلغ قمة الحضارة، يدركها على، ما جرت به العادة أمران:

- تحديات ضخمة لا عهد لها بها، خصوصاً من داخلها.
- وعجزٌ مركَّب عن المقاومة التي تكافئ هذه التحديات.

ولهذا كله أقول: إنَّ لحظة التفوق وقمة الفاعلية الحضارية للأمَّة، هي لحظة التحدي الأكبر والأخطر لها، وهي قمة الابتلاء.

ولهذا يجب مقابلتها بالشكر على الظفر، والصبر على أسبابه، والمحافظة عليها.

(١) ولهذا نجد أن الأمم المتيقظة لا تَدَعُ فرصةً للاسترخاء، فتصنع لنفسها أعداء وتمارس عملية مواجهة مستمرة، لتبقى أمة منتجة صاعدة. وهذا ما نلاحظه اليوم في أمم كالولايات المتحدة الأمريكية.

وقد ضرب نبي الله سليمان بن داود ـ عليهما الصلاة والسلام ـ أروع الأمثلة على ذلك، وها هو القرآن يقصّ علينا مشهد الشكر لحظة الانتصار.

لما بلغ مَلِكَة سبأ كتاب نبي الله سليمان، ومضمونه ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣١]، استشارت الملأ المقربين منها، وقرَّرت أخيراً أن ترسل إلى سليمان بهدية تجسّ بها نبضه، وتتعرف على توجهه. ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٥]. فماذا كان جواب سليمان عليه السلام؟

فلما جاء سليمان الكتاب قال: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۞ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۞ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۞ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٣٦ ـ ٤٠]. في حين كان منطق مستشاري ملكة سبأ السياسيين والعسكريين هو التلويح بالقوة وشدة البأس، اتكالا على ما بين أيديهم من ملك وعتاد، حجب عنهم رؤية قوة الغير ومنطقه. وكان رأي ملكة سبأ ـ في ظل هذا التفكير المتشنج ـ أكثر صوابا وواقعية، فأبعدت شبح الحرب، وتعرفت على قوة خصمها. وهذا العقل كان ـ بعد توفيق الله ـ من أسباب إسلامها مع سليمان لله رب العالمين.

ولا يفهم مما تقدَّم أنني أرمي إلى أن الأمة في هذا الظرف لا تملك وسائل المقاومة والاستمرار، أو أنها ـ بصورة جبرية ـ لا يمكن أن تقاوم التحديات؛ أي أن انهيارها حتمي. كلا، لا هذا ولا ذاك.

وفرق كبير بين أن يُقال: إنَّ التحديات ضخمة والمقاومة ضعيفة، وأن يقال: إن التحديات ضخمة والمقاومة معدومة أو غير ممكنة.

نعم، قد تغفل الأمة عن التحديات التي تواجهها فلا تقاومها، وقد تجهل الوسائل الصحيحة للمقاومة... فتفشل في مقاومتها، وقد ... وقد... فتنهار وتسقط، وهذا شيء، وحتمية الانهيار واستحالة المقاومة شيء آخر.

وقد يقول قائل: فما بال الأمم كلها لم تنج من حتمية الانهيار؟ هل صحيح أنها جميعاً أصيبت بداء الغفلة عن التحديات، ووقعت ضحية الجهل بالوسائل الصحيحة لمقاومة عوامل الانهيار؟

وإذا كان الأمر على ما تقول، فما عوامل البقاء، التي هي الوسائل الصحيحة لمقاومة الانهيار ؟!

وهذا سؤال كبير، ولا بد له من جواب مفصَّل تزول به الشُّبهة، وتنقشع الغمَّة، ويبين الصبح لذي عينين، ولكن لا بأس من التقدم بين يدي الجواب المفصَّل بإشارة تمهد له، فأقول:

كل أمَّة ـ أياً كانت ـ كان بإمكانها أن تقاوم التحديات، وكان بين يديها من الوسائل والأسباب ما يؤهلها لو أخذت بها لأن تبقى وتستمر.

ولا أدل على إمكانية ذلك من:

ـ تفاوت الأمم في فترة التمكين والاستخلاف طولاً وقصراً، فإن ذلك يؤكد وجود عوامل الاستمرار.

ـ واختلاف أسباب الانهيار يؤكد وجود عوامل البقاء أيضاً.

ـ ووجود أمم استعادت مكانتها الحضارية بعد أن افتقدتها يؤكد ذلك.

ـ بل إن تحوّل النصر إلى هزيمة والهزيمة إلى نصر، ليؤكد إمكانية ذلك.

ـ وشيء آخر جدير بالتأمّل، خصوصاً منّا نحن المسلمين، وهو: أنّه باستقراء التاريخ، فإنّ كل مراحل الانهيار بعد التمكين والاستخلاف، تقع بأسباب معقولة، وأن مدار هذه الأسباب هو مخالفة الحق كلياً أو جزئياً.

ثم أقول: إنَّ من تأمَّل كتاب الله ـ تعالى ـ ونظر فيه بتجرّد وإنصاف، فسيعلم أنه ما من سبب كان الأخذ به مما يعين في تمكين الأمة واستخلافها، ويكفل لها الاستمرار والبقاء إلى ما شاء الله إلا وفي القرآن له ذكر؛ إما حث على الأخذ به، وإما تحذير من تركه، أو هما معاً، تنصيصاً عليه، أو إشارة إليه وإيماء، بذكر عاقبة الأمم وجزاء المخالفين لتلك الأسباب.

وباستقراء القرآن، وجدنا أنه يقرر بصورة حاسمة، أن عوامل بقاء الأمم واستمرارها بصورة قويَّة ممكنة ـ على اختلافها ـ تصب في بحر واحد، وتجتمع لتحقيق هدف كلي، ألا وهو «الإصلاح في الأرض ودفع الفساد عنها».

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].

وهذا الهدف الكلي؛ الإصلاح ومدافعة الفساد وَفق المنهج الإلهي هو الهدف والغاية المراد تحقيقها من وراء تمكين الأمم واستخلافها.

وكيف لا يكون كذلك والأمم إنّما مكنت في الأرض ابتداءً لهذا الاعتبار!

والقرآن حينما جعل ممارسة الإصلاح، والعمل على دفع ما يضاده، قاعدة كلية ومرجعاً للعوامل والأسباب الأُخر التي تتألف من مجموعها السُّنة الإلهية... حينما جعل القرآن ذلك كذلك، فقد نظر إلى هذا المعنى بواقعية وشمولية، فلم يغفل شيئاً من صور الإصلاح، أيا كانت، وفي أي أمة وجدت، وجعل لكل مستوى من الإصلاح آثاره المترتبة عليه في الواقع كذلك.

وانطلاقاً من هذه الواقعية والشمولية، سيتضح لنا:

- أنّ كل صور الإصلاح التي يمكن أن تخطر في حسّ البشر، إن في شؤون دينهم وإن في شؤون دنياهم، أنّها كلها محسوب حسابها ومقدَّر أثرها في واقع الأمم. وبقاء هذه الأمم واستمرارها، أو زوالها واضمحلالها مرتبط بذلك متسبب عنه.

- وأن إصلاح النفوس والأوضاع بالشرائع الإلهية أصل الأصول وغايتها، وأهم مظاهر الإصلاح المؤهّل للحياة الكريمة.

وفي الصفحات التالية، سوف أتناول هذا الجانب بشيء من التفصيل؛ لِمَا له من أهمية، ولاستحكام الغفلة عنه، بل ولتعمد إسقاطه من الحساب عندنا نحن المسلمين(١).

* * *

(١) أمّا عوامل البقاء الأُخر، خصوصاً ما يتعلّق بالجانب المدني والمادي، فسأعرض لها ـ بإذن الله تعالى ـ في الباب الثالث: (آثار رعاية السنن وعواقب الإعراض عنها)؛ لِمَا بينها من تناسب، وتلافيا للتكرار.

إصلاح النفوس والأوضاع البشرية بالأديان والشرائع الإلهية

وهذا من أجلّ وأعظم عوامل بقاء الأمم واستمرارها على ما هي فيه من قوة وتمكين في الأرض، وأهم أسباب تمكينها واستخلافها فيها، إن لم تكن كذلك.

بل هو أهمها على الإطلاق، وهو يشمل:

* إصلاح النفوس والأوضاع ابتداءً؛ وذلك بالإيمان بالله وإفراده بالعبادة والطاعة، وبإخضاع أوضاع الأمة كافة لسلطان الشريعة، واستمرارًا؛ وذلك بتجديد ما اندرس من الدين والملّة، والرجوع إلى الله بالتوبة والتضرع.

* وهذا لا يتم ولا يوجد ـ عادة ـ إلا بوجود مصلحين وأدلاء من هذه الأمم، يهدونها إلى ربها ابتداء، ويُذكِّرُونها بهذه الهداية، ويجاهدون للحافظ عليها استمرارًا.

فهذان أسّان يقوم عليهما هذا العامل، لا يقوم قيامًا صحيحًا إلا بهما، ولكي يتضح لك هذا التلازم أقول:

إن من المعلوم من طبائع البشر والأمم ـ بحكم ما جبلوا عليه من الظلم والجهل ـ أنهم لا يستقيمون على الحق والمعروف، ويتركون الباطل والمنكر في شؤون دينهم ودنياهم من تلقاء أنفسهم، بل الأثرة وظلم الغير، وارتكاب الفواحش والمنكرات، واتباع الشهوات هو ديدنهم، أفرادًا وجماعات وأممًا...ولو تُركُوا دون أمر بالمعروف ونهي عن المنكر لانتهى أمرهم إلى الفساد والتناحر؛ لتعارض مصالحهم، أو أن يجتمعوا على ما يضرهم من الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

وبالجملة فإن الأمم لا بد لها لكي تبقى أمة ذات قوّة وسلطان، وتستمر مُمَكَّنة في الأرض من أن تكون (صالحة مُصْلِحَة) وهي لا تكون كذلك ابتداءً، ولا تصبر عليه استمرارًا من تلقاء نفسها، فثبت أن من لازم كون الأمة (صالحة مُصْلِحَة) أن يكون فيها ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦]، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا بد أن يكون أمرهم مُطاعًا ورأيهم نافذًا فيها ـ وهو ما يمكن نعته بـ: (استعداد الأمة للصّلاح والإصلاح)، لا بد من هذا وذاك للبقاء والاستمرار...وإليكها بشيء من التفصيل:

أولاً: إصلاح النفوس والأوضاع البشرية بالأديان والشرائع السماوية، ومقام المصلحين في ذلك.

من المعلوم بالضرورة من استقراء التاريخ أن أممًا كثيرة مَكَّنَ الله لها واستخلفها في الأرض، وهي ـ في حكم الله ـ أمم جاهلية كافرة مشركة.

وقد عرض القرآن الكريم أخبار كثيرٍ من هذه الأمم، وبيَّن أنها ذات قوة وسلطان وتمكين في الأرض؛ أي أنها مستجمِعة لأسباب الاستخلاف والتمكين المادية، ومع ذلك دمَّر الله عليها!

فما الذي كان ينقصها من مؤهلات البقاء والاستمرار؟!

وبعبارة أخرى: ماذا عليها أن تواجه من التحديات (الابتلاءات) من أجل البقاء والاستمرار؟!

إن القرآن يقرر ـ بواقعية وشمولية ـ أن هذه المؤهلات المادية هي (إصلاح) محسوب حسابه، وله قيمته بين عوامل البقاء والتمكين، ولكن ليس هو الإصلاح الأهم والأجدر بالتقديم. إنه من باب إصلاح الوسيلة، وبقي (الإصلاح) الأول والأهم، بقي إصلاح الغاية!! الغاية من الوجود ومن الاستخلاف والتمكين في الأرض، ومن كل هذه الإصلاحات المادية.

ولهذا أمَرَهُم القرآن بإصلاح هذه الغاية، وإحلالها مكانها اللائق بها بين عوامل الاستخلاف والبقاء.

وبواقعية وشمولية لا مزيد عليها، يذكر القرآن الإصلاحات المادية الموجودة عند الأمم، ثم يذكر ما هي بحاجة إلى إيجاده، ويبين مكانه الصحيح بالنسبة لما هو موجود بين يديها[(١)].

فكيف عرض القرآن لهذا العامل، بل هذا السبب الأساس؟

لقد عرضه من خلال نماذج تكاد تستوعب التاريخ كله، ومَزَجَ شروط وأسباب الاستخلاف والتمكين في الأرض بعوامل البقاء والاستمرار، الذي هو ثمرة التمكين والاستخلاف، وشفع ذلك بنماذج عملية وشواهد من الواقع عبر التاريخ بواقعية وشمولية متميزة ـ وذلك أقوى في الحجة، وأدعى للتأسي. وهي سمة من سمات منهج القرآن في عرض السنن[(٢)].

---

(١) ولهذا أمثلة سيأتي ذكر طائفة منها عما قليل إن شاء الله.

(٢) وقد نبهت إلى هذه السمة في فصل: منهج القرآن في عرض السنن، عند ذكر المؤثرات التي يحشدها القرآن وهو يعرض السنن.

هاهم أولاء الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومن نَهَجَ نهجهم يدعون أممهم للأخذ بأسباب البقاء والاستمرار في الأرض، بعد أن استخلفهم الله ومكَّن لهم فيها، وأن يحققوها في واقعهم؛ ليتحقق لهم وعد الله بذلك.

وهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يدعون أممًا مستخلفةً مُمَكَّنًا لها في الأرض، بل أممًا ذات صولة وسلطان. فكيف ذلك؟! أممٌ مستخلفة ممكَّنة تدعى إلى الأخذ بأسباب الاستخلاف والبقاء؟!

نعم، إن الأنبياء والمصلحين من أتباعهم، بما أُوتُوا من العلم والإيمان لا يشكّون لحظة أن أممهم ـ وهي تحيا بغير المنهج الرباني ـ إنما تحيا وضعًا غير صحيح بمقياس الشرع، وبالتالي فهو غير مأمون.

إن شرطًا من أهم شروط البقاء والاستمرار، بل غاية الغايات من الاستخلاف والتمكين ـ وهو الإيمان بالله وتحكيم شريعته ـ قد تخلف، وإذا تخلفت الغاية من التمكين والاستخلاف في الأرض، فإن بقاء الأمة مؤقت، وزوالها محقق، وهي إنما تعيش بلا غاية محمودة، وتحيا مرحلة الاستدراج والإمهال في صورة تمكين واستخلاف. تحيا فترة الإملاء لها، لتستنفد أسباب بقائها، ويحين حَيْنها فتنزل بها عقوبة ماحقة، أو ترثها أمة أجدر منها وأحق بالاستخلاف والتمكين.

من هذا المنطلق ولهذا السبب، كانت الرسل والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يتخوَّفون على أممهم ـ المستخلَفة الممكَّنة ـ العقوبات والمَثُلات، في الوقت الذي ترفض فيه هذه الأمم ـ الممكَّنة المستخلفَة ـ أن تُدْرِجَ مسألة الإيمان بالله وتحكيم شريعته والاهتداء بهديه ضمن الشروط اللازمة للبقاء في الأرض، جهلاً واستكبارًا... فما الذي حدث؟!

لقد مضت السنة الإلهية، وحطمت ما في طريقها، حتى وإن أمة بأسرها، أو أكثرية معجبة بكثرتها.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ١ ـ ٤].

فتأمَّل قوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فإنَّ معناه: يمتعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى، أي: مقدار البقاء في هذه الدنيا بقضاء الله وقدره إلى وقت محدود وليس المتاع أبداً[1].

فلما ضلَّلوا سعيه، وأبوا إلا خلافه، عاقبهم الله بالإغراق، ونجَّى نوحاً والذين آمنوا معه وجعلهم الوارثين بمقتضى سنته في الاستخلاف والتمكين لعباده المؤمنين.

وقد اشتملت هذه الآيات من سورة الأعراف على مجمل خبرهم، مع إبراز مواطن العبرة لمن اعتبر. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٩ ـ ٦٤].

وتأمَّل قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ فإنَّها علَّة لقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾؛ أي أغرقنا المكذبين لكونهم عُمي القلوب لا تنجع فيهم الموعظة ولا يفيدهم التذكير. وعن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾، قال: كفاراً[2]. وعن مجاهد: عُمي عن الحق[3].

وهود ﷺ، وقد كان قومه تالين لقوم نوح ﷺ، مستخلفين من بعدهم.

لقد ابتدأهم بالأمر بعبادة الله وحذَّرهم الشرك وأنذرهم شؤم مخالفة أمره، وهذا هو أول ما تدعو إليه الرسل، ثم ثنَّى بتذكيرهم نعمة الله عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وهو تذكير أراد به فيما أراد تحذيرهم أن يسيروا سيرتهم فيحل بهم ما حلَّ بهم.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

(١) تفسير السعدي (٧/ ٤٨٠).
(٢) فتح القدير (٢/ ٢١٧).
(٣) تفسير ابن جرير (٨/ ٢١٥)، وروي مثله عن ابن زيد.

وفي موضع آخر قال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

ثم وضعهم أمام مصيرهم إن تولوا وجهاً لوجه، قال لهم: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [هود: ٥٧]. فماذا كان جواب قومه؟

لقد أنكروا أن يكون الإيمان بالله وإخلاص العبودية له سبحانه غاية استخلافهم، وسرّ بقائهم... أنكروا ذلك، و﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وبهذه المكابرة حكموا على أنفسهم بالإفلاس، وعدم الاستعداد للقيام بوظيفة الخلافة وتحقيق شروط البقاء في واقع حياتهم، فجزم هود ﷺ أنهم مأخوذون لا محالة، سنة الله في أمثالهم، وقال لهم: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ۞ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧١، ٧٢].

وتأمّل قولَة هود: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾ فإنَّ معناه: قد وجب عليكم العذاب بمقالتكم هذه. وعبَّر بالمضي عما سيقع تنزيلاً للمتوقع منزلة الواقع لتحقق وقوعه بانعقاد أسبابه، وعدم وجود أسباب دفعه[1].

وتأمّل ثانية قوله تعالى في بيان عاقبة المؤمنين: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾؛ أي استخلفناهم ومكنَّا لهم، فهو كقوله تعالى في نوح والذين آمنوا معه: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ [يونس: ٧٣].

وأخيراً، ما نكتة الجمع بين وصفي التكذيب بالآيات، وعدم الإيمان... في بيان حيثيات الحكم على المهلكين في قوله: ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾؟

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٧/ ٩٦)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٥)، وتفسير القاسمي (٧/ ١٦٩)، وتفسير المنار (٨/ ٤٩٩).

قال في الكشاف: «فإن قلت: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله؟ قلت: هو تعريض بمن آمن منهم. ومن نجا مع هود عليه السلام كأنه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم، ولم يكونوا مثل من آمن منهم، وليؤذن أن الهلاك خصّ المكذبين، ونجّى الله المؤمنين»[(١)].

أي أنه إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين، وعَلم أن سبب النجاة هو الإيمان لا غير، تزيد رغبته فيه، ويعظم قدره عنده[(٢)].

ومثال ثالث يشهد لما نحن فيه من تقرير سُنّة الله في الاستخلاف والتمكين، وأسباب البقاء والاستمرار، وأن من لم يأت بأسباب ذلك وشروطه من الأقوام والأمم انتزعوا مما هم فيه بالإهلاك، أو بذهاب ريحهم وإذلال غيرهم لهم.

وهو مثال لأمة تلي تينك الأمتين السابقتين. إنّهم ثمود قوم صالح ـ عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣، ٧٤].

وفي الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

إنّه الإيمان بالله والإصلاح في الأرض، أو الإهلاك والتدمير.

أمّا الملأ ومن اغترّ بهم من قوم صالح: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[فصلت: ١٧].

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

فحقت عليهم السّنة الإلهية ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

---

(١) الكشاف (٢/ ٨٨).
(٢) تفسير القاسمي (٧/ ١٧١)، ونسبه إلى الطِّيبيّ.

وعلة ذلك: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨].
ونجّى الله صالحاً والذين آمنوا معه وجعلهم هم الوارثين[١].

وأنتقل بعد ذلك إلى استخلاف بني إسرائيل والتمكين لهم بعد بعثة موسى ﷺ، وذلك بسبب إيمانهم بالله واستعانتهم به، وبصبرهم.

فقد كان بنو إسرائيل مستعبدين للقبط، تسومهم الفراعنة سوء العذاب، كما حكى الله ذلك عن فرعون: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وكان فرعون يُسخّرهم لمصالحه، فأرسل الله موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ لتحرير بني إسرائيل من قهر الفراعنة، وتعبيدهم لله وحده، ولدعوة فرعون وقومه إلى الحق وهدايتهم إلى ربهم.

قال تعالى لموسى وهارون فيما قال: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ﴾ [طه: ٤٧]. وفي أخرى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦، ١٧].

وبدل أن يستجيب فرعون لدعوة الحق أخذ يُعدِّد على موسى إنعامه عليه ـ في زعمه ـ فأنكر عليه موسى ﷺ ذلك، وبيَّن السبب فيما حصل له، بكلام بليغ ألقم فرعون حجراً، وذلك قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].
والمعنى: «أتمُنّ عليَّ بأن ربيتني وليداً، وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم وهم قومي، فإنك لو كنت لا تقتل أبناء بني إسرائيل، لكانت أمي مستغنية عن قذفي في اليم، فكأنك تمن عليَّ ما كان بلاؤك سبباً له»[٢].

ولتطاول هذا الذلّ والاستعباد على بني إسرائيل، وما أورثه في نفوسهم من اليأس، واليأسُ مفسد للنفوس، ولما في طبائعهم من الانحراف، نظروا إلى دعوة موسى ﷺ لتخليصهم مما هم في نظرة شك وارتياب في جدواها، خصوصاً بعد تهديد فرعون لهم ووعيده إياهم، فلما قال موسى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

---

(١) انظر: هود: ٦٦، والنمل: ٥٣، وفصّلت: ١٨.
(٢) فتح القدير (٤/ ٩٦).

وقولته هذه، وصية جامعة مشتملة على أمرين عظيمين:

الأول: أن هذا هو أول طريق الاستخلاف والتمكين للأمّة المستضعفة، ونبه إليه بقوله: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾.

الثاني: استحضار السُّنة الإلهية والتذكير بها حتى في فترة ضعف الأمة ومحنتها، لتجاهد منذ البداية بالاتجاه الصحيح، ونبه إليه بقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

فـ «ماذا كان من تأثير وصية موسى عليه السلام لقومه؟ وهل فهموها وقدَّروها قدرها؟ وبِمَ أجابُوه؟»[(١)].

ما زادوا أن احتجوا بالواقع المشاهد: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[الأعراف: ١٢٩]. يعنون: أنهم لم يستفيدوا من إرساله لإنقاذهم من ظلم فرعون شيئاً[(٢)].

فلم يُوهِن جوابُهم من عزيمة موسى شيئاً، بل فتح لهم باب الأمل، وأطمعهم بما لم يكن يخطر لهم على بال: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

إنَّهم لا يحلمُون فيما هم فيه بالخلاص من الذلّ والاستعباد، فضلاً عن أن يكون لهم الأمر والنهي في الأرض، ولذلك «عبَّر بـ ﴿عَسَىٰ﴾ ولم يقطع بالوعد؛ لئلا يتّكلوا ويتركوا ما يجب من العمل، أو لئلا يكذبوه، لضعف أنفسهم بما طال عليهم من الذلّ والاستخذاء لفرعون وقومه واستعظامهم لملكه وقوته»[(٣)].

وفي هذا الآية، تنبيهٌ إلى أمرٍ عظيم، الا وهو: أن استخلافكم في الأرض بعد إهلاك عدوّكم، لغاية هي: أن تصلحوا فيها وفق شرع الله وأمره، هذا هو مبرر استخلافكم وسرّ بقائكم، فإن لم تفعلوا جرى عليكم وحاق بكم ما تؤملون من الله أن يفعله بعدوّكم!

أمّا آلُ فرعون فقد كان في علم الله أنهم لا يرجعون عن غيهم وطغيانهم، فأعذر الله إليهم بأن تابع عليهم الآيات، وقلّب بهم الأحوال لعلّهم يذّكّرُون.

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٨١).
(٢) تفسير المنار (٩/ ٨١).
(٣) تفسير المنار (٩/ ٨٢).

وتلك عادته ـ سبحانه ـ في الأقوام والأمم أنه لا يستأصل شأفتهم حتى يفعل بهم ذلك(١).

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣٦].

وهكذا ظهر عِلْمُ الله فيهم علانية أنهم لا يصلحون للبقاء والاستمرار وهم فيما هم فيه من الكفر والطغيان، وإن كان حصل لهم من خلافة الأرض والتمكين فيها ما حصل، فإنَّما استدرجوا في ذلك وأُمْلِيَ لهم حتى انتهى أمرهم إلى ما وصف الله، فطهَّر الأرض منهم، كما نصَّت عليه الآية الأخيرة في سياق الآيات السابقة.

ولنعد الآن إلى بني إسرائيل الذين لم يزل نبي الله موسى ﷺ يُرَبِّيهم ويستصلح نفوسهم ويصبرهم، حتى استقاموا على الجادة وكانوا أفضل أهل زمانهم، كما قال عنهم سبحانه: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧، ١٢٢](٢). وفي الآية الأخرى لمَّا ﴿ قَالُوا يَٰمُوسَى اجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٠]... إلى غير ذلك من الآيات.

فلما أصبحوا كذلك، تأهَّلوا لوراثة الأرض، وكانوا هم القوم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا

(١) انظر: تفسير السعدي (٣/ ٨٠). وراجع تفصيل هذه المسألة ـ إن شئت ـ في مبحث: (سُنَّة الله في إمهال الأمم)، و(سنة أخذ الأمم بالبأساء والضراء).
(٢) انظر: تفسير البغوي (١/ ٦٩).

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

إن فرعون وقومه كانوا طغاة مسرفين قبل إهلاكهم بزمن طويل. وإنَّ بني إسرائيل كانوا مستضعفين لهم قبل تمكينهم بزمن طويل أيضاً.

والسؤال هنا: لِمَ تأخَّر إهلاك فرعون وقومه، واستنقاذ بني إسرائيل والتمكين لهم إلى هذا الوقت؟!

قد يقول قائل: هذا قضاء الله وقدره، وهكذا اقتضت حكمته.

وهذا تحصيل حاصل، فإنَّ كل شيء لا يكون ولا يحدث إلا بقضاء الله وقدره، ولكن كيف ندرك أن ما جرى ـ هو أو مثله ـ كان لا بد أن يحدث؛ لأنَّ حكمة الله تقتضي ذلك؟

والجواب أن يقال: نحن نعلم أن قضاء الله وقدره جارٍ وفق حكمته، وحكمته عين الحق والعدل والصواب. وقد اقتضت حكمته أن من لَم يأت بأسباب الاستخلاف والتمكين التي يقدر عليها، ويجتهد في تحصيلها بحسب إمكانه، أنّه لا يُمكّن له حتى ولو كان مسلماً، فضلاً عن غيره.

كما أنَّه ـ سبحانه ـ لا يزيل الطغيان الضارب في الأرض، الآخذ بأسباب البقاء المادية، لا يزيله ليستخلف ويمكّن لطغيان آخر مجرد من تلك الأسباب.

هذا ليس من العدل ولا من الحكمة.

إنَّ بني إسرائيل لم تكن لهم قوة مادية يغلبون بها قوة فرعون وقومه فاستذلهم بالقهر، شأن الغالب مع المغلوب، ولم يكن فيهم من الإيمان والصلاح والاستقامة ما يؤهلهم لنصر الله وتأييده الذي يتنزل عادة على أوليائه، فاستذلهم فرعون وقومه بسبب ذنوبهم وفسقهم عن أمر ربهم، وتلك هي سنته ـ سبحانه ـ فيهم وفي أمثالهم.

وهي ـ كما ترى ـ عين الحكمة والعدل والصواب.

يشهد لهذا أنهم لَمَّا تربّوا على يدي موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتأهلوا مكّن الله لهم في الأرض واستخلفهم فيها، وأهلك عدوهم، لا بحولهم وقوتهم ولكن بحوله تعالى وقوته.

وقد قصَّ الله نبأ الفريقين ؛ ليعتبر به المؤمنون من هذه الأمة .

قال تعالى: ﴿طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ١ ـ ٦] .

وقال سبحانه مبينًا أنه أنفذ إرادته فيهم لَمَّا تأهلوا وكانوا عند مستوى الوعد الإلهي بالاستخلاف والتمكين: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] .

ويشهد له أيضًا: أنهم لما تنكّبوا الجادة وفسقوا عن أمر ربهم ، أدال الله عليهم الدولة وسلب الملك من أيديهم مرتين ، في زمانين مختلفين . ثم آذنهم باطّراد سنته ؛ ليكونوا منها على حذر .

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٨][(١)] .

وإنَّما أطَلْتُ في هذا المثال ؛ لما بينه وبين حالنا ـ نحن المسلمين ـ اليوم من التشابه ، والله المستعان .

---

(١) ولقد عادوا فأعاد الله ـ سبحانه ـ عليهم النقمة بأن سلط عليهم الأكاسرة ففعلوا بهم ما فعلوا من ضرب الإتاوة ونحو ذلك ، وعن ابن عباس: فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين ، وعن قتادة والحسن: عادوا فبعث الله محمدًا ﷺ فهم يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . [تفسير ابن جرير (١٥/ ٤٤) ، وتفسير أبي السعود (٥/ ١٥٨)] .

وأختم هذه الأمثلة والنماذج الناطقة باطراد تحقق سنّة الله: أن بقاء الأمم واستمرارها بعد التمكين والاستخلاف لها في الأرض، حاصلٌ لكل من وفّى بأسبابها وانطبقت عليه شروطها. أختمها باستخلاف هذه الأمة والتمكين لها في الأرض، كما لم يمكّن لأمة قبلها من الأمم، في فترة خاطفة، إذا ما قيست بأعمار الأمم.

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

قال ابن كثير عند هذه الآية: «هذا وعدٌ من الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض؛ أي: أئمة الناس والولاة عليهم... وقد فعله ـ تبارك وتعالى ـ وله الحمد والمنّة. فإنّه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر وإسكندرية وهو المقوقس، وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة ـ رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلمَّ شعث ما وَهَى بعد موته ﷺ وأخذ جزيرة العرب ومهدها، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صُحْبَة خالد بن الوليد ﷺ ففتحوا أطرافاً منها وقتلوا خلقاً من أهلها، وجيشاً آخر صُحْبَة أبي عبيدة ﷺ ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صُحْبَة عمرو بن العاص ﷺ إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصْرَى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوْرَان وما والاها. وتوفّاه الله ـ عز وجل ـ واختار له ما عنده من الكرامة.

ومَنَّ على أهل الإسلام بأن ألْهَمَ الصِّدِّيق أن يستخلف عمر الفاروق ـ رضي الله عنهما ـ فقام بالأمر بعده قياماً تاماً، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكماله وعدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ـ عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة ـ ثم لما كانت الدولة

العثمانية[(١)] امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص وبلاد القيروان وبلاد سبتة؛ ما يلي البحر المحيط من ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى وباد مُلْكه بالكليَّة، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من بلاد الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زُوِي لي منها**»[(٢)].

فها نحن نتقلَّب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله. فنسأل الله الإيمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنّا»[(٣)].

فهذا وعد الله للمؤمنين بالتَّمْكِين، وقد فعله ـ سبحانه ـ كما تبيَّن من النقل آنفاً، وكما هو مشهورٌ مستفيض.

وكما أخبر ـ سبحانه ـ في صدر الآية السابقة عن وعده بالتمكين للذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنَّه قرر في آخرها مصير من لم يصبر على الإيمان وعمل الصالحات من هذه الأمة، أن مصيره بعكس الأولين، وذلك قوله في آخرها: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]؛ أي: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك، فقد خرج عن أمر ربه، وفاته وعده بالتمكين. وكفى بذلك ذنباً عظيماً.

«فالصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله ـ عز وجل ـ وأطوعهم لله، كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً وحكموا في سائر العباد والبلاد، ولما قصَّر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم»[(٤)].

أمَّا اليوم، وقد نُحِّيَ شرعُ الله عن واقع حياة الأمة المسلمة، فقد صاروا إلى شرٍ مما

---

(١) يعني: خلافة عثمان بن عفان ﷺ.

(٢) رواه مسلم، عن ثوبان ﷺ. انظر: صحيح مسلم، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، ح (٢٨٨٩)، وانظر: شرح السُّنة للبغوي (١٤/ ٢١٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٠).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٢). وسيأتي لهذا المعنى مزيد بحث في الفصل الأول من الباب الثالث، بإذن الله تعالى، فأكتفي هنا بهذه الإشارة.

صار إليه بنو إسرائيل على يد الفراعنة!

والأدهى من ذلك، أن بني إسرائيل اليوم صاروا من جملة الفراعنة الذين يمارسون عملية الإذلال والاستعباد للأمّة المسلمة. وشرّ البلية ما يُضْحِك.

وهنا يقال في الجواب عن حال الأمة الإسلامية الذليلة المقهورة، وأعدائها المتنفذين الغالبين، وهم كفار مفسدون في الأرض، ما قيل في الجواب عن حال بني إسرائيل مع الفراعنة، و﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

ولا تحسبنَّ هذه الأمم التي ذكرتها أمثالا، أو غيرها، أهلكوا يوم أهلكوا لأنهم كانوا عاجزين عن عمارة الأرض وتصريف شؤون الحياة المعيشية. كلا، إنّما أُهلِكُوا لأنهم كانوا معرضين عن عمارتها وفق منهج الله، ولأنهم كانوا رافضين قيادة البشر بشريعة الله إلى الله.

أهلكوا يوم أهلكوا وهم في أوج مدنيتهم، وميزان القوة المادية لصالحهم، فلم يؤتوا قط من هذه الجهة.. والقرآن يسجل لهم ذلك، ويسجل عليهم جوانب الإخفاق.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۞ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٢، ٨٣]... إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بقوة أولئك الأقوام وكثرتهم، وأنهم أهل حرث وزراعة، وأهل عمارة وتشييد، وقوة وتمكين.

ولهذا قال ـ سبحانه ـ مخبراً عن آثار الديار بعد إهلاك أهلها بظلمهم: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وأنباء قوتهم وإثارتهم الأرض وعمرانهم إياها على التفصيل، مذكورة في مواضع من كتاب الله تعالى، معلومة لكل مسلم قارئ للقرآن، أذكر منها على سبيل التمثيل هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٣١].

وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ * فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤١ ـ ١٥٠].

وقال سبحانه: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال عنهم في آية أخرى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩].

وإذن فالتمكين والاستخلاف في الأرض إذا لم يحقق غايته، وهي إقامة شرع الله، وسياسة الدنيا وعمارتها وفق منهج الله، فهو تمكين ابتلاء واستدراج، صائر إلى زوال وخراب. والمدنية مهما بلغت، والقوة مهما عظمت، فهي ليست غاية في ذاتها، بل هي من زينة الحياة الدنيا وزخرفها، فهي كالسيف بيد حامله. وهي لا تحمد لذاتها، كما لا تطلب لذاتها. ولم ترد النصوص ألبتة بطلبها وتحصيلها باعتبارها شيئًا يحبه الله، ويمكن لأهله تمكين رضىً وقبول. لكنها تحمد فقط إن كانت لنصرة دين الله والتمكين لشرعه، ومقاومة الباطل والظلم، وكبح جماحه وقهره. بل هي مذمومة فيما عدا ذلك.

ومما ينبغي فهمه وعضّ النواجذ عليه، وقد نبهت إليه، وأُعيد التنبيه إليه ثانية: أن ندرك أن ما تقدَّم ذكره من شروط التمكين والاستخلاف وأسباب البقاء والاستمرار،

ينبغي أن تفهم بمعناها الأعم الأشمل، في الأحوال والأزمان والأقوام، فهي شروط عامة جامعة، وتحت كل شرط منها تفصيلات، ولها تطبيقات يصعب حصرها.

فمثلاً عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ينبغي أن نفهم من هذه الآية أن «العاقبة الحسنة التي ينتهي إليها التنازع بين الأمم في الدنيا للمتقين؛ أي: الذين يتقون الله بمراعاة سننه في أسباب إرث الأرض؛ كالاتحاد وجمع الكلمة، والاعتصام بالحق، وإقامة العدل، والصبر على المكاره، والاستعانة بالله، لاسيما عند الشدائد، ونحو ذلك مما هدى إليه وحيه وأيّدته التجارب»(١).

فيكون قوله في الآية الأخرى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [النور: ٥٥] وغيرها مما كان في معناها، كلها تجتمع لتؤكد معنى كلياً عاماً هو «الصلاح والإصلاح»، وهكذا في كل شرط من الشروط.

ولا ينبغي ولا يصح عقلاً ولا شرعاً، أن نفهم التقوى ببعض معناها، وهو القيام بالشعائر التعبدية فقط، ثم تترك شؤون الدنيا لغير المسلمين، ويفشو الظلم والجور والتقاطع بين المسلمين، ويطوى بساط العدل وينحسر التعاون على البر والتقوى بين شعوب الأمة المسلمة، ويجري التعامل بالربا وأكل الأموال بالباطل، وتشيع سائر الانحرافات السلوكية في طول بلاد المسلمين وعرضها. بل وربما حكموا بغير شريعة الله وتحاكموا إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.. ثم نقول بعد ذلك: إنّنا ننتظر من الله أن يجزينا جزاء المتقين، فيجعل العاقبة لنا في الدنيا!

ولكي يتضح هذا المنهج في الفهم، أنقل هنا مقتطفات من كلام نفيس للعلامة ابن عاشور في هذا المعنى.

يقول ـ رحمه الله: وقد بيَّن الله ـ تعالى ـ أصول انتظام أمور الأمة في تضاعيف كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]. وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. وقوله في سياق الذم: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) تفسير المنار (٩/ ٨٠، ٨١).

لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥] . وقوله: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢] .

وبيَّن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ تصرفات ولاة الأمور في شئون الرعية ، ومع أهل الذمة ، ومع الأعداء في الغزو والصلح والمهادنة والمعاهدة ، وبيَّن أصول المعاملات بين الناس . فمتى اهتم ولاة الأمور وعموم الأمَّة ، باتِّباع ما وضَّح لهم الشرع ، تحقق وعد الله إياهم بهذا الوعد الجليل .

وهذه التكاليف التي جعلها الله قواماً لصلاح أمور الأمة ، ووعد عليها بإعطاء الخلافة والتمكين والأمن ، صارت بترتيب تلك الموعدة عليها أسبابا لها ، وكانت الموعدة كالمسبب عليها ، فشابهت من هذه الحالة خطاب الوضع[1] ، وجعل الإيمان عمودها وشرطاً للخروج من عهدة التكليف بها وتوثيقاً لحصول آثارها ، بأن جعله جالب رضاه وعنايته ، فبه يتيسَّر للأمة تناول أسباب النجاح ، وبه يحف اللطف الإلهي بالأمة في أطوار مزاولتها واستجلابها ، بحيث يدفع عنهم العراقيل والموانع ، وربما حف بهم اللطف والعناية عند تقصيرهم في القيام بها وعند تخليطهم الصلاح بالفساد فرفق بهم ولم يعجل لهم الشر وتلوّم لهم في إنزال العقوبة . وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ في [سورة الحج: ٣٨] .

فلو أنَّ قوماً غير مسلمين عملوا في سيرتهم وشئون رعيتهم بمثل ما أمر الله به المسلمين من الصالحات ، بحيث لم يعوزهم إلا الإيمان بالله ورسوله ، لاجتَنوْا من سيرتهم صوراً تشبه الحقائق التي يجتنيها المسلمون ؛ لأنَّ تلك الأعمال صارت أسباباً وسنناً تترتب عليها آثارها التي جعلها الله سنناً وقوانين عمرانية . سوى أنهم لسوء معاملتهم ربهم ، بجحودهم ، أو بالإشراك به ، أو بعدم تصديق رسوله ، يكونون بمنأى عن كفالته وتأييده إياهم ودفع العوادي عنهم ، بل يكلهم إلى أعمالهم وجهودهم حسب المعتاد . . .»[2] .

---

(١) وهو ما يقتضي جعل شيء سبباً لشيء ، أو شرطاً ، أو مانعاً ، وسُمِّيَ خطاب وضع ؛ لأنَّ الشرع وضع الخطاب بالأسباب والشروط والموانع . وذلك مثل أن يقول: إذا زالت الشمس فقد وضعت وجوب الصلاة ، وإذا تم النصاب والحول فقد وضعت وجوب الزكاة ، وإذا حصل الحيض فقد وضعت سقوط الصلاة والصوم ، وقِسْ على هذا . انظر: علم أصول الفقه ، لعبد الوهاب خلاف ، ص ١٧ ، ومذكرة أصول الفقه ، لمحمد الأمين الشنقيطي ، ص ٤٠ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير (١٨/ ٢٨٣ ـ ٢٨٥) . وضرب المؤلف مثلاً بالأوربيين ، كيف عظمت ممالكهم واستقامت أمورهم باقتباسهم هذه التعاليم والإفادة منها .

وأكتفي بما سبق من الأمثلة ، وكلها ناطقة بضرورة إصلاح النفوس والأوضاع بتعبيدها لخالقها وانقيادها لأمره وشرعه ، كما أنها شاهدة بوضوح على أن تحقيق هذه الغاية والقيام بهذه المهمة لا يكون إلا على أيدي المصلحين ، الذين هم الأنبياء وأتباعهم الصادقون دون من عداهم من سائر المصلحين .

وهذا هو الأساس الثاني . فإلى تفصيله .

* * *

المصلحون الربانيون شرط في إصلاح الأمم

قد سبق في ثنايا الحديث عن الأساس الأول، التأكيد مراراً على أن الأنبياء وأتباعهم هم روّاد الإصلاح المنشود، وقد تبيَّن لنا كيف أن نجاة الأمم أو هلاكها كان مرتبطاً بصورة رئيسية بطاعتهم أو مخالفة أمرهم، وأنَّ ذلك سُنَّة إلهية أكدها القرآن وقرَّرها في عدة مواضع، وعرض لها بأكثر من أسلوب، وصدقها الواقع الحاضر، وشهد بها التاريخ الغابر.

لكن لا بأس من وقفة نتبيَّنُ فيها: معنى الإصلاح وحدوده في القرآن؛ كي نعرف بالتالي: من هم المصلحون، بشهادة القرآن.

وبين يدي ذلك أذكرُ بما قلت سلفاً من أنّه: قد علم من استقراء أحوال البشر وطبائع الأمم، بحكم ما جبلوا عليه من الظلم والجهل، أنهم لا يستقيمون على الحق والمعروف، ويتركون الباطل والمنكر في شئون دينهم ودنياهم من تلقاء أنفسهم، بل الأثرة وظلم الغير وارتكاب الفواحش والمنكرات، واتباع الشهوات هو ديدنهم، أفراداً وجماعات وأمماً، ولو تركوا دون أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، لانتهى أمرهم إلى الفساد والتناحر؛ لِتَعَارض مصالحهم، أو أن يجتمعوا على ما يضرهم من الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

وبالجملة فإنَّ الأمم لا بد لها لكي تبقى وتستحق الاستخلاف والتمكين في الأرض، من أن تكون «صالحة مصلحة».

وهي لا تكون كذلك ابتداءً، ولا تصبر عليه استمراراً من تلقاء نفسها، فثبت أن من لازم كون الأمة «صالحة مصلحة»، أن يكون فيها ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦]. ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا بد أن يكون أمرهم مطاعاً، ورأيهم نافذاً فيها، لا بد من هذا وهذا للنجاة، وللتمكين والاستخلاف في الأرض.

وقد اتضح هذا وتأيّد بما مضى من الأمثلة والشواهد. ولكن بقي لنا أن نفصِّلَ بعض الشيء في ماهية الإصلاح الذي تُدْعَى إليه الأمم في القرآن؛ لنتبيَّنَ حدوده، وفي ماهية الفساد الذي تنهى عنه وعن مقارفته.

* معنى الإصلاح وحدوده في القرآن:

الصلاح ضد الفساد [١]، وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه. والاستصلاح: نقيض الاستفساد [٢].

فالصلاح والإصلاح، يعني: استقامة الأشياء وإقامتها وفق المصلحة.

ومن لازم ذلك: مضادة الفساد والإفساد ومقاومته، لأن مقاومة الفساد إصلاح.

وقُوبل الصلاح في القرآن تارة بالفساد وتارة بالسيئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، وقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦، ٨٥] [٣].

فدخل في ذلك: إصلاح الأديان والأبدان والأقوال والأفعال وسائر الأحوال، فإن ذلك كله مما أصلحه الله، ودخل في النهي عن الإفساد في الأرض النهي عن الإفساد في ذلك كله.

قال الإمام ابن عطية ـ رحمه الله ـ عند هذه الآية: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦، ٨٥]: «وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، ألفاظ عامة تتضمن كل إفساد قل أو كثر بعد كل إصلاح قل أو كثر. والقصد بالنهي هو على العموم، وتخصيص شيء دون شيء في هذا تحكم، إلا أن يُقال على وجه المثال.. وقال بعض الناس: المراد: ولا تشركوا في الأرض بعد أن أصلحها الله ببعثة الرسل وتقرير الشرائع ووضوح ملّة محمد ﷺ. وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصَّه بالذكر» [٤].

وقال أبو حيان: «هذا نهي عن إيقاع الفساد في الأرض، وإدخال ماهيته في الوجود بجميع أنواعه... من إفساد النفوس والأنساب والأموال والعقول والأديان. ومعنى ﴿بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾: بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق، ومصالح المكلفين. وما روي عن المفسرين من تعيين نوع الإفساد والإصلاح، ينبغي أن يحمل

---

(١) مفردات الراغب. ولسان العرب، مادة (صلح).
(٢) لسان العرب، مادة (صلح).
(٣) مفردات الراغب، مادة (صلح).
(٤) المحرر الوجيز (٧/ ٧٩).

ذلك على التمثيل ؛ إذ ادِّعاء تخصيص شيء من ذلك لا دليل عليه ، كالظلم بعد العدل ، أو الكفر بعد الإيمان ، أو المعصية بعد الطاعة»[١] .

هذا معنى ما قاله المفسِّرون عند آية الأعراف ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] . وخلاصته: «أن لا تفسدوها بعد إصلاح الله إياها ، بأن خلقها على أحسن نظام وبعث الرسل وبين الطريق وأبطل الكفر»[٢] .

وعلى ضوء هذا الفهم لمعنى الإصلاح في القرآن ، نستطيع أن نقرر مطمئنين: أنَّ الإصلاح الذي أمر به القرآن صراحة أو إيماءً ، أو مدح أهله المتَّصفين به ، أو ذم المعرضين عنه أو الفاعلين لضده . . . أنه يتسع ليشمل كل صور الإصلاح التي يحبها الله ويرضاها ، مما ينفع الإنسان في دنياه وآخرته ، مما عرفها أو يمكن أن يعرفها الإنسان ، منذ فجر التاريخ إلى قيام الساعة .

وإذا كان الصلاح معنى كلياً يقابل الفساد بمعناه الكليّ ، فإنَّ المصلحين بهذا المعنى يكونون في مقابلة المفسدين ، وهم ضروب شتى ، يُعرفون بسيماهم ، وتشهد عليهم آثارهم .

فالملأ المسرفون ، ديدنهم الإفساد والدعوة إلى الفساد .

قال تعالى عن صالح ﷺ أنه قال لقومه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٥٢] .

والمنافقون عملهم إفساد ، ويسعون للإفساد .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ ، ١٢] . وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ، ٢٠٥] .

وسياسة الناس بشريعة الله إصلاح ، وترك ذلك إلى غيره فساد وإفساد .

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٣١١ ، ٣١٢) .
(٢) تفسير القاسمي (٧/ ١٥١) ، ونسبه إلى أبي مسلم .

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

والذين يتآمرون على الحق وأهله ودُعاته مفسدون، وسعيهم محض فساد وإفساد.

قال سبحانه: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩].

والتجبر في الأرض والتسلّط على الناس بالإيذاء والقتل، من أخص صفات المفسدين. ولهذا لا تتصور النفوس بفطرتها أن يكون ذلك من صفات المصلحين.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص: ١٩].

وحماية حقوق الضعفاء والأيتام إصلاح، وضد ذلك إفساد.

قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وهكذا يميز الله في كتابه للناس بين الصلاح والفساد، والإصلاح والإفساد، والمصلحين والمفسدين، ويذكر لكل منهما أوصافاً عامة ثابتة مطردة، ويضرب لكل منهما بعض الأمثلة التفصيلية؛ ليقيس الناس على ما ذكر ما لم يذكر.

وإذا انتكست الفِطَر، وانقلبت الموازين والتصورات، جاء الإنسان بما يُضْحَكُ منه، وناقض طبيعة الأشياء. فتراه تارة يسمى الكيد للحق وارتداء عباءة النفاق، إصلاحا!

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

وتُلفيه أخرى يسمى قمة الطغيان والتألّه على الخلق، إصلاحاً. ويرمي أئمة الإصلاح، بالعمل على إشاعة الفساد وإظهاره!

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦].

. . . إلى أمثلة أخرى كثيرة ، وهي ـ وإن كانت أمثلة مسطورة في كتاب الله تعالى ـ فإنَّها مكرورة في دنيا الناس على مدار التاريخ .

تلك إشارات أرجو أن تكون ـ أخي الكريم ـ تصورت من خلالها:

* معنى الإصلاح ، وحدوده في القرآن .

* ومن هم المصلحون الحقيقيون بشهادة القرآن .

* وأن يكون ظهر لك بجلاء:

ـ أنّه لا يمكن لأمّة أن تستغني عنهم ، إذا ما أرادت لنفسها النجاة والفلاح في الدنيا قبل الآخرة .

ـ وأن الأمم هي المسئولة أولاً وأخيراً عن الحيلولة بين المصلحين وبين أن يَبلغوا بإصلاحهم مداه .

وببلوغ هذه الغاية ، أكون قد بلغت بك منتهى ما أردت شرحه مما يتعلق بالفصل الأول: مجال الحماية والوقاية . وأنتقلُ بك إلى الفصل الثاني: **(مجال الابتلاء والتمحيص)** .

* * *

الفصل الثاني

مجال الابتلاء والتمحيص

الابتلاء: هو الاختبار لمعرفة حقيقة الشيء، جودةً ورداءةً.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

والتمحيص: من المحص، وهو تخليص الشيء مما فيه من عيب، فهو كالتزكية والتطهير.

قال سبحانه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١][(١)].

والابتلاء والتمحيص يكون بالخير والشر، بالحسنات والسيئات، ويقع على الأفراد والجماعات والأمم، المؤمنة والكافرة، في أحوالها كافة، قوة وضعفاً، بداية ووسطاً ونهاية. سُنَّة ماضية ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

ويقع الابتلاء والتمحيص على الأفراد والأمم؛ لِحِكَم وفوائد عظيمة. وفوائده راجعة إلى ذات المكلفين، بل هو رحمة ولطف من الله بهم، وإن بدا لأكثر الخلق بخلاف ذلك.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقد عرض القرآن الكريم لهذا الجانب في حياة الأفراد والأمم بصورة مفصَّلة، وبيَّن في مواضع أن ذلك سُنَّة يأخذ الله بها عباده، فلا استثناء ولا محاباة.

وفي الصفحات التالية ـ بإذن الله تعالى ـ سأعرض بالتفصيل لـ:

* ابتلاء الأمم عامة بالسرَّاء والضرَّاء، وأُبيِّنُ موقفها من ذلك.
* وأُثنّي ببيان سُنَّة الله في إمهال الأمم والإملاء لها؛ لأنَّ ذلك محل ابتلائها.
* ثم أَخُصُّ ابتلاء الله عباده المؤمنين بسبب إيمانهم بمبحث مستقل.

وأسأل الله الإعانة والتسديد.

---

(١) انظر: مفردات الراغب، مادة (بلى)، و(محص).

ابتلاء الأمم بالسرَّاء والضرَّاء وموقفهم من ذلك

أخذ الأمم بالبأساء والضراء، وابتلاء الأفراد والجماعات في هذه الحياة الدنيا، من السُّنن الإلهية العظيمة، وقد استودع الله ـ جل وعلا ـ فيها من الحكم والمنافع لهذا العالم ما لا يعلمه إلا هو سبحانه.

وقبل الشروع في الحديث عن هذه السُّنة على مستوى الأمم، فإن من المفيد أن أُقدِّم بين يدي ذلك بإشارة إلى الابتلاء في حياة الإنسان بصفة عامة، فأقول:

ليست الحياة الدنيا سوى رحلة قصيرة يقطعها الإنسان على هذا الكوكب، تبدأ لحظة يولد، وتنتهي بمفارقة روحه جسده لحظة الوفاة.

وهي رحلة قصيرة مهما تطاولت في حسّ الإنسان، لا ينفك يبتلى فيها بألوان الابتلاء. فهي ـ أعني الحياة ـ في ذاتها ابتلاء. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

والإنسانُ خُلِقَ وأُوجد فيها للابتلاء. ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

وكل شيء على ظهر هذه الأرض جعل زينة للابتلاء. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]، ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وهكذا، فلا راحة ولا قعود: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]. ولا فوضى ولا إهمال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

المؤمن مبتلى بإيمانه: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٢]. والكافر مبتلى بسبب كفره وعصيانه: ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾[الأعراف: ١٦٣].

والمؤمنون والكافرون بعضهم لبعض فتنة: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٠]، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ [الأنعام: ٥٣]، ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [محمد: ٤]؛ أي: ليبلو الرسل وأتباعهم بالشياطين وأتباعهم. ويبتلي أتباع الشياطين بالرسل وأتباعهم، لما بين هؤلاء وهؤلاء من العداوة الراسخة منذ القدم، كما قال سبحانه مخاطباً آدم وزوجه وإبليس: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [الأعراف: ٢٤]، ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [طه: ١٢٣].

وأرسل الرسل وأنزل الكتب وشرع الشرائع، يبتلي بذلك عباده، من يطيعه منهم، ومن يعصيه. ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

وبالجملة فإن كل مخلوق؛ حالُه دائرة بين أمرين: خير أو شر، حسن أو سيء، وكلاهما فتنة وابتلاء. ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وهذه ألفاظٌ عامة، فيدخل فيها كل أحوال الإنسان، في نفسه وبدنه وماله وولده، وكل ما يتصل به.

وغاية هذه الابتلاءات تَبيّنُ ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢]؛ ليكون أحسن جزاء، وأيكم كان دون ذلك، فيكون جزاؤه بحسبه.

إذا تقرَّرَ هذا، وهو أن الابتلاء يكون في كل شيء، ويقع على كل مخلوق، فلنخط الخطوة الثانية، إلى مجموعة الأفراد... إلى الأمم.

لماذا تُبْتَلَى؟ وبماذا تُبْتَلَى؟ كيف يأخذها الله بالحسنات والسيئات؟ ما سُنَّته تعالى في ذلك؟

ومن المهم أن نستحضر ونحن ندرس أحوال الأمم أن أحوالها تُعرف بمعرفة أحوال أغلب أفرادها. وأنَّ أعمارها تمتد لتزيد أضعافاً مضاعفة عن عمر الأفراد فيها[1]. لأنَّ استحضار ذلك، يساعد في فهم ما نحن بصدد دراسته.

ولهذا، فقد يجني جيلٌ ما، ثمرة مُرَّة، لم تكن له يد في غرس أصولها، وإن كانت له يد في استمرارها وبقائها. وقد يتفيَّأ جيل ظلالاً وارفة، لم يجاهد في تحصيلها، وإن كان يمكنه أن يجاهد من أجل أن تبقى وتستمر.

ولنعد إلى السُّنة التي نحن بصدد دراستها: سُنَّة الله في ابتلاء الأمم.

لماذا تُبْتَلَى؟ وبماذا تُبْتَلَى؟ كيف عرض القرآن لهذه السُّنة؟

فماذا نحن واجدونّ؟

سنجد بوضوح أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبتلي الأمم ـ كل الأمم ـ بالخير والشر، بالحسنات والسيئات، لتراجع مسيرتها، وتستقيل من عثراتها، وتصحح أخطاءها؛ أي لترجع إلى ربها.

تُبْتَلَى بالخير: وهو كل ما يرغب فيه، محسوساً كان أم معقولاً، وضده الشر، وهو كل ما لا يرغب فيه، محسوساً كان أم معقولاً.

وتُبْتَلَى بالحسنات: وهي جمع حسنة، والمراد بها: الحالة الحسنة التي تحسن عند صاحبها، وضدها السيئة، وهي التي تسوء صاحبها.

ولفظ «الخير» و«الحسنة» لفظان عامان جامعان، فيدخل في معنى الخير والحسنة: كل مرغوب محبب إلى النفوس، ميسور من الأمور، كالصحة في الأبدان والأمن في الأوطان والسعة في الأرزاق، والتمتع بأنواع المُتع والمشتهيات، واستقامة الأحوال، وكالتمكين في الأرض والنصر على العدو، وما أشبه ذلك.

ويدخل في معنى «الشر» و«السيئة» أضداد ذلك، كالأمراض وأنواع المخاوف والشدائد والفقر وفساد الأحوال، وكالتشريد والهزائم وأنواع الفتن وعموم المفاسد في شئون الدين والدنيا، وما أشبه ذلك.

---

(١) وقد سبق تقرير هذين المعنيين في المقدمة الثالثة من مقدمات التمهيد.

يبتلي الله ـ جل وعلا ـ الأمم بذلك كله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، عن غيهم، و﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، ويستكينون إلى ربهم، و﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] أنَّ ما حلَّ بهم بسبب ذنوبهم وإعراضهم، فيتوبون إلى الله، ويصلحون ما فسد من أحوالهم.

وهذا من رحمة الله بهم وتعطفه عليهم أن صرَّف لهم الآيات وقلَّب بهم الأحوال، ونوَّع عليهم الحوادث، بما يحبون وبما يكرهون، ولو تركهم على حال واحدة لتمادوا في الغفلة، وأسرع إليهم الفساد، ولكنه ـ سبحانه ـ أمهلهم وآتاهم من الآيات ما فيه مزدجر؛ ليوقظهم بها فيرجعوا زمن الإمهال.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

وقال عن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقال عنهم أيضاً: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨]. وقال: ﴿وَءَاتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٣].

ومن هذه الآيات ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

وقال عن كفار قريش ومن على شاكلتهم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الْأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤]. وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

ومن تصريف الله الآيات وتنويع الأحوال للأمم لترجع عما هي فيه: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يهلك جيرانها وما حولها من القرى والممالك.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

وهو ـ سبحانه ـ يربيها بذلك ؛ يصرف لها الآيات وينقلها من حال إلى حال ؛ إبقاء عليها ، وإعذاراً إليها .

والأمم كالأفراد ، كثيراً ما تنحرف عن الجادة وتستحكم فيها الغفلة فتمضي هائمة على وجهها مترددة في غيها ، فرحة بما هي فيه إن كان نعمة ، يائسة مبلسة إن كان ضراً وشدة . ولو تركت وحالها ، لبغت في الأرض ، وتجاوزت الحد في الطغيان عند النعمة ، ولقنطت وتبددت ، وتملَّكها اليأس عند الضرّ والشدَّة .

قال تعالى مبيناً حال هذه الأمم في النعماء: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[غافر: ٨٣] . وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٥] . وقال في بيان حالها في البأساء: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦ ، ٧٧] . وقال تعالى ذاكراً شأنها في الحالين: ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى: ٤٨] . وقال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٦] . وقال في سورة هود: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [هود: ٩ ـ ١١] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

فليس ثمَّت إلا الفرح والفخر والبطر عند النعم والخير والحسنات ، أو اليأس والقنوط والإبلاس عند أضداد ذلك . ولا واسطة بينهما ؛ لأنَّهم بسبب إمعانهم في الضلال لا يفكرون في غير اللَّذّات الدنيوية ، فتجرى انفعالاتهم على حسب ذلك ، ولا يتفكرون في أسباب النعيم والبؤس ، وتصرفات خالق الناس ومقدِّر أحوالهم ، ولا يتعظون بتقلبات أحوال الأمم[1] ، فلذلك يكون فرحهم بالنعم فرح بطرٍ وأشرٍ وإعجاب بالنفس وتكبّر على الخلق ، إذا فرحوا . . . هذه حقيقة الفرح عندهم ، وتلك هي آثاره عليهم .

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢).

وهم ـ مع ذلك ـ يجمعون إلى تلك السيئة سيئة أخرى أشنع منها، إذ ينسبون إلى أنفسهم الفضل فيما هم فيه من النعم والحسنات، ويزعمون «أنّهم أحرياء بالنعم، أي فلا يرون تلك الحسنة فضلاً من الله ونعمة»(١).

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠].

وقال عن آل فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ﴾[الأعراف: ١٣١]. هكذا ﴿لَنَا﴾ بـ «لام الاستحقاق، أي: هذه الحسنة حق لنا»(٢).

ويكون بأسهم وقنوطهم مصحوباً بالتسخط على ما انتابهم، وبجحود وإنكار أن يكون الله ـ تعالى ـ قد أنعم عليهم نعمة قبل ذلك. ويقوم في أنفسهم من سوء الظن بربهم ما لا يرجون معه فرجاً، فيرتكسون في الكفر حتى يأخذهم العذاب وهم في شرّ حال. نعوذ بالله من ذلك.

وقد يقول قائل: إنّه قد جاء في القرآن ـ في آيات منه ـ أن هذه الأمم أو بعضها، إذا مسهم الضر، أو وقع عليهم الرجز ورأوا البأس، وظنوا أنهم أُحِيطَ بهم، وما أشبه ذلك، أنهم يؤمنون بالله ويخلصون له الدعاء، ويكفرون بما كانوا به مشركين. وهذا الفعل توبة منهم ورجوع إلى الله، والله إنما يبتليهم ليرجعوا إليه. فما وجه ذلك؟

والجواب: أنه لا تعارض ـ بحمد الله ـ بين هذا القول وبين ما تقرر من قبل، من أن الأمم في جملتها لا يصبرون عند الضراء، ولا يشكرون عند السرّاء.

وتظهر عدم معارضته من وجوه، أظهرها ـ فيما تبيَّن لي ـ وجهان:

الأول: أنَّ هذه الأمم غير صادقة فيما تتفوَّه به أو تدَّعيه من الإيمان والتوبة. ولو كانت صادقة، لما نكثت وارتدَّت إذا انجاها الله مما هي فيه من الكرب والضرّ والخوف.

وما إخلاصهم إلا رغبة في النجاة، لا حُبّا في الإخلاص أو صدقاً فيه، فهم يحتالون به لينجوا ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، والله يستجيب لهم فينجيهم ابتلاءً لهم وامتحاناً. وآيات القرآن صريحة في هذا.

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٦٥).
(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٦٥).

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ٦٣ ، ٦٤] ، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ﴾ [يونس: ٢٢ ، ٢٣] .

وقال عن بني إسرائيل: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤ ، ١٣٥] ، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٣ ، ٣٤] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

ولهذا لما صدق قوم يونس ﷺ في إيمانهم ، كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعهم إلى حين .

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨] .

ثانياً: أنَّ إيمانهم اضطراري ، ألجأتهم إليه الضرورة ، ولو كانوا مختارين لما آمنوا ولا تابوا . وهذا النوع من الإيمان لا ينفع أصحابه .

ولو تأمّلت النصوص السابقة وما كان في معناها ، وجدت أن الإيمان فيها كلها لم يصدر إلا عن ضرورة ملجئة من خوف أو أذى ، أو نحوهما .

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤ ، ٨٥] . وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ

* قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٥].

وفرعون الطاغية، لما أدركه الغرق: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فردَّ الله عليه توبته بقوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

وقد أوضح هذين الوجهين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ولخَّص معنى ما سبق في تعليقه على آية يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [يونس: ٩٨].

يقول ـ رحمه الله ـ: «لولا: هلا، هذا قول أئمة العربية، وعن ابن عباس: لم يكن، فذكر أنه لم يكن قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس، وهذا حق. وقتادة ظن أن المعنى: أنه نفعهم دون غيرهم، وليس كذلك، بل غيرهم لم يؤمن إيماناً ينفع، وهؤلاء آمنوا إيماناً ينفع. والاستثناء حجة لنا؛ لأنه منقطع، ولو اتصل لرفع، وهو كالاستثناء في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [هود: ١١٦].

ومما يبيِّنُ ذلك: أنها تخصيص وذم لمن لم يفعل، وهو يقتضي أن القرى لو آمنوا نفعهم، ولكن لم يؤمنوا، وهذا هو الصواب؛ لأنه ـ تعالى ـ قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤] الآيات... فأخبر أن هذه سنته، وسننه لا تبديل لها.

وأيضاً، فإنه سبحانه عدل لا يفرق بين متماثلات، وكشف العذاب عنهم حق، رأوه أم لا، فإنه نوعان: نوع يتيقن معه الموت، ونوع لا يتيقن، ومن تاب كشف عنه هذا العذاب، والمريض تقبل توبته ما لم يغرغر، وإن كان مرضاً مخوفاً.

وقوله: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يبيِّنُ أن المكشوف عذاب في الدنيا، ولو لم يفسر فهو مجمل، والقرآن فرق بين النوعين، فقوم يونس آمنوا إيماناً نفعهم، وآمنوا قبل حضور الموت، وغيرهم إما أن يكون كاذباً في إيمانه كقوم فرعون[1]،

(١) وقد مرَّ بك قوله تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥].
يعني: ينقضون العهد الذي قطعوه على أنفسهم بالإيمان ومتابعة موسى ﷺ وإطلاق سراح بني إسرائيل من أسر الاستذلال والاستعباد.

وإما بعد حصول الموت، كالذين قال فيهم: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غافر: ٨٥][(١)].

وهذا يكشف لنا من جانب آخر، حقيقة ضخمة سجّلها القرآن على الأمم فيما يتعلّق بحالها في السرّاء والضرّاء. هي أن الأمم، كثيراً ما تنسى حالها السابقة، وما كانت عليه من قبل، فلا تذكرها ذكر اعتبار، ولا تريد أن تذكرها بهذا المعنى.

كما أنّها تهمل النظر ـ من باب أولى ـ في أحوال الأمم قبلها، كيف كانوا، وإلى أي شيء صاروا؟ وتستغرقها اللحظة الحاضرة والحال الراهنة، فلا تطيق رؤية شيء آخر من ماضٍ أو مستقبلٍ، وكأن لسان حالها ـ وربما أيضاً لسان مقالها ـ يقول: إنَّ دورة التاريخ توقفت، أو يجب أن تتوقف عند هذه المرحلة.

وهي بهذا المنطق لا تنتفع بالذكرى، ولا تنفع فيها الذكرى ـ غالباً ـ ولا يكون في أحداث التاريخ لها زاجر وواعظ، ما دامت على تلك الحال؛ لأنّها أهملت الأسباب الشرعية والعقلية.

وهذا ليس في أمة دون أمة، بل الأمم كلها كذلك إلا من رحم الله.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ [الأعراف: ٩٤، ٩٥].

قال ابن جرير عند هذه الآية: «هذا خبر من الله عن هؤلاء القوم الذين أبدلهم الله الحسنة السيئة التي كانوا فيها استدراجاً وابتلاءً، أنهم قالوا، إذ فعل ذلك بهم: هذه أحوال قد أصابت من قبلنا من آبائنا، ونالت أسلافنا، ونحن لا نعدو أن نكون أمثالهم يصيبنا ما أصابهم من الشدَّة في المعايش والرخاء فيها. وجهل المساكين شكر نعمة الله، وأغفلوا من جهلهم استدامة فضله بالإنابة إلى طاعته، والمسارعة إلى الإقلاع عما يكرهه بالتوبة، حتى أتاهم أمره وهم لا يشعرون. بل هم بأنه آتيهم مكذبون، حتى يعاينوه ويرَوْه»[(٢)].

---

(١) المسائل التي لخصها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب من فتاوى الإمام ابن تيمية، للإمام محمد بن عبد الوهاب، ص٦٧، ٦٨. وقد أتممت بعض الآيات في النص؛ إيضاحاً للمقصود.

(٢) تفسير ابن جرير (٩/٨، ٩).

وتلك عاد، لما ذكرهم هود ﷺ ما هم فيه من النعيم، مع ما هم مقيمون عليه من العبث والجبروت، وأظهر خوفه عليهم أن يحلّ بهم بسبب ذلك عذاب عظيم. «ما كان جوابهم إلا أن قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦ ـ ١٣٨]، يعنون: ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين، أو دينهم وما هم عليه من الأمر، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد»(١).

وقال السعدي عند قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، قال: «يفرح ويبطر، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير»(٢).

ومن مظاهر نسيان الحال السابقة: اليأس من عود الحال الحسنة، وهذا عند الضراء وهو نقيض الحال السابقة: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩]، يستسلم لليأس وينقاد للقنوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها أو خيراً منها عليه(٣).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١]، وهم من وفقه الله وأخرجه من هذا الخُلُق الذميم إلى ضده. فصبروا أنفسهم عند الضراء فلم ييأسوا، وعند السراء فلم يبطروا(٤). وأولئك مستثنون من عموم جنس الإنسان.

ولم يزل الأنبياء وأتباعهم يذكّرون أممهم ما أغفلته أو نسيته من حالها التي كانت عليها من قبل، ومن أحوال الأمم قبلها. ولم تزل الأمم تخالف إلى ما نهيت عنه، متجاهلة كل النذر والتحذيرات.

فهذا هود ﷺ يقول لقومه مذكراً لهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]. فما كان جواب قومه إلا أن ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٢).
(٢) تفسير السعدي (٣/ ١٩١).
(٣) تفسير السعدي (٣/ ١٩١). وانظر: جامع الرسائل، لابن تيمية (٢/ ٣٥٨).
(٤) تفسير السعدي (٣/ ١٩١) بتصرف

وصالح ﷺ يقول لقومه أيضاً: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]. فأعلنوا كفرهم، واعتدوا على الآية التي جاءهم بها صالح ﷺ بعد طلبهم إياها، والتي كان مرجواً أن تكون سبباً في إيمانهم ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

ونبيّ الله شعيب ﷺ يذكر قومه ما كانوا عليه من القلّة، وما صاروا إليه من الكثرة بقوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾[الأعراف: ٨٦]. ويُثنّي بذكر مآل المفسدين من قبلهم: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]. فما كان جزاؤه إذ نصح لهم إلا أن قالوا له على لسان الملأ منهم: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٨].

ورسول هذه الأمة، محمد ﷺ يذكر المؤمنين ما كانوا عليه إلى عهد قريب من القلّة والاستضعاف والخوف، وما آل أمرهم إليه من القوة والأمن وسعة الرزق. ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[الأنفال: ٢٦]؛ أي: لتشكروه فتعبدوه وتوحدوه ولا تشركوا به شيئاً. فانتفع بهذه الذكرى المؤمنون، واعترفوا بمنة الله عليهم في ذلك كله. أمّا المشركون، فكما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]؟

وبهذا نعلم أنّ هذه الأمم لم تتذكر شيئاً من ذلك تذكر اعتبار، على حين أنها اطمأنت إلى ما هي فيه. فلا هي أخذت العبرة من ماضيها ومن القرون قبلها، ولا هي أحسنت التصرف في حاضرها واتعظت بمن حولها.

وخلاصة القول:

* أن من سنن الله في الأمم، أنه يبتليها، مؤمنها وكافرها، بالحسنات والسيئات، ويصرّف لهم الآيات، ولم يعرف التاريخ أمة واحدة كانت على حال واحدة في الخير أو الشر.

* وأن الحكمة من هذا الابتلاء بنوعيه، إيقاظهم وتحذيرهم؛ رجاء أن يرجعوا إلى ربهم ويتوبوا إليه، لطفاً منه ـ سبحانه ـ بهم، فإن هم رجعوا وأنابوا، كان خيراً لهم في الحالين.

* وأن الأمم في جملتها، لم يزدهم ابتلاؤهم بالنعماء إلا غروراً بأنفسهم وفرحاً وبطراً، وتكبّراً على الحق وعلى الخلق. ولم يحملهم ابتلاؤهم بالبأساء والضراء إلا على الكفر والجحود، واليأس وسوء الظن بالله وبموعوده، فكانت كلّ من الحالين شراً لهم[1]، إلا من رحم الله منهم، وهم قليل.

* وأنّ الذي صيَّرهم إلى تلك الحال، هو تعطيلهم الأسباب الشرعية والعقلية، فصاروا، يسعون أبداً ضدّ مصالحهم الدينية والدنيوية، وهم يزعمون أنهم يحسنون صنعا.

* * *

(١) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية (٢/ ٣٤٢، ٣٥٢، ٣٥٣).

الفصل الثالث

مجال التحذير والتهديد

مرَّ بنا في الفصل الثاني، أنَّ الله - تبارك وتعالى - يبتلي الأمم بأنواع الابتلاءات، وينوع عليهم الآيات لعلهم يتقون ويرجعون إليه، ويكفون عما هم فيه من أنواع المعاصي والمخالفات. ومع كل ذلك، فقلَّما ترعوي وتتوب هذه الأمم، وتُصَحِّح من أوضاعها(١).

ونحن إذا تأمَّلنا في مظاهر الابتلاء بالخير والشرّ، وجدنا أنها تقع - غالباً - في محيط الأمة نفسها؛ وذلك كالجوع والخوف والمرض، وكالصحة والقوة وسعة الرزق، ونحو ذلك مما جرى تفصيله.

قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. وقال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥]. وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ: ١٥]... وغير ذلك من الآيات. وكلها تذكر أنواعاً من الابتلاءات الواقعة في محيط الأمة، من داخلها، وليس بسبب التسلط الخارجي والاعتداء من الغير.

وهذه الابتلاءات المتنوعة، هي في حقيقتها تحذيرات موجهة إلى الأمم؛ لأنَّ في تقلّب الأحوال نذيراً وعبرة ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور: ٤٤].

كما أن في استقرارها واستتباب أحوالها مع الكفر أو الفسوق نذيراً وتهديداً للأمة أعظم من سابقه. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

(١) وقد سبق بيان ذلك وتفصيله.

وليس الحديث في هذا الفصل عن هذين الضربين، وإن كان التحذير ظاهراً في كل منهما، ولعل فيما تقدَّم غنية وكفاية. وإنَّما سأتحدَّث عن التحذير والتهديد الذي يوجه إلى الأمم في مجال آخر غير الذي يكون ويقع في محيطها.

سأتحدث عن التحذير والتهديد الذي يوجهه القرآن إلى الأمم ليلقي في روعها دروساً بليغة من خارج محيطها، ممن سبقها، وممن حولها من الأمم والشعوب.

وهذا الجانب يعد جزءًا من منهج القرآن في تربية الأمم، وتقويمها حتى تستقيم على الجادة، أو تدركها سُنَّة الإهلاك، بعد أن تكون استنفدت أغراضها ولم ينجع فيها دواء ولا طبيب.

والغاية من هذا، كالغاية من الابتلاء، أو هو مكمل له، بحيث يجمع الله للأمة بين الموعظة والذكرى في نفسها، وفي غيرها رحمة بها، وإعذاراً إليها.

وقد عُني القرآن بهذا الجانب، ونوَّع فيه من الأساليب، لتحقيق أبلغ الأثر، وتمشياً مع اختلاف أحوال الأمم، وتنوع المخالفات فيها.

وفي الصفحات التالية أذكر أبرز الأساليب التي اتبعها القرآن في تحذير الأمم من المخالفات، وتهديدها إن هي فعلت ذلك بأنواع العقوبات.

فمن ذلك: استحضار أحوال المكذبين في الأمم السابقة، وما كان من سُنة الله فيهم، وما أحَلَّ بهم من الْمَثُلات.

وهذا باب واسع، وَلَجَ منه القرآن الكريم لتحذير الأمم من أكثر - إن لم يكن من كل - أخطائها؛ العقائدية والسلوكية والتصورية وغيرها.

وثمرة ذلك وفائدته: أن الأمم - في الغالب - قد لا يجدي فيها أن تنهى بصورة نظرية فقط عما يَضُرّ بها، ويكون سبباً في هلاكها، كالشرك والكفر، أو إشاعة الفاحشة ومقارفة الجرائم الخلقية، أو الظلم وهضم الحقوق والاعتداء على الآخرين ومحاربة الحق وأهله، وكالترف والبَطَر والغرور بالقوة وسعة الملك وكثرة العدد... ونحو ذلك.

إنه لا يغني فيها ولا يجدي أن تُنهى عن ذلك فقط، بل لا بد أن تَشْعُرَ بأن الأمر جدٌّ، وأنها سنة ماضية، وذلك باستحضار أحوال الأمم السابقة وما جرى عليها.

ولا يكاد القرآن يذكر حال أمة أو أمم وما جرى لهم، إلا ويعقب على ذلك التحذير من عاقبتهم، والأمر بمجانبة سبيلهم، واتباع الحق الذي جاء من عنده سبحانه.

كذلك كان يفعل القرآن الكريم، وإليك الأمثلة:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٣، ١٤].

«فهذه أخبار فعائلنا بسوالفكم من الظالمين والمجرمين، وما أنتم إلا أمة من بعدهم، وليس بيننا وبينكم من سبب تنجون به من مصارعهم، إلا ما كنتم تعملون، فتخيروا لأنفسكم»(١).

ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «**إنّ الله تعالى إنّما جعلنا خُلَفاء لِيَنْظُرَ كيف عملنا، فأروا الله حسن أعمالكم في السّر والعلانية**». وكان يقول: «**قد استُخلِفت يابن الخطاب، فانظر كيف تعمل**»(٢).

وقال سبحانه: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦].

فهذه القرى المُهْلَكَةُ المُدمَّرة على من فيها، فأين أنتم منها؟! ما أهلكناهم إلا بسبب الظلم والبغي ومخالفة الحق.

ومِنْ ظُلْمِهِم وبغيهم: استهزاؤهم بالرُّسل وبما معهم من الحق والهدى.

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤١].

ومِنْ ظُلْمِهِم وبغيهم: بَطَر المعيشة وكُفْر النعمة وجعلها في غير طاعة الله، بل استخدامها في معصية الله، وكونها سبباً في الجرأة على الله وعلى حرماته، والغفلة ونسيان الدار الآخرة.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٩/ ١٩).
(٢) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٩/ ١٩).

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨]. وقال: ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٩].

ويجمعُ الظلمَ والانحرافَ العتوُّ عن أمر الله ورسله، وعدم الرضوخ لأوامره ونواهيه والامتثال لأحكامه، ولهذا يذكر الله عقوبته للمخالفين تعقيباً على تفصيل بعض الأحكام.

فها هو القرآن بعد أن فصَّلَ أحكام الطلاق، وهي مسألة اجتماعية، ذكر عقبه مصير العتاة المخالفين أمره وأمر رسله.

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الطلاق: ٨ ـ ١١].

قال القرطبي عند هذه الآيات: «لَمَّا ذكر الأحكام، ذكَرَ وحذَّر مخالفة الأمر، وذكر عتوّ قوم وحلول العذاب بهم ﴿ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾؛ أي: جازيناها بالعذاب بالجوع والقحط والسيف والخسف والمسخ وسائر المصائب في الدنيا. ﴿ وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾؛ أي: هلاكاً في الدنيا بما ذكر، وفي الآخرة جهنم»[(١)].

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾؛ «أي: احذروا يا أولي الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم»[(٢)].

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٧٣) باختصار وتصرف.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٨٤).

وكما يذكر الله الأمم والقرى المكذّبة بعامة، فإنّه أيضاً يسمي أمما بأعيانها وقد يجمع بين التخصيص والتعميم، كقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٥ ـ ٣٩].

وفي قوله: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ أعظم وعيد وأبلغ تهديد؛ أي: فهذه الأمثال، وهي الأشباه المشابهة لحالكم بين أيديكم، فقد قامت عليكم الحجَّة كما قامت على مَنْ قبلكم، وقد أهلكناهم وكسرناهم ودمرنا عليهم، فهل تنتظرون إن أعرضتم إلا مصيراً كمصيرهم ومهلكاً كمهلكهم[(١)]؟

وقوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم: ٧ ـ ٩].

وقوله سبحانه مهدداً كفار قريش: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٧ ـ ٣٩].

ولما قصَّ ـ جل وعلا ـ في سورة القمر نبأ المكذبين وما أحَلَّ بهم من العقوبات، التفت بالخطاب إلى هذه الأمة مهدداً المكذبين منهم: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٣ ـ ٤٥]... إلى غير ذلك من الآيات[(٢)].

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٣/ ٣٦٩). وزاد المسير، لابن الجوزي (٦/ ٩١).
(٢) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٨٨)، (٣/ ٤٨٩)، (٧/ ١٤).

«وقد بيَّن ـ تعالى ـ أن المراد بذكر إهلاك الأمم الماضية بسبب الكفر وتكذيب الرسل، تحذير كفار مكة وأشباههم، وتخويفهم من أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك إن تمادوا في الكفر بالله وتكذيبه ﷺ. وقد ذكر تعالى ذلك في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾ تهديد عظيم بذلك. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، فقوله: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ فيه تهديد عظيم لمن يعمل عمل قوم لوط من الكفر وتكذيب نبيهم، وفواحشهم المعروفة»[1].

ويُقاسُ على ذلك، سائر ما حكاه القرآن من قبائح أعمال الأمم السابقة، أن المقصود والغاية منه، تحذير مَنْ بعدهم أن يفعلوا فعلهم فيحلّ بهم ما حلَّ بهم.

*** ومن أساليب التحذير التي يذكرها القرآن في هذا المجال: النهي عن مشابهة المهلَكين في أحوالهم التي أوجبت لهم الهلاك.**

وهذا أسلوبٌ، التحذيرُ فيه أبيَن، على حين أن التهديد والوعيد في الأسلوب السابق أبين، وإن كان كل منهما متضمناً معنى الآخر، خصوصاً إذا علمنا أن النهي عن مشابهة أحوال المهلكين ليس نهياً مجرداً، وإنَّما هو نهي مصحوب ـ غالباً ـ ببيان عاقبة أمرهم، وما حل بهم بسبب فعل ما نهوا عنه، أو ترك ما أُمِرُوا به، أو باجتماع الأمرين.

ومعلوم أن النهي عن مشابهتهم في أحوالهم وأفعالهم، يستلزم النهي عن الرضا عنهم أو الكون معهم، فضلاً عن استعمالهم أو توليهم؛ لأنَّ بين هذه الأمور قاسماً مشتركاً، ألا وهو: القبول والسماح من حيث المبدأ بملابسة أسباب الهلاك والعقوبة، والتعايش مع فلول المهلكين في خندق واحد وعمل مشترك، وهم ما زالوا مقيمين على موجبات الهلاك والعقوبة، وهذا عينه هو سرّ النهي.

وثمّت ملحظ آخر يمكن أن يكون فارقاً بين هذا الأسلوب والذي قبله، هو: أن الأسلوب الأول يَتَّجِه التهديدُ فيه ـ غالباً ـ إلى المكذبين والمعاندين، أمَّا النهي والتحذير في هذا الأسلوب، فالخطاب فيه ـ غالباً ـ مع المؤمنين.

---

(١) أضواء البيان (٧/ ١٥). وانظر: (٢/ ٣٨٨)، (٣/ ٤٨٩).

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠، ٢١].

أمرهم بطاعته وطاعة رسوله، ونهاهم أن يكونوا بعد أن سمعوا الحق:

كالذين قالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ وهم الكافرون المشركون(١) الذين إذا تليت عليهم آيات الله ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣١]. وأهل الكتاب الذين ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ ﴾ [النساء: ٤٦]. والمنافقون الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ ﴾ [محمد: ١٦].

فكان عاقبة هؤلاء جميعاً، أن باءوا بغضب الله وسخطه وعقوبته في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۞ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۞ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٥].

«اشتملت هذه الآيات على جِمَاع ما يحب الله أن يكون عباده المؤمنون عليه من التقوى واجتماع الكلمة على الحق، ومن الدعوة إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وتلك معاقد الخير لكل أمة وطائفة. ونهاهم عن أضداد ذلك مما يكرهه لهم ومنهم من التفرق في الدين واختلاف الكلمة... وأخبر أن هذا الذي يكرهه ـ سبحانه ـ قد وقع ممن كان قبلكم من الأمم، فكان سبب عقوبة الله إياهم، فاحذروا ذلك ولا تكونوا مثلهم»(٢).

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٨/ ٣٧).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٧، ٣٩٠).

ومثل هذه الآية: قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[الروم: ٣١، ٣٢].

وقد بيَّن - تعالى - في بعض المواضع، أن بعض الناس لا يجتنبون هذا النهي، وهددهم على ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، لأنَّ قوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ فيه تهديد عظيم لهم.

وقوله تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٢ - ٥٤]. فقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: شريعتكم شريعة واحدة، ودينكم دين واحد، وربكم واحد، فلا تتفرقوا في الدين. وقوله جل وعلا: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ دليلٌ على أنهم لم يجتنبوا ما نهوا عنه من ذلك. وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ فيه تهديد لهم ووعيد عظيم في ذلك.

ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٢، ٩٣]. فقوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ «فيه أيضاً تهديد لهم ووعيد على ذلك»(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤٤].

(١) أضواء البيان (٧/ ١٧٨).

لَمَّا بيَّنَ الأسباب الجالبة للنصر المؤهلة للتمكين في الأرض، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حذَّر من الإعراض عن ذلك والتكذيب به، وجعل التحذير حكاية عاقبة المكذبين بذلك من الأمم السابقة.

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقد بيَّن ـ سبحانه ـ أسباب النهي عن اتخاذهم أولياء، وأنَّ منها:

* ما جاء في هذه الآية من أن بعضهم أولياء بعض، وأنهم ظالمون بكفرهم وشركهم وبغيهم، وأن من يتولاهم فإنَّه منهم، وأنه ظالم. وقد علمت ما أعدّ الله للظالمين.

* ومنها: كراهيتهم الشديدة للمؤمنين، وأنهم يودون ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩] في الكفر، وأنهم ﴿لَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

* ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وكلها أسباب توجب الحذر من توليهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين.

وقال ـ سبحانه ـ محذراً من الطغيان وكفر النعم: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ * كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨٠، ٨١]... إلى غير ذلك من الآيات.

ومن أساليب القرآن في مجال تحذير وتهديد الأمم: توجيه الأنظار إلى مصارع الأقوام وآثار القرى المهلكة.

وأعني بتوجيه الأنظار إلى مصارع الأقوام: كشف الحجاب عن فظاعة أخذهم وإهلاكهم، وأي مصرع أليم صرعوا.

وأعني بآثار القرى المهلكة: ما أبقى الله من آثار ديارهم ومساكنهم من بعدهم، بعد أن نزل بهم العذاب.

وفي حكاية مصارع الأقوام، ورؤية آثارهم من بعدهم، أعظم نذير وأبلغ تهديد، خصوصاً إذا ما كانت الأمة اللاحقة تشترك مع هذه الأمم بواحدة أو أكثر من تلك الأسباب الموجبة لهذا المصرع الرهيب.

ولهذا يخبر الله ـ جل وعلا ـ أن مما يوبّخ به الظالمين يوم القيامة، أنهم لم ينتفعوا بمشاهدة تلك الآثار، وتبيُّن ما جرى لأهلها.

قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٤، ٤٥].

قال ابن كثير عند هذه الآية: «أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيه معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر»(١).

وإليك بعض الأمثلة والشواهد على هذا الأسلوب:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ * وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٥٤٢).

أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢١ ـ ٢٧].

ففي هذه الآيات قصَّ الله نبأ إهلاك عاد، الأمة القويَّة الممكَّنة، وكانت مساكنهم قريباً من قريش، ثم عقب على ذلك وختمه بالإخبار عن إهلاك القرى المجاورة، يحذرهم مثل عاقبتهم.

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ ﴾ يعني: أهل مكة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها، كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم ومَمَرِّهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضاً»(١).

وقال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨].

وقال تعالى مبيناً شدة أخذه المكذبين من قوم صالح ﷺ: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥١، ٥٢].

وقال عن قوم لوط ﷺ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وقال عن قراهم ومدائنهم: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر: ٧٦].

وقال يخاطب قريشاً ومن على شاكلتها في شأن هؤلاء المهلكين: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وأخبر ـ جل وعلا ـ عن عظيم ما أحلَّ بفرعون وقومه من النكال، وما تركوا وراءهم من النعيم بسبب جبروتهم وطغيانهم: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ

(١) تفسير ابن كثير (٤/١٦٢).

رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ١٧ ـ ٢٩].

وقال مؤمن آل فرعون يتخوّف على قومه مصرعاً كمصارع المكذبين من الأمم الخالية، الذين تحزّبوا على أنبيائهم وتظاهروا عليهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١]. . . إلى غير ذلك من الأمثلة والشواهد.

ومما ينبغي أن يُعْلَمَ أنه كما يقع الابتلاء لكل الأمم والجماعات في كل مراحل حياتها، فإنَّ التحذير والإنذار كذلك؛ لأنَّها لا تنفك عن مخالفة أو تقصير، وبالتالي لا تنفك عن الحاجة إلى ضرب من ضروب التحذير والتهديد.

وقد جاء التهديد والتحذير من مخالفة الحقّ مصاحباً لنزول آدم ﷺ من الجنة وإهباطه إلى الأرض.

قال تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]. وفي الآية الأخرى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

وما من نبي بعثه الله في أمة إلا دلَّهم على خير ما يعلمه لهم وحذرهم شرّ ما يعلمُه لهم. مصداق ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾ [النحل: ٣٦].

وهل أعظم من شؤم الشرك بالله وسوء عاقبته؟!

وقال هود ﷺ بعد أن دعا قومه عاداً إلى عبادة الله: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٥].

وقال مثل ذلك صالح ﷺ لقومه: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[الشعراء: ١٤٦ ـ ١٥٢].

وقال تعالى مخاطباً هذه الأمة: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الآية إلى قوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥]. أخبرهم بما لهم إن هم آمنوا وعملوا الصالحات من العزّ والتمكين في الأرض، ومن الأمن وراحة البال، وتوعّدهم بجزاء الفاسقين إن هم كفروا... وقد علموا جزاء الفاسقين.

والخلاصة: أنَّ مجال التحذير والتهديد للأمم، يتسع ليشمل كل مراحل الأمة، وتتنوع أساليبه لتستوعب كل أنواع المخالفات. وأنَّ سنة الله قد جرت في الأمم أنهم قلما ينتفعون بهذه النُّذر والتحذيرات؛ لأنَّهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]. إلا من رحم الله منهم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

تلك خطوط عامة في مجال من مجالات سنن الله في الأمم، وهو مجال التحذير والتهديد، وهو مجال عظيم الأهمية، ودراسته واستيعابه بصورة صحيحة من قِبَل أفراد الأمة الإسلامية وجماعتها، سوف يعين في وضع حد للجرأة على حدود الله وحرماته من أولئك الذين لا يزالون ينظرون إلى عقوبات الله وإلى أسبابها الحقيقية، نظرة شك أو تكذيب.

هذا الحدّ يضعه أولئك المستهترون لأنفسهم ، إن كانوا ممن أراد الله بهم خيراً . أو تضعه الأمة الراشدة ؛ لتقي نفسها عقوبة الله التي لا تحابي أحداً . وإلا ، فإن في انتظارها الجزاء الموبق في الدنيا قبل الآخرة .

وبعد ، فقد آن أوان الشروع في الفصل التالي ، وهو الفصل ما قبل الأخير: مجال الجزاء .

* * *

الفصل الرابع

مجال الجزاء

الجزاء لفظ عام يشمل الثواب والعقاب. ومعناه: الغَناء والكفاية. وهو هنا: مقابلة الشيء بما يكافئه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر[١]. ومجاله واسع جدا، ويمكن النظر إليه من جانبين:

الأول: ما جاء في القرآن الكريم ثواباً وجزاءً على فعل الأوامر، واجتناب المناهي، واقتفاء آثار الرسل، في الجوانب العلمية والعملية. وهذا الجانب ينتظم الثواب على كل العلوم النافعة والأعمال الصالحة، وما يتسبب عنها من الأحوال الحسنة كالأمن وسعة الرزق والصحة... ونحوها، على مستوى الأمم.

وقد مضى على ذلك أمثلة كثيرة[٢]، وأذكر هنا من ذلك نماذج للتذكير فحسب.

فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[النحل: ٩٧]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦]؛ حيث جعل الحياة الطيبة، والمحبة في قلوب الخلق ثواباً على الإيمان والعمل الصالح.

وقوله جل وعلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. حيث رتَّب الهداية إلى طرق الخير على المجاهدة وبذل الوُسع في سبيل الله.

ومن ذلك أيضاً: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١]. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

فأخبر ـ سبحانه ـ أنه ينصر رسله وأتباعهم الصادقين، ويورثهم الأرض جزاء إيمانهم وصلاحهم وإصلاحهم.

---

(١) انظر: مفردات الراغب، (جزاء).

(٢) انظر على سبيل المثال: المبحث الأول من فصل (منهج القرآن في عرض السنن)، وفصل (مجال الحماية والوقاية) من هذا الباب.

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧]. إخبار أن القرى المصلحة بمنجى من الهلاك بسبب إصلاح أهلها... إلى عشرات من الأمثلة والشواهد.

الجانب الثاني: ما جاء في القرآن الكريم عقاباً وانتقاماً ممن خالف أمره، واقترف ما نهى عنه، وشاق رُسُلَه وأولياءه، وناصب شريعته العداء، وكفر نعمه.

وهذا الجانب ينتظم الجزاء على العلوم الضارة والأعمال الفاسدة، وما ينتج عنها من الأحوال السيئة في الدنيا، والمآل المخزي في الآخرة.

ومن ذلك على جهة التمثيل: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]. وقوله: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا ﴾[مريم: ٧٥]. فجعل ـ سبحانه ـ العنت في الحياة والإمعان في الضلالة والرذيلة والارتكاس فيها جزاءً على الإعراض عن الهدى ودين الحق.

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]. وقوله: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[النساء: ١٦٠، ١٦١]. فجازاهم على بغيهم وظلمهم بأن حرَّم عليهم ما كان مباحاً لهم ولغيرهم، وضيق عليهم ما كان واسعاً عليهم وعلى غيرهم.

وقوله جل وعلا: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]. وقوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. إشارة إلى أن من جزاء الظالم الفاسق عن أمر ربه، أن يتولاه ظالم مثله، بما أعرض عن هدى الله وظلم نفسه وغيره.

وقوله جل وعلا: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]. فعاقبهم على المعاصي والاعتداء وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأن طردهم من رحمته، وأذلّهم وأدال عليهم... إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة.

ونحن إذا تأمّلنا تلك العقوبات الإلهية التي يوقعها الله بمن عصاه وخالف أمره من الأمم، وجدناها على نوعين:

الأول: عقوبات بما دون الاستئصال والإهلاك الشامل. كأنواع الأمراض والأسقام، والجوع والخوف، والهزائم والنكسات، والاستذلال، والقلق النفسي... إلى آخر ما هنالك من الصور التي لا يمكن حصرها، وذلك[1] كقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. وقوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥]... إلى غير ذلك من الآيات.

النوع الثاني من العقوبات: العقوبة بالاستئصال والإهلاك والتدمير، كما حصل لقوم نوح وهود وصالح، وقوم لوط، وكما حصل لفرعون وقومه، حيث أُخذوا فأُبيدُوا عن آخرهم. وأنباء مصارعهم معروفة، وقد ذكرتها في أكثر من مناسبة[2].

وكما أن العقوبات الإلهية من النوع الأول؛ أي العقوبة بما دون الاستئصال غير منحصرة، فإنّها في هذا النوع غير منحصرة أيضاً.

قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. وقال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

---

(١) وقد مضت الإشارة إلى شيء من ذلك في مبحث: (أخذ الأمم بالبأساء والضراء) في الفصل الثاني من هذا الباب.

(٢) انظر مثلاً: مبحث (سنة المدافعة بين الحق والباطل) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، ومبحث (سُنَّة الله في الاستخلاف والتمكين)، في الفصل الأول من هذا الباب.

وقد تهدَّد الله الأمم المكذبة بكلا النوعين، ولم يستثن منهم أحداً، إلا ما أكرم الله به هذه الأمة بأنه ـ سبحانه ـ لا يهلكها بِسَنَةٍ بعامة؛ وذلك ببركة نبيها محمد ﷺ[(١)].

وقد تقرَّر في أكثر من موضع: أنَّ السنن الإلهية في الحياة الإنسانية قائمة على مبدأ السببية. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد: ١١].

وأنَّها مرتبطة بالكسب البشري. قال ـ سبحانه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

وأنَّ الجزاء فيها قائم على أساس العدل والحكمة الإلهيين[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومعنى ذلك باختصار: أنَّ كل عمل لا بُدَّ له من جزاء. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وأنَّ الجزاء لا يمكن أن يقع بلا مقابل من عمل. ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]. ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

---

(١) وهل رُفِعَ عذابُ الاستئصال أم أنه باقٍ إذا توافرت أسبابه وانتفت موانعه؟ وإذا كان قد رُفِعَ، فهل كان رفعه زمن بني إسرائيل بعد هلاك فرعون، أو كان بعدَ بعثة النبي ﷺ، فيكون خاصاً بهذه الأمة؟ الذين قالوا: إنَّه قد رُفِعَ، يستدلُّونَ بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]؛ حيث أخبر ـ سبحانه ـ أنَّه أنزل الكتاب الذي هو التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾، الذين كان خاتمتهم في الإهلاك العام فرعون وجنوده، ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾، وفي هذا دليلٌ على أنه قد انقطع بعد نزول التوراة الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف. [تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٠)، وانظر: تفسير السعدي (٦/ ٢٧)]. ويستدلُّونَ على رفعه بالواقع: فإنَّه بعد نزول التوراة وهلاك فرعون، لم تعذب أمة بعذاب الاستئصال. [انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٠)]. والذين يقولون بعدم رفعه، يجيبون عن أدلة الأولين بما معناه: أنَّ كون التوراة بصائر للناس وهدى ورحمة، وكون بعثة محمد ﷺ رحمة للعالمين، أن ذلك بصيرة ورحمة لمن انتفع بها فآمن وصدَّق، ولا تلازم بين كونها كذلك وبين عذاب الاستئصال، وليس في الآية دلالة على ذلك. وكون عذاب الاستئصال لم يقع بعد ذلك، فليس لأنه قد ارتفع، ولكن لأن أسبابه لم تنعقد. والله أعلم.

(٢) انظر مثلاً: فصل (خصائص سنن الله في الأمم)، مبحث (ارتباطها بالكسب البشري)، وسيأتي تفصيل هذا المعنى في مبحث (السنن وحرية الإنسان في ظل المشيئة الإلهية)، في هذا الفصل، بإذن الله تعالى.

وأنَّ الجزاء على الأعمال لا يكون إلا بالعدل والحق. ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

كما قد تقرَّر أيضاً أن الأمم لا بد أن تلقى جزاءها، عاجلاً في الدنيا قبل الآخرة، بخلاف الأفراد، فليس ذلك بلازم في حقهم[1].

وأيضاً فقد ظهر لنا من خلال استعراض المجالات السابقة ـ مجال الوقاية والحماية، ومجال الابتلاء، ومجال التحذير والتهديد ـ ظهر لنا بجلاء: أنها كلها قائمة على أساس المجازاة والمكافأة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال سبحانه في شأن الذين اعتدوا في السبت من بني إسرائيل: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]. وقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥، ٢٦]. وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

أقول: قد تقرَّرت هذه الأمور ـ بحمد الله ـ وتكلَّمت عنها بما يغني عن الكلام فيها مرة أخرى. ولكن ثمة أمران لا بد من الحديث عنهما في «فصل الجزاء»:

الأول: تنبيه وإشكال.

الثاني: السُّنن وحُرِّية الإنسان في ظل المشيئة الإلهية.

وإليكهما بشيء من التفصيل في الصفحات التالية.

---

(١) انظر في ذلك: المبحث الثالث من مباحث المقدمة (الفرق بين سنن الله في الأفراد وسننه في الأمم)، وفصل (خصائص سنن الله في الأمم)، مبحث (سنن جماعية لا فردية)، ومبحث (نتائجها في الدنيا قبل الآخرة).

أولاً: تنبيه وإشكال.

وهما مسألتان، رأيت من المفيد القول فيهما في هذا الفصل تتميماً للفائدة.

أمَّا التنبيه: فهو أنه قد يخفى سببُ الجزاء على بعض الخلق، فينشأ في النفوس بسبب ذلك الخفاء، حرج أو شكّ، أو غرور وجحود.

وأمَّا الإشكال: فإنّه يَرِد هاهنا سؤال مفاده: هل يُعَدُّ كل ابتلاء ومصيبة جزاء على تقصير؟ وبالتالي فهل كل بلاء ومصيبة عقوبة؟

ولإيضاح المسألة الأولى، أقول:

نعم، قد يخفى سبب الجزاء ـ الثواب أو العقاب ـ فينشأ بسبب هذا الخفاء حرج أو شك في صدور المؤمنين، أو غرور وجحود في نفوس الكافرين والمنافقين.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ففي هذه الآية عَجِبَ المسلمون من وقوع المصيبة وحلول الهزيمة، وهم يقاتلون تحت لواء محمد ﷺ، يقاتلون مَنْ كفَرَ بالله وكذَّب رسله!

وكان سبب عجبهم، خفاء الوجه الذي أُتوا من قِبَله، والباب الذي دخلت عليهم منه الهزيمة. فبيَّن الله لهم أن سبب ذلك جاء من قبل أنفسهم.

وقد أوضح الله ـ جل وعلا ـ هذا المعنى غاية الإيضاح في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ «أي: صدقكم الله وعده بالنصر على الأعداء والظفر بهم حتى جبُنتم وضعفتم، واختلفتم، وذلك أن الرماة قال بعضهم: نلحق بالغنائم، وقال آخرون: بل نثبت في مكاننا الذي أمرنا النبي ﷺ بالثبوت فيه، وكان في قول الأولين معصية لأمر رسول الله ﷺ وإرادة للدنيا»[(١)].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧).

وهذا الفشل والتنازع والمعصية، الذي كان سبب الهزيمة والمصيبة، كان كله من قِبل أنفسكم أيها المؤمنون.

هذا مثال لخفاء سبب الجزاء وما يورثه من حرج وتساؤل في جانب المؤمنين.

وقال ـ سبحانه ـ عن المترفين من الكافرين أنهم قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

فَخَفِي عليهم سبب العذاب، وهو الكفر والشرك بالله، فتمادوا في كفرهم وعنادهم، ثم لفقوا لهم سبباً يُبعدهم أكثر فأكثر من تصور السبب الحقيقي للعقوبة، باتخاذهم الأموال والأولاد، التي هي مظنة الغفلة والغرور.

ولهذا أنكروا متعجبين في آية أخرى أن يكون مَنْ دونهم في الوجاهة والمال مفضلين عليهم، سخرية بهم. ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]؟ بلى.

فلمَّا خفي عليهم سبب التفضيل الحقيقي، وهو الاستعداد لقبول الحق واتباع الهدى... لما خفي عليهم ذلك، نصبوا لأنفسهم سبباً عِمَادُه كثرة الأموال والأولاد والجاه والسلطان، ثم احتكموا إليه فأبعدوا النجعة، وهلكوا في أودية الضلال.

وهكذا... فكلما خفي سبب الجزاء، ثواباً أو عقاباً، على أمة أو على فرد، كلما كثر احتمال الوقوع في الخطأ؛ إما بانتحال سبب أجنبي منه، أو باختلاق سبب لا يصلح أن يكون سبباً أصلاً. وكلاهما لا يغني من الحق شيئاً.

المسألة الثانية: هل يُعَدّ كل ابتلاء ومصيبة جزاء على تقصير؟ وبالتالي فهل كل بلاء ومصيبة عقوبة؟

وتلك مسألة قد تشكل على بعض الناس. ومنشأ الإشكال ـ فيما أرى ـ هو الاختلاف في فهم النصوص المتعلقة بهذه المسألة، وكيف يكون الجزاء على الأعمال.

فعلى حين يَرد التصريح في بعضها بأن كل مصيبة تقع فهي بسبب ما كسبه العبد كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. نجد نصوصاً أُخَرَ تصرح بأنَّ «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل**». كما جاء ذلك في الحديث الصحيح[1].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». انظر: عارضة الأحوذي (٩/٢٤٣). وانظر: جامع الأصول، لابن الأثير (٩/٥٨٥)، وقال محقق الكتاب عبد القادر الأرناؤوط معلقاً على قول الترمذي: «وهو كما قال»، وصححه الألباني في السلسلة (١/١٤٣).

وأن البلاء يقع ـ فيما يقع له ـ على المؤمنين ليكشف عن معدنهم ويختبر صدقهم.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

فلو كان كل بلاء يقع يكون جزاء على تقصير، لكان القياس أن يكون أشد الناس بلاء الكفرة والمشركين والمنافقين، بدليل الآية السابقة ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾!

والذي يزول به هذا الإشكال ـ بإذن الله تعالى ـ هو أن ننظر إلى هذه المسألة من ثلاث جهات:

الأولى: أن نُفرِّق بين حال المؤمنين وحال الكفار في هذه الدنيا.

فالمؤمنون لا بد لهم من الابتلاء والفتنة في هذه الدنيا؛ لأنهم مؤمنون، قبل أن يكونوا شيئاً آخر، فهذا خاص بهم، وليس الكفار كذلك. ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]؟!

الجهة الثانية: أنه لا انفصال بين الجزاء في الدنيا والجزاء في الآخرة.

فما يقع على المؤمنين من البلاء والمصائب في الدنيا، فهو بما كسبت أيديهم من جهة، وبحسب منازلهم عند الله في الدار الآخرة من جهة ثانية.

فمنهم من يُجزَى بكل ما اكتسب من الذنوب في هذه الدنيا، حتى يلقى الله يوم القيامة وليس عليه خطيئة. وهذا أرفع منزلة ممن يلقى الله بذنوبه وخطاياه، ولهذا اشتدَّ البلاء على الأنبياء فالصالحين فالأمثل فالأمثل؛ لأنهم أكرم على الله من غيرهم.

ومن كان دون ذلك، فجزاؤه بما كسبت يداه في هذه الدنيا بحسب حاله. وليس الكفار كذلك، فإنهم﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٦]، فليس هناك أجور تُضاعَف ولا درجات تُرْفع، ولا سيئات تُكفَّر. ومقتضى الحكمة الاَّ يدّخر الله لهم في الآخرة عملاً صالحاً، بل ما كان لهم من عمل خير، وما قدموا من نفع للخلق يُجْزون ويُكافئون به في الدنيا. بأن يخفف عنهم من لأوائها وأمراضها، ويكون لهم من رغد العيش والذكر والسمعة بين الناس، كما حصل لعنترة وحاتم الطائي وغيرهما.. ونحو ذلك. وبالتالي لا يمنّ الله عليهم فيبتليهم بهذا النوع من المصائب والابتلاءات. ليرفع مقامهم عنده في الآخرة.

فما يصيب المؤمنين ليس قَدْراً زائداً على ما كسبته أيديهم، بل هو ما كسبوه أو بعضه، عجل لهم؛ لما لهم من القَدْرِ والمنزلة عند الله، بحيث تسلم لهم أجور أعمالهم فلا تزاحمها الذنوب والهفوات التي تقتص منها.

وهذه يوضحها النظر في **الجهة الثالثة**، وهي: أن نعلم علم اليقين، أن أيّ عمل نافع تقوم به الجماعة أو الأمة المسلمة، فإنّها لا بد أن تلقى جزاءه في الدنيا، كما يلقى ذلك غيرها، بل أفضل مما يلقاه غيرها. وهذا شيء اقتضته حكمة الله، وجرت به سنته، كما سبق بيانه في أكثر من موضع. ولهذا صحّ من حديث أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **«إنّ الله لا يَظْلِمُ مؤمناً حسنةً، يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأمّا الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يُجْزَى بها»**[1].

والخلاصة: أنّه لا يكون بلاء أو مصيبة إلا بسبب ذنب.

وأنّ المؤمنين يُجْزَوْنَ بحسناتهم في الدنيا والآخرة، ويُزادُ في بلائهم في الدنيا بحسب منازلهم؛ ليكفّر الله عنهم من خطاياهم التي يجترحونها، فلا يُعَاقَبُون عليها هناك، وحتى تسلم لهم حسناتهم في الآخرة.

وأمّا الكفّار، فيُجْزَوْنَ بحسناتهم كلها في الدنيا، فيكون ما يستمتعون به في دنياهم مما يُرَى أنه قدر زائد على ما أعْطِيَهُ المؤمنون، يكون هذا في مقابلة ما يكون لهم من حسنات. وليس لهم في الآخرة من خلاق. والله أعلم.

* * *

---

(١) رواه مسلم. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/ ١٤٩).

السنن وحرية الإنسان في ظل المشيئة الإلهية

عُني القرآن الكريم بإبراز جديَّة الحياة وقيامها على الحق والعدل، وانضباطها بالسُّنن والنواميس، وجريان ذلك وفق حكمة الله البالغة وقدرته النافذة ومشيئته الغالبة، وأنَّها لم تُخلَق عبثاً ولا لعباً ولا باطلاً. وأنَّ الحياة بهذه الجدية وهذا الانضباط، وبهذه الدينونة لله، هي الحياة كلها «كل صغير وكل كبير، كل ناطق وكل صامت، كل متحرك وكل ساكن، كل ماض وكل حاضر، كل معلوم وكل مجهول. كل شيء.... مخلوق بقدر الله مصرّف بقصد مدبّر بحكمة. لا شيء عبث، لا شيء مصادفة، لا شي ارتجال...»[(١)].

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ * وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٤٩، ٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان: ٢]. وقال سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣]. وقال تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

فهذه الآيات ونظائرها، تدلُّ دلالة قاطعة على أن كل شيء مما خلق الله، قد قدَّره وعَلِمَهُ قبل كونه وإيجاده، ثم هداه إلى ما قدَّره له. وإنَّما كانت دلالتها قاطعة على أنَّ كل شيء مخلوق لله؛ لأنَّ الآيات من سورة القمر، وسورة الفرقان، وسورة طه، قد جاء فيها لفظ ﴿كُلَّ﴾ المفيد للشمول، مضافاً إلى ﴿شَيْءٍ﴾بصيغة النكرة فأفاد العموم، فصار قوله: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ عاماً في الأشياء المخلوقة كلها. وكانت دلالتها قاطعة أيضاً على أنَّ كل شيء قد قدَّره الله وعَلِمَه ويسَّره لما خلقه له؛ لأنَّ الآيات من سورة طه، ومن سورة الأعلى دالَّة على هذا المعنى مفيدة له.

قال ابن القيم ـ رحمه الله: «قال مجاهد ـ رحمه الله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ لم يعط الإنسان خلق البهائم، ولا البهائم خلق الإنسان. وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى. قال عطية[(٢)] ....

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٣٦).
(٢) هو: عطية بن سعد العوفي، الكوفي، أحد رجال الحديث، ممن اشتهر برواية التفسير. توفي بالطوفة سنة (١١١هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٢٥)، والأعلام (٤/ ٢٣٧).

ومقاتل[١]: أعطى كل شيء صورته، وقال الحسن[٢] وقتادة: المعنى: أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له، وهداه لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه. هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، فيكون نظير قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣] »[٣].

وقال القرطبي: «الذي عليه أهل السُّنة، أنَّ الله ـ سبحانه ـ قدَّر الأشياء، أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه...»[٤].

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]. وقال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢]... إلى غير ذلك من النصوص.

وهذا ظاهرٌ ـ بحمد الله ـ لمن تأمّله.

وإذا كانت القدرة، وهي مأخوذة من الاقتدار على الشيء، ومن التقدير له، ومن الإقدار عليه أيضاً، ثابتة لله تعالى من كل وجه وعلى أحسن وجه وأتمه، فإنَّ كل ما يصدر عنه ـ سبحانه ـ حق، وكله عدل، وكله لمصلحة خلقه، فلا لهو ولا عبث ولا ظلم. علم ذلك من علمه ففاز وأفلح، وجهله من جهل فخاب وخسر؛ إذ ظن بربه ظن السَّوْء.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ

---

(١) هو: مقاتل بن سليمان، الأزدي بالولاء، البلخي، من رواة التفسير، كان متروك الحديث. توفي بالبصرة سنة (١٥٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٠١)، والأعلام (٧/ ٢٨١).

(٢) هو: الحسن بن يسار، البصري، تابعي جليل، كان إمام أهل البصرة، وأحد العلماء والفقهاء والزُّهَّاد والفصحاء المشاهير. قال الغزالي: «كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة». توفي سنة (١١٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣)، والأعلام (٢/ ٢٢٦).

(٣) شفاء العليل، ص ١٦٤. وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٥)، (٤/ ٢٦٧، ٥٠٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٤٨).

ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٢] .

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨٥] . وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٦ ، ١٧] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

وقال تعالى في خصوص خلق الإنسان وإيجاده ، وأن ذلك لحكم بالغة وبقدر سابق: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] .

وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] .

ثم نزَّه نفسه عن ذلك الحسبان الخاطئ بقوله: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦] . وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦] .

«أي هملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب؟! هذا حسبان باطل وظنٌّ بالله غير ما يليق بحكمته»(١) . بل الأمر كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] . وقال: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠ ، ٦١] .

فإنَّ خَلْقَ هذا الكون بهذه الدِّقة وهذا الإتقان ، يدلُّ على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يخلق هذا الإنسان عبثاً وسُدًى ، كما أنَّ خلق الإنسان وما أودعه فيه من عجائب قدرته يدلُّ هو الآخر على أن الله لم يخلق هذا الكون لعباً ولا باطلاً وإنَّما خلق هذا لهذا ، كما قال سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣] .

وخلاصة ما سبق: أنَّ الله ـ تعالى ـ خلق مخلوقاته بسبب الحق ، ولأجل الحق ، وخلْقُها متلبِّس بالحق ، فمصدره حق وغايته حق ، وهو متضمن للحقّ .

وقد أثنى على عباده المؤمنين حيث نزَّهوه عن إيجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ، للسعدي (٨/ ١٩٧) .

يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

«وإذا كان قد ظهر لنا مما سبق، أن كل شيء فهو مخلوق لله مقدّر بعلمه واقع بإرادته ومشيئته جار وفق حكمته، لا يشذ من ذلك شيء... إذا كان قد ظهر لنا ذلك، أمكننا بصورة صحيحة أن ندرك أن كل ما يقع في هذا الكون، سواء كان وقوعه متكرراً أم غير متكرر، أنه كله بقدر ولحكمة، وأن الله هو الذي أجراه وفق سنّة وناموس، وهذه السُّنة وهذا الناموس جزء من قدر الله، وليست شيئاً آخر مغايراً له، فهي بعض ما قدَّره الله عز وجل؛ لأنَّ القدر ـ بالإضافة إلى ما سبق بيانه ـ يشمل وقوع الحوادث والأشياء وفق تلك السُّنن.

فَمِنْ قَدَرِ الله في الكون مثلاً: سنته ونظامه في تعاقب الليل والنهار، ومن قدره أيضاً: حدوث كل منهما في الواقع وفق تلك السُّنة.

ومن قدر الله ـ عز وجل ـ في الحياة الإنسانية: سُنّته في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين، ومن قدره أيضاً: ما وقع من انتصار للمسلمين في غزوة بدر وهزيمة المشركين فيها، وفق تلك السُّنة»[1].

وإذن، فالكون محكومٌ بسنن، فلا يمكن تسخيره والإفادة منه إلا وفق هذه السُّنن، والإنسان في سائر تصرفاته لا يخرج من سلطانها، شعر أم لم يشعر، فلا ينال مرغوبه أو يسلم من مرهوبه، إلا وفق هذه السُّنن وعلى هدي منها.

«فمن سار وفق سنن الله في الحياة الإنسانية واستفاد من سنن الله الكونية وسخَّرها لمصالحه، تحقق له الرخاء المادي والسعادة الدنيوية والأخروية، ومن تنكَّب سنن الله في الحياة الإنسانية واستفاد من سنن الله الكونية، فإنَّ الله ـ عز وجل ـ يعطيه من الدنيا ما قدّر له، ولكنه يحرمه السعادة الحقَّة، ويحرمه بركات الأرض... ومن عاش وفق سنن الله الإنسانية ولم يَسْتَفِدْ من السُّنن المسخّرة للكون، فإنَّ الله لا يعطيه من الدنيا إلا بقدر استفادته من سنن الله في الكون. ويكون هو تحت رحمة من يستفيد من هذه السُّنن»[2].

﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ: ٦]، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

---

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١/ ٣٨)، رسالة دكتوراه، أعدها/ شريف الخطيب، جامعة أم القرى.
(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١/ ٥٤) وما بعدها.

وهذه السُّنن التي تحكم هذا العالم، عُلويّه وسُفليه، بما فيه ومن فيه، جارية مع أسبابها موصلة إلى نتائجها، إذا توافرت شروطها وانتفت موانعها[١]، والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو خالق هذه الأسباب ومجريها، ومقدّر نتائجها ومُوليها، والأسباب لا تقوم وحدها ولا تستقل بنتائجها «وليس في المخلوقات شيء هو وحده علّة تامّة وسبب تامّ للحوادث، بمعنى: أن وجوده مستلزمٌ لوجود الحوادث. بل ليس هذا إلا مشيئة الله ـ تعالى ـ خاصة؛ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»[٢].

فهاهنا شيئان:

الأول: الأسباب والمسببات، وما جعل الله لها من نظام يُجريها وفقه، وهي السنن والنواميس التي أجرى الله بموجبها نظام هذا العالم.

والثاني: مشيئة الله الطليقة التي اقتضت وجود هذه الأسباب والمسببات، وكونها جارية وفق هذا النظام أو ذاك، «فهو الذي خلق الخلق، وهو الذي رتّب الأسباب، وهو الذي يدبّر الخلق ويجري الأسباب، وحين نجد أنفسنا عاجزين عن الوقوف على حقيقة الأسباب، رغم إيماننا بآثارها الظاهرة، فإنّنا لا نجد مسوغاً عقلياً تقوم به الأسباب إلا الله وحده، خالق هذه الأسباب وصاحب سرّها ومدبر أمرها، فالإيمان بالله الخالق القادر المدبر العليم الحكيم... هو الركيزة الوحيدة لنظام هذه الأسباب، وبدون ذلك يكون الوجود كله ضرباً من العبث الذي لا معنى له، ويستحيل تفسير الحركة في هذا العالم، ويستحيل تفسير الحركة في التاريخ. وقد أكّد لنا القرآن على هذه الحقيقة الأساسية حين ربط لنا هذه الأسباب ربطاً مباشراً بالله ليقول لنا: إنّ الأسباب هي منه وبه، ولا تعمل إلا بأمره، أي أن نظام الأسباب لا يعمل في الأشياء والتاريخ من تلقاء نفسه، ولا يعمل بصورة آلية يستغني بها العالم عن فاعل مدبّر، وإنّما يعمل بالله، لذلك عبّر القرآن عن هذه العلاقة بألفاظ مثل ﴿جَعَلَ﴾ و﴿سَخَّرَ﴾ للتأكيد على هذه الحقيقة»[٣].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. وقال تعالى:

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٨/ ١٣٣). وانظر: شفاء العليل، ص ٩٣.
(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٨/ ١٣٣).
(٣) المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، د. محمد رشاد خليل، ص ١٠٠.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١]. وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ، ٣٣]. وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣] . . . إلى غير ذلك من الآيات.

«والقرآن يقول لنا بهذا الأسلوب: إنَّ نظام الأسباب والمسببات المجعولة من الله والمسخرة بأمره، ليس بديلاً من إرادة الله، وإنَّما هو أسلوبها في العمل»[١].

السنن وحرية الإنسان:

مما سبق يتضح جلياً، أنَّ قدر الله وإرادته شاملة لكل مخلوق إيجاداً وتدبيراً، وأن حكمته اقتضت أن يجعل لهذا الكون نظاماً يجري وفق سنن ونواميس ثابتة، وأجرى الأسباب والمسببات كي يتمكّن الإنسان من التعامل مع هذه السنن ويأخذ بتلك الأسباب لتسخير هذا الكون وأداء وظيفة الخلافة في الأرض.

ولا يكون الإنسان قادراً على التعامل مع هذه السنن والأخذ بتلك الأسباب ما لم يكن عاقلاً مريداً حراً في إرادته واختياره، وإلا كان أمره ونهيه ضرباً من العبث وتكليفاً بالمحال، والله منزّه عن ذلك كله، وهو الذي أفعاله كلها عين الحكمة والحق والعدل، فلهذا اقتضت حكمته وجرى قدره أن يخلق الإنسان في أحسن تقويم، وأن يجعله سميعاً بصيراً، وأن يهديه النجدين، وأن يمنحه قدراً من الحرية، ويجعل له إرادة ومشيئة تناسب وظيفته وتفي بحاجاته، كما وهبه عقلاً وتمييزاً، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وسخّر له ما في السماوات وما في الأرض، وجعله ـ بناء على ذلك ـ مسئولاً عما يختار، محاسباً على ما يأتي ويذر من الأعمال «ووفق هذا الاختيار والأعمال يكون الجزاء الإلهي»[٢]، فالإنسان «يتحرَّك بحريَّته وإرادته، والله ـ تعالى ـ يرتب على هذا السلوك أموراً مناسبة لذلك الفعل»[٣].

---

(١) المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، ص ١٠١.
(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١/ ٤٤).
(٣) في التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٨٧، د. نعمان السامرائي.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧]. وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾[التوبة: ١٤]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨]... إلى غير ذلك من الآيات الدَّالة على قدرةٍ وإرادةٍ وحرية واختيار قد زوَّد الله بها جنس الإنسان، وأن ذلك كله داخلٌ تحت قدرة الله وإرادته ومشيئته، فلا يقع إلا ما يريده الله، ولا يكون إلا ما يشاؤه، سبحانه وبحمده.

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ [يونس: ١٦]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾ [المدثر: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[الأعراف: ١٨٨]... إلى نصوص أُخَر متوافرة، تدلُّ دلالة قاطعة على أن للإنسان مشيئة واختياراً تابعين لمشيئة الله واختياره.

وقد جلّى الأستاذ سيد قطب طبيعة العلاقة بين حرية الإنسان ومشيئة الله بأسلوب بديع؛ إذ يقول: «والإسلام يثبت للمشيئة الإلهية الطلاقة، ويثبت لها الفاعلية التي لا فاعلية سواها ولا معها، في الوقت ذاته يثبت للمشيئة الإنسانية الإيجابية، ويجعل للإنسان دوراً في الأرض وخلافتها، وهو دور ضخم يعطي الإنسان مركزاً ممتازاً في نظام الكون كله، ويمنحه مجالاً هائلاً للعمل والفاعلية والتأثير، ولكن في توازن تام مع الاعتقاد بطلاقة المشيئة الإلهية وتفردها بالفاعلية الحقيقية من وراء الأسباب الظاهرة، وذلك باعتبار أن النشاط الإنساني هو أحد هذه الأسباب الظاهرة، وباعتبار أن وجود الإنسان ابتداءً، وإرادته وعمله وحركته ونشاطه داخل نطاق المشيئة الطليقة، المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه.

إنَّ قدر الله في الناس هو الذي ينشئ ويخلق، وهو الذي يصرف حياة الناس ويكيفها، شأنه في ذلك هو شأن هذا الوجود كله، كل شيء مخلوق فيه بقدر، وكل حركة تتم فيه بقدر، ولكن قدر الله ـ تعالى ـ في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم في ذات أنفسهم وما يحدثون فيها من تغيرات.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. ويقول سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩].

ويقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠، التكوير: ٢٩].

وهو الذي يقول أيضاً: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

فلا بُدَّ إذن ـ وفق تصور المسلم لإلهه وعدله في جزائه وشمول مشيئته وقدره ـ من أن تكون حقيقة النِّسب بين مدلولات هذه النصوص في حساب الله... من شأنها أن تسمح للإنسان بقدر من الإيجابية في الاتجاه والعمل، يقوم عليه التكليف والجزاء، دون أن يتعارض هذا القدر مع مجال المشيئة الإلهية المطلقة المحيطة بالناس والأشياء والأحداث»[1].

بل حتى المتأمّلون لمنهج القرآن المتفرد في هذه المسألة من غير المسلمين، لم يعجزهم تبيّن ذلك وإدراكه.

يقول آلبان في كتابه «التاريخ وكيف يفسرونه»: «... ولكن ينبغي ألاَّ يغيب عن أذهاننا أن القرآن كتاب دين، وليس كتاباً يجمع مباحث نظرية فلسفية خاصة... فهو يحتوي على الاعتراف بكلٍ من سيطرة الله وحرية الاختيار عند البشر، ولكنه لا يبحث بطريقة تأملية: كيف يمكن الجمع فكرياً بين هذين الأمرين، وهو يؤكد أن الله يسيطر على كل شيء، وقد نفخ في الروح سجيتها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]. ولكن القرآن من أوله لآخره يؤكد استخدام (الاختيار) تأكيداً كبيراً، وليس الله بظلامٍ للمذنبين ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[آل عمران: ١١٧]، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢]. ويشير القرآن في مواضع كثيرة، إلى القرى التي ازدهرت أو أهلكت بما قدمت يداها من طاعة أو عصيان للسُّنن الخَلقية التي يعبّر عنها القرآن»[2]. وهي «شهادة من رجل غير مسلم، لم يعجز أن يدرك حرية الإنسان في الإسلام على حين يذهب كثير من العرب أو من ممسوخيهم إلى نقيض ذلك»[3].

(١) خصائص التصور الإسلامي، للأستاذ/ سيد قطب، ص ١٤٣.
(٢) في التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩٤ عن كتاب: التاريخ وكيف يفسّرونه، ص ٩٣.
(٣) في التفسير الإسلامي للتاريخ، د. نعمان السامرائي، ص ٩٥.

والخلاصة: أنّه يزول من الأذهان هاجس التناقض ووهم السلبية وعقيدة الجبرية الإلهية، إذا ما أدرك المرء إدراكاً صحيحاً: طبيعة حرية الإنسان واختياره، وحدود وظيفة هذه الحرية وهذا الاختيار، وذلك بإدراكه:

أنها قدر من قدر الله، فهي لا تقوم وحدها بهذا الاعتبار.

وأنّها حقيقة واقعة تمارس وظيفتها في الحياة، فلها استقلالية وتأثير بهذا الاعتبار.

وأنّ قدر الله ومشيئته هي الموجدة ابتداءً لهذه الحرية وهذا الاختيار، كما أنها هي الموجهة لهما كي يمارسا وظيفتهما في حدود ما أذن الله به وأراده.

وأنّه لو لم يكن الإنسان حراً مختاراً، لما كان ثمة تكليف. ولو كان الإنسان الحرّ المختار، طليقاً من كل قيد ومن كل حدّ، حتى من حدود المشيئة الإلهية... لو كان كذلك، لكان إلهاً من دون الله.

وأنّ الأسباب لا تستقل بنتائجها، بل هي قدر من قدر الله، والله خالق الأسباب والمسببات ابتداءً، وهو مجريها وجاعل نتائجها متحصلة عنها بموجب نظام وسنن ونواميس خلقها بإرادته وأحكمها بحكمته وعِلمه، ولولا ذلك لما أمكن التعرّف عليها وتسخيرها والانتفاع بها.

وإذن، فلا بُدّ من إرادة واختيار، ولا بُدّ من الأخذ بالأسباب، ولا بد أن يكون هذا وهذا مراداً لله «ولهذا قال بعضهم: الالتفات إلى الأسباب شركٌ في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع»[(١)].

هذا هو مقتضى التقدير والإتقان والإحسان والهداية لهذا الخلق، ولازم حكمة الله وعلمه وعدله وسائر صفاته، تبارك وتعالى وتقدّس.

هذا هو الحق إن شاء الله تعالى في هذه المسائل، وهو دين الله الذي تعبَّد به الأولين والآخرين، ولا يؤمن به إلا المؤمنون بالله وبما جاء عنه على ألسنة أنبيائه ورسله، وهو الموافق للعقول السليمة، والفطر المستقيمة، ولا يزيغ عنه إلا أهل البصائر المطموسة والفطر المنكوسة، ولهذا ينكرون ويجادلون بالباطل، وهم «الكفار بالرسل من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب وقوم إبراهيم وموسى، ومشركو العرب والهند والروم والبربر والترك واليونان والكشدانيين، وسائر الأمم المتقدمين والمستأخرين... يتبعون

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٨/ ٧٠).

ظنونهم وأهواءهم، ويعرضون عن ذكر الله الذي أتاهم من عنده، كما قال لهم لما أهبط آدم من الجنة: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]، وهم ـ مع ذلك ـ يزعمون أنَّ لهم العقل والرأي والقياس العقلي والأمثلة المضروبة، ويسمون أنفسهم الحكماء والفلاسفة، ويدّعون الجدل والكلام والقوّة والسلطان والمال، ويصفون أَتباعَ المرسلين بأنهم سفهاء وأراذل وضُلاَّل، ويسخرون منهم»[(١)]، ويرون الحياة لهواً ولعباً وباطلاً وعبثاً، ديدن الجاهلية في كل أحقاب التاريخ.

فهم ما بين محتجٍ بالمشيئة على مخالفة الأمر، ومتعلّق بالأسباب المادية غافل عن الحكمة الإلهية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهو يتحدَّث عن الأسباب وكسب الإنسان ومشيئة الله تعالى: «وفي هذا الموضع ضلَّ طائفتان من الناس، فريقٌ آمنوا بالقدر وظنوا أن ذلك كافٍ في حصول المقصود، فأعرضوا عن الأسباب الشرعية والأعمال الصالحة. وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن يكفروا بكتب الله ورسله ودينه. وفريقٌ أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلبه الأجير من المستأجر، متّكلين على حَوْلهم وقوّتهم وعملهم. وهؤلاء جهَّالٌ ضلاَّلٌ»[(٢)].

وفي الواقع المعاصر، أعرض أكثر الخلق عن الأسباب الشرعية وأهملوها، ومنهم من نفى تأثيرها وأنكرها، على حين انكفأ أكثرهم على الأسباب المادية وبالغوا في تأثيرها، بل اعتمدوا عليها اعتماداً كلياً، خيل إليهم معه أنهم وحدهم المتصرفون في هذا الكون. والمسلمون منهم قصَّروا في الأمرين . . . وسيلقى هؤلاء ما يستحقّون. وقد فعل ذلك بهم سبحانه، كما يعلم ذلك من ينظر إلى أحوال العالم بعين البصيرة، ويزن الأمور بميزان الشريعة.

والحق وسطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه. نسألِ الله الهداية والتوفيق.

* * *

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٢/ ١٠).
(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٨/ ٧١).

الفصل الخامس

مجال الكشف والإبانة

إذا كنا قد وقفنا في الفصول السابقة على مجالات سُنن الله في الأمم فيما يتعلّق بحماية الأمم ووقايتها، وفي ابتلائها وتمحيصها، وفي مجال تحذيرها، وفي مجال الجزاء بشقيه الثواب والعقاب . . . فإنَّ هناك مجالاً ذا أهمية خاصة، هو بحاجة إلى وقفة وتبيّن، وهو مُستَفَادٌ من مجموع المجالات السابقة، ذاكم هو «**مجال الكشف والإبانة**».

الكشف عن الأشخاص والأحوال والمواقف، والإبانة عن الطبائع والأخلاق والمنطلقات، بصورتها البشرية المتشابكة، كما هي عليه في الواقع.

وفي هذا الفصل يتبدَّى لنا كتاب الله تعالى مدرسة نفسية واجتماعية نتعلم من خلالها ـ أفراداً وجماعات ـ أموراً هامة لا غنى لنا عن معرفتها، ونحن نعيش الحياة بكل ملابساتها.

ومن هذه الزاوية يمكننا أن نتناول، ومن خلال الآيات القرآنية، كثيراً من جوانب الحياة بالدراسة، وأن نشخصها بأسلوب علمي دقيق، وأن نخلص إلى نتائج علمية وعملية قيِّمَة.

وسوف أعرض فيما يلي لنماذج من هذا الأسلوب تتناول جوانب مختلفة، وذلك في أربعة مباحث:

المبحث الأول: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾، وهو أضواء كاشفة لطبيعة الحق والباطل.

المبحث الثاني: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

المبحث الثالث: طبيعة الإيمان.

المبحث الرابع: الملأ في الأمم. وهذا المبحث يُعنى بدراسة طبيعة العلاقات بين القِلَّة والكثرة (المتبوعين والأتباع).

* * *

المبحث الأول

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾

أضواء كاشفة لطبيعة الحق والباطل

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

اشتملت هذه الآية من سورة المائدة، على سُنَّتَيْنِ من سننه تعالى التي أجراها في خلقه وفق حكمته وإرادته:

الأولى: أن الخبيث والطيب لا يستويان، بل هما ضدان مختلفان وحقيقتان متغايرتان.

الثانية: أن الخبيث في جملته أكثر من الطيب كثرةً، وإن كان أخف ميزاناً وأقل شأناً.

وقبل المضي في الحديث عن هاتين السُّنَّتَيْنِ، لا بد من معرفة مدلول كلمتي «الخبيث»، و«الطيب» في اللغة، والوقوف على شيء من استعمالاتهما في التنزيل، بإيجاز.

قال الراغب[1] في مفرداته: «المُخبث والخبيث: ما يكره رداءةً وخساسةً، محسوساً كان أو معقولاً، وأصله الرديء الدخلة الجاري مجرى خبث الحديد، وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد والكذب في المقال والقبيح في الفعال، قال عز وجل: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ أي: ما لا يوافق النفس من المحظورات. وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[الأنبياء: ٧٤]، كناية عن إتيان الرجال. وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[آل عمران: ١٧٩]؛ أي: الأعمال الخبيثة من الأعمال الصالحة، والنفوس الخبيثة والنفوس الزكية. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾[النساء: ٢]؛ أي: الحرام بالحلال. وقال

(١) هو: أبو القاسم حسين بن محمد، المعروف بـ (الراغب الأصفهاني). عالم أديب، سكن بغداد، واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي، له مصنفات؛ أشهرها: «المفردات في غريب القرآن»، وله: «محاضرات الأدباء»، و«جامع التفاسير»، وقد طبعت مقدمته، توفي سنة ٥٠٢هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٢٠)، والأعلام (٢/ ٢٥٥).

تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾[النور: ٢٦]؛ أي: الأفعال الرديئة والاختيارات المبهرجة لأمثالها، وكذلك ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾. وقال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ [المائدة: ١٠٠]؛ أي: الكافر والمؤمن، والأعمال الفاسدة والأعمال الصالحة. وقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾[إبراهيم: ٢٦]؛ إشارة إلى كلمة قبيحة من كفر وكذب ونميمة، وغير ذلك»[1].

وقال في معنى الطيب: «يُقال طاب الشيء يطيب طيباً فهو طيبٌ، قال: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[النساء: ٣]، ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ ﴾[النساء: ٤]، وأصل الطيب: ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس، والطعام الطيب في الشرع ما كان متناولاً من حيث ما يجوز، وبقدر ما يجوز، ومن المكان الذي يجوز، فإنه متى كان كذلك كان طيباً عاجلاً وآجلاً، لا يستوخم، وإلا فإنّه وإن كان طيباً عاجلاً لم يطب آجلاً، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾[البقرة: ١٧٢]، و﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [المائدة: ٨٨]. وهذا هو المراد بقوله: ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾[المائدة: ٥]. قيل: عنى بها الذبائح، وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾[الأنفال: ٢٦]؛ إشارة إلى الغنيمة. والطيب من الإنسان: من تعرّى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلّى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال، وإياهم قصد بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال: ﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾[آل عمران: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقوله: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ [النور: ٢٦]؛ تنبيه أن الأعمال الطيبة تكون من الطيبين»[2].

وبهذا القدر الذي نقلتُه من مفردات «الراغب» كفاية في الدلالة على أشهر معاني كل منهما، وأنه عام في المحسوسات والمعقولات، شاملٌ للظواهر والبواطن، يندرج تحته عالم الأحياء وعالم الجماد.

---

(١) مفردات الراغب، مادة (خبث).
(٢) مفردات الراغب، مادة (طيب).

ويمكننا بعد ذلك الشروع في تفصيل كلتا السُّنتين اللَّتين أَوْمَأَتْ إليهما آية المائدة: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

السُّنَّةُ الأولى: أن الخبيث والطيب لا يستويان، بل هما ضدان مختلفان وحقيقتان متغايرتان وأنه يترتب على كل منهما ما يليق بها.

لا يستوي الخبيث والطيب من الأشياء والأعمال والأقوال: كالضار والنافع والفاسق والصالح والحرام والحلال، ولا من الناس: كالظالم والعادل والجاهل والعالم، والمفسد والمصلح والبَرّ والفاجر والمؤمن والكافر.

«فلكل من الخبيث والطيب في القسم الأول حكم يليق به عند الله تعالى، ولكل منهما في القسم الآخر - أي من الناس - جزاء ومكان يستحقه بحسب صفته ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وهو الحكيم العليم الذي يضع كل شيء في موضعه»[١].

ولقد جاءت هذه الآية وما في معناها، ميزاناً «يقيمه الله للقيم ليزن به المسلم ويحكم»[٢]، وقاعدة وهي: أن العبرة بصفة الشيء[٣] ... وبقيمته، لا بشيء آخر... هذا هو الميزان، وهذه هي القاعدة.

سُنَّة الله في خلقه وأمره، أنه ﴿لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾.

ومن يسوي بينهما في حسّه وظنه، أو في سلوكه وواقعه فهو مخالفٌ لأمر الله، مصادم للفطر السوية، نائل من العقوبات العاجلة والآجلة ما يستحقه المخالفون لأوامر الله وسننه.

وإذا كانت هذه الآية قد اشتملت على تقرير هذه السُّنة العظيمة، التي تشهد العقول السليمة والفِطَر المستقيمة على صحتها، بل وعلى ضرورة وجودها والحكم بموجبها، وهي أنه - سبحانه - قضى ألا يسوي بين المختلفين ﴿لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾، فإنَّ من لازم ذلك، أن نعلم علم اليقين أنّه - سبحانه - لا يفرق بين المتماثلين، فإنَّ الحكمة في هذه كتلك، وهذا ما أجرى الله عليه سنته، وهو مقتضى حكمته وعدله، كما تشهد

---

(١) تفسير المنار (٧/ ١٢٢).
(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٩٨٣).
(٣) تفسير المنار (٧/ ١٢٣).

بذلك النصوص. ولهذا أنكر ـ سبحانه ـ على من ظنَّ أن شيئاً من ذلك يمكن أن يقع منه[1]، وأخبر أن حكمته وعدله تأبى ذلك[2].

فمن الأول ـ وهو إنكاره سبحانه أنه يسوي بين المختلفات ـ من ذلك: قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٨]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

فأخبر ـ سبحانه ـ أن هذا كله حكم باطل جائر، يتعالى ويتقدَّس عن أن يجوز عليه، فضلاً عن أن يُنسَبَ إليه... بل أبلغ من هذا، أنَّه أنكر على من حسب أنه يمكن أن يدخل الجنة بغير امتحان له وتكليف يظهر به صبره وشكره، وأن حكمته تأبى ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فأنكر عليهم هذا الظن والحسبان؛ لمخالفته لحكمته.

ومن الثاني: وهو أن مقتضى حكمته وعدله ـ سبحانه ـ أنه لا يفرّق بين المتماثلين، منه: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١]. وقوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٦٧]. وقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣]. وقوله: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧].

---

(١) أي أنكر على من ظنَّ أنَّ التفريق بين المتماثلات، أو التسوية بين المختلفات يمكن أن يقع في شرع الله وأمره، كما سيتضح لك.

(٢) شفاء العليل، لابن القيم، ص ٤٩ بتصرف.

والقرآن مملوءٌ من هذا، يخبر ـ تعالى ـ أن حُكم الشيء في حِكمته وعدله حكم نظيره ومماثله، وضدُّ مضاده ومخالفه[1].

وكثرة ورود ذلك في القرآن، له دلالات وإيحاءات، أَبْيَنُهَا ـ فيما أرى ـ أمران:

الأول: أنَّ إقرار هذه الحكمة، وإظهار هذه السُّنة ـ أنَّه لا يستوي الخبيث والطيب، وأنَّ الخبيث جنس واحد تحته أنواع، والطيب كذلك ـ ذو أهمية بالغة في حياة الأفراد والأمم، من وجوه:

ـ أنَّ هذا هو الموافق لحكمة الله ومُراده، والله إنَّما تعبدهم بذلك، ولا خير فيما سواه ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

ـ ومنها: أن هذا هو الموافق لطبيعة الأشياء، المنسجم مع المصالح لعموم الخلق، وهو مقتضى ما تشهد به العقول والفِطَر السليمة.

ـ ومنها: أن أي اضطراب في هذا الميزان في يد الخلق أفراداً وأمماً. وأي غياب لهذه القاعدة؛ لأي سبب كان، من جهل أو هوى أو غيرهما، يؤدي ـ لا محالة ـ إلى فساد عريض.

ولك أن تتصور أمة يستوي في حسّ أهلها وواقعهم: الخبيث والطيب!

ولك أن تتصور ـ أيضاً ـ أمَّة يعمد أهلها إلى الطيب فيجعلونه خبيثاً، أو الخبيث فيجعلونه طيباً... يجعلون ما لهذا لهذا!

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

الثاني: أن أكثر الأمم من المتقدمين والمتأخرين، لما اضطرب هذا الميزان في أيديهم وغابت عنهم هذه السُّنة الإلهية في التمييز بين الخبيث والطيب، وردُّ كل شكل إلى شكله، مع شدَّة وضوحها وموافقتها للطبائع والفطر والعقول، وقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر بالله والشرك واتِّباع الأهواء والآراء الفاسدة، ورد ما جاءت به الرسل والأنبياء، وحصل فيهم ومنهم من الظلم والفجور وأنواع المصائب ما لا يخفى.

ولهذا عُني القرآن بالتأكيد على هذه السُّنة الإلهية وإبرازها، وفق منهج القرآن وعلى طريقته في تقديم الأولويات في تربية الأمة وتصحيح مسارها وتقويمها على الجادة؛ لتقيم «الحياة جملة وتفصيلاً وفق قيم الإسلام في ميزان الله حتى تكون ربانية حقاً...

---

(١) شفاء العليل، ص ٤٠١، ٤٠٣، بتصرف واختصار.

وحتى ترتفع بشريتها إلى أحسن تقويم ... وعندئذٍ لا يستوي في ميزانها الخبيث والطيب»(١) .

ومع كل هذا ، فقد ذهلت أكثر الأمم عن هذه السُّنة ، وأسقطت من حسابها أن تزن الأحداث والأشياء بهذا الميزان ، إلا من رحم الله ـ وقليل ما هم ـ فآل أمرُ البشرية إلى ما نرى من الكفر والظلم والفسوق .

إنَّ الخبيثَ والطيّب لا يستويان . وكيف يستويان وهما عند الله لا يستويان؟!
وكيف يستويان وهما في طبيعتهما وحالهما ومآلهما لا يستويان؟!

وكيف يستويان ، والله يقول لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قُل ﴾أيها الرسول مخاطباً كل فرد من أفراد أمة الدعوة: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ [المائدة: ١٠٠] (٢) .

لا يستويان ، وإن حاول أكثر الناس أن يسووا بينهما بطريق التلفيق أو التمويه والخداع ، أو التعالم والغرور . فالخبيث يبقى خبيثاً ، والطيب يفصح عن نفسه ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧] .

سكبناه ونحسبه لجيناً فأبدى الكير عن خبث الحديد

ولهذا أُخِذَت الأمم في أحقاب التاريخ بموجب هذه السُّنة الإلهية وما تزال تُؤْخَذ(٣) بها ، ولم ينج منهم إلا من اتخذ إلى ربه سبيلاً ، وسبيل الله هاهنا: أن يميزوا بين الخبيث والطيب ، ويزنوهما بميزان الله الذي جاءت به الأنبياء .

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۞ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦ ، ٣٧] .

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٩٨٤) .
(٢) تفسير المنار (٧/ ١٢٢) .
(٣) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، محمد قطب ، ص ١٧٨ .

وها هنا قد يسأل سائل، فيقول: إذا كان الخبيث والطيب متمايزين بالصورة التي ذكرت، وقد ركز في عقول الخلق وفِطَرهم قبح الخبيث والنفرة منه، وحسن الطيب والانجذاب إليه، وجاءت الشرائع بتأكيد ذلك وبيان عاقبة ومآل كل من النوعين... إذا كان ذلك كذلك، فَلِمَ سوّى أكثر الخلق بينهما؟ بل ولِمَ استحسنوا الخبيث واستقبحوا الطيب؟!

وجواباً على هذا السؤال أقول: قد جاءت الإشارة إلى علّة ذلك في الآية موضوع الحديث، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾، وتلك هي السُنّة الثانية التي نَبَّهَت إليها هذه الآية، ألا وهي الإعجاب بالخبيث.

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ إشارة إلى أن الخبيث لكثرته؛ يعجب لأول وهلة وإن كان خبيثاً، وهو الرديء الخسيس من كل شيء!

يُعجب، وإن كان حقيقةً لا يستحق الإعجاب به؛ لأنّه خبيث، وقد تقرر أنّه ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾. وإذن، فسُنَّة الله وحكمته جرت بـ: أن الخبيث في جملته أكثر من الطيب كثرة، ولهذا يعجب، وإن كان أخف ميزاناً وأقلّ شأناً.

وقد مضى بيان معنى «الخبيث»، و«الطيب» وأنهما يشملان الأشياء والأشخاص والعقائد والخواطر والمواقف ... و ....

ولتجلية هذه السُنّة الإلهية التي هي مظهر من مظاهر حكمته تعالى في خلقه، لا بد من تأمّل ودراسة النصوص على نحو يتضح به المعنى الذي تومئ إليه الآية.

وخلاصته:

* أنّه يقع في أعمال المكلفين ـ عادة ـ من موجبات الكفر والفسوق، وسائر أنواع الخبائث، أكثر من أضداد ذلك من الطيبات كالإيمان والصلاح والعدل ونحوها.

* كما يخالط نفوسهم من الجهل والهوى ـ وهما وصفان خبيثان ـ ما يجعلهم قابلين للخبيث، معجبين به.

* وأنه يحتف بالخبيث من القرائن والأمور ما يجعله معجباً لأكثر الخلق، وإن لم يكن كذلك في حقيقة الأمر.

* ومع ذلك ، فإنَّ الدلائل والشواهد متضافرة على أن الخبيث ـ مع كثرته ـ لا يقوم للطيب مع قلته .

ولهذه الأمور ، فإنَّ الخبائث في الأمم من الإنس والجن ، أكثر من الطيبات .

وهذا يشمل العقائد ، وأعمال السلوك ، والأقوال ، والأفعال . . . وكله بسبب ما كسبته أيديهم ، وانطوت عليه نفوسهم .

وأصل ذلك: اتِّباع الشيطان الذي ﴿سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥] ، فإنَّه أصل الشرّ ومعدن كل خبيث قولي أو فعلي ، وبسبب خبثه عصى ربه إذ أمره بالسجود لآدم عليه السلام كِبْراً وحسداً ، وأُخْرِجَ من الجنة مذموماً مدحوراً ، لا يعود إليها أبد الآبدين ودهر الداهرين ، وجعلت له نار جهنم داراً ونزلاً ، هو وأتباعه من الخبيثين والخبيثات ، فآلا على نفسه وأقسم بعزة ربه ليغوين ذرية آدم أجمعين ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٤٠] ، فأولئك الطيبون لهم دار السلام ، الجنة دار الطيبين ، فانقسم الخلق فريقين وانضووا تحت لواءين: لواء حملته الرسل والأنبياء وأتباعهم من المؤمنين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ٢٢] ، ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧] . وأولئك هم الطيبون في عقائدهم وسلوكهم وأقوالهم وأفعالهم ومدخلهم ومخرجهم ، وكل طيب فهم أولى به .

ولواء حملته الشياطين وأتباعهم من الغاوين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المجادلة: ١٩] الخبيثون في عقائدهم وسلوكهم وأقوالهم وأفعالهم ومدخلهم ومخرجهم ، وكل خبيث فهم أولى به .

قال تعالى مبيناً موقف إبليس من آدم وذريته: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ * قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ * قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة ص: ٧١ ـ ٨٥] .

وقال في آية أخرى: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]. وقال في آية أخرى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] . . . إلى غير ذلك من الآيات، وفيها ـ كما ترى ـ عهد من إبليس ـ لعنه الله ـ على نفسه ليجتهدن في إغواء ذرية آدم عليه السلام، وليسلكن في سبيل تحقيق ذلك كل وسيلة ممكنة، وأنه لن ينجو منهم إلا قليل. وكان ذلك ظناً منه «لا يقيناً؛ لأنه لا يعلم الغيب، ولم يأته خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين إلا من استثنى . . .»[1]. فأنزل الله قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

«قرئ (صَدَقَ) بالتخفيف، فيكون (ظنه) منصوباً على المصدر أو على الظرف، المعنى: صدق عليهم ظناً ظنه إذ صدق في ظنه، أو: صدق عليهم في ظنه. قاله الزَّجَّاج[2]، وقال أبو علي[3]: «(ظنه) نصب؛ لأنه مفعول به، أي: صدق الظن الذي ظنه . . . ويجوز تعدية الصدق إلى المفعول به».

وقرئ (صدَّق) بالتشديد، فيكون (ظنه) مفعولاً بوقوع الفعل عليه، قال مجاهد: ظن ظناً فكان كما ظن فصدق ظنه، وقال زيد بن أسلم[4]: إنَّ إبليس قال: يا رب، أرأيت هؤلاء الذين كرمتهم وشرفتهم وفضَّلتهم عليَّ، لا تجد أكثرهم شاكرين، ظناً منه فصدق عليهم إبليس ظنه. وقال الكلبي[5]: إنَّه ظنّ أنه إن أغواهم أجابوه، وإن أضلهم أطاعوه، فصدق ظنه»[6].

---

(١) تفسير السعدي (٦/ ١٣٤)، ومعناه مرويٌّ عن الحسن. انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٥).

(٢) إبراهيم بن السَّريّ بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، إمام من أئمة العربية، بغدادي المولد والوفاة، له: «معاني القرآن وإعرابه»، وغيره. توفي سنة (٣١١هـ). انظر: طبقات النحويين واللغويين، ص ١١١. الأعلام (١/ ٤٠).

(٣) هو: أبو علي الفارسي، الحسن بن أحمد، أحد الأئمة المشهورين في علم العربية، له: كتاب «الإيضاح والتكملة»، وله في كل بلد دخله مصنف باسمه، ككتاب: «المسائل الحلبيات»، و«المسائل البغداديات» . . . وله في القراءات كتاب: «الحجَّة». توفي سنة (٣٧٧هـ). انظر: بُغية الوعاة (١/ ٤٩٦)، والأعلام (٢/ ١٧٩).

(٤) زيد بن أسلم العدوي، العمري، فقيه مفسِّر من أهل المدينة، كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته، وكان ثقة كثير الحديث، وله كتاب في التفسير رواه عنه ولده عبد الرحمن. توفي سنة (١٣٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٣١٦)، والأعلام (٣/ ٥٦).

(٥) هو: محمد بن السائب الكلبي، الكوفي، أبو النضر، نسَّابة، رَاوِيَة، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، ضعيف في الحديث، قال عنه النسائي: «حدَّث عنه ثقات من الناس ورضوهَ في التفسير، وأمّا في الحديث ففيه مناكير». توفي سنة (١٤٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٤٨) والأعلام (٦/ ١٣٣).

(٦) تفسير القرطبي (١٤/ ٢٩٣).

وآية (سبأ) هذه بضميمة الآيات السابقة نص في أن أكثر الخلق ضالون متبعون للشيطان، واقعون في حبائله، وأن القلَّة هم المؤمنون الناجون من غوائله. وهذا ليس في أمة دون أمة، بل الأمم كلها كذلك، على اختلاف بينها في كثرة القلة المؤمنة، وقلة الكثرة الكافرة.

فهذا نوح ﷺ يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، دعوة الدءوب الصابر ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ الآيات [نوح: ٥ ـ ٩].

وبعد كل هذا الجهد والوقت، تكون الحصيلة من قومه: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

ويأتي بعد نوح، هود وصالح ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، ولا يذكر القرآن الكريم قلَّة المؤمنين بهما صراحة، لكنه أفهم ذلك في سياق الآيات التي تحدثت عن خبرهما مع أقوامهما، كقوله تعالى في خبر هود مع قومه عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. فافتخروا بقوتهم، ومن القوة: الكثرة العددية إلى جانب القوة الجسدية. وكقول قومه مخاطبينه ﷺ بعدما دعاهم وأنذرهم: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦ ـ ١٣٨]، وما في معناها مما يدل على أنهم يخاطبون هوداً ﷺ بمنطق القوة والاستعلاء، ولا يكون ذلك إلا حيث تكون القوَّة والكثرة والسلطان.

وأمَّا صالح ﷺ، فيكفي دليلاً على قلَّة من اتبعه من قومه أن نعلم أنَّهم طائفة من المستضعفين، لا كلهم. قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا بِالَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

فالملأ من قومه كافرون، ويتبعهم خلق من المستضعفين على مثل ما هم عليه من الكفر.

وكذلك إبراهيم ﷺ فَمَنْ بعده من الأنبياء، فإنهم في قلّة أتباعهم من المؤمنين وكثرة مخالفيهم من طوائف الكافرين مثل بقية إخوانهم من النبيين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال تعالى بعد ما ذكر دعوة إبراهيم قومه، وتكذيبهم إياه، وما كان منهم من محاولة إحراقه بالنار، ثم إنجاء الله إياه منها، قال: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٦، ٢٧].

وجاء ذِكْرُ من آمن به في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]... والذين معه كانوا قِلّة، بل كانوا أفراداً[١]، وتظهر قلّتهم من الأسلوب الذي اتبعوه في إنكار المنكر على قومهم، فإنهم أنكروا عليهم باللسان والقلب «وهو أقصى ما يستطيعه أمثالهم من درجات تغيير المنكر... إذ ليسوا بمستطيعين تغيير ما عليه قومهم باليد؛ لقلّتهم وضعفهم بين قومهم»[٢]. ولم يذكر القرآن له أتباعاً غير لوط ﷺ، ومن ذكر من ذريته.

ولوط ﷺ يكفر به أهل قريته إلا أهله، حتى امرأته كانت على مثل ما كان عليه قومه. قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]. وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١، ٣٢].

والذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا قلّة كذلك.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/١٤٣)، وهم يومها ثلاثة: إبراهيم، وزوجه سارة، وابن أخيه لوط، ولم يكن لإبراهيم أبناء. السابق، الجزء والصفحة.

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٤٤، ١٤٥).

قال تعالى عن أتباع موسى ﷺ: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ ؛ أي قوم فرعون ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس: ٨٣] .

وقال فرعون حاكياً قلّتهم: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٤] .

هذا ، مع أن موسى ﷺ كان أكثر الأنبياء تابعاً بعد نبينا محمد ﷺ ، كما ثبت ذلك في حديث أنس عند مسلم[١] .

وقال تعالى عن أتباع عيسى ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤] .

وهؤلاء الحواريون قلّة بالنسبة إلى من خالفهم من اليهود واليونانيين الذين كفروا ، ومن النصارى الذين غلوا في عيسى ﷺ ، فانتهى بهم ذلك إلى الكفر أيضاً ، وإنّما تأيدوا ببعثة النبي محمد ﷺ[٢] ؛ لأنّ المؤمنين بعيسى حقيقة يؤمنون بالنبي محمد ﷺ كذلك . وأمّا أمة محمد ﷺ فهم خير أمة أُخرجت للناس ، والنبي محمد ﷺ أكثر الأنبياء تابعاً ، كما في حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا أول شفيع في الجنة لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت»**[٣] ، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«عُرِضَتْ عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد؛ إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرتُ إذا سواد عظيم، ثم قيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فنظرتُ فإذا سواد عظيم»** الحديث[٤] .

بل هم شطر أهل الجنة ، وفي حديث آخر: **«نصف أهل الجنة»**[٥] . . . ومع هذه الكثرة بالنسبة للأمم السابقة ، فإنّ نسبة المؤمنين إلى مَنْ سَواهم من الكفرة والمنافقين

---

(١) ولفظه: «أنا أول شفيع في الجنة، لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد» . انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ٧٣) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦٢) .

(٣) سبق تخريجه قريباً .

(٤) متفق عليه . انظر: فتح الباري (١٠/ ١٥٥) ، ح رقم (٥٧٠٥) . وصحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ٩٣) .

(٥) ورد لفظ «شطر أهل الجنة» في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ ، ولفظ «نصف أهل الجنة» في حديث ابن مسعود ﷺ . والحديثان متفق عليهما . انظر: فتح الباري (٦/ ٣٨٢) ح رقم (٣٣٤٨) ، (١١/ ٣٧٨) ح رقم (٦٥٢٨) . وصحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ٩٥ ، ٩٧) . والشطر: هو النصف ، كما يدلّ على ذلك لفظ الحديث .

قليلة جداً، كما يدلّ لذلك حديث الفِرَق المشهور.

وإذن فأقوام الأنبياء كلهم كما أخبر عنهم القرآن: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨] . . . إلى غير ذلك من الآيات.

ولهذا يأتي التعبير عن المؤمنين بألفاظ تدلُّ على قلتهم تصريحاً أو إيماءً، أو بلازم ذلك غالباً، كالضعف والاستضعاف، والإخراج من الديار، والسخرية والإيذاء وما أشبه ذلك(١).

ولا يُشكل على ذلك ما جاء في بعض الآيات مما يحتمل ظاهره أن يكون المؤمنون أكثر من غيرهم، أو مساوين لهم أو أنهم كثير، ونحو ذلك، كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ﴾ [البقرة: ٢٦]، وكقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: ١٨]، وكقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ﴾ [الأعراف: ٨٦] . . . ونحوها. فإنَّ لفظ (الكثير) لا يلزم منه المساواة بينه وبين غيره، إذا كان هذا الغير موصوفاً بالصفة نفسها، فضلاً عن أنه لا يلزم منه الزيادة عليه، وهذا بخلاف لفظ (الأكثر) فإنه يفهم الزيادة؛ إذ هو أفعل تفضيل في الغالب، وغاية ما يفيده لفظ (الكثير) أنْ يكون موصوفه خارجاً عن حد القلة، وإن لم يكن مساوياً لغيره.

ثم إنَّ هذا الاحتمال في مثل تلك الآيات يمتنع حمله على مساواة المؤمنين لغيرهم أو زيادتهم عليهم، بدلالة النصوص الكثيرة الدَّالة على أن غير المؤمنين أكثرية، وبدلالة النصوص الأُخر الدَّالَّة على أن المؤمنين قلّة، والمسألة ظاهرة بحمد الله.

ثم إنَّ الجن في ذلك كالإنس، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ

---

(١) وقد سبق ذكر بعض الآيات الدالة على هذا المعنى، وسيأتي لها مزيد بيان في مبحث (الملأ في الأمم).

ٱلْإِنسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] ؛ أي: «من إغوائهم وإضلالهم»[١].

والمقصود: أن المكلفين من الثقلين أكثرهم ضالون مرتكبون لأنواع من الخبائث، الكفر بالله فما دون ذلك، وهذا في سائر الأمم، كما سبق.

أمَّا غير المكلفين من سائر المخلوقات والموجودات، فليس ثمة تلازم بين الخبيث والكثرة، ولا بين الطيب والقِلَّة، بل العكس هو الصواب بحمد الله.

ولهذا، فإنَّ دائرة المباح أوسع الدوائر، والمحرّمات محصورة معدودة، والمباحات مطلقة[٢] كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢][٣]. وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].

«غير أن بني آدم، وأكثرهم على ما علمت من الكفر والفسوق، هم الذين يتناولون الأشياء بطرق محرَّمة، فيدعون كثيراً من الطيبات، من العقائد والمطاعم والمشارب والمناكح والعوائد والمعاملات... وغيرها من سائر الأقوال والأفعال إلى المحرّم منها، فيفشو الخبيث ويكثر بسببهم ويقل الطيب، وإن كان كثيراً لولا تصرفهم فيه أو عدولهم عنه إلى غيره. وهذا في الجملة صحيح لا شك فيه، وأمَّا على التفصيل، فالأمر يختلف من حين لآخر ومن شيء إلى غيره، وليس قوله: ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ ﴾ [المائدة: ١٠٠] بمقتضٍ أن كل خبيث يكون كثيراً، ولا أن يكون أكثر من الطيب من جنسه...»[٤].

إذا تقرر هذا، وهو: أن الخبيث أكثر من الطيب فيما يتعلَّق بالمكلفين من الثقلين، وما يصدر عنهم وبسببهم، فليعلم أنَّ كثرة الخبيث ـ على ما علمت من قبحه ـ إنَّما هو بسبب ما يحتف به من القرائن التي تجعله معجباً لأكثر الخلق من جهة، ومن جهة ثانية فإنَّ كثرة الخبيث تكون بسبب الجهل والهوى الذي يجعل النفوس قابلة له، أمَّا (الطيب) فمجرد من كل طلاء وبهرج ومن كل تزيين، إلا من زينته الحقيقية وإلا من ثقله في ميزان

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٦).
(٢) انظر: المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ/ عبد الرحمن السعدي، قسم الفقه، المجلد الأول، ص ٣٧، ١٤١ وما بعدها.
(٣) انظر: تفسير القاسمي (٨/ ٦٧).
(٤) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور (٧/ ٦٣).

الله وثباته، وإلا من جماله الذاتي وسلطانه[(١)] ابتلاء من الله وامتحاناً لعباده، وما به سبحانه أن يظلمهم، لقد بيَّن لهم ما يتقون وهو سبحانه طيب، لا يقبل إلا طيباً من كل شيء. ولما كان أكثر الخلق قد استحوذ عليهم الشيطان ببهرجه وتزيينه، ففسدت فطرهم وخبثت نفوسهم وانتكست موازينهم... لما كانوا كذلك، نصبَ الشيطان لهم موازين من عنده، وأحلَّ لهم ما حرَّم الله عليهم من الكفر والشرك والفسوق وسائر الخبائث فأطاعوه. قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ [فاطر: ٨]. وقال: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ﴾[التوبة: ٣٧]. وقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]... إلى غير ذلك من الآيات.

وتزيين الخبيث وكونه معجباً تنجذب إليه النفوس الخسيسة الرديئة يكون بأمور، منها:

* كثرة الخبيث: والكثرة تستهوي النفوس، وربما أوحت بأحقيته وأن القلة هي الشذوذ. والكثرة أيا كانت تأخذ العين وتهول الحسّ، وهي ذات لألاء يسطع فلا تتمكن أعين الكثيرين من رؤية الخبيث على حقيقته وسط زحام الكثرة وما تتمتع به من جاذبية آسرة.

ولهذا كان المشركون يفخرون على المؤمنين في صدر الإسلام بكثرتهم[(٢)] ويعتزون بها: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: ٣٥]، ولما كان للكثرة هذا التأثير في النفوس أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقول لكل مكلف بلغته دعوته: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ﴾[المائدة: ١٠٠][(٣)].

فالآية تؤذن بأن قد وجدت كثرة من أشياء فاسدة خيف أن تستهوي من كانوا بقلة من الأشياء الصالحة[(٤)].

* ومنها: قوته ـ أي الخبيث ـ في الظاهر، وتمكنه وتسلطه في الغالب، وكون علية القوم والملأ في الأمم وهم المتنفذون أصحاب الجاه والمال والسلطان، كون هؤلاء في

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٩٨٤).
(٢) تفسير المنار (٧/ ١٢٣).
(٣) انظر: تفسير المنار (٧/ ١٢٣).
(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٦٢).

طليعة جنوده، ومقدمة صفوفه... كل ذلك يدعو إلى الالتفاف حوله، ويعمل على تغطية وجه الخبيث القبيح بألوان من الدعاية، وإضفاء الشرعية على ما لم يمكن تغطيته منه؛ بالقوة تارة، وبالمال تارة، وبالاستغفال تارات. ولهذا نجد الملأ في كل أمة، هم أول من يقف في مواجهة الرسول المرسل إليهم، ويحول بينه وبين الجماهير. ويوزع التهم، يشيعها قبل أن تشيع الكلمة الطيبة. وبفعل القوة والجاه، وحصار الكلمة الطيبة تلتف الجماهير المغفلة حول الخبيث مُلوِّحة في وجه الطيِّب الأعزل.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[الزخرف: ٥١ ـ ٥٤].

وتلك سُنَّة الله في الأمم عامة «أن يكون الملأ في طليعة من يتصدَّى لأنبياء الله؛ لأنَّ نفوسهم قد امتلأت بحب المال والجاه، وقلوبهم قد أُشرِبَت كره كل من يدعو إلى الله»[١].

* ومن الأمور التي تجعل الخبيث معجباً: مَيْلُ النفوس إليه والحصول بسببه على الامتيازات، والتمتع بالشهوات دونما ضابط أو رقيب... كالتسلط والظلم واغتصاب الحقوق والأموال، وكأكل الربا والرشوة والخيانة ... ومقارفة الجرائم والفواحش، وترك الأوامر واطّراح التكاليف ... وما أشبه ذلك مما يستهوي النفوس الهابطة ويلبي الرغبات الجانحة.

وكثيراً ما كشف القرآن الكريم عن علَّة إعراض الأمم عن فعل ما أُمِرُوا به، أو تقحّم ما نُهُوا عنه، وأنها راجعة لسبب أو أكثر مما ذُكِر. ومن أمثلة ذلك: ما قصَّه القرآن عن مدين قوم شعيب عليه السلام، وكيف أجابوا شعيباً لما أمرهم بعبادة الله وحده ونهاهم أن ينقصوا المكيال والميزان. ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

يقولون له ذلك على سبيل التهكم ـ قبحهم الله[٢] ـ ومعنى كلامهم: أنَّه لا موجب لنهيك لنا إلا أنك تصلي وتتعبد له، فإن كنت كذلك أفيوجب ذلك لنا أن نترك ما يعبد

---

(١) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد بن سرور زين العابدين، ص ٥٩ بتصرف يسير.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٤٥٦).

آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما قلت لنا من إيفاء الكيل والميزان وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا؛ لأنها أموالنا فليس لك فيها تصرف، ولهذا قالوا في تهكمهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾؛ أي: إنك لأنت الذي الحلم والوقار لك خُلُق، والرشد لك سجيَّة، فلا يصدر عنك إلا رشد ولا تأمر إلا برشد ولا تنهى إلا عن غيّ، أي ليس الأمر كذلك[١].

* ومن الأمثلة على فساد الأذواق ومسخ الفِطَر والأُنس بالخبائث: ما كان من قوم لوط ﷺ، لما نهاهم لوط عن فعلتهم الشنعاء، التي لا شك في شناعتها، لمخالفتها الطبائع... لما نهاهم وأنكر عليهم بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٦].

* ومن ذلك: ما يفعله المشركون، الذين يجعلون ما ليس بحجة أصلاً، يجعلونه برهاناً على صحة ما هم عليه، وأنهم يصدرون فيه عن أمر الله ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ قال تعالى حاكياً قيلهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، فكذبهم الله تعالى ووبخهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وبقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

والأمور التي تجعل الخبيث معجباً لأكثر الخلق، عند التفصيل كثيرةٌ. لكنها في الجملة راجعة إلى ما ذكر من تزيينه، وكثرته، وقوته في الظاهر، وكون السلطان والجاه والمال في أشياعه، ولأن الناس في ظله يتبعون أهواءهم وأطماعهم، فلا تكاليف ولا أوامر ولا حدود. وتلك لعمر الحق خلائق المخذولين وحياة الغافلين، لا يعدون قدرهم، وقد «حجبت، وفي رواية: حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»[٢].

---

(١) تفسير السعدي (٣/ ٢١١).

(٢) حديث صحيح، رواه الشيخان عن أنس بن مالك. ورواه مسلم عن أبي هريرة أيضاً ـ رضي الله عنهم. وهو عند البخاري بلفظ: «حُجِبَت»، وعند مسلم بلفظ: «حُفَّت». انظر: الفتح (١١/ ٣٢٠)، باب: حُجِبَتْ النار بالشهوات، ح (٦٤٨٧). ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، في فاتحته، ح (٢٨٢٢).

وهذه الأمور عند التأمّل، ليس من بينها أمر يرجع إلى ذات الخبيث، وهي تؤكد أنه ليس في الخبيث قوة جذب ذاتية، بل ما يجعله معجباً: إما فساد النفوس وخبثها، بحيث لا يوافقها إلا الخبيث، وإما ما يحتف به من بهرج وتزيين. أمَّا الخبيث ذاته، فلا سلطان له على النفوس والعقول، وقد حكى الله ذلك عن إبليس ـ لعنه الله ـ صراحة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]؛ أي: ليس لي من حجة تصدق قولي، وتحملكم على متابعتي[١].

واخبر في آية أخرى: أنَّ الخبيث أشبه شيء بالزبد ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ ﴾ [الرعد: ١٧]؛ أي: هباء ذاهباً. وتشبيهه بالزبد يدلُّ على أنَّه لا حقيقة له نافعة، ولا بقاء له على الأيام. فكيف يستوي هو والحق الطيب، الذي ينفع الناس، ويمكث في الأرض؟

إذا تقرَّرَ هذا، فإنَّ مما ينبغي أن يُعْلَمَ: أنَّ الدلائل والشواهد متضافرة على أن (الخبيث) مع كثرته لا يثبت أمام الطيب[٢] مع قلته، ولا يقوم له، برغم كثرة الخبيث، لكثرة أتباعه ومريديه، وما يصحب الكثرة من إعجاب، لكن لأنه (خبيث) فإنَّه ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾، وشتان ما بين القوة التي تنبع من الذات، والجمال الذي لا ينفك عنها لأنه جزء منها، وبين القوة التي سندها من خارج الذات، والجمال المصطنع الذي عماده التزيين والتزويق ... وكما قيل: ليس التكحل في العينين كالكحل.

لا يثبت الخبيث أمام الطيب في المواجهة. ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥]. ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ ﴾ [الأنبياء: ١٨]. ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٣/ ٢٠٠).
(٢) الطيب ـ هنا: ما كان ضد الخبيث ونقيضه من كل وجه.

فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[المائدة: ٢٣]. ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٤، ٤٥].

سواء كانت المواجهة في ميدان القتال أم في ميادين المبادئ والأفكار. ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

وكما لا يقوم الخبيث للطيب، فإنه لا يغني غناءه، ولا توجد فيه بركته في الأموال والأعمال وغيرها.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩]. وقال: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وقال: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]؛ أي: مصالح دينه ودنياه. ﴿ فُرُطًا ﴾؛ أي: ضائعة معطلة[1]. وقال: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[النساء: ١١٤].

أمَّا هنالك في الآخرة، فإنَّ الخبيث ـ أيا كان ـ يكون هباءً منثوراً، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

ومن تأمَّل أحوال الأنبياء وأتباعهم الصادقين، وكانوا قلة في كل أحقاب التاريخ، لَمَّا كانوا قائمين بالحق، قد طابت عقائدهم وأقوالهم وأفعالهم ... كيف كان النصر والتمكين لهم، وللمبادئ التي جاءوا بها، وكيف أن أعداءهم كانوا هم المخذولين المغلوبين... من تأمَّل ذلك كفاه وأغناه عن كل دليل سواه.

ولكن أين المتأملون؟ إنهم قلة قليلون ... إنهم أولو الألباب من بين الكثرة الكاثرة من الغافلين عن آيات الله في الأنفس والآفاق ... ولهذا ذيل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ آية

(١) تفسير السعدي (٥/ ١٦).

المائدة ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

قال الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ عند تفسير هذه الآية: «أي فاتقوا الله يا أصحاب العقول الراجحة، ولا تغتروا بكثرة المال الخبيث ولا بكثرة أهل الباطل والفساد من الخبيثين، فإنّ تقوى الله هي التي تنظمكم في سلك الطيبين فيرجى لكم أن تكونوا من المفلحين، أي: الفائزين بخير الدنيا والآخرة.

وإنّما خصّ أولي الألباب بالذكر في عجز الآية بعد مخاطبة كل مكلف في صدرها؛ لأنّ أهل البصيرة والرؤية من العقلاء يعتبرون بعواقب الأمور التي تدلّ عليها أوائلها ومقدماتها بعد التأمّل في حقيقتها وصفاتها، فلا يصرون على الغرور بكثرة الخبيث بعد التنبيه والتذكير، وأمّا الأغرار الغافلون، الذين لم يمرنوا عقولهم على الاستقلال في النظر والاعتبار بالتجارب والحكم، فلا يفيدهم وعظ واعظ ولا تذكير مذكر، بل لا يعتبرون بما يرون بأعينهم ويسمعون بآذانهم من حوادث الأغنياء الذين ذهبت أموالهم الكثيرة المجموعة من الحرام، والأمم والدول التي اضمحلت كثرتها العاطلة من فضيلتي العلم والنظام، وكيف ورث هؤلاء وأولئك من كانوا أقل مالاً ورجالاً، إذ كانوا أفضل أخلاقاً وأعمالاً ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، القصص: ٨٣]»[1].

وبعد، فلعلّ من المناسب، وقد لاح الفرقان بين الخبيث والطيب، أن أُردفَ ذلك بمبحثين موجزين ... أبيّن في الأول أهم أوجه الشبه التي تجمع بين أهل الباطل والضلال على اختلافهم في الزمان والمكان.

وأعرض في الثاني لأهم المعاني التي يمنحها الإيمان معتنقيه، على اختلافهم في الزمان والمكان أيضاً.

* * *

(١) تفسير المنار (٧/ ١٢٤).

المبحث الثاني

﴿تَشَـٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾

تبيَّنا فيما سبق أنَّ أكثر الخلق منحرفون عن جادة الحق متبعون لأهوائهم، ناكبون عن الصراط المستقيم.

ونحن إذا تأمّلنا أحوال الضالين المنحرفين ومنطلقاتهم ومواقفهم، بل ومنطقهم عبر التاريخ ... وجدنا تشابهاً في كل ذلك!

تشابهاً في الأحوال الاجتماعية، وما يتبع ذلك من امتيازات... فهؤلاء (الملأ) قلة قليلة تملك المال والسلطان والجاه، وتملك تبعاً لذلك حق الأمر والنهي.

وهؤلاء (بقية الناس) (المستضعفون) من الأتباع ... هؤلاء فرضهم الخدمة والسمع والطاعة!

ووجدنا تشابهاً في المنطلقات، فمنطلقات الجميع مادية، واهتماماتهم أرضية سفلية، لا يتجاوزون المحسوس، ولا يرتفعون عن مستوى المتعة والشهوة.

كما وجدنا تشابهاً في مواقفهم، من بعضهم، ومن رسل الله وأتباعهم. بل وفي مواجهة الأشياء عموماً ... تشابهاً يجعلهم في بعض الأحيان يتجاوزون حدود المشابهة إلى التطابق والتوافق في ذات الألفاظ، فضلاً عن التوافق في ذات الأساليب، وبالتالي الانتهاء إلى النتائج ذاتها!

لا فرق في ذلك كله بين الأمم البدائية في عصور ما قبل التاريخ، وبين الأمم الراقية، بل أرقى الأمم مدنية وأكثرها تطوراً.

فهل حدث هذا التشابه صُدفة؟ كلا ليس بصدفة، ولا يمكن أن يكون صدفة.

إن روحاً واحدة تسري في الجميع، ورؤية واحدة للكون والإنسان تقود خطى الجميع، وعلى ضوئها وبوحْيٍ منها يتصرف الجميع. وإن شئت فقل:

إنَّ حضارة واحدة تظلل الجميع هي الحضارة المادية الجاهلية، تحت قيادة موحدة هي قيادة شياطين الإنس والجن، ينتج عنها ولا بد تشابه في الأحوال والمنطلقات والمواقف ... وفي المنطق والأساليب.

ولا يُلهينك ما تراه من الفروق الكثيرة الموجودة بين هذه الأمم في مجالات التطبيق، فإنها ترجع إلى اختلاف أحوال الإنسان، وما في حوزته من إمكانات مادية . . . المهم أن الجوهر واحد، والمنطلقات والدوافع متماثلة.

ولو كان الحديث عن التشابه الواقع بين موكب المؤمنين، عبر تاريخ البشرية الطويل، لكان الأمر ظاهراً، على الأقل عندنا نحن المسلمين؛ لأنَّ دين الأنبياء واحد في أصوله وغاياته، والمؤمنون متعبدون باتباعهم وطاعتهم.

أمّا والحديث عن الجاهليات المتعاقبة في الأمم على امتداد التاريخ، على ما بينها من تباعد في الزمان والمكان والأهواء، فإنَّ الأمر يختلف، وبخاصة عند غير المسلمين، الذين يفسّرون الأشياء تفسيراً مادياً، ولا يرون الجاهلية قاسماً مشتركاً، وآخية تدور حولها الأمم المادية، وإن اختلفت في مظاهرها.

أمّا عندنا ـ نحن المسلمين ـ فإنَّ الأمر ـ بحمد الله ـ ظاهرٌ، وسبب التشابه أو أسبابه، معروفة . . . ومظاهره في واقع الأمم مسجلة مرصودة . . . وهي مظاهر تتكرر، كما لو كان الفاعل واحداً، تتطور بيده الأدوات أو تتخلف، فينتج عن ذلك اختلاف في المظاهر والأشكال لا غير.

إنَّ الحقيقة الكبرى الحاسمة هي: «أن لكل حضارة روحاً خاصة بها، تظهر في وجوه المدنية العديدة. وهذه الروح يمكن أن تضعف، ولكنها لا يمكن أن تموت. إن قانون تناسخ الأرواح يفعل فعله في الحضارات، فالمدنيات تولد ثم لا تلبث بعد حين أن تندثر، ولكن روح الحضارة تتخذ ثوب أية مدنية أخرى.

هذه هي روح الحضارة التي تشربت بها مدنيات مختلفة، وأنتجت شبهاً بينها من حيث التكوين. فقوما (عاد وثمود) وشعوب الرومان واليونان والأوربيون والأمريكيون في أيامنا هذه، قد اتفقوا في الأمور الجوهرية من الحضارة، إن لم نَقُلْ في تفاصيلها. فهم جميعاً ينظرون إلى الحياة من زاوية واحدة بعينها، هي زاوية المصلحة المادية . . . والعقلية التي تسيطر في الإنسان الحديث هي نفسها لم تتغير، وإذا كان من فرق فهو فرق في السرعة والتكوين»[١].

فماذا عن التشابه في أحوال الأمم ومواقفهم في كل جاهليات التاريخ؟ ما أساس ذلك وقاعدته؟

---

(١) تفسير التاريخ، لعبد الحميد صديقي، ص ٢٩، ٣٩.

أساس ذلك وقاعدته ينتظم في :

أولاً: تشابه قلوبهم وعقولهم في الكفر والجهل والإعْرَاض.

وهذا جرّأهم على كل قبيح ، وأطلق ألسنتهم بكل زور وباطل .

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ﴾ [البقرة: ١١٣] .

هذا التقاول بين الفريقين معطوف على قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ﴾ [البقرة: ١١١] ؛ لزيادة بيان أن المجازفة دأبهم ، وأن رمي المخالف لهم بأنه ضال شِنشنة قديمة فيهم ، فهم يرمون المخالفين بالضلال لمجرد المخالفة . . . فلا تعجبوا من حكم كل فريق منهم بأن المسلمين لا يدخلون الجنة .

وفي ذلك إنحاء على أهل الكتاب ، وتطمين لخواطر المسلمين ، ودفع الشبهة عن المشركين بأنهم يتخذون من طعن أهل الكتاب في الإسلام حجة لأنفسهم على مناوأته وثباتاً على شركهم .

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ﴾ ؛ أي: يشبه هذا القول قول فريق آخر غير الفريقين . . . وأريد بهم مشركو العرب . . . أي قالوا للمسلمين مثل مقالة أهل الكتابين بعضهم لبعض ، واجتماع حرف التشبيه ولفظ (مثل) يفيد أن المشابهة بين قول الذين لا يعلمون ، وبين قول اليهود والنصارى مشابهة تامة[1] .

ولما عرض ـ سبحانه ـ مقالة أهل الكتابين وما تضمنته من الأباطيل ، وأخبر أن الكفرة والمشركين من هذه الأمة قد قالوا مثل إفكهم وباطلهم . . . لما بيَّن ذلك في هذه الآية ، قلب الصورة في الآية الأخرى فحكى مقالة الكفرة والمشركين من هذه الأمة ، ثم بيَّن أن مَنْ قبلهم قد قالوا مثل قولهم . هذا أسلوب بديع في كشف مدى التوحد في المنطلقات والتصورات بين هؤلاء الأقوام ، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨] .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١/ ٦٧٥ ، ٦٧٧) ، بتصرف يسير . ودفع الشبهة معناه: رفع الغطاء الذي يتذرعون به للطعن على المسلمين ، وتبرير بقائهم على الكفر .

وهذه الآية عطف على قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦]، المعطوف على قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ﴾؛ لمناسبة اشتراك المشركين واليهود والنصارى في الأقوال والعقائد الضالة ... إلا أنه لم يكن فريق من الثلاثة فيه مقتبساً من الآخر، بل جميعه ناشئ من الغلوّ ... ومنشؤه سوء الفهم في العقيدة ... وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾؛ أي: كمثل مقالتهم هذه قال الذين من قبلهم من الأمم ... فقد قال اليهود لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وسأل النصارى عيسى ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢] ... ولهذا تكون جملة ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ تقريراً؛ أي: تشابهت عقولهم في الأفن وسوء النظر[1].

ثانياً: تشابههم في الطغيان والتكبّر على الحق وأهله:

هذا من أوجه التشابه التي رصدها القرآن الكريم كأساس لتفسير ظاهرة التوحد في مواقفهم وأقوالهم.

قال جل وعلا كاشفاً دخيلتهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

وردت هذه الآية تعقيباً على قصص الرسل المذكورة في سورة الذاريات، فهي متصلة بأخبار الأمم التي تقدّم ذكرها، من قوم لوط ومن عُطف عليهم[2]، من فرعون وقومه، وثمود وعاد وقوم نوح.

والمراد بـ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾: الأمم المذكورة في الآيات السابقة وغيرهم، وضمير ﴿قَبْلِهِم﴾ عائد إلى مشركي العرب الحاضرين.

وزيادة ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ للتنصيص على إرادة العموم، أي أن كل رسول قال فيه فريق من قومه: هو ساحر أو مجنون!

والاستثناء في ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ استثناء من أحوال محذوفة ... والقصر المستفاد من الاستثناء قصر ادّعائي؛ لأنّ للأمم أقوالاً غير ذلك وأحوالاً أخرى، وإنّما قصروا على

(١) تفسير التحرير والتنوير (١/ ٦٨٨. ٦٨٩) بتصرف يسير.
(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠)، والظلال (٦/ ٣٣٨٦).

هذا اهتماماً بذكر هذه الحالة العجيبة من البُهْتَان، إذ يرمون أعقل الناس بالجنون، وأقومَهُم بالسحر.

وإسناد القول إلى ضمير ﴿الَّذِينَ﴾ من قبل مشركي العرب الحاضرين، إسناد باعتبار أنه قول أكثرهم، فإنَّ الأمور التي تنسب إلى الأقوام والقبائل تجري على اعتبار الغالب.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ الاستفهام مستعمل في التعجيب من تواطئهم على هذا القول ... لأن شأن الأمر العجيب أن يسأل عنه ... ولأن تماثل هؤلاء الأمم في مقالة التكذيب يثير سؤال سائل عن منشأ هذا التشابه.

و﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن مفاد الاستفهام ... ببيان سبب التواطؤ على هذا القول، فإنه إذا ظهر السبب بطل العجب. أي ماهو بتواصٍ، ولكنه تماثل في منشأ ذلك القول، أي سبب تماثل المقالة تماثل التفكير والدواعي للمقالة)[1] (فهي جبلة واحدة وطبيعة واحدة للمكذبين، وهو استقبال واحد للحق وللرسل، يستقبلهم به المنحرفون ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]. كما يقول هؤلاء المشركون! كأنما تواصوا بهذا الاستقبال على مدار القرون! وما تواصوا بشيء، إنما هي طبيعة الطغيان وتجاوز الحق والقصد، تجمع بين الغابرين واللاحقين!)[2].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٢، ٢١).
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٨٦).

المبحث الثالث

الإيمان مصدر القوة والطمأنينة

من السنن الربانية والحِكم الإلهية ، التي هي مقتضى عدله وعنوان رحمته ولطفه ، أنه كما ميز بين الحق والباطل في ذاتيهما ، فقد ميز بينهما في أثريهما في هذه الدنيا .

فالحق والباطل لايستويان ، والمؤمنون والكفار لايستوون .

وكيف يستوون وقد علم بالاضطرار ، وثبت بالاشتهار ما تميز به المؤمنون بالله من طمأنينة القلوب وقوتها ، ومن الأمن النفسي ، والرضا بما يقع من الأقدار ، ومايستتبع ذلك من الأخلاق والأوصاف .

وما يكون في غيرهم من الكافرين والمنافقين عادة من أضداد ذلك من القلق والخوف والتسخط ، ومايستتبع ذلك من الأخلاق والأوصاف .

وفي هذا المبحث أتناول أهم هذه الآثار التي عني القرآن بإبرازها ، على مستوى الأمم لا الأفراد . فالإيمان أولا :

يورث الطمأنينة في القلوب والأمن والرضا في النفوس

وطمأنينة القلوب وأمن النفوس أعظم ما يتطلع إليه البشر في هذه الدنيا ، وهو خاص بالمؤمنين ، محروم منه غيرهم ؛ لأنه شيءٌ يكون مع الإيمان ، يوجد بوجوده ويفتقد بفقده ، ويتفاوت بتفاوته .

قال تعالى في خبر محاجة إبراهيم قومه: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨١ ، ٨٢] .

والظلم هو الشرك ، فـ (إن أراد به الأكبر فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وُعِدَ به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة مطلقًا ، وهو مهتد إلى الحق هداية مطلقة أيضًا ، أي أن عاقبته إلى الجنة ، وإن حصل له خوف ونقص في الاهتداء إلى الحق ، وحصل له عقوبة بسبب ذلك في الدنيا والآخرة .

وإن كان مراده جنس الشرك فيقال: ظلم العبد نفسه، كبخله ـ لِحُبِّ المال ـ ببعض الواجب هو شرك أصغر، وحبه ما يبغضه الله حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر، ونحو ذلك، فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار) (١).

وقال: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

والنفس المطمئنة هي الساكنة الموقنة بموعود الله، الراضية بقضاء الله وقدره المسلّمة لأمره... (٢)، وبضد ذلك النفس المشركة الضالة، كما قال سبحانه: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].

وقال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام: ١٢٥]... إلى غير ذلك من الآيات.

وهذه الطمأنينة وذاك الرضا وذلك الأمن النفسي الذي يتميز به المؤمنون من عاجل بشراهم، وبشراهم في عاجلتهم.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾[الرعد: ٢٨، ٢٩].

كما أن فقدها والحرمان منها هو عقوبة عاجلة يُجزى بها الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون.

قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٢].

وتظهر آثار طمأنينة القلوب وأمن النفوس ورضاها، تظهر عند مواجهة أحداث الحياة حلوها ومُرّها، وإن كانت القلوب والنفوس مع شدائد الحياة ولأوائها أكثر انكاشفاً؛ ذلك أن المصائب والمحن تقع على القلوب والنفوس، فلا يتماسك أمامها

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ٥١، ٥٢ بتصرف. وهو ملخص كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية، كما نبّه إلى ذلك المصنف.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٥٧).

ويثبت إلا القلوب المطمئنة ، وتذهب أفئدة غير المؤمنين هواء . . . ولا يتلقاها بالرضا والتسليم ، ويتحمل وقعها ، ويجعلها في مصلحته ، فرداً أو أمة إلا النفوس الراضية . وما سواها من النفوس فجزعة خائرة معذبة .

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١] .

وقال سبحانه مبيناً موقف الرسل الكرام من أقوامهم المكذبين لهم ، الساخرين منهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢] . وقال: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤] .

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **«عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»**(١) .

هذه حال المؤمنين ـ في جملتهم ـ أفراداً وجماعات .

ويظهر لك الفرق بين المؤمنين الصادقين وبين غيرهم ، ممن ضعف يقينه ، أو من طوائف الكافرين والمشركين ممن حُرم الأمن والطمأنينة ؛ يظهر لك الفرق إذا تأمَّلت النصوص التي عرضت لأحوال الفريقين ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٦] . وقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۞ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ٩ ، ١٠] .

وهذه حال الكافرين والمنافقين(٢) ، ثم استثنى الله المؤمنين بقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ١١] . . . والآيات في هذا المعنى كثيرة(٣) .

---

(١) رواه مسلم ، من حديث صهيب ﷺ . انظر: صحيح مسلم ، كتاب الزهد ، باب: أمر المؤمن كله خير ، ح (٢٩٩٩) .
(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٦/١٢) .
(٣) وقد مضى بيان ذلك في مبحث (أخذ الأمم بالسراء والضراء وموقفهم من ذلك) في الفصل الثاني من هذا الباب .

وفي الحديث الصحيح عن كعب بن مالك[(١)]، أحد الثلاثة الذين خُلِّفُوا في غزوة تبوك، ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع، تفيئها الريح؛ تصرعها مرة وتعدلها أخرى، حتى تهيج. ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذية على أصلها، لا يفيئها شيء حتى يكن انجعافها مرة واحدة ـ** وفي رواية: **وتعدلها مرة حتى يأتيه أجله ـ ومثل المنافق مثل الأرزة المجذية التي لا يصيبها شيء»**[(٢)].

وإنما كان المؤمنون ـ دون من عداهم ـ راضية نفوسهم، آمنة مطمئنة قلوبهم؛ لأنهم وحدهم من بين الخلائق يمتلكون أسباب هذه الطمأنينة وهذا الأمن؛ لأنهم استجابوا لنداء الفطرة، واهتدوا إلى سرّ وجودهم في هذه الحياة، واتضحت عندهم الغاية من الخلق، وعرفوا طبيعة الطريق، فرضوا عن أنفسهم وعن ربهم، ورضوا بقضائه وقدره، ولهذا فهم آمنون على آجالهم، ناجون من عذاب الحيرة والشك[(٣)].

والمؤمن إذا كان مطمئن القلب آمن النفس، كان ولا بد قوياً في مواقفه، ماضياً في إرادته. وهذا هو الأثر الثاني من آثار الإيمان في أشخاص المؤمنين.

* * *

---

(١) أبو عبد الله السلمي، الأنصاري، الشاعر المشهور، شهد العقبة، وتخلف عن بدر، وشهد أحداً وما بعدها، وتخلّف في تبوك، وهو أحد الثلاثة الذين تيبَ عليهم، وذهب بصره في آخر حياته. قال البغوي: «بلغني أنه مات بالشام في خلافة معاوية». انظر: الإصابة (٦/٣٠٨).

(٢) رواه الشيخان، من حديث أبي هريرة وكعب بن مالك ـ رضي الله عنهما. انظر: الفتح (١٠/١٠٣) ح (٥٦٤٣). ومسلم بشرح النووي (١٧/ ١٥١).

(٣) انظر في تفصيلها كتاب: الإيمان والحياة، للدكتور/يوسف القرضاوي.

الإيمان مصدر القوة والثبات في القلوب والأبدان

فإنَّ أساس القوة قوة القلب، وحقيقة الثبات ثبات الجنان[١] . والقلب لا يكون قوياً ولا ثابتاً بصورة كافية إذا لم يكن مؤمناً بقوة كبرى أكبر من قوى الأرض كلها، ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بالله وحده .

وقوة القلب تورث البدن قوة، فيتحمَّل هذا البدن من الأذى والبأساء والضراء أضعاف ما يتحمله غيره .

وقوة القلب تورث قوة في الْحُجَّة، فلا يثبت أمام حجة المؤمن حجة، ولا يقاوم الحق أو يقف في وجهه شيء إلا زهق .

ومن قوة القلب والبدن واللسان، تتحقق ـ في عالم الواقع ـ الانتصارات في ميادين الحرب والسلم .

وكون الإيمان بالله هو مصدر القوة والثبات الحقيقيين ثابت باستقراء تاريخ الرسل وأتباعهم، وقد سجل القرآن من ذلك أنصع الصفحات .

سجل القرآن مواقف الأنبياء في مواجهة أقوامهم، وهم عزل من كل سند ومن كل قوة أرضية، إلا قوة الإيمان بالله، والثبات على الحق الذي آمنوا به .

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١] .

وقال هود ﷺ بلسان المؤمن الواثق، لقومه الذين تبجَّحوا بقوتهم، واستخفوا بالحق الذي جاءهم به: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦] .

وأخبر عن قيل موسى ﷺ، رداً على فرعون الطاغية، حين أنكر رسالته وما جاء به من الآيات: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ

---

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/١٥٨) .

يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢] . . . إلى غير ذلك من المواقف التي تحاكي الرواسي قوة وثباتاً ، وتشهد بأن الإيمان إذا خالط القلوب أكسبها من نوره نوراً ، ومن قوته قوة ، وإذا استولى على النفوس هان في سبيله كل شيء .

هذه نماذج لمواقف الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام .

وقد يقول قائل: هؤلاء أنبياء ، وشأنهم غير شأن بقية المؤمنين ، فهات لنا من واقع حياة أتباعهم .

وأقول: الأنبياء هم صفوة الخليقة ، والواسطة بين الله وبين عباده ، ولكن الإيمان الذي جعل منهم بشراً ممتازين ، هو الإيمان الذي أُمروا بتبليغه ، وهو الإيمان الذي تلقاه عنهم أتباعهم ، فلا جرم سيكون له من التأثير في هؤلاء الأتباع بقدر ما تخالط بشاشته قلوبهم ، وإن كانوا سيكونون حتماً في مرتبة دون مرتبة الأنبياء .

وكما سجَّل القرآن مواقف القوة والثبات للأنبياء ، فكذلك سجَّل لأتباعهم مواقف خالدة ، متجددة ما تجدَّد الإيمان في القلوب .

والقرآن تارة يذكر النبي والمؤمنين معه في مشهد واحد ، كما في قصة إبراهيم وقصة شعيب ، عليهما الصلاة والسلام .

قال سبحانه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤] .

وقال في شأن شعيب والذين آمنوا معه: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨ ، ٨٩] .

وتارة يكون مشهد الثبات في حياة النبي ، كما حصل لقوم صالح ﷺ ، وللسحرة من قوم فرعون ، وكما حصل لمؤمن آل فرعون ، ومؤمن أصحاب القرية .

قال تعالى في شأن قوم صالح ﷺ: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۞ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

وقال عن السحرة أنهم قالوا لفرعون بعدما تبيَّن لهم الحق الذي جاء به موسى ﷺ فاتبعوه وآمنوا به: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۞ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه: ٧٢، ٧٣]. وذلك بعد أن هدَّدهم بقوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧١].

وقد عرض القرآن موقف السحرة البطولي في مواضع عديدة، بأكثر من أسلوب.

وجاءت قصة مؤمن آل فرعون مبينة مفصلة في سورة المؤمن، وكان مما قال لفرعون وقومه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨]. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٣٨]. وقال: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٤١]. وقال: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۞ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٣، ٤٤].

ولما ذكر ـ جلّ وعلا ـ موقف أهل القرية المتعنتين من رسلهم، أعقبه بموقف الاستجابة الرائع، ومشهد القوة في الحق، على لسان رجل منهم، هو بقيّتهم.

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ

أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ [يس: ١٣ ـ ٢٥].

وفي أحيان أُخَر يذكر القرآن قصص البطولة ومشاهد القوة والثبات على الإيمان لأتباع الأنبياء المؤمنين بهم، بعد ذهاب أولئك الأنبياء.

وقصة الفتية، أصحاب الكهف، وأصحاب الأخدود من شواهد ذلك.

قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا * هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٦].

وسطَّر القرآن بأحرف من نور موقف القلَّة المؤمنة في وجه طغاة الروم، أصحاب الأخدود، حيث استعلى الإيمان في قلوب القلَّة على أشد ألوان الإرهاب والتعذيب الجسدي، سطَّرها في سورة تتلى إلى ما شاء الله.

قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ * ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [البروج: ٤ ـ ١١].

وإذا كان الإيمان بالله بمعناه الشرعي، هو المصدر الحقيقي لقوة القلب، الذي تنشأ عنه بالتالي كل مظاهر القوَّة والثبات في عالم الواقع، كما تبيَّن لنا ذلك فيما سبق.

وإذا كانت الأمثلة السابقة سيقت ـ فيما سيقت له ـ لغرض إيضاح: كيف أن الإيمان كان وراء هذه القوة وهذا الثبات في مواقف المؤمنين في ميادين الدعوة والجهاد بالكلمة، برغم قلَّتهم وضعف مكانتهم بالمقاييس المادية.

إذا كان ذلك كذلك، فقد تسأل عن أثر الإيمان في قوة المؤمنين وثباتهم في ميادين القتال والنزال بالسيف.

والجواب: أن القلوب إذا ثبتت، وقويت إرادتها، ثبتت الأقدام والأجسام، واشتدت سواعدها، فهذه من تلك.

ولن أفصل في هذه النقطة، فقد مضى تفصيلها في مبحث (النصر والهزيمة)، ولكن أشير هاهنا إلى بعض الأمثلة باختصار.

انهزم ضعفاء الإيمان من جنود طالوت، وقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وثبت الذين بلغ إيمانهم بالله وبلقائه مبلغ اليقين، وقالوا بلهجة الواثق: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾... الآيات، إلى قوله سبحانه مبيناً نتيجة المعركة: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥١] الآية.

وجَبُنَ قوم موسى ﷺ أن يدخلوا الأرض المقدسة و﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢]. لكن ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

ولهذا ـ والله أعلم ـ كان المؤمن الصابر من هذه الأمة يغلب اثنين، وكان في أول الإسلام يغلب عشرة، كما جاء مفصلاً في سورة الأنفال[(١)].

ولَمَّا ضعف إيماننا ـ نحن المسلمين ـ بديننا، واهتزت ثقتنا بموعود ربنا، أصبح «العدد الكبير منا ينكسر قدّام اليسير من العدو ... وذلك بما كسبت أيدينا ... فالأعمال فاسدة... والصبر قليل، والاعتماد ضعيف، والتقوى زائلة ... بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه؛ لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلّة الرشاد، حتى استولى العدو شرقاً وغرباً، براً وبحراً، وعمّت الفتن وعظمت المحن، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم»[(٢)].

---

(١) في الآيتين ٦٥، ٦٦ منها.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣/ ٢٥٥) بتصرف يسير.

وحيث إنَّ قوة القلب تكون باجتماع همه ، وتوحّد وجهته ، وسلامته من الحيرة والقلق ، واطمئنانه إلى ما بين يديه وما خلفه ... كان قلب المؤمن بالله هو القوي بلا منازع ، وكان قلب المنافق أضعف القلوب ، حتى من قلب الكافر ؛ لأنَّ فيه من أسباب الضعف فوق ما في قلب الكافر .

وكان قلب الكافر بينهما ؛ لأنَّه بينهما كذلك في الأسباب المقتضية للقوة والضعف .

وأنت إذا تأمَّلت مواقف الفئات الثلاث ، وجدتها من حيث الثبات والقوة على تلك القسمة ، سواءً بسواءٍ ، والله تعالى أعلم .

* * *

المبحث الرابع

سُنة الله في الملأ وأتباعهم
أو دراسة للعلاقة بين القلة والكثرة

في كل أمة من الأمم بلا استثناء، توجد طوائف من ذوي السلطان والجاه والثروة. وهم (قلّة) لهم مصالح مشتركة يجتمعون حولها، ويتمالئون من أجلها، وهي مؤسسة ـ في الغالب ـ ضد مبادئ العدالة ومصالح الأكثرية (الأمّة)، بل لتسخير الأكثرية في بناء مجد (الأقلية) وتثبيت سلطانها، ومضاعفة ثروتها، ولهذا فقلّما تتفق مصالح القلة والكثرة، بل لا تكاد تتفق.

ولما تتمتع به هذه القلة من مزايا وإمكانات، فإنّ الأكثرية (الأمة) عبر التاريخ ـ إلا قليلاً ـ تسمع وتطيع ـ رغبة أو رهبة أو سذاجة ـ لكل نصيحة وأمر، ولكل توجّه وتوجيه، وكثيرا ما دافعت بحماس عن مصالح هذه القلّة، ووقفت معها حتى النهاية في مواجهة أعداء القلة، أياً كانوا دون تمييز.

تلك باختصار هي قصة الملأ والأتباع، قصة الذين استكبروا والذين استضعفوا. وهي ظاهرة تتكرر؛ لأنّها سنة إلهية، باستقراء الواقع وشهادة القرآن، كما سيتضح ذلك عما قليل.

وهذه السُّنة بحاجة إلى دراسة وتجلية؛ لمعرفة طبيعة الملأ وكشف أساليبهم، ولماذا تنخدع بهم الجماهير في كل أمة. وأهم من ذلك كله: معرفة مواقفهم من الحق وأهله.

وفي القرآن الكريم أضواء كاشفة لجوانب هذه السُّنة، وإشارات إلى حقائق ودقائق، تؤلف بمجموعها صورة معبّرة عنها أصدق تعبير.

وهذه السُّنة ذات فروع ومتعلقات، واستيعابها يستدعي تطويلاً لا يتناسب وطبيعة هذا المبحث. والغرض إنّما هو التنبيه والإشارة، فلا نتجاوز ذلك.

ولا بد قبل الخوض في التفاصيل، من معرفة معنى (الملأ) في لغة العرب، وفي كتاب الله تعالى، ولبيان ذلك أقول:

(الملأ) في لغة العرب: الجماعة يجتمعون على رأي فيملئون العيون رواءً، والنفوس جلالاً وبهاءً[(١)] .

والممالأة على الشيء: المعاونة عليه ليكون معه . تقول: مالأته ؛ أي عاونته وصرت من ملئه أي جمعه ، نحو: شايعته أي صرت من شيعته[(٢)] ، يستوي في ذلك أن يكون الأمر أو الرأي المجتمع عليه خيراً أو شراً .

وفي القرآن الكريم وردت كلمة (الملأ) مراداً بها ملأ الخير في ثلاثة مواضع فقط:

في قصة سليمان ﷺ مع ملكة سبأ في سورة النمل: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣٨] .

وفي خبر الملأ الأعلى: «السماوات ومن فيها من الملائكة»[(٣)] ؛ وذلك فيما يتعلّق بحراسة السماء من الشياطين أن يسترقوا السمع: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۞ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۞ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ [الصافات: ٦ ـ ٨] .

وفي اختصامهم في شأن آدم ﷺ وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه: قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۞ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۞ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۞ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة ص: ٦٧ ـ ٧٠] . . . الآيات .

وما عدا هذه المواضع ، فكل سياق ورد فيه ذكر الملأ فملأ الشرّ والكفر والضلال ، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [المؤمنون: ٣٣] . وقوله: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [القصص: ٢٠] . . . إلى غير ذلك من الآيات ، وهي كثيرة ، وسيأتي ذكر طائفة منها بإذن الله .

ولكثرة ورود كلمة (الملأ) مراداً بها ملأ الكفر والضلال ، أصبحت تكاد تكون علماً عليهم بالغلبة ، فلا يكاد الذهن ينصرف عند سماعها إلا إليهم .

وهؤلاء هم الذين سأتناول أخبارهم ، وأعرض لأحوالهم وأوصافهم بشيء من التفصيل .

---

(١) مفردات الراغب ، مادة (ملا) .
(٢) مفردات الراغب ، مادة (ملا) .
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٣) .

ولنبدأ أولاً التعرف على أخص أوصاف الملأ.

ولعل الكِبْر والتَّرَف من أخصّ أوصافهم.

أمَّا الكبر: فقد قال تعالى عن الملأ من قوم صالح: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

وقال عن الملأ من قوم شعيب: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقال عن فرعون وملئه: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٥، ٤٦].

والقرآن كما نعتهم بالاستكبار في الدنيا، فقد جعله وصفاً ملازماً لهم هناك في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ ﴾ [غافر: ٤٧] . . . الآيات.

وقال: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ ﴾ [إبراهيم: ٢١] . . . إلى غير ذلك من الآيات.

فهم في الدنيا يمارسون وظيفة الإضلال والمخادعة والمجادلة بالباطل، وفي الآخرة يتبرؤون من كل جرائمهم التي اقترفوها في حق الأمة.

والكبر معناه: بَطَر الحق وغمط الناس، كما فسَّره بذلك النبي ﷺ فيما صحَّ عنه من حديث عبد الله بن مسعود[(١)] ﷺ، عند مسلم وغيره[(٢)].

وبطر الحق: ردّه، وغمط الناس: احتقارهم[(٣)]. وعن هذين تنشأ رذائل كثيرة،

---

(١) ابن غافل بن حبيب، أبو عبد الرحمن، المهاجري البدري، الإمام الحبر، فقيه الأمة، كان من أذكياء العلماء ومن السابقين الأولين، هاجر الهجرتين، وكان هو وأمه كأنهم من أهل بيت الرسول ﷺ؛ لكثرة دخولهم عليهم، وكان يوم اليرموك على النفل، وكان يُعْرَفُ بأمه أيضاً، فيُقال: ابن أم عبد. توفي سنة (٣٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٤٦١).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ٨٩).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ٨٩).

أهمها: التكذيب والاستهزاء والظلم واستعباد الناس .

وأمَّا الترف فوصف ملازم للملأ، فربما وُصفوا به صراحة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣] .

والأكثر ذكر المترفين بأوصافهم الدالة على أنهم هم الملأ، كالتحدث باسم الجماهير، والتسلّط، ورعاية الفسق والفساد في الممالك والقرى .

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ [سبا: ٣٤] . وفي آية أخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] . وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] .

وعن الترف تنشأ مجموعة من المفاسد الخلقية والاجتماعية، ومن رَحِمِهِ تُولَدُ الطبقية .

وأحياناً تصدر توجيهات وأقاويل غير منسوبة إلى جهة معينة، لكن هي من جنس ما يحترفه الملأ من التضليل .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبا: ٤٣] .

وقد تسأل عن (الكفر) ذلك الذنب العظيم والمنكر الأكبر، أليس من صفاتهم؟!

فأقول: بلى، هو من صفاتهم في الجملة، لكنه يكون فيهم وفي الأكثرية التابعة لهم، فهو من الأوصاف المشتركة . كما أنّه ـ أعني الكفر ـ ليس وصفاً ملازماً للملأ، ملازمة الأوصاف الأُخَر كالكبر والترف، الذي يوجد ـ عادة ـ في أرباب المال والجاه والسلطان حتى في الأمم التي تدين بالأديان السماوية . والملأ موجودون في كل أمة بلا استثناء، كما أسلفت .

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ۝ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبا: ٣٤، ٣٥] .

وأكثر ما جاء ذكرهم في القرآن في أخبار بني إسرائيل، وهم أشبه الأمم بهذه الأمة .

والآن، بعد أن عرفنا معنى الملأ، ووقفنا على أخص صفاتهم المميزة لهم؛ كالكبر والترف وما ينتج عن كل منهما من المفاسد، نخطو بعد ذلك لنلتقي بالملأ وجهاً لوجه، وهم يمارسون وظيفتهم المفضلة! وهي وظيفة ذات شقين:

الأول: مواجهة الحق وأهله والتصدي لهم، والجدال بالباطل.

والثاني: تضليل الأمَّة، والتصدر باسمها، وقيادتها إلى الهاوية، والتلاعب بمقدراتها.

فما هي وسائل الملأ في هذه المواجهة المزدوجة؟ وما أساليبهم في ذلك؟

يمكن القول بادئ بدء: أنَّ مركز القلَّة (الملأ) في كل أمة محفوف بخطرين:

الأول: يتمثّل في الحق، وهو المنهج الإلهي، وفي حَمَلة هذا المنهج من الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأتباعهم. وهذا هو الخطر الأهم والأكبر في نظرهم..، وهو متضمن للخطر الثاني: يقظة الأمَّة ووعيها، وتحركها لاستعادة حقوقها، ووضع القلَّة في موضعها الطبيعي.

والأول مستلزم للثاني إذا كان التدين صحيحا.

والثاني يمثل خطراً نسبياً على القلة؛ لأنَّ الوعي إذا لم يكن مؤسساً على هدي المنهج الإلهي، فإنَّه قد يكون وسيلة لانتقال الأمة من قبضة هؤلاء الملأ إلى قبضة ملأ آخرين؛ قد يكونون مثلهم أو شراً منهم!. لكن لكثرته في واقع العالم، من جهة، ولفساد حال أغلب المتدينين.. لهذا وذاك كاد الميزان أن ينقلب في أيدي الناس؛ إذ أصبحوا لا يرون في التدين وأهله فرصا لنيل الحقوق. في حين انتزعت أمم وشعوب كثيرة حقوقها المدنية بعيدا عن وصاية الدين!. وهذا من أبواب الفتنة، التي لم يتفطن لها إلا قليلون.

مع أنه يستحيل أن ينتقل الناس في ظل غير المنهج الإلهي الحق إلى وضع تزول به الامتيازات والاستغلال، مهما كان نوع الملأ واسمهم.

ولهذا يوازن الملأ في فترات يقظة الشعوب لارتكاب أخف المفسدتين عليهم؛ فإذا كان لا بد من يقظة للأمة، فلتكن يقظة جاهلية! معادية للحق.

ولمواجهة هذين الخطرين، لا بد للملأ من ممارسة مهمَّة المواجهة والتضليل في آن واحد.

وهم يمارسون هذه المواجهة وهذا التضليل تارة بصورة مكشوفة، وتارة بصورة ملتوية، وأحياناً بسريَّة وبصفة خاصة، حسبما يقتضيه المقام.

وقد سجَّل القرآن الكريم ذلك كله بصورة معبِّرَة، تكشف عن حقيقتهم، وتعرِّي زيفهم. وسأعرض - فيما يلي - لأهم تلك الصور والأساليب والمواقف.

* **الملأ في مواجهة الرسل وأتباعهم:**

هذه هي أولي المهام وألصقها بالملأ. وتاريخهم في التكذيب والسخرية، والإرهاب والتنكيل وما شابه ذلك، مشهورٌ، بل هو جزء لا يتجزأ من سيرتهم.

ولهم في مواجهة الرسل وأتباعهم أساليب ووسائل، تفتقت عنها عقولهم العفنة ونفوسهم الشريرة. ومن هذه الوسائل والأساليب:

- **اتِّهام الرسل وأتباعهم في أشخاصهم**: وهي تُهَمٌ شتَّى متشابهة، بل متماثلة. أملاها عليهم الطغيان، فهم يتوارثونها خلفاً عن سلف، حتى لكأنَّما تواصوا بها.

وقد سجَّلها عليهم القرآن، وبيَّن التوقيت الذي يطلقون فيه التهم المثيرة للسخرية، والتي لم تكن معروفة في أشخاص هؤلاء الأنبياء والدُّعاة والمصلحين من قبل أن يكونوا دعاة إلى الله، هداة إليه!

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

وقالوا عن الملأ من قوم نوح أنهم قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]. وقال عنه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

وقال الملأ من قوم هود لهود ﷺ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]. وقالوا - أو قالت - ثمود قوم صالح لنبيهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨][1].

وقال قوم صالح: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢]. وقالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

وقال قوم شعيب لشعيب، يسخرون منه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٥).

وقال فرعون لموسى ﷺ: ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١]... والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة. وكلها - كما نرى - تُهَمٌ جاهزة معلبة، وُصِفوا بها بعدما زكاهم الله بالوحي، وشرَّفهم بالرسالة!

* **ومن صور مواجهة الملأ للحق وأهله:**

التشنيع على الرسل وعلى أتباعهم والحط من أقدارهم والتهوين من شأنهم، والسخرية المُرَّة بهم؛ لتنفير الناس منهم، ومن الدين الحق الذي يدعون إليه؛ لأنَّ تحشيدهم الناس على الإيمان بالله، ومبادأة أقوامهم بما لا عهد لهم به من الحق والهدى، يشكل تهديداً مباشراً لزعامة الملأ وسلطانهم المزيّف.

وقد حكى الله - تعالى - من ذلك صوراً ومشاهد:

منها: ما تفوَّه به قوم نوح في حق نبيهم نوح ﷺ ومن آمن معه في أكثر من موضع، كقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧]. وقوله عنهم: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقوله: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ [هود: ٣٨].

وقال قوم لوط ساخرين من لوط ﷺ ومن آمن معه؛ من طهرهم وعفافهم: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦]!

وفرعون الطاغية يقول عن كليم الله موسى ﷺ والمؤمنين معه: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٤]. والشرذمة: جماعة منقطعة، وهو من قولهم: ثوب شراذم أي متقطع[1].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ [الأنعام: ٥٣]؟ وقالوا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١١].

---

(١) مفردات الراغب، مادة (شرذم).

بل إنهم ينسبون إليهم كل أذى يقع بهم أو يتوقعون حصوله، وأنّ ذلك بسببهم. وهذا غاية اللؤم والدناءة، ومنتهى التنقص والسخرية.

فهذا نبيّ الله صالح ﷺ يقول لقومه مذكراً وواعظاً، بأسلوب لطيف رقيق: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

فماذا كان جواب قومه؟

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ [النمل: ٤٧]؛ أي: أصابنا الشؤم بسببك ومن آمن معك!

وبمثل هذا الجواب أجاب أصحاب القرية أنبياءهم المرسلين إليهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يس: ١٨].

وقال تعالى مبيناً حال فرعون ومن معه، كيف كانوا يتطيرون بموسى ومن معه، كلما أصابتهم سيئة: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: ١٣١]!

وقال المشركون لرسول الله ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ [القصص: ٥٧].

وكان حالهم كحال قوم موسى، أنهم: ﴿إِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ [النساء: ٧٨].

*** ومن أساليبهم ووسائلهم في مواجهة الحق وأهله:**

الإرهاب الجسدي، وحرب التجويع، ومصادرة الممتلكات، والإخراج من الديار.

ويلجأ الملأ إلى هذه الوسائل ـ في الغالب ـ حينما يرون إصرار أهل الحق على مبادئهم، ويفشلون في احتوائهم ودرء خطرهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ [إبراهيم: ١٣]. وقال عن قوم نوح أنهم: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

وكان من كيد قوم صالح ﷺ ما قصَّه الله بقوله: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۞ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩]. والتبييت: الفعل يدبّر بالليل. والمعنى: تحالفوا[1] ليفعلنَّ ذلك.

أمَّا قوم شعيب، فقد ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨]. و﴿ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١].

وقال سبحانه عن الملأ من قوم إبراهيم الخليل ﷺ، أنَّهم ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

قال ابن عاشور عند هذه الآية: «لَمَّا غلبهم بالحجَّة القاهرة، لم يجدوا مخلصاً إلا بهلاكه، وكذلك المبطل إذا قرعت باطلَه حجة فساده غضب على الحق، ولم يبق له مفزع إلا مناصبته والتشفي منه، كما فعل المشركون من قريش مع رسول الله ﷺ حين عجزوا عن المعارضة. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]. واختار قوم إبراهيم أن يكون هلاكه بالإحراق؛ لأنَّ النار أهول ما يعاقب به وأفظعه. والتحريق: مبالغة في الحرق، أي: حرقاً متلفاً. وأسند قول الأمر بإحراقه إلى جميعهم؛ لأنَّهم قبلوا هذا القول، وإن كان النمرود هو الذي أمر بإحراقه، لأنَّ الأمر بإتلاف النفوس لا يملكه إلا ولاة أمور الأقوام»[2].

وقال عن قوم لوط أنهم: ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

وسجن يوسف ﷺ بعدما ظهرت أدلة براءته: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٥][3]؛ لأنَّه سيكون له بعد خروجه من السجن شأن، ويلتف الناس حوله!

---

(١) مفردات الراغب، مادة (بيت). وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٦).
(٢) تفسير التحرير والتنوير (١٧/ ١٠٥).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٧).

وتهدَّد الملأ ؛ فرعون وقومه موسى ﷺ بالسجن ، وائتمروا به ليقتلوه . قال تعالى حاكياً قولة فرعون لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] . وقال سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠] .

ومرَّ قريباً خبر أصحاب القرية ، وما أوعدوا به رسلهم من رجمهم وتعذيبهم .

ومن هذا الباب ما جرى لأصحاب الأخدود من التحريق بالنار ، عقابا لهم على إيمانهم بالله رب الغلام! . وكيف يقتل قوم يقولون : ربنا الله ؟! . لولا أنه الطغيان والجبروت .

وقال تعالى عن بني إسرائيل ، مصوراً حالهم السيئة مع رسلهم الكرام: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] ؟

وقال الله عن المنافقين أنهم: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون: ٧] . ويقولون: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨][(١)] .

وكأنَّ هذا الذي يقع للأنبياء وأتباعهم من الأذى القولي والفعلي من الملأ المتنفذين ، كان معلوماً أنه لا بد أن يقع كلما وُجِدَ سببه ، كما قال تعالى عن أصحاب الكهف ، يحذر بعضهم بعضاً قومهم: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠] .

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، أن ورقة بن نوفل[(٢)] قال لرسول الله ﷺ: «**يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ قَالَ**

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٦) .

(٢) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، ابن عم خديجة أخي أبيها ، كان قبيل مبعث النبي ﷺ قد تنصَّر ، وكان يكتب الكتاب العربي والعبراني ، وكان أحد الحنفاء . عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا ورقة ، فإني رأيتُ له جنة أو جنتين» . أسنده الحافظ ابن كثير عن أبي بكر البزار وابن عساكر ، وقال: هذا إسناد جيد ، وروي مرسلاً ، وهو أشبه . انظر: البداية والنهاية (٣/ ٩) .

نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّراً»(١) .

وهذه الأساليب التي سبق عرض نماذج منها ، هي من باب التخويف والإرهاب .

ويقابله أسلوب الترغيب والاحتواء .

ونحن إذا استعرضنا نصوص القرآن ، لم نجد لهذا الأخير حضورا في وسائل الملأ الكيدية ، إذا ما قُورن بأسلوب الترهيب . وإن كان الملأ قد يضطرون إليه ـ أحياناً ـ فيلوحون به ، ليزيدوا من ولاء أتباعهم لهم ، وليظهروا بمظهر المنصفين لخصومهم ، المنطقيين في مطالبهم .

ومن أمثلة أسلوب الترغيب والاحتواء: موقف فرعون مع مطالب السحرة من وعدهم بالتقريب والحظوة لديه . . وهذا تنزّل كان فرعون مجبراً عليه ، فالوقت ضيق ، والمواجهة خطيرة ونتائجها مصيرية .

ومنه: ما صنعت قريش مع رسول الله ﷺ في عروضها المختلفة: «إن شئتَ الملك . . . وإن شئت المال . . . وإن شئت زوجة» ، ولما لم تغن هذه العروض شيئاً ، جاءوا من باب آخر: «يا محمد ، تعبدُ آلهتنا سنة ونعبدُ إلهك سنة . . .» .

وهذا ـ والله أعلم ـ دليلٌ على أن المؤمنين في الأمم السابقة كانوا قلّة مستضعفين ، فلا حاجة إلى مصانعتهم ومداراتهم .

هذه إشارات إلى بعض أساليبهم في مواجهة الحقّ وأهله . وهناك أساليب ووسائل أخرى سيأتي ذكر بعضها في ثنايا الحديث عن المهمة الأخرى والوظيفة الثانية التي يمارسها الملأ ، وهي:

ما يتعلّق بالأتباع ، وهم عموم الأمة ، وهم الأكثرية . . . من التضليل والاستعباد والاستغلال ، وهي مهمة متشعبة تؤدي وظيفة مزدوجة .

ويستغل الملأ بطريقة ذكية حاجة الجماهير وجهلهم وثقتهم ، ويخاطبون عواطفهم وغرائزهم ، ويلوّحون لهم بأنهم حراس على مصالحهم ، وأنهم يتحدّثون باسمهم . . . إلى آخر ما هنالك من الأساليب والوسائل ، وسيمر بك ـ أيها الأخ القارئ ـ شيء منها .

---

(١) فتح الباري (١/ ٣٠) ، ح رقم (٣) . وصحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ٢٠٧) .

ولا ينسى الملأ في أثناء ذلك، أن يثنوا على ذواتهم، تلميحاً أو تصريحاً، ويلوحوا بما في حوزتهم من إمكانات مادية لا توجد عند خصومهم، كما سيأتي بيان ذلك.

ولنبدأ الحديث عن ذلك بشيء من التفصيل.

* **فمن أساليبهم في ذلك: التخطيط والتشاور للخروج بأسلوب ورأي موحَّد في مواجهة الحق وأهله.**

وبعبارة أخرى: توحيد الرأي والكلمة؛ لئلا يكون اختلافهم سبباً في تضعضع موقف أتباعهم منهم، مما قد يؤدي إلى تفرقهم من حولهم.

يشهد لهذا الأسلوب، أمورٌ، منها: أسلوب الخطاب بالجمع، حينما ينطق القرآن برأي الملأ في قضية من القضايا التي كثيراً ما تدور بينهم، وذلك في مواضع كثيرة من القرآن.

منها: قوله تعالى عن الرهط المفسدين من قوم صالح: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

وقوله عن الملأ من قوم فرعون: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٢]. فلما أجمعوا أمرهم، بدأ التنفيذ ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ الْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٨ ـ ٤٠]. وبُني (جُمع) و (قِيلَ) للمفعول لعدم تعيين جامعين وقائلين. أي: جمع من جمع، وقال قائلون. وقوله: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾؟ استحثاث وحضٌّ للناس إلى الاجتماع، فالاستفهام مستعمل في طلب الإسراع، بحيث نزلوا منزلة من يسأل سؤالاً، تحقيقاً عن عزمه على الاجتماع، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]؟

ورَجَوا اتِّباع السحرة؛ أي: اتِّباع ما يؤيده سحر السحرة، وهو إبطال دين ما جاء به موسى، فكان قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ كناية عن رجاء تأييدهم في إنكار رسالة موسى فلا يتبعونه، وليس المقصود أن يصير السحرة أئمة لهم؛ لأنَّ فرعون هو المُتَّبع[1].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٩/ ١٢٥، ١٢٦).

وأصْرَحُ منه، ما ذكره الله ـ جل وعلا ـ عن الملأ من قريش: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [سورة ص: ٦].

قال القاسمي عند تفسير هذه الآية: «﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: الأشراف من قريش يحضون بعضهم على التمسك بالوثنية، ويتواصون بالصبر على طغيانهم قائلين: ﴿أَنِ امْشُوا﴾؛ أي في طريق آبائكم ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾؛ أي: عبادتها، مهما سمعتم من تسفيه أحلامنا وتفنيد مزاعمنا»(١).

وهذا التواصي بالصبر على آلهتهم، أثمرَ صبراً حقيقياً، كان هو الحائل بينهم وبين الاستجابة لأمر الله تبارك وتعالى، والاتِّباع لرسوله ﷺ، كما حكى الله ذلك عنهم في كتابه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۞ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢](٢).

* **ومن أساليبهم في تضليل الأمة واستغفالها:**

الظهور بمظهر الناصحين المنصفين المتجردين من حظوظهم الشخصية، المدافعين عن حقوق الأمة. وهذا من شدَّة مكرهم ودَجَلهم، فإنَّ أحوالهم على الضدّ من ذلك. ومن تأمَّل نصوص القرآن، لم يلتبس عليه الأمر طَرْفَة عين.

وإليك نماذج من نصحهم وإنصافهم! ومثلاً من تجردهم، وصوراً من دفاعهم عن قضايا الأمَّة!

قال تعالى حاكياً إنصاف الملأ من قوم هود، وتجردهم في البحث عن الحق: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

إنَّهم يبحثون عن الحق، ولهذا فلن يتركوا آلهتهم لمجرد دعوى لا دليل عليها، ولا بينة ولا برهان يسندها! إنَّه منهج علمي في التثبت والتحرِّي!

وكذبوا! فإنَّه قد جاءتهم بينات وآيات قاطعات، فجحدوا بها، قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٩](٣).

---

(١) تفسير القاسمي (١٤/ ١٤٥، ١٤٦).
(٢) انظر: أضواء البيان (٦/ ٣٢٩).
(٣) انظر: تفسير المنار (١٢/ ١١٩).

ولكنها المتاجرة بالشعارات، والدجل على الجماهير والدهماء.

وقال الملأ من قوم هود أو قوم صالح[١] ناصحين قومهم محذرين إياهم مغبة اتّباع نبيهم: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٤]. وأي عاقل يرضى بالخسران؟

أمّا هم، أمّا الملأ، فلا مانع من طاعتهم واتباعهم ولو كانوا بشراً مثلهم!

أمّا فرعون، فقد بَزّ أقرانه، وسجّل القرآن له عدة مواقف، تدور بين النصح والتحرّي؛ بغية الوصول إلى الحق!

منها: ما ذكره ـ جل وعلا ـ عنه في قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]!

ولعله من الطريف أن نقف أمام حجّة فرعون في قتل موسى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]! فهل هناك أعجب من أن يقول فرعون الضّالّ الوثنيّ عن موسى كليم الله ورسوله ﷺ هذه المقالة؟!

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد، عن كل داعية مُصْلِح؟!

أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر بوجه الإيمان الهادئ؟!

إنّه منطق واحد يتكرر، كلما التقى الحق والباطل والإيمان والكفر والصلاح والطغيان، على توالي الزمان واختلاف المكان.

والقصة قديمة مكررة، تعرض بين الحين والحين[٢].

ومنها: ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩]. وصدق في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾. ولكن ما الذي رأى؟ رأى أن يستخفَّ قومه فيتبعوه، ليقيم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى فجحد به مستيقناً له. وكذب في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾. فإنَّ هذا قلبٌ للحقّ، فلو أمرهم باتّباعه اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله، لكان الشرّ أهون. ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباعَ الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال[٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٥).
(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٧٨).
(٣) تفسير السعدي (٦/ ٥٢٥).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

«وبعيد عن الاحتمال، أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه، وبعيد أن يكون جاداً في البحث عن إله موسى، على هذا النحو المادي الساذج. إنّما هو الاستهتار والسخرية من جهة، والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخرى»(١).

*** ومن أساليبهم وطرائقهم في المكر والتضليل: أنهم يستغلون الدين الموروث والمعتقد السائد لتحريك الجماهير وضرب الدين الصحيح.**

وباختصار: يوظف الملأ الدين لصالح قضيتهم في مواجهة المصلحين؛ ذلك أن للمعتقدات ـ بغضّ النظر عن كونها صحيحة أو محرَّفة أو باطلة ـ شأناً أي شأن في قلوب الناس وعواطفهم، وفي النفوس والأفئدة حاجة فطرية، وفقر طبعي إلى العبودية «ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده، فلا بد أن يكون عابداً لغيره، يعبد غيره فيكون مشركاً. وليس في بني آدم قسم ثالث، بل إما موحد أو مشرك، أو مَنْ خَلَطَ هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل. وكل من عبد غير الله فإنّما يعبد الشيطان، وإن كان يظن أنّه يعبد الملائكة والأنبياء»(٢) أو الصالحين أو غيرهم من سائر المعبودات.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

والملأ يستجيشون ـ عند الحاجة ـ هذه العواطف الدينية، فتهب الأكثرية على هذا النداء، عمياء صماء، غافلة عن المؤامرة التي تنفذ باسمها، ضد مصلحتها.

وللملأ في هذا الباب ـ أعني توظيف الدين لمصالحهم ـ طرائق وحِيَل لا تكاد تنتهي، وإليك بعض هذه الأساليب والحِيَل التي سجلها عليهم القرآن.

هؤلاء قوم نوح، لما أبلغ نوح ﷺ في دعوتهم ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤]، ولم يجد فيهم استعداداً لقبول الحق الذي معه... شكا إلى ربه ما لقي منهم، وكشف عن السبب الذي حال بينهم وبين أتباعه: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٨٢)، بتصرف يسير.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤/ ٢٨٢، ٢٨٣).

مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٤] .

فحضَّ الملأ أتباعهم على التمسّك بآلهتهم وعبادتها والدفاع عنها عموماً، وخصوا منها آلهة بعينها؛ لِمَا لها من مكانة خاصة في نفوسهم، وكل ذلك كان مكراً منهم بأتباعهم، بل أكبر المكر[1]!

وهذا النمرود وملؤه، لما غلبهم إبراهيم الخليل ﷺ بحجته، وأزهق باطلهم، وخافوا على مكانتهم في قومهم، لجئوا إلى السلاح الفعَّال، فألقوا في روع الناس أن إبراهيم يسخر من دينكم، ويسفه ما كان عليه آباؤكم، ويتهدد آلهتكم، فإن كان لكم في شيء من ذلك حاجة فافعلوا ما نأمركم به! فأصاخت الجماهير وتأهبت لفعل ما تؤمر به.. ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]؛ أي: ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ النصر للآلهة فافعلوا ما نأمركم به من إتلاف عدوها. وهذا تحريض وتلهيب لحميتهم[2].

وفي آية أخرى: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٩٧] .

ومن مَكْرِ الملأ: أنهم لا يفتأون يُذكّرون بدين الآباء، وأنه حق، وأن كل من عارضه أو انتقص منه تجب محاربته والوقوف في وجهه؛ لأنّه مخالفٌ لما عليه الآباء.

قال تعالى عن الملأ من قوم نوح: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] .

وقال قوم شعيب له، لما أمرهم بعبادة الله وحده ونهاهم أن ينقصوا المكيال والميزان، وحذرهم عاقبة ذلك: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ [هود: ٨٧]؟!

وقال عن كفار قريش: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ [سبأ: ٤٣] .

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٤٢٦).
(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير (١٧/١٠٦).

* **ومن القضايا الهامة التي يدعو إليها الأنبياء: قضية الإيمان بالبعث بعد الموت.**

ويستغل الملأ غرابة هذه القضية، واستعداد النفوس الغافلة لإنكارها، فيجعلون منها وسيلة تشويه للدين والمعتقد الجديد، ولمن يحمله.

قال تعالى حاكياً مقالة الملأ من قوم هود أو قوم صالح لأتباعهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥ ـ ٣٨]. وقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]... والآيات في هذا الباب كثيرة معلومة.

والأخطر من ذلك كله: أن الملأ يذهبون في تنفير الناس من الدعوة الجديدة، ومن شخص الداعي مذهباً أبعد؛ إذ يصورون الأنبياء والدُّعاة إلى الحقِّ، أنهم ذوو مطامع، وطلاب سيادة ومُلْك، وليسوا من المصلحين في شيء. ويهيبون بالأمة أن توقف هؤلاء عند حدّهم!

قال تعالى حاكياً مكرهم، بدءً من قوم نوحٍ، الذين ما إن فرغ نوح ﷺ من دعوتهم إلى ربهم، حتى ابتدروه بتهمة حب الترفع وشهوة التعاظم. وهذا شيء من مثله لا يُقْبَل!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣، ٢٤]. ومعنى ﴿يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: يسودكم ويشرُف عليكم، بأن يكون متبوعاً وأنتم له تبع[1].

أمَّا الملأ فلا مانع أن يكونوا أسياداً متفضلين، يستعبدون الناس ويترفعون عليهم!

وظاهر أنَّ في مقالة الملأ هذه وأمثالها، مغالطة وظلماً، فإنَّ نوحاً ﷺ لم يكن يريد أن يتفضّل عليهم ويترأس فيهم، كان يدعوهم إلى ربهم ليغفر لهم، ولكنه القلب للحقائق، والضرب على الأوتار الحساسة؛ لِيُخفِي الملأ عن جمهور الأمة حقيقة الأمر.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١١٨/١٢).

وأعظم الطغاة كِبْراً وتسلُّطاً: فرعون وملؤه. ولهذا تفننوا في رمي موسى ﷺ بدائهم الدّوي، في عملية إسقاط منقطعة النظير، اللهم إلا من طغاة الجاهلية المعاصرة، حتى لكأنك تقرأ في كلامهم أخص صفاتهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۞ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠]؟ وفي آية أخرى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣]. وفي أخرى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

ولما أسقط في يد فرعون الطاغية، ساعة آمن السَّحرة ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۞ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١ ـ ١٢٣]. فبمجرد أن خالفوه أصبحوا متآمرين للانقلاب على شرعيته!.

والعجيب في هذا أن الملأ يرفضون على الأنبياء والمصلحين ما يستجيزونه لأنفسهم، فهم لا ضير عليهم ولا غضاضة أن يستخدموا الدين ويحرضوا باسمه، مع أنهم أهل سياسة. ولا حق ولا شرعية للأنبياء؛ الذين إليهم المرجع في الدين عادة .. لا شرعية ولا حق لهم أن يتكلموا باسمه أو يدعوا إليه.

وأحياناً يمارس الملأ نوعاً من التضليل الرخيص، فيطرحون حججاً يسوغون بها رفضهم لدعوة الحق، ويسوغون بها ما يبيتون من البطش والأذى لأهله. وهم بذلك يشهدون على أنفسهم أنهم لا يتورعون من توظيف كل ما يخطر ببالهم، غير ملتفتين إلى صلاحيته ومعقوليته.

ومن أمثلة هذا التضليل الرخيص: احتجاجهم لرد الحق ببشرية الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وتحذيرهم الناس أن يتبعوهم أو يطيعوهم لذلك.

وهل كان الملأ وأسلافهم يتبعون ويطيعون إلا بشراً مثلهم أو حَجَراً دونهم؟ ولكن ما أعجب شأن الضُّلاَّل! وما أفجر ذات المُضلّين؟!

لم يرضوا للنبوة ببشر، وقد رضوا للإلهية بحجر[1]؟!

---

(١) الكشاف، للزمخشري (٣/ ٣٠).

قال تعالى عن الملأ من قوم نوح: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] .

وهذه الحجَّة الساقطة ؛ أعني الاحتجاج لردّ الحق ببشرية الرسل ، هي حجة الأولين والآخرين . قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤] .

وقد أبان الله ـ جل وعلا ـ سقوط تلك الحجَّة بقوله بعد ذلك: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥] . وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٨، ٩] . . . والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة .

والمقصود: أنَّ الملأ من الأقوام ، يجعلون من أي شيء حججاً ، ويشيعونها بين الناس ، فتتلقفها الدهماء دون وعي أو تمحيص . ولو تأمَّلوا لعلموا أنَّها حجج عليهم لا لهم . فهذا البشر ـ بطبيعة الحال ـ يأكل ، ويشرب ، ويمشي في الأسواق . . . و . . . .

فهل في ذلك ضير؟ وما وجه كون هذه وأشباهها قدحاً؟! وكيف ساغ لهذه العقول أن تجعل من هذه وأمثالها حججاً ترد بموجبها الحق ، وتستبيح الوقيعة بأهله؟!

قال تعالى عن الملأ من قوم هود ﷺ أو قوم صالح: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤] .

وقال عن كفار قريش: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧] .

وهذه الحجج ـ كما ترى ـ فاسدة غير صحيحة ، ولو سلّمنا بصحتها ـ جدلاً ـ فإنها في غير محل النزاع ، كما لا يخفى .

والملأ يسلكون أسلوب التعجيز ، ليفحموا الأنبياء ، فيظهر عجزهم ، وينكفئ الناس عنهم ، فيكون ذلك مسوغاً للوقيعة بهم .

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم: ٩ ، ١٠] .

فانظر إلى قوله جل وعلا: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ، وهي الدلائل الواضحة على صدقهم ، ثم انظر إلى قولهم بعد ذلك ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ لتعلم يقيناً أنهم ليس لهم غرض في الوصول إلى الحقّ ، وإلا لاتبعوهم وآمنوا بهم إذا ما تبيَّنوا صدقهم ، وأنهم جاءوا بالآيات من ربهم .

والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا يزعمون لأنفسهم سلطاناً وقدرة على شيء إلا بتمكين الله لهم وإقداره إياهم عليه ، فكيف يطلب منهم تحقيق أمر لم يدَّعوا القدرة عليه ، ثم يكون عدم تحقيقه على أيديهم سبباً في ردّ الحق والكفر به؟!

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [إبراهيم: ١١] .

وانظر إلى أصحاب الأيكة قوم شعيب ﷺ ، بماذا أجابوا؟ وماذا طلبوا منه ﷺ؟ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٧] .

وهل هناك أوضح برهاناً وأبين حجَّة من القرآن؟

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الإسراء: ٨٩] ، ومع ذلك ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩] .

وقال المشركون لرسول الله ﷺ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن

نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣] . فكان جوابه ﷺ لهم بأمر ربه ، مالك الملك وصاحب الشأن ، جل وعلا: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣] .

وهذا كله يدلُّ دلالة قاطعة على أن الملأ وأتباعهم قد استبطنوا العناد ، مهما كانت النتائج . وأظهر دليل على ذلك: أنهم إذا وقع ما طلبوه ، أو ما هو أعظم منه ، لم يزدهم ذلك إلا تكذيباً وإعراضاً .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[يونس: ٩٦ ، ٩٧] .

وقال: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩] .

وقال فرعون وملؤه عن أنفسهم ، لَمَّا جاءهم موسى بالآيات رجاء إيمانهم: ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢] .

وقال تعالى عن كفار قريش: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ٢] . وهم الذين ﴿ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ ﴾ [الأنعام: ١٠٩] . فأكذب الله زعمهم ؛ لِعِلْمِهِ ـ جل وعلا ـ بحالهم ، وأنهم على سُنَّة أسلافهم ، وأمر نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهم: ﴿ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٩] .

وبحث ذلك يطول . والغرض التنبيه إلى أنهم يكيدون للحقِّ من هذا الباب ، ومن كل باب ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] .

* وللملأ مكيدة خفية، يتلاعبون من خلالها بمشاعر الأمة ، ويمررون بواسطتها مخططاتهم . وهي مكيدة قد لا يتفطَّن لها إلا آحاد الناس:

إنَّها عامل الزمن!

وعامل الزمن أساس في أي قضية يريد الملأ لها الإبرام أو النقض ، وهو كفيل بأن تنسى الأمة قضاياها الشاغلة والأساسية ، ومطالبها المشروعة ، حينما تعلق هذه أو تلك على مشجب الزمن .

ومن هنا يتَّكِئ الملأ ـ عبر التاريخ ـ على هذه الوسيلة، ويستخدمونها بذكاء. ولكن القرآن، وهو يرسم للأمّة المسلمة معالم الطريق، يكشف عن هذه المكيدة، فيما يكشف عنه من حِيَلِ أعدائها.

قال تعالى حاكياً نصيحة الملأ من قوم نوح لأتباعهم في شأن نوح ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥]؛ أي: ما هو إلا رجل به جنّ يخبلونه فـ «احتملوه واصبروا عليه إلى زمان حتى ينجلي أمره عن عاقبة، فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه»[(١)]، أو يهلك كما هلك غيره، كما قال كفار قريش في شأن الرسول ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

وهذا عزيز مصر، لما ظهرت دلائل براءة يوسف ﷺ، وثبتت خيانة امرأة العزيز وكذبها، احتالوا لإخفاء الحقائق، والتلبيس على الناس، فلم يجدوا أفضل من سجن يوسف ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥]. والضمير في ﴿لَهُم﴾ لجماعة العزيز من مشير وآمر[(٢)]؛ أي: ظهر لهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ الدالّة على براءته ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: لِيَنْقَطِعَ بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشيع مع وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نُسِي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم فأدخلوه السجن[(٣)].

وفرعون الطاغية، لما خاف من غلبة موسى ﷺ وظهور حجته، طرح فكرة، ظاهرُها الإنصاف والبحث عن الحق، وباطنها وحقيقتها كسب الوقت وإشغال الناس إلى حين الإعداد لمبادرة جديدة!

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]. وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

(١) الكشاف، للزمخشري (٣/ ٣٠).
(٢) تفسير التحرير والتنوير (١٢/ ٢٦٧).
(٣) تفسير السعدي (٤/ ٢٤).

وسواء بُنِيَ هذا الصَّرح أم لم يُبنَ[1] ، فإنَّ الهدف الذي أراد فرعون تحقيقه من وراء هذه الدعاية حاصلٌ . وإلى حين إتمام البناء ، أو التظاهر بمحاولة ذلك ، يكون في الوقت فسحة ومتسع لطرح مبادرات جديدة! أو حدوث مشغلات صارفة .

* **والملأ في النهاية يضحّونَ بمستقبلهم ومستقبل الأمة معهم، ويجرُّون الأمة في أحيان كثيرة إلى مواقف تكون فيها نهايتها** ؛ وذلك إرضاء لنزواتهم من جهة ، كما أنَّها نتيجة لقراراتهم الفردية من جهة أخرى .

إنَّ الملأ لعُلوّهم واستكبارهم وغرورهم لا يُخطِرون ببالهم، ولا يُدْخِلُون في حسابهم قوة إلهية قاهرة ، ولا رسالة ولا رسولاً ، ويستهترون بكل قوة إلا قوتهم ، ولهذا وذاك يبادرون أنفسهم ، والأمة من ورائهم باستعجال العقوبات الموعودة .

قال تعالى عن قوم عاد أنهم: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠] .

وفي آية أخرى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٢] .

أمَّا ثمود قوم نبيِّ الله صالح ﷺ ، فماذا كان من شأن الملأ فيهم؟

قال تعالى عنهم: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧] .

ومشركو العرب كانوا أقبح من غيرهم ، وأجْرَأ على الله جل وعلا .

قال تعالى مبيناً موقفهم من الحقِّ: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢] .

تلك نماذج لاستعجالهم العذاب الذي يخوفهم به أنبياؤهم إن كذبوا وأعرضوا عن الحقِّ .

* **وهناك صورة أخرى للتضحية بمستقبل الأمة، والمراهنة على مصيرها لمصلحة زمرة قليلة، هم الملأ** ؛ وذلك بجَرِّ الأمة إلى مواجهة الحق ، وتسخيرها للقضاء عليه بيدها ، لتكون شريكاً في المؤامرة .

---

(١) حكى ابن عاشور اختلاف المفسِّرين في: هل وقع بناء هذا الصرح وتم أم لم يقع . انظر: التحرير والتنوير (٢٠/ ١٢٣ ، ١٢٤) . أقولُ: ولا توجد دلائل تشهد لهذا أو ذاك . فالله أعلم .

قال تعالى عن الملأ من قوم إبراهيم، لما كسّر الخليل ﷺ أصنامهم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨ ـ ٦١].

وفي النهاية، وبرغم سقوط حجتهم على أعين الناس، وظهور حجة إبراهيم عليهم ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فلم يعترض منهم أحد على هذه الجريمة، بل اشتركوا جميعاً فيها وحملوا تبعاتها، وكان الملأ هم رواد هذه الفكرة، المخططين لها.

وفرعون وقومه، لما دعاهم موسى إلى الحقّ ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ * قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٥٧ ـ ٦٤].

وفي آية أخرى: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٨ ـ ٤٠].

وتَصَدِّي الملأ للحقّ، وجرجرة الأمة وإثارتها في وجهه ووجه حملته والدعاة إليه، وتعبئتها لمنازلته.. في الآيات السابقة بَيِّنٌ ظاهرٌ.

ومن فرعون موسى إلى فرعون هذه الأمة، أبي جهل ـ أخزاه الله ـ وكان من عتاة الملأ في قريش، وكان من خبره أنه ـ على ما حكى أهل السير ـ هو الذي أصرَّ على بقاء المشركين في بدر، ليلقوا هناك مصارعهم، و﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

قال ابن إسحاق[1] صاحب السيرة: «ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا. فقال أبو جهل ابن هشام: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً ـ وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام ـ فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجَمْعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا»[2].

* **ولا ينسى الملأ برغم جرائرهم في حق الأمة أن يثنوا على ذواتهم، ويلوّحوا بما في حوزتهم من إمكانات مادية لا توجد في يد خصومهم. وأنّهم لذلك أفضل منهم وأولى** بالاتباع، مشيرين بصراحة إلى أحقيتهم بالزعامة والتّرؤّس.

قال الملأ من قوم نوح لعامتهم، معرّضين بنبي الله نوح ﷺ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المؤمنون: ٢٤]. وقالوا له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ [هود: ٢٧].

وقال سبحانه عن الذي حاج إبراهيم في ربه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾[البقرة: ٢٥٨] الآية.

وقال تعالى مصوراً غرور فرعون وما قاله لقومه، مُدِلاً بقوته وملكه، ومعرّضاً بموسى ﷺ: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ * أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣].

وقال هو وملؤه لموسى وأخيه هارون ـ عليهما السلام ـ لما جاءهم بآيات الله بينات:

---

(١) محمد بن إسحاق بن يسار، المطلبي بالولاء، المدني، من أقدم من أرّخ في الإسلام، إمام في السيرة والحديث مع اختلافهم في توثيقه، وقد روى له الإمام مسلم في صحيحه مقروناً بآخرَ، وروى عنه أصحاب السُّنن الأربعة، وعلق له البخاري في صحيحه، وكتابه «السيرة النبوية» من أشهر ما كُتِبَ في بابه، وكانت وفاته ببغداد سنة (١٥١هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٣). والأعلام (٦/ ٢٨). ومصادر السُّنة النبوية وتقويمها، للدكتور/ فاروق حمادة، ص ٤٩.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٣٠١) بعناية د/ همام سعيد ومحمد بن عبد الله أبو صعيليك. قال المحققان في تخريج الخبر: «رواه ابن إسحاق معلقاً». ورواه الواقدي في المغازي (١/ ٤٣، ٤٤)، ورواه الطبري في تاريخه (٢/ ٤٣٨) من طريق ابن إسحاق، فيكون الخبر ضعيفاً. [السيرة النبوية (٢/ ٣٠١)].

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٧٨] .

أمّا هم ، أمّا الملأ ، فلهم الحق ، وفيهم أهلية لأنْ يتفضَّلوا على الناس! ولأن يكون الأراذل بادي الرأي من جملة أتباعهم المسخرين لخدمتهم! ولأن تكون لهم الكبرياء في الأرض على الناس ، على حين يرون محرماً على الأنبياء وأتباعهم أن يسوسوهم بشرع الله وأن يقودوهم بأمر الله . . . إلى الله!

إنّه منطق الجاهلية ، وإنّها لغة الطغيان والعنجهية حيثما وُجِدَت ، فوق كل أرض وتحت كل سماء .

وتسأل بعد ذلك كله: وأين رأي الأكثرية؟ وكيف غابت إرادة الأمة؟

لِمَ لَمْ تدافع عن مصالحها ، وتتخيَّر لنفسها ، بدلاً من أن تكون أداة يلعب بها ، بل حُمُراً يركبها الملأ لتحقيق مآربهم؟!

والجواب عن ذلك بعبارة جامعة:

لقد غاب رأي الأكثرية واستحمرها الملأ ؛ بسبب الفسق عن طاعة الله ، وبسبب الظلم للنفس وللخلق .

قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤] .

وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩] ، دائماً وأبداً . والفسق يورث الظلم لا محالة ، وحيثما وُجد في أمة ذلّت واستعبدتها الشهوات ، وتسلّط عليها من جنسها ، أو من غير جنسها ، برضاها أو كارهة ، من يسخرها لمصالحه ، ويهدم دينها ودنياها لبناء مجده ودنياه ، وتهدم هي دينها ودنياها لبناء دنيا غيرها .

إنّ البشرية حينما لا يكون لمنهج الله وشرعه سلطان عليها ، فإنّها لا تزال تنتقل من جور إلى جور ، ومن استعباد شخص أو طائفة إلى استعباد قوم آخرين .

وإنّ الفسق والظلم في الأمة ، هما الأرض الخصبة والجو الملائم لظهور طبقة الملأ بالمواصفات والنعوت السابقة ، حيث فساد النفوس ، وخواء الأرواح ، وسفول الهمم ، وتقديس الشهوات . . . والله المستعان .

وإلى هنا ينتهي هذا المبحث ، وتنتهي هذه الجولات في مجالات سُنن الله في الأمم ، وينتهي الباب الثاني من أبواب الكتاب ، ويليه الباب الثالث وهو بعنوان: «آثار رعاية السُّنن وعواقب الإعراض عنها» . وهو دراسة تطبيقية على واقع هذه الأمة .

* * *

الباب الثالث

آثار رعاية السنن

وفيه تمهيد وفصلان:

الفصل الأول: آثار رعاية السنن.

الفصل الثاني: عواقب الإعراض عن السنن.

بين يدي الباب

يقع هذا الباب مما قبله موقع المثال من القاعدة، والتطبيق من التنظير. وقد مرَّ بنا في التمهيد، وفي البابين الأول والثاني عدة قضايا ومفاهيم، تتعلق بخصائص السُّنن الإلهية، وطريقة عملها في واقع الحياة، وفي المجالات التي تحكمها هذه السُّنن، وفي مواقف الأمم إزاءها، ونتائج ذلك، وغيرها من القضايا والمسائل.

وكان الاتجاه في دراستها منصباً على ناحيتين:

الأولى: إبراز هذه القضايا والمفاهيم وتجسيدها.

والثانية: تقريرها وبسطها، والاستدلال لها من كتاب الله تعالى.

ولَمَّا كانت دراسة موضوع السُّنن مرتبطة أساساً بكتاب الله تعالى، فإنَّ من الطبيعي أن يكون ميدانها هو التاريخ كله، وأن تكون الأمثلة والنماذج العملية لكل ما سبق، مأخوذة من أحوال الأمم السابقة، ومن أحوال هذه الأمة في فترة حياة النبي ﷺ[1].

وعلى هذا، نكون ـ فيما مضى ـ قد حققنا أمرين مهمين:

أولهما: إبراز السُّنن الإلهية وتجسيدها، وبيان ما يلزم لفهمها واستيعابها.

والثاني: تجلية آثارها، والاستدلال والتمثيل لها من أحوال الأمم في التاريخ القديم، والمعاصر لتنزّل القرآن الكريم، من واقع النصوص القرآنية ذاتها.

وحيث إنَّ تقرير السُّنن الإلهية التي تحكم حياة الجماعات البشرية، من الناحية النظرية قد فرغ منه، فإنّني في هذا الباب سأحاول استكمال الأمرين السابقين؛ إبراز السُّنن، وتجلية آثارها وفق التسلسل التاريخي، ولكن على النحو التالي:

ــ سأحرص على إبراز السُّنن، من خلال معرفة آثارها في واقع هذه الأمَّة، بالتَّتبع والاستقراء. وذلك بحشد الأمثلة والشواهد، ورصد الأرقام والإحصائيات، والاستشهاد بأقوال أهل الاختصاص والمجربين، والخصوم والمحبين، على الجوانب المحمودة والمذمومة فيها.

---

(١) مع يقيننا بأن هذه الأمثلة والنماذج ـ وهي آيات من كتاب الله ـ مشتملة على النظام والسنن التي تحكم حياة الأمم والأفراد، وتضبط تصرفاتهم، فيما مضى وفيما يستقبل وقد تقرَّر هذا في مواضع. وعلى هذا الأساس، قلت: إنَّ هذا الباب يقع مما قبله موقع المثال من القاعدة.

وسأقتصر على ما لا بد منه من إبراز فائدة، أو ربط حادثة، أو تبيين مُنْبَهم، أو تجلية غامض، أو تلخيص يُقرّب الفائدة... أو نحو ذلك، بعيداً عن التوسع في التنظير[١].

وهذا الأسلوب ـ في نظري ـ أشبه بعنوان الباب «**آثار رعاية السنن وعواقب الإعراض عنها**»، ولعله يكون أكثر جاذبية وأبلغ تأثيراً في النفوس.

ـ وأنبه إلى أن الحديث في هذا الباب ـ بفصليه ـ معنيٌّ باستعراض آثار رعاية السنن وعواقب الإعراض عنها في هذه الأمة، بشقيها؛ أمة الإجابة، وأمة الدعوة.

ولهذا الاقتصار ما يبرره، كما أنَّ له أهمية خاصة؛ ذلك أن هذه الأمَّة هي خاتمة الأمم، وهي ذات تاريخ متطاول، وخصائص مميزة، مما أهّلها لأن تكون ميداناً خصباً ومناسباً لانطباق السنن الإلهية بصورة أشمل، وظهور آثارها، في فترات وظروف مختلفة.

وأمر آخر مهم؛ وهو أنَّ العالم الذي نعيشه اليوم، والذي آمل أن تسهم هذه الدراسة في تشخيص أدوائه ونعت دوائه... هذا العالم، ما هو إلا حلقة من حلقات هذه الأمة التي نزل القرآن بشأنها، فهو جزء من تاريخها الذي ابتدأ بنزول هذا القرآن... ومن هنا، كان أحق بالبيان وأولى بالتفصيل.

وسأعرض في هذا الباب لجوانب أربعة من حياة هذه الأمة:

جانبين يمثلان حياة الأمة المسلمة في مرحلتي الصحة والقوة والإشراق، والضعف والمرض والانحسار:

ـ في صورتها المشرقة؛ حيث رعت السنن الإلهية في كل جوانب الحياة، المعنوية والمادية. وتلك صورة لم تحدث إلا في صدر الإسلام وعصره الأول.

ـ وحينما فرطت في جنب الله، وأدارت ظهرها لشرعه، فتفرّقت كلمتها، ووهَى نسيجها المحكم، ففقدت قوتها وريادتها، خصوصاً في عصورها المتأخرة.

وجانبين يمثلان الأمم الجاهلية، ما يحمد من شؤونها وما يذمّ:

ـ جانبها الإيجابي المحمود: حيث القوة المادية والتفوق العلمي، والانضباط الإداري.

---

(١) لأنَّ فيما تقدَّم غنية، فلا حاجة إلى الإعادة والتكرار.

ـ وجانبها المظلم المذموم: حيث القلق النفسي ، والتحلُّل الأخلاقي ، واختلال الأمن ، وانتشار الجريمة ، والعدوان وظلم الشعوب الأخرى .

وقد عمدتُ إلى الجوانب المحمودة ، التي تمثل (رعاية السُّنن) فجعلتها متوالية في مبحثين ، وإلى الأخرى التي تمثل (الإعراض عن السُّنن) فأتبعت بعضها بعضاً ، في مبحثين .

ولا بأس بعد ذلك من التنبيه إلى بعض الأمور ؛ لنكون على ذكر منها:

أولاً: محور الدراسة هو الأمم لا الأفراد ، فحينما أعرضُ للآثار المحمودة أو المذمومة لهذا المجتمع أو ذاك ، فإنّما أحكم على الغالب ، فلا حاجة إلى الاحتراز والاستثناء كل مرة . فليجر هذا مجرى القاعدة .

ثانياً: تقرر أن من خصائص سنن الله في الأمم ، أنّها تعمل بصورة مجتمعة ؛ أي منظومة متكاملة . وهذا لا يعارض ما سترى من تفصيل لبعض الجوانب الإيجابية النافعة عند بعض الأمم ، كالجوانب المادية عند الغرب المعاصر ، فإنَّ ذلك لا يعني أن هذه الجوانب الإيجابية لم تتأثر سلباً بالجوانب الأخرى المظلمة . كلاَّ ، بل كان تأثرها واضحاً . وسترى ذلك مفصَّلاً ، بإذن الله . وهذا يؤكد صدق تلك الخاصية في السُّنن .

ثالثاً: سوف أعرضُ لأهم وأظهر آثار رعاية السنن وعواقب الإعراض عنها . ولا أدَّعِي الإحاطة بها أو حصرها ، بل ولم أقصد إلى ذلك [1] ، وأنَّى لي بحصرها في باب من أبواب هذه الدراسة ، وكل جانب منها قد لا تفي به دراسة موسعة مستقلة .

والآن أتجاوز هذا التمهيد ، إلى الفصل الأول (آثار رعاية السُّنن) ، فإليه ثمَّ .

* * *

(١) وحذفت (مِن) المفيدة للتبعيض من العنوان ؛ تحاشياً للثقل المستكره لو كان العنوان هكذا: (من آثار رعاية السنن ومن عواقب الإعراض عنها) ، فجرى العنوان المثبت مجرى الإحاطة ، والمقصود به الغالب .

الفصل الأول

آثار رعاية السنن

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: واقع الأمة الإسلامية في الأمم الجاهلية [الآثار الحسنة والعواقب الحميدة التي تحققت للأمة الإسلامية في القرون الأولى].

المبحث الثاني: الأمم الجاهلية المعاصرة (في الجوانب المادية) [الجوانب الحسنة عند الأمم الجاهلية المعاصرة).

المبحث الأول

واقع الأمة الإسلامية في الأمم الجاهلية(١)

لا نستطيع أن نعرف مدى النقلة الكبرى الهائلة بين عصر الإسلام الذهبي والعصر الجاهلي قبله، بمجرد أن نستعرض الجوانب الإيجابية في النقلة الجديدة.. ما لم نطل إطلالة على عصر الجاهلية ذاته.

وكيف نتبيَّن آثار رعاية السُّنن في الأمة الإسلامية، بعد أن طلعت عليها شمس الرسالة، ما لم نلم إلمامة بشيء من أحوالها قبل ذلك؟

لا نستطيع ما لم نطل تلك الإطلالة، وعلى الأقل ستكون الصورة غير واضحة، والنقلة في أذهاننا أقل مما هي عليه في واقعها، وبالتالي قد لا نحتفل بالآثار المترتبة على رعاية السنن الإلهية، التي لم تكن مرعيَّة أصلاً في ذاك العصر.

فكيف كانت الدنيا، وكيف كان العالم قبل بزوغ شمس الرسالة وطلوع سعد الهداية؟!

روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي(٢) ﷺ قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً، جمعنا حثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به»(٣).

وقال الكلبي: «كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً، وجعل ثلاثة أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه»(٤).

وفي البخاري عن عائشة قالت: «**إِنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ، فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا، وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا: أَرْسِلِي إِلَى فُلَانٍ فَاسْتَبْضِعِي**

---

(١) والمقصود بهذا المبحث: واقع الأمة الإسلامية في صدر الإسلام والخلافة الراشدة وما تلاها من عصور كانت السيادة فيها للإسلام، والعزّة والتمكين فيها للمؤمنين.

(٢) قيل: اسمه عمران بن ملحان، وقيل غير ذلك. قال ابن قُتَيْبَة: وُلِدَ قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة، وأسلم بعد فتح مكة، وأرسل عن النبي ﷺ، وأمّ قومه أربعين سنة، وتوفي في خلافة عمر بن عبد العزيز، وقيل غير ذلك. انظر: الإصابة (٧/ ٧٢)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٣).

(٣) فتح الباري (٨/ ٩٠)، حديث رقم (٤٣٧٦).

(٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي، ص٥٥، عن كتاب (الأصنام) للكلبي، وفيه تفصيل أصنام العرب ومعبوداتهم في الجاهلية.

مِنْهُ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا، وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الاسْتِبْضَاعِ، وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ، كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالِيَ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ ـ فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ ـ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ ـ تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ ـ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ. وَنِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا وَهُنَّ الْبَغَايَا، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمُ الْقَافَةَ ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ، لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ، إِلاَّ نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ»[١].

وفي البخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا سرَّكَ أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]»[٢].

وفي خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، أرسل سعد بن أبي وقاص ﷺ قبيل وقعة القادسية إلى كسرى طائفة من أصحابه، يدعونه إلى الله، ويرغبونه في الدخول في الإسلام، فيهم المغيرة بن شعبة، رضي الله عنهم. فلما دعوه وبيّنوا له، جرت بينهم مقاولة، ثم تكلّم يَزْدجرد[٣] فقال لهم: «إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بَيْنٍ منكم. قد كنا نوكل بكم قرى النواحي ليكفوناكم. لا تغزوكم فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم. فإن كان عددكم كثُر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم.

فأسكت القوم، فقام المغيرة بن شعبة فتكلّم، وكان مما قال: «إنّك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً، فأمّا ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا، وأمّا جوعنا

---

(١) فتح الباري (٩/١٢٨)، حديث رقم (٥١٢٧).
(٢) انظر: فتح الباري (٦/٥٥١)، حديث رقم (٣٥٢٤).
(٣) «كسرى»: لقب ملك الفرس، و«يزدجرد»: اسم قائد الجيش.

فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيَّات، ونرى ذلك طعامنا، وأمَّا المنازل فإنَّما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم.

ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يبغي بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حيَّة، كراهية أن تأكل من طعامه، وكانت حالنا قَبل اليوم على ما ذكرت لك...»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبيناً حال أهل الأرض قبل مبعث محمد ﷺ: «أرسل الله رسوله ﷺ وقد مَقَتَ أهل الأرض إلا بقايا من أهل الكتاب، وماتوا أو أكثرهم قبل مبعثه. والناس إذ ذاك أحد رجلين: إما كتابي معتصم بكتاب مبدّل، أو مبدّل منسوخ، ودين دارس، بعضه مجهول، وبعضه متروك، وإمَّا أميّ مقبل على عبادة ما استحسنه من نجم أو قبر أو تمثال أو وثن، أو غير ذلك.

والناس في مقالات يظنونها علماً وهي جهل، وأعمال يحسبونها صلاحاً، وهي فساد، فهدى الله الناس بما جاء به من البينات والهدى هداية جلَّت عن الوصف»(٢).

وقد أثبت أبو الحسن الندوي بالبراهين القاطعة أنَّ «القرن السادس والسابع لميلاد المسيح(٣) من أحط أطوار التاريخ بلا خلاف، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردِّي، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رُشده، وقوة التمييز بين الخير والشرّ، والحسن والقبيح.

وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل، لا ينير إلا بعض القلوب، فضلاً عن البيوت، فضلاً عن البلاد، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا إلى الأديرة والكنائس والخلوات، فراراً يدنيهم من الفتن، وضنا بأنفسهم، أو رغبة في الدعة والسكون، فراراً من تكاليف الحياة وجدّها، أو فشلاً في كفاح الدين والسياسة والروح والمادة، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا، وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل... على حساب الضعفاء والمحكومين»(٤).

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٤١، ٤٢)، بتصرف.
(٢) المسائل التي لخصها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب من فتاوى ابن تيمية (المسألة الحادية والتسعون)، ص٨٨.
(٣) كانت ولادة رسول الله ﷺ في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، سنة ٥٧٠ للميلاد.
(٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٢٤.

وقال في موضع آخر: «بعث محمد بن عبد الله ﷺ والعالم بناء قد أصيب بزلزال شديد هزَّه هزاً عنيفاً، فإذا كل شيء فيه في غير محلّه... نظر إلى العالم بعين الأنبياء، فرأى إنساناً قد هانت عليه إنسانيته، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرر...

رأى مجتمعاً هو الصورة المصغرة للعالم. كل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله، قد أصبح فيه الذئب راعياً والخصم الجائر قاضياً...

رأى معاقرة الخمر إلى حدّ الإدمان، والخلاعة والفجور إلى حد الاستهتار، وتعاطي الربا إلى حد الاغتصاب واستلاب الأموال، ورأى الطمع وشهوة المال إلى حدّ الجشع والنهامة، ورأى القسوة والظلم إلى حد الوأد وقتل الأولاد.

رأى الأمم قطعاناً من الغنم ليس لها راعٍ، والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه، والسلطان كسيف في يد سكران»[(١)].

«جاء الإسلام، وفي العالم ركام هائل، من العقائد والتصورات، والفلسفات، والأساطير، والأفكار والأوهام، والشعائر والتقاليد، والأوضاع والأحوال، يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف، والدين بالخرافة، والفلسفة بالأسطورة..

والضمير البشري تحت هذا الركام الهائل يتخبط في ظلمات وظنون، لا يستقر منها على يقين..

والحياة الإنسانية بتأثير هذا الركام الهائل تتخبط في فساد وانحلال، وفي ظلم وذل، وفي شقاء وتعاسة، لا تليق بالإنسان، بل لا تليق بقطيع من الحيوان»[(٢)].

هذه باختصار شديد، هي الحال السائدة في العالم يومئذٍ، ردّة شاملة، وحالة من الإعراض عن هدى الله في كل المجالات، وذهول وانحراف عن إقامة السُّنن الإلهية المُوصِلة إلى برّ الأمان.. فاستحكم الضلال و ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٧٨، ٧٩. قد فصَّل المؤلف في الباب الأول من هذا الكتاب أوضاع الجاهلية الأولى، وأحوالها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، لا في أمة العرب وحدها، بل في أمم الأرض كلها من الفرس والرومان والهنود والصينيين، وعند اليهود والنصارى وغيرهم... وبيَّن الوضع المزري الذي كانت تعيشه المرأة والرقيق. وأجاد في ذلك كله إجادة تامة، فليراجعه من شاء. وانظر: البداية والنهاية (٢/ ١٩٠)، وخصائص التصور الإسلامي ومقوماته، لسيد قطب، ص٢٦ وما بعدها، ودراسات في السيرة النبوية، لمحمد بن سرور زين العابدين، فصل (العالم قبل البعثة)، ص١٥ وما بعدها، وغيرها.

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص٢٦.

أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]. فكان لا بد أن تحيق بهم سنة الله التي تحل بأمثالهم ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ [النحل: ٣٤].

ثم جاء الإسلام.. فما الذي حدث؟

وقبل أن نعرف ما الذي حدث، لا بد أن نعرف أي شيء هو هذا الإسلام! لندرك بالتالي آثاره.

الإسلام نظام ربّاني شامل ومنهج إلهي كامل، مختلف كل الاختلاف عن نظم الجاهلية في كل شؤون الحياة، بدءاً بالعقائد والتصورات.. وانتهاء بأدق المسائل الفرعية التفصيلية.

حتى تلك الأمور التي يُقرّها الإسلام من أمور الجاهلية، لأنّها حسنة في ذاتها.. يتدخّل الإسلام ليصحح منطلقاتها في النفوس، ويسمو بأهدافها في الواقع (١).

أساسه وعماده: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله.

وهاتان الشهادتان إعلان إلى الناس والأمم: أنّه لا معبود بحق إلا الله، وأنه لا يقبل من أحد أن يعبد الله إلا بما شرعه على لسان رسوله محمد ﷺ ومن طريقه.

ودليله وإمامه: كتابٌ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وترجمانه ومعلّمه: بشرٌ من أكمل البشر وأوفاهم وأبرّهم وأرحمهم، وأتقاهم وأعلمهم، وأشجعهم وأحكمهم، ﷺ.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وأمره كله جد لا هزل فيه.

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

جاء في السير: أنّ النبي ﷺ كان يعرض نفسه على القبائل في المواسم؛ لعلّ أحداً منهم يؤويه ويمنعه حتى يبلغ رسالة ربه، وكان بنو عامر بن صعصعة فيمن عرض نفسه

(١) اقرأ ـ مثلاً ـ في كتاب (معالم في الطريق)، العناوين التالية: نشأة المجتمع المسلم وخصائصه، لا إله إلا الله منهج حياة، نقلة بعيدة.

عليهم، فقال له رجل منهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟

قال ﷺ: «الأمر لله يضعه حيث يشاء» (١).

وجاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ، وكان مما سألوه: أن يدع لهم الطاغية، وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدمهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى. وسألوه أن يعفيهم من الصلاة، فقال لهم: «لا خير في دين لا صلاة فيه» (٢).

والإسلام دين أهدافه واضحة، لا غموض فيها ولا التواء..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ [الممتحنة: ١٢].

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٧٦)، والخبر ضعيف؛ لأنَّ في سنده الواقدي، وهو مجمع على ضعفه، لكن خبر عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل في سوق ذي المجاز، يدعوهم إلى الله، وقد ورد عند الإمام أحمد من حديث عبدالرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: أخبرني رجل يُقال له: ربيعة بن عباد من بني الديل، وكان جاهلياً، قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه... الحديث. وسنده حسن، وله شاهد عند ابن حبان ح (١٦٨٣) من حديث طارق بن عبد الله المحاربي. وانظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٧٦) في الحاشية، وزاد المعاد (٣/ ٤٣) في الحاشية.

(٢) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٤/ ٢٤٩). وفيه ضعف. انظر: المصدر السابق في الحاشية. وهو عند أحمد في المسند (٤/ ٢١٨)، وعند أبي داود في: باب ما جاء في خبر الطائف ح (٣٠٢٥) بسياق مختصر، وحسَّن إسناده الأرناؤوط في زاد المعاد بأبسط من هذا، وفيه: أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يأذن لهم في الزنا؛ لأنهم قوم أهل أسفار ولا بد لهم منه، وأن يأذن لهم في الربا، لأنه عامة أموالهم، وأن يأذن لهم في الخمر، لأنهم لا صبر لهم عنها، فأبى النبي ﷺ ذلك كله.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

«وأدركت أمم الجاهلية حقيقة الإسلام وجديته ووضوح أهدافه، ولم يكن أمرهم عليهم غمَّة.

وأدرك سدنتها أن هذا الإسلام سوف يأتي على بنيانهم من القواعد، وأنَّ كياناتهم ومصالحهم ستتهاوى أمام زحفه، كما تتساقط أوراق الخريف.. فأعلنت الجاهلية فوق كل أرض وتحت كل سماء بعداوته، ونذرت بحربه وحرب أتباعه، وقفت لمن آمن به في كل مرصد، ولم تألُ جهداً في ذلك، وكان من أمر الجاهلية ما تحدَّث عنه التاريخ من حوادث الاضطهاد والتعذيب»[(١)].

ولكن هذا الدين، كان قدر الله الغالب، وأمره النافذ، فانتشر خبره في الآفاق وسارت بحديثه الركبان، ودخل الناس فيه أفواجاً، ولم يلبث هذا الدين الجديد أن اكتسح المدائن والبلدان، بعد أن تمكّن في القلوب.. فحدث ما لم يكن يخطر لأحدٍ على بال!

وقد لخَّص هرقل، ملك الروم، وأبو سفيان بن حرب[(٢)] - قبل أن يُسْلِمَ - هذا الحدث التاريخي العظيم في ذاك اللقاء المشهود، في بلاط هرقل.

حدَّث أبو سفيان «أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ - فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ، فَدَعَاهُمْ فِي مجلسه وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ. فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي. وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٨٤. وانظر مثلاً: السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٣٣٣، ٣٦٤، ٣٩٢).

(٢) صخر بن حرب القرشي الأموي، والد معاوية بن أبي سفيان. أسلم عام الفتح، وشهد حنيناً والطائف، وكان قبل ذلك رأس المشركين، توفي في آخر خلافة عثمان بن عفان ﷺ. انظر: الإصابة (٣/ ٢٣٧).

قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ لاَ. قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ قُلْتُ: لاَ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ. قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ، قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ. فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يتأسَّى بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ؟ أَنْ لاَ، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ: أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ: أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ» (١).

وكذلك كان، فإنَّ أصحاب النبي ﷺ «لم يزالوا في زيادة حتى كمل بهم ما أراد الله من إظهار دينه وتمام نعمته، فله الحمد والمنّة» (٢).

والآن نحن أمام مملكة جديدة وأمة ناشئة وليدة، تدين بدين هو الإسلام بمنهجه المتميز. قد صبغها بصبغته، وتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون حياتها الخاصة والعامة، الفردية والجماعية.. هذه الأمة هي «الأمة الإسلامية».

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، انظر: فتح الباري (١/ ٣١، ٣٢).
(٢) فتح الباري (١/ ٣٦).

وهناك من حولها أمم الأرض، هناك بقايا العرب، وفارس والروم، والهند والصين.. وغيرهم، بمناهجهم الجاهلية الظالمة الآثمة [١].

هلمّ بنا إلى هذه الأمة الإسلامية ذات الكيان الجديد، ماذا قدمت لنفسها، وللإنسانية المنكوبة؟

ماذا سجَّل التاريخ في عالم الواقع، لا في عالم الْمُثُل، من الآثار الحميدة والمآثر الحسنة الجليلة؟

لقد كان الظلم مخيماً، والحريات مسلوبة، فهل قام سوق العدل ورفرفت راية الحرية والمساواة؟

وكان الفقر والمسغبة فاشية، وشريعة الغاب هي سيدة الموقف، خصوصاً بين قبائل العرب، فهل تحققت العدالة الاجتماعية، وأمِنَ الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم؟ وكانت الجرائم والفواحش مشرعة أبوابها، فهل شاع الطُّهر والعفاف واختفت الجريمة؟

وفوق ذلك كله، كان الناس بربّهم يشركون ويعدلون، وبه يكفرون! فهل تغيَّر من ذلك شيء؟ وإلى أي حدّ كان هذا التبدّل والتحوّل؟

إنَّ كلمة (نعم) قد تكون كافية في الإجابة عن هذه التساؤلات، لو كان المسلمون اليوم في موقع أفضل مما هم فيه، علماً ووعياً وبصيرة في دينهم، وثقة بقدرته على أن يبلغ بهم مرتبة القيادة والإمامة للبشرية والتمكين في الأرض، لو أخذوا به والتزموا هديه! بل لو كانوا كذلك، لربما لم يكونوا محتاجين أصلاً إلى إثارة مثل هذه التساؤلات، فضلاً عن الخوض في جواب مفصّل لها.

أما والأمر ليس كذلك، فلا بد من الجواب المفصَّل؛ رجاء أن يقرأه جاهل فيعلم، أو غافل فيستيقظ، أو متردّد فيحسم موقفه لصالح هذا الدين.

لقد كانت الأمة الإسلامية في الصدر الأول ـ ولعدة قرون ـ شامة بين الأمم، وأنموذجاً يُحتَذَى، أخذت بأسباب النجاح والتقدُّم في كل ميدان، وجانبت أسباب الانحطاط والضعف وحاربتها على كل صعيد.

ولم يكن ذلك نتيجة عبقرية امتازت بها. وإلا فأين كانت تلك العبقرية قبل أن تكون أمة مسلمة؟

---

(١) وقد أشرتُ إلى طرف من أحوالهم في مستهل المبحث.

ولم يكن ذلك محض صدفة واتفاق؛ لأنَّها نشأت نشأة طبيعية في الهواء الطلق، تحت ضوء الشمس، وعانت في سبيل ذلك صنوف الأذى وضروب المجاهدة.

إنَّ الذي حدث بالضبط، هو أنها كانت أرضاً طيبة قبلت هدى الله الذي أرسل به رسوله محمداً ﷺ، لما أراد الله بها من كرامته، فأشربت حب هذا الدين وانصهرت في بوتقته، فلم يعد لها اسم غير هذا الاسم ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]. وحتى أصبح رأس مالها وأنشودة فخارها ومحط آمالها، قول أمير المؤمنين عمر: «**إنا كنا أذلّ قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزّ بغير ما أعزّنا الله به أذلنا الله**»[1]. وقول شاعر الإسلام وفتى الأنصار، عبد الله بن رواحة [2] ﷺ:

هـل أنت إلا إصبـع دميت ... وفي سبيـل الله ما لقيـت

وقوله خبيب بن عدي [3] ﷺ، يذكر مصابه قبيل مقتله:

وذلك في ذات الإله وإن يشـأ ... يبارك على أوصـال شلـو ممـزع

فوالله ما أرجو إذا مت مسلمـاً ... على أي جنب كان في الله مصرعي [4]

وقول الآخر:

أبي الإسلام لا أب لي ســواه ... إذا افتخـروا بقيـس أو تميـم

ومن هذا الدين الذي دانت به، انبثقت سائر تصرفاتها، وعليه بنيت مواقفها وسياساتها، فليست شيئاً آخر غيره ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

وفي الصفحات التالية، أعرضُ لك أمثلة من تاريخها المشرق، الذي كان أثراً من آثار رعايتها للسُّنن الإلهية، يوم الْتَزَمَتْ هُدَى الله، أعرِضها ولساني يترنم:

سلام على الإسلام أيام مجده ... طويل عريض يملأ الأرض والسما

فهلم إليها ثمَّ.

---

(١) رواه الحاكم من طريق ابن شهاب، وابن كثير في البداية والنهاية. وسيأتي بسياق أتم.

(٢) ابن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، يُكنَى أبا محمد، كان أحد النقباء ليلة العقبة، شهد بدراً وما بعدها إلى أن استشهد بمؤتة. انظر: الإصابة (٢/ ٦٦)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٣٠).

(٣) ابن مالك الأنصاري الأوسي، شهد بدراً، واستشهد مصلوباً في عهد النبي ﷺ، قتله المشركون ثأراً لقتلاهم في بدر، وكان خبيب ﷺ قتل الحارث بن عامر. وقد ساق البخاري خبر مقتله. انظر: الإصابة (١/ ١٠٣)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٤٦).

(٤) السيرة النبوية، لابن هشام (٣/ ٢٥١).

معنى الحياة في ظل واحة الإسلام

لا تتشوَّف النفوس إلى شيء تشوفها إلى حياة كريمة، تُصَانُ فيها إنسانيتها، وتحفظ عليها كرامتها، تنعم فيها بالحرية، وتتفيأ ظلال العدل والمساواة اللائقة بالإنسان.. يتحقق فيها التكافل الاجتماعي والأمن الغذائي، وتختفي منها روح الطبقية... ويشعر المرء فيها بالأمن النفسي، والأمن على الأموال والأعراض... إلى حياة يشيع فيها روح الطهر والعفاف، وتختفي منها الجريمة والرذيلة.. في جو مفعم بروح الأخوة والألفة والتعاون.. حياة مغايرة لما أَلِف الناس وعرفوا في ظل الجاهليات؛ حيث يعرفون الحياة على أنها الحياة البهيمية، تلك التي تمارس فيها الحرية الفوضوية، بكل تفاصيلها. وتقوم على أساس الطبقية، وإقرار الفوارق والامتيازات بين الأفراد، وما يستتبع ذلك من صور الامتهان والسُّخرة والظلم والابتزاز، حتى لا تكاد تجد أمة إلا وفيها نفر من بني آدم، غير قليل، امتُهِنُوا للطواغيت، وشَقُوا بذل الاستعباد والسُّخرة، ولم يروا من الحياة إلا لونها الأسود الداكن.

إن الناس في ظل الجاهليات لم يكن بإمكانهم أن يعرفوا من الناحية التصورية غير تلك القيم الفاسدة، كما ليس بإمكانهم إلا أن يقاسوا مرارتها من الناحية العملية. ولا عجب، فإنَّ فاقد الشيء لا يعطيه. وقديماً قيل: إنَّك لا تجني من الشوك العنب.

ومكلف الأشياء ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار (١)

ونحن نجزم بأن الإنسان لم يتمتع بالحياة الكريمة بمعناها الأشمل إلا في ظل الإسلام، تحت مظلة الدولة الإسلامية.

في ظل الإسلام وتحت مظلته فقط، عرف الإنسان معنى الحرية، وتفيَّأ ظلال العدل والمساواة، وأَمِنَ، وغَنِيَ في قصد، وترفع في سمو عن الرذيلة، وتعلَّم الإنصاف، واطَّرح الكسل والتَّواكل، وفهم معنى الأخوة.. وأدرك ما لا يُحْصَى..

ولقد وجدت من العسير أن أسوق مثالاً لأقول: إنَّ العدلَ يتجلَّى فيه فقط، وآخر أقول فيه: إنَّ الحرية والمساواة فحسب تلوح في قسماته، وثالثاً أقول: إنَّه دليلٌ على تحقق الأمن.. أو غياب الرذيلة.. لا لخفاء في دلالة بعضها على هذا الجانب أو ذاك، ولكن: لأنَّ أكثر الأمثلة والنماذج تحمل دلالات متعددة، وأحب أن يكون القارئ مشاركاً في استظهار هذه الدلالات، وقد أشير إلى بعضها من باب التنبيه.

---

(١) البيتُ لأبي الحسن التُّهامي، من قصيدة له في رثاء ولده.

وأمر آخر ذو أهمية ـ في نظري ـ وهو: أننا بحاجة إلى التأكيد على وحدة الكينونة الإنسانية، وأن كل ما يصدر منها ما هو إلا إفراز لما تنطوي عليه من عقيدة، وما تحمله من تصوّر، يستوي في ذلك جليل الأمور وحقيرها؛ فإن مدنية أية أمة وموقفها من الأشياء ... ماهو إلا انعكاس لثقافتها وتعبير عن عقيدتها وفكرها، وهما معا اللذان يرسمان لوحة حضارتها [(١)].

فأنت تستطيع أن تقرأ في كل مثال، أكثر تَوَجُّهات الأمة، وتتبيَّن منه جماع أخلاقياتها. ولله در القائل:

ملكنا فكان العفو منا سجيــة ... فلما ملكتم سال بالدمّ أبطــح

وما عجب هذا التفاوت بيننــا ... فكــل إناء بالذي فيه ينضــح

وأعظم ما يميزها: أنها ليست توجهات نظرية لا مصداقية لها، ولا أخلاقيات نفعية أو إقليمية أو عرقية، كما سترى.. بل كانت فوق ذلك وأسمى من ذلك!

إنَّ هذه الأمَّة لم تُقم دولتها إلا على يدي تلاميذ مدرسة النبوَّة، ممن تربّوا على يدي محمد ﷺ، وصنعوا على عينه، وشهدوا بأم أعينهم كيف تكون رعاية السُّنن، وأدركوا أنها ليست شيئاً سوى إقامة شريعة الله؛ كل شريعة الله، ووقفوا على آثارها الواقعية بذواتهم.. وعلى يديهم تخرَّجت الأجيال، وبسيرتهم فتح العالم من جديد.

أقول: ومن هنا فقد وجدتُ مجال الاختيار صعباً؛ لأنَّه رحب، ووجدت أن من الغبن والابتسار، تعيين الدلالة على سبيل القصر، لما أسلفت.. ومع ذلك فسأحرص في الصفحات التالية على إيراد نماذج معبِّرَة، وأضم الشبه إلى شبهه، والشيء إلى ما يقاربه..

عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ [(٢)] ﷺ قَالَ: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً مِنَ الأَزْدِ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِيَ إليَّ. فقال النبي ﷺ: **«ما بال الرجل نستعملهُ على العملِ مما ولاَّنا الله، فيقول: هذا لكم وهذا أهديَ إليَّ، فَهَلاَّ جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيه أَوْ بَيْتِ أُمِّه، فَيَنْظُرَ يُهْدَى لَهُ أَمْ لاَ..»** الحديث [(٣)].

---

(١) انظر: الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ٦٧٢) وما بعدها. وسأزيدُ المسألة إيضاحاً في المبحث الثاني من هذا الفصل ـ بإذن الله.

(٢) الأنصاري المدني، قيل: اسمه عبد الرحمن، وقيل: المنذر بن سعيد. من فقهاء أصحاب النبي ﷺ، روى عنه جماعة من الصحابة، وتوفي سنة ٦٠ هـ، وقيل: بضع وخمسين. انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٨١).

(٣) رواه البخاري. انظر: الفتح (٥/ ٢٢٠) في الهبة، باب من لم يقبل الهدية لعلّة، ح (٢٥٩٧).

«وشكا يهود خيبر ـ وكانت قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالاً، وكان فيها عشرون ألف مقاتل ـ عبد الله بن رواحة. وكان رسول الله ﷺ يبعثه كل عام يخرص عليهم تمرهم، ثم يقول: إن شئتم فلكم وإن شئتم فلي، فكانوا يضمنونه، بيد أنهم شكوا إلى رسول الله ﷺ شدَّة خرصه، وأرادوا أن يرشوا ابن رواحة فجللوا له حلياً من حلي نسائهم، فقالوا: هذا لك وخفف عنا و تجاوز في القَسْمِ، فقال عبد الله: يا معشر يهود، إنَّكم لَمِنْ أبغض خلق الله تعالى إليَّ، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم. وأمَّا ما عرضتم عليَّ من رشوة فإنَّها سُحْت، وإنَّا لا نأكلها. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض» [١].

هكذا كان رسول الله ﷺ يتخيَّر عماله، ويحاسبهم، وهكذا كان يستعمل الأصلح، وهو الأتقى والأكفأ بحسب الإمكان، ويمنع غيره وإن كان أثيراً عنده.

لقد استعمل «خالد بن الوليد [٢] على الحرب، منذ أسلم، وقال: **«إنَّ خالداً سيفُ الله على المشركين»** [٣]. مع أنَّه كان ـ أحياناً ـ قد يعمل ما ينكره النبي ﷺ، حتى إنَّه مرة رفع يديه إلى السماء وقال: **«اللَّهُمَّ إنِّي أبْرَأُ إليكَ ممَّا فَعَلَ خَالد»** [٤]، لما أرسله إلى جذيمة فقتلهم وأخذ أموالهم بنوع شبهة، ولم يكن يجوز ذلك.. ومع ذلك، فما زال يقدمه في إمارة الحرب؛ لأنَّه كان أصلح في هذا الباب من غيره، وفعل ما فعل بنوع تأويل.

وكان أبو ذر [٥] ﷺ عنه أصلح منه في الأمانة والصدق، ومع هذا فقد قال له النبي ﷺ: **«يا أبا ذر، إنِّي أراكَ ضعيفاً، وإنِّي أحب لك ما أحبّ لنفسي: لا تأمرنَّ على اثنين ولا تولينَّ مال يتيم»** [٦].

---

(١) الإسلام والحضارة العربية، تأليف: محمد كرد علي (٢/ ٩٦). وانظر الخبر في ترجمة عبد الله بن رواحة، سير أعلام النبلاء (١/ ٢٣٧).

(٢) ابن المغيرة القرشي المخزومي، أبو سليمان، سيف الله وفارس الإسلام، هاجر مسلماً سنة ثمان، وشهد مؤتة، وتأمَّرَ على الجيش بعد موت قوَّاده الثلاثة، وشهد الفتح وحُنَيْناً، واحتبس أدراعه ولأْمَتَهُ في سبيل الله، وحارب أهل الرِّدَّة، وغزا العراق. وعاش ستين سنة، وقتل جماعة من الأبطال، ومات على فراشه سنة ٢١ هـ، فلا قرَّت أعين الجبناء. انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦٦).

(٣) رواه البخاري عن أنس بلفظ مقارب. انظر: الفتح (٧/ ١٠٠)، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب خالد بن الوليد. وانظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٣٦٦).

(٤) أخرجه البخاري عن ابن عمر في المغازي، باب بَعْثُ النَّبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جُذَيْمَة (٨/ ٥٦)، ح (٤٣٣٩)، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٢٢١).

(٥) هو: جُندب بن جُنَادَة، الصحابي الزاهد المشهور، كان ممن تخلَّف عن الجيش في غزوة تبوك ثم لحق بهم، كانت وفاته بالرَّبذةِ سنة (٣١ هـ، أو ٣٢ هـ) ﷺ. انظر: الإصابة (٧/ ٦٠).

(٦) رواه مسلم عن أبي ذر. انظر: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة، ح (١٨٢٦).

نهى أبا ذر عن الإمارة والولاية ؛ لأنه رآه ضعيفاً ، مع أنه قد رُويَ: «**ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر**» [(١)].

كان يمنع الرشوة ، ويعدّها غلولاً وسُحْتاً ويحاسب عليها ؛ لِمَا يترتّب عليها من المفاسد في حق الرعاة والرعية ، كتعطيل الحدود ومنع الحقوق .

وهذا هو الموافق للعقل والشرع ، وبه تتحقق مصلحة الأمة ، وترك ذلك «من أكبر الأسباب التي هي فساد أهل البوادي والقرى والأمصار . . وأهل الحاضرة ، من رؤساء الناس وأعيانهم وفقرائهم ، وأمراء الناس ومقدميهم وجندهم ، وهو سبب سقوط حرمة المتولّي ، وسقوط قدْره من القلوب ، وانحلال أمره ، فإذا ارتشى على تعطيل حدٍّ ضعفت نفسه أن يقيم حدّاً آخر . . وإذا فعل ولي الأمر ذلك ، فقد جمع فسادين عظيمين:

أحدهما: تعطيل الحدّ . والثاني: أكل السّحت . فتَرَكَ الواجب وفعل المحرَّم» [(٢)].

ولَمَّا فتح النبي ﷺ مكة ، وتسلَّم مفاتيح الكعبة من بني شيبة ، وطلبها منه علي بن أبي طالب ، أو العباس [(٣)] ، وقال: يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك . فقال رسول الله ﷺ: «**أين عثمان بن طلحة؟**» [(٤)] ، فدعي له ، فقال له: «**هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبرّ**» [(٥)] . . . أرادوا أن يجمع لهم بين سقاية الحاج وسدانة البيت ، وكانوا من أقرب الناس إليه ؛ عمه وابن عمه ، فأبى عليهم ذلك ، وردَّه إلى بني شيبة!

وكان من خطبته أيام التشريق: «**ألا لا تظالموا ـ ثلاثاً ـ ألا إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، ألا إن كل دم ومال ومأثرة كانت في أيام الجاهلية تحت قدمي هذه، ألا**

---

(١) السياسة الشرعية ، ص١٧ . والحديث رواه الترمذي في المناقب ، ح (٣٨٠٢) عن أبي ذر ، وقال: «حسن غريب» . وحسّنهُ الأرناؤوط في «جامع الأصول» (٩/ ٥٠) .

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعيَّة ، لابن تيمية (٦٩ ، ٧٠) بتصرف .

(٣) هو: العباس بن عبد المطلب ، عم رسول الله ﷺ ، قيل: أسلم قبل الهجرة ، وكتم إسلامه ، وقيل: خرج مع قومه إلى بدر فأُسِرَ يومئذٍ فادَّعى أنّه مسلم ، فالله أعلم . وكان مع النبي ﷺ ليلة العقبة يأخذ له من الأنصار قبل أن يسلم ، وليس هو في عداد الطلقاء ، فإنّه كان قد قَدِمَ على النبي ﷺ قبل الفتح ، وقَدِمَ الشام مع عمر ، وكان يمنع الجار ويبذل المال ويعطي في النوائب . توفي سنة (٣٢هـ) ، وقيل: غير ذلك . انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٧٨) ، والإصابة (٤/ ٣٠) .

(٤) ابن أبي طلحة ، واسمه: عبد الله بن عبد العزى بن عبد الدّار ، حاجب البيت ، قُتِلَ أبوه طلحة وعمه عثمان بأُحُدٍ ، ثم أسلم عثمان في هدنة الحديبية ، وهاجر ، وشهد الفتح . وسكن المدينة إلى أن مات بها سنة (٤٢هـ) . انظر: الإصابة (٤/ ٢٢١) .

(٥) طرف من حديث ذكره ابن إسحاق في السيرة . ونقله عنه ابن كثير (١/ ٥١٥) عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وذكر في معناه آثاراً أُخَر عن ابن جرير (٥/ ١٤٥)، وليس في شيء من الكتب الستة ، ولم أقف على كلام في إسناده لأحد من أهل الشأن ، فالله أعلم .

وإن أول دم وُضِعَ دم ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب، كان مسترضعاً في بني ليث، فقتلته هذيل، ألا وإن كل ربا في الجاهلة موضوع، ألا وإن الله تعالى قضى أن أول ربا يوضع ربا عمي العباس» ، فبدأ بنفسه وعشيرته ، في أمرين ، قلَّما تذعن لهما النفوس بادي بدءٍ ؛ أمر الدماء وأمر الأموال ، وهما مظنة الأثرة والاختصاص ، واستغلال النفوذ .

لم يصانع رسول الله ﷺ قرابته ، ولم يجعل لهم خصوصيات ليست لسائر أفراد الأمة ، لا في المناصب ولا في غيرها ؛ لأنَّ مصلحة الملَّة والأمة مقدمة على ما سواهما ، ولأنَّ مصلحة الخاصة أيضاً إنّما تدوم وتبقى إذا قاموا بمصلحة العامة ، وعدلوا فيهم!

جاء في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها: أَنَّ قُرَيْشًا ، أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَخْزُومِيَّةِ ، التي سرقت في غزوة الفتح ، فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَأُتِيَ بها رسول الله ﷺ ، فكَلَّمَهُ فيها أُسَامَةُ بن زيد ، فتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّه؟» . فَقَالَ لَهُ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ؟ فاختطب ، فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قَالَ: « أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذينَ من قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِم الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْه الْحَدَّ، وإِنِّي وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّد بيده، لَوْ أَنَّ فاطمَةَ بِنْتَ مُحَمَّد سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا» . ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ ، فَقُطِعَتْ يَدُهَا ، فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَتَزَوَّجَتْ [(١)] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «في هذه القصة عبرة ، فإنَّ أشرف بيت كان في قريش بطنان: بنو مخزوم وبنو عبد المطلب وبنو عبد مناف . فلما وجب على هذه القطع بسرقتها ، وكانت من أكبر القبائل وأشرف البيوت ، وشفع فيها حِبّ رسول الله ﷺ أسامة بن زيد ، غضب رسول الله ﷺ ، فأنكر عليه دخوله فيما حرَّم الله عليه ، وهو الشفاعة في الحدود ، ثم ضرب المثل بسيدة نساء العالمين ، وقد برَّأها الله من ذلك ، فقال: «لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّد سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا» [(٢)] ؛ وذلك «لأنَّ المعاصي ـ ومن أعظمها تعطيل الحدود ، أن ترك العدل في إقامتها ـ سببٌ لنقص الرزق والخوف من العدو ، كما يدلُّ عليه الكتاب والسُّنة ، فإذا أُقيمت الحدود ظهرت طاعة الله ، ونقصت معصية الله تعالى ، فحصل الرزق والنصر» [(٣)] .

---

(١) متفق عليه ، واللفظ لمسلم . انظر: فتح الباري (٧/ ٨٧) ، ح (٣٧٣٣) . وانظر: صحيح مسلم في الحدود ، ح (١٦٨٨) .
(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعيّة ، لابن تيمية ، ص٦٥ .
(٣) السابق ، ص٨٦ بتصرف .

وفي صحيح مسلم، عن بريدة بن الحصيب [(١)] ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أو في حاجة نفسه أوصاهم بتقوى الله تعالى وبمن معه من المسلمين خيراً، ثم يقول: « . . . **اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً**» [(٢)].

ما كان النبي ﷺ يبدأ أحداً بظلم، ولا يغدر، ولا يسبق بغدر، بل كان أعداؤه من المشركين واليهود وغيرهم، هم الذين يبدؤون المسلمين بالظلم ويبيِّتُونَ لهم الغدر.

وما كانت غزوات الرسول ﷺ وسراياه، إلا عن دواعٍ اضطرته إلى حرب المشركين؛ فسبب وقعة الخندق: أنَّ قريشاً كانت تبعث إلى اليهود وسائر القبائل، يحرِّضُونهم على قتال الرسول ﷺ. والسبب في غزوة حنين ـ وتسمى غزوة هوازن ـ: ما بلغ الرسول ﷺ، بعد أن فتح مكة وأسلم عامة أهلها، أنَّ هوازن وثقيف جمعت فيها جمعاً كثيراً، وقصدوا محاربة المسلمين. ودعا إلى غزوة دومة الجندل: ما بلغه من أن جمعاً كثيراً يظلمون من مرَّ بهم، ويريدون أن يدنوا من المدينة. وسبب غزوة المُريسيع ـ وهي غزوة بني المصطلق ـ: ما بلغه من أن فيها جمعاً يريد حرب الرسول ﷺ بقيادة الحارث بن أبي ضرار. وسبب غزوة الغابة: أنَّ جماعة استاقوا غنمه، وقتلوا ابن أبي ذر. وسرية ماء الرجيع: بعث الرسول ستة من أصحابه، فغدر بهم أهل ماء الرجيع، فكان ذلك سبب غزوة بني لحيان» [(٣)].

هذا، فضلاً عن الغزوات المشهورات، كبدر وأُحُد وخيبر والفتح. وأسبابها معروفة مشهورة.

وفضلاً عما استفاض من أسباب إجلاء من أُجليَ من يهود، وقتل من قتل منهم، أن سبب ذلك هو ما تتابع من غدرهم، وما ثبت من تحالفهم مع المشركين والمنافقين، وأنَّ جلاءهم لم يكن بسبب كفرهم، لو التزموا ما عاهدوا النبي ﷺ والمؤمنين عليه [(٤)].

---

(١) ابن عبد الله الأسلمي، أبو عبد الله، قيل: أسلم عام الهجرة، وشهد خيبر والفتح، وكان معه اللواء، واستعمله النبي ﷺ على صدقة قومه، نزل مرو ونشر العلم بها، وغزا خُرَاسان زمن عثمان. توفي سنة (٦٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٦٩).

(٢) انظر: صحيح مسلم، في الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، جزء من حديث رقم (١٧٣١).

(٣) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ٣٣٩، ٣٤٠)، وفيه ذكر أسباب كثير من الغزوات والسرايا، وكلها من قبيل ما ذكرت.

(٤) انظر: الإسلام والحضارة العربية (٢/ ٣٤٧)، والمجتمع المدني في عهد النبوة، للدكتور/ أكرم ضياء العمري، ص١٣٧، وما بعدها.

وكثير من غزواته وسراياه كان الداعي إليها، أنه دعا قوماً إلى الإسلام فشاكسوه وقاوموه، وامتهنوا ما دعاهم إليه»[١]. أو تهددوا المدينة، يريدون غزوها، أو قطعوا الطريق، وأخافوا السبيل، أو اعتدوا على أحد من المسلمين، أو أهل ذمتهم في أطراف المملكة الإسلامية، أو نحواً من هذه الأسباب؛ ذلك أنّه «من المتعذّر أن يُحْمَى حمى الدين بغير حماية القائمين به، ولا يأمن المضعوف شرّ القوي إلا إذا قوي مثله، ولن تكون الحجاز بمأمنٍ من جيوش الروم وفارس، إذا لم تكن العرب ذات سطوة يخشى بأسها»[٢].

وكيف يغدر أو يظلم أو يمثل وهو الذي قال ما قال في النهي عن ذلك، بأبي هو وأمي ﷺ؟

قال عمران بن حصين[٣] ـ رضي الله عنهما: ما خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلا أمرنا بالصدقة، ونهانا عن الْمُثْلَة[٤].

وبعد، فإنَّ رغبتي أن أُحَدّثك عن صور كثيرة من صور رعاية السُّنن، وأكشف لك عن آثار ذلك كله.. فأحدثك عن روح الأخوة التي أظلَّت المجتمع المسلم، يوم أن أصبحت آصرة العقيدة هي أساس الارتباط بين الناس. فهذا قرشي وذاك خزرجي، وذلك أَوْسِيّ، ورابع حبشي، وخامس... و... كيف أصبحوا بنعمة الله إخوة متحابين، بلغت بهم الأخوة درجة اقتسام الأموال والبيوت والأرزاق، والتضحية بعلائق النسب فما دونها، إذا عارضت أخوة الإيمان.

وما قصة المؤاخاة الشهيرة بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، وقصة مصعب بن عمير[٥] ﷺ مع أخيه أبي عزيز[٦] ـ وكان صاحب لواء المشركين ببدر، بعد النضر بن

---

(١) الإسلام والحضارة العربية، نفس الجزء والصفحة.

(٢) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ٣٤٨).

(٣) ابن عبيد الخزاعي، يُكنّى أبا نُجَيْد، أسلمَ عام خيبر، وغزا عدة غزوات، وكان صاحب راية خزاعة، يوم الفتح، مات سنة (٥٢هـ)، وقيل: (٥٣هـ). انظر: الإصابة (٥/ ٢٦).

(٤) السياسة الشرعية لابن تيمية، ص٨٢. والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤٢٩، ٤٣٦)، عن عمران بن حُصَيْن. وقال الْبَنّا في (الفتح الربّاني ١٤/ ٦٦): «وسنده لا بأس به». قُلْتُ: ويشهد له ما جاء في البخاري عن قتادة أنّه قال ـ بعد أن ساق خبر القوم من عكل وعرينة، وهم الذين كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا الذود، وأنَّ النبي ﷺ أمر بهم فسُمِلَت أعينهم وقطعت أيديهم، وتُركوا في ناحية الحرَّة حتى ماتوا ـ قال قتادة: «بلغنا أنَّ النبي ﷺ بعد ذلك كان يحث على الصدقة، وينهى عن الْمُثْلة». انَظر: الفتح (٧/ ٤٥٨).

(٥) ابن هاشم بن عبد مناف، السيد الشهيد السابق البدري، أول من قَدِمَ المدينة من المهاجرين، كان أترف فتى بمكة، فصبر على شظف العيش، وقاتل دون رسول الله ﷺ يوم أُحُد حتى قُتِلَ، قَتَلَهُ ابنُ قَمِئَة اللّيثيّ، يظنه رسولَ الله ﷺ، ولم يجدوا ما يكفّنُونَهُ به إلاّ ثَوْباً واحداً، إنْ غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجليه بدا رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «غَطُّوا رأسَهُ واجْعَلُوا علَى رِجْلَيْهِ الإذْخر» [متفق عليه]. انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ١٤٥).

(٦) ابن عمير بن هاشم العبدري، له صَحبة وسماع من النبي ﷺ، أُسِرَ يوم بدر مع من أُسِرَ من المشركين، وقيل: قُتِلَ يوم أُحُد كافرا، والأولُ أظهرُ. انظر: الإصابة (٧/ ١٣٠).

الحارث، وأسره أبو اليسر [١] يوم بدر، وقصة عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول [٢] ﷺ مع أبيه، وكان رأس النفاق، في غزوة بني المصطلق، وقصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك. وما حصل لهم من الهَجر خمسين يوماً، حتى أنزل الله توبتهم، رضي الله عنهم... ما قصص هؤلاء وغيرهم في الأخوة بخافية [٣].

وأتحدث إليك عن حياة الطهر والعفاف والأمن، في مجتمع كان قوام حياته قبل إسلام أفراده احتساء الخمر والتغني بها، وممارسة الرذيلة والمباهاة بفعلها، في مجتمع يرى السَّلْب والنَّهْب والإغارة عنوان فروسيته ودليل نخوته. فأصبحت تسمع لأول مرة في تاريخ الدنيا آنذاك: أن رجلاً يقارف الزنا، فيأتي مختاراً يقول: يا رسول الله، طَهِّرْنِي. وامرأة تفعل مثل ذلك فتقول: طهرني يا رسول الله! وتجد من يسأل متحرجاً: «يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلني، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، أفاقتله يا رسول الله بعد أن قالها [٤]؟ تفسير جديد للحياة، وقيم جديدة للعيش، تحترم النفوس والعقول والأعراض لا عهد للدنيا بها.

إنَّ هذه المشاهد والمواقف، لتؤكد لنا أن رعاية حدود الله، وحمل الأمة على الإذعان لها، قد كلف رسول الله ﷺ الكثير الكثير، ولكن نتائجها الملموسة كانت أكبر وأعظم.

لقد كان رسول الله ﷺ يواجه من الأمة المسلمة ألواناً من التساؤلات، بل الاعتراضات أحياناً، كلما أراد أن يحملهم على أمرٍ كبير، كإقامة الحدود مثلاً، وترك دعوى الجاهلية ونخوتها، أو يدرّبهم على غيرِ ما ألفوا، كإقرار مبدأ المساواة، والتمرّن على البذل في سبيل الله. ولكن سنوات عشراً مع ما سبقها من إعداد إيماني، بأحداثها وملابساتها، كانت كفيلة بتهذيب تلك الطلائع، وتحويلها من شتات متناحر إلى قوة ضاربة وأمة متوثّبة، حصدت في سنوات معدودة انتصارات متوالية، أرغمت من نأى منها ومن دنا أن يحسب لها ألف حساب!

---

(١) أبو اليسر، كعب بن عمرو الأنصاري، السلمي، المدني، البدري، العقبي، الذي أَسَرَ العباس يوم بدر، وهو الذي انتزع راية المشركين يوم بدر، شهد العقبة وله عشرون سنة، وشهد صفّين مع علي بن أبي طالب. وتوفي سنة (٥٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٣٧).

(٢) ابن مالك بن الحارث، أنصاري خزرجي، أبوه رأس النفاق، وهو من سادة الصحابة، وكان اسمه «الْحُبَاب»، وبه كان يُكنَى، فَغَيَّرَهُ النبي ﷺ. انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢١).

(٣) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوّة (نظام المؤاخاة في عهد النبوّة)، ٧١ وما بعدها.

(٤) رواه مسلم من حديث المقداد بن الأسود ﷺ. انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، ح (٩٥).

قال ابن إسحاق: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.

قال ابن هشام [(١)]: حدَّثني أبو عبيدة [(٢)]: أنَّ ذلك في سنة تسع، وأنها كانت عام الوفود.

قال ابن إسحاق: وإنَّما كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، وأمر رسول الله ﷺ.. وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخِلافه، فلما فُتِحَت مكة، ودانت له قريش ودوّخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، دخلوا في دين الله، كما قال عز وجل: ﴿أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢]. يضربون إليه من كل وجه [(٣)].

«والقبائل تنزل على حكم الرسول ﷺ وأصحابه، والوفود تفد عليه من أقطار بلاد العرب، يدخل أهلها في طاعته، وتتخلى عن الشرك وتدين بالتوحيد، وتؤدي الصدقات والأموال، ومنهم من ينضم إلى جيشه، ومنهم من يبقى في أرضه، وأهل الكتاب يؤدون الْجُزى والعشور، ويسالمون الرسول، لا يرجون غير رضاه» [(٤)].

أقول: لقد كان يهنأني أن أسترسلَ في الحديث عن هاتيك المعاني الضخمة التي تنطوي عليها سيرة رسول الله ﷺ، ويتسم بها مجتمع الإسلام في المدينة.. ولكني مضطرٌ إلى ليِّ عنق الحديث، وأن أيمم وجهي شطر المساحة الشاسعة من تاريخ صدر الأمة، لأقف بك على ثمرات هذه التربية الدءوب على مستوى العالم، بعد أن دانت جزيرة العرب بهذا الدين وتمثله أبناؤها أحسن تمثل وأتمّه.

لقد تعلَّم الصحابة في عهد النبوة كل ما يحتاج إليه الفرد وتحتاج إليه الأمة، ولم يقبض رسول الله ﷺ حتى أنزل الله عليه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وقيل لسلمان الفارسي ﷺ: قد علمكم نبيكم كل شيء، حتى الْخِراءة. قال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول،

(١) هو: عبد الملك بن هشام بن أيوب الذُّهْلِيّ، العلاَّمة النحويّ الإخباريّ. هَذَّبَ السيرة النبويَّة، وسمعها من زياد البكائي صاحب ابن إسحاق، كان إمام مصر بالعربية والشعر. توفي سنة (٢١٨هـ) كما جزم به الذهبي. انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٢٨).

(٢) معمر بن الْمُثنى التَّيمي بالولاء، من أئمة اللغة والأدب، كان إباضياً شعوبياً من حفاظ الحديث، قال ابن قُتَيْبَة: «كان يبغض العرب، وصنَّف في مثالبهم، ولَمَّا مات بالبصرة سنة (٢٠٩هـ) لم يحضر جنازته أحَد، لِشِدَّةِ نقده معاصريه». انظر: طبقات الزبيدي، ص١٧٥، وبُغية الوعاة (٢/ ٢٩٤).

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام (٤/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٤) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ٣٤٣).

أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم [(١)].

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ومرة أخرى، ماذا آخذ وماذا أدع من الأمثلة؟ ولكن سأحاول الاختصار غير المُخِلّ وتخيُّر الشواهد الكاشفة لآثار رعاية السنن في الجوانب ذات الأهمية لعموم الأمة، خصوصاً في محنة المسلمين المعاصرة. وستقرأ في الصفحات التالية نماذج من العدل باهرة، وأمثلة من الإحسان رائعة، وشواهد على سمو الأهداف ونُبل المقاصد، ومواقف كأنها الأساطير.. شاهدة بأنّ هذه الأمة كانت ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولن أعلّق عليها بشيء؛ لأنّ المعرفة لا تعرّف، كما قيل!

لَمَّا بايعَ الناس أبا بكر الصديق، بعد بيعة السقيفة، خطب فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: «أيها الناس، إني قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوّموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقويّ فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يَدَع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم» [(٢)].

ولما وَلِيَ عمر بن الخطاب الخلافة، كان مما قال في خطبته: «فوالله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيّب عني فآلو فيه عن الجزاء والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساءوا لأنكلنّ بهم. وقال: اللهم إني شديد فليّنّي، وإنّي ضعيفٌ فقوّني، وإنّي بَخِيلٌ فَسَخِّنِي» [(٣)].

وكأن بعض المسلمين تخوّف من أن يشتد عليهم عمر في ولايته، فخطب فيهم، فكان مما قاله: اعلموا أنّ تلك الشدّة قد أضعفت [(٤)]، ولكنها إنّما تكون على أهل الظلم

(١) رواه مسلم عن سلمان ﷺ. انظر: صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الاستطابة، ح (٢٦٢).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٦/ ٣٠١).
(٣) كنز العمال، لعلاء الدين البرهان فوري (٥/ ٦٨٤)، ح (١٤١٨٧). والإسلام والحضارة العربية (٢/ ٣٦٥).
(٤) أي: تضاعفت وزادت.

والتعدّي على المسلمين، فأمّا أهل السلامة والدِّين والقصد، فأنا أَلْيَنُ لهم من بعضهم لبعض، ولستُ أَدَعُ أحداً يظلم أحداً، أو يعتدي عليه، حتى أضع خده على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر، حتى يذعن بالحق. وإني بعد شدَّتِي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف والكف منكم والتسليم[(١)].

وكتب عثمان بن عفان إلى الناس بالأمصار: «أن ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، ولا يُذِلّ المؤمن نفسه، فإنِّي مع الضعيف على القويّ ما دام مظلوماً إن شاء الله»[(٢)].

هذا واسطة عقد آثار رعاية السُّنن، وجِمَاعها، وهو مشتمل على أبواب من الخير، سيظهر لك طرف منها.

واسطة العقد أن تأتي الولاية ـ أيا كانت ـ إلى أحدهم لكفاءته، ولا يتطلبها رغبةً فيها.. تَمَشى إليه ولا يمشي إليها، يدفعها عن نفسه بالراحتين واليد.

يفعل ذلك؛ لأنّه لا أرَب له في مطامعها، ويعلم ضخامة تكاليفها، فما الذي يغريه منها؟.

قال أبو بكر، بعد أن بايعه مَنْ كان تأخّر عن البيعة من الصحابة، كعليّ والزبير[(٣)] رضي الله عنهم؛ قال: «والله ما كنتُ حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلةً، ولا سألتها الله في سرّ ولا علانية...» فقبل المهاجرون مقالته[(٤)].

ولَمَّا طُعِنَ عمر بن الخطاب، قيل له: لو استخلفتَ، فلما لم يقع اختياره على أحد، قال له رجل: أدُلّك على عبد الله بن عمر[(٥)]. فقال: «قاتلكَ الله، والله ما أردتَ بهذا خيراً، ويحك! كيف أستخلفُ رجلاً عجز عن طلاق امرأته؟ لا أرَب لنا في أموركم، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي»[(٦)].

---

(١) كنز العمال (٥/ ٦٨١ ـ ٦٨٣)، ح (١٤١٨٤). وعظماؤنا في التاريخ، ص١٣٧، ١٣٨.

(٢) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٣٩)، يُرْجَعُ إلى المصادر الأصلية.

(٣) هو: الزُّبَير بن العوَّام بن خُوَيْلِد، أبو عبد الله، حواري رسول الله ﷺ وابن عمته صفيَّة، أسلم وهو حَدَثٌ، وأُبْلِيَ في الإسلام، وكان صَلْباً في دِينِه، أُوذِيَ فيه فصبر، وكان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستَّة أهل الشورى، وأول من سلَّ سيفه في سبيل الله، قُتِلَ ﷺ في صف معاوية يوم الجمل سنة (٣٦هـ)، قتله ابن جرموز. انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٤١).

(٤) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٢).

(٥) عبد الله بن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، القرشي، العدوي، الإمام القدوة، أبو عبد الرحمن. أسلم وهو صغير، وهاجر مع أبيه وهو لم يحتلم، أول غزواته الخندق، من المُكْثِرِينَ في الحديث والفُتْيا. انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٠٣).

(٦) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ٣٧٠).

حتى إذا ما قلّدها وتحمّلها، لم يكن شيء أحب إليه من أن يقوم بالحق والعدل فيها، ويحكم بالقسط، ويحسن إلى الناس، ويرعى الحقوق؛ لأنه يرى أن ذلك هو مسوغ وجوده. يُدني من كان أمثل في الحق، ولا يدنو منه إلا من كان كذلك. يختار الأصلح؛ لأنها أمانة. ويحاسب عماله حساباً دقيقاً؛ لأنَّ بيته ليس من زجاج (١)!

إنَّ الوالي في صدر هذه الأمة، كان فرداً ممتازاً، قبل أن يكون والياً، وكان شجاعاً قبل أن يكون قائداً، وكان أميناً قبل أن يكون جابياً أو خازناً؛ لأنه كان مؤمناً بالله قبل أي شيء آخر.

إنَّ موقف الوالي من منصبه، ونظرته إلى مسئوليته الجديدة ـ مهما كان مسمَّاه ـ هي ـ باستقراء الأحوال ـ حجر الزاوية في تفسير كثير مما يجري في مملكته (٢).

فهو «كالسوق، ما نفق فيه جُلِبَ إليه؛ هكذا قال عمر بن عبد العزيز ﷺ؛ فإن نفق فيه الصدق والبر والعدل والأمانة، جُلِبَ إليه ذلك، وإن نفق فيه الكذب والفجور والجور والخيانة، جُلِبَ إليه»(٣).

«حُمِلَ مَرَّةً إلى عمر بن الخطاب ﷺ مال عظيم من الْخُمُسِ، فقال: إنَّ قوماً أدّوا الأمانة في هذا لأُمَنَاء. فقال له بعض الحاضرين: إنَّك أدَّيْتَ الأمانة إلى الله تعالى فأدّوا إليك الأمانة، ولو رَتَعْتَ لَرَتَعوا»(٤).

فمن أنزل نفسه من ولايته منزلة الراعي الأجير، والوالي على مال اليتيم، والشريك الوكيل، فقد عرف قدره وأحرز نفسه، ومن كان بخلاف ذلك، حصل عليه وعلى الأمة من النقص والبلاء بسببه، بقدر ما فرَّط في ذلك.

قال أبو مسلم الْخَوْلاني(٥) لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ: إنَّما أنتَ أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها، فإنْ أنتَ هنأت جرباها، وداويت مرضاها، وحبست أولاها على

---

(١) وكان الخلفاء الراشدون، وعدد من خلفاء بني أميّة وبني العباس، ممن اشتهروا بالدِّيانة والفطنة يفعلون ذلك، وأشهر من اشتهر بمحاسبة العمال والولاة على الأقاليم ـ فيما وقفت عليه ـ عمر بن الخطاب ﷺ، وعمر بن عبد العزيز، رحمه الله.

(٢) انظر مثلاً: رسالة مختصرة بعنوان: «مشاكلة الناس لزمانهم»، للمؤرخ/ أحمد بن إسحاق اليعقوبي.

(٣) السياسة الشرعية، ص٣١.

(٤) السياسة الشرعية، ص٣١. ومعنى رَتَعْتَ: أكَلْتَ ما شِئْتَ.

(٥) الدَّارانيّ، سيد التابعين، وزاهد العصر، اخْتُلِفَ في اسمه، وصحَّح الذهبي أنَّ اسمه: عبد الله بن ثُوَب. قَدِمَ من اليمن وأسلم في عهد النبي ﷺ، ودخل المدينة في خلافة الصديق. وكانت وفاته ـ فيما قيل ـ سنة (٦٢هـ) غازياً بأرض الروم. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٧).

أُخراها[١] . وفَّاك سيدها أجرك ، وإن أنت لم تهنا جرباها ، ولم تداوِ مرضاها ، ولم تحبس أولاها على أُخراها ، عاقبك سيدها[٢] .

وقال رجل لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين ، لو وسَّعت على نفسك في النفقة من مال الله تعالى . فقال له عمر: أتدري ما مثلي ومثل هؤلاء؟ كمثل قوم كانوا في سفر فجمعوا منهم مالاً ، وسلَّموه إلى واحدٍ ينفقه عليهم ، فهل يحلّ لذلك الرجل أن يستأثر عنهم من أموالهم[٣]؟

ولقد كان عامة ولاة الدولة الإسلامية في صدر الإسلام من ذاك الطراز ، على تفاوت بينهم .

جاء في كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري[٤] ـ رضي الله عنهما ـ في القضاء ، أن «آس بين الناس في خلقك وعدلك ووجهك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك» .

وكان إذا استعمل العمال قال لهم: «إنّي لم أستعملكم على أمة محمد ﷺ ، على أشعارهم ولا على أبشارهم ، وإنّما استعملتكم عليهم لتقيموا فيهم الصلاة ، وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل[٥] . ألا لا تجلدوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم[٦] . ولا تغفلوا عنهم فتحرموهم ، ولا تمنعوهم فتظلموهم»[٧] .

وكان يشترط عليهم ألا يشغلوا مناصبهم في فائدة خاصة ، أو مصلحة لهم أو لأهل بيوتهم ، وألاَّ يغلقوا أبوابهم دون ذوي الحاجات . ويكتب بذلك كتاباً للوالي ، ويُشهِد عليه عدداً من الصحابة[٨] .

---

(١) يعني: حافظت على كل واحدة منها ، بحيث تكون جميعها موضع رعايتك وعنايتك .
(٢) السياسة الشرعية ، ص١٢ ، بتصرف .
(٣) السياسة الشرعية ، ص٣١ .
(٤) عبد الله بن قيس ، أسلم وهاجر إلى الحبشة ، وقَدِمَ المدينة بعد فتح خيبر ، واستعمله عمر بن الخطاب في عدّة ولايات ، وكان أحد الحكمين بصِفِّينَ ، ثم اعتزَل الفريقين ، وكان حسن الصوت . مات سنة (٤٢هـ) ، وقيل: غير ذلك . انظر: الإصابة (١١٩/٤) .
(٥) واصل الخبر في مسلم ، ومحل الشاهد منه قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ إني أُشهِدُك عَلى أمراء الأمصار ، وإنّي إنّما بعثتهم عليهم ليعدلوا عليهم وليعلموا الناس دينهم وسُنّة نبيهم ﷺ ، ويقسموا فيهم فَيْئَهُم ، ويرفعوا إليَّ ما أشْكِلَ عليهم من امرهم» . انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٥١/٥) .
(٦) أي: لا تطيلوا أمد إقامتهم في الحرب بعيدين عن أهلهم ونسائهم فتفتنوهم وتقطعوا نسلهم . انظر: عظماؤنا في التاريخ ، للدكتور/ مصطفى السباعي ، ص١٤٠ .
(٧) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (١٤٣/١) ، عن تاريخ الطبري: باب مناقب عمر ، بعد خبر مقتله . وانظر: كنز العمال (٦٨٨/٥) ، ح (١٤١٩٧) ، وعظماؤنا في التاريخ ، ص١٤٠ .
(٨) انظر: كنز العمال (٦٩١/٥) ، ح (١٤٢٠٢) .

حَدَّ ابنَهُ عبد الرحمن في الخمر، وعاقب ابن عمرو بن العاص عامل مصر؛ لأنَّ أحد قِبطها استعداه عليه وشكاه إليه، وقال كلمته العظيمة: «يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!»[١].

وأراد أن يحدّ جبلة بن الأيهم، من ملوك غسان[٢]؛ لأنَّ رجلاً فزارياً في الحج وطئ على إزاره، فلطمه جبلة فهشم أنفه، وشكاه الفزاري، فأراد عمر جبلة أن يفتدي نفسه أو يأمر الرجل بلطمه، فقال جبلة: كيف ذلك، وأنا ملك وهو سوقة؟ فقال: إنَّ الإسلامَ جمعكما، وسوّى بين الملك والسّوقة في الحدّ، ففرّ جبلة والتحقَ بالروم[٣].

أقولُ: فَرَّ جبلة من عدل عمر إلى الروم، ولكن دخلت أقطار وممالك بأسرها في الإسلام، ببركة عدل عمر وبسببه. فما أربح الصفقة!

«ولما بُويعَ عمر بن عبد العزيز، شرع لأول مرة، بصرف عمال من كان قبله من بني أمية، واستعمل أصلح من قدر عليه، فسلك عماله طريقته، وأخذ يرد المظالم؛ مظلمة مظلمة، لا يدع شيئاً مما كان في أيدي أهل بيته إلا ردَّه. وكتب إلى جميع عماله، أنَّ الناسَ قد أصابهم بلاء وشدَّة وجور في أحكام الله، وسُنن سيئة سنتها عليهم علماء السوء، قلَّما قصدوا الحقّ والرفق والإحسان»[٤].

وساوم عمر بن الخطاب رجلاً على فرس ليشتريه، فركبه عمر ليشوره[٥]. فعطب، فقال للرجل: خذ فرسك. فقال الرجل: لا، قال: أجعل بيني وبينك حكماً. قال الرجل: شُرَيح[٦]. فتحاكما إليه، فقال شُرَيح: يا أمير المؤمنين، خذ ما ابتعت، أو ردّ كما أخذت. فقال عمر: وهل القضاء إلا هكذا! سِرّ إلى الكوفة، فبعثه قاضياً عليها.

ورَدَّ عمر بن عبد العزيز على رجل أرضاً، كان قد ورثها من أبيه، وكان عبد الملك

(١) والقصة بطولها في التاريخ الإسلامي، القسم الثالث (الخلفاء الراشدون)، لمحمود شاكر، ص١٩١، ١٩٢.

(٢) من آل جفنة، آخر ملوك الغساسنة في بادية الشام، عاش في الجاهلية زمناً، وقاتل المسلمين في دومة الجندل وفي اليرموك، ثم أسلم وهاجر إلى المدينة، ثم ارتد ولحق بالروم ولم يزل بالقسطنطينية عند ملك الروم حتى مات سنة (٢٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٢)، والأعلام (٢/ ١١١).

(٣) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٣٦)، وانظر: التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (الخلفاء الراشدون)، ص١٩٢.

(٤) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٧٤)، وانظر: البداية والنهاية (٩/ ٢١٣).

(٥) أي: ليعرف مقدار عدوه ويختبر سرعته. انظر: مفردات الراغب، مادة (شور).

(٦) هو: الفقيه أبو أمية، شريح بن الحارث الكندي، قاضي الكوفة، يُقال: له صحبة، ولم يصح، بل هو ممن أسلم في حياة النبي ﷺ وانتقل من اليمن في حياة الصديق، مات ـ رحمه الله ـ سنة (٧٨هـ)، أو سنة (٨٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٠٠).

ابن مروان(١) قد أقطعها أباه، فقال عمر: إن لي فيها شركاء؛ إخوة وأخوات، لا يرضون أن أقضي فيها بغير قضاء قاض. فقام معه إلى القاضي، فقعد بين يديه، فتكلَّم عمر بحجته، وتكلَّم الرجل بحجته، فقضى القاضي بها للرجل، فقال عمر: إنَّ عبد العزيز(٢) قد أنفق عليها ألف درهم. قال القاضي: قد أكلتم من غلتها بقدر ذلك. فثلجت نفس عمر بحكم القاضي، وقال: وهل القضاء إلا هذا! تالله لو قضيت لي ما وليتَ لي عملاً، وخرج إلى الرجل من حقه(٣).

ورغب مولى لعمر بن الخطاب أن يكتب عمر كتاباً إلى عامله في العراق ليكرم أحد من قصدوا إليها، فانتهره عمر وسبَّه وقال: أتريد أن يظلم الناس، وهل هو إلا رجل من المسلمين، يسعه ما يسعهم؟!

وأوعز زياد(٤) إلى والي خُرَاسَان أن يصطفي لمعاوية(٥) الصفراء والبيضاء، فلا يقسم في الناس ذهباً ولا فضة، عملاً بكتاب ورد عليه من الخليفة. فكتب والي خُرَاسَان إلى زياد: بلغني ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين، وإني وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه ـ والله ـ لو أن السماء والأرض كانتا رتقاً على عبد، ثم اتقى الله، جعل له مخرجاً، والسلام. وقسم الفيء بين الناس من الذهب والفضة، ولم ينفذ ما أمر به الخليفة؛ لأنَّه رأى في ولايته ما لم يره الخليفة ولا عامله الأكبر زياد(٦).

وكان نور الدين زنكي(٧) ـ كوالده ـ ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك. ويقول:

---

(١) ابن الحكم بن أمية، أبو الوليد، الخليفة الفقيه، تملَّك بعد أبيه الشام ومصر، وحارب ابن الزبير، وكان الحجاج ساعده الأيمن في ذلك، كان قبل الخلافة عابداً ناسكاً، قال الأصمعيّ: «قيل لعبد الملك: عجل بك الشيب. قال: وكيف لا وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة». وقال الذهبي: «كان من رجال الدهر، ودُهَاة الرِّجال، وكان الحجاج من ذنوبه». توفي سنة (٨٦ هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٤٦).

(٢) هو: عبد العزيز بن مروان، والد عمر، كان والياً على مصر عشرين سنة وزيادة، وثّقه ابن سعد والنَّسَائِيّ، وله في سنن أبي داود حديث. مات سنة (٨٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٣٤، ١٧٥).

(٣) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٣٤، ١٧٥).

(٤) هو: زياد بن أبيه، سُمِّيَ بذلك؛ لاختلافهم في اسم أبيه، كان أميراً قائداً خطيباً من أهل الطائف. أدركَ النبيَّ ﷺ ولم يره، وأسْلَم في عهد أبي بكر، ألْحَقَهُ معاوية بنسبه سنة (٤٤هـ)، وكان عضده الأقوى، وولاه البصرة والكوفة وسائر العراق، فلم يزل في ولايته إلى أن تُوفيَ سنة (٥٣هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٩٤)، والأعلام (٣/ ٥٣).

(٥) هو: معاوية بن أبي سفيان بن حرب الأمويّ، كاتب الوحي، وخال المؤمنين، وليَ الشام مدة طويلة، ووقعت بينه وبين علي بن أبي طالب وأهل العراق حروب، وآلت إليه الخلافة بعد مقتل الحسين بن علي وتنازل الحسن سنة (٤١هـ)، وسُمِّيَ عام الجماعة؛ لاجتماعهم على إمام واحد. وتوفي سنة (٦٠هـ)، رضي الله عنهم أجمعين. انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ١١٩).

(٦) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٣٤، ١٥١).

(٧) نور الدين محمود بن زنكي، المُلَقَّبُ بالملك العادل، ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، كان أعدل ملوك زمانه وأجلّهم وأفضلهم، كان معنياً بمصالح رعيته، مداوماً للجهاد، يباشر القتال بنفسه، بنى مدارس كثيرة، منها: «العادلية»، و«دار الحديث»، كلتاهما في دمشق، وكان متواضعاً مهيباً مُكرماً للعلماء، كان يتمنَّى أن يموت شهيداً، وكان من المماليك. توفي ـ رحمه الله ـ سنة (٥٦٩هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٣١)، والأعلام (٧/ ١٧٠).

ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان؛ ظلموا الرعية، وغصبوهم أملاكهم!

وقال صلاح الدين[(١)] لأحد خاصته، وقد استعداه على جَمَّال: ما عسى أن أصنع لك، وللمسلمين قاضٍ يحكم بينهم، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنَّما أنا عبد الشرع وشحنته[(٢)] فالحق يقضي لك أو عليك[(٣)]!

وكتب عمر بن الخطاب إلى ولاته، يأمرهم أن يمنعوا المسلمين من ظلم أحد من أهل الذّمة، وأوصى بأهل الذّمة أن يُوفَّى لهم عهدهم، ولا يكلفون فوق طاقتهم. وكان إذا أسلم الذميّ سقطت عنه الجزية، وإذا ثبت أن عليه ديناً يستغرق ماله كله، يُعْفَى من العُشْر ومن الجزية[(٤)].

مرَّ عمر بسائلٍ؛ شيخ ضرير البصر، فضرب عضده من خلفِه، وقال: من أي أهل الكتاب أنتَ؟ قال: يهودي. قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن. فأخذه عمر بيده إلى منزله فأعطاه شيئاً من المال، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه، أكلنا شبيبته، ثم خذلناه عند الهرم[(٥)].

وخاصم حسان بن مالك[(٦)] عجم أهل دمشق إلى عمر بن العزيز في كنيسة كان رجل من الأمراء أقطعه إياها، فقال له عمر: «إن كانت من الخَمْس عشرة كنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لك عليها»[(٧)].

وكتب عامل عمر بن العزيز على مصر إلى عمر: «إنَّ أهل الذّمة قد أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية.. وطلب إليه أن يأمر بتوقيف الذميين عن انتحال الإسلام. فأجابه عمر: قد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً، فضع الجزية عمن أسلم، قبّح الله رأيك، فإنَّ الله إنّما بعث

---

(١) هو: صلاح الدين، يوسف بن أيوب الأيوبي، الكردي، الملقّب بـ «الملك الناصر»، الإمام المجاهد العادل، فاتح القدس، وهازم الصليبيين، وقاطع دابر الفاطميين بمصر. توفي سنة (٥٨٩هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٧٨)، والأعلام (٨/ ٢٢٠).

(٢) الشحنة: الشعبة من الشيء والفرع منه. انظر: القاموس المحيط، مادة (ش ج ن).

(٣) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ٢٨٨، ٢٩١).

(٤) انظر: كنز العمال (٥/ ٧٠٧) ح (١٤٢٢٤)، والإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٣٨)، وبهذه الوصايا كانت عامة الولاة تعامل أهل الذمّة. انظر: المصدر السابق (٢/ ١٥١، ١٧٩، ٢٢٩، ٢٣٠).

(٥) انظر: التاريخ الإسلامي، القسم الثالث (الخلفاء الراشدون)، لمحمود شاكر، ص١٩٦. وانظر: أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع، ص٣١٨.

(٦) ابن بحدل بن أنيف، أمير العرب، أبو سليمان الكلبي، من أمراء معاوية يوم صفّين، له قصر بدمشق، وهو قصر البحادلة، ثم صار يُعْرَفُ بـ «قصر ابن أبي الحديد». انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٧).

(٧) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٧٩)، وهناك أمثلة كثيرة من هذا القبيل. انظر: المصدر السابق (٢/ ١٣٨، ١٥١، ١٧٩).

محمداً هادياً، ولم يبعثه جابياً»[١].

وكتب إليه عامله على العراق عدي بن أرطاة[٢]: «إنَّ الناسَ قد كثروا في الإسلام حتى خفت أن يَقِلّ الخراج. فكتب إليه: والله لوددتُ أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا»[٣].

وكان عمر بن الخطاب يسأل القوم عن أميرهم: هل يعود المرضى؟ وهل يعود العبد؟ كيف صنيعه بالضعيف؟ وهل يُجْلَس على بابه؟ وكان يأمر عمَّاله بذلك[٤].

وقد أقام دور الضيافة، ورصد لها الأموال، واتخذ دار الدقيق، فجعل فيها الدقيق والسَّويق والتمر والزيت، وما يحتاج إليه؛ ليعين من ذلك المحتاج. ووضع فيما بين مكة والمدينة وفيما بين الشام والحجاز ما يصلح في الطريق من ينقطع به.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان[٥] صاحب الفتوح الواسعة من الهند إلى الأندلس خصصت أعطيات للمجذومين لمنعهم من الاحتكاك بالناس، قدر المستطاع، كما أعطى الْمُقْعَد خادماً، والضرير قائداً يأخذ بيده[٦].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «لئن سلّمني الله، لأدعنَّ أرامل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً».

وقال وهو يحدد سياسته في قَسْم الأموال: «والله لئن بقيت لهم ليأتينَّ الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه»[٧].

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أمصار الشام أن يرفعوا إليه كل أعمى في الديوان أو مقعد أو من به فالج، أو من به زَمَانة تَحُول بينه وبين القيام إلى الصلاة، فأمر لكل أعمى بقائد، ولكل اثنين من الزّمنى بخادم.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٧) بنحوه.

(٢) الفزاري الدمشقي، عامل عمر بن عبد العزيز على البصرة. قال عباد بن منصور: «خطبنا عدي على منبر المدائن حتى بكى وأبكى». وقال معمر: «كتب عمر إلى عدي بن أرطاة: إنك غررتني بعمامتك السوداء، ومجالستك القرّاء، وقد أظهرنا الله على كثير مما تكتمون، أما تمشون بين القبور؟». قَتَلَهُ معاوية بن يزيد بن الْمُهَلَّب سنة (١٠٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٣).

(٣) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٨٠).

(٤) انظر: كنز العمال (٥/ ٦٩٦)، ح (١٤٢٠٩).

(٥) أبو العباس الأموي، ولي الخلافة بعد أبيه، وكان مترفاً يتبختَرُ في مشيته، وكان قليل العلم، نهمته في البناء، ولكنه كان كثير الفتوح، وتوسعت مملكة الإسلام في عهده، وبنى جامع دمشق المعروف بـ «الجامع الأموي». وكانت وفاته سنة (٩٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٧).

(٦) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (١/ ١٤٦).

(٧) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٢٨، ١٣١).

وأمر أن يرفعوا إليه كل يتيم، ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسويَّة، وفرض للعوانس الفقيرات. وكان لا يفرض للمولود حتى يفطم، فنادى مناديه: لا تعجلوا أولادكم عن الفطام، فإنَّا نفرض لكل مولود في الإسلام.

واتخذ دار الطعام للمساكين والفقراء وابن السبيل.. وأنشأ الخانات في بلاده، يقري من مرَّ بها من المسلمين يوماً وليلة، ويتعهد دوابهم، ويقرون من كانت به علَّة يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به، يقوى بما يصل به إلى بلاده.. حتى لم يبق فقير في أيامه، في أكثر الأمصار؛ لكثرة ما وزَّع على الفقراء[1].

وبعث عاملاً على صدقات إفريقية فأراد أن يعطي منها الفقراء فالتمسهم في كل مكان، فلم يجد فيها فقيراً يقبل أن يأخذ صدقة بيت المال، فاشترى بها رقاباً وأعتقها، وجعل ولاءهم للمسلمين.

وما مات عمر حتى جعل الرجل يأتي بالمال العظيم، ويقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، لا يجد من يضعه فيهم؛ لكثرة ما أغنى الناس عمر[2]!

ولما تولَّى المهتدي[3] وقف على مظالم كان يعمل بها من قبله، فقال: معاذ الله أن ألزم الناس ظلماً تقدم العمل به.. أسقطوه عن الناس. فقال أحدهم: إن أسقط أمير المؤمنين هذا، ذهب من أموال السلطان في السنة اثنا عشر ألف ألف درهم. فقال المهتدي: أن أقرر حقاً وأزيل ظلماً، وإن أجحف بيت المال[4].

قال ابن حوقل[5]: «حدود المملكة الإسلامية هي: شرقيها أرض الهند، وغربيها مملكة السودان الذين يسكنون على المحيط الأطلسي، وشماليها بلاد الروم وما يتصل بها

---

(١) وانظر: الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (١/ ١٤٦) وما بعدها. وانظر: البداية والنهاية (٩/ ٢٠٠، ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٨٢، ١٨٨). وانظر خبره مع عامله على العراق في: أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع، ص١٣٨، وقد عزاها الكاتب لـ «كتاب الأموال لابن سلام»، ص ٢٥١، فهي أعجب مما ذكر.

(٣) محمد بن هارون، أحد خلفاء بني العباس. بُويعَ له بعد خلع المعتز سنة (٢٥٥هـ)، وكان فيه شجاعة، وكان حميد السيرة، يأخذ أخذ عمر بن عبد العزيز في الصَّلاح. توفي سنة (٢٥٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٣٥)، والأعلام (٧/ ١٢٨).

(٤) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ٢٤٤).

(٥) محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، رحَّالة من علماء البلدان، كان تاجراً، ويُقال: كان عيناً للفاطميين، له كتاب «المسالك والممالك». توفي سنة (٣٦٧هـ). انظر: الأعلام (٦/ ١١٠).

من الأرض والخزر البلغار والصقالبة والترك والصين، وجنوبيها بحر فارس. وكان المسلم يستطيع أن يرتحل داخل حدود هذه المملكة في ظل دينه، وتحت رايته، وفيها يجد الناس يعبدون الإله الواحد الذي يعبده، ويصلُّون كما يصلِّي، وكذلك يجد شريعة واحدة وعرفاً واحداً وعادات واحدة، وكان في هذه المملكة المتسعة الأطراف قانون عمليّ، يضمن للمسلم حق المواطن، بحيث يكون آمناً على حريته الشخصية، فلا يستطيع أحد أن يسترقه على أي صورة من الصور..»[(١)].

ويقول الأصطخري عن مسلمي ما وراء النهر: «وأمَّا سماحتهم، فإنَّ الناس في أكثر ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة، ما ينزل أحد بأحد إلا كأنه دخل دار نفسه.. لا تجد فيهم صاحب ضيعة إلا كانت همته ابتناء قصر فسيح ومنازل للأضياف، فإذا حل بينهم طارق تنافسوا فيه وتنازعوا، وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر؛ صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق، والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير. وليس من بلد ولا منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية آهلة إلا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقه، إذا نزل النازل أقيم علف دابته وطعام نفسه .. وقلَّ ما رأيت خاناً أو طرف سكة أو محلَّة أو مجمع ناس في الحائط بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبل (أي هيئ للناس في سبيل الله) من بين سقاية مبنية وجباب منصوبة»[(٢)].

وخرج عمر بن الخطاب ﷺ إلى الشام، في جماعة، منهم أبو عبيدة عامر بن عبد الله ابن الجراح[(٣)] ﷺ، فلما أتوا على مخاضة، وعمر على ناقته، نزل عنها، وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة.

فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، أأنتَ تفعل هذا؟ تخلع خفيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرّني أن أهل البلد استشرفوك.

فقال عمر: أوه! لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة، جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ: «إنَّا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزّ بغير ما أعزَّنا الله به، أذلنا الله». وفي

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ١٥٥)، عن كتاب «المسالك والممالك» لابن حوقل (١/ ١١).
(٢) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (١/ ١٤٧).
(٣) الفهري المكي، أمين هذه الأمَّة، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين إلى الإسلام، وممن عزم الصِّدِّيق على توليته الخلافة، وكان رأس الإسلام يوم وقعة اليرموك التي استأصل الله بها جيوش الروم. توفي في طاعون عمواس سنة (١٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٥).

رواية: «يا أمير المؤمنين، تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالك هذه؟! فقال عمر: «إنَّا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلن نبتغي العزّ بغيره».

ولما تواجه الجيشان في القادسية، جيش المسلمين وجيش الفرس، بعث رستم[١] إلى سعد[٢] أن يبعث إليه برجل عاقل، عالم بما أسأله عنه. فبعث إليه المغيرة بن شعبة[٣] ﷺ، فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا، وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم، ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا.

فقال له المغيرة: إنَّا ليس طلبنا الدنيا، وإنَّما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً. قال له: إنِّي قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به. وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ، ولا يعتصم به إلا عزّ.

فقال له رستم: فما هو؟

فقال: أمَّا عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به: فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله.

فقال: ما أحسن هذا! وأي شيء أيضاً؟

قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله.

قال: وحسن أيضاً. وأي شيء أيضاً؟

قال: والناس بنو آدم، فهم إخوة لأب وأم.

قال: وحسن أيضاً.

قال رستم: أرأيت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا؟

قال: إي والله، ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة.

قال: وحسن أيضاً».

ثم بعث سعدٌ إلى رستم رسولاً آخر بطلبه، هو ربعي بن عامر، فدخلوا عليه، وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير... (إلى آخر ما وصفوا من الزينة)...

---

(١) قائد جيش الفرس.

(٢) هو: سعد بن مالك بن أهيب، أبو إسحاق القرشي الزهري، أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين، وأحد الستَّة أهل الشورى بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، وكان فَتْحُ العراق على يديه، وكان على رأس جيش القادسية. توفي سنة (٥٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٩٢).

(٣) ابن أبي عامر، الأمير أبو عيسى، من كبار الصحابة أُولي الشجاعة، شهد بيعة الرضوان، وشهد المشاهد، ولزم الصدِّيق، توفي أميراً على الكوفة سنة (٥٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١).

ودخل ربعي بثياب صفيقة، وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإنْ تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامتها. فقالوا له: ما جاء بكم؟

فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك، قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً، حتى نفضي إلى موعود الله.

قالوا: وما موعود الله؟

قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟

قال: نعم! كم أحب إليكم؟ يوماً أو يومين؟

قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا.

فقال: ما سَن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختاروا واحدة من ثلاث، بعد الأجل.

فقال: أسيدهم أنت؟

قال: لا، ولكنِ المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم»[1].

وكانوا ـ أعني المسلمين ـ مع اعتزازهم بدينهم وظهورهم على عدوهم، لا يأنفون من التصريح بما في عدوهم من خصال حسنة، وهذا من دلائل عظمتهم هم، ومظاهر إنصافهم.

جاء في صحيح مسلم أن المستورد القرشي[2] عند عمرو بن العاص، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس». فقال له عمرو: أبصر ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: لئن قلت ذاك، إنَّ فيهم لخصالاً أربعاً:

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٩، ٤٠) بتصرف. وانظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٢).

(٢) هو: المستورد بن شداد بن عمرو، القرشي، الفهري، نزيل الكوفة، له ولأبيه صحبة، له أحاديث في مسلم والترمذي وغيرهما، وعلّق له البخاري. توفي بالإسكندرية سنة (٤٥هـ). انظر: الإصابة (٦/ ٨٧).

إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرَّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك[١].

وبعد: فلا يتسع المقام للحديث عن كل جوانب العظمة في الإسلام، ولا حتى توفية بعضها حقها، ولست هنا أؤرخ لتلك الفترة، وإنَّما هو الاجتهاد في عرض بعض جوانب العظمة في صدر هذه الأمَّة، من خلال عرض صور وأمثلة ناطقة معبِّرة.

ولعل من أبرز جوانب العظمة التي قرأنا شواهدها:

- صدق الإيمان، والجد في الأخذ من الكتاب والسُّنة، والصدور عنهما.
- صدق الجهاد في سبيل الله، والتجرّد لهذا الدين.
- تحقيق معنى «الأمَّة» في صورته الحقيقية الشاملة.
- تحقيق العدل الشامل في السياسة والقضاء والمال في واقع الأرض.
- التميز في السلوك والأخلاق والمعاملات.
- الوفاء بالعهود والمواثيق.

وهذه الجوانب وتلك الخصائص المميزة، لازمة لذاتها في كل جيل يُراد له أن يجدد أمر هذا الدين، ويسير في ركاب الأمة المهتدية؛ أي إنه يتوقف عليها الوجود الإسلامي الصحيح للأمَّة، في أي زمان ومكان.

يؤكد ذلك: أنَّ هذه الأمة حين انحرفت عنها، أصابها ـ على المدى ـ من الخلل والفساد والضَّعف ما سأبينه في المبحث الأول من الفصل التالي، بإذن الله تعالى[٢].

وأخيراً أقول: إنَّه ليس غريباً ولا مُسْتعظماً على أمة، هذه بعض مناقبها ومآثرها «أن يفتحوا في سنين قليلة، الشام والعراق وفارس ومصر والجزيرة والروم والسِّنْد وبخارَى والمغرب والأندلس وجزر البحر المتوسط، وأن يأخذوا جزية من ملك الصين، والتوفيقُ حليفُ رايتهم أينما رحلوا، يفتحون بالعدل قلوب من يغلبونهم على أمرهم، عقبى فتحهم ديارهم عَنْوَة أو صلحاً.. ويُعلّمون الأمم المغلوبة لسانهم ومنازعهم، مؤثرين في كل حالة من حالاتهم الآخرة على الدنيا، وكذلك كانوا في أقوالهم وأفعالهم»[٣].

(١) صحيح مسلم، في الفتن، باب: تقوم الساعة والروم أكثر الناس، ح (٢٨٩٨).
(٢) وانظر: واقعنا المعاصر، للأستاذ/ محمد قطب، ص٣٢، ٣٣.
(٣) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٤٢) بتصرف.

وكذلك كان .. لقد فتحت المدائن أبوابها راغبة أو راغمة بادي بدء، وأحبت الشعوب هؤلاء الفاتحين، ونطقت الألسن بالثناء عليهم، وفضَّلتهم على من سواهم من العالمين، ورأت الخلاص على أيديهم، بل لقد بكى الناس فقدهم، وأسفوا على خروجهم وفراقهم..

وسأقيم شهادتهم ـ أعني غير المسلمين ـ مقام التلخيص لأهم آثار رعاية السُّنن في واقع الأمم، والحق ما شهدت به الأعداء!

لَمَّا بلغ الجيش الإسلام وادي الأردن، وعسكر أبو عبيدة في فِحْل[١]، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب، يقولون: أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا. أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا[٢].

ولقد دهش قبط مصر بجميل عمل عمرو بن العاص[٣] ﷺ، فدخل منهم في الإسلام كثير[٤].

وكتب عمر بن العزيز إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة، على أن يُملكهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب.

ولما ولي إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر[٥] مولى بني مخزوم بلاد المغرب، سار أحسن سيرة، ودعا البربر إلى الإسلام، وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز كتاباً يدعوهم إلى الإسلام، فقرأهُ إسماعيل في النواحي، فغلب الإسلام على المغرب.

ووفد على عمر بن عبد العزيز قوم من أهل سمرقند، فرفعوا إليه أن قتيبة[٦] دخل مدينتهم، وأسكنها المسلمين على غدر، فكتب إلى عامله أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما

---

(١) بكسر أوله وسكون ثانية: اسم موضع بالشام، كانت فيه وقعة للمسلمين مع الروم، قُتِلَ فيه جمع كبير من الروم، وكان بعد فتح دمشق في عام واحد. انظر: معجم البلدان، لياقوت (٤/ ٢٣٧) (فحل).

(٢) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ١٩٧).

(٣) ابن وائل، الإمام، أبو عبد الله، داهية قريش ورجل العالم، ومن يُضْرَبُ به المثل في الفطنة والدهاء والحزم، هاجر إلى رسول الله ﷺ مسلماً سنة ثمان، شهد اليرموك، وافتتح مصر ووليها دهراً وأحسن السيرة في أهلها، وفتح طرابلس. وتوفي ليلة الفطر سنة (٤٣هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٤).

(٤) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٢٥).

(٥) المخزومي، قرشي بالولاء، أحد التابعين، كان فقيهاً ورعاً، استعمله عمر بن عبد العزيز على أهل إفريقية سنة (٩٩ هـ)، فأسلم على يديه جمهور كبير من البربر. توفي سنة (١٣٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢١٣)، والأعلام (١/ ٣١٩).

(٦) هو: قُتَيْبَة بن مسلم الباهلي، أحد أمراء الإسلام وقادته الكبار، تولَّى فتح بلاد ما وراء النهر إلى أطراف الصين. كانت وفاته سنة (٩٦هـ). انظر: الأعلام (٥/ ١٨٩).

ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين، أخرجوا. فحكم القاضي بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء، فكره أهل سمرقند الحرب، وأقروه فأقاموا بين أظهرهم[(١)].

و«لما بلغ صاحب القسطنطينية نعيُه ـ أي عمر بن عبد العزيز ـ نزل عن سريره وبكى، وذكر من مآثر عمر أمام وفد من العرب، كان ذهب للفداء بين المسلمين والروم، ما أبكى المُقل، ومما قال: «لقد بلغني من برّه وفضله وصدقته، ما لو كان أحد بعد عيسى يُحيي الموتى، لظننت أنه يحيي الموتى، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً، فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً، بل باطنه أشد حين خلواته بطاعة مولاه، ولم أعجب لهذا الراهب الذي ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته، ولكني عجبت لهذا الراهب الذي صارت الدنيا تحت قدميه، فزهد فيها حتى صار مثل الرّاهب[(٢)].

وكتب بطريك أنطاكية، معترفاً أن خلاص أهل مِلَّته كان على أيدي المسلمين، فقال، بعد أن سرد اضطهادات هرقل: ... إنَّ الله لَمَّا رأى شرور الروم، الذين لجأوا إلى القسوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا ديارنا في كافة ممالكهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم[(٣)].

وقال لبون: «.. وأهم العوامل في امتداد حكمهم ـ يعني المسلمين ـ اجتماع كلمة قبائلهم المختلفة تحت علم واحد، وهو علم الإسلام، فوجَّه هذا وجهتهم إلى هدف سَامٍ أورثهم حماسة، فكانوا أبداً على استعداد للمفاداة بأنفسهم في سبيله. وكان هذا الهدف دينياً صرفاً، ودولة العرب قامت على هذا الأساس، وكانت الدولة الوحيدة الكبرى القائمة باسم الدين، ومنه انبعثت سياستها وحالتها الاجتماعية...»[(٤)].

ويقول أرنولد[(٥)]: «إنَّ الأخبارَ دوّنت كثيراً من دخول الناس في الإسلام أفواجاً، وقد قيل: إنَّ أكبر الفضل في نجاح هذه الدعوة يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية في

---

(١) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٨٩، ١٩٠).
(٢) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٨٨). وانظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٢، ١٤٣).
(٣) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ١٩٧) بتصرف يسير.
(٤) الإسلام والحضارة العربية (١/ ١٥٠).
(٥) توماس أرنولد: مستشرق إنجليزي، تعلّم في كَمْبِردج، وعُيِّنَ مدرساً في كلية عليكرة بالهند سنة (١٨٨٨م)، فأستاذاً للفلسفة في لاهور، فرئيساً للكلية الشرقية في البَنجاب، ثم عاد إلى لندن فَعُيِّنَ أستاذاً للعربية في جامعتها. له كتب بالإنجليزية، منها: تعاليم الإسلام، والمعتزلة، والخلافة. وزار مصر، وتوفي سنة (١٣٤٩هـ). انظر: الأعلام (٢/ ٩٤).

المجتمع الإسلامي، الذي كان أكثر رقياً، كما يرجع أيضاً إلى شعور التآخي الذي يشيع في هذا المجتمع، والذي كان أكثر تماسكاً وقوة، وكان كل مسلم ساذج أمي داعية إلى دينه»[١].

وقال دوزي[٢]: «إنَّ العربَ لم يحكموا بتعاليم فلسفية فقط، بل بالفطرة والغريزة، حتى حققوا بادي بدء مقالة الثورة الفرنسية الشريفة[٣] وهي: الحرية، والمساواة، والإخاء، ولقد كان البدوي يستمتع بحرية ليس أوسع منها على الأرض، ويقول: لا أعرف مولى غير مولى العالم. وبلغ الحد الأعظم من الحرية التي تمتع بها، بحيث لو قرنت معها أصولنا في الحرية الراقية إلى أبعد الغايات، تسجل أنها تشبه قواعد الاستبداد...»[٤].

ولعلَّ فيما ذكرت كفاية، تغني عن الإطالة.

وقد آن أوان الانتقال إلى المبحث الثاني، وهو:

واقع الأمم الجاهلية المعاصرة (في الجوانب المادية والمدنية).

* * *

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/١٩٨).
(٢) رينهارت بيتر دوزي، مستشرق هولندي من أصل فرنسي، بروتستانتي المذهب، كان من أعضاء عدة مجامع علمية، وقرأ الآداب بعدة لغات، وانصرفت عنايته للعربية، أشهر آثاره: معجم «دوزي»، و«تاريخ المسلمين في أسبانية». وكان مولده بـ «ليدن»، وفيه توفي سنة (١٣٠٠هـ). انظر: الأعلام (٣/٣٨).
(٣) قُلْتُ: وأين الثرى من الثريّا، والتِّبرُ من التُّراب؟! ولكن ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠].
(٤) الإسلام والحضارة العربية (٢/١٥٣). وشهادات المنصفين من الغربيين قديماً وحديثاً كثيرة، والغرض هنا هو التمثيل فحسب.

المبحث الثاني

واقع الأمم الجاهلية المعاصرة

(في الجوانب المادية والمدنية)

سبق القول بأنَّ سنن الله في الأمم، سننٌ عامَّة عالمية، مَنْ أخذ بسنَّة منها من أمة مؤمنة أو كافرة، تحققت له نتائجها في الدنيا.

وتبيَّن لنا ـ في المبحث السابق ـ كيف أن الأمة الإسلامية في عهدها الأول، لما رعت هذه السنن حق رعايتها بصورة شاملة، آتت أكلها وتحققت نتائجها، فظهر على يديها من صور العدل ومظاهر الحرية والمساواة، والتكافل الاجتماعي، والأمن، واستقامة الأحوال، مع ما كانت عليه من سعة الناحية وترامي أطراف المملكة. شيء عظيم شهد به الأعداء، وسارت بأخباره الرُّكبان..

وحيث إنَّ هذا الفصل معنيٌّ بدراسة آثار رعاية السُّنن، فإنَّ أوضح مثال يمكن أن نُلقي الضوء عليه في هذا المبحث، بعد ذلك المثال الرائع، هو: الجوانب المادية (المدنية) في المجتمعات الغربية المعاصرة.

إنَّها مجتمعات جاهلية كافرة بكل المقاييس الشرعية، ومع ذلك فهي اليوم أمم ممكَّنة في الأرض ذات سلطان باهر، وقوَّة مادية ضخمة، وإبداع في معظم جوانب الحياة المادية والمدنية!

ولا عجب ولا تناقض! إنَّها السُّنن. لا تحابي أحداً، ولا تمتنع ممن أخذ بها، إذا وفَّى شروط ذلك وأتى بأسبابه.

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦]. وقال: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨]. وقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠]. وقال سبحانه: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

وهذا ليس في حق الكافرين فقط، بل المؤمنون أولى بذلك وأحق . .

قال جل وعلا مبيناً كيف مكّن لذي القرنين، لما أخذ بأسباب التمكين في الأرض: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۞ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥] (١) .

فمتى وجدت الإرادة الجازمة، والقدرة التامة على الفعل، وجد الفعل وحصل المقصود (٢) .

وقد تقرَّر فيما مضى أنَّ تحصيل الأشياء المدنية والمادية ـ أيا كانت ـ أمر له أسبابه المعقولة، وليس شيئاً مترتباً على الإيمان بالله تعالى، لا يحصل إلا به، كما يشهد بذلك الواقع، ويدلّ له استقراء التاريخ (٣) .

نعم، للإيمان أثره الكبير في توجيه الأشياء المادية والمدنية نحو الأهداف الصحيحة، وتوجيه العقول والأفكار إلى نوعية الأشياء المطلوب تحصيلها، وإلى كيفية الإفادة منها بعد تحصيلها، وهكذا . . ولكن وجودها ـ من حيث هي أشياء ـ ليس مرتبطاً به، أو موقوفاً عليه .

وأحبُّ قبل الشروع في استعراض أهم الآثار التي تحققت للعالم الغربي المعاصر جرَّاء رعايته للسُّنن المتعلقة بهذا الجانب . . . أحبُّ قبل ذلك أن أُنبِّهَ إلى قضية أساس، وقاعدة لا يستقيم الحديث ما لم يُبن عليها، وينطلق منها . وقد أشرتُ إليها في مطلع المبحث الأول، ووعدت بأن أزيدها بياناً في هذا المبحث .

وهذه القضية هي: أنّه بالتتبع والاستقراء، ثبت أن الأشياء المادية ومظاهر الحياة المدنية في الأمة، وهي ما يعبّر عنه بـ (مدنية الأمة) أنها ليست شيئاً منفصلاً عن عقيدتها، وتراثها الفكري، وتصورها للحياة الدنيا والآخرة، وهي ما يعبّر عنه بـ (ثقافة الأمة) .

ونحن وإن استعملنا (ثقافة الأمة) في مقابل (الأشياء المدنية للأمة) بدلاً من كلمة (حضارة الأمة)، التي هي نتاج امتزاج الأمرين (المدنية والثقافة)(٤)، فإنَّ المهم هو أن نعلم أنَّ (حضارة كل أمة وعاء لمدنيتها)؛ لأنَّها غير منفكة عن التأثر بثقافتها، وإن كان غير لازم أن تكون مدنيتها وثقافتها على قدم سواء في التقدم أو التخلّف؛ لأنَّ كونهما على قدم المساواة ـ تقدماً أو تخلفاً ـ يُعَدّ معياراً حضارياً، وليس مدنياً أو ثقافياً .

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٠) .
(٢) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ٧٢٢) .
(٣) انظر: تفسير التحرير والتنوير (١٥/ ٦٣) .
(٤) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ٦٧١) .

أي أننا قد نجد أمة متقدمة مدنياً، وهي متخلفة ثقافياً، وقد نجد أمة متقدمة ثقافياً، ومتخلفة مدنياً . .

ولأضرب مثلاً يتبيَّن منه بوضوح، كيف أن التقدم المدني لا يعني بالضرورة تقدما ثقافياً، ولا يعني بالضرورة إذن تقدماً حضارياً.

لنفرض فرضاً أن مجموعة من اللصوص استطاعت من خلال السرقة ومن خلال الغش أن توجد مجتمعاً وأن تقيم بلداً، هذا المجتمع وهذا البلد لو توفرت لديه كل أسباب الرفاه، واستطاع أن يستعمل كل إنجازات المدنية، فمجتمع هذا شأنه متقدم مدنياً؛ لأنّه استطاع في الجانب المدني ـ أي في الجانب المادي البحت ـ استطاع أن يستعمل كل منجزات المدنية، ولكن هل نستطيع أن نعتبر مجتمع اللصوص هذا مجتمعاً متقدماً حضارياً؟

لو تصورنا مجتمع اللصوص هذا قد نغمس في الإباحية الجنسية، واستباح كثيراً من الأشياء التي تعد خاطئة أو شاذة في فطرة البشر، لو أن مجتمعاً هذا شأنه استخدم أعظم منجزات العلم من الناحية المدنية [1]، فإننا لا نستطيع أن نَصِفَهُ بأنه متقدم ثقافياً أو حضارياً، وإن كنا نقول بأنّه مجتمع متقدم مادياً.

ولعل كيان إسرائيل المغتصبة للأرض وما عليها في فلسطين يصلح مثالا لمجتمع اللصوص الذي ضربنا به المثل.

وإذا كانت قد «اتضحت ـ مبدئياً ـ فكرة التخلّف الحضاري والتقدّم الحضاري»[2]، فإننا بحاجة إلى أن نخطو الخطوة الثانية، وبها نصل إلى مقصودنا من هذا التنبيه.

وهذه الخطوة تتلخص في أن الأمة ـ مضرب المثل ـ أو غيرها من ذوات الثقافة المنحرفة أو المتخلفة، لأي سبب، كأن تكون «ثقافتها غير صحيحة، أو ليست حقاً، أو فيها أخطاء . . الأمة ذات الثقافة المنحرفة، وإن تقدمت مدنياً، فإن تقدمها المدني مطبوع بتخلفها الثقافي؛ لأنَّ هناك ارتباطاً بين الناتج المدني، وبين الفكر والثقافة التي هي وراء الناتج المدني . . .

ولهذا يلاحظ أن كل أمة من الأمم، تحاول أن تجعل نواتجها المدنية منسجمة مع فكرها وثقافتها، وكثيراً ما تضع رموز ثقافتها ودينها على نواتجها المدنية، حسب

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ٦٧٢) بتصرف يسير.
(٢) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ٦٧٣).

جغرافيةٍ ومذهبيةٍ ، تُشعِرك بأن هؤلاء الرموز حاضرون في ذاكرة الأمة ، في حين تبدو هذه الأمة شاردة عن الدين ! .

وإذن ، فالمشهد الحضاري هو اللوحة التي تخلد الناتج المدني ، وتسجل مدى ارتباطه بالثقافة التي وراءه .

والخلاصة أنه عندما تكون ثقافة أمة ما متخلفة ، حتى ولو كانت متقدمة مدنياً ، لا بد أن تظهر آثار التخلف الثقافي على مدنية هذه الأمة [(١)] ، والعكس صحيح .

تلك قضية لا بد من التنبّه لها ، وفهمها فهماً صحيحاً:

* لنضع الأمور في نصابها الصحيح ، فلا تبهرنا مظاهر الأشياء عن أسّها ودوافعها .

* ولنكون أكثر قدرة على تفسير وجهة العالم المعاصر اليوم ، وإلى أين تساق البشرية في ظل هيمنة ثقافة منحرفة وحضارة رديئة ، مهما كان طلاؤها حسناً وملمسها ليّناً!

* ولنستبين أكثر فأكثر صدق ما تقرر من أن السُّنن الإلهية في الأمم تعمل في حياتهم بصورة متشابكة ، يؤثر بعضها في بعضٍ ويتأثر به ، تماماً كطبيعة البشر أنفسهم **«كالجسد الواحد إذا اشتكَى منه عضو تداعَى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**[(٢)] .

وقد مضى المثل الأول ، وهو المجتمع المتوازن مادياً وثقافياً (حضارياً) في المبحث السابق ، وها نحن أولاء أمام المثل الثاني .

وفي هذا المثل ـ الثاني ـ أحسبُ أننا تصورنا أي مجتمع ندرس ، وعلى أي جانب من جوانبه سيكون التركيز .

إنّنا ندرس مجتمعات جاهلية مادية ، بالمقاييس الشرعية ، أي متخلّفة حضارياً على رأي ، وثقافياً على رأي آخر ، متقدمة مادياً ومدنياً ، كما تقرر ذلك قريباً . وسنلاحظ تلقائياً كيف تتأثر الجوانب الإيجابية النافعة في الأصل ، بالجوانب الأُخَر المنحرفة الخاطئة ، برغم أننا غير معنيين في هذا المبحث إلا بالجوانب الإيجابية ، وهي مادية في لحمتها وسَدَاها .

لقد نهضت أوربا وأمريكا ، وتبعتها دول أُخَر كاليابان والصين ، ودول أُخَر في طريقها نحو التقدم المادي ككوريا الجنوبية . . وهو تقدّم مادي ومدني باهر ، على كل المستويات .

---

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ٦٧٤) . وانظر: تفسير التاريخ ، لعبد الحميد صديقي ، ص٢١ وما بعدها .
(٢) متفق عليه ، من حديث النعمان بن بشير ﷺ . انظر: فتح الباري (١٠/٣٦٦) في الأدب ، باب: رحمة الناس والبهائم . وصحيح مسلم في البر والصلة ، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم ، ح (٢٥٨٦) .

فما هي قصة النهضة في تلك الأمم؛ الغربية النصرانية، والشرقية الوثنية المعاصرة؟

بدهي أن نقول: إنَّ هذه الأمم لم تنهض صدفة، ولم تستو على عرش التفوق المادي فجأة وبلا مقدمات، ولم تظفر بما ظفرت به عفواً صفواً، بلا كدٍّ ولا عناء!

فما هي قصة ذلك التفوق؟

أمَّا آثاره، فظاهرة للعيان في المجالات المدنية، على اختلافها.. في مجالات الطب والهندسة والتصنيع الحربي والمدني، وفي وسائل الاتصال والترفيه، وفي الإدارة والنقل والتغذية... إلى آخر ما هنالك.

ولايكفي أن نقول: إنَّ ذلك كله، إنَّما تم وتحقق لهم؛ لأنَّهم أخذوا بالأسباب الموصِلة إليه، ورعوا السُّنن وأتوا بالشروط المطلوبة..

وهي السنن التي جعلها الله طريقاً إلى مثله.

لا يكفي ذلك، وإن كان صحيحاً لا غبار عليه، وكلُّ جواب مفصّل فهو آيل في النهاية إليه!

لا يكفي؛ لأنَّ المهم - في نظري - هو: أن نعرف ما هي الأسباب التي أخذت بها تلك الأمم؟ كيف رعت تلك السُّنن ووفَّت بالشروط المطلوبة؟ ما هي قوانين التقدّم المادي؟

هذا بيت القصيد في هذا المبحث.

وفي الصفحات التالية سأحاول استعراض أهم الأسباب والأسس التي كانت وراء نهضة أوربا المادية والمدنية، ومن سار في فلكها.

في الوقت الذي نشر الإسلام بنوده في المعمورة، وأسس حضارته المثالية على مستوى العالم، كانت أوربا تغط في نوم عميق، وجهل مطبق وتخلف ذريع في كل المجالات، وما عهود الرّق والإقطاع، وتسلّط الكنيسة ورجال الدين، وما جرَّ ذلك كله من ويلات على أوربا.. ليس ذلك بخافٍ على من له أدنى اطلاع على تاريخ تلك الحقبة من التاريخ.. ولم تستيقظ أوربا إلا على وقع أقدام الفاتحين، ولا تعلّمت إلا على أيدي المسلمين، ولم تستبصر إلا بنور حضارتهم ومدنيتهم، في بغداد وقرطبة وغيرهما من مراكز العلم والحضارة، بصورة مباشرة، ولم تتتلمذ إلا على كتبهم في شتى الفنون، زهاء أربعة قرون أو تزيد، بصورة غير مباشرة[1].

---

(١) انظر على سبيل المثال: الإسلام والحضارة العربية (١/ ٨) وما بعدها، وكتاب مفتريات على الإسلام، ص٢٥٨.

ولكن أوربا استيقظت وهي صاحبة ثأر، ترى أنها صاحبة حق مسلوب، وحضارة مُفتات عليها.

وكان لتلك النومة وذاك التخلف الحضاري، أثر بالغٌ في هذا الانبعاث الجديد بهذه الروح المتوثبة.. أشبه بميلاد جديد، وتلك سُنَّة إلهية! «والتاريخ قد عودنا أن كل شعب يستسلم للنوم، فإن الله يبعث عليه سوطاً يوقظه»[١]. إن كان في عمر هذا الشعب بقية.

وكان على أوربا ـ وقد تجاوزها الزمن ـ أن تفتش عن سرّ تخلفها، فتلفتت فما وجدت شيئاً أقعدها يستحق أن يبدأ به قبل شيئين:

استعباد الإقطاعيين، وتسلّط الكنيسة بما لها من سلطان باسم الدِّين[٢]؛ لأنَّ هذين السببين هما سبب الذلّ والجهل، وجِمَاع ذلك (سلب الحريات واستلاب الحقوق).

وكان الإحساس بالحاجة إلى استعادة حقوق الإنسان في تفكير الأوربيين قد ظهر في وقت مبكر نسبياً، وترجم بصورة مكتوبة[٣]، وكان في بداياته بمثابة معاهدة بين الملك وأمرائه. وجاءت مواده في جانب مصالح الأمراء بقدر أكبر، على حين لم يشتمل أي بند فيه على شيء يتعلّق بحقوق العامة من الناس في قليل أو كثير.

فلما تفحصَّه الناس في العصور التالية، وقرأوا بين سطوره ما قصده كتَّابه الأصليون من معنى، تملكتهم الدهشة والحيرة، ورأى فيه خبراء القانون في القرن السابع عشر الميلادي أنه منح الشعب الإنجليزي حقوق التحقيق في الجريمة أمام مجلس قضاء وجهاً لوجه، والتظلم ضد الحبس بدون اقتراف الجريمة[٤]!

ثم أصدر (توم باين) ميثاقه الخاص بحقوق الإنسان، فأثر «في أفكار الغربيين تأثيراً ثورياً كبيراً؛ إذ أشاع هذا الميثاق فكرة حقوق الإنسان في الدول الغربية على نطاق واسع عام ١٧٩١م».

وكان إعلان حقوق الإنسان الذي ظهر عام ١٧٨٩م، أهم وثائق الثورة الفرنسية. وكان ثمرة الفلسفة الاجتماعية في القرن الثامن عشر.. وقد تضمَّن الحقوق الفطرية فيما يختص بحاكمية الشعب، والحرية والمساواة والملكية، كما شمل أيضاً حق التصويت

---

(١) شروط النهضة، للمفكر مالك بن نبي، ص٢٢٦.

(٢) ودين الكنيسة شيء ابتدعه القسس والرُّهبان ليأكلوا به أموال الناس بالباطل، وتكون لهم الكبرياء في الأرض. ودين الله الحق من دين القسس والرهبان المحرَّف المبدَّل بَرَاء. هذا لو كانت النصرانية ديناً غير منسوخ! فكيف عميت أعين وصمت آذان عن الحق البين؛ فجعلت من دين الرهبان ديناً إلهياً، وحملته أوزارهم، ثم سحبت هذه الفِرْيَة على الإسلام؟!

(٣) كان ذلك سنة (١٢١٥م) على يد الملك (جان) في إنجلترا. انظر: على مشارف القرن الخامس عشر ـ دراسة للسنن الإلهية، والمسلم المعاصر، تأليف: إبراهيم بن علي الوزير، ص١٣٥.

(٤) المرجع السابق، ص١٣٥.

والانتخاب، وحق التشريع، وحق تحكم الرأي العام في فرض الضرائب، وحق التحقيق في الجرائم أمام مجلس قضاء، وغيرها من الحقوق.

وقد وضع مجلس التشريع الفرنسي في عصر الثورة هذا الإعلان؛ كي يوضع في بداية الدستور، على أن تُرَاعَى مواده وبنوده عند تدوين الدستور[1]. وكانت «ترمي إلى استخلاص حقوق الإنسان، وحمايتها ضد سلطة الكنيسة، وضد طغيان الوضع السياسي للمجتمع الذي كانت تناصره الكنيسة»[2].

ومن ثم، فَهِمَ عامة الغربيين أن الدِّين يخلو من تصور لحقوق الإنسان؛ لأنَّ إعلان هذه المواثيق، خصوصاً الأخيرة، جاء في عصر الثورة على الدِّين، وعلى أيدي خصومه[3]. وكان فهمهم هذا في حدود ما ورثوه من دين الكنيسة التي يحكمون باسمها، وتخنق أنفاسهم تحت سلطانها، ثم يُقال لهم: هذا دين الله، وما يجري لكم إنَّما يجري باسم الله!.. وكان فهمهم أن هذا الدين يخلو من حقوق الإنسان، ويخلو من الإبداع أيضاً فهماً صحيحاً مؤيداً بالواقع، ولهذا لم تنجح الجهود الإصلاحية «التي اتجهت للدفاع عن المسيحية في إعادة الثقة بها كمصدر توجيه أصيل في الحياة الإنسانية؛ لأنَّ طابع القرون الوسطى ـ وهو طابع السلطة الدينية ـ لم يزل شبحاً رهيباً يحول دون قبول إعادة التجربة مرَّة أخرى»[4].

يقول الفيلسوف برتراندرسل: «في عصر ما يُسمَّى: عصر الإيمان، وفي الوقت الذي كان يؤمن الناس فيه إيماناً حقيقياً بالدين المسيحي في جميع تعاليمه وطقوسه، أُنشئَ (ديوان التفتيش) بتعذيباته؛ فأحرقت جثث ملايين من النساء التعسات كأمثلة للعيان، واستخدم باسم الدين كل أنواع القسوة ضد جميع صنوف الناس.

وأنت تجد عندما تنظر في العالم: أن كل أمارة صغيرة تدلّ على التقدم في الشعور الإنساني، وكل تحسن في قانون العقوبات، وكل خطوة تجاه التقليل من الحرب، وكل خطوة نحو معالجة أفضل للعناصر الملونة، أو كل تلطيف للرِّق.. كل تقدّم خفي وقع في العالم، عُورِضَ بإجماع الكنائس المنظمة في العالم»[5].

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٥، ١٣٦ بتصرف.

(٢) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، للدكتور/ محمد البهي، ص١٠٣.

(٣) انظر: على مشارف القرن الخامس عشر ـ دراسة للسنن الإلهية، والمسلم المعاصر، ص١٣٦. وقد توالت بعد ذلك مواثيق حقوق الإنسان تباعاً، وكان أشهرها وآخرها: الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي أقرّته الأمم المتحدة عام (١٩٤٨م). انظر: المصدر السابق، ص١٣٦ بتصرف.

(٤) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، للدكتور/ محمد البهي، ص١٠٣.

(٥) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، للدكتور/ محمد البهي، ص١٠٢.

«ومن هنا كانت الثورة على الدين ورجاله، وكان إعلان الكفر بسلطة الدين والقائمين عليها .. فقامت النهضة الأوربية .. وهي في الواقع ثورة على الكنيسة، ومن أجْل حق الإنسان في التفكير والحياة، وحريته في الرأي»[(١)].

وإذن، فقد كانت أولى الدرجات في سُلَّم النهضة المادية المدنية لأوربا المعاصرة، كانت استعادة كرامة الإنسان المسلوبة، ومنحه الحق كاملاً (في التفكير والحياة وحرية الرأي)، ولكن بعيداً عن أي سلطان للدين! كانت البداية من هنا .. وكل شيء يأتي بعد ذلك.

وإذا كان الشيء بالشيء يُذْكَر، فإنّي أقول:

وكذلك كان الإسلام، على ما بينهما من البون الشاسع في المنطلقات والأهداف، فقد عُني أول ما عني باستعادة كرامة الإنسان، ومنحه كامل حقه في التفكير وحرية الرأي، يوم ربطه بخالقه، ورفع عنه وصاية البشر، وكان عنوان الدخول في الإسلام: شهادة أن (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)! وكان ذلك هو بداية المشوار، وطريق الإبداع.

فكان إيمان المؤمنين بالله والتزامهم شرعه، هو سرّ انطلاقتهم وبداية نهضتهم الشاملة، وهو أعظم شاهد على أن الإسلام بطبيعته يدفع عجلة التقدم إلى الأمام.

وكان كفر الأوربيين بالكنيسة وسدنتها، هو بداية انطلاقتهم ونهضتهم المادية المعاصرة! وفيه شاهد على فساد الديانة النصرانية الكنسية المنسوخة المحرّفة.

وبهذا كله، يتأكّد لنا أن منح الإنسان حريته وكرامته وإسعاده، ورعاية ذلك .. أنه حجر الزاوية في كل نهضة وتقدّم، خصوصاً في المجالات المادية والعلمية التجريبية التي تعتمد على التفكير الحرّ، فإنّ تطورها مرهون بما يمنحه الإنسان من قواه ومواهبه، ولا تنطلق المواهب وتبدع العقول إلا في جو من الحرية والشعور بالكرامة والأمن[(٢)].

وسأعرض لأهم الجوانب التي كانت (الحرية الفردية) مفتاح ما تحقق فيها من إيجابيات .. وهي جوانب (التفكير والسياسة والمال)، والتي كانت بدورها هي مفتاح النهضة الأوربية المعاصرة.

---

(١) المصدر السابق، ص١٠٢.

(٢) ولا يعنينا هنا ما ترتب على هذه الحرية من سلبيات ضخمة، واعتداء على حريات الآخرين باسم المحافظة على هذه الحرية والتمتع بها، خصوصاً أنها كانت رد فعل لعصر الحرمان والكبت. فذلك شيء سأعرض له في المبحث الثاني من هذا الفصل بإذن الله تعالى. ولكن ألفِتُ الانتباهَ هنا إلى ما تقرَّر في مفتتح هذا المبحث من أن الجوانب المظلمة من هذه الحضارة الجاهلية لا بد أن تُلقِي ظلالها على الجوانب الأخرى المشرقة!

* ففي جانب التفكير:

انطلقت العقول المغلولة من إسارها، فاندفعت في مجالات الحياة.. ولما كانت فلسفتها مادية صرفة، فقد وجَدَت في المذهب الحسيّ والمنهج التجريبي[١] ضالتها المنشودة، فاعتمدته أساساً للبحث والمعرفة، فقادها من نصر إلى نصر في مجال البحوث العلمية والطبيعية، بصورة سريعة، كان من نتائجها «اكتشاف البخار ثم الكهرباء، وما ترتب على هذه الاكتشافات من صناعة السفينة والقطار والطائرة، وامتلاكه ـ عن طريق الكشف التجريبي والصناعة الآلية ـ ناصية الأمر في الماء وعلى الأرض وفي الهواء، حتى أصبح المعمل محراباً للعلم يُقدّس»[٢].

* وفي الجانب السياسي:

«خلقت الحرية الفردية فكرة (النقد الحر) لنظام الحكم، وللقوانين التي تحكم المجتمع، وهيَّأت لإيجاد (رأي عام) سياسي تبلور فيما يسمى بالنظام الديمقراطي.. واعتبرت أن في هذا النظام الضمان الكافي لتمتع الفرد بحريته السياسية في الرأي، والقول والنقد بصفة عامة، وضماناً كافياً أيضاً للفصل فيما يُؤدَّى له من خدمات عن طريق الدولة، وفي تقييم المشروعات التي تقدمها الدولة في هذا السبيل»[٣].

* وفي الجانب المالي:

ضمنت الحرية الفردية لصاحب المال حرية الاستغلال بدون تحديد لحدّ أعلى في الاستثمار، أو في التملّك الفردي، ضمنت له حرية التوسع في الأراضي الزراعية ووسائل استثمارها، وحرية إقامة المصانع وملكية الأسهم فيها، وحرية تأسيس الشركات وتوجيهها في أي قطاع وبأي عدد[٤].

ولِمَا لهذه الحرية من مكانة في تحصيل هذه المكاسب وتحصينها، كانت الثورات تقوم في أوربا وأمريكا، بهدف البحث عن الحرية، والدفاع عنها، وكانت المحور الذي تدور حوله حياة شعوبها بعد نجاحها[٥].

---

(١) ورثت أوروبا المنهج التجريبي فيما ورثت من معارف المسلمين، فطورت ذلك ثم نسبته إليها. والمذهب الحسي أو الفلسفة الحسيَّة تعني: «إلغاء اعتبار أي مذهب فكري لا يكون واقعياً يؤيده الحس وتسنده التجارب». انظر: الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ص١٠٦.

(٢) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ص١٠٤، ثم تحوّل إلى إله يُعْبَدُ من دون الله!

(٣) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ص١٠٦.

(٤) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ص١٠٦. ومرة أخرى: لستُ بصدد تقويم الحرية الفردية التي انتزعها الفرد لنفسه في الغرب من كل وجه، وإنّما قصدتُ إلى إيضاح حقيقة: أنَّ الإبداع والتقدّم المادي والمدني مرتكزٌ على حرية الإنسان وإحساسه بكرامته.

(٥) انظر: الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ص١٠٥.

وبعد: فربما أكون قد أطلتُ في هذا الجانب، أعني جانب الحرية الفردية وما تفرع عنها من حرية الفكر والسياسة والمال، ولكنه ـ في رأيي ـ يستحق أكثر من ذلك؛ لأنَّ أي جهد أو عمل لا يُبنى عليه ولا ينطلق منه، فلا قيمة له تُذْكَر.

وهل يمكن أن تصنع أمة شيئاً قبل أن تجد الإنسان القادر؟!

ومع ذلك، فلم تنهض أوربا وتتفوق مادياً بهذه وحدها..

نعم، كانت تلك الحرية بمثابة الأرضية التي تقف عليها النهضة، وتنطلق منها، وبمثابة الإطار الذي تحتمي به. ولكن ـ دون شك ـ كانت هناك أمور أُخَر كثيرة، ساهمت في صناعة هذا التفوق المادي.

* **فمن الأمور التي كانت وراء تقدّم أوربا المعاصرة:**

وجود الإرادة القويَّة على مستوى الفرد والأمة، وتنميتها باطراد.

وقوة الإرادة مرتبطة بوضوح الهدف، والهدف عند هذه الأمم واضح، هو: التفوق الماديّ، والتوسع الأفقي على حساب الآخرين.

وقوة الإرادة، من أخص سماتها في الأمة: الإصرار وعدم اليأس، وإخضاع الأشياء وتذليل الصعوبات من أجل بلوغ الغاية وتحقيق الطموح.

وإذا أرادت الأمة شيئاً وكانت صادقة في إرادتها، جنَّدت كل إمكاناتها لخدمة هذه الإرادة، واجتهدت في ابتكار الوسائل المُعِينَة على ذلك.

وهذا ما حدث بالفعل!

فما إن تحررت تلك الشعوب، وأصبحت قادرة على التفكير الحرّ، حتى ولدت عندها هذه الرغبة العارمة والإرادة الجازمة في التفوّق والتميّز..

فَحَدَا بها ذلك إلى تطوير وابتكار أنجح الوسائل وأسرعها فاعلية في تحقيق هذا الهدف ـ هدف التفوق والتميز المادي ـ وهي كثيرة، أبرزها ثلاثة مظاهر:

- تربية الأمة على الأهداف المنشودة.
- وحمايتها من المؤثرات الخارجية.
- والعمل الدؤوب والتضحية من أجل بناء المستقبل.

وكانت وسائل الإعلام، ومناهج التعليم، أهم وسيلتين في هذا المضمار.

وهذا ما يفسِّر لنا هذا التطور الْمُذْهِل، والتوجيه الْمُحْكَم في هذين المرفقين منذ وقت مبكر!

وكان أول ما تعلَّم الناس، أنَّ تاريخ النهضة في أوربا يبدأ من (أثينا)، وأن عبقريتهم ترجع إلى عبقرية الرومان.. ومن أجل ذلك زوَّرَ الكتَّاب الغربيون التاريخ، كما لاحظ ذلك المؤرخ الشهير جوستاف لوبون، وكان ذلك كله بغرض تجاهل دور الإسلام وإغفال تأثيره فيما يجري، ليحافظوا على مستوى العداء المتأصِّل في النفوس؛ لأنهم سيحتاجون إليه في جولاتهم القادمة[1]!

وكانوا يكرِّسُون الحسّ الوطني بمعناه الضيق في أذهان أفراد الأمة وناشئتها، ويلقنونهم مزايا بلادهم، وخصائص جنسهم ولغتهم، يزيدون بذلك من تعلقهم بتراثهم وترابهم، ويحصنونهم ضد خصومهم.

وهذا ما يفسِّر لنا سرّ بقاء دولة ناهضة كاليابان، شبه مغلقة في وجه أكثر اللغات انتشاراً، وهي اللغة الإنجليزية، إلى وقت قريب [2]؛ لأنَّ الناشئة كانوا يلقنون في المدارس أن العمل هو خط الدفاع الأول عن اليابان، واللغة هي خط الدفاع الثاني، وكانت آخر الإصدارات العلمية تترجم إلى اللغة اليابانية وتنشر، قبل أن تنتشر في بلدان كاتبيها وبلغاتهم؛ لئلا تقوم في نفوس الناس حاجة إلى البحث عن الجديد خارج لغتهم الأصلية! وكان شعور الألمان بتفوق جنسهم وراء طموحهم في الاستيلاء على العالم.

ومرة ثانية، لقد كانت الإرادة الجازمة في التفوق، والطموح نحو الشهود الحضاري، على مستوى الأمة.. كان وراء إعادة البناء الشامل، بل التفوق الصناعي المذهل لهاتين الدولتين؛ ألمانيا واليابان في زمن وجيز، بعد الحرب العالمية الثانية، رغم أنهما كانتا مقيدتين بشروط الحلفاء، أي تحت وصاية الدول المستعمرة[3]!

بل لم تخرج جنود الاحتلال الأمريكان من جزيرة أوكيناوا اليابانية إلا بعد عقدين من الاحتلال[4]. وهي إلى اليوم تحت مظلة الحماية الأمريكية.

---

(١) انظر: شروط النهضة، ص٢٢٤.

(٢) وإن كانت خفّت حدتها في السنوات الأخيرة، وظهر جيل ممن يعشقون رطانة الأجنبي ويتباهون بها، لحاجة ولغير حاجة، كما حدَّثني بذلك أخ ثقة زار اليابان، ولقي عدداً من مفكريها، وتباحث معهم في سرّ قلّة عدد الذين يحسنون اللغة الإنجليزية في بلد ناهض كاليابان.

(٣) انظر: شروط النهضة، ص٢١٤. ولم يمضِ على نهاية تلك الحرب نصف قرن حتى الآن، فقد كانت نهايتها عام (١٩٤٥م).

(٤) مجلة «المسلم المعاصر»، العدد الرابع والخمسون، ربيع الثاني وجمادى الأولى والآخرة، ص٨.

«ففي عام ١٩٤٨م فرضت الحكومة الألمانية على الشعب الألماني كله، نساءً وأطفالاً ورجالاً، التطوع يومياً ساعتين يؤديها كل فرد زيادة على عمله اليومي بالمجان، من أجل الصالح العام فقط، وسمي هذا: التجنيد العام»[١].

ولما ضحَّى المبتعث الياباني (تاكيو أوساهيرا) بشهوة الحصول على الدكتوراه من ألمانيا، وتفرغ لاختراع (المحرِّك) عاد إلى بلاده من غير (دكتوراه)، لكنه عاد بمفتاح تطور اليابان كلها[٢]!

وشيء آخر كانوا يحافظون عليه أشد المحافظة.. كانوا يحافظون على انتمائهم العقدي الديني، ويرونه جزءًا لا يتجزأ من كيان الأمَّة.

لقد عُزِلَ الدين عندهم عن التدخل في الشؤون المادية والمدنية، للملابسات التي عرفت من قبل، لكنهم لم يكفروا به ولم يتنكروا له كلية، وبكل فئاتهم، كما يظن نفر غير قليل منا. وكيف يكفرون به وهو أمضى سلاح يعتدّون به، وأقوى جامعة تربطهم، ثم إنَّهم أُناس بطبيعتهم، ففيهم فقر طبعي إلى دين يحتمون به، أيا كان.

فإيمان النصارى بأنهم أمة نصرانية، لم يطرأ عليه تغير جوهري، من عصر الجمود إلى عصر الذرَّة، وإن كان طرأ تغيّر في كيفية تدخله في شؤونهم المدنية، وفي صلتهم بالكنيسة[٣].

وتعصُّب اليهود ليهوديتهم أشهر من أن يستدل له، ويكفي أن تعلم أن مقر الحكومة الإسرائيلية اسمه (مجلس الكنيست الإسرائيلي)! وأنَّ أحزاباً دينية متطرفة تشارك غالبا في كل ائتلاف حكومي[٤].

واليابانيون، وهم بوذيون وثنيون، يقول قائلهم (أوساهيرا): «إنَّني بوذي، ومذهبي يقدس العمل، فأنت تتعبَّد إذ تعمل، وما تعمله بعد ذلك من شيء نافع يقربُّك من بوذا»[٥].

---

(١) شروط النهضة، ص٢١٥ بتصرف.

(٢) مجلة «المسلم المعاصر»، العدد الرابع والخمسون، ربيع الثاني وجمادى الأولى والآخرة، ص١٤. وانظر قصته بطولها في كتاب «التربية في ألمانيا الغربية نزوع نحو التفوق والامتياز»، تأليف: هانز ج. لينجتر وزميله، ترجمة وتعليق: د. محمد عبد العليم مرسي، ص١٥.

(٣) انظر مثلاً: كتاب الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة: مساعد ومحب الدين الخطيب.

(٤) واقرأ إن شئتَ: كتاب «درس النكبة الثانية»، للدكتور/ يوسف القرضاوي، ص٧٣ وما بعدها.

(٥) مجلة «المسلم المعاصر»، العدد الرابع والخمسون، ربيع الثاني وجمادى الأولى والآخرة، ص١٤. وانظر قصته بطولها في كتاب «التربية في ألمانيا الغربية نزوع نحو التفوق والامتياز»، تأليف: هانز ج. لينجتر وزميله، ترجمة وتعليق: د. محمد عبد العليم مرسي، ص١٥.

إنَّ الانتسابَ إلى الدِّين عند هؤلاء مفخرة، وشارة تميزهم عن غيرهم، وما رأينا أحداً منهم توارى بدينه أو أخجله الانتساب إليه، حتى وهو طقوس وخزعبلات.. إنَّه التميّز!.

وهناك الإفادة من جهود الآخرين، والتخطيط طويل المدى لبلوغ الأهداف.

وقد مرَّ بنا كيف أنهم أفادوا من المنهج التجريبي الذي أخذوه عن المسلمين، فكان ذلك أعظم الفتوح في تاريخهم المعاصر.

وأمَّا سياستهم في تحويل ثروات الآخرين وإمكاناتهم وموارد بلادهم لصالحهم، فشيء يطول وَصْفه.

يقول جولفيه كستلو: «إنَّ عهد السياحات الكبرى بدأ في القرن الخامس عشر الميلادي، وقامت بها البرتغال أولاً على يد فاسكو دي جاما، ثم أسبانيا على يد خريستوف كولمبس.. بفضل المعلومات التي ثقفوها بواسطة العرب في الجغرافيا والفلك.. وما عتم الأسبان(١) أن أسسوا مملكة استعمارية حقيقية في أمريكا»(٢).

«وكان من أولى مقاصد فاسكو دي جاما بطوافه بحر الهند، محاربة السفن العربية، بل كان الغرض من تطوافه في البحر أن يحارب الصليبُ الهلالَ في أقصى بقاع المعمورة»(٣).

وجاء «نابليون بونابرت(٤) في سنة ١٧٩٨م يفتح مصر! ويحمل في جملة ما يحمله من العَدَد والعُدد طائفة من علماء فرنسا ونوابغها في الرياضة والهندسة والطب والجغرافيا والفلك والآداب والكيمياء والاقتصاد السياسي والآثار والمعادن .. وزمرة من رجال الفنون من المصورين والرسَّامين والموسيقيين.. وأقاموا في القاهرة مطبعة أخذت تطبع منشورات نابليون العربية.. وبعض المطبوعات الغربية والفرنسية»(٥).

وحملة نابليون هذه، لها أخوات في طول العالم الإسلامي وعرضه، بل والعالم الفقير بعامة، وهي مثال على سياسة القوم في نقل خيرات البلاد إلى بني جلدتهم وإيجاد الأسواق لبضائعهم.

---

(١) أي: ما لَبِثُوا. يُقالُ: ما عتم أن فعل، أي: ما لبث. انظر: القاموس المحيط، مادة (عتم).
(٢) الإسلام والحضارة العربية (١/ ٣٤٥).
(٣) الإسلام والحضارة العربية (١/ ٣٤٠).
(٤) قائد الحملة الفرنسية على مصر.
(٥) الإسلام والحضارة العربية (١/ ٣٧١).

لقد أدركوا أن نشر ثقافتهم ومدنيتهم في هذه البلدان، خير وسيلة «لإزالة الحواجز التي تقوم بينهم وبين الشعوب، وهي حواجز تهدد مصالحهم الاقتصادية، وتجعل مهمة حراستها والمحافظة عليها صعبة، غير مأمونة العواقب»(١).

وإنْ كان أكثر الناس لا يعلمون ذلك، وكثير منهم يجادلون فيه، مأخوذين بما يرون من مظاهر الإصلاح، التي لا بد أن يقدمها القوم ليتقاضوا ثمنها أضعافاً مضاعفة. وهذا من ذكائهم ودقَّة تخطيطهم.

وكانت قوافل المبشرين ورجال الدين والفكر النصراني، يسبقون إلى كل بلدة يُراد استغلالها، فيَخبرُون أهلها، ومسالكها، ويسبرون نقاط ضعفها وقوتها؛ تمهيداً للجيوش الغازية.

وقد قيل في هذا ـ والسياسة فن ـ إنَّ غرام الشعوب اللاتينية (الفرنسيين والإيطاليين والبرتغاليين والإسبانيين) أن يتمثَّلوا أبداً الشعوب المستعمرة، ويلقنوهم لغتهم، وينسوهم كل شيء لهم. أمَّا الشعوب المستعمرة من أهالي شمالي أوربا (الإنجليز والهولنديون والبلجيكيون والألمان، ومن تسلسلوا منهم كأهل الولايات المتحدة واستراليا، فلا يهمهم إلا الانتفاع بهم مادياً، والمسائل الأخرى فرعية»(٢).

وقد ضُرِبَ المثل بحسن استعمار الهولنديين لجاوة وسومطرة، وأنَّه لطيف الملمس(٣)! وأنَّه حصل على أيديهم من ارتقاء الزراعة، والعناية بصحة السكان أشياء.. وماذا بعد؟ ليعمل المواطنون في هذه المزارع بأجور قليلة، بإدارة هولندية، وموارد الثروة فيها تنصب إلى خزائن الهولنديين وجيوبهم(٤)!

ومما يجدر التنبّه له: أنَّ التخطيط للأشياء ودراسة احتمالاتها ليس شيئاً عرضياً عندهم، بل هو محل عنايتهم، وأساس في حياتهم، حتى في الأشياء البدهية البسيطة في نظر غيرهم. وتلك فضيلة فاقوا بها وجنوا ثمارها.

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية، للدكتور/ محمد محمد حسين، ص٤٢، وانظر دور الحملة الفرنسية في مصر، وتفصيل أهدافها الحقيقية، في: واقعنا المعاصر، للأستاذ/ محمد قطب، ص١٩٨، وسيأتي لها مزيد بحث في المبحث التالي بإذن الله.

(٢) الإسلام والحضارة العربية (١/ ٣٦٠) بتصرف يسير. وهذا يخرج مخرج الغالب، بل هو رأي خاضع للتمحيص. ولكل زمان دولة ورجال.

(٣) على حد قول الشاعر:

إذا رأيت نيوب الليث بادية ... فلا تظنن أن الليث يبتسم

(٤) الإسلام والحضارة العربية (١/ ٣٦٢، ٣٦٣) بتصرف.

كل شيء عندهم يخضع للتنظيم والتقنين ، حتى رعاة الغنم لهم حظ من ذلك[١] .

وكل شيء يُبْذَل فيه من الجهد والدراسة ما يضمن تحقيق أفضل النتائج ، بأقل قدر ممكن من السلبيات[٢] .

وهكذا في سائر شؤونهم المادية والمدنية . . ومن سُنَّة الله أن يستأثر العامل بالخامل ، ويتحكم العالم بالجاهل . . ويأخذ المستبسلُ المستسلمَ . . والغاية المنشودة عندهم تحصيل الرزق من كل وجه وبكل حيلة ، والأخذ بحظ من النعمة ، تعين على الاستمتاع بمباهج الحياة ونعيمها[٣] .

وقد بلغوا بجدهم وكسبهم كثيراً مما أرادوا . . وكلما تقدَّم العهد بهؤلاء وهؤلاء ـ وكلٌ على شاكلته ـ كلما ازداد القوي قوة والضعيف ضعفاً ؛ لأنَّ الأول يستقبل الهدف ، فكل خطوة تقرّبه إليه ، وأمَّا الثاني فمستدبر له ، فكل خطوة تبعده منه .

تلك هي ـ باختصار ـ أمهات الأسس ، التي لَمَّا رعتها هذه الأمم ، آتت ثمارها المادية والمدنية ، ومكّنت لها في الأرض ، وأخضعت لها الأمم والشعوب التي فرطت في هذه الأسباب ، حتى أصبحت هذه الأخيرة من جملة غنائمها .

وتلك هي سُنَّة الله فيمن أخذ بالأسباب وجَدَّ في تحصيلها ، أنه يؤتى ثمرة ذلك كما في قوله سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود: ١٥] . . . وغيرها من الآيات ، وقد سبق ذكر بعضها في أول المبحث .

والخلاصة:

أنَّ الأوربيين ومن شاكلهم ، نجحوا في تحقيق التقدم في علوم المادة ؛ لأنَّهم وضعوا لأنفسهم (منهجاً) يحقق لهم تلك الأهداف وفق فلسفتهم ، وسَهِرُوا على حمايته . .

«أرادوا القوة . . فوضعوا لأنفسهم منهجاً يحقق لهم القوة في كل الميادين ، حتى ولو كان عن طريق الاستعمار! استخدموا التعليم . . ووضعوا مناهج تعليمية مدروسة ، بُذِلَت في دراستها عناية ملحوظة ، وجُرِّبَت وأجريت الملاحظات عليها أثناء التجربة ، وعُدلت أخطاؤها ، واستُكمِل نقصها ، للوصول بها إلى أقصى طاقتها الإنتاجية ، ورُوعي في هذه المناهج تخريج قوم عمليين ومنتجين ، واسعي الأفق ، تم تدريبهم على تجربة ما

---

(١) انظر: شروط النهضة ، ص١٤٨ .

(٢) وقد يصيبون وقد يخطئون ، وهذه طبيعة البشر ، بل إنهم ليفضلون على الناس بسيئة: فهم يعتمدون على الأسباب وحدها . ولكن المهم أنهم يبذلون الأسباب المقدورة لهم ، والسنن جارية مع أسبابها . وهذا هو المراد هنا .

(٣) الإسلام والحضارة العربية (١/ ٣٣٧) .

يمكن تجربته من المعلومات، فنشأوا واقعيين تجريبيين.. ووضعوا مناهج تربوية مدروسة، تعوِّد الصغار على كثير من الفضائل التي يحتاجون إليها وهم كبار.

تعوّدهم على النظام والانضباط.. وعلى المثابرة والْجَلَد.. وعلى الاعتماد على النفس وتحمّل المسؤولية.. وعلى النشاط في الحركة.. وعلى الجرأة في مواجهة المواقف.. وعلى الصدق والأمانة واحترام الممتلكات العامة.. وعلى السلوك المهذّب مع الآخرين..

وكلها ـ كما ترى ـ (فضائل) نافعة، وكلها من أدوات التمكين والقوّة اللازمة للشعوب التي ترغب في التمكين في الأرض.

واستخدموا العلم.. ويسَّروا به كثيراً من مشتقات الحياة.. كما استخدموه في حل مشكلاتهم، فدرسوها بطريقة علمية منظَّمة، ووضعوا لها حلولاً مبنية على أسس علمية. واستخدموا ـ باختصار ـ أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية تحقق للإنسان كثيراً من ضروريات حياته، وقدراً من تحقيق الذات، خصوصاً (في النظم الليبرالية)[1].

وأختتم هذا المبحث ببيان بعض متعلقات تلك الأسس، التي أجرى الله سنته أنها تكون من ثمارها؛ لئلا يظن ناظر مستعجل أنني تركتها إغفالاً لها أو ذهولاً عنها، ولنأخذها واحدة واحدة، بأخصر عبارة.

ظَفِرَ الإنسان والمواطن في أوربا بحريته الشخصية، وأصبح يمارس حياته وفق هواه. فماذا حدث؟

كانت الشعوب الأوربية موجودة طيلة ثمانية قرون أو تزيد، ولكنها كانت مجرد أصفار إلى جهة اليسار، فلما تحرَّر الإنسان وأمِنَ، بدأ يفكّر بطريقة صحيحة، وأصبح بإمكانه أن يدافع عن حقه في التفكير وإبداء الرأي، وحقه في الأمن والاستقرار، وحقه في تحقيق المستوى اللائق من المعيشة، عن طريق التملّك والتنقل وغيرها.. وحقه في الحياة الكريمة، بالطبع وفق فلسفته ونظرته إلى الحياة.. وهذه كلها بعض مكاسبه من الحرية!

ثم ماذا؟

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، باختصار وتصرف.

لقد كان الذي لا بد أن يكون.. فلم تلبث هذه الأمم مع الزمن أن تجسَّدت في أفرادها ـ نتيجة لما سبق ـ روح الاستقلالية والتميز وقوة الإرادة. استقلالية في الرأي والقرار، ورفض تام لأي نوع من أنواع الاستعباد والقهر.

وتميُّز في مقومات الأمة؛ ثقافتها وتراثها ولغتها وجنسها.. وقوة في إرادتها تحقيق أهدافها في التفوق العلمي والمادي، وفي القوة وبسط النفوذ..

فكان من الطبيعي، أن تسخّر لخدمة ذلك كل ما في حوزتها، وفي مقدمة ذلك: الإعلام، والتعليم؛ لصياغة الإنسان، ورفع مستواه؛ ليكون على مستوى أهداف الأمَّة هناك.. وكان لا بد أن توظف كل ما تملك، الإنسان، الأرض، والمال، والزمن.. لتحقيق إرادتها في التفوق والسَّبْق.

أمَا وقد تمَّ ذلك كله، فلا بد أن يكون من ثماره:

ـ تقدم مذهل في وسائل الإعلام.

ـ وسياسة محكمة هادفة في التعليم.

ـ واصطفاء بعناية للكفاءات والعقول المبدعة النابهة.

ـ وتطوير مستمر للوسائل التي تعين في تحقيق أفضل النتائج في استثمار الأرض والمال.

ـ وشعور متزايد بقيمة الزمن، الذي هو مضمار السباق مع الآخرين.

ـ وتبعاً لذلك، ووفق فلسفتها المادية النفعية، كان لا بد أن تستغل كل طاقة في العالم يمكن استغلاها، مادية أو معنوية لصالح أهدافها، وعليها أن تبذل ما في وسعها في سبيل ذلك.

ـ وتبعاً لذلك أيضاً، فإنَّ عليها أن تكون قويَّة مرهوبة الجانب، لكي يتسنَّى لها حماية مكتسباتها ومواردها، في الداخل والخارج، ولتغري الآخرين الضعفاء بالدخول معها في أحلاف و معاهدات، في صالحها أولاً وأخيراً.

ـ وهذا كله لا يمكن أن يكون مثمراً ثماره المطلوبة، ما لم يكن جارياً وفق خطط مرحلية مدروسة، شاملة لكل نواحي الحياة، وأن تكون روح هذا النظام سارية في حسِّ ومخيلة كل فرد، ليكون الجميع حرَّاساً له، أُمَنَاء عليه.

وإذا اجتمعت هذه المقومات كلها ـ وقد اجتمعت إلى حد كبير لهذه الأمم الأوربية ومن سار سيرتهم ـ فسوف تنظر الشعوب والأمم الأخرى المغلوبة على أمرها إلى تلك

نظرة إعجاب وإكبار . . حرية وأمن واستقرار ، وإمكانات مادية هائلة ، ووسائل متاحة في كل اتجاه ، وفوق ذلك: حفاوة بالعقول ، وتوظيف أمثل للكفاءات ، وفرص أحسن للاستثمار والعيش في ظل الأمن والحرية! على حين أنها تجد الضِّد من ذلك ونقيضه في كثير من الجوانب في بلادها . فما للعقول لا تهاجر؟ وما للأموال لا تتدحرج؟

لا شيء . . لا شيء!

وبالفعل ، فقد هاجرت العقول وخرجت الأموال[1] ، فزاد من تقدم أولئك الأقوياء وثرائهم ، وأصبح هؤلاء الضعفاء في مواجهة التخلف والجهل والفقر وجهاً لوجه! والله المستعان .

* * *

(١) انظر تفصيل هذه المظاهر المحزنة ، بالحقائق والأرقام في: كتاب «هجرة العلماء من العالم الإسلامي» ، د . محمد عبد العليم مرسي ، الفصل الثالث (أسباب هجرة العلماء وذوي الكفاءات من العالم الإسلامي) ، فقد فصَّلَ الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأكاديمية والتعليمية ، وذكر أسباباً أُخَر متنوعة .

الفصل الثاني

عواقب الإعراض عن السنن

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: الأمة الإسلامية في واقعها المعاصر.

المبحث الثاني: واقع الأمم الجاهلية المعاصرة (في الجوانب الإنسانية)

تمهيد

وقفنا في الفصل السابق على الآثار الحميدة والعواقب الحسنة، الناتجة عن رعاية السنن الإلهية في الحياة، وكان ذلك من خلال التأمل في أنموذجين مختلفين في الزمان والمكان، وفي المنطلقات والأهداف، وفي شمولية الآثار المترتبة على الأخذ بالسُّنن الإلهية وجزئيتها.

وظهر لنا بجلاء، صدق ما تقرر غير مرة: أن هذه السُّنن جارية مع أسبابها المعقولة المقدورة للبشر، وأنها مع من أخذ بها، كائناً من كان.

وفي هذا الفصل ـ بإذن الله تعالى ـ سأفصِّلُ القول في أنموذجين، هما الوجهان الآخران للأنموذجين السابقين، ولكن من زاوية أخرى مقابلة لتلك: زاوية الإعراض عن السُّنن الإلهية كلية، أو التقصير في الأخذ بها، والسير على هدى منها.

وسأمضي في تقرير هذين المبحثين على نحو ما مر بك في مبحثي الفصل السابق، فأذكر في المبحث الأول: أظهر وأخطر العواقب الوخيمة التي حاقت بالأمة الإسلامية المعاصرة، جرَّاء ما أعرضت عن السنن الإلهية. وهذه العواقب شاملة لأحوالها المادية والمعنوية.

ثم أستعرض في المبحث الثاني: أبرز العواقب الوخيمة، الناجمة عن الإعراض عن السُّنن الإلهية في الأمم الجاهلية المعاصرة، خصوصاً في الجوانب الاجتماعية والأخلاقية، وإن شئت فقل الإنسانية عموماً، وهي ما سوى الجوانب المادية، التي سبق الحديث عنها في المبحث السابق.

ولنبدأ الحديث عن المبحث الأول في الصفحات التالية.

* * *

المبحث الأول

الأمة الإسلامية في واقعها المعاصر

إنَّ الأمَّة التي كان لرعاية السُّنن الإلهية، وإقامة شرع الله وتحكيمه في حياتها ، من الآثار الحميدة والمآثر الجليلة المادية والمعنوية ما بهر العالم وشغل الناس، في قرون خلت. وكانت مملكة المسلمين من العظمة والاتساع، بحيث لا تكاد تجد أهل بلد أو مصر فيما نأى ودنا إلا وفي سمع أهله عنها وعنهم خبر.

إنَّ تلك الأمة، هي الأمة التي كان للإعراض عن هدى الله وتحكيم شريعته، وإهمال الأخذ بسننه التي أودعها في كتابه المتلو، وفي كونه المنظور، من العواقب الوخيمة والرزايا الجسيمة؛ المعنوية والمادية ما أشمت بها حاسديها، وجرأ عليها من هب ودب ودرج، فانتقصت من أطرافها، وأُذِلَّت في عقر دارها.

وإذن، فليست الأمة الإسلامية اليوم نبتة مبتوتة الجذور، ولا ظاهرة حديثة الظهور، بل هي امتداد للأمة الإسلامية التي كانت المدينة النبوية دولتها الأولى.

ومن هنا، فليس لها تاريخ تختص به، ولا نسب تشرُف به إلا تاريخ الإسلام، وشرف الانتساب إليه.

ليس لها تاريخ تختص به؛ لأنَّ تاريخ الأمة الواحدة لا يمكن تجزئته كما يجزِئُ الورَّاق القطعة من الورق، وكما يقطع بائع الحلوى الحلوى. خصوصاً، إذا كانت هذه الأمة وهذا التاريخ، من الضخامة والاتساع والامتداد في الزمان والمكان كهذه الأمَّة. بل إذا كان الاتصال بين حلقاتها، بحيث لا يمكن انقطاعها ولا يتصور انفصامها كحال هذه الأمة، التي لا تزال طائفة منها على الحق ظاهرين منصورين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك [1].

والأمة الإسلامية في واقعها المعاصر، بكل ما فيها من جوانب التقصير، امتداد للأمة الإسلامية ذات العمق والامتداد في الزمان والمكان.

ذلك أن الأمم بطبيعتها، لا تتوالى إيجابياتها، بحيث لا تتخللها سلبيات البتة، ولا يكون العكس فتصبح كتلة من السلبيات، لا يكون فيها بَوارق أمل، وإن وجد شيء من ذلك ـ على سبيل الفرض ـ فإنَّ أَمَدَهُ لا يطول، ولا يمكن أن يطول.

---

(١) جزء حديث متفق على صحته، من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ، وسبق تخريجه.

نعم، قد ينحسر هذا أو ذاك إلى حد كبير، فيبدو الغالب؛ سلبا أ إيجابا، وكأنه الوضع الوحيد، ولكن الأمر على ما وصفتُ لك.

لا يعرف التاريخ الاجتماع البشري هذه التجزئة والخطوط الفاصلة، التي تفصل بين الأشياء المادية عادة... غير أن التاريخ يسجل ـ وبكل أمانة ـ لهذه الأمة أو تلك:

ـ صفحات مضيئة مُشْرِقَة، بغض النظر عن موقعها من الزمان والمكان.

ـ وصفحات أخرى قاتمة أو سوداء، بغض النظر عن موقعها من الزمان والمكان كذلك. ثم يكون الحساب وتكون الموازنة.. هذا هو منطق التاريخ، وهذا هو سبيل الحكم على أحوال الأمم بصفة عامة.

يقول الأستاذ الأديب علي الطنطاوي في هذا المعنى: «سقوط روما كان نهاية القرون الأولى، وبداية القرون الوسطى، ولكن هل معنى هذا أنّه إذا كان سقوطها يوم الخميس، كان الأربعاء من القرون الأولى، والجمعة من القرون الوسطى؟ وإذا انتهى العصر الأموي بقتل مروان [(١)]، وولاية السفاح [(٢)]، فهل القصيدة التي نظمت قبل مقتله بيوم لها مزايا وخصائص الشعر الأموي، والتي نظمت بعده بيوم لها خصائص ومزايا الشعر العباسي؟

التبدّل الآني ليس من سنن الله في هذا الوجود، الليل يكون أسود حالكاً ثم يكون بعده النهار أبيض مشرقاً، فهل تحوَّل الظلام نوراً في لحظة، أم الله يولج الليل في النهار؟» [(٣)].

وبناء على ذلك أقول: إنَّ واقع الأمة الإسلامية اليوم، واقعٌ كوَّنته مواقف كثيرة؛ هزائم وتنازلات ومخالفات عقدية وسلوكية، ومظالم وأهواء وتسلط، واختلافات وجهل وغفلة.. في أزمنة متطاولة، وعلى أيدي أجيال متلاحقة، حتى انتهى إلى هذه الصورة الموجعة الأليمة [(٤)].

---

(١) هو: مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، أبو عبد الله، آخر ملوك بني أمية، ويُلَقَّبُ بـ «مروان الحمار»؛ لجرأته، كان حازماً مُدَبِّراً شجاعاً، إلا أنَّ ذلك لم ينفعه عند إدبار المُلْك والمحلال السلطان. قُتِلَ في بُوصير من أعمال مصر سنة (١٣٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ٧٤)، والأعلام (٧/ ٢٠٨).

(٢) هو: عبد الله بن محمد بن علي، أبو العباس، أول خلفاء الدولة العباسية، وأحد الجبارين الدّهاة، بُويع له بالخلافة سنة (١٣٢هـ)، وتتبع بقايا الأمويين بالقتل والصَّلْبِ، ولهذا لُقِّبَ بـ «السَّفَّاح». توفي سنة (١٣٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ٧٧)، والأعلام (٤/ ١١٦).

(٣) ذكريات علي الطنطاوي (١/ ٥٠).

(٤) انظر مثلاً: الإسلام اليوم للأستاذ/ أبي الأعلى المودودي، مبحث (المراحل التي اجتازتها الأمة الإسلامية)، ص١٠ وما بعدها. وكتاب: هل نحن مسلمون، للأستاذ/ محمد قطب، مبحث (خط الانحراف)، ص٩٧ وما بعدها.

والجيل المعاصر ما هو إلا حلقة في هذه السلسلة الطويلة، وعليه كفل من المأساة الراهنة، ولكن ليس هو صانعها ومهندسها الأول، وإن كانت قد تجلّت فيه مظاهرها، واكتوى بنارها.

والميزة والفضيلة لأي جيل تكمن في مقدار ما يملك من الأهلية واليقظة التي ترشحه لأن تكون بداية التحوّل إلى الأحسن في أوضاع الأمة بصورة مُلفتة وحقيقية.. أن تكون بداية ذلك التحول من عنده وعلى يديه.

وإنّه لشرفٌ عظيم في الدنيا والآخرة! نسأل الله بمنّه وكرمه أن يمنحنا هذا الشرف العظيم، وأن يسوق على أيدينا هذا الخير العميم.

وثمّة أمران ينبغي أن نكون على ذكر منهما، وبُصِرٍ بهما، قبل الخوض في تفصيل عواقب الإعراض عن سُنن الله وهديه؛ لأنَّ الاشتغال بذِكر العواقب ما هو إلا حديث عن النتائج. وغير سديد أن نتحدث عن النتائج ونحن لم نضع أيدينا على أسباب الانحراف ومظاهر الإعراض الرئيسة.

الأمر الأول: مفاده أن من تأمّل في أسباب الانحراف والإعراض التي مُنيت بها الأمة الإسلامية في تاريخها، فإنّه واجدٌ أن هذه الأسباب لم تزدها الأيام إلا رسوخاً، ومظاهرها إلا استفحالاً، فالأسباب هي الأسباب، وإن اختلفت صورها وأسماؤها.

وهذا بالنظر إلى جملة الأسباب، في عموم الأحوال والأزمان، ولو ذهبت تسبرها على التفصيل، فستنتهي والعلم عند الله إلى نحو هذا الاستنتاج.

وليس ما أقول ضرباً من الخرص، ولكنه مقتضى السنن الإلهية [1]، كما سيتضح لك ذلك باستعراض:

الأمر الثاني: وهو أننا إذا أردنا أن نرصد عواقب الإعراض عن سنن الله وهديه في واقع الأمة الإسلامية المعاصر، فلا بد أن نقف ـ ولو بصورة مختصرة ـ على خط الانحراف عن هذه السنن عبر تاريخ الأمة الإسلامية؛ كيف بدأ؟ وكيف امتد؟ لنميز ـ بالاستقراء ـ بين ما هو أساس ومُنْطَلَق لانحرافات أُخَر، وبين ما هو مظهر وأثر لهذا الانحراف أو ذاك.

---

(١) كما تبيَّن لك ذلك من خلال استعراض خصائص السنن وأنها ثابتة مطردة.

لقد بدأ خط الانحراف عن الجادة المستقيمة يوم طعن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ، يوم كسر الباب فدخلت منه الفتنة(١) التي أفضت إلى اختلاف وانقسام فاقتتال... ثم بدأ «منذ العصر الأموي أول كسر في المبادئ الإسلامية في سياسة الحكم والمال؛ إذ بدأ الملك العضوض بنظامه الوراثي ومظالمه، وبدأ ما يشبه الإقطاع في محيط الأمراء وأتباع السلطان، ومع ذلك فقد ظل المجتمع إسلامياً في مجموعه..

ثم جاء العصر العباسي.. ودخل في الفكر الإسلامي بعض المفاهيم الغريبة عليه، وأبرزها: الصوفية، والفلسفة النظرية التجريدية، الغريبة على التصور الإسلامي في واقعيته المثالية.. وانتشر في قصور الخلفاء والأمراء والأتباع، جو من اللهو والفسوق والتفاهة، والانصراف عن الكدح والجد.. لا يعرفه الإسلام، ولا يمكن أن يسيغه.. وانعكس شيء من ذلك الفساد على المجتمع.. وإن كان الفرد العادي فيه قد بقي.. مسلماً، يعيش بروح الإسلام ويحكّمها في حياته، يتجنّب الحرام ويسعى إلى الحلال، مسترشداً بهدي الله ورسوله، ومحافظاً على مواضعات المجتمع المستمدَّة من تعاليم الإسلام.. وكان الجهاد قائماً، والعلم والبحث مشرعة أبوابه(٢).

«وتُسرد أسباب كثيرة ساعدت في هذا التحوّل، غير أن السبب الرئيس لهذا التحول ـ في نظري ـ هو تناقص عدد المسلمين المتعمقين الواعين في المجتمع الإسلامي في ذلك الحين.. بينما كان الذين ينقصهم الفهم الحقيقي للإسلام، وكان لا يتلاءم سلوكهم ـ في جملته ـ مع الإسلام، قد تصاعدت نسبتهم إلى درجة أصبح معها من المتعذر، العناية الكافية بتربية هذا العدد الضخم تربية إسلامية، وتثقيفه ثقافة إسلامية، مع أنه كان في المسلمين رجال الصلاح والتقوى.. وأصبح من المستحيل تخليص المجتمع الإسلامي من المضاعفات المنبثقة من فقدان الوعي الإسلامي الصحيح فيهم، وبالتالي أصبح من المستحيل المحافظة على المجتمع من آثار عاهاتهم الخلقية»(٣).

«ونتيجة لذلك؛ حلَّت الملكية محل الخلافة، وانفرط عقد النظام الذي أقامه المسلمون الأوائل ببذل مُهَجِهم. وطالت هذه المرحلة من مراحل تاريخنا قروناً طويلة»(٤). بل لا تزال قائمة إلى يوم الناس هذا على أسوأ ما يكون من السوء.

---

(١) كما ثبت ذلك من حديث حذيفة ﷺ، عند مسلم، في كتاب الإيمان.
(٢) هل نحن مسلمون، ص١٠١ ـ ١٠٥، باختصار وتصرّف.
(٣) الإسلام اليوم، لأبي الأعلى المودودي، ص٢٧، ٢٨ بتصرف. وانظر: الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/٦٥٣) وما بعدها، من بحث بعنوان: الأسباب التاريخية لانحراف المجتمعات الإسلامية، وكتاب: أزمة العقل المسلم، ص٤٦. وكلاهما للدكتور/ عبد الحميد أحمد أبو سليمان.
(٤) الإسلام اليوم، ص٢٨. وانظر: أزمة العقل المسلم، ص٤٧، ٨١.

«وجاء العصر التركي، حيث استولى الأتراك العثمانيون على مقاليد الحكم. وقد حقق الأتراك للإسلام أمجاداً حربية رائعة، ما في ذلك شك، ولكن لا شك كذلك في أنَّ مفاهيم الإسلام قد عانت انحساراً كبيراً على يد الأتراك . . .

لقد كان أبرز ما في الإسلام منذ مولده أنه (حركة) . . . حركة فاعلة في كل اتجاه، في ميدان الفتح، كما هو في ميدان العلم، وميدان الفقه، وميدان الاقتصاد والاجتماع والفكر والسياسة . . وكل منحى من مناحي الحياة.

فلما تولاه العثمانيون امتدوا به في ميدان الفتح ما أهَّلتهم له عبقريتهم الحربية وقوتهم العسكرية. ولكنهم جمدوا به جموداً معيباً في بقية الميادين.

لم يكن لهم كبير اهتمام بالعلم . . ومن ثم توقف المد العلمي الإسلامي . . ولم يكونوا أصَلاء في الفقه . . . والفقه هو التعبير الدائم عن نمو المجتمع في ظل الفكرة الإسلامية. ومن ثم تلاقى تجميد الفقه، وتجميد المجتمع الإسلامي في وقفةٍ هائلة منكرة.

حافظ المجتمع على تقاليده الموروثة، ولكن هذه التقاليد ذاتها فقدت معناها، وصارت مظهراً بغير روح . . ومن هذه الوقفة المنكرة، بدأ الخطر الحقيقي على الإسلام . . فليس أخطر على أي فكرة أو نظام من أن يقف نموه، ويتجمَّد على صورة من الصور . . لأنه يأخذ بعد ذلك حتماً في الاضمحلال والضمور»[(١)].

وكانت دولة المماليك والأيوبيين أشبه شيء بدولة الترك، عناية بالجهاد، وإهمال لجوانب العلم والإبداع[(٢)]. باستثناء فترات محدودة في عهد نور الدين وصلاح الدين، كانت الأمة فيها تتجه نحو التكامل.

«وفي أثناء ذلك كله، كان الإسلام قد تعرَّض لأحداث عنيفة أليمة من الداخل والخارج على السواء، من صراعات الأسر الحاكمة، ومن هجمات المغول والتتار، وهجمات الصليبيين حيناً بعد حين، فلما جاءت هذه الوقفة المتحجرة على يد الحكم العثماني، كان ذلك إرهاصاً بضربة قاصمة تصيب الإسلام»[(٣)].

كما تعرَّض في الوقت نفسه لخطر آخر، هو أشد من ذلك أو هو سبب لذلك . . تعرَّض لتيارات فكرية منحرفة وفرق ضالة مناوئة، ظهرت في أزمنة مبكرة، وعمَّت بلاد

---

(١) هل نحن مسلمون، ص١٠٦، ١٠٧ بتصرف يسير.
(٢) انظر: العرب والتحدي، د. محمد عمارة، ص١٣٧ وما بعدها.
(٣) هل نحن مسلمون، ص١٠٦، ١٠٧. وانظر: العرب والتحدي، ص١٣٧ وما بعدها.

الإسلام، وكانت تنمو وتزدهر على حساب قوته وصفائه، ومن نجا من واحد منها قد لا ينجو من سائرها...

ظهرت الصوفية التي تقعد بالناس عن العمل والبناء، وتحيل التوكل إلى تواكل وخمول.. وأطلت الفلسفة الإغريقية بعقلانيتها التجريدية الباردة الجريئة، وكانت عُدَّة الفلاسفة والمتكلمين من المعتزلة وغيرهم..

وشاع الفكر الإرجائي الذي يجعل الإيمان مجرد التصديق والإقرار، ويُخرج الأعمال من مسمَّى الإيمان، وكان أخطر على المدى البعيد من سابقه؛ لأنَّه كان تكأة وتبريراً لكل تفلّت من التكاليف التي جاء بها الشرع، وعُرف في الأمة طوائف باسم الْمُرْجِئَة، ومنهم انتقل التأثير إلى كثير من المسلمين، تحت مسميات شتى [(١)].

وظهرت الخوارج في الطرف الآخر...

وكانت الشيعة ـ بفرقها المختلفة ـ من أعظم الفرق نكاية بالأمة وإيقاعاً بها، وكانوا يناصبون أهل السنة العداء جملة وتفصيلاً. وزاد من خطورتهم أنه كانت لهم دول في المشرق كالبويهيين والفاطميين، وفي المغرب كالموحدين.. تحكمت في بلاد المسلمين وكانت سيفاً مصلتاً على عقيدتهم وفكرهم، وعلى علمائهم وعامتهم، وحليفاً دائماً لأعدائهم..

وهذه النوابت وغيرها، كانت وراء تبديد طاقات الأمة، وتفرّق كلمتها، وانحراف مسيرتها، مما عجَّل بنهاية سلطانها، وأطمع فيها أعداءها..

كما أنَّها من جهة أخرى، كانت عقوبات متنوعة أوقعها الله بها؛ جزاء ما فرطت في جنب الله، وأعرضت عن السنن التي بها قوام حياتها وقوتها وعزتها وكرامتها، وجِماعُها اتّباع الشرع الْمُنَزَّل، والدعوة إليه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!

ومن هذا العرض الموجز، نستطيع أن نستخلص أهم الأسباب التي قعدت بالعالم الإسلامي عن أداء وظيفته في العالم، وأرغمته على هذا التخلّف المشين، والذلّ المخزيّ.. وهي السُّنن التي لما أعرض عنها، كان من آثارها ما سأحدّثك عنه بعد قليل.. وأهم هذه الأسباب:

* **الانحراف في سياسة الحكم، بحيث أصبح (ملكاً عضوضاً) بترك الشورى الحقيقية، وحلول (الملك) محل (الخلافة)، وكان تأثير هذا الانحراف على كيان الأمة عظيماً.**

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٢٦ وما بعدها.

* وصَاحَبَ ذلك وزَامَنَهُ انحراف في سياسة المال، في توزيعه بادي بدء، ثم في توزيعه وطرق تحصيله فيما بعد، ولا يكاد الانحراف الأول ينفك عن الانحراف الثاني، فيما أعلم.

ومن هذين الانحرافين، ظهرت انحرافات كثيرة، ووجدت مفاسد خطيرة على مستوى الأمة، منها:

ـ تعطيل مبدأ الشورى، وتولي غير الأكفاء وتنحية من هم أولى منهم بشؤون الأمة، وشيوع أنواع الظلم والْجَوْر، وظهور ألوان الطبقية بسبب المكانة أو المال أو النسب، وما إليها. وتخلي الحكومات الإسلامية عن فريضة الدعوة إلى الإسلام، وحمل مشاعله في الدنيا، واقتصارها ـ في أغلب الأحايين ـ على فتح البلاد وجباية الأموال [(١)].

وأخطر من ذلك كله: انقسام قيادة الأمة وانشطارها إلى شطرين: قيادة سياسية، وأخرى دينية.. استأثر الحكام بالشئون السياسية، وتركوا للعلماء والمصلحين قيادة الأمة في الشئون الدينية والأخلاقية والفكرية..

ثم لم يلبث الحكام أن فرضوا سلطانهم على كلتا الناحيتين، ودسوا أنوفهم في كل شأن من شئون الأمة، فأخضعوه لسلطانهم وأهوائهم؛ لأنَّ ترك القياد في زمام العلماء والمصلحين يقف عائقاً في سبيل شهواتهم ونفوذهم، فنجم عن كل ذلك التباعد بين هاتين القيادتين واتساع الصدع، ثم شَرَعَ التناحر، بدلاً من التعاون والتلاحم [(٢)].

ولا يزال الناس يشاهدون هذه الظاهرة الغريبة قائمة على قدم وساق في تاريخ الإسلام المعاصر، ويعانون ما جلبته على الأمة الإسلامية من الأضرار الفادحة.

ومن الأسباب التي قعدت بالأمة الإسلامية عن أداء وظيفتها:

ـ الضعف والتدنّي في مستوى تربية أفراد الأمة المسلمة على المبادئ والأهداف التي قامت عليها الأمة. وهذا الضعف والتدني شمل: طرائق التربية، والمضامين التربوية، والمجالات التي هي المساحة الطبيعية للتربية. ومهَّد ـ مع مرور الوقت ـ لكثير من الآفات الاجتماعية، كالترف والفساد الأخلاقي والأثرة والعصبية المقيتة، وقضى بالتدريج على فاعلية الأفراد في الإبداع والتضحية في سبيل نصرة الحق، وأضعف إرادتهم في مواجهة الأخطاء وتصحيحها والنهوض من عثراتهم الجماعية، وأوْهَى

(١) انظر: الإسلام اليوم، ص٣١.
(٢) انظر: الإسلام اليوم، ص٢٩، ٣٠، ٣١. و: أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان، ص٤٧، ٨١.

ولاءهم لأمتهم، فسمحوا لأنفسهم ولقياداتهم السياسية أن تمرِّر باسمهم ولاءات أضرَّت بالأمة وبالملَّة، ولم تعد مبادئ الأمة وأهدافها الكبرى التي تحتاج إلى بذل ومصابرة في بؤرة الشعور، ولم يعد كثير منهم حارساً أميناً عليها، بل قدموا عليها، أموراً ثانوية، وانشغلوا عنها ربما بتوافه الأمور.

ـ وهذا الضعف والتدني في مستوى التربية العقائدية الإيمانية، والأخلاقية السلوكية، جعل اختراق صفوف الأمة وتمزيقها إلى فرق وشيع مختلفة متناحرة أمراً سهلاً...

ـ وأخيراً، أصيبت الأمة بنوع شلل في معظم جوانب حياتها، وتوقفت عن النماء، خصوصاً في الجوانب العلمية وجوانب الإبداع العملية، فعم الجهل وسادت الغفلة، واستعاض الناس بمظاهر الأشياء وصورها عن حقائقها ومعانيها، وانتشرت البدع والخرافات في الاعتقاد والتصور، وفي التطبيق، وأميتت السنن، واستحكمت غربة الدين في نفوس أكثر المسلمين في كثير من البقاع.. ولم تعد القيادة السياسية مؤهلة لتحقيق أهداف الأمة، ولا الأفراد بمدركين حجم الخطر، وخطورة التوقف والجمود، ومغبة الانحراف عن منهاج النبوَّة، وظهر فصام نكد بين الشعور والسلوك، وبين التدين والمدنية، خصوصاً بعد الهجمة الصليبية الأخيرة على مصر فالعالم الإسلامي...[1].

ـ وكان الذي أغرى بظهور تلك الأسباب، وسهَّل لانتشارها، هو التخلِّي التدريجي عن القيام بشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهر بكلمة الحق، على مستوى الخاصة من الخلفاء والأمراء، وعلى مستوى عامة الأمة، من قِبَل العلماء والوعَّاظ وقادة الفكر والدعوة...

ولا يعنينا هنا معرفة الأسباب التي أدَّت إلى هذا السكوت على المنكرات والمخالفات؛ الاعتقادية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وغيرها... بقدر ما يعنينا أن نعرف أن تلك المخالفات الضخمة التي أدَّت إلى انهيار كيان الأمة وزوال سلطانها.. أن ذلك كان بسبب التخلِّي والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. هذه سُنَّة الله، وتلك هي عواقب مخالفتها وتركها[2]!

تلك هي ـ فيما أرى ـ أمهات الأسباب ومهمات السُّنن التي فرطت فيها الأمة الإسلامية، فانفرط عقد نظامها، وسقطت من عين الله، وهانت على عدوّها، يوم هانت في عين نفسها.

---

(١) انظر: هل نحن مسلمون، ص١١٠ وما بعدها. و: العرب والتحدي، ص١٤٠.
(٢) انظر: واقعنا المعاصر، للأستاذ/ محمد قطب، ص١٢٠.

ولهذه الأسباب ـ والله أعلم ـ مُنِيَ العالم الإسلامي بعقوبات إلهية متنوعة، في فترات مختلفة. مُنِيَ بضربات خارجية موجعة، من أمم مختلفة؛ المغول والتتار في المشرق، والصليبيين في المشرق والمغرب.

ودخلت الأمة في معاهدات وأحلاف مخزية، خصوصاً مع النصارى في الأندلس، أيام دولة ملوك الطوائف[١]. وفي المشرق في الشام، أيام الدولة الأيوبية. ووقع بين فئات المسلمين أنفسهم من العداوات والخصومات والثارات، ما لم يكن معهوداً مثله في أسلافهم.

وأصبح المسلمون من الغفلة والجهل والفسوق، بحيث انتظموا ـ غير مرة ـ جنوداً تحت إمرة النصارى أو بوحي منهم [٢]!

وقدموا لأعدائهم خدمات عظيمة، ما كانت لتحصل لهم لولا هذه الغفلة وذاك الجهل[٣].

فاجتمعت على هذه الأمة عوامل داخلية فتَّاكة، وعوامل خارجية حاقدة، على مدى ألف عام، بل تزيد.. فتلاشى وجودها الحضاري، وسلمت زمام الأمور ـ راغمة ـ للأمم الجاهلية الناهضة مادياً ومدنياً.

ولم ينجح في إنقاذ هذا الوضع المتردي للأمة، وجود بعض القيادات الواعية بين الحين والحين، ولم تستفق الأمة كما ينبغي على أصوات المصلحين النصَحَة، الذين لم يخل منهم جيل ودولة [٤] وقديماً قيل:

لا تقاتل بواحد أهل بيت فضعيفان يغلبان قويا

لم تستيقظ إلا على وقع سنابك خيول الغزاة، وبأصوات مدافعهم، يجوبون البلاد، ويعبثون بوحدة الأمة ودينها ومقدراتها، بصورة مباشرة أول الأمر، وبأيدي عملائهم وصنائعهم فيما بعد... لم تستفق إلا بعد فوات الأوان!

وكانت إفاقة غير طبيعية... كانت إفاقة انبهار وإعجاب بتفوق الخصوم، ورغبة جامعة في التقليد والمحاكاة.

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي، ص٣٢٥ وما بعدها، ٤٠٩ وما بعدها.
(٢) انظر: هل نحن مسلمون، ص١٢٧ وما بعدها.
(٣) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٨٨، ١٨٩.
(٤) انظر: الإسلام والحضارة العربية (٢/ ٢٧٨).

وسبب ذلك: أنَّ جماهير الأمة نامت يوم نامت، جاهلة بعقيدتها. زاهدة بتراثها، شاكّة في قدرتها على صنع أي شيء لمستقبلها. ومن نام على شيء فقمِن أن يستيقظ عليه، وتلك أقبح أنواع الإفاقة وأشدها ضرراً على الأمة!

إنَّ الجاهل البسيط يمكن أن يتعلم، والمهزوم الواثق بنفسه يمكن أن ينتصر، والمتخلف يمكن أن يتقدم.. إذا أخذ بالأسباب، وكان جاداً وصبوراً.. ولكن من كان جهله مركباً، وهزيمته من داخل نفسه، وتخلفه نتيجة مغالطة مكشوفة لطبيعة الأشياء، كحال أمتنا الإسلامية في زمن انحطاطها، فإنَّ له شأناً آخر!

كان أول ما بدأ به رواد النهضة! للخروج بنا من تخلفنا أن عَدَوا على ما بين أيدينا من أشياء فحطموها، حتى لا تعوق انطلاقتنا، زعموا!

ألقى الصحيفة كي يخفف رحله والـزاد حتى نعله ألقاهـا [1]

وبفعل الانبهار، راحوا يستجدون أعداءنا التاريخيين ليقدموا لنا ثمرة جهودهم وسِرّ تفوقهم على طبق من ذهب! وكلما خان أصحابنَا التقدير وحُسْن الظن بِعَدُوّنا، كرُّوا على أشيائنا يحطمون ما بقي منها، وعلى خلاصات أمتنا يستأصلونهم، ليقدموا أدلّة جديدة تشفع لهم في استحقاقنا جرعة أخرى من التقدم والتحضر!

إن الخلل كان في نقطة البدء، وفي دَخيلة من تزعّمه وقادَه!

وبيان ذلك: أن تعلم أن حركة التنوير الْعَلْمَانِيَّة الحديثة، قد انطلقت في رؤيتها لأزمة الأمة من وضعية الانبهار الحاد بما حققه المجتمع الأوربي الحديث من إنجازات مدنية وتنظيمية هائلة، فانكبت هذه النخبة على دراسة التجربة الأوربية الحديثة[2]. وبدلاً من أن تتعلق هذه الدراسة بالتقنية الأوربية، أو المناهج العلمية التطبيقية، أو علوم التنظيم والإدارة، ونحو ذلك مما كان هو أهم أسباب تقدم أوربا الحديثة، وهو الذي نجحت في البدء به أمم أخرى كاليابان مثلاً... بدلاً من أن تفعل ذلك، انحرفت فاتجهت إلى المناخ الثقافي الأوربي، وجذوره التاريخية، من منطلق أنَّ هذا الإنجاز المدني، كان وليد مناخ ثقافي معين ساعد على التقدم.

فانحرفوا نحو دراسة آداب الغرب وتاريخهم وفكرهم الديني والسياسي واجتماعهم واقتصادهم.. كل ذلك من واقع نفسي مهزوم.. حتى حدث في عقولهم نوع استبدال

---

(١) البيتُ لمروان بن سعيد النحوي، أحد أصحاب الخليل المتقدمين. انظر: كتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون (٩٧/١).

(٢) جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث، تأليف: جمال سلطان، ص١٠٤.

كامل لـ (العالم العقلي) كما هو عند الإنسان الأوربي.. واتخذوا من تجربة الغرب (أنموذجاً) كاملاً يحاكمون إليه كل ما عندهم من دين وتراث وواقع إسلامي في الماضي والحاضر، بدلاً من المقارنة والموازنة، وأغفلوا بدهية أحسبها لا تخفى على من له أدنى مسكة عقل، وهي: «أنّ لكل تجربة إنسانية خصوصيتها، التي تجعل من الصعب أو المحال تعديتها برمتها إلى بناء إنساني آخر»[(١)].

وتجاهلوا «حقيقة أولية وشرطاً أساسياً، وهو أن النهضة أو الحضارة.. تولد أساساً في ضمير الإنسان، شروطها ومثيراتها، ثم تنعكس هذه الفاعلية الإنسانية على الواقع والأشياء والقوانين والنظم، فتحدث فيها التغيير المرجو نحو الحضارة»[(٢)]. وما يولد في الضمائر غير الذي يتلقف بالمحاكاة والتقليد الببغائي.

هذا بالضبط ما جرى لأمتنا الإسلامية في تاريخها المعاصر، بدءً واستمراراً.. ولقد نسي أصحابنا ـ روّاد النهضة ـ ونسينا معهم في تلك السنين العجاف، طبيعة الأشياء ومنطق التاريخ..

* نسينا أو نسيت طلائع هذه الأمة في أوائل العصر الحديث ـ شعوباً وقيادات ـ أن الأمة الإسلامية يوم نهضت نهضتها الميمونة أول مرة؛ أنها لم تستعن بعدوها، وإن استفادت منه. ولم تكن تحسن الظن به، وأن عدوها كان مستميتاً في القضاء عليها، وأنها نهضت بعقيدتها الإيجابية، وبسواعد أبنائها المؤمنين بأهدافها ومبادئها.

* ونسينا أن أوربا يوم نهضت في العصور المتأخرة، كانت نهضتها على الرغم منا، وكانت نهضتها نتيجة جهود أبنائها المؤمنين بفلسفتها وأهدافها، وأنها رغم إباحيتها وإلحادها في الواقع، ما تزال شديدة التعصب لدينها.. شديدة الولاء لبني ملّتها. لقد تخلصت من الدين الزائف المعوق لنهضتها، ولم تتبرأ من انتمائها لمدارها الحضاري.

* ونسينا أن نهضة اليابان كانت بغير إرادة الغرب.. وأن اليابانيين لم يكفروا ببوذيتهم كي يتقدّموا! بل ازدادوا مع الأيام إيماناً بقدسية بوذا! وأنّ نهضة ألمانيا كانت بغير اختيار الحلفاء.. وأنّها لم تجعل دينها قرباناً لنهضتها!

* وأن نهضة كل دولة في الدنيا كانت تكون بغير استشارة الدنيا كلها!!

* نسينا هذا كله، وتذكرنا فقط أن أوربا نهضت يوم كفرت بالكنيسة ونحّت الدين جانباً! ولو تذكرنا أن أوربا تتلمذت على علومنا وحضارتنا.. بوصفنا مسلمين لا

(١) انظر: المصدر السابق، ص١٠٤، ١٠٥ بتصرف.
(٢) انظر: المصدر السابق، ص١٣٢، ١٣٣ بتصرف.

بوصفنا عرباً، وأننا على مدى قرنين لم نستطيع أن نتعلم من أوربا شيئاً نافعاً، يوم أصبحنا عرباً بلا هوية . . لكفى .

نسينا هذا كله، ووقفنا على أعتاب الأمم المتقدمة نريد أن نشتري الحضارة! أو أن يتفضلوا علينا فنُوهَب الحضارة بالمجّان! إي والله . هل تصدقون!!

ونسينا ـ في غمرة الإعجاب ـ ماذا نريد أن نتعلَّم؟! ولماذا نتعلَّم؟ وعلى يدي من نتعلم؟!

بل نسينا أن من شيمة الجاهل، أن يقف موقف التلميذ ممن هو أعلم منه ليتعلَّم، ثم يعود عَلَماً يزاحم العلماء، ليتفوق عليهم!

نسينا كل هذا، فوقفنا موقف الزبون السفيه من صاحب الحانوت الماكر[١] . فاشترى بأثمان باهظة أقبح ما في حانوته وأرخصها ثمناً . .

فتعلَّم التلاميذ وأصبحوا أساتذة، وبقينا نحن زبائن أوفياء للأساتذة وللتلاميذ!

وشيء آخر أستكمل به أبعاد المأساة:

قد يقول قائل: أنت تبالغ في التشاؤم!

إنَّ طلائع الأمة لم يذهبوا هنا وهناك إلا ليتعلَّمُوا الحضارة والمدنية . . .

وأقول: لنسلّم جدلاً بدعوى هؤلاء، لكن لا بد أن يسلموا لنا بأن اختيارنا للتلاميذ الطلائع كان غير موفق بكل المقاييس!

كان مَنْ اختارهم إما جاهلاً، أو مخدوعاً، أو مغرضاً ذا نية سيئة .

كان الطلبة والمبتعثون أحسن ما يُقال عنهم ـ في جملتهم ـ أنهم جهلة بدينهم، ضَعَفَة في ولائهم لأمتهم، بادية عليهم علائم الفسق والتحلّل، لم تكن الأهداف البعيدة واضحة في أذهانهم، ولم تكن عداوة أعدائهم راسخة في قلوبهم . فكانت النتائج أنهم لم يعودوا على أمتهم بما انتدبتهم له، وعادوا إليها بما أراد أعداؤها لها من نكسة وخيبة وفساد . . فتولوا أزمّة الأمور؛ لأنّهم رواد نهضة الأمة! وولاهم المستعمر مقاليد البلاد؛ لأنّه ربَّاهم على عينه . . فاجتمعت فيهم أوهام المخدوعين من أمتهم، وإرادة الماكرين من أعدائهم . . فلا تسأل عن المحنة المرتقبة!

(١) وهو معنى عبارة رائعة أنشأها المفكر الإسلامي، مالك بن نبي، وهو يقارن بين موقف العالم الإسلامي من الحضارة الغربية وموقف اليابان ومن سار سيرها من تلك الحضارة.

تلك ـ باختصار ـ هي أبعاد المأساة ومعالم الكارثة، وأولاء هُمْ أطرافها. ويكفي بعد ذلك أنْ أنقل فقرات شاهدة على بعض عواقب هذا الإعراض عن السُّنن الإلهية في الواقع المعاصر للأمة الإسلامية، وهي فروع على تلك الأسباب، وامتداد لآثارها الوخيمة، وإن اختلفت الأسماء والألوان. والْحُرّ تكفيه الإشارة.

وكما لم يكن مستطاعاً حصر مفاخر هذه الأمة ومآثرها في الماضي، فكذلك لا يمكن الإحاطة برزاياها ونكباتها في الحاضر.. وصدق القائل:

أنّى اتجهت إلى الإسلام في بلد　　　تجده كالطير مقصوصاً جناحاه[1]

ومَن قال:

فلو كان سهما واحدا لاتقيته　　　ولكنه سهم وثان وثالث

ولكن سأذكر من العواقب أبرزها، وما أراه أهم وأجمع من غيره.. والْبَعْرةُ تدلّ على البعير!

وسأعرض لعواقب هذا الإعراض الْمُريع عن سنن الله وهديه؛ عن الإسلام الذي هو قَدَر هذه الأمة وسِرّ وجودها وبقائها.. سأعرض لهذه العواقب في خطوط عريضة، وبصورة مجملة، ثم أُفَصِّل بعض التفصيل مثلين في دولتين، تمثل كل منهما أنموذجاً متكاملاً للإعراض عن سُنن الله، وقد حصل لكل منهما من العواقب الوخيمة في كل المجالات ما فيه مزدجر، لو كنا نعقل!

وهاتان الدولتان هما (تركيا) دولة الخلافة الإسلامية، و(مصر) بوابة العالم العربي.

«وأول ما يبدو هنا من عواقب هذا الإعراض وآثار ذاك الانحراف عن صراط الله المستقيم، حين ننظر إلى القرنين الأخيرين، والقرن الأخير بصفة خاصة، أول ما يبدو هنا هو هذا الغبش الشديد المحيط بحقيقة الإسلام في نفوس المسلمين، والبُعْد المتزايد عن هذه الحقيقة في الحياة الواقعية. أي أنه فساد في التصور وفساد في السلوك»[2].

ومعنى ذلك: أن غالبية المفاهيم، إن لم نقل «كُل المفاهيم الإسلامية، قد فسدت وانحرفت في حسّ أكثر الأجيال المتأخرة، بدءً بمفهوم لا إله إلا الله، التي أصبحت مجرد كلمة تُقال باللسان، والقلبُ عنها غافل، والسلوك عنها بعيد، إلى مفهوم العبادة الذي انحصر في الشعائر التعبدية، تُؤدّى أو لا تُؤدّى، إلى مفهوم القضاء والقدر، الذي تحوّل إلى قوة مثبطة مخذلة، إلى مفهوم الدنيا والآخرة، اللتين انفصلتا وتحوّلتا إلى معسكرين

---

(١) البيتُ للشاعر المصري، محمود غنيم، المتوفى سنة (١٣٩٣هـ)، من قصيدة له، مطلعها:

تاه الدليل فلا تعجب إذا تاهوا　　　أو ضيع الرَّكْبَ أشباح وأشباه

انظر ترجمته في: الأعلام (٧/ ١٧٩).

(٢) واقعنا المعاصر، ص١٦٥، بتصرف وزيادة.

متقابلين متعادين، العمل في أحدهما يؤدي إلى إهمال العمل في الآخر، إلى مفهوم عمارة الأرض، الذي تحوَّل من عمارة الأرض بمقتضى منهج الله إلى توقف العمارة، ولكن بغير منهج الله!

وأصبح الدين في النهاية صورة باهتة خاوية من الروح، لا تستطيع أن تصمد للهجوم الوحشي الذي تَدَافع من كل صَوْبٍ للقضاء على الإسلام(١).

ويمكن أن نطلق على هذا الغبش والفساد في التصورات والمفاهيم اسم (التخلف العقيدي) في حياة الأمة.

ونطلق على ما تولَّد من ذلك من انحراف وبُعد عن التطبيق الصحيح لتعاليم الإسلام اسم (التخلف في السلوك والعمل) على مستوى الأمة(٢).

وكلا الأمرين خطير غاية الخطورة، ولكن الخطورة القصوى تكمن ـ بلا شك ـ في (التخلف العقيدي)؛ لأنَّه هو الذي يُمد للتخلف السلوكي من ناحية، ويؤخّر علاجه من ناحية أخرى..

ولأنَّ التخلف السلوكي يمكن علاجه بالتذكير، كما تعالج سائر الغفلات، وليس كذلك التخلف العقيدي؛ لأنَّ التذكير لا يجد استجابة طبيعية في القلب، ويحتاج الأمر إلى إبراء القلب ذاته مما ألَّمَّ به من أمراض(٣).

و«من التخلف العقيدي نشأت كل ألوان التخلف التي أصابت العالم الإسلامي.. التخلف العلمي والحضاري والاقتصادي والحربي والفكري والثقافي.. وقد تختلف النسبة بين العوامل المختلفة التي أدَّت إلى التخلف العقيدي في تأثيرها في كل نوع من أنواع التخلف التي ذكرناها آنفاً، فتكون نسبة تأثير الفكر الإرجائي في بعضها أوضح، ونسبة تأثير الصوفية في بعضها أظهر، ونسبة التفلّت من التكاليف في بعضها أكثر، ونسبة تأثير الاستبداد السياسي في بعضها أشدّ.. ولكنها موجودة في مجموعها، وعاملة في كل مجال من مجالات التخلف التي ترتبت أصلاً على التخلف العقيدي واستمدت منه»(٤).

وحينما نقول: إنَّ كل أنواع التخلف التي غشيت العالم الإسلام اليوم كلها نابعة من التخلف العقيدي... حينما نقول ذلك، فإنَّنا نعني: العقيدة الإسلامية التي تستوعب حياة الأمة والأفراد، وتصدر عنها كل تصرفاتهم.. نعني بالعقيدة التفسير الكامل لمعنى الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله)... نعني العقيدة التي يفسر مدلولها قوله

(١) واقعنا المعاصر، ص١٦٣، بتصرف يسير.
(٢) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٧٢.
(٣) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٧٢ بتصرف.
(٤) واقعنا المعاصر، ص١٧٣.

تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣] . ويقرر معناها قوله سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وتترجمها في الواقع حياة رسول الله ﷺ وسيرته ، وأقواله وأفعاله ، بكل أبعادها وملابساتها ، وسيرة خلفائه الراشدين المهديين من بعده .

وحينئذٍ نقول: التخلف العلمي انحراف سببه خلل في فهم العقيدة أو في تطبيقها ، أو فيهما معاً . . والانحراف في السلوك تخلّف سببه خلل في فهم العقيدة أو في تطبيقها ، أو فيهما معاً . . وهكذا .

والآن يمكن أن نستطرد في ضرب الأمثلة على عواقب الإعراض عن السنن في حياة الأمة الإسلامية المعاصرة على سبيل الإجمال .

وسأذكر النماذج التي استجدّت ، ولم يكن للأمة الإسلامية بها عهد قبل هذه الحقبة التاريخية ، التي لا تتجاوز قرنين على وجه التقريب .

**** فمن ذلك: الهجمة الصليبية واحتلال العالم الإسلامي.**

كان المسلمون في صراع مسلح دائم مع أعدائهم من النصارى والوثنيين وغيرهم . . كانوا يغيرون على أجزاء من الأرض الإسلامية ، ثم ينقلبون على أعقابهم . . حتى يوم أغار التتار على بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية لم يحكموا العالم الإسلامي ، وإنّما دخلوا في دين المغلوبين ، وصاروا من جند الإسلام! ولم يظفر الصليبيون طوال مائتي عام بطلبتهم ، وسلمت بيت المقدس للمسلمين!

ولأوّل مرة ، فقد اجتاحت أوربا الصليبية العالم الإسلامي كله تقريباً ـ ما عدا أجزاء من الجزيرة العربية وتركيا ـ بجيوشها ، فاحتلت بقاعاً من الأرض كانت خاضعة للحكم الإسلامي ، يعيش فيها نصارى ومسلمون ، واستولت على بلدان العالم الإسلامي التي يسكنها المسلمون أنفسهم!

ولأول مرة تتحكم أوربا الصليبية بخيرات بلاد المسلمين ، وتحرمهم منها [1] .

**** ومن ذلك: إلغاء الخلافة الإسلامية وتمزيق وحدة العالم الإسلامي.**

كانت الخلافة الإسلامية تمثل رابطة قوية بين شعوب العالم الإسلامي عبر تاريخ المسلمين الطويل ، حتى في فترات ضعفها وانحرافها . .

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر ، ص١٨٣ ، ١٩٠ . والحلول المستوردة ، للدكتور/ يوسف القرضاوي ، ص٢١ .

ولم تزل الشعوب المسلمة، حتى في فترات الخروج عن طاعة الخليفة من قِبَل بعض الأمراء تشعر بوحدتها، ولم تكن الحواجز السياسية والجغرافية بين بلدان المسلمين معروفة.. وكان ذلك من أعظم أسباب قوتها وهيبتها.

وهذه الرابطة كانت هاجساً يؤرق أوربا، حتى في طور ضعف الخلافة الشديد.

«يقول أحد المبشرين في بدايات القرن العشرين، قبيل انهيار الدولة العثمانية: إنَّ أوربا كانت تخشى الرجل المريض (وهو مريض!)؛ لأنَّ وراءه ثلاثمائة مليون من البشر على استعداد للقتال بإشارة من إصبعه»[1].

وقال أحمد راسم: «تغبط أعظم إمبراطوريات العالم الدولة العثمانية على ما كان لها من الملك العظيم، والسلطان الذي يضم تحت لوائه زهاء ثلاثمائة مليون من المسلمين، ارتبطوا بالخلافة العثمانية برباط معنوي أكيد..»[2].

ولهذا تآمرت قوى الشرّ «على الدولة العثمانية حتى قضت عليها في النهاية وأسقطتها، وفُتِّتَ العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة هزيلة ضعيفة، تتصارع فيما بينها وتتشاحن فيما يحقق مصالح الأعداء دائماً، ويحقق لهم السيطرة على مقدرات المسلمين! وانتزعت فلسطين، وقد استولى الأعداء على بيت المقدس، التي ثارت من أجلها الحروب الصليبية الأولى»[3].

ولأوّل مرة تُقام هذه الحواجز، وتصطنع تلك الحدود بين بلدان العالم الإسلامي وبين شعوبه، مما رسخ أقدام العداوة، وأكد الشعور بالفرقة، وقطع الأمل بعودة دولة الخلافة.

**** ومن الرزايا الجسيمة التي مُني بها العالم الإسلامي بسبب الإعراض عن سنن الله:**

تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم وفرض التحاكم إلى غير شريعة الله.

إنّه لم يفكر حاكم من الحكام في بلاد المسلمين، وإن بلغ من الاستبداد والطغيان والفسوق ما بلغ، أن يحكم المسلمين بغير شرع الله، ويرفض الالتزام بمبدأ الإسلام.

ولم يخطر ببال شعب من الشعوب المسلمة أن يحكمه ـ يوماً ما ـ نظام غير نظام الإسلام، أو يُقسَر على التحاكم إلى غير شريعة الله[4]!

---

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، للأستاذ: محمد قطب، ص١٨٩. وقد جاء هذا المعنى في كلام للمؤرخ الغربي (كورنو). انظر: الإسلام والحضارة العربية (٢/ ٥٣٣).

(٢) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ٥٣٥).

(٣) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص١٨٣.

(٤) انظر: الحلول المستوردة، ص١٨.

نعم ، قد حصل نوع خروج على الشريعة ، بإدخال بعض القوانين الوضعية في وقت مبكر نسبياً ، في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني ، الذي اشتهر بهذه التسمية بسبب تلك الفعلة المنكرة(١) .

وكانت هذه ثغرة بدأت تتسع حتى أدَّت في النهاية إلى أفظع ما حدث في تاريخ الأمة من انحرافات (٢) .

لأوَّل مرة تُفْرَض القوانين الوضعية على المسلمين ، وتُنحَّى الشريعة الإسلامية عن واقع حياتهم ، من قِبَل المستعمرين ، ثم على يدي العملاء المستأجَرين!

لأول مرة في البلاد الإسلامية يجري نقل «الأنظمة والقوانين الغربية ، وتعطيل تطبيق الأحكام الشرعية ، والهجوم عليها ووصفها بالقسوة والوحشية ، وإهدار كرامة الإنسان ، وعدم ملاءمتها للمدنية الحديثة . .

وما دَخَلَ الاستعمار بلداً إسلامياً إلا انتهى أمره بهذه النتيجة ، في التخلِّي عن الشريعة الإسلامية .

وأول عمل قام به الإنجليز في الهند ، إلغاء الشريعة الإسلامية ، وأول عمل قام به نابليون في مصر ، هو تعطيل الشريعة وإحلال القانون الفرنسي محلها ، وأول عمل قام به صنيعة الاستعمار (مصطفى كمال) في تركيا هو إلغاء الشريعة الإسلامية ثم إعلان تركيا دولة لا دينية» (٣) . ثم اتسع الخرق على الرَّاقع .

وقد يتفضلون ـ أعني المستعمرين أو عملاءهم ـ على الشريعة! فيحشرونها في (ركن) ضيق ، تنظمه وتقضي فيه ، وهو ما يتعلق بشؤون الأسرة ، أو ما سُمي (الأحوال الشخصية) . . أما شؤون الحياة والعلاقات المدنية والتجارية والجنائية والإدارية والدولية . . فلها (قوانين وضعية) ، تحكم بها (محاكم مدنية) (٤)!

**** ومن العقوبات الإلهية التي لا عهد للأمة الإسلامية بها:**

تفشِّي الفساد الاجتماعي والانحلال الخلقي.

لم يكن مجتمع المسلمين ـ حتى في القرون المفضلة ـ مجتمعاً ملائكياً ، خالياً تماماً من الفساد أو الانحراف الخلقي . . لكن من المؤكد أنه كان نظيفاً طاهراً إلى حد بعيد . . وحتى

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر ، ص١٦٠ ، وقد تولى الحكم من سنة (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م) . السابق في الحاشية .
(٢) انظر: واقعنا المعاصر ، ص١٦٠ .
(٣) معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية ، للشيخ مناع القطان ، ص٤٦ بتصرف يسير . وانظر: الحلول المستوردة ، ص٧٣ .
(٤) الحلول المستوردة ، ص٧٣ بتصرف .

في عصور الضعف والجهل والجمود، كانت الأخلاق والآداب الاجتماعية مرعية في الجملة، وعلى مستوى الأمة.

أمَّا أن يكون الفساد والعهر والانحلال، ويكون الخمر والتهتك والسفور ويكون الترف الماجن والربا وسائر الرذائل.. أما أن تكون هذه شيئاً مباحاً، ومشاعا في الأمة، تُحمى بقوة القانون! أما هذا فشيء لم تعرفه أمة الإسلام إلا على أيدي طلائع النهضة المشئومة! وهي مما عاقب الله به هذه الأمة في هذا العصر، فيما عاقبها به، لما تشبهت بأعدائها، وخنعت لهم ورضيت سيرتهم..

والأنكى من ذلك، أن يكون الطُّهر والعفاف، والحشمة والتَّرفّع عن الدَّنايا.. أن يكون ذلك عنواناً على اعتلال الذوق، ودليلاً على التخلف والرجعية والجمود والتَّزَمّت!

**** ومن ذلك: سلب الحريات وإهدار كرامة الإنسان.**

لم تشهد شعوب العالم الإسلامي منذ فجر الإسلام ـ فيما أظن ـ خصومة واختلافاً بينها وبين حكامها مثل ما شهدته في عصرنا الحاضر، حيث إن الشعوب المسلمة على طرفي نقيض مع حكامها، من صنائع الغرب والشرق..

ولم يلق المسلم من الحرمان وإهدار الكرامة، مذ كان مسلماً، ما لقي ويلقى في هذه الأزمان..

وحتى في أزمنة الاستبداد والطغيان السياسي فيما مضى، فإنه توجد هناك أشكال من الحرية، تُبقِي على الحد الأدنى من الكرامة؛ هناك حرية العبادة وحرية الدعوة إلى الله، وحرية التنقل والحركة، وهناك حرية التفكير والتأليف والتعليم فيما لا يتعارض مع سلطان الوالي [1]، وحرية الاتجار.. وغيرها.

أمَّا في واقع الأمة الإسلامية المعاصر، فإنَّ الشعوبَ الإسلامية ـ في زمن الحرية المزعوم ـ تعيش في سجون كبيرة تسمى البلاد الإسلامية.. لا تملك حق إبداء الرأي، فضلاً عن النقد والاعتراض، أو الكتابة والنشر، فضلاً عن المشاركة الفعلية في تدبير شؤون بلادها! لا يسمح للمُبدعين وذوي الكفاءات بالإبداع والتطوير، ولا للمصلحين بالإصلاح وكبح جماح الفساد، بل وليس لهم حق المطالبة بكف الفساد والرذيلة عنهم، فضلاً عن المطالبة بتطهير المجتمع منها!

وليس للناس حقٌّ أن يسألوا عن ثروات بلادهم أين تذهب، ولماذا تُهْدَر!

(١) ولم يكن سلطان الوالي آنذاك قائماً على أساس التعارض مع الإسلام جملة.

ليس للمسلمين في هذه الدويلة أو تلك، أن ينصروا إخوانهم المسلمين المنكوبين في أي مكان! ليس لهم أن ينصروهم بالمال أو السلاح والرجال، بل وليس لهم أن ينصروهم ويشاركوهم بالمشاعر الطيبة والدعاء إلا سِرّاً في كثير من الأحيان! أو يكونون مخالفين للأنظمة! هذا فضلاً عن القيود على الحركة والتنقل، وعلى التجارة بألوانها في عدد غير قليل من بلدان العالم الإسلامي . . . إلى آخر القصة .

وكل هذه المظالم مما ابتلى به المسلمون في العصر الأخير عقوبة على تفريطهم في جنب الله وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

**** ومما جدّ في حياة المسلمين، ولم يكن لهم بمثله عهد:**

محاربة الإسلام ومحاولة تجفيف منابعه والعمل ضد مصالح الأمَّة؛ أي محاولة القضاء على الهوية الإسلامية، وقتل الشعور بالولاء للإسلام والانتماء إليه.. وذلك عبر وسائل شتى، من أبرزها:

* إبراز زعامات علمانية وقيادات لا دينية على مختلف المستويات، والنفخ فيها والتطبيل لها؛ ممن يُنتَخَب انتخاباً صورياً، أو تأتي به الانقلابات العسكرية .

تُضفَى «عليهم البطولات الكاذبة، وهم يذبحون المسلمين وتقطر دماؤهم من أيديهم، ويُعَبِّدون شعوبهم لمصالح الصليبية الصهيونية لقاء شهوة السلطة وشهوة الطغيان.. ويُفقِرون شعوبهم ويستنزفون طاقاتها، فتركبها الديون، وتهبط عُملاتها ويزيد تحكم الأعداء فيها، وهم جالسون بغلظ أكبادهم يتسلون بمصائب شعوبهم!»[(١)]. في الوقت الذي تتم فيه محاولة إلغاء فاعلية القيادات الحقيقية للأمة من العلماء والمصلحين، وإقصائهم عن دائرة الضوء، وتشويه صورتهم بأي وسيلة.. بالتزوير والإثارة المفتعلة، أو بالنفي والتشريد، أو بتكميم الأفواه، أو بأي شيء آخر.. لمصلحة الأمة!

* توظيف إمكانات الأمة الإعلامية والتعليمية لخدمة هذه الأغراض، وتجييش جحافل من سَقَط الناس، تتزعمها قيادات مصطنعة «لا تعرف الإسلام على حقيقته، بل هي نافرة منه، منسلخة عنه، مُسممة الأفكار تجاهه، تدعو بدعوات الغرب، وتنعق بأفكاره، وترفض أن تحكم بشريعة الله بعد أن قيل لها إنَّها رجعية وجمود وتأخّر! وتقف للدعوة الإسلامية بالمرصاد.. سواء منها الحكام والمفكرون والكتَّاب والسينمائيون

---

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص١٨٤ .

والإذاعيون والتلفزيونيون والقصاصون والمسرحيون والفنانات والفنانون.. والأولاد والبنات التقدميون المنحلو الأخلاق»(١).

إنَّ تعمّد محاربة الإسلام لذاته على أيدي حكامه، وتسخير إمكانات الأمة لذلك... بادرة لا عهد للمسلمين بها من قبل.

وتدمير مناهج التعليم، وتعمّد تجهيل الأمة لإطفاء شعلة الإيمان فيها، وصرف ولائها عنوة إلى أي شيء غير دينها.. مهزلة يبرأ منها تاريخ المسلمين..

*** ومن عواقب الإعراض عن سنن الله التي أُمِر المسلمون بالأخذ بها:**

سحق الأقليات الإسلامية وتذويبها في المجتمعات الجاهلية:

إذا كان المسلمون يعيشون غرباء في بلادهم، وهم كل السكان أو أكثر من ٩٠ ٪ من عدد السكان.. فما ظنُّكَ بالأقليات الإسلامية في البلاد الكافرة المهيمنة ؟!

إنَّ أحسن أحوالهم أن يكونوا مواطنين من الدرجة الثالثة، يعيشون على امتهان الحرف الدنيئة في عرف المجتمع.. ويُحرَمون من حقوقهم في التعليم والوظائف، وسائر المميزات.. ويُجبَرون على التخلي عن كثير من شعائر دينهم وعاداتهم.. وتُسن القوانين والتشريعات ضد مصالحهم.

«والنتيجة النهائية لهذا الضغط الاجتماعي على عقول الأقلية الضعيفة هي تشككها في صحة معتقداتها، ونتيجة لذلك فإنّها تبدأ في التساهل ببعض المبادئ الأساسية لدينها، كما أن البعض منها يبدأ في الشعور بالخجل مما هو عليه..

وعندما يفقد المجتمع أو جماعة منه، ثقته في أخلاقياته وكيانه وتكوينه، فإنَّ باب الانهيار لا يمكن إغلاقه بسهولة»(٢).

ولم يكن ذلك ليكون لو كان للمسلمين شوكة قويّة، ودولة مُهابة. ويوم كانت لهم تلك الدولة وتلك الشوكة، كان الظلم مرفوعاً عنهم، وكانت قوتهم مستمدة من قوة الأمة التي ينتمون إليها، والديانة التي يدينون بها!

ومما يَحُزّ في النفوس ويبعث على الأسى، أن ترى كثيراً من الجاليات الإسلامية قد فرّت بدينها من ظلم الظالمين ببلادها، واستجارت بخصومها وأعدائها؛ لأنّهم أعدل

---

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص١٨٤.

(٢) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ٢٦١، ٢٦٢)، من بحث للدكتور/ عبده كاسوزي، الأستاذ بجامعة ماكريري ـ أوغندا، بعنوان: «مشكلات الأقليات الإسلامية التي تعيش بين أغلبيات غير إسلامية»، وقد ذكر الباحث صوراً من معاناة هذه الأقليات، ابتداءً بإخراجهم من دينهم، وانتهاء بالتدخل لمحاولة تغيير أسمائهم، وما بين ذلك.

سياسة وأرعى لحقوق الإنسان من سدنة الحكم في بلادهم[(١)]! فتقسّم الظلمُ والهوانُ أكثر المسلمين . .

فطائفة يشكون إلى الله ظلم أعدائهم من غير أهل ملتهم . . وطوائف يجأرون إلى الله من ظلم بني جلدتهم!

إذا خانك الأدنى الذي أنت حزبه فواعجباً إن سالمتك الأباعـــــد

وبالمقابل تتمتع الأقليات غير المسلمة من اليهود والنصارى وغيرهم في بلاد المسلمين بميزات، وتظفر بتسهيلات لا يحلم المسلمون في بلادهم أن يظفروا بها . . بل إنَّ كرامة الأغلبية المسلمة وحريتها وحقوقها، لتذهب فداءً لكرامة الأقلية الكافرة وحريتها وحقوقها! باسم التسامح وحقوق الأقليات .

أَحَـــرَامٌ على بلابلـــه الدوح حـــلال للطير مـــن كـــل جنس ؟

وما ذلك إلا لغلبة أهل تلك الديانات على أمة الإسلام، وفسوق عامة المتنفذين من أهله فالله المستعان .

*** ومن عواقب الإعراض عن سنن الله على سبيل الإشارة:**

ـ هجرة العقول الإسلامية: مَن تمكّن منهم من الهجرة وتهيأت له أسبابها، فحرمت الأمة من أهم عناصر البناء على الإطلاق، وهو الإنسان . . وأي إنسان؟! إنَّه الإنسان المفكر المبدع! الإنسان الإيجابي الموهوب! بسبب العوامل السابقة مجتمعة، وغيرها[(٢)] .

ـ نزوح رؤوس الأموال الإسلامية وحرمان البلاد منها: وهي رؤوس أموال ضخمة كان يمكن أن تساعد في تهيئة أوضاع اقتصادية جيدة لعدد من الدول الإسلامية، وتستقطب آلافاً من العقول المهاجرة، وتشغل ملايين العاطلين، وتستثمر ملايين الأفدنة المعطَّلة من أراضي المسلمين، وتساهم في نهضة صناعية مدنية ضخمة، تغني العالم الإسلامي عن الاعتماد على الاستيراد، ونهضة صناعية حربية تعيد للأمة هيبتها وكرامتها . .

---

(١) وهذه الجاليات غير الأقليات الإسلامية الذين هم من أهل البلاد الأصليين، ولكنهم أقلية بالنظر إلى مجموع السكان، وهم الذين أشرتُ إليهم في أول هذه الفقرة .

(٢) انظر على سبيل المثال: هجرة العلماء من العالم الإسلامي، للدكتور/ محمد عبد العليم مرسي، وكتاب: قضية التخلف العلمي، للدكتور/ زغلول راغب النجار، ص١٨، ١٣٢ .

لقد حدث العكس ؛ إذ أسهمت هذه الأرصدة والأموال الإسلامية في البنوك الغربية بقوة ، في إدارة عجلة الاقتصاد الغربي ، وعملت على تحقيق الرفاهية ، في الوقت الذي عمَّ فيه الفقر والبطالة أرجاء العالم الإسلامي .

وما نزوح هذه الأموال ، إلا بسبب الطغيان السياسي ، وعدم الاستقرار ، وتقييد الحريات . . وهذه الأموال النازحة لا تمثل إلا نسبة قليلة من خيرات البلاد الإسلامية ، والتي استأثر بها العدو واصطفاها لنفسه ، وفرض على العالم الإسلامي مختلف القيود ؛ ليضمن استمرارية تدفقها إليه [1] .

وهكذا لم ترجع الأموال النازحة ، وسُرِقَت الثروات الباقية ، وزادت الديون ، وزاد الاستبداد .

*** ومن عواقب الإعراض عن سُنن الله وهُدَاه:**

هذه الهزائم المتتالية في كل مواجهة بين العالم الإسلامي المنكوب وبين أعدائه.. حتى إسرائيل.

هزائم ومجازر تلوّن تاريخ العالم الإسلامي المعاصر ، على امتداد رقعته الفسيحة ؛ في تركيا ، وفي مصر ، وفي الهند ، وفي فلسطين ، وفي الحبشة ، وفي الفلبين وأفغانستان ، وفي جمهوريات آسيا الوسطى . . وفوق كل أرض وتحت كل سماء . . ويكفي أن تعلم أن العالم الإسلامي كله ـ إلا أجزاء من شبه جزيرة العرب ـ قد وطئت أرضه أقدام المستعمرين .

وكانت على الأيام نفسي عزيزة فلما رأت صبري على الذلّ ذلتِ

*** ومنها: وقوع بلاد المسلمين ضحية الفوضى السياسية، بصورة لا مثيل لها.**

حتى أصبح العالم الإسلامي حقلاً للتجارب ، وسوقاً لتجار المبادئ . .

فالليبراليون الديمقراطيون اليمينيون يحلفون لشعوبهم أن الخلاص على أيديهم بمعاونة الغرب المتقدِّم . .

والاشتراكيون الثوريون اليساريون يَعِدُون الشعوب بالفردوس المنتظر والعدالة والمساواة من هناك ، من موسكو [2] . هكذا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . . و﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] .

---

(١) اقرأ نبذة موجزة عن خيرات بلاد المسلمين وثرواتها في كتاب: قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر ، للدكتور/ زغلول راغب النجار ، ص١٣١ وما بعدها .

(٢) اقرأ: كيف فشلت الليبرالية الديمقراطية ، ولماذا فشلت الاشتراكية الثورية العربية في البلاد الإسلامية . اقرأ ذلك في: كتاب الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا .

وهؤلاء و هؤلاء يلوِّحون بالخلاص العاجل عبر (مجلس الشعب) أو (مجلس قيادة الثورة) أو (مجلس الوزراء) أو (مجلس الأمة) ، أو . . . ، أو . . . ، وفي النهاية . .

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا !

وصارت الشعوب الإسلامية تدفع الثمن في كل مرة ، مزيداً من التخلُّف ومزيداً من الظلم والاستعباد! ولم تتمخض هذه التجارب الطويلة إلا عن شيء واحد ، يُسمح بمزاولته ؛ يمينا أو يساراً . أتدرون ما هو؟

إنَّه حرية المجون والخلاعة والتحلل من قيود الأخلاق والحشمة والتدين «وهذا لعمر الله أعجب العجب . . أن تُمنع (حرية الحقوق) وتطلق (حرية الفسوق)؟» [1] .

**** وأخيراً وليس آخراً:** فإنَّ من عقوبات الله على الإعراض عن سننه تنكب جادة الحق:

انتكاس المفاهيم ، والضرب في كل واد ، إلا وادي الحق الأحق بالاتباع ، تطلباً للخروج من الأزمات ، وتبريراً للواقع الأليم . .

تلك حال كثير من المسلمين اليوم ، بل أكثرهم ، على المستويين السياسي والفكري ، وعلى مستوى الحل الإسلامي .

فعلى المستوى السياسي والفكري الجاهلي: عمَّت الفوضى السياسية ، واستشرت حمى المتاجرة بالشعارات في كل العالم الإسلامي ، والعربي منه على وجه الخصوص ، على امتداد خمسين سنة مضت ، بل تزيد .

لا جديد . . اللهم إلا مزيد من الشعارات واللافتات ، لمواجهة متطلبات العصر ، والمزايدة على الصحوة الإسلامية! ومزيد من التبعية للنصارى واليهود ، خصوصاً في هذه الأيام! ومزيد من الديون على كاهل الشعوب ، والتقشف إلى حد المجاعة والموت! ومزيد من الفساد والرشوة والابتزاز . ومزيد من الكبت ومصادرة الحريات . .

وفي كنف هذه الفوضى السياسية نشطت تيارات فكرية منحرفة ، كانت لها جذورها السابقة ؛ كالصوفية والفكر الإرجائي والعقلانية الاعتزالية ، في صورة تجمعات وأحزاب ، أو في تيارات شعبية يغذيها الواقع المتدهور . . وولدت تيارات وأحزاب علمانية قومية ، وبعثية واشتراكية . . فزادت من معاناة الأمة ، ومسخت هويتها .

وعلى صعيد الحل الإسلامي، ماذا نحن واجدون؟

---

(١) الحلول المستوردة ، ص٣١٨ .

وجدنا الذين حملوا على عاتقهم مسؤولية النهوض بالأمة وإصلاح حالها، قد اختلفوا في كيفية الإصلاح ووسائله اختلافاً كبيراً..

فاشتغل قوم بالدعوة إلى استئناف الحياة الإسلامية عن طريق تزكية النفوس وتهذيب الأخلاق.. وكفى.

ورأى آخرون في دهاليز السياسة ومغامرات الانتخابات أقرب وسيلة لاستئناف الحياة الحرة الكريمة.. ونسوا في غمرة السياسة وألاعيبها تزكية النفوس وتقويم الأخلاق..

وهؤلاء وأولئك لم يُعيروا البناء العقيدي وتصحيح المفاهيم وفق الكتاب والسُّنة اهتماماً يوازي ما لهما من أهمية...

وذهب فريق ثالث يعيب على الطائفتين هذه الحلول الجزئية للمشكلة، بحجة أن العناية يجب أن تنصب على تنقية العقيدة ومحاربة البدع والخرافات، وهي الأخرى تنطلق من تصور جزئي لمفهوم العقيدة، وكيفية استصلاح الأمة من خلالها...

وكل طائفة تكاد تحصر الصواب فيها والكمال في منهجها، وتعادي غيرها، وتهون من شأنه، وتنكر قيمة جهاده في الواقع، بل وأحياناً ترى أن غيرها يقف حجر عثرة أمام الإصلاح المنشود!

وكل أولئك وغيرهم، يلقي بعضهم باللائمة على بعض، ويحمِّله مسؤولية ما يجري في دنيا المسلمين، بصورة كلية أو جزئية..

فالشعوب تلعن الحكومات، وتقعد تنظر نتائج سبابها وشتائمها، والحكومات تسخر من الشعوب، وتصفها بالجهل والغباء والتخلّف..

أمَّا الحل الإسلامي الشامل، الذي ينتظم الجوانب العقائدية والأخلاقية والفكرية والسياسية والاقتصادية والإدارية والعلاقات الدولية، الفردية والجماعية للأمة الإسلامية .. أما هذا الحل.. فقد نبذه وأعرض عنه الأولون، إلا قليل منهم، ولم يوفق له الآخرون، ولم يُصْغِ هؤلاء وأولئك لنصح الناصحين [1]!

وهذا كله من عقوبات الله على الإعراض عن صراطه المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

---

(١) اقرأ ـ إن شئت ـ كتاب: مجتمع الكراهية، لسعد جمعة، رئيس وزراء الأردن أيام حرب (الأيام الستة). والحلول المستوردة، للقرضاوي، وواقعنا المعاصر، لمحمد قطب؛ لتقف على طرف المأساة في الوطن الإسلامي الكبير.

تلك ـ فيما أحسب ـ أهم أسباب ما تعانيه الأمة الإسلامية اليوم من فساد وتخلّف، وهذه بعض مظاهر العقاب الإلهي عليها، على مستوى الأمة الإسلامية أيضاً..

فإن قال قائل: هذا بفعل العدو المدجج بالسلاح، المدفوع بالحقد الصليبي والكيد اليهودي والأطماع الاقتصادية..

قلنا: هذا صحيح؛ لأنَّ الله تعالى يقول عنهم: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]. ويقول: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨]. ويقول سبحانه: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وإن قال آخر: هذا بفعل الحكام المتسلّطين والعملاء المأجورين..

قلنا: وهذا صحيح؛ لأنَّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. ويقول: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]. ويقول: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

وإن قال ثالث: والشعوب المستضعفة لا حول لها ولا طول..

قلنا: هذا فيه نظر!

فيه نظر؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. ويقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]. ويقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. ويقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

ويقول عن قوم فرعون مبيناً علّة استخفافه بهم، وطاعتهم إيّاه في ذلك: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ [الزخرف: ٥٤].

وفيه نظر؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]. ويقول: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ويقول: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ويقول آمراً باتباع رسوله ﷺ وما جاء به من عند الله: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر: ٧]. ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور: ٥٤].

ويقول محذراً من ردّ الحقّ ومخالفة الرسول ﷺ: ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧]. ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]... إلى غير ذلك من الآيات.

فهل ننكر من ذلك شيئاً؟!

وأذكر هنا مثالاً واحداً فقط نتبيَّنُ منه: من أين أتينا؟

هل قام العلماء والمصلحون، والدعاة الصادقون، والمفكرون والأدباء والإسلاميون بواجبهم في بداية هذه التحولات، ومستهل تلك الأحداث قبل قرنين من الزمان على وجه التقريب؟

هل كانوا يومها على مستوى أحداث الأمة، والظروف المتغيرة آنذاك؟

هل ألقوا بثقلهم كقيادات للأمة وللشعوب الإسلامية، يتكلّمون باسمها ويتحسسون مشاكلها، ويكشفون لها ألاعيب أعدائها، كما كان يفعل مصطفى كامل وسعد زغلول في مصر؟ (١)، بغض النظر عن وجهتهما الإصلاحية، التي تعلي من شأن القومية على حساب الدين.

أم أنهم كانوا في مؤخرة الرَّكب، وآخر من يعلم؟!

أم أنهم، أو أكثرهم، كانوا يمثلون جبهة الرفض السلبية، يبررون بذلك عجزهم وقصورهم؟!

أم هل كان ذلك مبلغهم من العلم والفقه والوعي؟

أم أن منهم من كان ذيلاً لبلغة السلطان، يبرر الواقع ويبارك كل خطوة، حتى ليقول للناس إذا لزم الأمر: «إنَّ الإنجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر! ولا ينبغي

---

(١) زعيمان من زعماء الوطنية في مصر. توفي الأول منهما سنة (١٣٢٦هـ)، وتوفي الثاني سنة (١٣٤٦هـ). انظر: الأعلام (٣/٨٣)، (٧/٢٣٨).

أن نحاربهم ونقاومهم! إنّما واجبنا أن نتعلم منهم، ثم نتفاهم معهم بعد ذلك لتصفية ما بيننا وبينهم من خلافات!»[(١)].

ومن لم يكن هذا ولا ذاك ولا ذلك، لاذ بالصمت وآثر العزلة طلباً للسلامة!

واختياره هذا نظر قصير واجتهاد لم يحالفه التوفيق، وإن كنا لا نشك في نية صاحبه..

ألم تكن نتيجة ذلك كله: أنْ اتخذ الناس رؤوساً جهّالاً، وقيادات عميّة.. فطَمَّ الوادي على القرى؟

ثم عليك بالقياس.

نعيب زماننا والعيب فينـــا   وما لزماننا عيب سوانـــا

ونهجو ذا الزمان بغير جرم   ولو نطق الزمان بنا هجانا

ولعل فيما ذكرت من إشارات كفاية، وأنتقل إلى ما وعدت به من التمثيل بحال بلدين من بلدان العالم الإسلامي، كان لهما السبق والريادة في هذا المشوار البائس! هما: تركيا دولة الخلافة، ومصر بوابة العالم الإسلامي.

(تركيا) دولة الخلافة الإسلامية، و(مصر) بوابة العالم الإسلامي. تمثل كل منهما أنموذجاً متكاملاً للإعراض عن سنن الله، وقد حصل لكل منهما من العواقب الوخيمة في كل المجالات ما فيه مزدجر، لو كنا نعقل!

هذه تركيا آخر دولة ورثت الخلافة الإسلامية.. لَمَّا أدارت ظهرها للإسلام وللشرق، ويممت وجهها قِبَل الغرب، فمنحتهم صفو ودها، وضَحَّت بالإسلام جملة وتفصيلاً، على مستوى القيادات والمؤسسات الرسمية. ماذا طلعت علينا به من إبداعات وإصلاحات، وماذا جنت على نفسها وعلى العالم الإسلامي؟

لقد تلاشت قبضة دولة الخلافة على ممالك الإسلام التابعة لها، وأصبحت كالرجل المريض ـ كما قيل ـ وذلك لأسباب أشرتُ إليها بصورة إجمالية فيما سبق.

ويعنينا في هذا المبحث أن نجيب عن هذا السؤال:

ـ لقد كان بإمكان تركيا أن تخرج من محنتها، فتحول ضعفها قوة، وتستعيد مكانتها التاريخية، بحكم السنن الإلهية التي لا تمتنع على من أخذ بها، خصوصاً وأنها ما تزال

---

(١) هذه فتوى أستاذ الجيل، لطفي السيد! انظر: واقعنا المعاصر، ص٣٠٧.

مرتبطة بالدول الإسلامية التابعة لها بأكثر من سبب، وأن أسباب ضعفها وتخلفها معروفة، يمكن تلافيها!

فكيف فكَّرت تركيا وقدرت للخرج مما هي فيه؟ وماذا كانت النتائج على صعيد الواقع؟

لقد كانت تركيا عزيزة منيعة مرهوبة ا لجانب لعدة قرون، يوم كانت قائمة بأمر الإسلام، تحكم به، وتجاهد في سبيله.. ففرَّطت في جنب الله وأعرضت عن أسباب قوتها فعاقبها الله جزاء ما أعرضت عن سننه ورغبت عن دينه!

وأبدأ بالإشارة إلى جانبين مهمين من الجوانب الحيوية في حياة الأمم عادة، ثم أعرض لمجمل النتائج التي تحققت لها على صعيد الواقع.

الجانب الأول: الجانب العسكري:

كيف خططت تركيا لإعداد جيش قوي، قادر على تحويل الهزائم إلى انتصارات، والدفاع عن كرامة الأمة الإسلامية؟

في عام ١٧٩٣م صدر نظام عسكري عُرِفَ باسم قانون (النظام الجديد) لتطوير الجيش وتحديثه! فما الجديد في هذا النظام؟

بموجب هذا النظام، أحضِرَ الضباط المتخصصون من فرنسا وسويسرا ودول أوربا؛ للتدريب في الكليات العسكرية. وبدأ إرسال الطلاب إلى أوربا لدراسة العلوم العسكرية.. وكان الزي العسكري (لضباط الإسلام) خليطاً من الأزياء العسكرية الفرنسية والإنجليزية والروسية.. وصارت أهم الأسرار والمواقع العسكرية تُنقَلُ إلى الغرب من أجل أن تظهر تركيا بمظهر الدولة الأوربية؛ فكان من نتائج ذلك أن الجيش التركي أول من أدار ظهره للإسلام، وابتلعه الاستغراب [(١)].

والبقية تأتي تبعاً لذلك!

الجانب الثاني: جانب التعليم والتربية:

وهنا مكمن الخطر وقاصمة الظهر لمستقبل الأمة. فماذا كان من شأن التعليم؟

«في عام ١٨٤٥م تم تأسيس جامعة (دار القانون) بجانب كلية الديانة الإسلامية، وفيها بدأ تدريس القانون الروماني والفرنسي على يدي أساتذة غير مسلمين..

---

(١) انظر: الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/٢٢٨، ٢٢٩) من بحث للأستاذ/ عثمان أوز تُرك، بعنوان: «الصراع على تبني الحضارة والثقافة الغربية في تركيا الإسلامية».

وبعد قيام الجمهورية ، كلّفت الدولة أستاذاً سويسرياً القيام بمهمة تطوير منهاجها! وكان من نصائحه: إغلاق دار الفنون وكلية الديانة الإسلامية ، وأن تحل محلها (جامعة اسطنبول) ، وكان أكثر من نصف أساتذتها من الأجانب ، وكان يدرس اللغة العربية والفارسية أساتذة ألمان! وكانت للأجانب مدارس تدرس بلغتهم ، غير خاضعة للرقابة التركية . . ثم خطت البلاد خطوة أخرى فأحلّت التاريخ الغربي وجغرافيته وأدبه محل تاريخنا وجغرافيتنا وأدبنا ، ومن لا يستذكرها يرسب في الامتحان! وكان التعليم مختلطاً ، حتى المرحلة الجامعية .

وفي عام ١٩٢٦م تم حذف الدروس الدينية من مقررات كافة المدارس ، وبعد عام ١٩٥٠م سمح بتدريسها مرة واحدة في الأسبوع ، في بعض الفصول الدراسية فقط . . . وقد أعدت وزارة التعليم كتاباً دراسياً يدعو إلى هجر الموسيقى الشرقية . . . إلى آخر السلسلة . . .

وقد أدَّى ذلك كله ، إلى ظهور جيل جاهل بدينه وبتراثه ، معادٍ لوطنه وأمّته ، فوضوي ، يملأ الشوارع ، ويحرم الأمة نعمة الأمن على الحياة والممتلكات» [(١)] .

وبعد هذا المشوار المؤسف في طريق التغريب والفرنجة ، على مستوى الجيش وعلى مستوى التعليم والتربية . . . كان لا بد أن تنتهي الأمة إلى حال من التبعية والمادية والانحلال ، يمكن رصد بعض مظاهرها في النقاط التالية:

- سيطرت المادية الغربية على كل القطاعات . وقد وصل الإلحاد المادي إلى حد أنه حتى الخدمات الدينية لا يتم أداؤها دون إغراء مادي .

- كافة أشكال المظاهر الغربية من ملابس وأطعمة وشراب ومتعة واحتفالات يعتبر اتباعها أمرا ضرورياً .

- في سنة ١٩٢٥م وباسم الاستغراب ، تم إغلاق مساكن الدراويش (التكية) ، والتي كانت تعتبر من بقايا مؤسسات الانقطاع لعبادة الله ، وحلّت محلها الحانات والنوادي الليلية وصالات الرقص وغيرها من أماكن الرذيلة ، وذلك بأعداد كبيرة غطت كل أرجاء البلاد .

- لم تتم حماية الصناعات الوطنية ، بل تم فتح الأبواب لكل أنواع المنتجات الصناعية الغربية .

---

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣١) من بحث للأستاذ/ عثمان أوز تُرك ، بعنوان: «الصراع على تبني الحضارة والثقافة الغربية في تركيا الإسلامية» ، باختصار وتصرف .

ـ تركت الموارد والثروات التجارية للشركات الأجنبية .

ـ بدأت القيم الاجتماعية في الانحدار ، وأخذ المال والشهرة والمنصب تستحوذ على الاحترام ، وليست الفضيلة والقيم والأخلاق .

ـ ظهر جيل جديد لا يعرف شيئاً عن قيمه ومبادئه الدينية والتاريخية ، إلا ما يُلقن من الشبهات ، ويدرس من المعلومات الناقصة المشوّهة ، وبالمقابل يعرف الكثير عن الممثلات والمغنيات والراقصات الغربيات .

ـ أصبحت الأغلبية التي لا تملك عقلاً ، والتي تربط خَلاصها بالغرب هي سيدة الكلمة في البلاد [١] .

هذا مبلغ المستغربين الأتراك من العلم ، أن ألقوا تركيا في هوة بين الإسلام وبين مدنية الغرب ما لها من قرار ، حتى قيل: إنّه ربما لو تمَّ استغراب تركيا بالكامل ، لكانت في وضع أفضل مما هي عليه الآن . . فقد كان من الممكن على الأقل حل مشكلات الطرق والمياه والكهرباء .

«إنَّ الذين يحولون تركيا في اتجاه الغرب يعرفون جيداً أنه حتى الطرق الريفية في أي دولة غربية أفضل بكثير من أي طريق في مدينة اسطنبول . إنَّ إسرائيل تحول مياه البحر بالتقطير إلى مياه صالحة للشرب ، أمّا تركيا التي تدَّعي أنها غربية فإنّها لا تستطيع الاستفادة من مياهها الكثيرة ذات النوعية الجيدة ، والموجودة بكثرة في آبارها ، وتعاني من الجفاف ، ولا تستطيع الاستفادة من أنهارها . وإنّه لمن الصعب أن نجد تياراً كهربائياً غير منقطع ، ليس فقط في القرى ، وإنّما أيضاً في المدن ، بل حتى في المدن الكبيرة مثل اسطنبول وأنقرة» [٢] .

والقصة طويلة ، وطبيعة الموضوع لا تسمح بأكثر من هذه الإشارة ، ولكن هاهنا وقفتان:

الوقفة الأولى:

فيما نقلته من أحوال تركيا ـ على محدوديته ـ تبدو أسباب كثيرة كانت تقف وراء فشلها الحضاري ، أي عقوباتها الإلهية . . . من هذه الأسباب على سبيل المثال:

---

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ٢٣١ ، ٢٣٢) من بحث للأستاذ/ عثمان أوز تُرك ، بعنوان: «الصراع على تبني الحضارة والثقافة الغربية في تركيا الإسلامية» ، باختصار وتصرف .

(٢) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ٢٣١) من بحث للأستاذ/ عثمان أوز تُرك ، بعنوان: «الصراع على تبني الحضارة والثقافة الغربية في تركيا الإسلامية» ، باختصار وتصرف .

* الثقة المطلقة العمياء بأعدائها، حيث مكنتهم من تولّي مهمة تطوير وتحديث الجيش بشقيه؛ السلاح والرجال! ومتى كان العدو غبياً لدرجة أن يقوم بتطوير أسلحة خصمه، ويربي الجنود على عداوته! أليس في ذلك مخالفة صريحة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]... وغيرها من الآيات؟ مع ما فيه من الغفلة المفرطة ومصادمة العقل، الذي يقضي بالاحتراس من العدو مهما تكلّف الود والنصح!

* وهذا يقودنا إلى الشك الكبير في مدى تحقق مبدأ الولاء والبراء، وهل هناك إرادة جادة في إصلاح الأوضاع لمصلحة الأمة، لا لمصلحة فئة محدودة! كما يوقفنا على مبلغ الغفلة والجهل، وغياب الوعي والتخلّي عن المسئولية، التي حاقت بالشعوب الإسلامية آنذاك!

* حالة الانبهار وانعدام الفاعلية والإبداع، والشعور بمركب النقص والإحساس بالهزيمة... كل ذلك ساهم في تنامي الروح المنهزمة، القابلة للاستغزاء (أي طلب الغزو)، وقد أدرك العدو هذه الروح، فاستغلها لصالحه أحسن استغلال.. وأنتج ذلك كله نفسية أزهد ما تكون في أشيائها وموروثاتها وإمكاناتها... أي بأسباب تميزها. ولم تخف تلك ـ هي الأخرى ـ على الأعداء، فدخلوا منها بلا استئذان. يظهر ذلك جلياً عند تأمّل الحياة الاجتماعية والفكرية، التي ذكرت لك طرفاً من أخبارها.

* وإلا فأي مسوغ لإشاعة الرذيلة وتشجيع الانحلال، في مثل تلك المرحلة من حياة تركيا، التي تحتاج فيها إلى الصبر والجلد وقوة الإرادة، على فرض أنها كانت مضطرة للتتلمذ على مدنية الغرب بهذه الطريقة، لتنهض من جديد؟

* وأي داعٍ ألحَّ على جعل التعليم مختلطاً في تلك المرحلة نفسها، ما علاقة ذلك بصناعة النهضة الجديدة؟!

* ولِمَ كان الذي يطور مناهج التعليم في الجامعة، وليس مبناها أستاذ سويسري يُدْعَى (أ. مالشي)؟

* والذي يدرس اللغة العربية والفارسية، أساتذة ألمان[1]؟!

عُلقتها عرضـــاً وعلقت رجـــلاً ... غيري وعُلق أخرى غيرها الرجل[2]!

(١) انظر: الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ٢٣٠).
(٢) البيتُ للأعشى. انظر: ديوان الأعشى الكبير، ص١٠٧.

* وما هي الحجَّة التي سوغت ترك ثروات البلاد ومواردها تحت تصرف الأجانب الأعداء؟ ما علاقة هذا ببناء الذات؟

* وكيف تنهض البلاد وهي سوق مشرعة أبوابها لمنتجات الآخرين؟

وكيف . . وكيف . . ولِمَ . . ولِم . .؟

وقد تقول: هؤلاء عملاء الغرب، وقد تسلَّطُوا بقوة السلاح ودعم الأجانب، ولم يكن سواد الأمة راضياً بذلك.

وأقول: من أعدى الأول؟ من سمح للأول، وغض الطرف عن الخطأ الصغير؟ ثم من صفَّق له ومات من أجله؟ وجعل من نفسه حقل تجارب لإصلاحاته التاريخية؟!

فإن قلت: هؤلاء المرتزقة والمنافقون وضعاف الإيمان وأهل الشهوات والمناصب، وأضرابهم، وليس شرفاء الأمة.

فإنني أقول لك: كيف سمحت الأمة بشرفائها وأحرارها وأخيارها لهؤلاء أن يتكاثروا، وأن يتسلَّطُوا؟

ستقول لي: تلك سنة الله في الأمم إذا تقادم بها العهد.

وأقول حينئذٍ: وتلك سنة الله في الأمم إذا سمحت لنفسها أن تبلغ هذه الغاية من قبل ومن بعد ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

الوقفة الثانية:

ومع كل ما مَنَحَت تركيا للغرب الكافر من تسهيلات، وما بذلت من جهود متواصلة ـ ليس أهمها وأخطرها ما ذكرت لك ـ للسير في ركابهم، فقد قلبوا لها ظهر المجن، وخذلوها أحوج ما كانت إليهم.. فقد طلبت الانضمام إلى السوق الأوربية المشتركة منذ فترة طويلة، ولكن دون جدوى.. وكانت تعاني من الحصار المضروب على منتوجاتها المحدودة في الأسواق العالمية كأي دولة ترتبط تاريخياً وشعبياً بالإسلام.

وبعد حرب الخليج الأخيرة سنة ١٩٩٠م حاولت تركيا أن تستغل لحظة الرضا عنها، فطلبت من الأمريكان أن يفتحوا أسواقهم لمنسوجاتها، فلم تحرز تقدماً يُذْكَر!

وصدق الله العظيم: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٨].

وهكذا تحوَّلت تركيا من دولة عظمى، مرهوبة الجانب، تبعث إلى أقاليم المسلمين بالحكام والولاة.. إلى دولة تابعة تستجدي العالم، وترسل العمال والحرفيين!

المثال الثاني: مصر (بوابة العالم الإسلامي):

وباختصار شديد أقول: قد اختلف المؤرخون المحدثون في رائد نهضة مصر الحديثة! هل كان محمد علي باشا (تولى مصر سنة ١٢٢٠هـ) (١). أو كانت الحملة الفرنسية (١٢١٣هـ) بقيادة نابليون! بعد اتفاق أكثرهم على أن سبب النهضة لا يخرج عنهما!

ويرى الدكتور محمد عمارة: أن النهضة المصرية كانت بقيادة محمد علي، «ثم جاءت الحملة الفرنسية... لتنبه الأذهان بواسطة الخطر القادم في ركاب الغزو الاستعماري ولتلعب دور (الماس الكهربائي) الذي لم يصعق ضحيته فيميتها، ولم يكن المصدر الحقيقي ليقظتها ومبعث حياتها، وإنَّما كان (المنبه) لها كي تستيقظ، فتعي العصر وتدخل فيما يدخل فيه الأحياء المعاصرون»(٢)!

ولستُ بصدد ترجيح الأقوال والمفاضلة بينها، أو طرح رأي آخر.. والذي يعنينا هنا أنَّ مصر كانت نائمة (٣)، ونومتها كانت لأسباب أشرت إليها مجملة فيما سبق، وهي عقوبة من الله على إعراضها عن هداه، وترك الأخذ بسنن الحياة التي أودعها في كتابه.. فاستيقظت، وكانت بداية نهضتها خاطئة؛ لمخالفتها سنن الحياة وطبيعة الأشياء.. وكانت تلك عقوبة أخرى! فكيف كانت البداية؟

يقول الدكتور عمارة: «تميَّزت هذه النهضة.. بكونها حركة (إصلاح مدني) قادها (مصلحون مدنيون)، ونهضت بأعبائها كوكبة من المثقفين والعلماء والقادة والمدراء الذين تميَّزوا عن (المصلحين الدينيين)، والذين لم يتقدموا إلى الأمة (كفقهاء وعلماء دين).. فالمنطلقات للإصلاح كانت (مدنية).. والمعايير للإصلاح كانت (مصلحة الأمة).. ولم يكن موقف محمد علي من هذا الدين وعلمائه اختياراً فكرياً حُرّاً.. فهو لم يعتمد على الإسلام في نهضته الإصلاحية، ولم يؤسس هذه النهضة على التجديد الإسلامي؛ لأنَّ الرجل لم يكن من علماء الدين.. وفاقد الشيء لا يعطيه» (٤).

---

(١) المعروف بـ «محمد علي الكبير» مؤسس آخر دولة ملكية بمصر، احترف تجارة الدخان فأُثريَ، وكان أميّا تعلَّم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره، وتولى مصر سنة (١٢٢٠هـ)، وفي عهده كثرت المدارس والمعامل، وأرسلت البعثات لتلقي العلم في أوربا. وتوفي سنة (١٢٦٥هـ). انظر: الأعلام (٦/ ٢٩٨).

(٢) العرب والتحدي، للدكتور/ محمد عمارة، ص١٨٠.

(٣) شأنها في ذلك، شأن بقية بلدان العالم الإسلامي.

(٤) المصدر السابق، ص١٨٢، ١٨٣ بتصرف يسير. وأقول: إنَّ محمد علي ـ وإن لم يكن من علماء الدين ـ فقد كان مسلماً، أليس كذلك؟ وهل كان كل ولاة المسلمين من علماء الدين؟ ومع ذلك فلم يحدث هذا الذي حدث... ولكن وراء الأكمة ما وراءها!

وأغلب الظن، أن الذي مهَّد لهذه الخطوة، بل المخاطرة، عوامل كثيرة، في مقدمتها: غياب الوعي لدى جماهير الأمة، والعلماء بصفة خاصة، وانحسار مفهوم الدين، بحيث لم يستوعبوا الموقف، ولم يتصوروا حجم الكارثة في المستقبل، وبالتالي لم يتدخلوا في الوقت المناسب وبصورة صحيحة. وكان ما جرى عقوبة على ذلك.

«ثم إنَّ البعثات العلمية قد كوَّنت كوادر عربية للدولة، أخذت تزامل كوكبة القادة الذين أتوا مع محمد علي إلى مصر صغاراً فنشأوا فيها نشأة عربية، جعلتهم يعتزون بالعروبة، وينفرون من الانتساب إلى الأتراك»[(١)]!

وعلى أيدي هؤلاء المبعوثين، وبمباركة مَنْ ابتعثهم، ومن رباهم هناك، بدأ مسلسل الانحلال الاجتماعي، ونقض عرى الإسلام عروة عروة باسم التطور والتطوير، وباسم الإصلاح والتحديث!

وحدث ما لا بد أن يحدث بين هذه النهضة المستغربة! وبين العلماء والشيوخ من الاختلاف والانشطار؛ لاختلاف الفريقين في طرائق التفكير، وفي المنطلقات والأهداف[(٢)].

وكان من نتائج ذلك: أن أُدخلت القوانين الوضعية الفرنسية، بحجة الفصل في المعاملات التي استجدت في الحياة المعاصرة! وعجز العلماء والشيوخ عن مواكبتها والفصل فيها[(٣)]!

وفي كل مرة ـ كما سبق ـ يكون دين الأمة وتكون أخلاقها أول ما يُقضى عليه، لتستمر عجلة الإصلاح إلى الأمام! ولا ضير؛ لأنَّ كل ما يجري لمصلحة الأمة! ويكون الانحلال والفسوق، بل والعلمنة، أول طلائع الإصلاح المنشود!

ويصاحب هذا السيل من المفاسد وهذا الكم من الخسائر المادية والمعنوية (قشرة حضارية زائفة، لا تعالج شيئاً في الحقيقة)[(٤)]. وإنَّما تُعشى العيون عن حجم الكارثة وفداحة الْخَطْب وتبرر مزيداً من العبث والاستغلال.

---

(١) السابق، ص١٨٧.

(٢) السابق، ص١٨٥. ومن الإنصاف أن نقول: إنَّ كثيراً من المواقف والتصرفات من هؤلاء العلماء والشيوخ، كانت نافذة دخل منها الآخرون لتبرير مواقفهم، واتخذوها ذريعة لتشويه الإسلام وترويج العلمانية.

(٣) انظر: السابق، ص١٩٢.

(٤) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص١٨٧.

ولنعد إلى تلك القشة الحضارية في مصر في ذلك الوقت. من هو صاحب الفضل فيها؟ أهي طلائع المبتعثين إلى أوربا، أم حملة نابليون؟ والأخير أظهر.

لقد دخل نابليون غازياً، وهزم جيوش المماليك شمالي القاهرة هزيمة منكرة، وأقام في مصر بعض الوقت، وأدخل فيها إصلاحات عدة وتنظيمات؛ فجاء بالمطبعة، وعمل على تطوير الزراعة، ونشط الحركة العلمية .. و .. و .. وجاء بقانون جديد مستمد من التشريع الفرنسي، وكان أول قانون غير قانون الله يُحْكَمُ به المسلمون [١].

ولهذا قال أكثر الناس: «بأنَّ الحملة الفرنسية على مصر، كانت هي الخير والبركة؛ لأنَّها أيقظت المسلمين من سباتهم، فأفاقوا يتطلعون إلى الأخذ بوسائل الحضارة الحديثة» [٢].

ثم إنَّ محمد علي لم يأت والياً على مصر إلا في عام ١٢٢٠ هـ/ ١٨٠٥م أي بعد مغادرة الحملة الفرنسية بثلاث سنوات [٣].

وإذا ثبت أن أكثر الإصلاحات المدنية كان ببركة الحملة الفرنسية! فماذا بقي لمحمد علي وطلائع النهضة؟ وكيف نوفق بين هذين الحدثين: الحملة الفرنسية، وإصلاحات محمد علي، اللَّذَيْن ينحصر الانبعاث العربي عموماً والمصري خصوصاً فيهما، عند أكثر الناس؟!

لعل من الخير أن يكونوا شركاء للحملة الفرنسية في الأرباح والخسائر!

وهذا أعدل الأقوال، وإليك القصة باختصار:

«جاء محمد علي إلى مصر والياً من قِبَل الأتراك .. يُسِرُّ في نفسه الاستقلال عن الخلافة التركية في الآستانة، ولكنه لا يصحو أو لا يهتم بالنفوذ الفرنسي، الذي يتغلغل معه في البلاد!

---

(١) انظر: هل نحن مسلمون، ص١١٧.
(٢) هل نحن مسلمون، ص١١٩.
(٣) انظر: واقعنا المعاصر، ص٢٠٥، وليُعلم أن الحملة قد أرغمت على مغادرة مصر بعدما تطاول نابليون على الأزهر وضربه بالقنابل، واتخذه اصطبلاً للخيل، وحاول اقتلاع المصريين عنوة من الإسلام، بالإضافة إلى الظروف التي أحاطت بفرنسا نفسها. ولكن الذي غادر مصر في ذلك التاريخ ليس هو كل شيء يتعلق بالحملة، فقد بقيت البعثة العلمية، وبقي معها رجال ادَّعَوا الإسلام، كما ادَّعاه نابليون من قبل، وبقي معهد الآثار الفرعونية الذي أنشأه نابليون. وبقيت آثارهم حتى بعد أن احتل الإنجليز مصر سنة (١٨٨٢م) في عهد توفيق. انظر: واقعنا المعاصر، ص٢٠٠، ٢٠٤، ٢١٥.

لا يصحو أو لا يهتم بأن فرنسا تحتضنه، وتشير عليه، وتضع له مشروعات عمرانية، وتساعده في تنفيذها، لأهداف بعيدة.. أبعد من أهدافه هو البعيدة.. التي ظن نفسه بارعاً أشد البراعة، وهو يعمل لها من وراء الخلافة!

كانت فرنسا تحتضن محمد علي، وتشجعه على الاستقلال عن الخلافة؛ لأنَّ ذلك مثل (طيب) يُحتَذَى في بقية العالم الإسلامي، فيتفكك هذا العالم إلى دويلات صغيرة، يُشرف عليها النفوذ الغربي، ويتبنى (حركة الإصلاح) فيها.. الإصلاح المقترن بهدم المقومات الإسلامية، وسلخ المسلمين من عقيدتهم، وإخضاعهم للنفوذ الصليبي) [١]!

وجاء الإنجليز إلى مصر، فأتوا على ما لم يأت عليه الفرنسيون، في الاتجاه نفسه «ولكن طريقتهم تختلف في الوسائل، وإن لم تختلف في الأهداف.. بطيء ولكنه أكيد المفعول» [٢]. فماذا فعل الإنجليز في مصر؟

عين المعتمد البريطاني (اللورد كرومر) [٣] القسيس (دنلوب) مستشاراً لوزارة المعارف، وكانت السلطة الفعلية بيده.. وحين يكون القسيس على رأس السلطة في وزارة المعارف، فما الذي يتوقع أن يكون من أمر التعليم؟

فتح مدارس، ووضع لها مناهج خاصة، وجعل الفُرص لا تمنح إلا لخريجيها، والمرتبات العالية مقصورة عليهم [٤]!

وظلت وسائل الإعلام تمارس بإزاء مناهج التعليم عملية تدمير اجتماعي وأخلاقي ووجداني، بصورة مفزعة، عبر الصحف والمجلات والكتب القصصية الماجنة.. وبرزت على السطح بقوة قضية (تحرير المرأة) على يدي قاسم أمين [٥]، تلميذ الشيخ محمد عبده [٦]! وظهر على مسرح الأحداث في فترات متقطعة ـ نتيجة ظروف جدت في مصر ـ

---

(١) هل نحن مسلمون، ص١٢٧.

(٢) واقعنا المعاصر، ص٢١٦.

(٣) كان اسمه «بارنج»، وبعد منحه لقب «الورد» عُرفَ باسم اللورد كرومر، وكان قبل أن يكون مندوباً سامياً في مصر، كان سكرتيراً للسفارة الإنجليزية في الأستانة في عهد السلطان عبد الحميد، وكان يكتب تقارير مطولة عن المسألة البلقانية، ويقترح أن يكون حكام تلك الأقاليم مسيحيين. ومن آثاره الفكرية: مصر الحديثة، وعباس الثاني خديوي مصر. انظر: أزمة العصر، د. محمد محمد حسين، ص٤٨. والمستشرقون، لنجيب العقيقي (٢/ ٤٩٩).

(٤) المصدر السابق، ص٢١٧ وما بعدها.

(٥) هو: قاسم بن محمد، كاتب مصري، اشتهر بمناصرته لحرية المرأة، كردي الأصل. توفي سنة (١٣٢٦هـ). انظر: الأعلام (٥/ ١٨٤).

(٦) مفتي الديار المصرية، ومن رجال الإصلاح في مصر، شارك في مناصرة الثورة العرابية، وتتلمذ لجمال الدين الأفغاني، وأصدر معه جريدة «العروة الوثقى» بباريس، وتوفي بالإسكندرية، ودفن بالقاهرة سنة (١٣٢٣هـ). انظر: الأعلام (٦/ ٢٥٢).

زعامات وطنية، لتقوم بعملية توازن بين الاستعمار وبين إدارة الشعب المصري المسلم؛ لأنّه لا بد من ذلك الوسيط على المدى البعيد.

ظهر سعد زغلول.. وقد هيَّأته مواهب خاصة ليكون بطلاً، فكان في الوقت المناسب، وأفرج عنه الإنجليز ليكون (معبود الجماهير)؛ وليقطف ثمرة ثورة الشعب التي نبعت من الأزهر[١]!

وجاء الزعيم جمال عبد الناصر[٢]، بطل الاشتراكية في مصر، وكان من شأنه ما كان «فأممت المصانع الحيوية والمؤسسات، فتحول من فيها من العمال بين يوم وليلة إلى (موظفين) في الدولة، كل همهم التقرب إلى المباحث والمخابرات بالتجسس على إخوانهم وكتابة التقارير!

ولم يرتفع الدخل القومي بالتجربة الاشتراكية، ولم يصلح الفساد، بل انهار الاقتصاد انهياراً حاداً، وصل أكثر من مرة إلى حافة الإفلاس! وعُولِجَ في كل مرة بالقروض التي تؤدي في النهاية إلى مزيد من الانهيار[٣].

وجرى على يديه أعظم مذبحة للإسلاميين في تاريخ مصر الحديث!

وبعد: فإنَّ ما قيل من نتائج النهضة والتطوير في تركيا، يُقالُ مثله في مصر.

لقد ظلَّت البعثات العلمية المصرية تسير تباعاً لتنقل إلى الأمة أحدث ما وصل إليه الغرب من مدنية... فلم تقع أعين أكثرهم إلا على الجديد في الملاهي والمسارح، فأمعنوا النظر فيه فأتقنوه.. فجاءوا إلى قومهم يبشرون بما ظفروا به.. فلم يلمع في دنيا مصر الناهضة! ويترك أثراً بيِّناً إلا أمثال سعد زغلول، الزعيم الوطني، وقاسم أمين بطل تحرير المرأة، وطه حسين[٤]، بطل التغريب في الأدب العربي، وهو الذي دعا إلى التقليد الأعمى لحلو الحياة الغربية ومرّها.. ولم يزل الخير في نقص والشر في زيادة، منذ ذلك الوقت.

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، فصل (دور الاحتلال البريطاني وأدواته في الإفساد)، ص٢١٥ وما بعدها، ص٣٢٠. ومعبود الجماهير: لقب أطلقته الصحف الوفدية على سعد هذا. المصدر السابق، ص٣٢٤ في الحاشية. ونعوذ بالله من الشرك وأسبابه.

(٢) ابن حسين، ثائر عسكري، حكم مصر ثمانية عشر سنة، وحوّل مصر إلى النظام الاشتراكي. توفي سنة (١٣٩٠هـ). انظر: الأعلام (٢/ ١٣٤).

(٣) المصدر السابق، ص٣٥٤ بتصرف يسير.

(٤) طه حسين بن علي بن سلامة، دكتور في الأدب، أحدث ضجة في عالم الأدب العربي، كُفَّ بصره وهو في الثالثة من عمره، وتخرَّج في الأزهر والجامعة المصرية القديمة، وابْتُعِثَ إلى فرنسا، وتنقَّل في الوظائف إلى أن أصبح وزيراً للمعارف، وكان داعية إلى تقليد الغرب في حلو الحياة ومُرِّهَا. توفي سنة (١٣٩٣هـ). انظر: الأعلام (٣/ ٢٣١).

ويظل السؤال قائماً: هل تحوَّلت مصر إلى بلد متقدم، بمقاييسهم هم؟

أين المصانع المنتجة؟ والزراعة المتطورة؟ والجيش القوي المدجج بالسلاح الوطني؟ بل أين حرية الفكر والإبداع والعمل والحركة.

حتى هذه التي قامت النهضة لتحققها، لم تر النور بعد!

ولا أقول: أين مصر الإسلامية؟ مصر عمرو بن العاص؟ مصر الأزهر؟ مصر المآثر؟ لأنَّ الجواب معروف، فالنهضة المعاصرة قامت على أساس مدني لا على أساس ديني.

لكننا نجد، ويجد الناس ـ دون عناء ـ آثار التفسخ والانحلال والفوضى الاجتماعية، وضمور المبادئ الأخلاقية، و . . . وما شابه ذلك. نجد آثاره واضحة منذ فجر النهضة! فهو يشق طريقه باطراد، رغم كل الظروف والملابسات!

إن وجد الاستعمار، فبها ونعمت، وإن تولى الزعامة الوطنيون، الأحرار أو العبيد! فالنتيجة هي النتيجة.

إن كان النظام ملكياً، أو كان جمهورياً؛ اشتراكياً شرقيا أو رأسمالياً غربياً.. فالنتيجة واحدة، وعجلة الفساد والانحلال تتقدم باطراد! شيء عجيب حقاً!

وقد زامن ذلك دعوات إصلاحية ـ بغض النظر عما قيل حولها، وما في مناهجها من ملاحظات ـ فلم يؤبه لها، ولم يُمكَّن لأصحابها مع ما فيها من تسامح وتجاوز!

ولعلِّي أختم هذا المبحث ببعض المقارنات السريعة، بين العالم الإسلامي، وبين بعض الدول غير الإسلامية، والتي كانت في ظروف أسوأ بكثير من ظروف العالم الإسلامي في مطلع النهضة! وكيف اختلفت النتائج مع مرور الوقت، بصورة مذهلة، لعل ذلك يساعد في كشف جوانب المأساة، فأقول:

هل تعلم أن مصر قد بعثت البعوث وانفتحت على مدنية الغرب، وكوَّنت قاعدة صناعية حديثة كماً وكيفاً، قبل اليابان بنحو أربعين سنة؟

وأن اليابان قد بدأت مشوار النهضة مثل مصر بإرسال البعثات إلى أوربا أيضاً؟!

وقد تعجب إذا علمت أن مصر كانت من بين البلاد التي أُرسلت إليها البعثات اليابانية للوقوف على أسرار التقدم [1]!

---

(١) انظر: التربية في اليابان المعاصرة، تأليف: إدوارد ز بو شامب، ترجمة وتعليق: الدكتور/ محمد عبد العليم مرسي، مقدمة المترجم، ص٩.

«ودارت الأيام، فإذا مصر وبغداد ودمشق وما حولها تصنف في عداد (الدول المتخلّفة).. وهناك .. هناك في أقصى المشرق.. نجد أمة تنظر إليها أمم الأرض جميعاً بانبهار؛ لِمَا حققته في فترة قياسية في عمر الأمم.. وكان لها ما أرادت من قوة ومنعة وتقدّم، بسبب تربية أبنائها وتعليمهم، وحرصها في الوقت نفسه على أن تبقى عاداتها وقيمها، وأن تحافظ على تراثها وتقاليدها»[1]!

اليابان التي لا تتجاوز مساحتها ٤٪ من مساحة الولايات المتحدة الأمريكية.. «ألا نذهل مع العالم حينما نستمع إلى الإذاعات.. في يناير ١٩٨٦م وهي تتحدث عن (رجاء) دول السوق الأوربية المشتركة (مجتمعة) وهي تتجه إلى اليابان تطلب منها أن تخفف من سيل صادراتها إلى دول السوق؟ وأن تعمل على فتح أسواقها، بعض الشيء للمنتجات الأوربية»[2] ؟!

(فون براون) أبو الصواريخ كما يطلقون عليه، عالم من علماء الألمان، استأثر به الأمريكان بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية.. يقول الدكتور عبد العليم مرسي: «قرأتُ ذات يوم أن الأمريكيين حملوا هذا العالِم، هو أو واحد مثله في طائرة عسكرية من إحدى قواعد الحلفاء في غرب أوربا، تحيط بها مجموعة من الطائرة الحربية، لم تحط من قبل.. ولا من بعد، بطائرة ملك أو رئيس، حتى أوصلوه إلى الأرض الأمريكية، وذلك خوفاً على حياته من أن يخطفه السوفييت أو ينسفوا طائرته، وما كان ذلك إلا تقديراً لعلمه وعقله وإبداعه، وخوفاً على كل هذا من أن يضيع من بين أيديهم...» [3].

وبالمقابل، ففي العالم الإسلامي يُجْبَرُ مئات، بل ألوف.. لا يقلون أهمية عن (فون براون) على هجر بلادهم والبحث عن لقمة العيش.. وهؤلاء هم الآخرون تتلقفهم تلك الدول التي تدرك قيمة الإنسان المبدع فتضعهم مواضعهم اللائقة بهم!

بينما نحتفي نحن ـ بلا حياء ـ بالفنانين واللاعبين والمهرجين!

وهذه ألمانيا الغربية تتكون من «وحدات سياسية عشر يسمونها ولايات، يضاف إليها الجزء الغربي من برلين (برلين الغربية) لتصبح جميعها إحدى عشر ولاية، لكل منها حكومة منتخبة، وبرلمان منتخب، ثم تتوحد جميعها في القمة.. هذا التعدد السياسي لم

---

(١) التربية وقضايا الطاقة، تأليف: رودني ف. ألن. ترجمة: الدكتور/ محمد عبد العليم مرسي، مقدمة المترجم، ص٩.
(٢) المصدر السابق، ص٩.
(٣) التربية في ألمانيا الغربية. تأليف؟ هانز ج. ليجتر وباربارا لينجتر. ترجمة وتعليق: الدكتور/ محمد عبد العليم مرسي، مقدمة المترجم، ص١٣.

يضعف المجتمع الأم، حيث وَجَدَت هذه الولايات كلها أن بقاءها وتقدمها وقوتها ورخاءها كلها مرهون بوحدتها . .»[(١)].

وأمريكا دولة مؤلفة من خمسين ولاية . . . وكانت وحدتها مصدر قوتها . .

وأوربا في مواجهة الخطر الأمريكي، بدأت منذ زمن تنسج خيوط وحدتها، وخطت في ذلك خطوات ملموسة، وما السوق الأوربية المشتركة والاتحاد الأوربي، ثم العملة الأوربية الموحدة (اليورو) إلا تنفيذ عملي لخطوات هذا المشوار . . إنهم يجتمعون على المصالح المشتركة، دون أن يتنازلوا عن شيء من حقوقهم أو يذوبوا في غيرهم!

إلا العالم الإسلامي، الذي كان في أصله أمَّة واحدة، ودولة واحدة، يحكمها خليفة واحد، وهو الآن ما يزال ذا مصالح مشتركة، ويواجه عدواً مشتركاً . . إلا هذا العالم الإسلامي، فإنّه كل يوم يتمزَّق، وكل حلف يُعقد، أو معاهدة تبرم، فإلى الفشل مصيرها، ثم يعقبها مزيد من التمزق[(٢)]! اللَّهمَّ إلا ما كان من اتفاقهم على محاربة الصحوة الإسلامية والوقوف في وجه دعوة الحق!

وباختصار . . . فكل شيء في واقع العالم الإسلامي يصلح أن يكون مثالاً للمقارنة مع دول الكفر، وكل شيء نتيجة مقارنته لصالحهم! إلا الإسلام الذي لا علاقة له بكل ما يجري من هزائم .

ولعل فيما ذكرت كفاية ودليلاً على فساد المقاصد، واختلال التربية، وغياب الأهداف الصحيحة، وضعف الإرادة، وفشل الإدارة على مستوى قيادات البلاد الإسلامية، وغالبية شعوبها . . وذلك كله راجع إلى جملة الأسباب التي ذكرتُ طائفة منها فيما سبق . . وسبب تلك الأسباب: هو الانحراف عن منهج الله وصراطه المستقيم، ودينه القويم .

وهنا أقول بوضوح: إنَّ محور المشكلة، هي أن الكافرين من العرب والعجم، يحاولون أن يكفر العالم الإسلامي كما كفروا، وأن يردوا شعوبه عن دينهم ما استطاعوا . . . مصداق ذلك، قوله سبحانه: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء: ٨٩] . وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾ [البقرة: ٢١٧] .

---

(١) المصدر السابق، ص٢٧ .

(٢) اللهم إلا بقايا من عاطفة إسلامية، تربط بين الشعوب الإسلامية، هي الأمل ـ بإذن الله ـ في عودة وحدته، وبعثه من جديد .

وأنَّ العالم الإسلامي في جملته ، لا يمكن أن يكون كذلك ، لا في الحال ولا في المآل .

قال عليه الصلاة والسلام: «**ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**»[1] .

وبالتالي ، فإنَّ ما حلَّ ويحلُّ بالعالم الإسلامي من العقوبات الإلهية ، ليس لإفنائه ومحوه . كلا ، وإنَّما هي لإيقاظه وتأديبه وتطهيره . . وبقدر الإعراض تكون العقوبة .

وقد استيقظ العالم الإسلامي ، وهو الآن يُمَحّص ويتميّز ، وغدا يسود ويقود وفق سنن الله ، بإذن الله .

* * *

(١) متفق عليه ، واللفظ لمسلم ، وسبق تخريجه .

المبحث الثاني

واقع الأمم الجاهلية المعاصرة (في الجوانب الإنسانية)

وأعني بـ (الجوانب الإنسانية): النواحي الاجتماعية، والأخلاقية، والفكرية، والمبادئ والاعتقادات، ونحوها.

أو: هي ـ باختصار ـ ما سوى الأشياء المادية والمدنية.

وقد تكلَّمتُ في المبحث الثاني من الفصل السابق عن المكاسب التي حققتها الجاهلية المعاصرة من وراء رعاية السنن الإلهية في الجوانب المادية والمدنية، وأنها كبيرة ومذهلة، وقد ضمنت لها التفوق والسيادة على العالم، بما فيه العالم الإسلامي بأسره!

ومرَّ بنا هناك، أنَّ هذا التفوق المادي والمدني كان مطبوعاً بطابع الفلسفة الوثنية التي أَسَّست أوربا عليها تلك النهضة، ومتأثراً بها في كل ملمح من ملامحه، كما كانت النهضة المادية والمدنية الإسلامية فيما مضى، كانت مطبوعة بطابع الإسلام وحضارته.. وهكذا. فكل إناء بالذي فيه ينضح.

نهضت أوربا معادية للأديان، كافرة بها؛ لظروف خاصة بها، وكانت نهضتها مادية بحتة، قائمة على أصول وثنية مستخلصة من الجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية.

ومع أن الذي أيقظ أوربا هو (الإسلام)، وأنها امتداد للنصرانية، وفيها جوانب أخلاقية وروحية، إلا أن الظروف التي واكبت نهضتها، سوغت لها هذا الصدود المطلق عن تعاليم الدين، واختيار المنطق المادي والفلسفة الوثنية [1]!

ومع مرور الزمن، وتوالي النجاحات في عالم المادة والكشف والاختراع، ازدادت هذه الجاهلية فتنة إلى فتنتها.. فخف ميزان الأخلاق، وأشواق النفس وشفافية الروح، وتحلَّل المجتمع، وزاد الطمع، واختفت (إنسانية الإنسان)، وبرزت قيمة (المادة)!

تلك ـ باختصار شديد ـ هي المعادلة التي تحكم واقع الجاهلية المعاصر برمته.

فهل يجري ذلك عبثاً ودون حساب؟ هل تنعم هذه الجاهلية بإنجازاتها المادية، ثم لا تشقى بإنسانيتها المفلسة؟ وممارساتها البشعة؟ وظلمها واستعبادها لخلق الله، حتى وإن كانوا هم ظالمين مثلها؟!

---

(١) انظر: رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص٢٢ وما بعدها.

كلا . . كلا . .

إنَّ الجاهلية المعاصرة، أمة من الأمم، واقعة في قبضة الله، محكومة بسنن الله التي لا تحابي أحداً، ولا تغادر تصرفاً ـ على مستوى الأمة ـ دون حساب في الدنيا، قبل الآخرة!

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ولكن أحكام الله وسننه، لا تجري وفق الأهواء والعواطف، بل بالعدل الذي لا يحيف، وبالقوة التي لا يمتنع منها أحد . .

وكما تَحقَّقَ لهذه الجاهلة من العلو والسلطان في الأرض، بما أخذت به من أسباب ذلك، فسيحيق بها ـ دون شك ـ ما فرطت فيه من أمر الله ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ: ٢٦].

يقول الدكتور ألكسيس كاريل[١]: «إنَّ النَّاسَ لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية في مجراها الحالي؛ لأنَّهم آخذون في التدهور والانحطاط . . . لقد فتنهم جمال علوم الجماد . . . إنَّهم لم يدركوا أن أجسامهم ومشاعرهم تتعرض للقوانين الطبيعية ـ يقصد السنن الإلهية ـ وهي قوانين أكثر غموضاً، وإن كانت تتساوى في الصلابة مع قوانين الدنيا . . . كذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم»[٢].

وفي هذا المبحث، سألقي الضوء على شيء من مظاهر الجزاء الإلهي، الذي أوقعه ويوقعه الله ـ جل وعلا ـ على هذه الأمم الناكبة عن الصراط . . . المعتدية على القوانين الإلهية، مع ما هي فيه من التمكين والعلو في الأرض.

وأعْلَمُ أنَّ هذا باب واسعٌ، ولكن سأحاول التركيز، وأقدم الأهم على المهم . .

ولستُ في هذا المبحث معنياً بتتبع أصول الجاهلية المعاصرة ونقدها، وإنَّما الغرض هو الوقوف على بعض العواقب السيئة، والعقوبات التي نجمت عن السير على تلك الأصول المنحرفة . . .

---

(١) طبيب فرنسي، تنقَّل في وظائف التعليم والتطبيب ومجال الأبحاث في فرنسا والولايات المتحدة، ومُنِحَ جائزة نوبل للأبحاث الطبية عام (١٩١٢م)، اشتهر بكتابه «الإنسان ذلك المجهول». توفي سنة (١٩٤٤م). انظر: الإنسان ذلك المجهول، ص٥.

(٢) الإنسان ذلك المجهول، للدكتور/ ألكسيس كاريل. تعريب: شفيق أسعد فريد، ص١١، وما بين علامتي الاعتراض زيادة من الباحث.

وبعبارة أخرى: العواقب السيئة والعقوبات التي حلَّت بها جزاء إعراضها عن هدي الله والإيمان به . . .

ومع ذلك، فلا بد من الإشارة إلى تلك الأصول والأسس (المحاور) التي توجّه السلوك والأعمال، وتُنشد إليها تصرفات الجاهلية كافة؛ لأنَّ «الحكم على الشيء فرع عن تصوره» و«الشيء من معدنه لا يستغرب».

وقد لخَّصَ الأستاذ محمد قطب ـ حفظه الله ـ أصول ومكونات الفلسفة الجاهلية المعاصرة بكلام مختصر جامع، فقال: «لقد وَرِثَت من الجاهلية الإغريقية عبادة العقل، وعبادة الجسد في صورة جمال حسيّ، والروح الوثنية في النظر إلى الكون والحياة والإنسان، وبصفة خاصة علاقة الصراع بين البشر والآلهة، حيث الآلهة تريد تدمير الإنسان، والإنسان يريد أن يثبت ذاته بالتمرّد على الآلهة.

وورثت من الجاهلية الرومانية عبادة الجسد في صورة شهوات حسيَّة، وتزيين الحياة الدنيا لزيادة الاستمتاع الحسيّ بها إلى أقصى الغاية، ومن ثم الاهتمام البالغ بالعمارة المادية للأرض.

وورثت منهما معاً نزعة الاستعمار، واستعباد الآخرين من أجل شهوة السيطرة من ناحية، ومن أجل زيادة الرفاهية الحسيَّة من ناحية أخرى.

وأخذت من المسلمين المنهج التجريبي في البحث العلمي، الذي كان أساس كل التقدم العلمي الحديث.

وفي الأخير جاءها التأثير اليهودي، الذي نفذ من الثغرات التي أوجدها نفور أوربا من الدين، فصبغ الحياة الأوربية بالصبغة النفعية، وعَمَّق الاتجاهات المادية، وزاد من الجفوة الروحية، ونشر التفسخ الأخلاقي في المجتمع الأوربي، مستغلاً أحداث الثورة الفرنسية، ثم الثورة الصناعية، ثم النظرية الداروينية على أوسع نطاق» [1].

تلك ـ باختصار ـ هي مكونات الجاهلية المعاصرة، وهذه هي منطلقاتها وأهدافها . .

وواضح لمن تأمَّل هذه الأسس، أن محاسنها تنحصر في الجوانب المادية، التي لم تسلم من تأثير الجوانب الأخرى، كما بيّنت ذلك من قبل.

أمَّا الجوانب الأخرى (الإنسانية بالمعنى الأعم) فهي عديمة الخير، ومفلسة عقيمة، وتنطوي على شرور مستطيرة.

---

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص٣٠.

وإذا علمنا أنَّ الجوانب المادية، عادة ما تكون خادمة للأهداف الإنسانية، أدركنا حجم المأساة التي تحيق بالجاهلية المعاصرة، وبالإنسانية من ورائها!

وفيما يلي نحاول أن نقرأ شيئاً من ملامح المأساة، وأزمة الحضارة الجاهلية المعاصرة «ولعل أحسن من يُستمع إليهم في نقدها أبناؤها ونتاجها من العلماء والمفكرين والباحثين»[1]؛ لأنَّ هؤلاء وأمثالهم، هم وحدهم الذين يمثلون صوت العقل والمنطق، في بعض ما يكتبون عن حضارتهم، من بين الملايين السادرة المخمورة، أو الألوف من الانتهازيين النفعيين من الساسة والرأسماليين ودهاقنة الفساد، فإنَّ الأولين مغفَّلون مغرَّر بهم، والثانين منتفعون بالأوضاع القائمة، مستفيدون من هذا التناقض والفساد.

والحقيقة أنه يصعب تقسيم العقوبات الإلهية بصورة دقيقة على أنواع المخالفات؛ لأنَّ المخالفات ذاتها تمثل نسيجاً موحداً يُشكِّل الحياة ويلونها بلونه...

نعم، قد نقول على جهة التمثل: إنَّ الخواء الروحي، والقلق النفسي، سببه الإلحاد، أو التدين بالخرافة.

ونقول: إنَّ هناك أنواعاً من الأمراض يسببها الشذوذ الجنسي وإدمان المخدرات.

ولكن الإلحاد والشذوذ الجنسي، لكلٍ منهما أسباب أيضاً، فيكون الشيء سبباً لغيره، ويكون نتيجة لسبب آخر. ويجمعها كلها أنها انحرافات عن المنهج الرباني للحياة، أعلاها الكفر والإلحاد والإعراض... فما دون ذلك من المخالفات المتولدة منه...

ولكن يمكن ملاحظة الأسباب الجامعة، والتي تكون مجلَبَة لعقوبات متنوعة... وسأتناول ثلاثة من هذه الأسباب الجوامع... وأذكر أمثلة لِمَا حلَّ بهذه الأمم من العقوبات بسببها.

وأول هذه الأسباب وأجلاها: الإلحاد والإعراض عن الإيمان بالله.

والثاني: مخالفة الفطرة والطبيعة الإنسانية في العلاقات الاجتماعية.

والثالث: الظلم وإرادة العلو في الأرض بغير الحق.

فأمَّا السبب الأول: فقد قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]. وقال سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ

---

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/٨٣)، من بحث للدكتور/ نبيل صبحي الطويل، بعنوان: كتاب (إنسانية الإنسان)، تأليف: رينيه دوبو... تحليل وعرض وتلخيص.

صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١]. وقال: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

و(المعيشة الضنك) و(الصدر الضيق) يمثلان الأزمات النفسية والقلق وما يصيب الْمُعْرِض عن ذكر ربه من الهموم والغموم والآلام التي هي عذاب معجل(١).

وكذلك مَن مثله مثل (من خرَّ من السماء) فإنَّ «مَنْ تركَ الإيمان فهو بمنزلة الساقط من السماء، عُرضة للآفات والبليات، فإمَّا أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزَّقُوه وأذهبوا عليه دينه ودنياه»(٢).

أو تهوي به ريح الشكوك والأوهام في مكان سحيق، في أودية الضلالة، لا يملك الخلاص ما دام على شركه.

والمثل المضروب لرجل ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ مثال الحيرة وتشتت النفس، فأنت ترى مَن هذا مثله «لا يستقرّ له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع»(٣).

وهذه الأوصاف، هي عين ما يصف مفكرو الجاهلية المعاصرون أنفسهم ومجتمعاتهم به، وينعتهم بها غيرهم، ممن خَبَر أحوالهم، وسبر تصرفاتهم!

إنَّهم قادرون على وصف أحوالهم بدقة لا تنقصها الصراحة والوضوح... ولكنهم باعترافهم عاجزون كل العجز عن فهم الأسباب الحقيقية لأزماتهم... يائسون من إمكانية العثور على حلول عملية مجدية لإنقاذ إنسانية الإنسان... ولهذا نراهم يعزون مشكلاتهم تارة إلى أشكال المدنية المعاصرة، إلى أشياء الحضارة، بعدما كانوا منحوها كل ثقتهم!

---

(١) تفسير السعدي (٥/١٩٨).
(٢) تفسير السعدي (٥/٢٩٢) بتصرف يسير.
(٣) تفسير السعدي (٦/٤٩٦).

وإلى تخلّف الدراسات الإنسانية وضحالتها بإزاء الدراسات والبحوث المادية والتكنولوجية المتقدمة تارة أخرى!

وإلى غياب تعاليم الدين عن ضمير الإنسان، ومسرح الحياة تارة ثالثة [١]!

وتلك وإن كانت أسبابا كان يمكن أن تخفف من وطأة مأساة تلك الجاهلية، لو وجدت، لكن الحقيقة التي لا شك فيها، أنَّ رفض الجاهلية المعاصرة ـ وكل جاهلية في التاريخ ـ لألوهية الله جهرة، أو اتخاذ مناهج من صنع البشر، لهو أعظم جناياتها، وسبب فسادها الأساسي.

وإنَّ قيام هذه الحضارة المعاصرة على أساس غير ديني، بل على أساس العداء للدين.. إنَّ ذلك هو الثغرة التي جاءت منها كل الآفات، وجنايتها الحقيقية على الإنسان تنبع كلها من هذا المصدر الخبيث[٢].

وعلى أساس من هذا التصور، ينبغي أن ننظر إلى كل مشكلات الحضارة.

وعلى أساس من هذا التصور أيضاً، ينبغي أن ندرك السرّ في عجز كل المفكرين ورجال الدين والساسة والمصلحين، المتقدمين منهم والمتأخرين.. أن ندرك السرّ في عجزهم عن تحقيق الإصلاح المنشود، والوقوف على السبب المعقول لمشكلاتهم، وإعلانهم دون مواربة عن ذلك العجز!

إنهم ببساطة يفتقدون القاعدة الصحيحة للانطلاق، ويبدأون بداية خاطئة في كل مرة، سواء منهم من يرد المشكلات إلى ظواهر الأشياء، ومن يردها إلى ما كان يعرفه من عقائد وأخلاقيات الجاهلية الأولى وجاهلية القرون الوسطى!

يقول رينيه دوبو[٣]: «الاعتقاد بأن العالم المعاصر سخيف وباطل، ليس أمراً مقصوراً على الفلاسفة والأدباء المبرزين، فهو منتشر بين كل الفئات الاجتماعية والاقتصادية، ويؤثر على كل مظاهر ونشاطات الحياة.. والتشاؤم العام نابع ـ في الغالب ـ من عدم ارتياح الرأي العام، لدى إدراكه أن العلم لا يستطيع حلّ المشاكل الإنسانية[٤].

(١) اقرأ إن شئت، كتاب: إنسانية الإنسان، وكتاب: الإنسان ذلك المجهول.
(٢) انظر: الإسلام ومشكلات الحضارة، ص١١٨.
(٣) أستاذ في جامعة (روكيفلر) بنيويورك، وأخصائي بعلم الحياة ـ البيولوجيا ـ كان أول من أظهر إمكانية صنع عقاقير مضادة للجراثيم من الجراثيم نفسها، نال عدة جوائز عالمية لأبحاثه العلمية. انظر: إنسانية الإنسان، ص٤.
(٤) إنسانية الإنسان، رينيه دوبو، ص٣٣.

ونراه في موضع آخر يعزو أمراض المدنية إلى «التأثيرات المحيطة المؤذية» يقول: «منذ قرنين تقريباً، والإنسان الغربي يعتقد أن خلاصه سيأتي عن طريق الاكتشافات التكنولوجية، ولا جدال في أن المكتشفات التكنولوجية زادت من غِنَاه المادي وحسنت من صحته العضوية، إلا أنها لم تجلب له بالضرورة الغنى والصحة، اللَّذَيْن يولدان السعادة والهناء. ومن الصعب تحديد الأسباب الدقيقة لأمراض المدنية الحديثة، ولكن لا شك أن كثيراً من هذه الأسباب ناشئ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن التأثيرات المحيطة المؤذية.

وكثير من أصول المشاكل الصحية للإنسان المعاصر ـ حاضراً ومستقبلاً ـ تكمن في الآثار الضارة للبيئة التكنولوجية، وطرق المعيشة الجديدة.. وعندما يختلط الإنسان اجتماعياً أكثر من اللازم تكون ردود فعله ـ على الأرجح ـ خيبة وظلماً وعدواناً، تتطور كلها لتصبح أمراضاً عصبية ونفسانية. وقد يأتي يوم لا يكون العنف فيه، حتى ولا القنابل تهديداً خَطِراً، بل انفراجاً وارتياحاً»[(١)]!

لقد تعب الكثير من الناس من هذا السباق المجنون للتغيير الدائم، وأنهك هذا الصراع البالغين، أمَّا المراهقون فقد أصبحوا لا يجدون فيه أية قيمة تذكر.

وعندما يشاهد هؤلاء جميعاً تعقيد الحياة المدوخ، والجهود المهووسة لاختراع تكنولوجيات جديدة لِتَحُل مشاكل خلقتها التكنولوجيات نفسها، يعلو صراخهم: «قفوا هذا العالم فنحن نريد أن نخرج منه»[(٢)]!.

ويرى (دوبو) أن إنسان العصر يشبه «الحيوان البري الذي يقضي حياته في حديقة الحيوان.. يتوفر له الغذاء الكافي والحماية الكافية من القسوة، ولكنه يُحرم من المثيرات الطبيعية الأساسية للعديد من وظائفه العضوية والفكرية؛ فإنسان اليوم ليس فقط غريباً عن أخيه الإنسان، وعن الطبيعة، بل الأهم بكثير هو أنه غريب معزول عن أعماق ذاته[(٣)].

ومن هنا يعلن بوضوح أنَّ «التطلع إلى موقف إنساني غير خاضع لأوامر التكنولوجيا، ليس رجعية ولا انهزامية، بل هو موقف... تقدمي وجهد بطولي»[(٤)]!

---

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ١١٠). وانظر: إنسانية الإنسان، رينيه دوبو، ص١٨٦، ١٩٠، ١٩١.
(٢) إنسانية الإنسان، ص١٧١.
(٣) إنسانية الإنسان، ص٣٣.
(٤) إنسانية الإنسان، ص٢٣٢.

وأحسب أن الكلام من الوضوح بحيث يغني عن التعليق عليه، لكن لنتذكر جيداً أننا ـ نحن المسلمين ـ يجب أن نسمي هذا الذي يجري (عقوبة إلهية) على الكفر بالله والإعراض عن ذكره، وليس شيئاً آخر!

ولنعد إلى الوراء، قبل ما يزيد على ستين عاماً، حيث السعير لم يتضح أواره، والبلاء لم تكتمل أطواره، لنجد كاتباً أمريكياً متفلسفاً ينادي بالويل والثبور، ويرفع عقيرته أسىً للمصير المرعب الذي ينتظر أمته. نجد (ول ديورانت) يقول سنة ١٩٢٩م: «ثقافتنا اليوم سطحية، ومعرفتنا خطرة؛ لأننا أغنياء في الآلات، فقراء في الأغراض، وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني، وانتزع العلمُ منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا، ويبدو العالم كله مستغرقاً في فردية مضطربة، تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب، إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التي أقلقت بال سقراط، نعني: كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحلّ محل الزواجر العلوية، التي بطل أثرها في سلوك الناس؟ إنّنا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماجن من جهة، وبهذا الجنون الثوري من جهة أخرى، نفقد الفلسفة (!) التي بدونها نفقد هذه النظرة الكليَّة، التي توحد الأغراض وترتب سلم الرغبات، إننا نهجر في لحظة مثاليتنا السليمة، ونُلقي بأنفسنا في هذا الانتحار الجماعي للحرب. وعندنا مئة ألف سياسي، وليس عندنا (رجل حكيم) واحد. إنّنا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل، ولكننا لا نعرف أين نذهب ولم نفكر في ذلك، أو هل نجد السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة، أو أننا نهلك بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة، ولن ننجو منها بغير الحكمة»[1].

وأختم هذه الاعترافات بما كتبه (رينيه دوبو) حامل جائزة نوبل في العلوم، تحت عنوان (التشاؤم الجديد)، يقول: «باقتراب عام ٢٠٠٠ ميلادية بدأت وافدة من التكهنات المشؤومة في سائر أنحاء العالم، تماماً كما حدث بين المسيحيين في الفترة التي سبقت عام ١٠٠٠م... والآن يعتقد المتنبئون المتشائمون أن البشرية في طريقها إلى تدمير نفسها بنفسها، وإذا لم يحدث ذلك ـ وهذا احتمال ضعيف ـ فستسير البشرية قُدماً نحو التخلي عن قِيم ورفاه المدنية الغربية، فالأسلحة النووية وتلوث البيئة وانقطاع التيار الكهربائي وانعدام الطاقة والفساد المتنامي في الآداب المدنية، كل هذه الأمور تشكل تهديدات

(١) العلمانية ـ نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، تأليف: الدكتور/ سفر بن عبد الرحمن الحوالي، ص٤٢٨، ٤٢٩.

واضحة مباشرة للوجود الإنساني ، أضف إلى ذلك: أن الشدَّة في تقنين الحياة الاجتماعية وانعدام (حرمة المنزل) قد تصل إلى مدى تنعدم فيه إمكانية العيش التقليدي في حياة متمدنة متحضرة .

وأكثر المطّلعين على الواقع الحالي ، يؤيدون ما كتبه الصحفي الأمريكي (جيمس رِستن) في أكثر الصحف اليومية نفوذاً ، وفي أكثر مدن العالم ازدهاراً ، ومما قال: إنَّ الوهم المتفائل القديم أن باستطاعتنا عمل أي شيء نريده . . بدأ يتلاشى في بحر من الشكوك ، ليحل محله تشاؤم جديد . ويبدو أن عناوين الصحف اليومية تعكس وتؤكد الفكرة القائلة: إنَّ مشاكل المدن الكبيرة والعنصريات والشعوب أمور لا طاقة لنا بحلها أو مكافحتها والسيطرة عليها .

والخوف منتشر في كل مكان ، ويظهر بوضوح تام بالنسبة للأسلحة النووية والأخطار التي تهدد الصحة ، وارتفاع نسبة الآلات الذاتية الحركة والإدارة في عالم الصناعة ، والآثار الضارة غير المحددة لتكنولوجيا العلم .

والمقالات الشعبية الرائجة اليوم تحت عنوان: (الحقيقة عن كذا أو كيت) تعني أغلب الأحيان أخطار المكتشفات التكنولوجية والطبية الحديثة .

وهناك مُحددِات أخرى تسمو على الخوف من التدمير المادي ، وتؤثر على (الكيف) في الحياة . وبصورة خاصة يُتهم العلم الآن بتهديم القيم الدينية والفلسفية دون أن يجد بدائل لها توجه السلوك أو تقدم تصوراً معقولاً ذا قيمة بالنسبة للكون .

والتأثير الساحق لضياع الإيمان . . عَبَّر عنه بأسلوب لاذع في الجيل السابق الفيلسوف الأمريكي (جون ديوي) في إنذاره المدوي: «إنَّ الحضارة التي تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها ، ولا تثق بقوة هذا العلم في خلق قيم جديدة . . تدمر نفسها بنفسها» .

ولقد وصل القلق للأوساط العلمية نفسها ، ففي الوقت الذي لا يزال كل العلماء على اعتقادهم بأن الفرص المتاحة للمعرفة العلمية لا حدود لها ، كثير منهم يشك في حكمة وأمان الامتداد التطبيقي لهذه المعرفة»[1] .

وهكذا تتنغص «حياة الناس بقلق وذعر لا يكادون يستبينون مصدريهما ، و . . . تعصف بهم دوامة من الحيرة والضياع تزداد سُعاراً كلما تذكروا أن وجودهم في الدنيا لا

---

(١) إنسانية الإنسان ، ص٤٢ ـ ٤٤ .

يزيد هدفاً وحكمة عن وجود أدنى الديدان وأحط الحشرات، ونتج عن ذلك ـ مما نتج ـ أن استهان الفرد بنفسه وفقدت حياته معناها وقيمتها، فأصبح الانتحار بوسائله المتعددة، بل أصبحت المسابقات والمباريات الفردية والجماعية تعتمد بالدرجة الأولى على المخاطرة والزج بالنفس في الأهوال، واستأثرت مناظر العنف باهتمام الناس، سواء أكانت على الطبيعة أم في وسائل الإعلام»(١).

ولم يكن في مقدور الجاهلية أن تعتق نفسها من هذا الرق الجديد، أو تنقذها من تلك الحيرة المستحكمة، حتى مع شعورها بالخطر المحدق، وبرغم توالي النذر، وتعالي الصيحات..

«لقد شعر الكثيرون بالخطر المحدق وأُنذِروا به، غير أن أحداً لم يصغ إليهم؛ لأنَّ معبوداً جديداً غريباً كان قد ولد، ولأن عبادة جديدة قد طغت على الشعب، هي عبادة المستحدث»(٢).

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): قال لي صحفي نرويجي:

إنَّ مستقبل شباب اسكندنافيا يتجه إلى الهاوية بلا إيمان..

قلت له: وماذا تفعل حكومتكم لدرء هذا الخطر؟

أجاب متألماً: إن حكومتنا أيضاً ليست مؤمنة(٣)!

إنَّها ضريبة الإلحاد وتأليه العقل وانحراف الفطرة، أن تشقى الإنسانية وتدمر نفسها بما تنتجه باختيارها، وتصنعه يداها! وإنه وضع ملازم للجاهلية.. ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

ولله در القائل:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يحيِ دينا(٤)

ولننظر في بعض الآثار الاجتماعية في حياة الأمم الجاهلية المعاصرة، والتي نجمت عن الإعراض عن السنن الإلهية التي أجرى الله نظام الحياة على سَننها..

(١) العلمانية، د. سفر الحوالي، ص٣٥٢.

(٢) مصير الإنسان، تأليف: ليكونت دي نوي، من مقدمة الكتاب. والنص منقول من كتاب: العلمانية، للدكتور/ سفر الحوالي، ص٣٥٢.

(٣) انظر: الإسلام ومشكلات الحضارة، للأستاذ/ سيد قطب، ص١٦١.

(٤) البيتُ للشاعر/ محمد إقبال، من قصيدته: (شكوى وجواب شكوى).

لقد حدَّثونا عن الحيرة القاتلة والقلق المُفْزِع، أخبرونا عن أنفسهم أنهم يسيرون بلا تبصّر، ويتجهون إلى غير هدف وغاية محددة، ولم يخفوا ذعرهم من الأشياء؛ من التقدم والتطور! من الثراء والرفاه! من القوة والتفوق! من معرفة الأسرار وارتياد المجهول! من أسباب السعادة! وأنهم الآن يواجهون عقوبات لا يدرون شيئاً عن أسبابها الحقيقية، ولا متى تنتهي، وإلى أي شيء تنتهي [1]؟!

يواجهون عقوبات بدنية وعقلية، ويعانون من تدهور العلاقات الاجتماعية، خصوصاً في محيط الأسرة، وعلى مستوى المرأة والشباب..

أصبحت الحرية ـ وهي أساس نهضتهم ـ لعنة تصب فوق رؤوسهم.. عصابات قتل واغتصاب وسرقة، ومخدرات وفوضى، وفنون من العهر والإباحية!

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وصار العلم والوفرة المادية (دينهم الجديد) مِعولاً يهدمون به مستقبلهم ومستقبل البشرية الشاردة معهم!

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وفيما يلي أسوق بعض الأمثلة من قولهم بأفواههم، ومما كتبته أيديهم ـ والاعتراف سيد البيِّنات ـ ومما نقله غيرهم، ممن استقرأ أحوالهم وروى عنهم.

* **ففي الجانب البدني والعقلي**، يقولون:

«إنَّ أول ما جرَّ على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم، اضمحلال قواهم الجسدية، وتدرجها إلى الضعف يوماً فيوماً.. فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب توافرها في المتطوعة للجند الفرنسي، على فترة كل بضع سنين؛ لأنَّ عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة على مسير الأيام»[2].

وفي السويد يقدر «عدد أطفال العائلات التي لها أب مدمن بحوالي ١٧٥ ألفاً؛ أي ما يوازي ١٠٪ من مجموع أطفال العائلات كلها.. وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف.. إن من قبض عليهم البوليس السويدي في حالة سكر شديد من المراهقين بين سن ١٥، ١٧، يوازي ثلاثة أمثال المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عاماً.. ويتبع ذلك حقيقة رهيبة؛ إنَّ عُشْر الذين يَصِلُونَ إلى سن البلوغ في السويد يتعرَّضُون

(١) انظر: العلمانية، د. سفر الحوالي، ص٣٥٤.
(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة، للأستاذ/ سيد قطب، ص١٥٠، نقلاً عن كتاب: «الحجاب»، للمودودي.

لاضطرابات عقلية تلازم أمراضهم الجسدية، ولا شك أن التمادي في التمتع بحرية عدم الإيمان سيضاعف هذه الانحرافات النفسية»(١).

إنَّ الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة. مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها، وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم.

يقول س. و. بيرس: «إنَّ شخصاً من كل ٢٢ شخصاً من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر».

بلادة الذهن توجد ـ غالباً ـ حيثما تتقدَّم المعرفة العلميَّة!

«ومشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التي يواجهها المجتمع العصري... إنَّها أكثر خطورة من السلّ والسرطان وأمراض القلب والكُلَى، والتيفوس والطاعون والكوليرا.. ويبدو أن الحضارة العصرية عاجزة عن إنجاب قوم موهوبين من ناحية الخيال والذكاء والشجاعة. ففي كل بلد يوجد تناقص في المستوى العقلي والأدبي لأولئك المسئولين عن الشئون العامة.

وإن في استطاعة الإنسان أن يتساءل بحق عما إذا كانت الشخصية العقلية لا تزال موجودة في الرجال العصريين... إنهم خليط من الأشخاص مضطربي الأعصاب، بليدي الشعور، مغرورين معدومي الثقة بأنفسهم، أصحاب قوة عضلية، وإن كانوا سريعي التعب. يعانون حدة الدوافع الجنسية، برغم ضعفهم وشذوذهم أحياناً»(٢).

وفي الجانب التالي، سنرى مزيداً من العقوبات البدنية والعقلية، التي أصابت إنسان الجاهلية المعاصرة، من خلال استعراض بعض مظاهر العقوبات الإلهية في المجال الاجتماعي.. وخصوصاً مجال الأسرة والمرأة.

*** الجانب الثاني: الجانب الاجتماعي (وخصوصاً في مجال الأسرة والمرأة).**

وقد تسبب عن مصادمة الفطرة، والانحراف بها عن طبيعتها في هذا الجانب الاجتماعي الخطير مشكلات ضخمة على مستوى الأمم، وكان حظ الجاهلية المعاصرة منها موفوراً وهي من الثمار المرَّة للإلحاد، والحرية البهيمية، والتقدم غير المنضبط بضوابط الشرع الإلهي!

---

(١) المصدر السابق، ص١٦١، والكلام للدكتورة/ عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ.
أقول: وقد مضى على هذه الإحصائيات أكثر من أربعين عاماً، والانحلال يتضاعف باطراد إلى يوم الناس هذا.

(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة، ص١٢٦، ١٢٨، ١٣٠. وهي فقرات منقولة من كتاب: «الإنسان ذلك المجهول»، للدكتور/ ألكسيس كاريل.

لقد برَّر الإلحاد والكفر بالدين للعقل أن يرسم للإنسان منهجاً للحياة بعيداً عن وصاية الدين! ثم جاءت الحرية لتملي على هذا العقل نوعية هذا المنهج الملائم للإنسان، الحيوان بطبيعة الحال!

وأخيراً، قال العلم: لا مشكلة. فكل عقبة يمكن تذليلها، وكل نقص يمكن تسديده. فماذا كانت النتائج؟

*** من التَّزَمُّتِ إلى الانفلات!**

يقول (ول. ديورانت) الكاتب الأمريكي: «وأكبر الظن أن هذا التجدد في الإقبال على اللذَّة، قد تعاون ـ أكثر مما نظن ـ مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية. وحين اكتشف الشبان والفتيات ـ وقد أكسبهم المال جراة ـ أن الدين يُشَهِّر بملاذهم، التمسوا في العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين.

وأدَّى التَّزَمُّت في حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى ردّ فعل في الأدب وعلم النفس، صوَّر الجنس مرادفاً للحياة، وقد كان اللاهوت قديماً يتجادلون في مسألة لمس يد الفتاة، أيكون ذنباً؟ أمَّا الآن فلنا أن ندهش ونقول: أليس من الإجرام أن نرى تلك اليد ولا نقبلها؟ لقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة[1].

وكانت جريمة الحرب العالمية الأولى الآثمة، بوابة إلى سلسلة من جرائم السِّلْم! فقد عوَّدت الجنود الوحشية والإباحية، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد الآلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقي، وأدَّت تلك الحرب إلى رخص الحياة بكثرة ما أطاحت من رؤوس، ومهَّدت إلى ظهور العصابات والجرائم القائمة على الاضطرابات النفسية، وحطَّمت الإيمان بالعناية الإلهية، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية.. وظهر جيل مخدوع وألقى بنفسه في أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقي. وأصبحت الحكومات في واد والشعب في واد آخر، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها، واستهدفت الصناعات الربح، بصرف النظر عن الصالح العام، وتجنب الرجال الزواج؛ خشية مسئوليته، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة، أو إلى طفيليات فاسدة، ورأى الشباب نفسه وقد مُنِحَ حريات جديدة، تحميه الاختراعات من نتائج

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة، ص١٣٨.

المغامرات النسائية في الماضي [(١)]، وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية في الفن والحياة . .

فحياة المدنية تُفضِي إلى كل مثبط عن الزواج، في الوقت الذي تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية، وكل سبيل يسهل أداءها . .» [(٢)].

* موانع الحمل .. البواعث و النتائج.

كان بريق الحرية أخّاذاً، وأوار الشهوة مستعراً، والوقت ضيقاً لا يسمح بالتأجيل . . فكان لا بد من الصلات الجنسية على كل مستوى، وبكل وسيلة . . لقد أصبحت العفّة ـ التي كانت فضيلة ـ موضعاً للسخرية!

ولكن هنا مشكلة! الحمل والوضع، والقيود الأسرية الثقيلة!

وأخيراً، حُلّت المشكلة! ولكنها أنتجت مشكلات!

يقول (ول ديورانت): «واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغيير أخلاقنا . فقد كان القانون الأخلاقي قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج ؛ لأنّ النكاح كان يؤدي إلى الأبوة، بحيث لا يمكن الفصل بينهما، ولم يكن الوالد مسؤولاً عن ولده إلا بطريق الزواج . أمّا اليوم، فقد انحلّت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل! وخلقت موقفاً لم يكن آباؤنا يتوقعونه ؛ لأنّ جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغيير نتيجة هذا العامل» [(٣)].

لقد أصبح عقد الزواج عقد مصلحة، لهما الحرية في أي وقت في التحلل منه، بدلاً من عقد النكاح الشريف!

ولم تعد المرأة في ظل الحرية البهيمية تعتمد على الرجل في معاشها، فهي ليست زوجة وأمّاً، ولكنها امرأة عاملة منتجة، وصديقة!

ليست هناك مراسيم زواج، ولا عمق في المحبّة، ولا بيت ينتظر الترحيب بهما . كل ما هنالك علاقة جنسية بين حيوانين ناطقين في غرفة، كأنهما فيها في زنزانة، أو في أي مكان آخر، ليس فيه معنى البيت وأُنسه . . كل شيء مؤقت، كل شيء بارد وجاف .

---

(١) يشير إلى وسائل منع الحمل، والوقاية من الأمراض السرية . انظر: الإسلام ومشكلات الحضارة، ص١٣٩، في الحاشية .

(٢) المصدر السابق، ص١٣٦ ، ١٣٩ بتصرف في الترتيب . والكلام للدكتور/ ول . ديورانت .

(٣) المصدر السابق، ص١٣٦ .

كِلا الزوجين يأوي متى شاء، ويمارس في السرّ والعلانية ما يشاء؛ لأنَّ كلا منهما حُرّ، وليس لأحد حق في أن يصادر حريته[(١)]!

«إذن، أين يمكن أن يلعب الطفل، وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للأطفال، وتوفير العناية بهم، وتعليمهم سنين طويلة في المدينة؟ والفطنة فيما يظنان أفضل جوانب الحبّ.. فيعتزمان منع النسل.. إلى أن يقع الطلاق»[(٢)]!

لقد كانت قشة قصمت ظهر البعير!

ذهبت الأسرة، وانحل رباط الزوجية، فلا سكن، ولا مودة، ولا رحمة، ولم يعد هناك بيت يذكر؛ لأنَّه لا معنى لوجوده! وقَلَّ الإنجاب أو عُدِم، وأصبحت القوانين الأخلاقية مثاراً للسخرية.. كل ذلك من أجل عيون الحرية الشخصية!

وماذا بعدُ؟

خذ مثلاً من فرنسا.

«كان أكثر الأمم تأثراً بحركة منع التناسل هي فرنسا، فكانت نسبة المواليد فيها إلى انخفاض منذ أربعين سنة على التوالي (عند نشوب الحرب العالمية الأولى).. فلما نشبت هذه الحرب، ودُفعت الأمة الفرنسية إلى موقف حرج بين الموت والحياة، أدرك أرباب فكرها - بغتةً - أن هذه الأمة البائسة تفتقر إلى شباب مقاتلين، ورجال محاربين.. فتملكت مشاعرهم فكرة الاستزادة من النسل حتى خبلتهم، وجعل الكتَّاب والصحفيون والخطباء، وحتى أهل الجد من رجال الدين والسياسة، كلهم يهيبون بالناس من كل جانب، وبصوت واحد: أن يكثروا من التوليد والتناسل، ولا يبالوا بالقيود التقليدية من النكاح والزواج، ونادوا أن العذراء التي تتبرع برحمها للتوليد خدمة للوطن، تستحق العز والكرامة لا العتب والملامة! وكان هذا العصر المضطرب بطبيعة حاله حافزاً قوياً لدعاة الحرية والإباحية، فانتهزوا الفرصة السانحة، وبثوا جميع ما كان قد بقي في جعبة فكرهم الشيطاني من النظريات»[(٣)].

وصدق الله العظيم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وهاك مثلاً ثانياً من السويد.

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص١٤٠، ١٤١.

(٢) المصدر السابق، ص١٤١. والكلام للدكتور/ ول. ديورانت.

(٣) الإسلام ومشكلات الحضارة، ص١٤٩ باختصار وتصرف يسير. والنص بطوله من كلام أبي الأعلى المودودي في كتابه (الحجاب).

تعترف الأبحاث العلمية، وتؤكد الإحصاءات أن السويد من أرقى دول العالم ومن أكثرها ثراء.. والتسهيلات والإعانات التي تقدم للأفراد في كل المجالات لا توجد في نظام دولة من دول العالم، ولا يتمتع بها شعب من الشعوب! خصوصاً في مجال الأمومة والطفولة[(١)]!

و«مع وجود هذه المشجعات على الاستقرار في الحياة وتكوين أسرة، فإنَّ الخط البياني لعدد سكان السويد يميل إلى الانقراض.. مع وجود الدولة التي تكفل للفتاة إعانة زواج، ثم تكفل لطفلها الحياة حتى يتخرج في الجامعة.. فإنَّ الأسرة السويدية في الطريق إلى عدم إنجاب أطفال على الإطلاق..

يقابل هذا: انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين إلى غير المتزوجين.. وارتفاع مستمر في نسبة عدد المواليد غير الشرعيين.. إنَّ نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم كله. إنَّ طلاقاً واحداً يحدث بين كل ست أو سبع زيجات، طبقاً للإحصائيات التي أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد، والنسبة بدأت صغيرة، وهي مستمرة في الزيادة»[(٢)].

بل لقد أصبح المعروف منكراً.

لقد «أصبح الزواج ـ رغم هشاشته ـ مصدر إزعاج للقائمين على تلك المجتمعات، فقد طلعت الصحافة الغربية يوماً بخبر يقول:

«انزعجت السلطات التعليمية في سكوتلاندة بسبب موجة الزواج التي تعصف بالمدرسات، فقد تبيَّن أنه خلال عام ١٩٦٠م عُينت ١٥٦٣ مدرسة في سكوتلاندة، وفي نهاية العام الدراسي تركت ألف منهن الوظيفة للزواج. وقالت السلطات: إنَّ الزواج يهدد النظام المدرسي»[(٣)]!

وأخيراً، ماذا كانت حصيلة المرأة المسكينة المخدوعة؟

لقد كانت المحور الذي تدور حوله رحى الحرية. وهل الحرية إلا الانفلات من قيود الأخلاق، وإطلاق العنان للشهوات؟ وهل يكون شيء من ذلك بدون المرأة؟

(١) راجع تفاصيل ذلك في: الإسلام ومشكلات الحضارة، ص١٥٧ ـ ١٥٩.
(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة، ص١٥٩، ١٦٠. والكلام للدكتور/ عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، قبل أكثر من أربعين عاماً، والنِّسَبُ آخذة في الازدياد، وقد جمع الدكتور/ ناصر العمر، طائفة من هذه الإحصائيات في محاضرة قيِّمة بعنوان: (الأرقام الناطقة).
(٣) العلمانية، للدكتور/ سفر الحوالي، ص٤٣٥. عن كتاب: (المرأة بين الفقه والقانون)، للدكتور/ مصطفى السباعي.

لقد خسرت كل شيء، كما خسر المجتمع من ورائها، ورجعت تندب حظها التعيس، بعد أن قطع المجتمع عليها خط الرجعة.

لقد دفع بها الوضع الاجتماعي الذي لا يرحم إلى أن أصبحت تُطرَد من المنزل بعد سن الثامنة عشرة لكي تبدأ في الكدح لنيل لقمة العيش، وإذا ما رغبت أو أجبرتها الظروف في البقاء في المنزل مع أسرتها بعد هذه السن، فإنها تدفع لوالديها إيجار غرفتها وثمن طعامها وغسيل ملابسها، بل تدفع رسماً معيناً مقابل اتصالاتها الهاتفية. وإذا حظيت الطريدة بأي عمل، فإنها تستشعر دوماً تهديد البطالة والأزمات الاقتصادية، وتظل خاضعة لاستغلال الرأسماليين أو عبودية الدولة إن كانت شيوعية، ويؤدي إرهاقها المستمر وقلقها الدائم إلى أن تفقد طبيعتها الأنثوية، وتُضحِي عرضة للأمراض العصبية، وفي بعض الأحيان لا تجد وسيلة للخلاص من هذا الكابوس الرهيب أفضل من الانتحار..»[(١)]، انتقاماً من نفسها، كما فعلت الممثلة الشهيرة (مارلين مونرو) التي كتبت قبيل انتحارها نصيحة لبنات جنسها، تقول فيها:

احذري المجد.. احذري من كل من يخدعك بالأضواء.. إنني أتعس امرأة على هذه الأرض.. لم أستطع أن أكون أماً.. إنني امرأة أفضل البيت.. الحياة العائلية الشريفة على كل شيء.. إن سعادة المرأة الحقيقية في الحياة العائلية الشريفة الطاهرة، بل إن هذه الحياة العائلية لهي رمز سعادة المرأة، بل الإنسانية.

وتقول في النهاية: لقد ظلمني كل الناس.. وإن العمل في السينما يجعل من المرأة سلعة رخيصة تافهة. مهما نالت من المجد والشهرة الزائفة.

وليس غريباً أن تؤكد الإحصائيات العالمية أن نسبة محاولات الانتحار عند النساء أكثر منها عند الرجال[(٢)].

وقد أفاد تقرير كتبه أحد الأطباء الاجتماعيين في (فيينا) هذه الملاحظة، واستطرد في ذكر عدد محاولات الانتحار، وأنها تزداد باطراد، وأن النسبة الأعلى فيها دائماً من النساء، ما بين عامي ١٩٤٨ ـ ١٩٥٩م، وقال: إنه في العام الأخير، في كل تسعة أيام توجد ست محاولات انتحار، أربع منها من جانب الفتيات، واثنتان من جانب الفتيان[(٣)].

وعلى سبيل الإشارة أقول:

---

(١) العلمانية، للدكتور/ سفر الحوالي، ص٤٣٤، وانظر: المرأة بين الفقه والقانون، للسباعي.
(٢) العلمانية، للدكتور/ سفر الحوالي، ص٤٣٦.
(٣) انظر: المصدر السابق، ص٤٣٦، ٤٣٧.

والأطفال الذين يحرمون من عطف الأمومة وحنانها، ما مصيرهم؟ وكيف يعبرون عن اختياراتهم العاطفية في المجتمع؟ إنَّه مصير مرعب وجنوح مفرط!

وحالات الشذوذ الجنسي بين كل من الجنسين على حدة، اللواط والسحاق.. أكثر من عشرين مليوناً من الجنسين في الولايات المتحدة وحدها[1]!

وجرائم القتل والاختطاف والاغتصاب والسرقة.. أشياء لا يمكن تصورها.

يقول تقرير رسمي صادر عن النائب الاتحادي العام في الولايات المتحدة الأمريكية عن الجرائم الأمريكية المسلحة رسمياً: «تقع جريمة قتل كل ٤٣ دقيقة، وتقع جريمة اغتصاب امرأة كل ١٩ دقيقة، وجريمة سطو على السيارات كل ٤٨ ثانية، وجريمة اختطاف كل ٢٠ ثانية». هذا مع العلم أنَّ النسب آخذة في الارتفاع باطراد[2].

وأدع التعليق على هذه المشاهد والكوارث (العقوبات) لفطنة القارئ..

وأنتقلُ إلى الجانب الثالث وهو: الظلم وإرادة العلو في الأرض بغير الحق:

والظلم والاستبداد وإرادة العلو في الأرض بغير الحق، أمور ملازمة للجاهلية، وقد عرفنا من قبل أن الجاهلية المعاصرة قد ورثت هذه الخصائص من الجاهليات القديمة، الإغريقية والرومانية، ثم طورت ذلك وتفننت فيه، كما طورت وسائل الفساد الأخرى.

وفي ظل الجاهلية، وفي غيبة المنهج الرباني عن قيادة الحياة، لا تكون القوة محايدة أبداً، فضلاً عن أن تكون لمناصرة الحق وإنصاف المظلوم.. بل لا تنفك ـ عادة ـ من شهوة ظلم الآخرين واستعمارهم، لأنَّ التمكن ليس له من غاية إلا العلو في الأرض والإفساد فيها.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم[3]!

وقد تمكّنت الجاهلية المعاصرة من أسباب القوة المادية، وهي نعمة كبرى. فكيف تم تسخيرها؟ وما هي نتائج ذلك على البشرية جمعاء، وعلى الجاهلية المعاصرة بوجه خاص؟

ماذا نتصور حين تكون القوة والسلطان غير مضبوط بشريعة الله؟

---

(١) وهذه الإحصائية يزيد عمرها على اثني عشر عاماً، بدليل أن وفداً يمثل منظمات اللواطة والسحاق، قاموا بمقابلة مارغريت مساعدة الرئيس جيمي كارتر للعلاقات العامة، للمطالبة بحق حرية العمل في المؤسسات العسكرية، وللسماح بمزيد من حرية اللواطة! انظر: العلمانية، للدكتور/ سفر الحوالي، ص٤٤١، ٤٤٢.

(٢) العلمانية، للدكتور/ سفر الحوالي، ص٤٤١، عن مجلة (المجتمع)، العدد (٣٥٠).

(٣) البيتُ لأبي الطيب المتنبي. انظر: ديوان المتنبي بشرح العُكبَرِيّ (٢/ ٣٦٠).

لقد أدّى ذلك إلى جرائم وحشية في حق البشرية جمعاء، وكان سوطاً عاقب الله به الإنسانية الْمُعْرِضَة عن هدي الله، الناكبة عن صراطه؛ القوي منها والضعيف!

أدّى إلى صراع مدمّر بين الدول التي تملك القوة، ولا تملك الضوابط (الإنسانية) لاستخدام القوة. ويكفي من أمر هذا الصراع حربان عالميتان في أقل من نصف قرن، والتهديد بحرب ثالثة، يمكن أن تدمر وجه الأرض.

وأدّى إلى الاستعمار الوحشي الذي ألغى كل كرامة للضعيف الذي لا يملك وسائل القوة. ذلك الاستعمار الذي وقعت في قبضته كل دول ما يُسمّى بالعالم الثالث، وهو أكثر من نصف الأرض. لأنّ القانون السائد في الجاهلية هو قانون الغاب: القوة هي الحق، والقوي يأكل الضعيف. والبقاء للأصلح في عرفهم تعني: البقاء للأقوى مهما يكن ما ينطوي عليه من الشرّ[1].

وقد تجلّى في سلوك الجاهلية المعاصرة، إرادة العلو والفساد في الأرض، كما لم يتجلّ في جاهلية أخرى.

أمّا إرادة الفساد في الأرض، فقد رأينا ـ فيما سبق ـ كيف كانت قوة العلم والمال والسلاح أسباباً لنشر الإلحاد والرذيلة والفساد الأخلاقي، ودعم ذلك وحمايته، بل وفرضه بالقوة، كما في العالم الإسلامي.

وأمّا إرادة العلو في الأرض، وما يتبع ذلك من القهر والاستعباد، وما ينتج عنه من القتل والتشريد والتجويع.. فشيء يطول ذكره، ويؤذي المسامع وصفه، ولو لم يكن من مخازي الجاهلية إلا هو لكان كافياً في تسويد وجهها المتجهم.

ولن أتعرض لجرائم الدول الكبرى في حق مئات الملايين من البشر من المسلمين وغيرهم، خاصة في آسيا وإفريقيا. مع يقيني بأن ما أصابهم ما هو إلا بسبب ذنوبهم.

ولكن سأشير فقط إلى بعض العقوبات الإلهية التي أوقعها الله بذات الذين أرادوا العلو في الأرض بغير الحق، ونشروا فيها الفساد!

---

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص٥١.

كانت بريطانيا ـ فيما مضى ـ قوة عظمى لا تغيب عن مستعمراتها الشمس! وكانت الهند وأستراليا وماليزيا، ومصر والسودان والعراق والأردن وفلسطين ودول الخليج وعدن، ونيجيريا وغانا وسيراليون، وأجزاء كثيرة من أمريكا.. بعض مستعمراتها[1].

وكانت مثالاً للوحشية والظلم والاستغلال البشع، وكانت لا تخرج من مستعمرة إلا وتترك فيها من عوامل الإفساد الداخلية، ومشاكل الحدود مع جيرانها ما تطمئن معه على أنه لا يمكن أن تقوم لأهلها قائمة بعد ذلك. وهي إمام في هذه الأفاعيل الهمجية، ولا أبرئ غيرها.

وبينما هي كذلك، إذ مكر الله بها فانحسر سلطانها، واستأخرت عن موقع الصدارة، وأجبرت على الدخول في حربين عالميتين في غضون ثلاثة عقود، وصبَّ الألمان عليها من عذاب الحرب صبّا، ففرحت بنجدة الحلفاء لتنجو بذاتها، وأصبحت بريطانيا العظمى بعد الحرب العالمية الأولى دولة من الدرجة الثالثة أو الرابعة.

وألمانيا التي فرحت بقوتها، فخرجت بطراً وأشراً، تريد استعمار العالم! فمنيت بهزيمة نكراء، وقسمت بلادها، ولم تتخلص من عقابيل ذلك إلا بعد خمسين سنة تقريباً.

وروسيا التي استولت على بلاد تركستان المسلمة؛ بخارى، وسمرقند، وطشقند[2]، وغيرها. وضمت إليها دولاً أخرى نصرانية، حتى بلغ مجموع ما استعمرته خمس عشرة جمهورية، أو أكثر، وكانت أفغانستان من آخر ضحاياها.

وقد حكمت شعوب تلك البلاد بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧م بالحديد والنار، وسخرتهم لخدمة مصالحها، وحملتهم على الكفر بأديانهم واعتناق الإلحاد ومبادئ الشيوعية، وألغت الملكية الفردية، ونشرت جواً من الرُّعب والجاسوسية.. حتى بلغ الأمر منتاه.

وقد مكَّنها من ذلك كله، أنّها كانت على جانب عظيم من القوة والسلطان المادي، فقد كانت على مدى خمسة عقود أو تزيد، القوة الثانية في العالم المعاصر، وربما كانت الأولى أحياناً.

---

(١) انظر: معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية، مناع القطان، ص٤٣، ودائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي (٦٥٤/١).

(٢) انظر: معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية، مناع القطان، ص٤٤.

وبينما هي كذلك قوة وتمكيناً في الأرض؛ إذ تداعت حيطانها وتهاوت أركانها، فتحطَّم اقتصادها، وتململت شعوبها المقهورة.. فانكمشت على حدودها، ورفعت يدها عن مستعمراتها، وصارت تستجدي أعداءها ليساعدوها في الخروج من محنتها.

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكَر، فإنَّ أمريكا المتنفذة اليوم، تسير على خطى صواحباتها، فكل شعب منها موتور، وكل حق من جرائها مقهور مهدور... وإنا لننتظر سنة الله فيها، كما رأينا جميل صنعه في أمثالها.

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

ولا أستطيع المضي في نقل الشواهد، وتفصيل جوانب المأساة التي لحقت بالأمم الجاهلية المعاصرة في كل مناحي الحياة، بشقيها الرأسمالي والشيوعي، فذلك شيء لا يستوعبه مبحث في فصل من فصول كتاب. وحسبي تلك الإشارات.

ثم إن تتبع ذلك ليس هدفاً بذاته، وإنَّما أردتُ التنبيه إلى أن ما حَلَّ بهذه الأمم، ما هو إلا عقوبات إلهية.. وإن سميت بغير اسمها، وإن عَقَلَ الإنسان عللها وأسبابها، وإن تمكَّن من علاج بعضها والتخلص منها!

إنَّ الانحراف الذي مارسته الجاهلية المعاصرة عن هدى الله ومنهجه كان كبيراً وعميقاً، وفي كل اتجاه، فلا جرم ستكون العقوبة مروعة وعميقة الغور.

لم يكن بُد وقد شَرَد الإنسان عن ربه ومنهجه وهداه.. وعبد الإنسان نفسه واتخذ إلهه هواه. وجهل الإنسان نفسه كذلك وراح يخبط في التيه بلا دليل، وأقام منهج حياته على قواعد من هذا الجهل ومن ذلك الهوى، واعتدى على فطرته التي فطره الله عليها، في حموة الشرود من ربه وفطرته ومنهجه.

لم يكن بُد وقد رفض الإنسان تكريم ربه له، فاعتبر نفسه حيواناً وقد أراده الله إنساناً وجعل نفسه آلة، وقد أراده الله مهندساً للآلة. بل جعل الآلة والمادة إلهاً يحكم فيه بما يريد.. لم يكن بد وقد جعل الإنسان من المرأة حيواناً لطيفاً، كما أن الرجل حيوان خشن، غاية الالتقاء بينهما اللذة، وغاية الاتصال بينهما المتاع..

لم يكن بد وقد عطل الإنسان خصائصه (الإنسانية) ليحصر طاقته في الإنتاج المادي، وأقام حياته كلها على أساس مادي، وتصور مادي، وكَبَت الجوانب الحيَّة المرفرفة..

التي وهبها الله له ، لأنَّه (الإنسان) الخليقة الفذة في هذا الكون ، التي تشمل المتناقضات كلها في تناسق بديع .

لم يكن بد وقد أقام الإنسان نظامه على أكل الربا ، ليكدّ القطيع البشري كله في خدمة بضعة آلاف من مؤسسي البيوت المالية والبنوك المرابين . .

وفي النهاية ، لم يكن بُد وقد اتخذ الإنسان له آلهة من دون الله ؛ فاتخذ من المال إلهاً ، ومن الهوى إلهاً ، ومن المادة إلهاً ، ومن الإنتاج إلهاً ، ومن الأرض إلهاً ، ومن الجنس إلهاً ، ومن المشرعين له آلهة يغتصبون اختصاص الله في التشريع لعباده . . كل هذه الآلهة اتخذها وعبدها ليهرب من الله ، ويستنكف عن عبادته!

لم يكن بد وقد فعل الإنسان هذا كله بنفسه أن تَحُل به عقوبة الله لمن خالف الفطرة . وأن يؤدي ضريبة المخالفة عن ندائها العميق . . وأن يؤديها فادحة قاصمة مدمرة . وقد كان . .

كان . . وأداها من نفسه وأعصابه . ومن بدنه وعافيته . ومن سعادته وطمأنينته . ومن مواهبه وخصائصه .

وكتب على البشرية كلها أن تؤدي الضريبة فادحة صارمة ثقيلة: حروباً رهيبة ، ضحاياها بالملايين ؛ قتلى وجرحى ومشوهين ومعتوهين ومعذبين . وأزمات تلو أزمات . . أزمات إذا قل الإنتاج وأزمات إذا زاد الإنتاج ، وأزمات إذا مال الميزان التجاري إلى العجز وأزمات إذا مال الميزان التجاري إلى الزيادة ، وأزمات إذا نقصت المحصولات وأزمات إذا فاضت المحصولات ، وأزمات إذا قلَّ النسل وأزمات إذا زاد النسل . وتخبط من هنا وتخبط من هناك . وقلق وحيرة واضطراب وعدم استقرار . وضغط على أعصاب الناس لا تطيقه بنيتهم ، يخرُّون أمواتاً بالسكتة وتفجر المخ ، أو يخرون أشلاء أو مجانين . . وما سُلِّطت عليهم سوى أنفسهم ، وما كان إلا نذير الله الذي لم تتفتح له القلوب والآذان[1] .

ألم يغيروا ما بأنفسهم من الحق والعدل؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] .

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ، ص١٢٠ ـ ١٢٢ باختصار وتصرف يسير .

ألم يبدلوا نِعَم الله كفراً، بنسبتها إلى غيره، وبترك شكرها، وباستعمالها في معاصيه؟

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ [البقرة: ١٠٨].

ألم يذلوا ويتعبدوا للمادة والتراب، ويعبدوا أهواءهم؟

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

ألم يعمدوا إلى مصادمة الفطرة بإزالة الفوارق بين الرجل والمرأة، وإقحام كلٍّ منهما في خصائص الآخر؟ والله يقول: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ﴾ [آل عمران: ٣٦].

ويُغرُوا المرأة بالمطالبة بذلك، والله يقول: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [النساء: ٣٢].

ويلغوا قوامة الرجل على المرأة، والله يقول: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ﴾ [النساء: ٣٤].

ألم يقيموا حياتهم على قاعدة الربا، بكل صوره، وقد محقه الله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وآذن متعاطيه بالمحاربة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

ألم يجعل الله السبيل والحجّة قائمة على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، بإنزال العذاب عليهم؟ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤١، ٤٢].

وأخيراً . . . ألم يحكم الله بخسران غير المؤمنين الصادقين ، من سائر الكافرين؟

﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣] .

فكيف بالكافرين المجرمين الظالمين؟

ألا إنهم بين عقوبات الله يتنقلون ، وفي مساخط الله يتقلبون .

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] .

فكيف يتصور الخلاص للبشرية الشاردة عن الحق ، الْمُعْرِضَة عن هدى الله ؛ بصورة جزئية ، كما هي حال معظم المسلمين اليوم ، أو بصورة كلية ، كما هي حال الأمم الجاهلية في الشرق والغرب؟

هذا ما سأتحدَّث عنه بإذن الله في الباب الرابع (طريق الخلاص) .

* * *

الباب الرابع

طريق الخلاص

وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

الفصل الأول: فقه السنن.

الفصل الثاني: التفاعل مع السنن وتطبيقها.

الفصل الثالث: ضمان الاستمرار.

بين يدي الباب

هذا هو الباب الرابع والأخير من أبواب هذه الدراسة، وعنوانه كما رأيت هو: (طريق الخلاص).

وإذا كنت قلت: إنَّ الباب الثالث (آثار رعاية السنن وعواقب الإعراض عنها) يقع مما قبله موقع المثال من القاعدة، فإنَّ هذا الباب (طريق الخلاص) واقع مما قبله موقع الثمرة والنتيجة من تصور وفهم القاعدة والمثال المضروب.

وإذا كان موضوع الباب الثالث عموم هذه الأمة، أمة الإجابة وأمة الدعوة، فإنَّ هذا الباب يخاطب أمة الإجابة بخاصة.

كما أنه ليس عرضاً تاريخياً، وإن كان مقصوداً من العرض التاريخي الاعتبار، وإنَّما هو دعوة موجهة، وخلاصة مزاجها الدلائل الشرعية والوقائع التاريخية.

وإذا كان (الخلاص أو الخلوص) هو زوال الشوائب والأخلاط عن الشيء وتخليصه منها بعد أن كانت فيه [1]، بطريقة من الطرق المناسبة.. فإنَّ خلاص هذه الأمة لا يكون إلا بتطهيرها وتنقيتها مما خالطها من الشوائب والانحرافات العقدية والسلوكية والأخلاقية والفكرية.. وما داخل نظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية تبعاً لذلك من الفساد والعطب.

ولا يكون ذلك إلا عن طريق واحد، هو العودة إلى دينها، والأخذ بما في كتاب ربها وسنة رسولها ونبيها محمد ﷺ بقوة، والاهتداء بهدي سلفها الصالح، ممن كانوا المثل الأعلى في نجاح التجربة المؤسسة على الكتاب والسُّنة.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولا يكون الخلاص مثمراً ثمرته المرجوَّة، ما لم يكن قائماً على أصول صحيحة منطقية؛ تبدأ بالعلم (المعرفة) والفقه (الفهم والإدراك)، وتثنّي بالعمل (الممارسة والتطبيق)، وتنتهي بالدعوة والجهاد لحماية المستوى الرفيع الذي وصلت إليه، وضمانة استمرارية العطاء.

---

(١) انظر: مفردات الراغب (خلص).

﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

وأنبه هنا إلى أمور ثلاثة:

الأول: ضرورة الفهم الشامل لمعنى (طريق الخلاص) الذي ينبغي على الأمة أن تسلكه.. إنّه طريق أوله في الدنيا وآخره في الآخرة.

وهو طريق حضاري يستوعب جوانب الحياة المعنوية والمادية.

أي أنه طريق: يرفض الفصل والتمييز بين أعمال الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]. وقال: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما عند هذه الآية: «من قرأ القرآن واتّبع ما فيه، هداه الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب، ولقد ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية» (١).

كما يرفض التجزئة وأنصاف الحلول في نظرته إلى العملية الإصلاحية (الخلاص).

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

الأمر الثاني: التدرج، وأعني به: البدء بالعلم، فالعمل، فالدعوة والجهاد، ولا يعني ذلك المرحلية الحرفية؛ إذ من الخطأ اعتقاد أن معنى التدرج أن ترتد الأمة كلها أو طائفة منها إلى المرحلة الأولى، وتهمل المرحلتين التاليتين حتى تفرغ منها.. كلا، ليس هذا بمقصود.

---

(١) زاد المسير، لابن الجوزي (٥/ ٣٣٠).

ليس هذا بمقصود ؛ لأننا إذا نظرنا إلى المراحل السابقة بمنظار شمولي ، أدركنا عملياً أن الأمة يجب أن تمارس العلم فالفقه ، والعمل والتطبيق ، والدعوة والجهاد ، بمعانيها الواسعة في كل جوانب حياتها بصورة متداخلة ، تداخل الكينونة الإنسانية . والمرحلية الحرفية تتعارض وهذه النظرة ، وبالتالي لا يمكن تطبيقها في عالم الواقع .

إذن ، فالتدرج المقصود في باب (خلاص الأمة) ، هو أن تقوم المؤسسات التربوية والعلمية والإعلامية في الأمة بترويض أفرادها على مبدأ (التدرج) ، وذلك من خلال: الطرح النظري لهذا المبدأ (التدرج) ، إلى حد الإيمان بأهميته . ثم التأكيد على ممارسته في عالم الواقع ؛ وذلك بمساعدة الأفراد على هذا السلوك بكل وسيلة ممكنة .

وأن تكون هذه المؤسسات قائمة بالفعل على أساس مبدأ (التدرج) ، في جانبيه العلمي والعملي .

والتدرج بهذا المعنى ، لا يتعارض مع مبدأ تقديم الأولويات ، كما لا يتعارض مع المرحلية في التنفيذ على ضوء الإمكانات المتاحة للأمة . .

لا يتعارض مع شيء من ذلك ؛ لأنَّ الأولويات التي نبدأ بها نحتاج فيها هي الأخرى إلى ممارسة مبدأ التدرج المنطقي . . نحتاج في تنفيذها إلى المعرفة والفقه أولاً ، ثم الممارسة والتطبيق ثانياً ، فالدعوة والجهاد من أجل إشاعتها والحفاظ عليها ثالثاً .

وقل مثل ذلك في مرحلة التنفيذ .

إنَّ عامل الزمن في (مبدأ التدرج في خلاص الأمة) بالمعنى الذي أعنيه هنا ، خاضعٌ في سرعته وإبطائه لمدى تحقق مراحل التدرج بصورة صحيحة ، وليس العكس . وليس معنى ذلك أن الزمن غير مهم ، كلا . ولكن تضافر الجهود وصدق النوايا وحسن التأتي للأمور ، يختصر الزمن لمصلحة الأمة .

الأمر الثالث: ويراعي مبدأ التدرج المنطقي، الذي يبدأ بالمعرفة والفقه أولاً، ثم الممارسة والتطبيق ثانياً، فالدعوة والجهاد من أجل تعميم الشيء والحفاظ عليه ثالثاً..

وهذا قد يكون واضحاً بعض الشيء في مجال المبادئ والتصورات والأفكار (الجوانب النظرية) .

ولكن نحتاج إلى فهم مرحلة (الدعوة والجهاد) كيف يمكن تطبيقها في عالم الماديات؟

وجواباً على ذلك ، أقول باختصار:

إنَّ تطبيق المرحلة الثالثة (الدعوة والجهاد) في باب الأشياء المادية، يستلزم فهماً أوسع لمعنيي (الدعوة والجهاد).

إنَّ الجهاد معناه: بذل الجهد واستفراغ الوُسْع للوصول إلى المقصود، مأخوذٌ من إجهاد النفس وكدّ الذهن [١].. وهو بهذا المعنى داخل في المراحل الثلاث، ولازم لكل عمل مفيد. أمَّا في المرحلة الثالثة، فإنَّ الجهاد يعني بذل المزيد لتحقيق الإبداع وضمان الجودة، والتخلص من السلبيات التي تكتنف أعمال البشر عادة، خصوصاً في بداياتها، وهو يعني أيضاً تكرار التجربة والممارسة، للأسباب ذاتها..

وبذل الجهد بهذه الصورة، هو الوسيلة الصحيحة لتطوير الأشياء، فإنَّ الممارسة الآلية للأشياء لا تساعد على رؤية عيوبها، وحتى لو ظهرت عيوبها، فإنَّ العقلية الاستهلاكية التي تتوقف عند المرحلة الثانية، غير مرشحة للمضي بها قدماً نحو الأحسن.

أمَّا الكلمة الثانية (الدعوة).. فإنَّها في عالم الماديات تعني الدعوة إلى: التكامل البشري: سواء كان رقعة الأرض، أو المواد الخام، أو رأس المال، أو التقنية المتطورة، أو الموقع الجغرافي المتميز، أو غير ذلك..

والتكامل البشري سواء كان يداً عاملة، أو خبرات فنية متخصصة.

كما أن الدعوة هنا تعني: (الدعاية)، وهو استخدام شائع في ترويج الأشياء المادية.. تعني الدعاية لمنتجات الأمة المادية، وفتح الأسواق أمامها، ورفع القيود التي تَضُر بها.. ونحو ذلك.

أمَّا ثمرة هذا التدرج في خلاص الأمة، فإنَّه يظهر ـ عادة ـ على مستوى الأمة بمجموعها، ونستدل على وجوده عملياً بأمور، أبرزها:

١ ـ أن تصبح أعمال الأمة وتصرفاتها، أقرب إلى الصواب والحق في جملتها، وتقل نسبة المخالفات والتصرفات العشوائية؛ لأنَّ التدرج يُسَددها بإذن الله، وهذا التسديد يظهر أيضاً في سلوك الأفراد، ويطبع كل أشياء الأمة بطابعه.

٢ ـ تطبيع الممارسات العملية بعد معرفتها وفقهها ذهنياً، بحيث لا تصبح مجرد معرفة ذهنية باردة، أو نظريات فلسفية جدلية عقيمة؛ لأنَّ ثمرة العلم العمل، وبهذا تصبح الأمة أمة إيجابية فاعلة منتجة.

(١) انظر: مفردات الراغب، وأساس البلاغة، للزمخشري، مادة (جهد).

وبعد، فإنَّ هذا الباب ذو فصول ثلاثة، هي المراحل التي أسلفت لك بيانها، وهي بحروفها كالتالي:

الفصل الأول: فقه السنن.

الفصل الثاني: التفاعل مع السنن وتطبيقها.

الفصل الثالث: ضمان الاستمرار.

* * *

الفصل الأول

فقه السنن

فقه السنن أول خطوة نخطوها في طريق الخلاص الطويل . .

أول خطوة نخطوها . . وإذا نجحنا في اجتيازها بأمان ، فما بعدها أيسر منها بإذن الله تعالى .

وأي خطوة تُتَّخذ قبلها ، على سبيل التجاهل لها أو الجهل بها ، أو بغية اختصار المسافة . . فستكون عواقب ذلك ـ في نظري ـ وخيمة ، ونتائجه مخيبة للآمال!

فماذا أعني بفقه السنن في باب (خلاص الأمة)؟

لعل مما يساعد في الإجابة عل هذا السؤال ، أن أقدم بمقدمتين مختصرتين:

المقدمة الأولى: في التعريف بكلمة (فقه) ، والإشارة إلى العلاقة بينها وبين العلم والمعرفة .

المقدمة الثانية: في التنبيه إلى تمييز القرآن بين من اتصف بالفقه والإدراك ، ومن أُرْكِسَ في الغفلة والإعراض .

المقدمة الأولى: الفقه في اللغة: هو الفهم والإدراك للشيء ، وهو العلم به ومعرفته معرفة تامة تبلغ حد الإدراك لمراميه وفقه مقاصده ، ويتفاوت ذلك بتفاوت الملكات والمدارك . ولهذا يُقال للعالم بالشريعة: فقيه ، ويُقال عالم [1] .

وللفقه في الاصطلاح الشرعي تعريفان: عام ، وخاص .

فالعام: ما عرَّفه به أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ بأنه: معرفة النفس ما لها وما عليها .

وهذا التعريف شامل للأحكام العلمية والعملية ، وهو الذي كان مشهوراً عند المتقدمين ، قبل استقلال الفقه بمعناه الخاص عن غيره من علوم الشريعة ، ويسمى الفقه الأكبر ، وهو أشبه بما نحن بصدده من فقه السنن .

ثم استقل الفقه فصار موضوعه مقصوراً على معرفة ما للنفس وما عليها من الأحكام العملية .

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس (٤/ ٤٤٣) ، واللسان ، مادة (فقه) .

وعرَّفه الشافعي ـ رحمه الله ـ بالتعريف المشهور بعده عند العلماء (١) ؛ عَرَّفه بأنه: «العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية» (٢) .

ولا يُقَال لمجرد العلم بلا فقهٍ فقهٌ ، ولا يستحق من كان كذلك وصف الفقيه . فالفقه أخص من العلم ، أو يُقال: هو علم خاص (٣) .

قال الراغب في مفرداته: «الفقه: هو التوصل إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ ، فهو أخص من العلم» .

وقال في مادة (علم): «العلم: إدراك الشيء بحقيقته» .

والفقه مستلزمٌ لمطلق العلم ؛ إذ لا يُتصَوَّر فقه بلا علم . وليس العكس بلازم ؛ إذ يوجد علم بلا فقه ، وهو كثير .

ويظهر بالتأمّل أن لفظ (العلم) إذا أُطلِقَ أُريدَ به: إدراك حقيقة الشيء ، لا مجرد سماعه ؛ لأنَّ الإدراك والمعرفة وعقل الأشياء ، وما يترتب على ذلك من العمل هو المقصود من السماع والعلم ، وبدون ذلك يصبح كلا علم .

والفرق بينهما على هذا النحو ثابتٌ في كلام الشارع الحكيم ـ جلَّ وعلا ـ على لسان رسوله ﷺ .

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ [محمد: ١٦] . وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠ ، ٢١] .

فقد أثبتت الآيات لهم مطلق السماع والاستماع ، وأثبتت لهم عدم الفهم أيضاً .

وقال: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤] . وقال: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

ومعلوم أن المنفي عنهم هو الاستماع النافع الموصل إلى الحق والهدى ، والمثبت لهم هو مطلق الاستماع الذي تقوم عليهم به الحجة .

---

(١) وهو تعريف الفقه بمعناه الخاص .

(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته ، للدكتور/ وهبة الزحيلي (١/ ١٥ ، ١٦) بتصرف .

(٣) وعليه يُحمَلُ كلام من فسَّرَ الفقه بمطلق العلم ، كقول ابن فارس: « . . . وكل علم بشيء فهو فقه» [معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس (٤/ ٤٤٢)] . وقول صاحب اللسان: « . . . وفَقِهَ فقهاً ، بمعنى: عَلِمَ علماً» [اللسان ، مادة (فقه)] . أقولُ: إلا أن يكون ذلك من باب التجوّز ، ومن باب تفسير أحد اللفظين بالآخر على سبيل التوسّع .

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾ [النساء: ٨٣]. وهم أولو الفقه في الدين والعقل[١]. والآيات في هذا كثيرة.

وقد صحَّ من حديث ابن مسعود[٢] رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «نضَّر الله امرءًا سمع منا شيئاً فبلَّغه كما سَمِعَه، فَرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع»[٣].

وقوله ﷺ في حديث زيد بن ثابت[٤] رضي الله عنه: **«نضَر الله امرءًا سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وربَّ حامل فقه ليس بفقيه»**[٥].

وتأمَّل قوله ﷺ: **«فبلَّغَهُ كما سمعه»**، وقوله في الحديث الآخر: **«سمع منا حديثاً فحفظه»**، تجد أن النبي ﷺ قد أثبت لهذا السامع قدراً زائداً على مجرد السماع، ألا وهو الحفظ والضبط، وهو علم بلا شك.. ومع ذلك لم يجزم بكونه فقيهاً، بل **«ربَّ مبلَّغ أوعى من سامع»**، و**«ربَّ حامل فقه ليس بفقيه»**.

والمعرفة أشبه بالفقه، وأقرب إلى مدلوله؛ فإنَّها إدراك الشيء بتفكر وتدبّر لأثره، وهي أخص من العلم[٦].

وإذ قد ثبت أن الفقه هو الفهم والإدراك، فإنَّ صاحبه لا يستوي هو ومن حُرِمه، بل بينهما بون شاسع. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

والجواب: أنهم لا يستوون! وبيان ذلك في:

---

(١) تفسير ابن جرير (٥/ ١٨٣).

(٢) ابن غافل، الهذلي، حليف بني زهرة، أبو عبد الرحمن، أسلم مبكراً، وهاجر الهجرتين، وشَهِدَ بدراً والمشاهد بعدها، ولازَمَ النبيَّ ﷺ، وكان صاحب نعليه، وحدَّثَ عن النبي ﷺ الكثير. توفي بالمدينة سنة (٣٢هـ). انظر: الإصابة (٤/ ١٢٩).

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٨٠)، عن جبير بن مطعم، والترمذي في العلم، باب الحث على تبليغ السماع، رقم (٢٦٥٩)، وغيرهم. وهو حديث صحيح. انظر: جامع الأصول، لابن الأثير (٨/ ١٨)، والجامع الصغير، للسيوطي (٢/ ٦٧٤).

(٤) ابن الضحَّاك، الأنصاري، الخزرجي، أبو سعيد، شَهِدَ أُحُداً، وقيل: أول مشاهده الخَنْدَق، لِصِغَرِ سِنِّهِ. كان من كُتَّاب الوحي لرسول الله ﷺ، ومن علماء الصحابة، كان له شرف جمع القرآن في عهد الصِّدِّيق وعهدَ عثمان، وتولَّى قَسْم غنائم اليرموك. توفي سنة (٤٥هـ) في قول الأكثرين. انظر: الإصابة (٣/ ٢٢).

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٨٢) عن جبير بن مطعم، والترمذي في العلم، باب: الحث على تبليغ السَّماع، رقم (٢٦٥٨)، وأبو داود في العلم، باب: فضل نشر العلم، رقم (٣٦٦٠)، وغيرهم. وهو حديث صحيح. انظر: جامع الأصول، لابن الأثير (٨/ ١٨)، والجامع الصغير، للسيوطي (٢/ ٦٧٤)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة، (١)، ح (٤٠٤) بأطول منه.

(٦) انظر: مفردات الراغب (عرف).

المقدمة الثانية، وهي: في التنبيه إلى تمييز القرآن بين من اتصف بالفقه والإدراك، ومن أُرْكِسَ في الغفلة والإعراض.

لقد امتدح الله أهل الفقه والعلم أفراداً وأمماً في كتابه وأثنى عليهم، ونعتهم بأحسن النعوت، وذمّ الغافلين المعرضين أفراداً وأمماً، ونعتهم بأقبح النعوت، ونفر من حالهم.. وميّز بين الفريقين أعظم تمييز وأبينه.

وقد مرَّ بك إشارة إلى ذلك في الآيات السالف ذكرها، وأزيد المسألة إيضاحاً فأقول:

إنَّ أهل الفقه والعلم على الحقيقة، هم أهل خشية الله، فإنّه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]؛ أي: العارفون بالله وبما له ـ سبحانه ـ من نعوت العظمة والجلال، العالمون بأمره ونهيه واقتداره [١].

وهم المؤمنون المؤهلون للاستجابة لأمره والاهتداء بهديه سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]؛ أي: سماع تفهم وفقه وانتفاع [٢].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

وهم الذين ينتفعون بالمواعظ ويعقلون الأمثال المضروبة، ويعتبرون بالحوادث ويتذكرون إذا ذكروا، وهم أهل العقول الراجحة والبصائر النافذة، وأولو الألباب...

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۞ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ٩، ١٠].

وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [سورة ق: ٤٥]. وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وقال سبحانه: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [سورة ق: ٣٧].

وأهل الفقه والعلم، هم أهل الذكر الذين أمر الله بسؤالهم.

قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٢/ ١٣٢).
(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٧/ ١٨٥)، وتفسير البغوي (٢/ ٩٥).

وعليهم المعول، في فهم المعضلات وحل المشكلات، التي تعرض للناس في شئون دينهم ودنياهم.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾ [النساء: ٨٣]... إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على أوصافهم، المُبَيِّنة عن خصائصهم.

وعلى الضدّ من ذلك، الغافلون المعرضون، وهم أكثر الخلق ممن ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وهم شرّ الدواب عند الله، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

وأمثال هؤلاء لا تغني فيهم الآيات والنُّذُر، برغم وضوحها.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

وعلتهم الإعراض والجهل، قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦].

ولهذا يسكنون في مساكن الظالمين، ويرون آثار العقوبات الإلهية فيهم وفي ديارهم، فلا يَرْعَوُونَ ولا يتذكَّرون.

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٤، ٤٥].

ولا ينفي عنهم صفة الغفلة كونهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، بل إنَّ هذا العلم وحده كـ (لا علم)!

قال تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ * يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ١ ـ ٧].

قال في الكشاف: «ذمَّهم الله ـ عز وجل ـ بأنهم عقلاء في أمور الدنيا، بُله في أمر الدين.. وقوله: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ بدل من قوله: «لا يعلمون». وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه، وجعله بحيث يقوم مقامه و يسدّ مسده، ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا»[(١)].

وبسط هذا يطول، وقد ذكر في غير موضع، وسيأتي له مزيد بيان، بإذن شاء الله.

وخلاصة ما سبق:

ـ أننا تبيّنا معنى الفقه، وأنه أخص من مطلق العلم، وأنه مستلزم له.

ـ وميَّزنا بين (الفقه) بمدلوله الاصطلاحي الخاص بالأحكام العملية، وهو اصطلاح متأخر، وهو جزء من مدلول الفقه بمعناه العام.. ميَّزنا بينه وبين الفقه بمعناه الأعم، الذي هو فقه الأحكام العلمية والعملية في الحياة الإنسانية، وهو الفقه الأكبر. وعرفنا أن هذا الأخير هو أشبه بمرادنا في هذا الفصل.

ـ وأدركنا عظيم الفرق بين أهل الفقه والعلم، وأهل الغفلة والإعراض، بالوقوف على بعض أوصافهم ومواقفهم، من خلال بعض الآيات.

ولعل السبيل قد تمهَّدت الآن للإجابة عن السؤال السابق:

ماذا نعني بـ (فقه السُّنن) في (طريق خلاص الأمة)؟

لقد قلت في بداية الحديث: إنَّ (فقه السُّنن) هو الخطوة الأولى في طريق الخلاص الطويل. وإنَّ صحة ما بعدها من الخطوات موقوف على صحتها وسلامتها.. وبيَّنتُ معنى كلمة (فقه) وأي معنى أُريده من معانيها، وأنَّه المعنى الأعم..

وأنت على علم أنَّ كلمة (سنن) في هذا السياق تعني: القوانين التي تضبط حياة الإنسان، والنظام الإلهي الذي أجرى عليه شئونه في هذه الحياة.

---

(١) الكشاف، للزمخشري (٣/ ٢١٤، ٢١٥).

والحتُّ في الكلمة بين يدي الباب، إلى منطقية البدء بهذه الخطوة قبل التطبيق والممارسة، ومن باب أولى قبل الدعوة والجهاد..

وحسبي في هذا الفصل، أن أُجلّي هذه المعاني، وأشفعها ببعض الأمثلة والنماذج. فإذا بلغت ذلك، فهذا ما أعني بـ (فقه السُّنن).

ويمكن أن يختصر مختصر ما أُريد طرحه في هذا الفصل بكلمات، فيقول: إنَّ (فقه السُّنن) يعني: الفهم والإدراك للقوانين والطرائق التي تحكم حياة الجماعة البشرية على هذا الكوكب الأرضي، من منطلق صحيح، حسب الطاقة البشرية..

وهذا كلام صحيح، وجواب سديد.. ولو كان يكفي لما احتاج العالم الإسلامي في إصلاحه إلى كبير عناء، فإنَّ عامة المسلمين يحسن أكثرهم مثل هذا الكلام أو أحسن منه!

بل أقول: إن ترديد مثل هذه الإجابة والاقتصار عليها من عامة المسلمين حين يواجهون المشكلات.. إن هذا لشاهد على غياب (فقه سنن الله في التغيير والإصلاح)!.

إنَّه لا يلزم من صحة الجواب في نفسه، وكونه مطابقاً للسؤال أن يكون كافيا في حق أكثر الناس.

إنَّ هذا الجواب هو تعبير صادق عن فكرة الإصلاح، ولكن الفكرة تحتاج إلى أكبر من مجرد التعبير الصادق، تحتاج إلى التنظير المتكامل والطرح الشمولي، وتحتاج إلى مبادرات علمية تحمل حلولاً عملية ممكنة التطبيق...

وأنت خبير بأن جملة من الكلام، مهما كانت صادقة لا يمكن أن تفي بذلك.

وتجاوز مثل هذا الجواب المجمل إلى جواب مفصل، هو ما سأحاول القيام به في هذا الفصل وما يليه من فصول.

وسأعرض رأيي وتصوري ـ وهو جهد الْمُقل ـ في فقه السنن على مستوى الأمة الإسلامية اليوم، من خلال فهمي وإدراكي للنصوص، وأحداث التاريخ.

في طريق الخلاص.. نحن أمام (أمة) ذات كيان ضخم وتاريخ طويل.. تعاني من أزمة عميقة الجذور، متشابكة الخيوط.

والحديث هو عن «فقه السنن الإلهية في كيفية الخروج من الأزمة وتجاوز المشكلة، كي تستعيد الأمة عافيتها».

ومن الفقه أن نتأمَّل في الواقعة (أزمة الأمة الإسلامية ومشكلتها) قبل الدخول في بحث كيفية الخروج منها؛ لأنَّ الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فإنَّ الفشل والخطأ،

غالباً ما يكون بسبب التقصير في دراسة المشكلات وفقه ملابساتها فقهاً كافياً ، وليس بسبب قلة الإمكانات ، وأكثر الناس يظنون الأمر بعكس ذلك .

ومن هنا ، فسأعرض لهذه المسألة في مبحثين:

المبحث الأول: فقه الواقعة (أزمة الأمة الإسلامية المعاصرة) .

المبحث الثاني: فقه الخروج من الأزمة (الخلاص منها) .

وسأعرض لكل منهما في نقاط يكمل بعضها بعضاً ، مراعياً الاختصار قدر الإمكان .

* * *

المبحث الأول

فقه الواقعة (أزمة الأمة الإسلامية المعاصرة)

نستطيع تقريب (فقه الأزمة) إذا تمكّنا من:

ـ تحديد بؤرة الأزمة أو المشكلة. وهذا يستلزم: التمييز بين (أسبابها) و(أعراضها) و(مراحلها). والتعرف على (مستوى الأزمة) من خلال الواقع والتجربة.

ولبيان ذلك أقول:

إنّ أول ما يجب على طلائع الأمة الإسلامية من العلماء والدعاة والمصلحين، الذين رشّحوا أنفسهم للعمل في سبيل خلاص الأمة واستعادة مكانتها.. أن يُمعنوا النظر ويطيلوا التأمُّل في سبب أو أسباب أزمة الأمة ومرضها. وأن يجتهدوا في التمييز بين أسباب الأزمة، وبين أعراضها ومراحلها..

إنّ ما أصاب العالم الإسلامي في قرونه الأخيرة، هو ـ في حقيقته ـ أكبر من أزمة.. إنّها ردّة حضارية ونكسة شمولية وهزيمة نكراء بكل المقاييس، جاثمة بكلكلها [١] على العالم الإسلامي، أرضاً وشعوباً، ومقدرات.. وفي كل الميادين.

وما من شعب إلا له منها نصيب، وما من بقعة إلا وفيها منها شروخ وندوب، فمن مُقِلّ ومن مستكثر!

لقد تنقَّل العالم الإسلامي في القرنين الأخيرين بين ضروب من الاستعمار العسكري المباشر، والاستعمار الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي بالوكالة... وكان في كلتا الحالتين يعاني من الجهل والفقر والتخلف.

وينبغي ألا نشتغل بخطابية وصف الفاجعة عن موضوعية التشخيص.

ومن هنا، فإنّ علينا قبل أن نبدأ في تحديد بؤرة الأزمة أو المشكلة، والتمييز بين (أسبابها) و(أعراضها) و(مرحلها) ومعرفة واقعها [٢]، أن نتذكر هنا مسلمّات لا بد أن تكون أساس انطلاقتنا.. وهي من فقه حال الأمة، الذي نحن بصدد مُدارسته.

---

(١) الْكَلْكَلُ: هو الصَّدر، وقيل غيره. والعرب تقول: أَلْقَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ كَلْكَلَهُ، إذا أَلْقَى عَلَيْهِ ثِقَلَهُ. انظر: أساس البلاغة، للزمخشري، والقاموس المحيط، مادة (كلل).

(٢) انظر: إخراج الأمّة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها، للدكتور/ماجد عرسان الكيلاني، ص ١١١، ١١٢.

أولاً: هناك فرق هائل بين موت الأمة أو انقضاء أجل مرحلة محددة من مراحلها، وبين مرضها، مهما كان شدَّة وعمقاً.

فموت الأمة أو انقضاء مرحلة محددة من مراحلها ، أمرٌ لا حيلة في استرجاعه ، ولا مكان لِمبضَع الجراح فيه . فلا أحد يستطيع إعادة أمة بائدة كعاد وثمود ، أو مرحلة انقضت كعهد النبوة وخلافة الخلفاء الراشدين ؛ لأنَّ سنن الله تأبى ذلك ، وقضاءه ـ سبحانه ـ جرى بأن ذلك لا يكون .

أمَّا مرض الأمة ـ وهو ما تعاني منه أمة الإسلام اليوم ـ فإنَّ له أسبابا «يمكن التدخل بها إيجاباً وسلباً ، مثلما يمكن التدخل في أسباب صحة الأفراد وأمراضهم» [(١)] .

وينبغي ألا نشك لحظة أن ما في أمة الإسلام اليوم هو من قبيل الأمراض ؛ لأنَّ لها أجلاً لم تبلغه ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: ٣٤] .

لم تبلغ أجلها لأنَّ الصادق المصدوق ﷺ يقول في الحديث الصحيح: «**لا تزال طائفة من أُمَّتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**»[(٢)] .

ويقول في الحديث الآخر: «**لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض: الله، الله**» [(٣)] . وفي أخرى: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود..**» ، وفي رواية: «**حتى تقاتلوا اليهود..**» [(٤)] الحديث .

لم تبلغ أجلها ؛ لأنَّ لها مع أعدائها جولات قادمة وملاحم مشهودة . ومن هنا فلا مكان لليأس ولا حجَّة في القعود عن الإصلاح .

ثانياً: يجب التفريق ـ ونحن نُقَوِّم واقع الأمة المؤلم ـ بين الأنظمة السياسية الحاكمة، وبين الشعوب الإسلامية.

إنَّ «اعتماد أنظمة الحكم والأشكال السياسية فقط للنظر إلى الأمم ، والحكم عليها ، وتقويمها ، فيه الكثير من التجاوز والمجازفة ، والبُعد عن الحقيقة والواقع» [(٥)] ؛ ذلك لأنَّ

---

(١) إخراج الأمَّة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها ، للدكتور/ ماجد عرسان الكيلاني ، ص ١١١ .

(٢) متفق عليه ، من حديث سعد بن أبي وقاص . انظر: الفتح (١٣/ ٢٤٩) ، ومسلم في الإمارة ، ح (١٩٢١) . وهذا لفظ مسلم ، عن ثوبان .

(٣) رواه مسلم في الإيمان ، باب: ذهاب الإيمان آخر الزمان ، رقم (١٤٨) ، عن أنس بن مالك ﷺ .

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة . انظر: الفتح (٦/ ٧٥) في الجهاد ، باب: قتال اليهود ، ومسلم في الفتن ، باب: لا تقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل فيتمنّى أن يكون مكان الميت ، من البلاء ، رقم (٢٩٢٢) .

(٥) إخراج الأمَّة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها ، للدكتور/ ماجد عرسان الكيلاني ، مقدمة الأستاذ/ عمر عبيد حسنة ، ص ١١ .

هذه الأنظمة السياسية في طول العالم الإسلامي وعرضه، لم تتسلم مقاليد الأمور في بلادها باختيار الشعوب، ولم تكن تمثل مصالحهم، ولا تعد مواقفها تعبيراً عن آرائهم ومنطلقاتهم في أغلب الأحيان... بل هي إلى عدوهم أقرب منها إليهم.

والذين ينظرون إلى الشعوب الإسلامية من خلال المواقف السياسية والأنظمة الحاكمة، يخطئون فهم واقع الشعوب، ويخلطون بين شيئين مختلفين..

وهذا الخطأ والخلط، يؤثر في فقه الخروج من الأزمة، ويضر بها ضرراً بالغاً.

ثالثاً: ولا بد أيضاً أن يكون المعيار الذي تُقوّم به حال الأمة معياراً محدداً؛ موحدا منضبطا.

وبكل وضوح وثقة، أقول: نحن مسلمون.. وأمتنا أمة مسلمة.. فلا خيار لنا في تحديد المعيار!

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

إنَّ المعيارَ الذي يجب أن نحتكم إليه، ونحاكم الواقع والناس على ضوئه، هو الكتاب والسُّنة، وتطبيقاتها المتمثلة في السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين، وما وافق ذلك من سيرة سلف الأمة.

وبكل فخر وثقة نقول أيضاً: إننا «كلمَّا اقتربنا من الكتاب والسنة، ومن حياة الصدر الأول ـ رضوان الله عليهم ـ فنحن (متقدمون) عقدياً وسلوكياً، والجوانب الإنسانية الأخرى كذلك بلا شك، أو هكذا يجب أن يكون. وكلمَّا تأخرنا عن الكتاب

والسنة وعن العيش في ظلالها، فنحن متخلفون في مجال العقيدة والتصور، وبالتالي في مجال السلوك وسائر الجوانب الإنسانية.

وتلك حقيقة مهمة ينبغي ألا تغيب عن أذهاننا، ونحن نبحث عن طريق الخلاص، وينبغي أن نستصحبها معنا دائماً لكي لا نضل الطريق» [(١)].

ولنعد بعد هذا إلى تحديد (بؤرة الأزمة) في حاضر الأمة الإسلامية، ومحاولة التمييز بين أسبابها وأعراضها ومراحلها.. وهو بيت القصيد في هذه النقطة.

تأمّلت في واقع أمتنا الإسلامية وفي مظاهر أزمتنا الراهنة، فوجدت خيوطها تُشَدُّ إلى خيطين، ومظاهرها لا تنفك عن أحد سببين هما:

* **ضعف الإيمان الصادق، وضعف العلم النافع:**

فأمّا ضعف الإيمان الصادق: فقد سَهَّل شيوع أنواع الفسوق والانحرافات في الخاصة والعامة، ونفذت إلى الأمة بسببه ضروب الشهوات التي عبَّدت الطريق أمام الغزاة؛ إذ زينت طرائقهم، وحبذت مُشَاكَلَتهم، وخضدت شوكة مقاومتهم.

ومن جانب آخر: تجرأت النفوس بسبب هذا الضعف على ترك الفرائض والواجبات وزهدت في الأعمال الصالحة وأنواع القربات.

وأمّا ضعف العلم النافع: فأنتج أنواع البدع والخرافات التي اتخذها أكثر الناس ديناً وشرعاً، وطمس بها وجه الحق وأخفى رسومه، وخَنَق الإبداع وغَلَّ العقل عن التفكير البنَّاء، وبرر لأنواع المظالم، وسُرِقت في عهده الثروات.

ومن جانب آخر: فإنَّه بسبب ضعف العلم، انفتح باب عريض دخل منه كل من هبَّ ودبّ ودرج، ليقول في الإسلام ما شاء؛ قبولاً ورفضاً وتأويلاً، إفتاءً وتفسيراً، دون حسيب أو رقيب.

وتولد من امتزاج هذين السببين في العقلية والنفسية الإسلامية توأمان مقبوحان، هما: (الهزيمة النفسية)، و(انحسار الوعي الإسلامي [(٢)])، ومن مظاهر ذلك: ضعف البصيرة، والانبهار بالآخر، وضعف الإرادة الجازمة والعزيمة النافذة..

والهزيمة النفسية أليق بضعف الإيمان، وانحسار الوعي أشبه بضعف العلم النافع.

---

(١) واقعنا المعاصر، للأستاذ الدّاعية/ محمد قطب، ص ١٧٣. بتصرف وزيادة.
(٢) أو انعدامه بالكليّة أحياناً.

ونشأ من هذا المزيج وما تولَّد منه، تصورات غريبة، واعتقادات عارية من الدليل والبرهان، بل البراهين ناطقة بخلافها، شاهدة بفسادها.. ومن ذلك على سبيل المثال:

أن تجد أكثر المسلمين يحسنون الظن بأنفسهم، ويزكون أعمالهم، مع ما هم فيه من مخالفة وتقصير، وبالتالي فهم لا يقبلون نصحاً، ولا يرتضون نقداً. في تعطيل مؤسف لقانون الأسباب، وإقصاء متعمد للشفافية في النظر إلى الذات.

ولهذا تجد كثيرين يعتقدون خطأ مخالفيهم، وأنهم لا يستحقون ما هم فيه، وأنهم ـ أعني المسلمين ـ أولى به منهم، حتى مع جِدّ أولئك وتشميرهم، وإعراض المسلمين وتفريطهم.

وإذا رأوا أن الله لم ينصرهم، بل سلَّط عليهم الكفار والفجار فظهروا عليهم.. إذا رأوا ذلك، ظنُّوا بالله ظن السَّوْء؛ إذ كيف يُدِيل أهل الباطل على أهل الحق! وارتابوا في صدق وعد الله أنه ينصر المؤمنين في الدنيا. وأحسن حالهم أن يعتقد بعضهم أن ما وعد الله به من النصر والنعيم لا يكون للمؤمنين إلا في الآخرة، وأمَّا الدنيا فهي للكافرين والفجار[1].

فهم قد أُصيبوا بجهل وعجز مركَّبين، فاشتغلوا بالجدل وأعرضوا عن العمل.

وإلى هذين السببين، وما تولَّد منهما ونشأ عنهما، ترجع ـ والله أعلم ـ كل أعراض (أزمة الأمة الإسلامية) العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية..

وإليها يعزى ما تنقلت فيه الأمة فيما مضى، وما تعيشه اليوم بسبب هذا التراكم السلبي من مراحل وأطوار سياسية رديئة مخزية.

ومن هنا نستطيع أن نبدأ مشوار التمييز بين الأسباب والأعراض والمراحل لأزمة الأمة، على أساس أن الأسباب مرجعها ما في الأنفس، وأن الأعراض هي مجموعة المظاهر العامة (الاجتماعية والسياسية والاقتصادية) التي تصبغ مجتمع الأمة، وأن المراحل هي الأطوار السياسية التي تفرزها مجموعة الأعراض، بفعل تلك الأسباب...

وقد يظن ظان أن هذه قسمة عقلية افتراضية، ينقصها الدليل الذي يؤكد مصداقيتها، سواء كان دليلاً شرعياً من الكتاب والسنة أم دليلاً واقعياً منطقيا، تصدقه الحوادث.

---

(١) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية (٢/ ٣٢٤) وما بعدها. وقد أجاب شيخ الإسلام عن هذه الشُّبه بجوابٍ نفيسٍ، وسأذكرُ ملخصه في المبحث التالي: (فقه الخروج من الأزمة)، بإذنِ الله تعالى.

وأقول: إنَّ ذاك التمييز بينها على النحو الذي مرَّ بك، لم يكن وليد رأي فطير، ولا دعوى عارية من الدليل.. وإليكَ البيان.

لو تأمَّلنا ثانية في الأسباب والأعراض والمراحل التي تنتاب الأمم، وهي تجمعات بشرية محكومة بسنن ثابتة مطردة، بغض النظر عن موضوع الحديث، وهو أزمة الأمة الإسلامية المعاصرة، فماذا نحن واجدون؟

ستجد أن القرآن يقول بوضوح:

إنَّ (الأسباب) التي تؤثر في تغير أحوال الأمم وتحولها من حال إلى حال، أساسها ما في الأنفس من معتقدات وقيم وثقافات [1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فنفى - سبحانه وتعالى - أن يكون منه تغيير لأحوال الأقوام والأمم، الأخلاقية والاقتصادية والسياسية وغيرها. نحو الخير أو الشر، إلا حين يحدث سبب ذلك، وهو ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من المعتقدات والقيم والثقافات، ومن التصورات والإرادات.

ويُفهم من الآيات أنه يستحيل أن يغير القوم ما بأنفسهم ثم لا يتغير شيء في واقعهم؛ أي أن تغيير ما بالأنفس سبب، وتغير الأحوال مظهر وعرض لهذا السبب.

وهذا يقودنا إلى القول بأنَّ (أعراض) تلك الأسباب، على مستوى الأمة، تكون سياسية واقتصادية واجتماعية [2]... وغيرها مما تفرزه الأنفس التي أُصيبت أو تعافت في معتقداتها وقيمها وثقافتها...

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۞ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا

(١) انظر: إخراج الأمّة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها، للدكتور/ماجد عرسان الكيلاني، ص ١١١، ١١٢.
(٢) المصدر السابق، ص ١١١، ١١٢، بتصرّف.

نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣٣].

فما ذكر الله في هذه الآيات من العقوبات، كلها أعراض للسبب الأساس، وهو الكفر بالله والإعراض عن الحق، ونتائج متسببة عنه. وهذا واضح لمن تأمَّل قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ يعني: لعلهم يتذكرون فيرجعون إلى الله بالتوبة [(١)]؛ أي: يأتون بالسبب الموجب لتغيير الحال.

ومن تأمَّل قوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ . . .﴾ الآية، أي: أصرُّوا على السبب الموجب للانتقام والعقوبة، عتواً وتمرداً [(٢)].

وإذا تكاثرت أعراض المرض على الأمة، تحوَّلت هذه الأمة تلقائياً إلى مرحلة سياسية تتناسب والحالة المَرَضية للأمة.. وهذا هو مبرر قولنا: إنَّ (المراحل) تكون سياسية [(٣)]، تبدأ بتحولات محدودة، وتنتهي إلى مرحلة اللاعودة، فالهلاك.

وهي ـ كما سبق ـ محصلة ونتيجة تفاعل أعراض المرض في جسم الأمة لفترة زمنية، تطول أو تقصر. وهذه المراحل ليست صورة واحدة..

فقد تكون المرحلة السياسية تحولات في أنظمة الحكم من الشورى إلى الجبرية والملك العضوض، الذي ينقل الأمة من المستوى الرائع للأمن والحرية والفاعلية إلى أضداد ذلك من الخوف والسلبية، شيئاً فشيئاً، فتزول هيبة الأمة ويهون شأنها.. كحال الأمة الإسلامية في تحولاتها السياسية عبر القرون.

وقد تعني ضروباً من الاستعمار والتسلّط الخارجي والقهر والإذلال.. كما حصل لبني إسرائيل مرتين، وكما حصل للمسلمين على يد التتار في المشرق، وعلى أيدي النصارى في الأندلس.

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٩/ ٢٨).
(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٩/ ٤٠).
(٣) إخراج الأمّة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها، للدكتور/ ماجد عرسان الكيلاني، ص ١١١، ١١٢.

وقد تعني المرحلة السياسية، انعدام فاعلية الأمة على مسرح الحياة كقوة ذات ثقل ووزن، بحيث تصبح مجرد تابع ذليل لغيرها، وإن كان أشخاصها موجودين.

وهذا كما حدث للروم وفارس، في قرون خلت أيام قوة سلطان الإسلام ومجد المسلمين، وكحال الأمة الإسلامية اليوم.

وهذه المراحل وما شابهها، يُستوحى منها انقضاء أجل مرحلة أو مراحل من عمر الأمة، مع بقاء دورة حضارية أو أكثر لها في علم الله، وهذا شيء غير انقضاء أجلها كلية.

وقد تكون المرحلة السياسية تعني انقضاء أجلها، بالنظر إليها كأمة ذات فاعلية، كحال اليهود بعد موسى ﷺ..

وأخيراً، قد تكون المرحلة السياسية لأمة ما، دماراً شاملاً، وعقوبة استئصال..

وهذا يكون في الأمم التي قضى الله بانتهاء أجلها ووجودها، كالأمم البائدة؛ قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأضرابهم.

وقد نبَّه القرآن إلى هذه المراحل في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وقوله عن بني إسرائيل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۞ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۞ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۞ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٧].

وقوله سبحانه عنهم: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۞ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٦ ـ ١٦٨].

وقوله عنهم: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقوله سبحانه عن فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥، ٥٦].

ونلاحظ في هذه الآيات، أن القرآن يدمج الأسباب بالأعراض في ألفاظ عامة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾... ويضعنا أمام المرحلة وجهاً لوجه، وفي هذا تنبيه إلى أن هذه المرحلة أو تلك كانت محصلة ونتيجة اجتماع الأسباب، وما تفرع عنها من أعراض مختلفة.

«ويحتاج العاملون في ميادين (إخراج الأمة) ورعايتها إلى التمييز بينها على النحو الذي ذُكِر.. وأي خلط بينها يتسبب في الاضطراب والارتباك في ميادين التربية والدعوة والمعالجة، فيشتغل المعالجون بالأعراض بدل الأسباب.. أو يخطئون في ترتيب الأسباب والمراحل، أو يخطئون في استعمال وسائل العلاج وطرائقه، أو يخطئون في توفير المؤسسات اللازمة لذلك، وهكذا» (١).

وإلى هنا نكون قد تبيّنا جوهر أزمة الأمة المتمثّل في ضعف الإيمان الصحيح، وضعف العالم النافع. وعرفنا ما تولّد منهما من الهزيمة النفسية وضعف الإرادة الجازمة، وانحسار الوعي وضموره لدى جماهير الأمة المسلمة.

وأنّ هذا المزيج المسيخ كان الأرض التي أنبتت هذا الواقع المُرّ، وأفرزت كل ما رأينا ورأى الناس من فساد وانحطاط في الجوانب الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، ومن تناقضات وضلالات في التصورات والمفاهيم.

وأقمنا منارات يهتدي بها الناظر في (لجة الأزمة) فيميز جنس الأسباب (بؤرة الأزمة) من (أعراضها) ومظاهرها، وبالتالي من (مراحلها) وأطوارها.. على مستوى الأمة.

---

(١) إخراج الأمّة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها، للدكتور/ ماجد عرسان الكيلاني، ص ١١٢، بتصرف.

وبقي أن نطل إطلالة على (واقع الأمة الإسلامية المعاصرة)؛ لنقرأ شيئاً من مشاهد (الأزمة) التي تصورنا من قبل أسبابها وأعراضها ومراحلها . .

وهي مشاهد ـ بل صور سريعة خاطفة ـ من واقع حياة الأمة في الوطن الإسلامي الكبير، تبدو في صورة قرار سياسي، أو بعثة علمية! أو فتوى شرعية! أو تظاهرة شعبية، أو إصلاح وتطوير لمؤسسات رسمية، وأحياناً قناعات فردية أو جماعية في قضايا فكرية أو اجتماعية أو اقتصادية، تجري مجرى المسلمات! وربما كانت شهادة من هنا أو هناك . . . إلى آخر ما هنالك .

ولقد تبدو ـ كما ستلاحظ ـ وكأنها حوادث فردية أو قُطرية، ولكنها كانت كقطرات الماء النازل من السماء، تبدو صغيرة جداً، ثم ما تلبث أن تكون سيلاً عارماً تجري منه الأودية، ويغمر القرى ويهدم المنازل والدور . .

وهي مشاهد ومواقف ولدت وترعرعت في ظل الهزيمة النفسية وانحسار الوعي الإسلامي، فهي متشابهة في منزعها وسببها، وإن اختلفت في ظروفها ونوعيتها .

ومن هنا، فليست حوادث فردية ـ بالمعنى الضيق ـ ولكنها إفرازات واقع فكري وثقافي مسيطر، وإيحاءات نفسية معبّرة . وهذا هو التواتر المعنوي، الذي يرقى ـ لقوته ـ إلى مستوى الإلزام العقلي بصحة مايدل عليه .

وفي الصفحات التالية سأعرض لبعض الأمثلة على نحو ما ذكرت لك . .

وأبدأ الحديث عن الظروف والملابسات الفكرية والسياسية التي كان العالم الإسلامي يعايشها، وعن مواقف الأمة تجاه هذه الأوضاع والظروف . .

ومن المناسب أن أستهل الحديث بطرح التساؤل التالي:

على مدى قرنين من الزمان، كم نسبة الذين تولوا قيادة الأمة الإسلامية من غير العلمانيين والاشتراكيين والقوميين . . وأضرابهم من المستغربين، ممن تاجروا بمبادئ الأمة وثرواتها وبلادها وطاقات أبنائها . . لقاء ثمن بخس يصيبونه؟!

كم نسبة القيادات الرشيدة التي رفعت بدين الأمة رأساً، وأقامت للعدل في رعاياها سوقاً؟!

كم نسبة هؤلاء إلى أولئك في طول العالم الإسلامي وعرضه . . على مدى قرنين من الزمان؟!

كم هي حصة القوانين والأنظمة والتشريعات التي أسهمت في حماية معتقد الأمة وأخلاقها وسلوها ، إلى تلك التي كرّست غُربتها وتغريبها وتخريبها ؟ .

قد تعجز أن تستخرج عدد أصابع اليد الواحدة من هذا الكم الهائل من القيادات، مهما كنت متسامحاً في الاختيار . وقد لاتجد من التشريعات ما تفاخر به إن كنت وطنيا، فضلا عن أن تكون إسلامي الهوية .

إنَّ سجل القيادات السياسية في العالم، بدءً بمحمد علي، ومروراً بمصطفى كمال . . وانتهاءً بجمال عبدالناصر والجيل المعاصر الذي يتقلّد أمور المسلمين اليوم، أكثره سجل خيانات متتابعة، وحرب على الإسلام لا هوادة فيها . وإن خلط بعضهم عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وسجل الشعوب الإسلامية بعلمائها ومفكريها وعامتها تجاه هذا الوضع الغريب ليس أقل سوءًا . . إنّه سجل يكشف مدى الغفلة القاتلة، أو النفاق المفضوح . . وكلاهما داء دوي وبلاء مُمِض .

لقد صنعت الشعوب، بمعونة علمائها وقادة الفكر فيها أبطالاً عليها، وبرَّرت مظالمهم، وصمتت عن جرائرهم . . وما زالت تمارس ذلك .

بل لقد تجرَّأت علوج المستعمرين أن يطرحوا أنفسهم على أنهم أئمة نَصَحَة، وبارك ذلك من باركه!

وأمَّةٌ هذا منطقها وموقفها من مثل هذه القضية الجوهرية، على مدى قرنين، أمة تحتاج إلى بناء جديد، وأن تسري في شرايينها دماء جديدة . . أمة تحتاج إلى بعث من جديد .

ولعل صنائع الفرنسيين في مصر وأهل مصر . . ومواقف بعض العلماء يومها وطغام الناس وعوامهم من ذلك، يكشف عن كثير من أحوال الأمة، ويوقفنا على مكامن الداء فيها، فإنَّ مصر كانت هي بوابة العالم الإسلامي، كما سبق بيان ذلك . . ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك:

*** الفرنسيون ومرسوم الإسكندرية:**

وهو مرسوم كتبه الفرنسيون إبان دخولهم الإسكندرية، وطبعوه ووزعوه على البلاد . . وصورة ذلك المكتوب:

«بسم الله الرحمن الرحيم . لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه . .

يا أيها المصريون، قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه! وقولوا للمفترين: إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من أيدي الظالمين. وإنني أكثر من المماليك أعبد الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وأحترم نبيه والقرآن العظيم (!) وقولوا لهم أيضاً: إن جميع الناس متساوون عند الله، وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء.. فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم. ولكن بعونه تعالى (!) من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيديرون الأمور، بذلك يصلح حال الأمة كلها.

أيها المشايخ والقضاة والأئمة... وأعيان البلد، قولوا لأمتكم: إنَّ الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون (!) وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام (!!). ومع ذلك، الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعداء أعدائه، أدام الله ملكه (!!). ومع ذلك المماليك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره»[1]!

ولما حلَّ بالناس البلاء والكرب بعد معركة بشتيل ـ بلد مجاور لإمبابة ـ وهزيمة المماليك والمصريين... «اجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الإفرنج ينتظروا ما يكون من جوابهم، فأرسلوا رسولين.. فغابا وعادا فأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة.. فقال: وأين عظماؤكم ومشايخكم، لِمَ تأخروا عن الحضور إلينا، لنرتب ما يكون لهم فيه الراحة؟ وضَمِنَهم[2] وبش في وجوههم.. وطلبا منهم أماناً، فذكروهم الكتاب الأول الذي أمّنوا فيه الناس.. ولما طلبا منهم أماناً آخر كتبوا لهم أيضاً، وأخبروهم أنّهم لم يأتوا إلا بقصد إزالة المماليك الظالمين.. وأمَّا المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية، فيكونون مطمئنين، وفي مساكنهم مرتاحين.. ولما رجع الجواب بذلك، اطمأن الناس، وركب الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي وآخرون إلى الجيزة، فتلقاهم

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، للجبرتي (٢/ ١٨٢، ١٨٣).
(٢) لعل صوابها: «وضمهم وبَشّ في وجوههم».

وضحك لهم، وقال: أنتم المشايخ الكبار؟ فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا. فقال: لأي شيء يهربون؟ اكتبوا لهم بالحضور، ونعمل لكم ديواناً لأجل راحتكم وراحة الرعية، وإجراء الشريعة (!!)»[(١)].

هذا بعض ما فعلوه مع العلماء بخاصة.. بل لقد تمكّنوا بدهائهم ـ وعلى حين غفلة من علماء المسلمين ـ من استصدار خطاب إلى جميع أهل مصر، باسم (عقلاء الأنام علماء الإسلام) وغيرهم، يعلمونهم فيه «أن حضرة ساري عسكر الكبير بونابارته أمير الجيوش الفرنساوية صفح الصفح الكلي عن كامل الناس والرعية، بسبب ما حصل من أراذل أهل البلد.. من الفتنة والشرّ مع العساكر الفرنساوية (!!) وأنه انتخب أربعة عشر شخصاً، أصحاب معرفة وإتقان، خرجوا بالقرعة من ستين رجلاً.. وذلك لأجل قضاء حوايج الرّعايا، وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام.. كل ذلك من كمال عقله وحسن تدبيره ومزيد حبه بمصر وشفقته على سكانها من صغير القوم قبل كبيره(!!) وقد اقتص من عسكره الذين أساءوا وقتل منهم اثنين.. وأنزل طائفة منهم عن مقامهم العالي إلى أدنى مقام؛ لأنَّ الخيانة ليست من عادة الفرنسيين، خصوصاً مع النساء والأرامل، فإنَّ ذلك قبيح عندهم لا يفعله إلا كل خسيس (!!) ووضع القبض بالقلعة على رجل نصراني مكّاس؛ لأنَّه بلغه أنه زاد المظالم في الجمرك بمصر القديمة على الناس، ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمتنع غيره من الظلم، ومُراده رفع الظلم عن كامل الخلق.. فاشتغلوا بأمر دينكم وأسباب دنياكم، واتركوا الفتنة والشرور (!!)، ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم، وعليكم بالرضا بقضاء الله وحسن الاستقامة لأجل خلاصكم من أسباب العطب والوقوع في الندامة»[(٢)].

وإذا كان هذا وأمثاله، صدر عن بعض من أسماهم (عقلاء الأنام علماء الإسلام) فإنَّ اللسان ينعقد عن وصف مأساة الأمة ونكبتها على أيدي أمثال هؤلاء، ومبلغ الغفلة وغيبوبة الوعي، التي كانوا يتمتعون بها.

---

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/ ١٩٢، ١٩٣) باختصار وتصرف.

(٢) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/ ٢٤٧، ٢٤٨) باختصار وتصرف. وقد أدرك الفرنسيون بذكائهم، نقاط الضّعف في المسلمين، وفهموا لهجة الخطاب التي تنزع من قلوب المسلمين فتيل الحقد والكراهية، وتستدر عواطفهم بالجان لصالح جلاديهم ومصاصي دمائهم! وانظر: كتاب الفرنسيين إلى أهل العريش وغزة في السابق (٢/ ٢٥٥). ومما جاء فيه: «... وقصدنا أنَّ القضاة يلازمون خدمهم ووظائفهم على ما كانوا عليه، وعلى الخصوص أن دين الإسلام لم يزل معتزاً ومعتبراً (!!) والجوامع عامرة بالصلاة وزيارة المؤمنين، إذ كل خير يأتي من الله تعالى، وهو يعطي النصر لمن يشاء...». وفي كتاب أهل غزة: «بسم الله الرحمن الرحيم، ولا عدوان إلا على الظالمين...». وفي آخره: «... فاستقيموا ـ عباد الله ـ وارضوا بقضاء الله، وتأدّبوا في أحكام مولاكم الذي خلقكم وسوّاكم، والسّلام»!! فالله المستعان.

وإن كان هؤلاء الذين صدر باسمهم هذا الخطاب من جملة الأدعياء، فكيف يتكلّمون باسم العلماء، وكيف تخفى حالهم على جماهير الأمة؟!

والخلاصة: أن ما جرى، ما هو إلا سذاجة مفرطة، أو هزيمة نفسية منكرة.. أو هما معاً!

وقد تسأل عن حال العامة، فأقول: إنَّ أمْرَهم لأهْوَن في عين أعدائهم! فما هو إلا أن مشى الفرنسيون (في الأسواق من غير سلاح.. وصاروا يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون إليه بأغلى ثمن، فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطي صاحبها في ثمنها ريال فرانسة، ويأخذ البيضة بنصف فضَّة، قياساً على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم [1]. فلما رأى منهم العامة ذلك، أنِسُوا بهم واطمأنوا لهم (!!) وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات، وغير ذلك مثل السكر والصابون والدخان والبن، وصاروا يبيعون عليهم بما أحبوا من الأسعار (!) وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهاوي» [2].

وإذا كانت تلك مواقفهم من المستعمرين النصارى، فما الظن بمواقفهم من بني جلدتهم من العلمانيين الليبراليين والاشتراكيين وسائر الانتهازيين؟!

ولعل في ألقاب التبجيل التي أُضيفت على أمثال محمد علي ومصطفى كمال وجمال عبد الناصر وصدام حسين وأضرابهم.. ما يكشف لنا طبيعة المأساة الْمُرَّة التي تعاني منها الشعوب الإسلامية وقياداتها العلمية والفكرية.

ولعل في سرقة ثمرات جهاد الشعوب الإسلامية بعد طول التضحيات من قِبَل حفنة من سماسرة الاستعمار وصنائعه.. ما يكشف جانباً آخر من تلك المأساة..

فجهاد الشعب المصري ضد الفرنسيين، الذين حاول نابليونهم حكم مصر بالقانون الفرنسي، لم يُعِدْ الشريعة إلى مكان الصدارة! واستمرت الفرنجة على يدي أبناء محمد علي [3].

---

(١) أقولُ: وهناك أمرٌ آخر، وهو: أن يحببوا أنفسهم إلى الناس ويخففوا مما قد يكون في نفوس الأهالي من كراهية تجاههم، ويطمِعوهم بالدراهم والدنانير، وهي أعظم ما استُعْبِدت به قلوب العامة الغوغاء، ويشهد لهذا: ما ذكره الجبرتي من حال العامة معهم بعد. وقد رأينا في حرب الخليج الأخيرة عام ١٩٩٠م، شيئاً من ذلك، في المناطق التي تواجد فيها النصارى بهذه المناسبة. وهي سياسة ذكيَّة يسلكها من يحتاج إلى اصطياد قلوب العامة وتألّفهم، وقد أكدها الجبرتي في تاريخه في أكثر من موضع. انظر: (٢/ ١٩٥)!.

(٢) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، للجبرتي (٢/ ١٩٣، ١٩٤).

(٣) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، للجبرتي (٢/ ١٩٣، ١٩٤).

وجاء الإنجليز، فنحُّوا الشريعة وحكموا البلاد بقانون نابليون، دون ثورة تذكر من جانب الشعب على هذا الإجراء!

وجاء أستاذ الجيل! ليربت على أكتاف المسلمين في مصر، كي يتقبلوا هذا الوضع الجديد.. جاء ليقول في جريدته: «إنَّ الإنجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر! ولا ينبغي أن نحاربهم ونقاومهم! إنَّما واجبنا أن نتعلم منهم، ثم نتفاهم معهم بعد ذلك لتصفية ما بيننا وبينهم من خلافات»(١)!

ولما قامت الثورة عام ١٩١٩م على الإنجليز بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت قد قامت لأسباب متعددة، أهمها: عزل مصر رسمياً عن دولة الخلافة بعزل الخديوي توفيق.. لما قامت الثورة كانت ثورة إسلامية يقوم بها شعب مسلم، وكانت تنطلق من الأزهر..

ثم ماذا؟ ثم يكون بطلها المتوج سعد زغلول.. سعد الذي قال لمحمود باشا؛ إذ استوقفه الأخير وسد أمامه الطريق وقال له: «إنَّ الشعب يغلي.. ولا بد أن يصنع شيئاً! فردَّ عليه سعد: وماذا نصنع والحماية معلنة على البلاد؟!»(٢).

إنَّها ثورة نابعة من ذات الشعب (ومن الأزهر على وجه الخصوص)، ولم تكن بوحي من سعد زغلول، ولكن سعداً ركب الموجة واستغلَّ الثورة!

ومما يدلُّ دلالة شبه قاطعة على ذلك، ما جاء في تقرير مطول كتبه (اللنبي) القائد البريطاني الذي مكث شهراً في مصر يدرس أحوال الثورة، وكان مما جاء فيه: «إنَّ الثورة تنبع من الأزهر، وهذا أمر له خطورته البالغة». وجاء فيه: «أفرجوا عن سعد زغلول وأعيدوه إلى القاهرة»... وعاد سعد زغلول ليقول: الدين لله والوطن للجميع(٣)!

وثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، وكانت تُعْرَف بثورة المليون شهيد! يسرق ثمارها أُناسٌ لم تعرفهم الأمة في ساحات الجهاد، ولم تشهد لهم بالصلاح، ولا حتى بالوطنية! ويطارد أبطال الجهاد وقادة الأمة من العلماء بيد الأمة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، لمصلحة الحزب الحاكم!

---

(١) واقعنا المعاصر، ص ٣٠٥. وأستاذ الجيل: لَقَبٌ أُضْفِيَ علَى/لطفي السيد، لأنه كان أستاذاً لجيل من الزعماء أمثال: محمد عبده، وقاسم أمين، وسعد زغلول! انظر: واقعنا المعاصر، ص ٣٠٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٧.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٣٢٠، ٣٢١.

ويكاد الجهاد الأفغاني ـ وهو جهاد بزّ ما سبقه ـ أن تكون نهايته مؤسفة، وأن يقطف ثمرته من كان يتربص بالشعب الأفغاني المسلم الدوائر، ونسأل الله أن يحميه من نهاية كنهاية سوالفه.

أما في مجال التدين، على المستوى الفردي، وعلى مستوى المذهبية السائدة؛ فقهيا وعقائديا.. فقد استمر التقليد المذهبي على نطاق واسع، وازدهرت الطرق الصوفية، وبقيت رسومها ومزاراتها، بل لقد جدد الاستعمار ما اندرس منها، وشجع عليها. حتى أصبح التدين الرسمي في معظم أرجاء العالم الإسلامي تدينا صوفيا. وصار التجديد والاجتهاد بمثابة الشذوذ، والدعاة إليه غرباء خارجون على الدين الرسمي!.

على أنّنا ينبغي أن نعلم جيداً أن الأمة الإسلامية، طوال أزمتها المعاصرة، لم تكن كلها على ما وصفت لك من انحسار الوعي والهزيمة النفسية.. ولا أدلّ على ذلك من قيام تلك الحركات الجهادية لطرد المستعمرين في كل مكان... وتلك الحركات الإصلاحية التي تحوَّلت فيما بعد إلى تيارات واعية، استعصت على التحييد والتجاهل، وقاومت الكيد بكل أشكاله.

ولكن الذي قصدتُ إلى بيانه، هو: أنّ الدولة في الأمة الإسلامية اليوم، ومنذ قرنين على الأقل، لم تكن ـ في معظم البقاع ـ تنطلق من هدي الشريعة أو تحتكم إليها، وأن الشعوب الإسلامية ـ في معظمها ـ كانت دون مستوى الإدراك لحجم المؤامرة وشراسة الهجمة، ولهذا كانت وقودها من حيث تشعر أو لا تشعر.. وهنا تكمن (الأزمة).

ومن الجانب السياسي إلى الجانب الفكري من جوانب (أزمة الأمة)...

وهو خطير ومتشعّب، ولكن سأقف على أمثلة محدودة، تكشف عمق الجهل والسطحية، وتؤكد روح الهزيمة النفسية والتبعية الفكرية الوقحة...

إنّ الأمّة الإسلامية ـ طيلة قرونها المنصرمة ـ كانت تعرف جيداً من هي، وماذا تريد.. لقد كانت إجابة ربعي بن عامر [1]: «**الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام**» لقد كانت

---

(١) هو: ربعي بن عامر بن خالد بن عمرو، كان من أشراف العرب، ولاه عمر بن الخطاب ﷺ مجنبة الجند تحت إمرة أبي عبيدة بن الجراح ﷺ في العراق، وله ذِكرٌ في غزوة نهاوند، وولاه الأحنف لما فتح خُرَاسان على طخارستان، وكانوا لا يؤمّرون إلا الصحابة. انظر: الإصابة (٢/ ١٩٤).

تلك الإجابة حاضرة في أذهان المسلمين ـ في عمومهم ـ كأفراد، فضلاً عن المسلمين بالنظر إليهم أمة ودولة . . .

و«إنَّ هذا السؤال الوجودي: مَنْ نحن؟ وماذا نريد؟ لم تطرحه الأمة، ولم تعرفه في تاريخها الحديث كله؛ لأنَّها كانت تعرفه، وإنَّما هو سؤال النخبة المتغربة، التي تخبطت في البحث عن (هوية) من الفرعونية أو الآشورية أو البربرية أو القومية العنصرية اللاتينية، تعامياً عن الحقيقة الكبرى في الزمان والمكان؛ حقيقة الإسلام، أمَّا الأمة فقد طرحت سؤالها المحوري الكبير، الذي سجَّله شكيب أرسلان [1] في كتابه «لماذا تأخَّر المسلمون ولماذا تقدَّم غيرهم؟!» .

السؤال لم يكن: من نحن؟ وإنَّما كان: لماذا حدث بنا (نحن) هذا التخلف؟» [2]. وفرق كبير بين السؤالين .

إنَّ هذه النخبة، بما تحمله من جهل عميق بالإسلام، وهزيمة نفسية يسندها ضعف الإيمان، هي التي صنعت (الأزمة الفكرية)، وشوشت مفاهيم الإسلام، مباشرة عن طريق التتلمذ والاقتداء، أو بواسطة الترجمة، والسرقة الفكرية . . وكانت (دليل الطريق) للاستعمار في البلاد الإسلامية [3].

وحتى لا نفتئت على الواقع الفكري الذي تخلَّق في زمن الأزمة، ننقل وصفاً دقيقاً للكيفية التي صنعت بها (النخبة المثقفة) في بلاد آسيا وأفريقيا، وفي ديار العرب والمسلمين، والوظيفة التي تؤديها، بقلم جان بول سارتر . وهو غير متهم فيما يقول .

يقول فيه: «كنا نحضر رؤساء القبائل وأولاد الأشراف والأثرياء والسادة من أفريقيا وآسيا، ونطوف بهم بضعة أيام في أمستردام ولندن والنرويج وبلجيكا وباريس، فتتغير ملابسهم ويلتقطون بعض أنماط العلاقات الاجتماعية الجديدة، ويرتدون السترات والسراويل، ويتعلمون منا طريقة جديدة في الرواح والغدو والاستقبال والاستدبار، ويتعلمون لغتنا وأساليب رقصنا وركوب عرباتنا، وكنا ندبر لبعضهم زيجات أوربية، ثم

---

(١) هو: الأمير شكيب بن حمود بن حسن أرسلان، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة، عالم بالأدب والسياسة، مؤرخ من أكابر الكتَّاب، ينعت بـ «أمير البيان»، عالج السياسة الإسلامية قبل انهيار الدولة العثمانية، وتناول شتى القضايا العربية والإسلامية، وله مشاركات وتآليف متنوعة، تنقَّل في البلدان، وتقلَّد عدَّة مناصب، وألقى عصا التسيار في لبنان، وبها توفي سنة (١٣٦٦هـ) . انظر: الأعلام (٣/ ١٧٣).

(٢) دفاع عن ثقافتنا، للكاتب/ جمال سلطان، ص ٤٢ ، بتصرف .

(٣) هذه الكلمة لـ «جان بول سارتر»، كما سترى في النص التالي . انظر: دفاع عن ثقافتنا، للكاتب/ جمال سلطان، ص ٤٤ .

نلقنهم أسلوب الحياة على أساس جديد، وطرز جديدة من الزينة واستهلاك أوربي جديد وغذاء أوربي، كنا نضع في أعماق قلوبهم الرغبة في (أَوْرَبة) بلادهم، ثم نرسلهم إلى بلادهم، وأي بلاد؟ كانت أبوابها مغلقة دائماً في وجوهنا، لم نكن نجد منفذاً إليها، كنا بالنسبة لها رجساً ونجساً وخناً، كنا أعداء يخافون منا، وكأنهم همج لم يعرفوا بشراً، لكنا بمجرد أن أرسلنا المفكرين الذين صنعناهم إلى بلادهم، كنا بمجرد أن نصيح في أمستردام أو برلين أو بلجيكا أو باريس، قائلين: «الإخاء البشري»، نرى أن رَجْع أصواتنا يرتد من أقاصي إفريقيا أو فجٍ من الشرق الأوسط أو الأدنى أو الأقصى أو شمال أفريقيا. ثم إننا كنا واثقين من أنَّ هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمة واحدة يقولونها، غير ما وضعنا في أفواههم، ليس هذا فحسب! بل إنهم سَلبوا حق الكلام من مواطنيهم، هذا هو دور المفكر الذي يتشكَّل بالشكل الأوربي، ويلعبه في الدول الإسلامية، دور (دليل الطريق) للاستعمار في البلاد التي لم يكن يعرفها أو يعرف لغاتها، وهو السوس الذي عمل في الشرق من أجل تثبيت هذه المادة الثقافية والاقتصادية والأخلاقية والفلسفية والفكرية، المسممة للاستعمار الغربي داخل هذه الأشجار المورقة الأصيلة، هذا هو السوس الذي كنا قد صنعناه وسميناه بـ (المفكرين)، كانوا عالمين بلغتنا، وكان قصارى همهم ومنتهى أملهم أن يصبحوا مثلنا، في حين أنهم أشباهنا وليسوا مثلنا، إنهم نخروا من الداخل ثقافة أهليهم وأديانهم القومية التي تصنع الحضارات، ومُثلهم وأحاسيسهم وأفكارهم الجميلة وأصالتهم الأخلاقية والإنسانية، وتحت أي شعار وبأي اسم؟! باسم مقاومة الخرافات أو مكافحة الرجعية، أو الوقوف ضد السلفية»[١].

وهذا الكلام يأتي على معاقد الأزمة الفكرية، وما تمخَّض عنها من ويلات.

وقد تتبع جذور هذه الأزمة عدد من الكتَّاب والباحثين، أمثال الدكتور محمد محمد حسين [٢]، والأستاذ محمد قطب[٣]، والكاتب جمال سلطان في عدد من كتاباته [٤]، وغيرهم كثير [٥].

---

(١) دفاع عن ثقافتنا، جمال سلطان، ص ٤٢، بتصرف يسير.

(٢) ومن كتبه في هذا المضمار: «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»، و«الإسلام والحضارة الغربية»، و«حصوننا مهددة من داخلها في أوكار الهدامين»، و«أزمة العصر».

(٣) ومن كتبه الرائعة في هذا الصدد: «واقعنا المعاصر».

(٤) ومنها على سبيل المثال: «غزو من الداخل»، و«دفاع عن ثقافتنا»، و«جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث».

(٥) انظر مثلاً: أزمة المثقفين تجاه الإسلام، للدكتور/ محسن عبد الحميد.

ولنقرأ أنموذجاً من نماذج الأزمة الفكرية والغربة الثقافية والفكرية عن الإسلام، وهو اعتراف أدلى به كاتب ومفكر يحتل مركزاً مرموقاً بين الكتَّاب، وله حضور ثقافي في ساحة الفكر العربي المعاصر! وهو اعتراف على نفسه، وشهادة على ألوف من أمثاله، كما سترى!

لقد عبَّر الدكتور زكي نجيب محمود عن هذه الحقيقة بصراحة كاملة بعد أن جاوز الستين من عمره، فقال: «لم تكن قد أُتيحت لكاتب هذه الصفحات في معظم أعوامه الماضية فرصة طويلة الأمد تمكّنه من مطالعة صحائف تراثنا العربي (!) على مهل، فهو واحد من ألوف المثقفين العرب، الذين فتحت عيونهم على فكر أوربي قديم أو جديد، حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني لا فكر سواه (!) لأنَّ عيونهم لم تفتح على غيره لتراه. ولبثت هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعواماً بعد أعوام. الفكر الأوربي دراسته وهو طالب، والفكر الأوربي تدريسه وهو أستاذ، والفكر الأوربي مسلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ. وكانت أسماء الأعلام والمذاهب لا تجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة كالأشباح الغامضة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين.

ثم أخذته في أعوامه الأخيرة صحوة قلقة، فلقد فوجئ وهو في أنضج سنيه بأن مشكلة المشكلات في حياتنا الثقافية الراهنة ليست هي، كم أخذنا من ثقافات الغرب، وكم ينبغي لنا أن نزيد! إذ لو كان الأمر كذلك، لهان. فما علينا عندئذٍ إلا أن نضاعف من سرعة المطابع، ونزيد من عدد المترجمين، فإذا الثقافات الغربية قد رصدت على رفوفنا بالألوف بعد أن كانت ترص بالمئين.

لكن لا، ليست هذه هي المشكلة، وإنَّما المشكلة على الحقيقة، هي كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد، الذي بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه، وبين تراثنا الذي بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها»[1].

وفي موضع آخر يصور الكاتب نفسه الكيفية التي تمت بها معانقة الفكر الإسلامي، وهي تكشف جانباً آخر من جوانب أزمة الفكر في حياة الأمة..

---

(١) أزمة المثقفين تجاه الإسلام، للدكتور/ محسن عبد الحميد، ص ٥٤، ٥٥، نقلاً عن كتاب «تجديد الفكر العربي»، للدكتور/ زكي نجيب محمود، ص ٥، ٦، المقدمة. ونلاحظ لوثة الثقافة الغربية في أكثر من موضع من كلامه، خصوصاً قوله في آخر النص المنقول: «... وبين تراثنا الذي بغيره تَفلِت منا عروبتنا أو نفلت منها»!

يقول: « . . استيقظ صاحبنا كاتب هذه السطور بعد أن فات أوانه أو أوشك، فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه، فطفق في بضعة الأعوام الأخيرة، التي قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية، يزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان، كأنه سائح مرَّ بمدينة باريس، وليس بين يديه إلا يومان، ولا بد له خلالهما أن يريح ضميره بزيارة اللوفر، فراح يعدو من غرفة إلى غرفة، يلقي بالنظرات العجلى هنا وهناك، ليكتمل له شيء من الزاد قبل الرحيل»[(١)] .

هذا كلام فيلسوف الوضعية المنطقية في العالم العربي، كما يُسمَّى [(٢)] . والاعتراف سيد البيِّنات!

وأمثال هؤلاء المفكرين هم الذين أفسدوا على الأمة فكرها، وشوَّهوا في عيون ملايين المسلمين كل شيء يتصل بالإسلام.. وجرجروا الأمة في متاهات الغرب والشرق، ونقلوا الأزمة برمتها وأسقطوها على الإسلام، خصوصاً إذا تكلَّموا باسمه مدافعين عنه، أو تكلَّموا عنه مفسرين له [(٣)] .

«إنَّ مئات الدراسات الجامعية وغير الجامعية، وعشرات المجلات الفكرية والدوريات العامة كانت تمشي في خطين متوازيين:

أولهما: تجاهل الإسلام تجاهلاً كاملاً .

ثانيهما: الجهل المركَّب به وبحضارته وقضاياه .

كان الناس يقرؤون ـ على سبيل المثال ـ في كتب الاقتصاد، في الجامعات وغيرها، كل شيء حول الاقتصاد ومذاهبه وتاريخه، دون ذكر أي شيء عن الاقتصاد الإسلامي، علماً ومذهباً وتاريخاً، وإن ذُكِرَ فيذكر على جهل مركَّب وسخرية واستهزاء!

لقد سُئِلَ أحد أكابر الاقتصاديين العرب الماركسيين في قاعة إحدى الجامعات العربية عما يعرفه حول الاقتصاد الإسلامي، فأجاب: «لم أقرأ حول هذا الموضوع أي شيء» .

---

(١) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، للدكتور/ محسن عبد الحميد، ص ١٤٣ . عن كتاب «تجديد الفكر العربي»، للدكتور/ زكي نجيب محمود، ص ٦ .

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ١٤٢ ، وانظر: اعترافات أستاذ الفلسفة في جامعة الكويت، الدكتور/ فؤاد زكريا، بفشل العلمانية في العالم الإسلامي، وأنها جسم غريب وافد . . . في: دفاع عن ثقافتنا، ص ٤٥ وما بعدها . . . وهذا الدكتور، هو أحد أساطين العلمانية وروادها . ومن المؤسف أنَّ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وجَّهت إليه الدعوة لصياغة المخطط العربي الثقافي لمواجهة (الغزو الثقافي)! . انظر: دفاع عن ثقافتنا، ص ٤٥ . وإنْ تعجب من شيءٍ، فاعْجَبْ لعلماني قحّ يصوغ مخططاً لمواجهة الغزو الثقافي!

لا يُلامُ الذِّئْبُ في عدْوَانه   إنْ يَكُ الرَّاعِي عَدُوَّ الْغَنَم

(٣) وأتمنى على كل مسلم أن يطالعَ كتابات أمثال الكُتَّاب الذين ذكرتهم قبلاً، وخصوصاً كتابات: جمال سلطان، بحكم كونها هي الأيسر والأخصر، فهي تقرِّبُ إلى الأذهان آخر تطورات الانحراف الفكري، وما جدَّ من مظاهره .

وسُئِلَ آخر، فأجاب مستهزئاً: «أستطيع أن أقول: إنَّ الاقتصاد الإسلامي اقتصاد رأسمالي بدائي».

وعندما سأله الطلبة أن يعطيهم بعض المصادر حول الاقتصاد الإسلامي، قال: تستطيعون مراجعة كتاب الخراج لأبي يوسف [(١)] .. وعندما وُوْجِهَ ببعض المراجع الحديثة في هذا الموضوع، قال: «أنا أدرِّس الاقتصاد وليس الدين!» [(٢)].

وهذا الجهل المركَّب في ظل النفسية المهزومة، هو الذي جعل من أمة الإسلام اليوم ميداناً لاستعراض سقط النصارى واليهود والوثنيين، على كل صعيد..

فقد اكتسحت العالم الإسلام موجة القوميات.. ثم شاعت الروح الليبرالية، ثم انحسر ظلها عن بعض المناطق إبان زخم الاشتراكية والقومية، ثم عادت حليمة إلى الليبرالية! دون أدنى مبرر منطقي لهذه أو تلك، إلا رجع الصَّدَى وتقليد الببغاء، بفعل تنويع الولاء، وتبدّل الأولياء. على حد قول الشاعر الجاهلي:

يوماً يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معدياً فعدناني

وإن أردت أن تعرف مبلغ جهل جمهور الأمة، وأنها مجرد صدى ممجوج لسقط الأفكار والمذاهب الأجنبية، فهاك هذا المثال، الذي يقص علينا قصة (القومية) التي طوحت بدين الأمة ووحدتها، وكرست الإلحاد والعلمانية.. فما قصة القومية؟

يقول الدكتور محسن عبد الحميد: «لقد ظهرت النزعة القومية العنصرية أول ما ظهرت في البلاد العثمانية في ستينات القرن الميلادي الماضي، عندما احتكت الدولة العثمانية بألمانيا.. وبدأت البعثات العسكرية والثقافية تتقاطر على ألمانيا، التي كانت تعيش يومئذٍ الحالة القصوى في العصبية للجنس الجرماني، نتيجة لظروفها السياسية والأخطار العسكرية التي تهددها من الخارج، فرجع المبعوثون الأتراك وهم مشحونون بالإعجاب الكبير لحركة القومية الألمانية ومظاهر الحضارة الغربية، ليشكلوا نواة الحركة الطورانية العنصرية التي تحوَّلت بعد سنوات قليلة إلى حركة (تركيا الفتاة) ثم إلى (الاتحاد والترقي) التي انسلخت من الرابطة الإسلامية، ودعت إلى إلغاء الشريعة الإسلامية وإحلال القوانين الأوربية محلها.

ثم تبنت بعنف سياسة التتريك (بعد خلع السلطان عبد الحميد)، واضطهاد الشعوب التي كانت تحت لواء الدولة العثمانية، لاسيما العرب، والاستعلاء عليها،

---

(١) الإمام، المجتهد، المحدِّث، صاحب أبي حنيفة، يعقوب بن إبراهيم، الأنصاري، الكوفيّ. كان أبوه فقيراً، فكان أبو حنيفة يتعاهده بالدراهم مئة بعد مئة. قال الإمام أحمد: «وكان أمْيَل إلى الحديث من أبي حنيفة ومحمد». وثَّقه النسائي، وقال أبو حاتم: «يكتب حديثه». توفي سنة (١٨٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٥٣٥).

(٢) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ص ١٤١، ١٤٢. وانظر: مزيداً من الأمثلة في: أزمة المثقفين تجاه الإسلام، للمؤلف، ص ٥٢ وما بعدها، ٨٠ وما بعدها.

الأمر الذي أدّى إلى حركة رد فعل قوي عند الشباب العرب المتأثرين بالثقافة الأوربية . . . وانتهت حركة القومية العربية العلمانية الحديثة إلى سلوك خط معارض للإسلام من حيث هو عقيدة وشريعة وسلوك ، بل حاول مفكروها أن يوجهوها بحيث توضع ديناً ، بدل دين الإسلام ، فهذا أحد هؤلاء يقول:

«القومية بالنسبة إلينا ـ نحن القوميين العرب ـ دين له جنته وناره ، ولكن في هذه الدنيا» .

إنَّ الحركة الطورانية العنصرية التركية ، وحركة القومية العربية ، كان لهما تأثير كبير في دفع الأكراد . . إلى التفكير في قوميتهم . . . ومن هنا فإنَّ المتطرفين من القوميين الأكراد دعوا قومهم إلى الانسلاخ من الإسلام عقيدة ولغة وحضارة» (١) .

ألا يدل هذا المسلسل الذي كان أوله مجرد (إعجاب) من (فئة) . . فانتهى إلى أعظم رزية تحل بالعالم الإسلامي ، بواسطة (ردود الأفعال) . . ألا يدل ذلك على مبلغ الخواء والغفلة والهزيمة النفسية التي حاقت بأمة الإسلام؟ بلى . . وقديماً قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنـــا

وعلى صعيد آخر ، يمكن أن نتبيَّن مهزلة مسلسل الفساد الاجتماعي لو تتبعنا قصة البعثات العلمية! التي انطلقت من مصر إلى أوربا ، لأغراض علمية ، فنسيت أهدافها واستبدلت بها أهدافاً أخرى!

كيف ظهرت بواكير هذا الفساد والانحراف الاجتماعي يوم رجعت أولى تلك البعثات إلى أرض مصر ، إذ كتب إمام الحملة ومفتيها رفاعة الطهطاوي (٢) رأيه في المرأة والحجاب . . . كتب يقول: «إنَّ وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة» (٣) .

ثم واصل المشوار قاسم أمين ، الذي «اطلع قبل ذهابه إلى فرنسا على رسالة لمستشرق يتهم الإسلام باحتقار المرأة وعدم الاعتراف بكيانها الإنساني . وغلى الدم في عروقه ، كما يصف في مذكراته ، وقرر أن يرد على هذا المستشرق ويفند افتراءاته على الإسلام . ولكنه عاد بوجه غير الذي ذهب به!» (٤) .

---

(١) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري ، ص ١٢٩ ، ١٣١ .

(٢) رفاعة بن رافع الطهطاوي ، تعلّم في الأزهر ، وأرسلته الحكومة المصرية إماماً للصلاة مع بعثة من الشبان أوفدتهم إلى أوربا لتلقي العلوم الحديثة ، تعلّم الفرنسية ، وله كتب ، منها: تعريب القانون المدني الفرنساوي ، وتلخيص الإبريز ، وهو في رحلته إلى فرنسا . توفي سنة (١٢٩٠هـ) . انظر: الأعلام (٣/ ٢٩) .

(٣) جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث ، ص ٨٦ ، عن كتاب: الطهطاوي «الأعمال الكاملة» (٢/ ٢٥٨) .

(٤) واقعنا المعاصر ، ص ٢٥٠ .

إنَّه الجهل العميق بحقائق الإسلام وتعاليمه، وإنها الهزيمة النفسية التي زلزلت النفوس وأسلمت قيادها لكل غاد ورائح.

ولا أريد المُضي في استعراض الأمثلة على مظاهر أزمة الأمة [١]، فليست مقصودة لذاتها، وإنَّما ذكرت منها ما ذكرتُ على سبيل التمثيل؛ حتى يكون من يتصدَّى لإصلاح الأمة والخروج بها من وهدتها، على بيِّنةٍ من حالها بمختلف شرائحها وطبقاتها.

وفقه السنن يقتضي من العاملين في مجال الإصلاح وتخليص الأمة، تتبعاً دقيقاً وتفصيلاً واعياً لمختلف أبعاد الأزمة، ومعرفة بداياتها وما انتهت إليه؛ لضمان سلامة الحلول المقترحة لها..

وإنَّ من تمام تصور الواقعة، ومن الأمانة في تصوير حال الأمة الإسلامية، أن تذكر الجوانب المضيئة، وأن تقوّم الأعمال النافعة بقيمتها الحقيقية دون مبالغة أو جفاء، وهي كثيرة ولها آثار ملموسة..

فهناك الحركات والجمعيات الإصلاحية، ما بين دعوية وجهادية، وثالثة تجمع بين الدعوة والجهاد، على ما بينها من تفاوت في مناهجها وأهدافها.

وتلك كان لها أعظم الأثر في الإبقاء على روح الانبعاث الإسلامي بين الحين والحين [٢].

وهناك القيادات العلمية والشعبية، كخطيب الجمعة وأستاذ الجامعة، والمصلح الاجتماعي، والمعارض السياسي.. وهناك البطولات الفردية، كذاك الفتى الذي قتل الجنرال (كليبر) قائد الجيش الفرنسي، والحاكم العام في مصر بعد عودة نابليون إلى فرنسة [٣].

وقد كان لها أثرها في توجيه الأمة نحو مقاومة تيار الفساد، وتوعيتها بالمخاطر المحدقة بها [٤].

---

(١) ويمكن الرجوع إلى المبحث الأول من الفصل الثاني من الباب الثالث، ففيه عرض لجوانب من واقع الأمة المعاصر.

(٢) وهي كثيرة، وعلى رأس هذه الحركات وفي مقدمتها: الحركة التصحيحية التي قادها الشيخ المجدد/ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ في نجد. وهناك الحركة السنوسية، وجمعية العلماء المسلمين في المغرب العربي، والمهدية في السودان، وهناك الحركة الإصلاحية التي قادها/ جمال الدين الأفغاني وتلميذه/ محمد عبده في مصر، ثم كانت حركة الإخوان المسلمين في مصر أيضاً، والجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية وفي باكستان.

(٣) هو: سليمان الحلبي، وقد قتلوه شرّ قِتْلَةٍ ومثّلوا به، وكان ذلك سنة (١٢١٥هـ). انظر: الأعلام (٣/ ١٣٣).

(٤) وهي قيادات كثيرة لا يمكن حصر أشخاصها، وإن كان تأثيرها في أوساط الأمة يتفاوت تفاوتاً كبيراً، وتفاوت أشخاصها يرجع إلى أسباب كثيرة، منها: تفاوت مواهبهم وقدراتهم، وطبيعة الظروف التي عايشوها، ونوع العمل الذي قاموا به، والمنهج الذي ساروا عليه... إلى غير ذلك.

وهناك الحسّ الإسلامي ورصيد الفطرة المخبوء في ضمائر المسلمين، وشعائر الإسلام الظاهرة ومناسباته المتكررة، على ما أصابها من تشويه وإهمال في حسّ الأجيال المسلمة. وهي أمور لم يكن بمقدور الكيد البشري، مهما كان خبيثاً أن يستأصلها من قلوب عامة أفراد الأمة المسلمة؛ لأنَّ الله أراد بهذه الأمة خيراً، وأراد لهذا الدين أن يكون قَدَرَها وأن تكون قائمة به إلى ما شاء الله.

وفي الصفحات التالية، أتحدّث عن المبحث الثاني: (فقه الخروج من هذه الأزمة).
ومن الله أستمدّ العون والتأييد.

* * *

المبحث الثاني

فقه الخروج من الأزمة

هذا هو المبحث الثاني من مبحثي (فقه السنن) المتعلّق بفقه الواقعة (أزمة الأمة الإسلامية)، وهو يتناول فقه الخروج بالأمَّة مما هي فيه من محنة، وتصحيح ما فسد من أحوالها . .

وقد تصورنا ـ فيما مضى ـ طبيعة المشكلة وجوهر الأزمة، ووقفنا على ضخامة الانحرافات، وسجلنا تباشير العودة وطلائع الصحوة . .

وتلك خطوة لا بد منها ـ كما أسلفت بيان ذلك ـ لكل طرح نظري صائب وعملي مثمر.

وبناء على ما سبق، فإنَّ فقه الخروج بالأمَّة من أزمتها وتصحيح مسارها، إذا ما أُريد له أن يؤتي ثماره، لا بد أن يكون متمشياً مع السنن التي جعلها الله أسباباً لإصلاح أحوال الأمم، وأناط بتحقيقها النتائج . .

وقد خطونا الخطوة الأولى فيما مضى، حين حدَّدنا طبيعة الأزمة، وتصورنا حجم المشكلة . . ونحاول مواصلة المشوار في إيضاح الخطوات التي يقتضيها فقه الخروج من الأزمة، ويمكن تركيزها في الخطوات التالية:

أولاً: الإيمان الجازم بأنَّ ما حدث لم يكن صدفة، وأنَّه محكوم بسنن وأسباب معقولة.

وهي سنن إلهية، لها من الثبات والاطراد والعموم، وغيرها من الخصائص ما يقطع بدخول كل أحوال البشر، خيرها وشرها تحت سلطانها ووفق نظامها [١].

وتلك بدهية فيما نحسب، ولكن الواقع يجعلنا نعيد النظر في مقدار وضوحها، وبالتالي في استصحابها عند الممارسة العملية.

وقد توافرت نصوص القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ في التأكيد عليها، وفطر الله البشر على قبولها والاهتداء إليها، إذا سلمت نفوسهم من عوارض الجهل والغفلة والإعراض.

---

(١) وقد فصلت هذا المعنى في فصل: (خصائص السنن)، في الباب الأول.

ولو تأمّلنا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]... وغيرها من الآيات.

وأمعنا النظر في مثل قول رسول الله ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلاً، لا ينـــزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**»(١).

وقوله ﷺ: «**بُعثتُ بين يدين الساعة بالسيف حتى يُعْبَدَ الله وحده، وجعل رزقي تحت ظل رمي، وجُعل الذُّل والصَّغار على من خالف أمري، ومن تشبَّه بقومٍ فهو منهم**»(٢).

وقوله ﷺ: «**إنَّ الناسَ إذا رأوا الظالمَ ـ وفي رواية: المنكر ـ فلم يأخذوا على يديه أَوْشَكَ أن يعمّهم الله بعقاب منه**»(٣).

وقوله ﷺ: «**إنّما أهلكَ الذين قبلكم، أنّهم كانوا إذا سرقَ فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ**»(٤) الحديث.

---

(١) رواه أبو داود في البيوع، باب: في النهي عن العِينَة، ح (٣٤٦٢) عن ابن عمر. وقال الأرناؤوط في تعليقه على جامع الأصول لابن الأثير (١١/ ٧٦٥): «حديث صحيح». وذكره الألباني ـ رحمه الله ـ في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١) ح (١١)، وقال: «هو حديث صحيح لمجموع طرقه».

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٥٠، ٩٢). وصحّحَهُ الشيخ/أحمد شاكر في تخريج أحاديث المسند (٧/ ١٢١)، ح (٥١١٤). ونسبه السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٤٨٧) لأبي يعلى في مسنده، وللطبراني في الكبير، كلهم عن ابن عمر. وأفرد الحافظ ابن رجب شرح هذا الحديث برسالة مستقلة، وحَسَّن إسناده. والرسالة مطبوعة ضمن مجموع بعنوان: «من دفائن الكنوز»، وهي آخرها.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٢، ٥، ٧، ٩)، والترمذي في أبواب تفسير القرآن (تفسير سورة المائدة، ح رقم (٢١٦٩)، وأبو داود في الملاحم، باب: الأمر والنهي، ح رقم (٤٣٣٨). وقال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب (١/ ٢٦٧، ٢٦٨): «هذا الحديث جيد الإسناد». وصححه السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٣٢٧). وقال الأرناؤوط في التعليق على جامع الأصول، لابن الأثير (١/ ٣٣١): «إسناده قويّ».

(٤) متفق عليه، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها. انظر: فتح الباري (٦/ ٣٧٧، ٣٧٨) في الأنبياء، باب: ما يذكر عن بني إسرائيل، ومسلم في الحدود، ح رقم (١٦٨٨).

إننا لو تأمّلنا في هذه النصوص وما شابهها، لأدركنا يقيناً أنَّ ما حلَّ بالأمَّة كانت له أسباب، هي من جنس ما ذكر في هذه النصوص وغيرها، وأن هذه الأسباب ظاهرة بيِّنة لا غموض فيها، وأن الخلاص منها ممكن ومقدور عليه.

وأنّه لا مكان للصدفة، ولا معنى للبحث عن حلول وهمية، وتجاهل الأسباب الحقيقية للمشكلات.

إنَّ الإيمان بأن مشكلات العالم الإسلامي خاضعة لسنن إلهية، يعني فيما يعني:

ـ أنها مشكلات طبيعية، أي منسجمة مع أسبابها، مهما كانت ضخامة تلك المشكلات وتعقيدها.

ـ وأن تجاوزها وعلاجها ممكن، ولو كلّف الكثير، واحتاج إلى زمن طويل.

ـ وبالتالي فإنَّ وسائل العلاج والإصلاح هي مما بين أيدينا، وليست خوارق، وأنَّ قدراتنا الذاتية ـ على محدوديتها ـ هي أساس الانطلاقة، وأن بلوغ المقصود يبدأ من إدراك قيمة الموجود. بهذا نهضت الشعوب، وبهذا تنهض من جديد.

وبعكس ذلك الذي يغفل أو يستهين بهذا الارتباط بين واقع الأمة وبين أسبابها التي هي السنن الإلهية، أو يجهل وجود هذه العلاقة، أو يظن أن سنن الله تعمل في حياة البشر بطرق غامضة أو غير منضبطة. فإنَّ أعمال أمثال هؤلاء تتسم بالعشوائية، ويُصاب أحدهم باليأس وعدم الثقة في إمكاناته، ويحتقر جهوده إلى ضخامة الواقع المنحرف، فيقعد متحسراً ينتظر خوارق السماء، وربما قال: نحن في زمن فتنة، واعتزل معترك الحياة واشتغل بخاصة نفسه [(١)].

ولعل من المناسب أن أعرض هنا لبعض التصورات والقناعات الغريبة التي عششت في رؤوس وأدمغة كثير من المسلمين، في ظل الهزيمة النفسية وانحسار الوعي، والذهول عن إدراك العلاقة بين المشكلات وبين أسبابها [(٢)].

وأبين كيف أن القرآن رسم للأمة الطريق إلى تصحيحها واجتياز آثارها بصورة جليَّة، لو أنا بحثنا عن العلاج مظانه.

فمن ذلك: أن تجد أكثر المسلمين يحسنون الظن بأنفسهم، ويزكون أعمالهم، مع ما هم فيه من مخالفة وتقصير، وبالتالي فهم لا يقبلون نصحاً، ولا يرتضون نقداً ولا يسعون إلى استصلاح ما اختل من أمرهم.

---

(١) يمكن مراجعة كتاب «حتى يغيروا ما بأنفسهم»، لجودت سعيد.
(٢) وقد أشرتُ إليها بإجمالٍ في المبحث السابق، ووعدتُ ببسط الإجابة عليها في هذا المبحث.

ثم هم مع ذلك، يعتقدون خطأ مخالفيهم، وأنهم لا يستحقون ما هم فيه من متاع الدنيا، وأنهم - أعني المسلمين - أولى به منهم، حتى مع جدّ أولئك وتشميرهم، وإعراض المسلمين وتفريطهم.

وإذا رأوا أن الله لم ينصرهم، بل سلّط عليهم الكفّار والفجّار فظهروا عليهم.. إذا رأوا ذلك، ظنّوا بالله ظن السوء؛ إذ كيف يُديل أهل الباطل على أهل الحق! وارتابوا في صدق وعد الله أنه ينصر المؤمنين في الدنيا. وأحسن حالهم أن يعتقد بعضهم أن ما وعد الله به من النصر والنعيم لا يكون للمؤمنين إلا في الآخرة، وأمّا الدنيا فهي للكافرين والفجّار (١).

وهذه التصورات وما شاكلها، دليل على أن عامة المسلمين لايواجهون المشكلات الواقعة بأسبابها المعقولة.. إنما يواجهونها بالأماني الفارغة، واجترار الماضي، دون إدراك صحيح لعلاقة الأسباب بمسبباتها، وكأن ما يجري إنّما يجري بمحض الصدفة بلا حكمة، أو كأن السنن التي يخضع لها البشر لا تنطبق عليهم. وكأن أمجاد الماضي قد تحققت على يدي أجيال تنابلة بطّالين كحال أجيالنا موضع الحديث.

وقد أفاض شيخ الإسلام ابن تيمية في دحض هذه الشُّبه، وعالج هذا الجهل عن طريق إحكام الصلة بين الأسباب ومسبباتها؛ وجوداً وعدماً، وقرَّر أن الإعراض عن ملاحظة هذه الصلة راجع إلى «الجهل بأمر الله ونهيه، وبوعده ووعيده، فإنَّ صاحبها إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق، فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور، تارك للمحظور.. وهذا من جهله بالدين الحق.

وإذا اعتقد أنَّ صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين، ولأهل الفجور على أهل البر، فهذا من جهله بوعد الله تعالى.

أمّا الأول: فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها، وما أكثر ما يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها، بل ما أكثر من يعبد الله بما حرَّم ويترك ما أوجب، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه، وأنَّ خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه، ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم، ومع خصمه نوع من الحق والعدل.

---

(١) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية (٢/ ٣٢٤) وما بعدها.

وأمَّا الثاني: فما أكثر من يظن أنَّ أهل الدين الحق في الدنيا، يكونون معذبين بما فيه، بخلاف من فارقهم إلى طاعة أخرى وسبيل آخر، ويكذّب بوعد الله بنصرهم.

والله سبحانه قد بيَّن بكتابه كلا المقدمتين، فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى في كتابه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ۞ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١].

وقال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

وذم من يطلب النصرة بولاء غير هؤلاء، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ۞ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ۞ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَهَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٣].

وقال تعالى في كتابه: ﴿بَشِّرِ الْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۞ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

وقال تعالى في كتابه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۞ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢، ٢٣].

وقال تعالى لما قصَّ قصة نوح، وهي نصره على قومه في الدنيا، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَٰقِبَةَ

لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وأخبر أن ما سيحصل لهم من مصيبة انتصار العدو وغيرها، إنَّما هو بذنوبهم، فقال تعالى في يوم أُحد: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وذمَّ في كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين، وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين، فقال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١٢].

ولهذا أمَرَ الله رسوله والمؤمنين باتّباع ما أُنزِلَ إليهم، وهو طاعته، وهو المقدمة الأولى. وأمرهم بانتظار وعده، وهي المقدمة الثانية، وأمرهم بالاستغفار والصبر؛ لأنَّهم لا بد أن يحصل لهم تقصير وذنوب، فيزيله الاستغفار. ولا بد مع انتظار الوعد من الصبر، فبالاستغفار تتم الطاعة، وبالصبر يتم اليقين بالوعد، وإن هذا كله داخل في مسمى الطاعة والإيمان»[1].

وفي حياة الأمة الإسلامية أمثلة لا تُحصَى، كلها تثبت أن الأمة لما أدركت العلاقة بين ما هي فيه من ضعف وهزيمة وبيْن سببه ـ أيا كان هذا السبب ـ ومارست عملية الإصلاح، أنها تمكنت من تجاوز المحن وتحويل الهزائم إلى انتصارات. وهذا ليس خاصا بها، بل هو لسائر الأمم؛ إذا أقامت مايُصلح دنياها استقامت بحسبها، وإن استوفت ما يُصلح دينها سعدت. ولن أستطرد هنا، فلهذه المسألة فصل خاص بها[2]. ولكن أذكر مثلين مختصرين:

* لقد كان الاستعمار بجيوشه المدججة بالسلاح مسيطراً على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي، على حين فترة من تعطيل الجهاد، مصداق قوله ﷺ: «**إذا تَبايعتم بالعينة،**

(١) جامع الرسائل، لابن تيمية (٢/ ٣٢٧، ٣٣٤)، باختصار وتصرف يسير.
(٢) هو الفصل الثاني من هذا الباب.

وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلاً، لا ينـــزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»[١] .

ولما انطلقت كتائب المجاهدين هنا وهناك . . في الجزائر ، وفي ليبيا ، وفي أفغانستان . . لم يجد الاستعمار بُداً من الخروج .

* وفي السودان ، لما وجدت إرادة جازمة في تحقيق الاكتفاء الذاتي وتوفير الأمن الغذائي . . . تحولت السودان إلى بلد مصدر ، وانخفضت أسعار السلع بصورة هائلة[٢] . وإن كان حال بينها وبين استكمال مشوارها الإصلاحي كيد العدو وخذلان الجار والقريب .

وإدراك هذه العلاقة بين المشكلة وسببها ، هو مفتاح الحل لها . . وهو ما أقصد إلى بيانه .

ومتى بلغ علماء الأمة ودعاتها والمصلحون فيها مرحلة الإيمان الجازم بهذه الخطوة ، على النحو الذي أشرتُ إليه آنفاً ، فقد قطعنا في مشوار (فقه السنن) مسافة طيبة .

ومتى أصبح الحديث عن هذه العلاقة بين مشكلات الأمة وبين أسبابها مقبولاً لدى عامة الناس ، لا يقابل بالجدل أو الرفض والاستغراب ، فقد طبّعنا هذه الخطوة ، ومهّدنا السبيل لما بعدها من خطوات .

ثانياً: أن تكون الأمة مستعدة للتصحيح، مؤمنة بضرورة المناصحة وتقويم الأوضاع.

وما لم يوجد الحد الأدنى من ذلك ، فقل على الأمة العفاء .

فقد كان هلاك من هلك من الأمم بسبب أنهم كانوا لا يحبون الناصحين .

والنصح والتصحيح معنى عام يشمل كل تصحيح متصور ، بدءً بدعوة الناس من الكفر والشرك ، إلى الإيمان والتوحيد . . وانتهاءً بأدق الملاحظات . . وما بين ذلك .

والنصح والتصحيح والنقد والمراجعة في الأمة ، ليس خاصاً في شأن دون غيره ، بل هو شامل لشؤون الدين والدنيا .

كما أنه ليس حكراً على أحد ، بل من جاء بحق وصواب ، ودعا إليه فهو ناصح . . ومن هنا فإنّ أفراد الأمة ما بين ناصح ومنصوح ، وجامع بينهما .

---

(١) سبق تخريجه قريباً ، ص ٥٩٤ .

(٢) أكتُبُ هذا الكلام والأسواق تستقبل السكر السوداني ، وكنا لا نعرفه من قبل ، وقد حدّثني بانخفاض الأسعار ، عددٌ من الذين قدموا من السودان ، وقد لا يستمر ذلك طويلا لما أراه من مكائد تلوح في الأفق .

ويؤيد ذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح: **«الدين النصيحة»**، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: **«لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»** (١).

وقوله ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري (٢) ﷺ: **«من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»** (٣).

ولبسط ذلك موضع آخر (٤).

واستعداد الأمة للتصحيح، يستلزم الاعتراف بالأخطاء وجوانب القصور، وعدم تبريرها أو الدفاع عنها.

وينبغي أن يكون التصحيح مضبوطاً بضوابط الشرع، وخير معوان على ذلك أن تعكف الأمة على تقليب صفحات التاريخ الإسلامي، خصوصاً العهد النبوي وعصر صدر الإسلام، فإنَّها واجدة أروع أنموذج عملي صالح للتطبيق.

كما أن النصح والتصحيح يتطلَّب جواً من الحرية في التعبير والكتابة والتفكير.

وقد شاهدنا كيف أن الغرب لما شجع على تقويم الأوضاع، وكفل الأجواء المناسبة له... أصبح النقد والتصحيح من أهم أسباب تقدمه وازدهاره، وبعكس ذلك العالم الإسلامي، كيف تدهورت أحواله بسبب تخلّف شرط الحرية، وتجاهل قياداته النقد والتقويم، بل وتحريم ذلك على شعوبه، وتجريم فاعليه!.

ولا تستقيم أحوال الأمة حتى يُنادَى فيها بمثل نداء عمر بن الخطاب ﷺ المُدَوِّي: **«رحم الله امرءاً أهدى إلينا عيوبنا»**(٥).

وقوله ﷺ: **«لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها»**.

وأول من يطالب بامتثال هذه الخطوة، علماء الأمة ودُعاة الإصلاح فيها، فإذا رأى الناس منهم ذلك، أكبروهم وقلَّدوهم.. فشاعت هذه الروح في جسم الأمة، وحينئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله، إن شاء الله.

ومن الخطوات في هذا السبيل (سبيل خلاص الأمة):

---

(١) رواه مسلم، عن تميم الداري ﷺ. انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان أن الدِّين النصيحة، ح رقم (٩٥).

(٢) سعد بن مالك بن سنان، الإمام، المجاهد، مفتي أهل المدينة، استشهد أبوه يوم أحد، وشهد هو الخندق وبيعة الرضوان، كان كثير الحديث. مات ﷺ سنة (٧٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣/١٦٨).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان كون النهي من الإيمان، ح رقم (٤٩).

(٤) هو الفصل الثالث من هذا الباب، بإذن الله تعالى.

(٥) انظر: أدب الدنيا والدين، ص ٢٣٦، والنص بحروفه: «رَحِمَ اللَّهُ امْرَءً أَهْدَى إلَيْنَا مَسَاوِيَنَا».

ثالثاً: ضرورة التمييز بين ما تختص به الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم، وما تشترك مع غيرها فيه.

وهذه خطوة لا بد منها إذا أردنا لهذه الأمة أن تستعيد عافيتها . . . وهي خطوة لا بد منها أيضاً لتحقيق استعلاء الأمة بإيمانها ومنهجها . . .

ولعل الغفلة عن خصائص هذه الأمة أو الجهل بها، أو تجاهلها وعدم الاقتناع بها. . لعل ذلك كان سبب فشل كثير من الجهود الإصلاحية التلفيقية، وسقوط كل محاولات الإصلاح الجاهلية الإسقاطية.

إنَّ الأمَّة الإسلامية أمة متميزة بنشأتها، متميزة بوسائلها، متميزة برسالتها وأهدافها. . متميزة بنظام حياتها. . وبالتالي فهي متميزة بالحلول المناسبة لها (١).

وإذا كان لكل أمة خصائص وظروف، قد لا تشترك مع غيرها فيها، فإنَّ الأمة الإسلامية تمثل هذا التميز أتم تمثيل.

إنَّ الجاهلية أسرة واحدة، مهما اختلفت أحوال الأمم فيها، وإن الإسلام شيء آخر مختلفٌ تماماً، ولا يمكن أن تتشابه المنطلقات والأهداف. .

وإنَّ تاريخ هذه الأمة مرتبط بالإسلام، وقدرها في هذه الأرض هو الإسلام.

وقد عبَّر عمر بن الخطاب ﷺ عن هذا المعنى بعبارته الرائعة: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما طلبنا العزة بغيره أذلَّنا الله» (٢).

ولننظر في بعض خصائص هذه الأمة، وكيف فشلت الجهود المطروحة حين تجاهلتها.

* **فمثلاً: وحدة الأمة:**

المسلمون أمة واحدة، مهما تباعدت ديارهم وتباينت لغاتهم وألوانهم. . تلك مسألة من بدهيات دين الإسلام.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وقال في الآية الأخرى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

---

(١) مع خضوعها كغيرها من الأمم للسُّنن الإلهية وعدم استثنائها منها.
(٢) البداية والنهاية (٧/ ٦٠).

فلا مكان للقومية في محيط المجتمع الإسلامي، مهما كان لونها وشكلها، وأي حل لمشكلة الأمة الإسلامية على أساس قومي، محكومٌ عليه بالفشل سلفاً؛ لأنَّه يناقض خاصية وحدة الأمة الإسلامية تحت راية واحدة هي الإسلام!

وأي إصلاح للأوضاع على أساس حزبي ضيق أو إقليمي أو عرقي.. أو نحو ذلك، فلن يفلح على صعيد الواقع؛ لأنَّه يصادم ما تقرر في نفوس المسلمين من كونهم أمة واحدة [(١)].

* **ومثل ثان:** الإصلاح عن طريق طرح مناهج بديلة عن منهج الإسلام، كالعلمانية، التي تعني الردَّة الكبرى إلى الجاهلية في كل مفاصل الحياة.

وبرغم ما لقيت العلمانية من دعاية، وما ساندها من قوى؛ ربما لم تتهيأ لغيرها.. لقد كانت هي خيار النظم السياسية في العالم الإسلامي، وكانت هذه النظم تدعمها بكل ما أوتيت من قوة، رافعة شعار الحرية والديمقراطية، زاعمة أنها هي بوابة الرقي والتحضّر، وعلى يديها يمكن إخراج العالم الإسلامي من ورطة التخلف والجهل.

ولأنها نبتة غريبة، فلم تؤد بعد رحلة طويلة، إلا إلى مزيد من الضياع والذل والتخلف، وشيوع الرذيلة وإهدار الكرامة، لكل شعوب العالم الإسلامي [(٢)].

فشلت العلمانية في تحقيق أي شيء إيجابي للأمة، وإن كانت نجحت في تحطيم قواها المعنوية، وتبديد طاقاتها المادية، وتمزيق وحدة شعوبها؛ لأنَّها قامت على أساس مناقض لدين الأمة وعقيدتها، التي بنيت عليه حضارتها.

فشلت؛ لأنَّ الله يقول في كتابه لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

والعلمانية تقول فيما تقول: الدين لله والوطن للجميع. وتقول: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وحتى هذه الشعارات لم تكن العلمانية وفية لها، بل هي أول من كفر بها. فانتهى الوطن للزمر الحاكمة ومن يخدمها، وحوصر الدين وأهله وفرضت عليه الوصاية! بل أصبح الدين جزءً من تراث الأمة، أدَّى دوره وانتهى ليسلم الزمام إلى العلمانية.

---

(١) انظر: بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، للدكتور/ فاروق حمادة، ص ٨٦ وما بعدها.
(٢) انظر: بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، للدكتور/ فاروق حمادة، ص ٩٨.

ولا أدلّ على فشلها، وفشل غيرها من الشعارات، من أن أحداً من الناس لا يستطيع استثارة عواطف الشعوب الإسلامية، ويلهب حماسها لمواجهة المواقف الصعبة بشيء من هذه الشعارات، لكن بالإسلام وحده!

فاعجبْ لقوم يضربون الإسلام في الصميم، ثم يرفعونه شعاراً عند الحاجة! واعجب لشعوب تُطعن في خاصرتها، ثم تموتُ دون من طعنها فداءً له، إذا ما دغدغ مشاعرها ببعض كلماتٍ!

وستفشل هذه الشعارات أبداً؛ لأنَّ هذا هو منطقها أبداً.

*** ومثل ثالث: نظام الحكم في الإسلام نظام شوري محكم.**

وهو متميز عن كل أشكال الحكم الجاهلية، بما فيها النظام الديمقراطي. ولا يصلح شيء منها لطبيعة الإسلام، وبالتالي لا يصلح شيء منها للأمة الإسلامية.

ويدور جدل حول الديمقراطية، وإمكانية صلاحيتها للعالم الإسلامي.

وباختصار شديد، أقول: لا تصلح الديمقراطية نظام حكم في العالم الإسلامي؛ لأنَّها لا تؤمن بمبدأ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ الحشر: ٧]. ولا تعترف بأن لله وحده الخلق والأمر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وإنَّما تؤمن بمبدأ أن يتخذ الناس بعضهم بعضاً آلهة وأرباباً من دون الله. وهذا كفرٌ بواح، يؤدي إلى فساد عريض لا يمكن أن يقره المسلم الصادق [(١)].

ولا يرضى بالديمقراطية، بمعناها الغربي المعاصر، إلا من كان عنده استعداد سلفاً للتضحية بالإسلام كله، فضلاً عن التضحية بجوانب منه، إذا صوت ضده البرلمان[(٢)].

وبالمناسبة، أقول أيضاً: إنَّ الديمقراطية بمعناها الغربي - وهي صورة مرفوضة - لم تُمارس بصورتها الحقيقية إلا في بلاد الغرب، والذي يمارَس في العالم الإسلامي هو ديكتاتورية، يسمونها الديمقراطية! أو ما سماه بعضهم بالديمقراطية الاستباقية.

أقول هذا لسبب بسيط، وهو: أن الديمقراطية التي تعطي الحق لرأي الأغلبية، لو مُورست بصورتها الحقيقة لاختارت الشعوب الإسلام منذ زمن بعيد.. [(٣)].

---

(١) انظر: أزمة العصر، د. محمد محمد حسين، ص ١٠٨ وما بعدها.

(٢) وهذا غير مسألة المشاركة بالبرلمان إذا لم يكن هناك طريق أقرب وأسلم منه لنصرة الحق وتخفيف الشرّ، فهذه ضرورة تُقدَّرُ بقدرها، وهي داخلة في باب المصالح والمفاسد، الخاضعة لاجتهاد المجتهدين، كل حالة بحسبها.

(٣) ولعل التجربة الجزائرية أقرب مثال على صِدْقِ ما أقول.

ثم تكون الشعوب الإسلامية ملزمة ـ إن كانت صادقة في إسلامها ـ أن تقيم نظام الشورى الإسلامي .

ومن هنا فإنَّ العالم الإسلامي لا يصلحه إلا نظام شورى ، نابع من طبيعة دين الأمة . وأي تجربة أخرى فهي فاشلة ، ولا تؤدي إلا إلى مزيد من الاستبداد ، الذي يكرس تخلف الأمة . ولو ذهبنا نعدد الأمثلة ، لطال الحديث!

فهناك جانب التعليم والإعلام ، وهناك الجانب الاجتماعي والجانب الاقتصادي . . . و . . . كلها فشلت ؛ لأنَّ الذين يخططون للأمة ، دأبوا على استيراد الحلول والتجارب من بلاد تختلف في أديانها وظروفها وكل ملابساتها عن العالم الإسلامي . . على حين أنهم تجاهلوا كل الحلول المستمدة من دين الأمة ، وأغمضوا عيونهم عن كل التجارب النابعة من ذات الأمة ، عبر تاريخها الطويل [1] .

ويظهر أنهم قاسوا المبادئ والأفكار على الأثاث ولعب الأطفال ، فجعلوا الاستيراد كله من باب واحد! وتركوا ما ينفع الأمة مما عند الآخرين في الجوانب العلمية والإدارية والفنية .

وإذا أراد المخلصون في إصلاح أوضاع الأمة والخروج بها من أزمتها الراهنة ، إذا ما أرادوا للجهود المبذولة نجاحاً ، فإنَّ عليهم أن يعملوا على تميّز الأمة ، بإبراز خصائصها ، وفضح كل دخيل يُراد به مزاحمة تلك الخصائص .

وتبعاً لذلك ، فإنَّ على دعاة الإصلاح أن يبينوا الجوانب التي يصح فيها الاقتباس ـ وهي الجوانب المادية والمدنية بشروط وضوابط معروفة ـ من الجوانب التي هي من خصائص هذه الأمة وهي سرّ تميزها ، والمسلمون هم أساتذتها ومعلموها للإنسانية ، وهي ما عدا الجوانب المادية والمدنية ، من العقائد والعبادات وروح المعاملات والأخلاق ، وما يتصل بها ويتفرع عنها . .

ويوم يتميز في حسّ أفراد الأمة ما هو من خصائص دينهم وأمتهم ، فيبحثون عنه فيما بين أيديهم ، وما هو عام فيستفيدونه ممن سبقهم وممن حولهم . . . يوم تصل الأمة إلى هذه المرحلة ، نكون قد حققنا إنجازات تثلج الصدر .

وبالمناسبة فإن آية الدخلاء لمن أراد أن يعرفهم بسيماهم . . آيتهم أن ترى أحدهم ينقل قيم الغرب ويحتفي بها ، ويلمز قيم أمته ورجالاتها ، يود لو أن بينه وبينهم برزخاً ،

---

(١) انظر: ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية ، للمفكر: مالك بن نبي ، ترجمة: عبد الصبور شاهين ، ص ١٠٢ ، مبحث (الشروط الأولية للتربية الاجتماعية) .

تراه يعظم إنجازات الغرب ويعتذر عن أخطائهم مهما كانت، ويضخم أخطاء المسلمين ويعممها، ويضيق ذرعا بمظاهر التدين. يفرح بكل متمرد على الثوابت، ويعُد شذوذه إبداعا، وزجره عن غيه قتلا للإبداع ومصادرة للحريات.

* **رابعاً: ومن الخطوات في (طريق الخروج بالأمة من الأزمة):**

الإيمان العميق بضرورة التغيير الشامل، على منهج الكتاب والسُّنة، ورفض الحلول الجزئية.

والحلول الجزئية تارة تكون بالاشتغال بجانب من جوانب الحياة، كالاقتصار على الجانب الأخلاقي وتزكية النفوس مثلاً، أو الجانب السياسي أو الاقتصادي... وهكذا.

وتارة تكون نتيجة القصور في فهم شمولية الإسلام، أو تعمد حصره وقصره، كما تفعل الأنظمة السياسية التي تحكم الشعوب الإسلامية اليوم.

إنَّ الإسلام دين ودولة، عقيدة وشريعة ونظام حياة، وكل محاولة لطرح جزئي لحل مشاكل الأمة، فلن تجتمع عليه الكلمة، وسيؤدي ـ حتماً ـ إلى تضخيم هذا الجانب أو ذاك على حساب الجوانب الأخرى، مع ما يحدث بسببه من الصراع والخصومة بين أنصار هذا الحل وأنصار الحلول الأخرى.. ثم إنه ليس هو الإسلام بصورته الشاملة التي أمر الله عباده بإقامته في الأرض.

وأعني برفض الحلول الجزئية، رفض تلك الحلول التي تتعصب لجانب واحد من الدين، وترفض ما عداه أو تهوّن من شأنه ـ بلسان المقال أو بلسان الحال ـ وترى أن ما تقوم به هو الدين، وكل جهد يقوم به غيرها فهو جهد باطل، لا يخدم الإسلام.

فهذا مرفوضٌ؛ لأنَّه يرفض الحل الشمولي الذي أمر الله به، ويشكّل عقبة في طريقه، ويكرس الفرقة، ويقف حجر عثرة في طريق وحدة كلمة الأمة.

أمَّا من يقوم بوسعه في خدمة الإسلام في جانب من جوانبه، وينذر نفسه لسد ثغرة من ثغراته، مع إيمانه بأهمية الجوانب الأخرى، وضرورة القيام بها ـ وإن كان هو لا يقوم بها ـ فهذا عمله مشكور، وينبغي تسديد نقصه.

بل حتى الذي ينذر نفسه للقيام بجانب من الحق، وإن كان لا يرى أهمية غيره، أو يرى أن الصواب أن يبدأ الإصلاح من عنده، لكن لا يقف حجر عثرة في وجه جهود الآخرين، فهذا يُسدد نقصه، وإن كان لا يوافق على رأيه وطريقته.

إنَّ الحل الشامل لمشكلات الأمة، أن تقوم المؤسسات العلمية والتربوية والدعوية والفنية، كلٌّ فيما يخصه، وكلٌّ فيما يُحسنه، شريطة أن تقوم كل مؤسسة بتزويد أفرادها

بالحد الأدنى من العلم الشرعي الضروري، وأن تتحرك كل مؤسسة مستصحبة الشعور بأنها جزء مكمّل للمؤسسات الأخرى في الأمة. وتتكفل المؤسسات العلمية والتربوية والإعلامية بتعليم أفراد الأمة وتربيتها وتزكيتها. وأهم ما يبدأ به: تطبيع العلم الشرعي بواسطة تعميمه وتقريبه للعامة (١).

إنَّ على من يروم خلاص الأمة، أن يؤمن بضرورة الحل الشامل؛ أي بضرورة أخذ الإسلام كله، وإن على «جميع المخلصين أن يدركوا أنه لم يعد يكفي اليوم الاعتماد على الجانب العقيدي وحده أو التشريعي وحده أو السلوكي وحده، لمجابهة الأزمات الحضارية والانتكاسات الفردية والاجتماعية التي يمرّ بها المجتمع الإسلامي، بل لا بد أن تتمشى الخطوط الثلاثة متكاملة متوازنة متعانقة، لمعالجة السقوط العقائدي والاجتماعي والأخلاقي فيه، تمهيداً لإحداث التغيير الإسلامي المنتظر» (٢).

ولنكن جميعاً على ذكر من أن الإسلام لم تقم له دولة وسلطان إلا يوم كان هذا الفهم الشمولي هو المسيطر على أفراد الأمة، وبقدر ما انحسر هذا الفهم وتجزَّأ، ابتعدت الأمة في مجموعها عن تمثيل الإسلام، وتبع ذلك ما تبعه من انحسار قوتها وقيمتها.

ثم إنَّه لا يلزم من الإيمان بضرورة الحل الشامل، معالجة القضايا كلها دفعة واحدة، فهذا ما لا يُستطاع عادة، ومن هنا تأتي أهمية التدرج وتقديم الأولويات، وهي الخطوة التالية:

* **خامساً: التدرج وتقديم الأولويات في الإصلاح والتغيير:**

وهي خطوة كذلك، لا بد منها لكل عمل وإصلاح يُراد له الاستمرار.

إنَّ العجلة واختصار الخطوات في مجال التربية وإصلاح الأمم، أمرٌ ينطوي على محاذير، و«ربَّ عجلة تهب ريثاً».

وقد يستثقل (التدرج) من قلّت خبرته ومعرفته بطبائع النفوس وحجم العقبات، وغفل عن سنة الله في تغيير أحوال الأمم، خصوصاً إذا كان ممتلئاً حماساً وغيرة، ورأى الفساد ضارباً أطنابه في ربوع العالم الإسلامي.

وينفد صبره حينما يرى هذا الحصار المضروب على دعاة الإسلام، وعلى كلمة الحق، وعلى الجهود المخلصة الفاعلة.

---

(١) سيأتي لهذه النقطة بسط وتفصيل في الفصل الثاني من هذا الباب، بإذن الله تعالى.
(٢) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ص ٩٩، بتصرف يسير.

ولكن فقه السنن في هذا المجال يؤكد ـ برغم ذلك ـ ضرورة التدرج والمرحلية في تغيير أحوال الأمة نحو الأحسن، وذلك لأمور، منها:

ـ أنَّ (التدرّج) هو الموافق لطبائع النفوس، فإنَّ انتقالها فجأة من حال إلى حال، لا يمكن أن يتم، ولو حدث ذلك لعارض، فإنّه لا يمكن أن ينفك من آثار سلبية جانبية، تظهر في ثاني أحواله. وإذا كانت تلك حال الأفراد، فما بالك بأحوال الأمم والشعوب.. لا شك أن الأمر أقرب إلى الاستحالة منه إلى الإمكان.

ولعل المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام قد ضرب الرقم القياسي في سرعة التحوّل، ومع ذلك فقد مكث النبي ﷺ ـ وهو المؤيد من ربه ـ ثلاثة وعشرين عاماً حتى وافاه الأجل، وهو يربي أصحابه ويزكيهم، ويعلّمهم الكتاب والحكمة.

ولا قيمة لتغيير يُفرض فرضاً، ولا ينبع من قناعات النفوس، وأي تغيير من هذا القبيل يعد جسماً غريباً تلفظه الأمم، حالما تزول ملابساته.

ولعل أقرب مثال على ذلك: حال الجمهوريات الإسلامية التي وقعت تحت الاحتلال الروسي، وما لقي أهلها من محاولات شرسة وقاسية للتذويب وغسيل المخ.. وما إن زال الكابوس حتى عادت تلك الجمهوريات تبحث عن هويتها.

ـ والتدرج هو الذي ينسجم ـ على وجه الخصوص ـ وحال العالم الإسلامي، الذي يعيش عُقد الجهل والفقر والتخلف، ويعاني مشاكل مزمنة من الكبت والحرمان، وهي مشكلات عميقة الغور.

فتحتاج الأمة إلى أن تراجع دينها، وتكتشف طاقاتها المعطلة، وتميز بين عدوها وصديقها في زحمة التضليل الإعلامي الموجه، وتعيد قراءة تاريخها بعد طول تشويه، وتبني مؤسساتها الدعوية والتربوية والعلمية والإعلامية على أسس صحيحة.. وكل ذلك لا بد له من فترة زمنية كافية، ولا بد في تحقيقه من مرحلية وتدرج تقتضيهما منطقية البناء.

ـ والتدرج في الإصلاح ضرورة تقتضيها مصلحة الدعوة الإسلامية الوليدة، التي بدأت تشق طريقها وسط مخاطر الأقربين والأبعدين. الذين لم يقبلوا التعايش مع الإسلام المستضعف المسالم، فكيف يتقبلونه دينا فاعلا حركيا تغييريا ؟.

لقد واجه العالم الإسلامي عقوداً من السنين كانت تكرس فيه المبادئ العلمانية والقومية، ولقي الإسلام والدعاة إليه، من التشويه والتجاهل شيئاً لا يكاد يخطر على بال، فإذا ما قورن ذلك بحال عامة الأمة المتردّي.. أدركنا كم نحن بحاجة إلى الوقت.

ـ ومع ذلك ، فإنَّ من الأهمية بمكان ، أن ندرك جيداً أن التدرج أمرٌ نسبي ، يتماشى وحالة الأمة ، وتطورات الأوضاع ، وليس فترة زمنية ثابتة ، بل هو أمر تحكمه ظروف الأمة وأحوال الدعوة .

ولعله قد اتضح مما سبق ، أن التدرج ليس نقيض الشمول ، ولكنه يعني البدء بالأولويات ، وأن تكون حركة الإصلاح مواكبة لقدرات الأمَّة وظروفها متمشية معها ، كما سبق ، مع التخطيط لاستكمال جوانب النقص متى أمكن ذلك .

وقد تبيَّنا في المبحث الأول ، عند الحديث عن (تحديد أزمة الأمة وتشخيصها) أن للأزمة أسباباً ، ولها أعراضاً ومظاهر ، وأنها تنتهي بمراحل .

وعرفنا أن: الأصل أن البدء يجب أن يكون بمعالجة الأسباب ، وهي (ما بالأنفس) من ضعف الإيمان الصادق ، وقلة العلم النافع ؛ لأنَّ ما بالأنفس هو الذي يفرز أنواع السلوك ، التي تتشكَّل ـ إذا كثرت ـ لتصبح أعراضاً ومظاهر جماعية لتلك الأسباب . وأنَّ أي جهد يبدأ بعلاج المظاهر دون اجتثاث أسبابها ، فهو جهدٌ ضائع!

فالمجتمع النظيف الملتزم ينفي عنه الخنا والفساد ، دون أن تتدخل قوة قاهرة لحجزه عنه ، وبعكس ذلك المجتمع المنحرف يحتال بشتى الوسائل لممارسة الفساد وتحصيله ، مهما وُضِعَت في وجهه القيود والعراقيل ، بغض النظر عن حالة الغنى والفقر داخل المجتمع .

نعم ، إنَّ تقليص فرص الفساد والانحراف ، يساعد على اجتثاث أسبابه بصورة كبيرة ، وهو أمرٌ لا بد من القيام به ، ولكنه لا يغني ـ بحال ـ عن معالجة الأسباب ذاتها . وفرق كبير بين تقليص فرص الفساد ، الذي هو من باب سد الذرائع . وبين تجفيف منابعه من النفوس ، الذي يعني خلق الإرادة الذاتية لرفض الانحراف ومقاومته . مع أن كليهما ضرورة ، ولا يغني أحدهما عن الآخر .

سادساً: ومن الخطوات في طريق (الخروج بالأمة من الأزمة):

ضرورة التفريق بين الإسلام (نصوص الكتاب والسُّنة)، وبين واقع المسلمين العملي.

وهذه الخطوة من الضرورة بمكان لكل عمل تصحيحي ، يُراد من ورائه إخراج الأمة الإسلامية من دائرة التخلف والمرض .

إنَّ القرآن الكريم ، وما صحَّ من سنة رسول الله ﷺ وسيرته ، هما أصل هذا الدين ومصدره ومرجعيته ، وهما المبرآن من الخطأ والهوى . فإنَّ الله قد تكفل بحفظ كتابه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

وأخبر أنه حق كله: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] . ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء: ١٠٥] .

وأخبر عن عصمة المبلِّغ عنه ﷺ بقوله: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ١ ـ ٤] .

وأمر المؤمنين أمراً عاماً بأخذ كل ما جاء من طريقه ﷺ، وترك كل ما نهى عنه بقوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧] .

وقال ﷺ عن نفسه: «ألا إنِّي أُوتيتُ هذا الكتاب ومثله معه» (١) .

وما سوى هذين المصدرين فعمل بشري ، غير معصوم ، فيه الخطأ وفيه الصواب ، و«كلٌّ أحد يُؤْخَذُ من قوله ويُتْرَكُ إلا المعصوم ﷺ» (٢) .

ومن هنا ، فـ «إنَّ منهج التغيير الإسلامي . . لا بد أن يضع حداً فاصلاً واضحاً بين ما هو وحي إلهي وبين ما هو جهد بشري ، أو فكر بشري أو تصور بشري لمسائل حول الوحي الإلهي وتفسيره وشرحه في إطار قواعده وأصوله ، وفي ضوء المراحل التاريخية المتتابعة» (٣) ، فضلاً عن الجهود البشرية التي لم تبنَ أصلاً على نص من كتاب أو سُنَّة .

وقد أدَّت عمومية المصطلحات ، مثل (الفكر الإسلامي) و(التراث الإسلامي) إلى نوع خلط وتداخل بينهما . وساعد في تكريس هذا التداخل بين ما هو حق مطلق ، وبين ما هو اجتهاد محتمل . . . ساعد في تكريس هذا التداخل ما تراكم من اجتهادات الرجال وآرائهم عبر القرون ، ومنها ما كان مخالفاً للحق متعصباً لآراء الرجال .

وقد كان هذا الخلط والتداخل غير مقصود ـ خصوصاً عند الراسخين من العلماء والمفكرين ـ ولكن تلقف ذلك من يحسن ومن لا يحسن الكلام في مسائل الشريعة ، ومن هو حسن القصد والنيَّة ، ومن أضمر الكيد وتعمَّد الخلط وإحداث الفوضى واللَّبس بين ما هو حق في ذاته ، وهو نصوص الكتاب والسُّنَّة ، وبين آراء الرجال وأقوالهم .

---

(١) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٣٠ ، ١٣٢) . والترمذي في العلم ، ح رقم (٢٦٦٦) ، وقال: «هذا حديث حسن» . وأبو داود في سننه في السُّنَّة ، باب: لزوم السُّنَّة ، ح رقم (٤٦٠٤) وهذا لفظه . وابن ماجه في المقدمة ، باب: تعظيم حديث رسول الله ﷺ ، ح رقم (١٢) . وقال الأرناؤوط في تخريجه لأحاديث جامع الأصول (١/ ٢٨١): «وسنده صحيح» .

(٢) قالها الإمام مالك بن أنس ، إمام دار الهجرة ، رحمه الله . انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٩٣) ، ونصها: «كُلُّ أحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إلاَّ صَاحِبِ هَذَا القَبْرِ ﷺ» .

(٣) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري ، ص ٢٣ .

ومن هذا الباب، تجرّأ أرباب المذاهب المادية والعلمانيون على «تسميتها معاً بـ (التراث). فهؤلاء عندما يريدون أن يراجعوا هذا التراث، يراجعونه من حيث هو كلّ في نظرهم لا يتجزأ. والنتيجة الطبيعية عند هؤلاء، أن الوحي الإلهي يخضع للمرحلة الزمنية، فهو من التراث الذي يتعلّق بالماضي» (١).

ثم إنَّ الخلطَ بين الإسلام المعصوم، وبين واقع المسلمين بكل ملابساته، يؤدي إلى التسوية بينهما في النظر والحكم، بحيث تصبح أخطاء المسلمين محسوبة على الإسلام، أي أنها تلبس لبوساً شرعياً، ويضيع تميز الإسلام وصفاؤه بسبب احتساب أخطاء المسلمين عليه... وقد أدّى ذلك إلى الصَّدِّ والتنفير عن سبيل الله ودينه، ومايزال تكأة لكل متصيد وشانئ.

ولا بد لمن يتصدّى لإخراج الأمة المسلمة من أزمتها، أن يعمل على تحرير الفرق بين هذين، وتجليته للأمة، ليخلصها من هذا التشويه والخلط الشائن.

ونحن إذا فعلنا ذلك، فإنّنا نحقق ـ إضافة إلى ما سبق ـ أموراً؛ منها:

* إعادة ثقة الأمة بالإسلام الحق، الذي شوه جماله تراكمُ أخطاء القرون.

* إعادة فتح ملف التاريخ الإسلامي، والنظر إليه على أنه عمل وجهد بشري قابل للتقويم والنقد، وليس من الحق المطلق الذي يجب التسليم لكل ما فيه.

* قطع الطريق أمام أولئك الذين يجعلون من واقع المسلمين حجّة لضرب الإسلام وتشويهه، والتشكيك في قدرته على إدارة شئون الحياة.

* وهذا الجهد من شأنه أن يقضي على حدّة التعصب للرجال وآرائهم، ويشجع على التمحور حول الحق، بغض النظر عن قائله، فإنّه قد تقرر أن الحق لا يعرف بالرجال، وإنّما يُعرَف الرجال بالحق. وهذه كلها وغيرها، أمورٌ ضرورية لاستئناف الحياة الإسلامية في واقع الأمة.

* فضلاً عن أن هذا العمل ـ التفريق بين الإسلام وواقع المسلمين ـ بحدّ ذاته، دين ندين الله بالقيام به؛ لئلاّ يختلط الحق بالباطل.

---

(١) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ص ٢٤.

*** سابعاً: ومن الخطوات في سبيل إخراج الأمة الإسلامية من أزمتها الراهنة:**

التعامل مع مستجدات العصر من منطلق شرعي، وبوعي وبصيرة، وبروح عالية، واعتداد بالشخصية الإسلامية المتميزة [١].

والتعامل مع هذه المستجدات، يشمل:

* بيان حكم الشرع فيها، وتحديد موقف الأمة منها على ضوء ذلك.

* توجيه الأمة إلى تحصيل النافع منها بحسب الحاجة، وعلى قدر الطاقة.

أي: أنْ نَفْقَهَ الواقعة - وهي هنا الشيء الجديد المستحدث - وأن نستفيد منها.. وبهذا تعود للفقه الإسلامي مكانته، ويخرج من عزلته المفروضة عليه، ليمارس دوره الطبيعي الريادي، بقيادة الفقهاء، الذين يفترض فيهم أنهم أعرف الناس بمقاصد التشريع، ومصالح الأمة [٢]. إنَّ التطور سُنَّة الحياة «والإسلام بقواعده؛ ومنها العرف، والمصلحة المرسلة، والاستحسان، وسدّ الذرائع، وبمصادره وسِعَة مفاهيم نصوصه، يتسع لأنْ يحكم المجتمعات البشرية المتطورة في أوضاعها وتقاليدها وقيمها الاجتماعية.. فيقرّ الإسلام التطور الحميد ويتقبله، لأنَّه يتفق مع حكم الشارع وقصده، وينبذ كل تطور خبيث هدّام؛ لأنَّه بعيد عن قصد الشارع ومخالف لحكمه..

وقد ترتَّب على ما جد في الحياة المعاصرة من مخترعات وصناعات، وما جدّ من علاقات وارتباطات، ومعاملات مالية ومصرفية اقتضاها التطور، ترتب على ذلك مشكلات جديدة، يسأل الناس دائماً عن حكمها وموقف الإسلام منها..

ومن هنا، وجب معرفة حكم الشرع في كل جديد مستحدث، وموقف الإسلام منه بصورة واضحة بيِّنة، مدعمة بالدليل عن طريق العلماء المتخصصين..

لقد ازدهر الفقه الإسلامي حينما واجه الفقهاء كل ما جدّ في عصورهم، واستنبطوا حكم الله فيه بعين البصيرة، وإعمال الرأي... يقضون فيما جدَّ عليهم بما فيه مصلحة الناس، وما يتناسب مع البيئة؛ لأنَّ فقههم هو القانون الحاكم المطبق، وبهذا استطاعوا أن يواجهوا توسع دولتهم الكبير... وكان الفقه مسايراً للحياة غير متخلّف عنها» [٣].

---

(١) انظر: بحث «التحدي الحضاري وكيف نواجهه»، للدكتور/محمود محمد سفر، في «الإسلام والحضارة الغربية ودور الشباب المسلم» (٢/ ٣٧) وما بعدها.

(٢) انظر: ضوابط للدراسات الفقهية، لسلمان العودة، ص ١٠٥ وما بعدها.

(٣) وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية، للدكتور/محمد سلام مدكور. بحث ضمن كتاب: «وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية»، ص ٢٧٣، ٢٧٦، باختصار وتصرف. والكتاب مجموعة من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، عام ١٣٩٦هـ.

وكيف يتخلّف الفقه الإسلامي في حسّ الراسخين من أهله عن مواكبة أحداث الحياة وهم يقرأون مثل قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وهذا عام في شئون الدنيا والآخرة.

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «وهذه الآية ـ آية الإسراء ـ أجمل الله ـ جلا وعلا ـ فيها جميع ما في القرآن من الهدي إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال، لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدي إلى خيري الدنيا والآخرة» (١).

وحين يكون الفقه الإسلامي بهذه المثابة، نستطيع أن نحقق الكثير، و «أن تكون لدينا البصيرة والقدرة على حماية أنفسنا من الوقوع في شَرَك التقليد والمحاكاة للحضارات الغربية دون تفريق بين مزاياها ومساوئها، وأن نكون قادرين على حماية مجتمعنا الإسلامي ـ في طور نموه ـ من الأمراض التي أصابت مجتمعات الغرب، وما زالت تستشري فيها» (٢).

ومن جهة أخرى، ننفض عن المجتمع الإسلامي داء الجمود، ونقضي على فكرة الرفض المطلق، وهما آفتان قذف بهما طوفان الجهل إبان تقهقر حركة الفقه الإسلامي.

إنَّ الأمة الإسلامية اليوم، تحسّ بوطأة التحدي الحضاري لها، وتعيش مرارة التخلف العلمي والتقني والإداري.. والخطورة تكمن في أن مجرد إحساس الأمة بالتحدي الحضاري الذي تواجهه ـ لَمّا خلا من تلك القيود والضوابط في التعامل ـ فإنّه قد دفعها دفعاً أهوج إلى تقليد أعمى، وضاعف من الإحساس بالهزيمة الداخلية.

هذا بالضبط ما حصل لأمتنا في العصر الحديث. وما تزال الأمة ـ في مجموعها ـ تعيش بهذه الروح.

إنَّ من الفقه أن نستوعب مستجدات العصر، وأن نعلّم الأمة موقف الشرع منها جملة وتفصيلاً، وأن تُدعَى الأمة بمؤسساتها وأفرادها، على لسان علمائها وفقهائها واختصاصييها إلى تحصيل كل ما تحتاج إليه، وألا يكون تقدم وسائل الحياة من مقرونا بقيم العلمانيين والمتفرنجين، وكأنه شيء لا دخل للشرع والدين فيه.

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤٠٩) وما بعدها، وفيه تفصيل لكثير من المسائل، انطلاقاً من دلالة هذه الآية.

(٢) بحث «التحدي الحضاري وكيف نواجهه»، للدكتور/ محمود محمد سفر، في: «الإسلام والحضارة الغربية ودور الشباب المسلم» (٢/ ٣٩).

* **ثامناً: ومن الخطوات الواجب التنبه لها في مسيرة خلاص الأمة من أزمتها:**

أن نفقه الصعوبات والعقبات التي لا بد أن تواجهها الأمة الإسلامية في سبيل التغيير وفي مرحلة النهوض.

وهي صعوبات وعقبات متنوعة.. متنوعة في طبيعتها، ومتنوعة في جهتها.

وأذكرُ منها على سبيل المثال:

- العقبات الذاتية، التي تنبع من ذوات نفوس المسلمين الطيبين؛ من برود العاطفة، وضعف الإرادة، ومحدودية الوعي، والانشغال بأشياء الحياة ومتعها... وغير ذلك.

وهي أشد العقبات، واجتيازها من أصعب الصعوبات، وهي تحتاج إلى جهود ضخمة لعلاجها وتخطيها، وكثيراً ما تُهمَل استهانة بها، أو بسبب انصراف الجهود إلى غيرها. وكثيراً ما تخور العزائم دون بلوغ شأوٍ يُذْكَر فيها. وسواء كان هذا أو ذاك، أو كلاهما، فإنَّ النتيجة لا تتغير، وهي بقاء تلك العقبة، وبالتالي فساد كل جهد يُبْذَل حينئذٍ.

ومن هذه العقبات التي لا بد أن تواجهها الأمة في مرحلة النهوض:

- العقبات والصعوبات الداخلية، التي نمت وترعرعت في ظل الأوضاع الفاسدة في بلاد المسلمين، وتتمثل في المنافقين والعلمانيين والقوميين المتنفذين.. ممن عششت في أدمغتهم أفكار ومناهج غربية أو شرقية كافرة لاتؤمن بالفكرة الإسلامية سبيلا للنهوض.. وهؤلاء يحتاجون إلى مواجهة متواصلة وجهود ضخمة؛ لكشف حقيقتهم، وتعرية مواقفهم، وتمييزهم لتعرفهم الأمة بسيماهم.

- ومنها: العقبات والصعوبات الخارجية، المتمثلة في القوى الكافرة من اليهود والنصارى والوثنيين... وسائر ملل الكفر والشِّرْك.

وهي قوى ضاربة ضخمة، دائمة العداوة، تتربص بالأمة الدوائر.. وتحتاج مواجهتها إلى خلق روح الاستعلاء الواثق في قلوب المسلمين تجاهها، فقد اختلط الأمر! كما تحتاج إلى رصّ الصفوف وجمع الكلمة وامتلاك القوّة..

- ومنها: تفرّق كلمة المسلمين عموماً، وعلماء الأمة ودعاتها خصوصاً، بسبب الاختلاف في بعض المسائل الاجتهادية، العلمية أو العملية، وفي المناهج وطرائق الإصلاح.. واضطراب الميزان عند كثير منهم. وتفرق كلمتهم، لأسباب؛ منها:

* الجهل بحدود ما يسوغ ويُقبل فيه الاختلاف، من المسائل الشرعية والوسائل المأذون فيها، وما لا يجوز فيه الاختلاف، ولا يشمله الحد المأذون فيه.

* وضيق عطن وأفق كثير ممن يمارس الإصلاح أو يدَّعيه، فلا تتسع صدورهم لوجهات النظر الأخرى - في حدود ما يؤمنون هم نظرياً بأنه مما يسوغ فيه الاختلاف - ولا يقبلون من مخالفيهم إلا أن يروا رأيهم. وينسون أن من حق الآخرين أن يعاملوهم بالمثل، وأن اتِّباع مخالفيهم لهم ليس أولى من العكس.

ولم يزل الصحابة ﷺ، فمن بعدهم من العلماء الراسخين في العلم يختلفون في مسائل الاجتهاد، ثم تتسع صدور بعضهم لبعض، ولا يكون شيء من ذلك الاختلاف سبباً للعداوة والفُرْقَة.

وقد لَخَّصَ الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - منهج الحق في مثل هذه المسألة بقوله: «هذا الذي نحن فيه رأي لا نجبر أحداً عليه، ولا نقول: يجب على كل أحد قبوله بكراهية. فمن عنده شيء أحسن منه، فليأتِ به»[1].

* **ومنها**: انزعاج طوائف منهم بوجود الاختلاف ذاته، فيتحركون مسكونين بهاجس اجتثاث دابر الاختلافات، ولا يقبلون من أحد أن يتسع صدره لآراء الآخرين.. وربما كانوا من القاعدين، الذين أحسن أحوالهم الجهر بأسفهم على اختلاف ذات بين المسلمين، دون تمييز للمحق من المبطل منهم، لبُعدهم عنهم.. وهؤلاء يحاولون محالاً، ويرومون القضاء على شيء هو من سنة الحياة والأحياء.

ولهذا، فهم - لو تأمَّلوا في أمرهم - يشكّلون طائفة جديدة تضاف إلى الطوائف الأخرى المختلفة!

وفرق بين التحذير من الاختلاف وبيان مفاسده وجرائره على الأمة.. وبين حشر المختلفين جملة في زمرة واحدة، وذمّهم لأنهم مختلفون، والاختلاف مذموم[2].

وتشكل هذه العقبة - أعني اختلاف كلمة المسلمين - خنجراً مسموماً في خاصرة الأمة، هو أسرع إلى فسادها من أي آفة أخرى.

---

(١) أدب الاختلاف في الإسلام، طه جابر فياض العلواني، ص ٧٥ عن كتاب «الانتقاء في فضائل الثلاثة الخلفاء»، لابن عبد البر القرطبي، ص ١٤٠.

(٢) ولا شك أنَّ الذي أوصل أمثال هؤلاء إلى ذمِّ المختلفين جملة، هو أنهم بنوا هذه النتيجة على مقدمة خاطئة، هي: أنَّ الاختلاف مذموم. والحقُّ أنَّ الاختلاف لا يذمُّ بإطلاق، ولا يُحْمَدُ بإطلاق كذلك. بل المذموم منه، هو الاختلاف في الحقِّ البيِّن أو مخالفته، أو المخالفة بلا بيِّنة، بل بالهوى والجهل... أو ما شابَه ذلك. أمَّا مخالفة المبطلين والتمسّك بالحق وإن خالفك الناس، فهذا يَصْدُقُ عليه مسمّى «الاختلاف»، ولكنه اختلافٌ محمودٌ مأمورٌ به.

ومن هنا، فإنَّ اجتماع كلمة المسلمين عامة، وعلمائهم خاصة، أو قل: استعدادهم للتعاون، يحتاج إلى جهود مضنية ومساعٍ حثيثة مخلصة وإلى صبر ومصابرة [(١)].

ومن العوائق والعقبات التي تواجه المصلحين في مرحلة النهوض بالأمَّة:

ـ قلة المنابر الإسلامية الأصيلة، مع الحصار المضروب عليها؛ مما يشكل عقبة في طريق إيصال كلمة الحق، وكشف زيف الباطل للناس.

ولعل في انتشار القنوات الفضائية ما يعين على تجاوز هذه العقبة، إذا أحسنت الإفادة من هذه الفرصة . وإلا فهي سلاح ذو حدين.

* ومنها: الحال التي عليها أكثر شعوب العالم الإسلامي من الجهل والفقر، ومن التحلل والفسوق.

* **ومن هذه العقبات** ـ وهي نتاج ما سبق ـ غياب القدوة الصالحة المؤثرة في القضايا العلمية والعملية، بسبب قلتهم، وتعمد إخفائهم، وتشويههم.

وهذه العقبة ـ في نظري ـ من أكبر العوائق وأكثرها خطورة. وإن ظن أكثر الناس أنها ليست بهذه الأهمية.

هذه العقبات والعوائق، وغيرها مما سبق الحديث عنه في أكثر من موضع، وغيرها مما لم أذكر... كلها عقبات وعوائق وصعوبات يجب استصحابها واستبطانها لكل من يتصدَّى لتغيير واقع الأمة.

والذين يظنون أن طريق الإصلاح طريق مذللة سهلة المسالك، أو يبخعون أنفسهم إذا لم تكن نتائج جهودهم قد أتت على كل المشكلات فحسمتها... هؤلاء وأولئك لم يعرفوا طبيعة الإسلام، ولا قرأوا تاريخ المسلمين بصفة خاصة، وتاريخ العالم بعامة.

﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

إنَّ هذه العوائق والعقبات، هي ابتلاءات وعقوبات بسبب الذنوب، لا تزول إلا بالمجاهدة والاستصلاح، والناس لم يجتمعوا على الحق الخالص في زمن النبوات، ولم يخلص المجتمع الإسلامي من المنافقين والمرجفين وضعاف الإيمان في وقتهم، فكيف يطمع طامع في ذلك فيمن بعدهم؟!

* **تاسعاً: ومن الخطوات في طريق الخروج بالأمة من أزمتها ومحنتها:**

---

(١) انظر: أدب الاختلاف في الإسلام، طه جابر فياض العلواني، مقدمة المؤلف، ص ٧ وما بعدها.

اعتماد الدراسات الاجتماعية والنفسية والتربوية الهادفة في تشخيص أحوال شعوب العالم الإسلامي، وتوصيف مشكلاته.

وهذه الدراسات على جانب كبير من الأهمية، لأنّها تساعد ـ بصورة كبيرة ـ على توفير معلومات دقيقة عن أحوال العالم الإسلامي جملة، وأحوال كل دولة منه على التفصيل، فإنَّ ما يصلح من الوسائل في هذا البلد، قد لا يصلح في ذاك، وما يحتاج إليه أهل هذه الجهة، قد لا يحتاج إليه آخرون . . . وهكذا.

وكما تقوم هذه الدراسات برصد الجوانب السلبية والحاجات، فهي كذلك تسجل الإيجابيات الموجودة عند هذا الشعب أو ذاك، لتنميتها وتسخيرها لمصلحة الأمة.

إنَّ من الفقه في مجال تغيير واقع الأمة، أن يكون هناك مسح اجتماعي للتعرف على طبائع الشعوب وحاجاتها ومزاياها؛ من أجل تقديم خدمات أفضل لها، ومن أجل تسخير أفضل لطاقاتها.

وقد استفاد الغرب ـ وما يزال ـ من هذه الوسيلة في غزو الشعوب في أفكارها، واستنزاف خيراتها، كما استفاد منها في أعمال التطوير وتلافي السلبيات في دياره.

ولعلّي أضربُ لذلك مثلاً، بجانب من الجوانب الكثيرة التي تتطلب دراسة علمية، وتكوين رؤية صحيحة حولها، ألا وهو: قياس مستوى الإحساس بأزمة الأمة، ومعرفة الآراء في أسبابها في حسّ أفراد الأمة أنفسهم، على اختلاف مستوياتهم ومواقعهم.

ولستُ بصدد دراسة هذا الجانب دراسة ميدانية، ولكنها مقدمة نظرية مختصرة، وخواطر لما ينبغي أن تكون عليه دراسة في هذا المجال.

فأقول: حينما نتناول دراسة مستوى الإحساس بالأزمة أو المشكلة (بصفة عامة) في حسّ أفراد الأمة ومداركهم، ومعرفة آرائهم في أسبابها، على اختلاف مستوياتهم ومواقعهم، فإنَّ علينا أن نستبطن جملة قضايا ومسلّمات، منها:

* أن الإحساس بأزمةٍ أو مشكلة ما، يعني بالضرورة (الوعي) أو قُلْ: بداية الوعي بها، وأن انعدام الإحساس يعني (الغفلة وغيبوبة الوعي تجاهها).

* وأن التمييز بين أسباب الأزمة وأعراضها ومراحلها، يعني (وعياً متقدماً). وأنَّ انعدام التمييز بينها أو الخلط فيه، يعني (وعياً غامضاً ومشوشاً).

* وأن (نوعية الإحساس بالمشكلة) بين الفردية الضيقة، والقطرية الواسعة، والعالمية الأوسع. تعطي انطباعاً تفاؤلياً أو مخيباً لمن يتصدى لدراسة الواقعة . . . كما أن (نوعية الإحساس) تكشف عن (نوعيةٍ في الوعي) أيضاً.

من هنا نبدأ . . .

وقد نفاجأ بما لم نكن نتوقع ، سلباً أو إيجاباً! ولكن لا بد من مواجهة النتائج بما يمليه (فقه الواقعة) لا بما يُرضي العواطف أو يغضبها .

* ولا ينبغي لنا أن نستبق الأحداث فنفترض مستوى معيناً للوعي أو الإحساس بأزمة الأمة ، أو بجانب من جوانبها ؛ لأننا حينئذٍ نخالف أساساً من أسس فقه الواقعة . وحتى لو افترضنا وتوقعنا مستوى معيناً فإنَّه لا يصح بحال أن يؤثر ذلك على مجرى الدراسة أو يتدخل نفسياً في تفسير أو صياغة بياناتها أو نتائجها .

* ولهذا فسوف نعمد إلى رصد بعض النصوص والظواهر والحوادث ؛ لنشترك معاً في نهاية المطاف في قراءة الْمُحَصِّلَة وإصدار الحكم . .

فكيف يحسّ العالم الإسلامي بهذه النكسة والنكبة . أو قل هذا التخلف والضعف المستحكِم؟

ما طريقته في تفسيرها؟

أهي شيء واحد، أم أن لها أسباباً ومظاهر، وأنَّها مرَّت بمراحل؟

* شعوب العالم الإسلامي ـ كغيرها ـ تتكون عادة من طبقات ثلاث: طبقة الساسة المتنفذين ومن يدور في فلكهم من الرأسماليين ، وطبقة العلماء والمفكرين والقياديين ، وطبقة العامة . والعامة فيهم الأغنياء والفقراء ، والكبار ومن دونهم ، والذكور والإناث .

* وإذا استطعنا معرفة مستوى إحساس هذه الطبقات الثلاث ، ونوعية هذا الإحساس ، وكيف يفسّر كل منهم (أزمة الأمة) ، فقد نتمكّن من تكوين رؤية صحيحة تساعد في اجتياز الأزمة وتخطّي المحنة .

* ولا بد قبل البدء في استعراض بعض الأمثلة أن نعرف المقصود بكلمة (الإحساس أو الوعي بالأزمة) ، فقد يكون عند البعض بدهياً ، ولكن لا بد من تحديد المدلول .

* نعني بكلمة الإحساس والوعي بالأزمة: إدراك أبعادها والشعور بخطرها . . بغض النظر عن ذات الشخص: هل عانى منها بشخصه واكتوى بنارها أو لا ؛ بمعنى أن شخصاً ما قد يكون غنياً موسراً ، فهل يعيش مشكلة الفقر والعوز التي يعاني منها العالم الإسلامي على أنها همٌّ من همومه؟ وهل لها مكان في حسّه ، وهل لها نصيب من ماله ، بعد أن نجا منها بنفسه؟ وهل الفقر مشكلة في نظره أم هي مظهر لها؟ . . . وهكذا .

وهذا الفقير الْمُعْدَم ، الملتزم سلوكياً ، هل يعيش مشكلة الفساد الاجتماعي والانحراف الخلقي الضارب بأطنابه في ربوع ديار المسلمين؟ . . . إلى آخر ما هنالك .

* ولستُ أعني بالإحساس والوعي، مجرد قياس نسبة وقع المأساة في بؤرة الشعور لدى الأفراد، ومدى الامتعاض منها، فإنَّ هذا يأتي تبعاً... ولو كان هو المقصود لكان بحثنا في آثار الأزمة، لا في مستوى الإحساس والوعي بها.

هذا تصور موجز لِمَا ينبغي أن تؤسس عليه دراسة من هذا النوع، والغرض التمثيل، والتذكير بأهمية مثل هذه الدراسة.

وبعد، فهذه ـ باختصار ـ هي أهم الخطوات التي يقتضيها الفقه في سنن الله، لمن أراد سلوك الطريق إلى (خلاص الأمة).

وقد تركتُ بسط بعض الجوانب والخطوات، مثل تطبيع العلوم الشرعية، والتربية على أهدا ف الأمة، والعمل على إيجاد القدوة الصالحة، وربط عجلة الإصلاح بالسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي.. ونحوها؛ لأنّني سأعرض لها بشيء من التفصيل في الفصلين القادمين بإذن الله تعالى.

وإنَّ من الفقه في سنن الله، أن نعلم أننا كما نحتاج إلى التأمّل والتفكير العميق، والسير والتتبع، والتنظير العلمي، من أجل تحديدٍ أدق لطبيعة أزمة الأمة وأبعادها، واتخاذ أنجع الوسائل والأساليب للوصول إلى المقاصد والأهداف.

إنَّ من الفقه أن نعلم أنّنا كما نحن محتاجون إلى ذلك كله، فإنّنا كذلك إلى تحويل ذلك إلى ممارسة عملية وواقع مشهود أشد احتياجاً، بل أقول: إنَّه لا قيمة لشيء من ذلك إذا لم يكن قابلاً للتطبيق من جهة، وأن ما نقوم به مقدمة له ومَعْبَرٌ إليه من جهة أخرى.

فعلام إن لم أشف نفساً حرة يا صاحبيّ أجيد حمل سلاحي؟

أمّا مجرد العلم بالشيء والتوصيف له والحديث الفارغ عنه، فليس فيه إلا دغدغة المشاعر المعنّاة، لتستنيم للضيم وترضى بالجهل، وهي تبدأ من حيث تنتهي، وتنتهي إلى حيث بدأت. ثم إنه إقامة للحجّة على الأمة في الدنيا وشاهد على ما بها من الوهن.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

ومن هنا، فإنَّ مشوار الإصلاح لم ينتهِ عند فقه السُّنن في حياة الأمم فقهاً نظرياً، ولا ينبغي له أن ينتهي قبل أن نبلغ به جزاءه الأهم وغايته، بطرح الأساليب والكيفيات التي نترجم من خلالها الأقوال والآراء إلى مواقف وأفعال إيجابية منتجة.

فإلى هذه المحاولة. إلى الفصل الثاني: **التفاعل مع السُّنن وتطبيقها**.

* * *

الفصل الثاني

التفاعل مع السنن وتطبيقها

وأعني بالتفاعل مع السنن: التمازج النفسي والشعوري مع خطوات الإصلاح، بحيث تصبح جزءاً من مشاعر أفراد الأمة وإحساسهم، وليست شيئاً أجنبياً منهم، تمهيداً لتحقيق النقلة المنشودة في عالم الواقع.. مثلما تمتزج السوائل المختلفة، ليخرج من مجموعها مادة نافعة، لا نحصل عليها إلا من هذا المزيج.

وأعني بتطبيق السنن: تحويل النظريات والخواطر والنصوص والآراء إلى سلوك وواقع، نتيجة التفاعل بين (مجموع قدرات الأمة، وخطوات الإصلاح وبرامجه).

وما لم توجد قناعة كافية، بل شدة القناعة ـ على مستوى الأفراد ـ لم يحصل التفاعل الإيجابي البنَّاء.

وما لم يتحقق هذا الأخير، فلا أمل في تطبيق خطوات الإصلاح المأمول، بصورة صحيحة سليمة.

وليست هناك حدود فاصلة بين عملية (التفاعل النفسي) و(التطبيق السلوكي الواقعي) لخطوات الإصلاح، ولكن هناك مظاهر يُستدل بها على حصول ذلك من عدمه.

فالإصرار والمثابرة وتكرار المحاولة، والإبداع وإتقان الأشياء، والتخطيط السليم، وعدم التسرع بغية اختصار الخطوات بصورة غير طبيعية.. وما شابه ذلك، كلها دلائل على قوة التفاعل بين الأشخاص والأفكار، بصورة صحيحة؛ نتيجة شدة قناعة الأشخاص بتلك الأفكار.

والعكس صحيح، فاليأس والملل والفشل المتكرر، وعدم الإبداع، وإتيان البيوت من ظهورها بغية اختصار المشوار.. ونحو ذلك، كلها مؤشرات على وجود فصام نكد بين الأشخاص والأفكار؛ أي أن الأفكار ليست محل قناعة عند الأشخاص، وبالتالي ينعدم الحماس والإبداع والصبر. ويظهر ذلك في الواقع والسلوك (التطبيق) بصورة شك وتردّد، أو فشل وهزيمة، أو تدنٍ في مستوى الإنتاج أو الجودة. أو ما شابه ذلك من المظاهر.

وإذا كان فقه السنن يمثل ـ بصورة أساسية ـ مرحلة (العلم) فإنَّ التفاعل معها وتطبيقها يمثل ـ بصورة أساسية أيضاً ـ مرحلة (العمل بالعلم)، ولا يصلح أحدهما دون الآخر، كما لا غنى عنهما معاً.

ومن تأمّل طريقة القرآن وجد أنه كثيراً ما يقرن بين العلم النافع والعمل الصالح على جهة المدح لمن جمع بينهما، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]. وقوله: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقوله جل وعلا: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]... إلى غير ذلك من الآيات.

وهؤلاء الجامعون بين العلم النافع والعمل الصالح، هم أهل الصراط المستقيم والطريقة المحمودة في الدنيا وفي الآخرة. أمّا من أعرض عن واحد منهما، فهم مذمومون؛ لأنّهم مغضوب عليهم بتركهم العمل بما عندهم من العلم، أو ضالون بترك تعلّم العلم النافع، والتعبّد لله بالجهل والضلال. والله يذكرهم في القرآن على جهة الذم لهم والتحذير منهم ومن سلوك سبيلهم.

وأخبر ـ سبحانه ـ أن اليهود مغضوب عليهم؛ لأنّهم علموا ثم لم يعملوا بعلمهم، وأن النصارى ضالّون؛ لأنّهم لم يعبدوا الله على علم، بل عبدوه على جهل وضلال، عبدوه بالبدع.

ولهذا أمر المسلم أن يستعيذ بالله من حال كلتا الطائفتين، وأن يسأل ربه الهداية إلى الصراط المستقيم، وجعل هذا في سورة الفاتحة، التي يقرأها المسلم في كل ركعة من

صلاة ؛ فريضة أو نافلة ، وذلك قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ ، ٧] .

والصراط المستقيم هو الجامع بين العلم النافع ، وهو الإيمان وسائر ما يقرب إلى الله من العلوم ، والعمل الصالح ، وهو العمل بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ ، وهو يشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح(١) .

وبهذا يتبيَّن لنا ، أن العلم النافع والعمل الصالح ، يشمل الدين كله .

وأقبح مثلين ذكرهما الله في كتابه ، هما مثلان مضروبان لمن علم ثم لم يعمل بعلمه .

قال سبحانه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥] . وقال: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۞ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ، ١٧٦] .

وإذ قد تبيَّن بما سبق منزلة العمل من العلم ، وأنه بمنزلة الثمرة من الشجرة ، والغاية من الوسيلة ، فما هي الوسائل والسُّبُل لتحقيق تفاعلٍ أمثل بين أفراد الأمة وبين خطوات الإصلاح ، بين الأشخاص والأفكار ، بين العلم والعمل به . نراه متجسداً في سلوكٍ حيٍّ وعمل مثمر وواقع مشاهد؟

لعل في صفحات هذا الفصل محاولة للإجابة عن هذا السؤال .

*** الطريق إلى تحقق تفاعل الأمة وتطبيقها للسنن الإلهية في الإصلاح.**

لعل مسار الحديث أن يتضح بالمقدمة التالية:

من المعلوم من طبائع النفوس ، أنه لا يحدث تفاعلٌ ما ، بين الشخص والفكرة ما لم تكن الفكرة محل قناعة من الشخص ، وبقدر هذه القناعة ، يكون الحماس للفكرة ومحاولة تمثلها وتطبيقها .

وأنه بقدر وضوح الفكرة ـ في ذاتها ـ وقوة المعرفة بها ، يكون تطبيقها أقرب إلى الصحة والسلامة .

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٤/ ٣٥) وما بعدها .

وبقدر وضوح الأهداف البعيدة للفكرة وسموها، يكون الإصرار وتكرار المحاولة والاستهانة بالعقبات وتذليل الصعوبات.

ومتى اجتمعت هذه الأمور في شخص أو أشخاص، حول فكرة أو مجموعة أفكار، تحقق الإبداع والإحسان.

وإذن، فهاهنا أربعة أمور، وإن شئت فقل: ثلاثة، والرابع نتيجة لاجتماعها:

١ ـ مدى القناعة (الإيمان) بالأفكار، وينتج عنه مستوى التفاعل معها. وهذه القناعة (الإيمان)، تتأثر قوة وضعفاً بـ:

٢ ـ مقدار وضوح ومعرفة الأفكار ـ في ذاتها ـ وهذا ينتج عنه سلامة التطبيق وحُسْن التمثيل لها.

٣ ـ وضوح الأهداف وسموها، وينتج عنه الإصرار والاستهانة بالأخطار وتذليل العقبات. وهو مستلزم للأمرين الأولين؛ لأنَّه ما لم تتضح الأفكار وتحصل القناعة المنتجة للتفاعل، لم تتضح الأهداف البعيدة، ولم يوجد الإصرار على تحقيقها، وتذليل العقبات في طريقها... وهل الأهداف البعيدة العامة إلا مستفادة من مجموعة الأهداف والقناعات الأولية القريبة؟ وهل سموها إلا من سموها وشرفها؟

٤ ـ واجتماعها في شخص أو أمة، يُنْتِجُ الإحسان والإبداع، وهو يمثل قمة التفاعل وأحسن صور التطبيق.

أي أن لكل منها ـ أي الأعمال ـ حدّا أدنى، وحداً أعلى، ووسطاً متفاوتاً. وتُقاسُ نسبة النجاح والإخفاق بنسبة القرب أو البُعْد من هذا الحد أو ذاك.

ويدرك هذا النجاح أو الإخفاق بالوقوف على آثارها في الواقع، ومدى تحققها.

ومن هنا، فإنَّ علينا إن كنا جادين في إصلاح أوضاع الأمة المتردية ـ بعد أن شخصنا مشكلتها وأدركنا حجمها ـ أن نعالجها باستصلاح الخلل الطارئ على الأمور السابقة، بصورة عملية.

وجِمَاعُ ما تستصلح به الأحوال بصورة مجملة:

* تربية أفراد الأمة بالعلم النافع والعمل الصالح وعليهما.
* وإيجاد المناخ الملائم لهذه التربية.
* وهذا وذاك، لا يتم تمامهما إلا بإزالة العوائق ومنع المؤثرات، التي تحول دون تحقيق ذلك بصورة كلية، أو تزاحمه وتقلل من ثمرته.

ويتفرع عن هذه الْجُمَل ويلزم لها من التفاصيل العملية ما لا يحصى كثرة . وسأذكر أهمها بعد إيضاح الأمور الأربعة السابقة بشيءٍ من البسط .

ولنتذكر دائما أن الإصلاح الذي نتحدث عنه ، هو إعادة الأمة الإسلامية إلى الحق الذي هو الإسلام على منهج أهل السنة والجماعة ، وعرض واقعها على نصوص الكتاب والسُّنة ، وتقويم هذا الواقع وتصحيحه على هدي من سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أصحابه وسيرة السلف الصالح .

وبعد ، فلنبدأ الحديث عنها ، واحدة واحدة .

ففيما يتعلَّق بمدى قناعة (إيمان) عامة أفراد الأمة بـ (الإسلام) كدين شامل كامل ، عقيدة وشريعة وأخلاقاً ونظام حياة ، وأنه صالح لكل زمان ومكان ، وقادر على حل كل مشكلات الحياة ، ومواكبة التطور والتقدم المادي ، بل وقيادته ، وتحقيق الأمن والرخاء والسعادة للإنسان . . . إلى آخر ما ينطوي عليه من مزايا ، وما يتفرَّد به من خصائص لا غنى للبشرية عنها .

أقول: إنَّ الأمة الإسلامية اليوم تعاني ـ في مجموعها ـ من خلل كبير في هذا الجانب ، نتيجة الغزو الفكري المركَّز ، والتشويه المتعمَّد لتعاليم الإسلام وأحكامه ، ونتيجة لتخلف المسلمين أنفسهم في واقعهم السياسي والاقتصادي والعسكري . . . وغير ذلك .

وخلاصة هذا الإخطبوط الشيطاني: هو إلصاق كل نقائص المسلمين وأخطائهم بذات الإسلام ، وإيهام المسلمين أنفسهم بأن ما أصابهم هو بسبب الإسلام الذي يؤمنون به .

وقد أحدث ذلك كله اضطراباً وشكّاً خامر نفوس الكثرة الكاثرة من المسلمين ، وظهر على فلتات ألسنة بعضهم ، وتجسد في أكثر أعمالهم ومواقفهم .

والإيمان الجازم ، أعني (الاقتناع) بالإسلام ، إيمانان:

إيمان مفصّل واعٍ ذو حرارة وتأثير ، وهو حظ القلَّة ـ بل الندرة ـ من خلاصات المسلمين .

وإيمان مجمل غامض ذو تأثير محدود ، وهذا الضرب هو حظ أكثر المسلمين اليوم من الإسلام .

وأبرز مظاهر هذا الأخير في الواقع، أنه يميز المسلمين بالهوية، وببعض الشعائر التعبدية، والأحوال الشخصية، وبشيء من العواطف الإسلامية، يمكن استثارتها عند بعض الأحداث الكبيرة الواضحة.

وقد اختلط بهذا الإسلام، ما لا يُحْصَى من أنواع البدع والخرافات، وضروب المعاصي والمخالفات الكبيرة في العقائد والأحكام؛ كالتوسّل والتعلق بالأموات، وكالسحر الشعوذة وموالاة الكافرين، والاحتكام إلى أنظمتهم وقوانينهم،وكالتوكّل على غير الله والخوف مما سواه. وكالربا وشرب الخمور وارتكاب الفواحش والغش والكذب والسرقة وعدم إتقان الأعمال... إلى آخر ما هنالك.

وحديثنا عن هذا الضرب، وهو واقع عامة المسلمين.

إنَّ عدم أخذ الإسلام بشمولية وبقوَّة، والشكّ في قدرته على حل مشكلات الأمة المتفاقمة، والرضا ببعض الأنظمة البديلة، والحلول التلفيقية .. وما إلى ذلك، هي أدلَّة قويَّة شاهدة على اضطراب إيمان وقناعة مَنْ هذه حاله بالإسلام كنظام كامل شامل لكل جوانب الحياة.

ويتبع ذلك وينتج عنه ـ عادة ـ ضعف التفاعل مع هذا الدين وقضاياه، لتخلف شرطه وهو شدة القناعة وقوة الإيمان به. وهذا ـ كما أسلفت ـ لسان حال أكثر المسلمين، وإن كان لسان مقالهم يقول غير ذلك.

إنَّ علينا ـ معشر المسلمين، وخصوصاً العلماء والمصلحين ـ أن ننظرَ بجد في سبب مشكلة ضعف التفاعل مع الإسلام وقضاياه، وعدم الجدّ في أخذه والالتزام به.. أن ننظرَ في سبب هذه المشكلة.

وسببها وأساسها، هو: ضعف الإيمان بالإسلام بمعناه الشامل، وعدم التسليم المطلق؛ أي: عدم القناعة التامة بذلك.

إنَّ الإنسان لا يستطيع أن يتظاهر ـ بصورة مستمرة ـ متفاعلاً مع قضايا الأمَّة وهمومها، ومتفانياً في خدمة الإسلام، غيوراً على مصالحه، وهو لا يملك القاعدة التي ينطلق منها والمحطة التي يتزوّد منها، لا يملك الإيمان الصادق والقناعة الكافية.

لا يملك القدرة على التخلص من كثير من الأمور المخالفة لهدي الإسلام، وإن كان يعلم بحرمتها مثلاً؛ لأنَّ هنا انفصالاً في اللاشعور بين عالمه الخاص وبين الإسلام؛ لأنَّ القناعة وقوة الإيمان لم ترتق لتحدث انتفاعل التام بين عالمه وبين الإسلام، وبالتالي فإنَّ

له منظاراً آخر ورأياً آخر غير رأي الإسلام ونظره في بعض الأمور أو في كثير منها، وإن كان مسلماً يصلي ويصوم! . وقد يكون له هذا المنظار الخاص المخالف لرأي الإسلام تجاه نفسه، بينما هو مثالي في خطابه ونقده لأوضاع الآخرين . . أي أنه يستجيز لنفسه ما لايستجيزه لغيره .

ولهذا السبب، نلاحظ أن أكثر المسلمين اليوم يعيش تناقضاً عجيباً .

تجد مسلماً يصلي ويصوم ويتصدق، ويأكل الربا ويستبيح الاختلاط، وقد يكون معجباً شديد الإعجاب بالكافرين!

وتجد آخرَ شديد الحماس لقضية أو مجموعة من قضايا الإسلام؛ كبناء المساجد والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين ممن حوله، ولكنه لا يرفع بمجازر المسلمين هنا وهناك رأساً، ويبخل عليهم بأقل القليل .

وتجد ثالثاً . . ورابعاً . . وهكذا .

وهؤلاء كل منهم يؤلف في شخصيته بين حق وباطل، لا عن جهل، ولكن عن فساد في التنشئة والتربية .

ومنهم من يُعنَى بأمور، ويدع ما هو أكبر وأولى منها، لا على سبيل التخصص!

ولا عجب، فإنَّ القناعة بهذا الأمر أو ذاك تولّد تفاعلاً يقود إلى الإيجابية، على حين تكون القضايا الأخرى ما تزال بالنسبة له في دائرة الظل، وقد لا تكون عنده بها أدنى قناعة، وبالتالي تولَّدت عنده هذه السلبية تجاهها .

وقد يقول قائل: هب أننا سلمنا بأن التفاعل مع الأشياء وليد القناعة بها، فكيف توجد القناعة بالأشياء؟

وهنا ندخل في بيان الأمر الثاني، وهو:

أن نعلم أن القناعة بالأشياء محكومة بمقدار وضوح هذه الأشياء في الأذهان؛ أي أن القناعة وليدة وضوح الفكرة .

والقناعة ـ بعد وضوح الفكرة ـ قد تكون بشدَّة قبولها وتبنيها، وقد تكون بشدة رفضها ومقاومتها . وكلاهما مقصود، فإنَّ مقاومة الأفكار الرديئة ورفضها مراد، بمنزلة قبول الأفكار الصحيحة وتبنيها . . . كلاهما مراد، وكلاهما يحتاج إلى قناعة و إيمان .

كما أن وضوح الفكرة يعني فهمها والمعرفة التامة بها، أيا كانت الصورة التي تتم وتحصل بها المعرفة؛ بالقراءة أو السماع، أو بطول الإلف والمعايشة وتكرار المشاهدة أو الفعل . . . أو ما شابه ذلك .

وأية قناعة بفكرة ما، إذا لم تكن مبنية على أساس من العلم والمعرفة والفهم، فإنّها قناعة وقتية وعاطفية وغير راسخة .

وأية قناعة بفكرة ما، بُنيت على معلومات خاطئة وفهم مغلوط، فإنّها وإن تحولت إلى ممارسة، فإنّها محرومة سلفاً من التطبيق الصحيح، وقد تضرّ أكثر مما تنفع .

وبناءً على هذا، أقول:

إنَّ الاضطراب والسلبية التي تكتنف المسلم المعاصر تجاه الإسلام وقضايا المسلمين اليوم، منشؤها الجهل بالإسلام ـ بمعناه الشمولي ـ وعدم فهمه فهماً صحيحاً .

وواقع أكثر المسلمين اليوم تجاه الإسلام، لا يخلو من إحدى حالتين:

* إمَّا جاهلٌ لا يدري أهذا الفعل أو ذاك من الإسلام أم لا!

* وإمَّا عالم بأنه من الإسلام، ولكنه جاهل بالكيفية الصحيحة لفعله؛ أي لا يعرف الحق فيه على وجه التفصيل .

وغير هذا وذاك، العالم العارف بالحق على التفصيل، ولكنه مستبطن للمخالفة متعمد لها، فهذا له شأن آخر، وليس مما نحن بصدد الحديث عنه .

ويحسن أن أضرب لكل حالٍ مثالاً يتضح به المقصود .

إنَّ خروجَ المسلم من إسلامه بأن يؤمر بترك الشهادتين بصورة مباشرة صعب جداً، وقد يكون ـ في كثير من الأحيان ـ غير ممكن!

ولكن خروجه من إسلامه بأن يقرّ بنظام علماني يفصل الدين عن الحياة، ويشرّع من الأنظمة ما لم يأذن به الله . . أو يخرج من إسلامه بالتوسل ودعاء الأموات والطواف حول القبور والأضرحة، مما هو من الشرك الأكبر . . أو بنحو ذلك من المكفرات، فهذا ممكن، وهو كثير، وأكثر من يقعون فيه لايعلمون!

فكيف ذلك؟ وما الفرق بين أن يؤمر بترك الشهادتين، أو أن يترك مقتضاهما، ويأتي بما يناقضهما؟

إنَّ قناعته بأن كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هي الفيصل بين الإيمان والكفر قويَّة ؛ لأنَّه قد علم ذلك وفهمه .

ولكن قناعته بأن النظام الذي يحتكم إليه علماني كافر ، وأن التوسل والدعاء الذي يمارسه كفر . . هذا وذاك ليسا محل قناعة تامة ؛ لأنَّه لم يعلم ذلك ولم يفهمه فيما فهم من دينه ، أو أن علمه به لم يبلغ حد الإيمان الجازم . . . وقد يجادل ببراءة عن فعله بأنه لا يناقض الإسلام ، وأنه يفعل ما يفعل للقربة والبركة ، وقد يزيد فيزعم أنَّه يُثابُ على فعله ذلك[1]!

هذا مثل، ومثل ثانٍ:

قد تجد المسلم يحافظ على الصلوات محافظة شديدة ، ولكنه قد يؤديها بكيفية خاطئة تؤدي إلى بطلان الصلاة ؛ كترك الطمأنينة مثلاً ، أو عدم صحتها أصلاً ؛ كترك الوضوء لها أو الإخلال به إخلالاً يؤدي إلى فساده ؛ كأن لا يسبغ الوضوء أو لا يحسن التطهر من الحدث الأكبر . وقد يسبقها أو يعقبها بأذكار بدعية ، أو بكيفية بدعية ، كأن يحافظ على أذكار لم ترد على لسان الشارع ، أو يؤديها بصورة جماعية غير مشروعة . . ونحو ذلك .

فهو قد علم وفهم أن من لازم كونه مسلماً أن يصلي هذه الصلوات . . ولكنه تعلَّم كيفية أدائها أو الاستعداد لها بصورة خاطئة .

فمثل هذا المسلم قد علم مشروعية الصلاة ومنزلتها من الدين ، فهو لا يدعها لقول أحد . ولكنه جاهل بالكيفية الصحيحة لأدائها ، فمن ثم أخلّ بها هذا الإخلال الذي قد يصل أحياناً إلى حد إبطالها .

ويمكن أن نقيس على هذين المثلين عشرات الأمثلة .

ومما سبق ، يتضح لنا أن العلم والمعرفة بالأشياء ضرورية ؛ لأمور ؛ منها:

أولاً: أنها هي الطريق إلى القناعة بالأفكار والأشياء ، والقناعة هي أساس التفاعل معها والتطبيق لها ، كما سبق .

وثانياً: أن هذه المعرفة هي التي تضمن سلامة التطبيق وصحة الأداء .

---

(١) ولستُ هنا بصدد التفريق بين من يفعله جاهلاً أو متأوّلاً فيكون غير كافر بفعله ، وبين من يفعله عالماً عامداً فيكون كافراً ؛ لأنَّ الغرض هو بيان مدى الغموض والجهل الذي يكتنف تعاليم الإسلام وشرائعه عند كثير من المسلمين .

فإنَّه لا قيمة لفكرة لا تلقى قبولاً وقناعة تكفي لإخراجها من حيِّز التنظير إلى ميدان التطبيق. ولا قيمة لفكرة لقيت قناعة، لكنها حُرِمَت من التطبيق الصحيح، بسبب معرفة خاطئة.

وهل يلزم من القناعة بالأفكار والتفاعل معها وتطبيقها تطبيقاً صحيحاً... هل يلزم من ذلك كله وضوح الأهداف؟

وبعبارة أخرى: هل يلزم من معرفة الفكرة، وضوح الهدف منها؟

يبدو لي أن معرفة الفكرة وتطبيقها عملياً بصورة صحيحة للمرة الأولى، لا يستلزم وضوح الهدف من الفعل بإطلاق، أو لا يستلزم وضوح كل الأهداف.

لأنَّ الهدف قد يكون واحداً، وقد يكون عدة أهداف، بعضها قريب واضح، وبعضها بعيد يحتاج إلى تأمّل وسبر.

ولكن هدفاً ما، لا بد أن يكون واضحاً في ذهن الفاعل؛ لأنَّه هو الذي يفسّر الدافع إلى هذا الفعل أو ذاك، ولا بد من وضوح جملة الأهداف لضمان تكرار الفعل واستمرارية الصواب.

ولإيضاح هذه النقطة، أضرب لك هذا المثل:

قد يجود شخصان بشيء من المال لإخوانهم المضطهدين الذين يواجهون عدواً من الكافرين، في مكان ما من العالم.

أمَّا أحدهما فقد جاد بالمال وسخا به؛ تحقيقاً لمعنى الأخوة في الدين والنُّصرة على العدو، ولتفريج كربة من كرب هؤلاء المسلمين، ورجاء ثواب الله في الدار الآخرة. وهي كلها أهداف صحيحة ومطلوبة.

وأنفق الآخر ما أنفق، وفي ذهنه هذه الأهداف كلها، ولكن كان يسيطر عليه هاجس آخر زائد عليها، هذا الهاجس يتمثَّل في: أننا يجب أن نعين إخواننا لأنَّ عدونا مشترك، والذي يتغدى بهم سوف يتعشى بنا، فنحن حين ندعم إخواننا، فنحن ندافع عن أنفسنا في حقيقة الأمر، وإخواننا يقاتلون ويدافعون نيابة عنا.

فهل سيكون موقف هذين من مسألة البذل والجود بالمال لهذا الغرض، واحداً؟

لا أظنُّ ذلك! سيكون بينهما ـ في الغالب ـ اختلاف في مقدار المبلغ المدفوع... وفي استمرار الدعم ما دامت الحاجة قائمة.. وربما في التفكير بوسائل أخرى لتخفيف

المعاناة، ما أمكن ذلك. أي: سيختلفان في مدى الإصرار والثبات، وتذليل العقبات، وتخطيها من أجل تنفيذ وإنجاح الفكرة.

أرأيت إذا كانت الفكرة في ذاتها شريفة صحيحة، موافقة لطبائع النفوس، وأهدافها سامية، في الدنيا والآخرة!

إنَّ التفاني سيكون أكبر بلا شك، وإن تحقيق الأهداف سيكون من طلابها قاب قوسين أو أدنى.

إذن، فإنَّ علينا لتحقيق تطبيقٍ أمثل لتعاليم الإسلام، أن نبرز الأهداف والحِكم والمقاصد من الأوامر والنواهي، وسائر التطبيقات والمواقف.

وأن نطرح في الساحة الإسلامية نماذج صالحة يقتدي بها عامة الناس، ليتدرَّبوا على النهوض بالمسئوليات الفردية والجماعية. وتكون هذه القدوة القريبة متجردة من داء الحزبية ومن عاهة الأنا.. يدعون الناس إلى القدوة الْمُثْلَى؛ إلى الاقتداء بشخص الرسول ﷺ، والدوران حول فكرة الإسلام من خلال هديه وطريقته ﷺ.

وتبدو أهمية إبراز قدوات عملية، ونزولها في الساحة الإسلامية، إذا ما أدركنا غربة الإسلام في نفوس الناس وواقعهم، بسبب تكريس البدائل الرديئة وتقريبها وتعميمها، وحمل الناس على اعتناقها والإعجاب بها بكل وسيلة.

وأية فكرة لا ينهض لحملها وتمثلها رجال يسيرون بها بين الناس، فإنَّها فكرة كسيحة، بل ميتة لا تستحق في نظر الآخرين شرف الحياة.

يقول قائلهم: لو كانت هذه الفكرة ذات قيمة وشأن، لكان أهلها ودعاتها أولى من يتمثلها وأول من يجسِّدها.

وأخيراً، فإنَّه إذا توافر في شخص أو أمة من الناس، عن فكرة أو مجموعة أفكار: معرفة صحيحة، وقناعة قويَّة، وتفاعل تام، وتطبيق سليم، وكانت أهدافها واضحة ونبيلة. فهذا غاية المأمول، وحينئذٍ نكون قد حققنا شيئاً كثيراً يستحق كل الجهود المبذولة.

وبعد هذا البسط الوسيط للمراحل التي يتم من خلالها التفاعل الأمثل والتطبيق الصحيح من قبل أفراد الأمة لخطوات استئناف الحياة الإسلامية، بعد طول غياب... بعد ذلك أنتقل لأطرح بعض الوسائل العملية التي تسهم في بعث روح الإسلام في النفوس، وتجسيد تعاليمه في عالم الواقع.

وقد أشرتُ من قبل إلى أن جِمَاع الخير لهذه الأمة أن تتربى على العلم النافع والعمل الصالح. وهذا هدف نبيل وأفق سامق، فكيف نصل بالأمة إليه؟

لا شك أن الوصول بأفراد الأمة الإسلامية إلى درجة أن تكون علومهم نافعة وأعمالهم صالحة ليس بالأمر الهين، وإن في طريقه من العقبات والعقابيل الكثير الكثير، ولكن مسافة ألف ميل تبدأ بخطوة، والطريق المستقيم هو أقرب الطرق الموصلة بين الأمة وبين أهدافها الكبيرة.

وما قيمة المنجزات المادية العملاقة إذا كانت مشيدة بعقول وأيدٍ أجنبية، ومواد أجنبية، وتُدارُ بكفاءات أجنبية؟!

وما قيمتها إذا كانت الأمة لم تدرك بعدُ قيمتها، ولم تحسن استغلالها، وهي غير قادرة على تطويرها؟!

وما قيمة البعثات العلمية، إذا كان نصيب الأمة منها دفع فاتورة التكاليف، ثم تكون غنيمتها منها زيادة في عدد الذين يحسنون رطانة الأعاجم، وغثاء الأعاجم؟!

وما قيمة المؤتمرات العلمية والفكرية إذا كانت قراراتها حبراً على ورق، وكان الذي ينظمها غير مؤمن بنتائجها سلفاً، والذي يشارك فيها غير قادر على تبنّي نتائجها سلفاً؟!

لا قيمة تُذْكَرُ لشيء من ذلك، إلا مزيد من التخدير للمشاعر، وتطويل أمد المعاناة للأمة.

فكيف نصل بالأمة إلى بغيتها؟

يمكن ذلك عن طريق واحد فقط!

عن طريق الأمة نفسها، وعلى وجه الخصوص عن طريق إنسان الأمة!

إنّ الأمة الإسلامية هي الإنسان بخصائصه، وبما يحمل من مبدأ وفكرة، مضافاً إليه الأرض، والثروات، والزمن، الذي هو عمر الأمة ومضمار سباقها.

والبداية من الإنسان، فهو الذي يصنع الحضارة، وهو الذي يحمي الحضارة.

فإذا استطعنا أن نقدم له الإسلام بمعناه الصحيح ونفهّمه إيَّاه، منطلقين من القاعدة المشتركة والمفاهيم الأساسية التي ورثها إنسان الأمة المسلمة؛ كونه مسلماً ومن أمة مسلمة، وأن تاريخه وقَدَرَه هو الإسلام. لو فعلنا ذلك فإنَّهُ سوف يقتنع به تلقائياً.. وسوف يتفاعل مع تعاليمه فيطبقها بصورة صحيحة، وسوف يستميت في الدفاع عنها، بإذن الله.

فكيف نجعل إنسان الأمة بهذه المثابة وبتلك المنزلة؟

بالتعليم الصحيح، والتربية السليمة.

التعليم والتربية اللّذَيْن لا ينفصل أحدهما عن الآخر لا في الواقع ، ولا في الأهداف العامة ، وإذا انفصلا عن بعضهما ، أو تنافرت أهدافهما فلا قيمة تذكر لكل منهما .

وكلاهما شاق ودونه عقبات . ولكن لا بد منهما لنبدأ بداية صحيحة .

ولن أدخل في تفاصيل الأشياء ، لن أتحدث عن كيف تُقَام المصانع وتستخرج ثروات الأرض ، وكيف تجيش الجيوش ، وما إلى ذلك . فتلك أمور تُدرك الأمة حاجتها إليها ، وتبحث وسائل تحقيقها ضمن أولوياتها . ولن يعجزها ذلك إذا كانت مؤمنة بالإسلام حقاً ، مستقلة في إرادتها وإدارتها . إنّها كلها تابعة للإنسان ، نابعة منه ، مصطبغة بأهدافه خادمة لها .

وبقدر ما تستجيب مؤسسات الأمة التعليمية والإعلامية ، الرسمية والشعبية ، بقدر ما تستجيب لهذا الغرض ؛ التعليم الصحيح والتربية السليمة ، وتتوفر لتحقيق هذا الهدف ، تكون النتائج أفضل وأسرع .

وبقدر ما تقتنع قيادات الأمة العلمية والفكرية ويقتنع دعاتها ومصلحوها ومربوها بهذا الاتجاه ، يمكن تغطية الساحة الإسلامية وملء الفراغ ، من الناحيتين العلمية والعملية التربوية ، بصورة جيدة .

بقدر ما يدرك هؤلاء أن مشكلات الأمة ثقافية وليست مدنية ، مشكلاتها في حزمة القناعات المبدئية ، وليست في كمية الأشياء والموجودات . بقدر هذه القناعات تكون إبرة بوصلة النهضة في الاتجاه الصحيح .

وفي الصفحات التالية، أذكر أهم الوسائل والأساليب التي أرى أنها مما يمكن تبنيه وتطبيقه، وتربية أفراد الأمة عليه، في ظل الأوضاع الراهنة للأمة الإسلامية.

* **فمن هذه الوسائل والأساليب:**

العمل على نشر العلوم الشرعية في أوساط الأمة، وتنقيتها وتطبيعها.

وهذه أول خطوة يجب البدء بها ؛ لأسباب كثيرة ، منها:

* أن العلم هو مفتاح العمل ودليل العامل . قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد: ١٩] . فبدأ بالعلم قبل القول والعمل .

* ومنها: أن الأمة تعيش حالة من الجهل في كثير من مسائل الدين والشرع ، في أبواب العقيدة والعبادات والمعاملات . . . وغيرها ؛ لأسباب ليس هذا محل بسطها ، فهي بحاجة إلى التعليم والبيان ، قبل أن تطالب بالعمل والتطبيق الصحيح ، وقد تقرَّر أن الجاهل معذور حتى يبلغه العلم .

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] .

وقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥] .

أي: ما كان الله ليحكم على قوم بالضلالة حتى يبين لهم ما يجب عليهم أن يفعلوه مما يجب عليهم أن يذروه ، ثم يخالفون أمره ونهيه .

«قال مجاهد في معنى هذه الآية: بيان الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة ، وفي بيانه لهم في معصيته وطاعته عامة ، فافعلوا أو ذَرُوا»(١) .

* وحتى الجوانب التي تعلم الأمة أنها من الشرع والدين ، قد اختلط فيها الصواب بكثير من الأخطاء . ولا بد من العلم لتصحيح الأخطاء ، وإلا كانت الدعوة المجرَّدة تعني تكريس الأخطاء ، والتعبّد لله بالبدع والخرافات ، كما هو حال أكثر المسلمين اليوم!

* وقد اختلط عند كثير من الناس العبادات بالعادات ، وما هو من الدين والشرع بما هو من الأعراف والتقاليد . ولا بد من العلم لتمييز هذه من تلك .

* والعلم ضرورة ملحة للقضاء على البدع والخرافات ، والأهواء والشهوات ، وجمع كلمة الأمة على الحق ، الذي هو الإسلام ، ولا تجتمع الأمة على الحق ما دامت البدع والأهواء والشهوات مستحكمة ، ذات سلطان على العقول والقلوب .

---

(١) تفسير ابن جرير (١١/ ٥٣) ، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٩٥)

* ثم إنَّ العلم الشرعي هو الطريق إلى حماية الأمة الإسلامية من الاستغلال والاستغفال تحت شتى الشعارات .

كما أنه الطريق إلى معرفة حقوقها المشروعة ، وكيفية تحقيقها ، وحمايتها ، وكيف تستردها ممن اغتصبها واعتدى عليها .

* وباختصار ، فإنَّ العلم الشرعي هو العلم النافع ، الذي هو أساس العمل الصالح ؛ إذ لا يتصور عمل صالح ، نافع لذات عامله وللخلق [1] ، لا يسبقه ويدلُّ عليه علم نافع . وإذا فسد العلم أو فُقِدَ ، فسد العمل تبعاً له .

فالعلم أساس الإيمان ، فإنَّ الإيمان في اللغة هو: التصديق ، والإيمان بالله هو: التصديق به ـ سبحانه ـ وبما جاء من عنده ، وذلك هو ذروة العلم النافع .

وأي إصلاح للأمة لا ينطلق من أساس العلم الشرعي ولا يُبْنَى عليه فهو جهد ضائع ، وبداية خاطئة!

وقد كان رُسُل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ معلمين للبشرية بالقول أولاً ، وبالعمل ثانياً .

قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]

والأمر بعبادة الله وحده وتوحيده والنهي عن الشرك وعبادة الطاغوت ، أشرف تعليم منهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ لأممهم .

وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة .

وامتدح الله الربانيين بأنهم يُعلِّمُون الكتاب ويدرّسونه ؛ أي: يبيِّنُونَ للناس الحق بالتعليم والعمل ، ويربونهم عليه ، ويشفقون عليهم من مخالفته [2] .

---

(١) وهو الجامع بين الإخلاص لله ، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠] .

(٢) قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩] ، قال: كونوا فقهاء معلمين ، وقال سعيد بن جبير: العالم الذي عمل بما تعلمه ، وقال عطاء: كونوا حكماء وعلماء ونصحاء لله في خلقه ، وقيل: الربانيون الذين جمعوا مع العلم البصائر بسياسة الناس ، وقيل: هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره . انظر: تفسير البغوي (١/ ٣٢٠ ، ٣٢١) .

وما كان إعراض أكثر الخلق عن الحق وردّهم له إلا بسبب الجهل، سواء كان إعراضهم إعراض استكبار وعناد، أو كان محض تقليد للآباء والأسلاف، أو كان لمجرد الهوى والشهوة.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩ ـ ٢٤]. وذلك كله بسبب الجهل، فإنَّ هذه كلها يجمعها أنها معاصٍ لله كبار، وكل من عصى الله فهو جاهلٌ بوجه من الوجوه، ولو كان عالماً، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧].

«قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأً أو عمداً، فهو جاهلٌ حتى ينزع عن الذنب.

وعن قتادة عن أبي العالية[(١)] أنه كان يحدّث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة. وعن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره. وعن مجاهد قال: كل من عمل بمعصية الله فذاك منه بجهل حتى يرجع عنه».

وقال: كل من عصى ربه فهو جاهل، حتى ينزع عن معصيته[(٢)].

ووجه ذلك: أن الجهل قد يكون عدم معرفة الحق الذي هو حكم الله في هذا الأمر، وقد يكون جهلاً بقدر الله وقدرته وعظمته وسعة علمه، وما ينبغي له سبحانه من نعوت العظمة والجلال.

وجميع المعاصي والمخالفات تندرج تحت هذين.

---

(١) هو: رفيع بن مهران البصري، الرياحي، من كبار التابعين، أسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين، قال أبو بكر بن أبي داود: «ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن منه». وقال أبو القاسم الطبري: «هو ثقة مجمعٌ على توثيقه». روى له البخاري ومسلم. توفي سنة تسعين، وقيل غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٢٠٧)، وكتاب الوفيات، لابن قنفذ القسنطيني، ص ٩٩، ١٠٠.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٤/٢٩٨، ٢٩٩)، وتفسير ابن كثير (١/٤٦٣).

وقد تكون بالجمع بينهما .

قال تعالى لنبيه ورسوله نوح ﷺ في شأن ابنه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۞ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥ ، ٤٦] .

وقال يوسف ﷺ لإخوته: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ [يوسف: ٨٩] .

وقال موسى ﷺ عن نفسه لما قال له فرعون: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۞ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۞ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨ ـ ٢١] .

وقال جل وعلا مبيناً علة تطاول المشركين من أهل الكتاب وغيرهم على جنابه الرفيع ، وجراءتهم على الكذب عليه سبحانه والشرك به ، أنهم ما عظموه حق عظمته سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١] .

وقال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧] .

وقال سبحانه عن نفسه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] .

والذين كفروا هم سائر الكفرة من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان ، ومن غيرهم من سائر أصناف الكفر .

وعن مجاهد في قوله: ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ ؛ أي: يشركون[1] .

وهذا تعجيب من حالهم المنبئة عن عظيم جهلهم وظلمهم .

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٧/ ١٤٤) .

ثم إنَّ الجهل هو أيضاً سبب التخلف في علوم المادة . ولا تستطيع الأمة الإسلامية اليوم أن تظفر بهذا العلم ، ما لم تسترد حقوقها التي أضاعتها ، وتعرف مكانتها ورسالتها في هذا العالم . وقد عرفت أن هذه لا يمكن تحقيقها لهذه الأمة ـ بصفة خاصة ـ ما لم تتسلح بالعلوم الشرعية ؛ لأنَّها حينئذٍ ستعلم أن العلم الذي يتوصل به إلى تحصيل القوة المادية ضرب من ضروب العلم النافع ، المطلوب شرعاً . وعندها سوف تسعى إلى تحصيله ، على أنه جزء من دينها تنتظر الثواب عليه في العاجل والآجل ، وسوف تطالب بتحقيقه على أنه جزء من حقوقها المشروعة . وليس منطقة محظورة لا دخل لها فيها!

والمقصود بالعلوم الشرعية التي يجب نشرها وتنقيتها وتطبيعها في أوساط الأمة لتتأهل لتطبيق الإصلاح المنشود ، هي العلوم المتصلة بالعقيدة ، والمتعلقة بالأحكام التفصيلية ؛ العلمية والعملية . وهي تشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح ، وتشمل أعمال الحياة العامة وموقف الإنسان منها .

والمقصود بتنقيتها: تصفيتها من الشوائب ، سواء كانت من قبيل البدع ، أو من قبيل الاجتهادات التي لا دليل عليها ، ومن الأقوال الشاذة والضعيفة التي ثبت ضعفها ، وتبيَّن الحق بخلافها . فإنَّ الأمة لم تتعبد بالعمل بكل ما قيل ، بل بما شرعه الله ورسوله ﷺ .

ويمكن تطبيع العلوم الشرعية على مستوى الأمة بتقريبها ، وتعميمها .

وأعني بتقريبها: تسهيلها وتبسيطها ليسهل فهمها واستيعابها وحفظها والرجوع إليها للعامة ، فضلاً عن الخاصة .

ويدخل في تقريب العلوم الشرعية إلى الفهوم والأذهان: اختصارها والتركيز على الأهم فالأهم منها ، وترك التفاصيل التي لا ضرورة تدعو إليها لكل أحد ، وإفراد المسائل الأهم في كتيبات صغيرة ، تنبيهاً على أهميتها ، ولئلا يُنْسي بعضها بعضاً ، وهكذا .

ومما يساعد في تقريبها: جودة إخراجها ، وحسن أسلوبها وعرضها ، ووضوح غرضها وقوة دليلها .

وأعني بتعميمها: العمل على نشرها في كل مكان ، وبكل وسيلة ممكنة ، في المدن والقرى والهجر ، وفي المؤسسات والشركات ، وفي البيوت والمنتديات . فضلاً عن المدارس والجامعات وغيرها .

وبكل وسيلة ممكنة ؛ كالكتيب ، والشريط ، والمطوية ، وعبر الصحيفة والمجلة والجريدة ، والإذاعة والتلفاز ، والإنترنت . . وبالخطب ، والدروس والمحاضرات والندوات والمناسبات ، وبالمراسلة والمهاتفة . . . وغيرها .

وحتى تؤتي هذه الوسيلة الخطيرة ـ أعني نشر العلوم وتطبيقها ـ الثمرة المرجوّة منها، ينبغي ملاحظة ما يلي:

* أن تكون جامعة بين الترغيب والترهيب بأسلوب واعظ يخاطب العقل والقلب والعاطفة معاً.

* وأن تعتمد على الدليل والتعليل في جانب التأصيل، وعلى الدليل والتعليل مضافاً إليه الوثائق والأرقام والإحصاءات والشهادات في الجانب الواقعي.

* التركيز على شمولية الإسلام وعظمته، وأنه عُني بكل دقيق وجليل مما يحتاج إليه الإنسان في الدنيا والآخرة، وربط القضية الجزئية ـ محل الدراسة ـ بمحور الإسلام وأساسه وهو العقيدة؛ لئلا يُظن أن العقيدة شيء منفصل عن السلوك والعمل، أو يظن أن السلوك والعمل يمكن أن يوجدا بصورة قوية راسخة دون أساس من العقيدة والإيمان بالله.

* ربط العلوم الشرعية بالواقع المعايش، عن طريق استمداد الأمثلة والشواهد من الواقع، وتأصيل العلوم التي يُظنّ أنها أجنبية لا تعرفها الشريعة الإسلامية تأصيلاً شرعياً، كالعلوم الاجتماعية والتربوية والنفسية والاقتصادية ونحوها.

* العناية بالمناسبات والأحداث، ومعالجتها علاجاً شرعياً، وطرح هذا العلاج الشرعي لعامة الناس وبصورة مكثفة؛ لأنَّ تقبّل الناس وتفهمهم له في ظرفه وأوانه سيكون أكثر من طرحه وعلاجه في أي وقت آخر.

* توفير وعرض المواد التي تتضمن شرح العلوم الشرعية بأرخص ثمن ممكن، ليتمكن عامة الناس من اقتنائها.

* استخدام الوسائل الحديثة كالفيديو والتلفزيون والسينما في نقل الأحداث بالصور. وتأصيل بعض القضايا الشرعية؛ كوحدة الأمة الإسلامية، ومسألة الولاء والبراء، ومسألة عداوة اليهود والنصارى وسائر ملل الكفر للمسلمين... و نحوها، بأساليب مناسبة، فإنَّ لهذا تأثيراً عظيماً في تأكيد هذه المفاهيم الشرعية واستقرارها في النفوس.

* أن يتوجه الخطاب بالعلوم الشرعية إلى كل فئات الأمة من المثقفين والمهنيين والتجار والفلاحين والعسكريين والطلاب والأطفال؛ الذكور والإناث. وأن يكون لكل فئة حديث يناسبها ويعالج همومها ومشكلاتها.

* توظيف منبر الجمعة توظيفاً أمثل، بحيث يؤدي رسالته الشرعية على الوجه الصحيح.

* ومنبر الجمعة نافذة أسبوعية يُطلّ من خلالها الخطيب على مئات المصلين، يعلمهم ما يجهلون، ويعظهم ويعالج مشكلاتهم. وسيأتي لهذه الوسيلة مزيد بيان بإذن الله.

* إحياء رسالة المسجد، ليكون مكانا لما هو أوسع من مجرد التعليم والوعظ.. أن تكون مكانا للقاء اجتماعي، ومنطلقا ومرجعا لأهل الحي.

هذه بعض المقترحات والتنبيهات التي أرى أنها مما يساعد على تحقيق انتشار العلوم الشرعية الصحيحة في أوساط الأمة، وفتح مغاليق القلوب والنفوس لأخذها بجد وقناعة. وهي ـ بلا شك ـ تحتاج منّا إلى جهود جبارة وأن تحشد لها الطاقات والكفاءات، وتُرصَد لها الأموال، كما أن تنفيذها يحتاج إلى وقت متطاول.. ولكنها عملية ضرورية وجوهرية.

أمّا نتائجها إذا ما تيسَّرت لها الإمكانات، فهي باهرة.

إنّها سَتُحْدِثُ في عالم الأفكار ثورة ضخمة، وستهيىء أفراد الأمة لعملية مراجعة شاملة لما في النفوس، ولما في الواقع على حد سواء. وعندها سيتغيَّر أكثر الأشياء.. ستتغير موازين القوى المؤثرة؛ سيختفي أشخاص ويبرز آخرون.. وسترتفع شعارات وستنكس أخرى.. وسيأخذ الصراع الفكري والسياسي والعسكري، بل والاقتصادي وجهة أخرى!

ستترك الحركة العلمية التصحيحية آثاراً على كل صعيد، سيتغيَّر كل شيء في طرائق تفكـير الناس تقريباً.. ولكن ببطء في أول الأمر.. بطئ ولكنه أكيد المفعول، بإذن الله.

وماذا بعد هذه الخطوة؟

لقد فعل نشر وتنقية وتطبيع العلم النافع آثاره على نحو ما سبق، ولكنها في الغالب ثورة في التفكير، ومراجعة شاملة للقناعات وللأوضاع القائمة. أي أنها لم تصبح عملاً وممارسة وحركة في الواقع إلا في حدود ضيقة، وإن كانت عملاً فكرياً وشعورياً ونفسياً. إنّها عملية تفاعل مع الاتجاه الصحيح بكل أبعاده، وإنه الاستعداد النفسي للتصحيح. فما هي الخطوة التالية؟ إنّها:

الممارسة العملية للإصلاح، والتدريب على الأعمال الصالحة:

إنَّ العلم النافع بطبيعته يغري بالعمل الصالح ويهدي إليه ، ويهيئ النفس للقيام به وتأييده ، ورفض ما سواه واطراحه ، وكذلك العكس . فإنَّ العلم الفاسد المنحرف يشجع على الأعمال المنحرفة الفاسدة .

ولكن تحول العلم النافع إلى عمل وممارسة لا يتم عادة بهذه البساطة التي تبدو لأول وهلة .

نعم ، إنَّه ليست فيه مشقة من يعمل الأعمال بالتلقين والترويض بلا علم ولا قناعة .

ولكن العمل لا ينبثق من العلم انبثاقاً آلياً ، بل لا بد من التدريب ، والتشجيع على التطبيق والممارسة العملية لكل علم نافع يُرادُ له أن يؤتي ثماره .

إنَّ العلمَ النافعَ يربي في الأمة ملكة الإرادة (قوة التفاعل) الصالحة ، التي تنجب القدرات والقدوات الصالحة ، في صورة أعمال صالحة في الواقع .

إذن ، فالأعمال الصالحة هي مظهر العلوم النافعة وترجمانها ، وبقدر صفائها ووضوحها وصحتها ، تكون سلامة الأعمال وقوتها . شريطة أن تكون قناة التوصيل ووسيلة ترجمة الأفكار ممن أحسن الجمع بينهما .

وهنا تبرز قيمة (القدوة الحسنة) وضرورتها في عملية التدريب على الممارسة وترجمة العلوم النافعة إلى أعمال صالحة .

وإذا كانت العلوم النافعة تشمل (علم ما ينفع) لاجتلابه والقيام بتحصيله ، و(علم ما يضر) لاجتنابه والعمل على إزالته ، فإنَّ الأعمال الصالحة كذلك ، فهي من حيث أثرها تنقسم إلى قسمين:

- عمل هدفه جلب النافع للإنسان والمُرْضِي لله .
- وعمل هدفه دفع الضار بالإنسان والمغضب لله[1] .

ولا بد من هذا وهذا في باب العلم النافع وفي باب العمل الصالح . . . ولا تصلح الحياة ولا تستقيم إلا بالجمع بينهما علماً وعملاً .

«والفرد الذي يمارس القسمين من العمل يطلق عليه اسم (الصالح ـ المصلح) والذي يقتصر على القسم الأول يطلق عليه اسم (الصالح) .

---

(١) أهداف التربية الإسلامية ، د. ماجد عرسان الكيلاني ، ص ٤٩ .

والقيام بأحد القسمين لا يغني عن الآخر؛ لأنَّ القسم الأول يفيد في النماء والتقدّم؛ بينما يفيد القسم الثاني في منع أسباب الفساد والتأخر. ولذلك جاء في القرآن الكريم أنَّ الخراب لا يلحق بالأمم التي تتكون من أفراد صالحين مصلحين، ولكنه ينزل بالأمم التي تضم أفراداً صالحين غير مصلحين»[(١)].

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]؛ أي: مصلحون فيما بينهم، يتعاطون الإنصاف ولا يظلم بعضهم بعضاً، ويتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر[(٢)].

وقال سبحانه في شأن الطائفتين المختلفتين في أصحاب السبت: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤، ١٦٥].

فجاء القرآن صريحاً في هلاك الفرقة العادية الظالمة، ونجاة الفرقة المعتزلة الناهية، وسكت عن الفرقة الساكتة. ولهذا اخْتُلِفَ فيهم: هل نجوا مع الناجين، أو هلكوا مع المعذبين، فإنَّ القرآن سكت عنهم، فلم يخبر بمصيرهم، كما سكتوا على المنكر فلم ينكروه، والجزاء من جنس العمل.

قال ابن عباس: ما أدري ما فُعِلَ بهم. وروي عنه أنّهم هلكوا؛ عقوبة على ترك النهي[(٣)]، فقد جاء عنه في سياق طويل: «... فما نجا إلا الذين نهوا، وهلك سائرهم».

قال ابن كثير تعقيباً على قول ابن عباس: «وهذا إسناد جيد عن ابن عباس، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة[(٤)] في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا؛ لأنّه تبيّن حالهم بعد ذلك، والله أعلم»[(٥)].

---

(١) أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٤٩ بتصرف يسير.
(٢) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٤٠٦)، وتفسير القاسمي (٩/ ١٨١).
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٧/ ٣٠٧). وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٧).
(٤) وكان عكرمة قد راجعه في قوله بهلاك الساكتين. قال عكرمة: «فقلتُ له: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤]. قال عكرمة: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين».
(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٩).

وقد جاء ذمّهم وأخذهم بتركهم التناهي عن المنكر فيما بينهم صريحاً في قوله تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۞ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[المائدة: ٧٨، ٧٩] . وقال سبحانه: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم»[١] .

ولهذا تتردَّد كلمة (العمل) في مواضع عديدة من القرآن لتشمل جميع ممارسات الحياة، على المستوى الفردي والمستوى الجماعي[٢] .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤] .

وقوله سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ [النور: ٥٥] . . . الآية .

وقوله: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ ﴾ [النحل: ٩٧] . . . الآية، وغير ذلك من الآيات .

والعمل الصالح ـ الذي يهدي إليه العلم النافع ـ من صفته: أن يكون موافقاً للحقّ نافعاً للخلق، كالعلم النافع، فإنَّهُ لا يكون نافعاً بحق حتى يكون كذلك . وأن يكون عملاً أخلاقياً، ناجحاً في آن؛ «لأنَّ العمل إذا كان أخلاقياً ولكن غير ناجح لا يجلب منفعة ولا يدفع ضرراً، وإذا كان ناجحاً ولكن غير أخلاقي فإنه يجلب ضرراً، فإذا اجتمعت فيه الصفتان كان عملاً نافعاً غير ضار»[٣] .

هذا العمل الصالح في عمومه وشموله وصفته هو العمل الذي تصلح به حال الأمة، وهو الثمرة الطبيعية للتفاعل ما بين أفراد الأمة (الأشخاص) وبين العلم النافع (الأفكار) .

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ٢٤٥١) . وسيأتي لهذه المسألة مزيد بسط في الفصل الثالث، بإذن الله تعالى .
(٢) أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٤٨ بتقديم وتأخير .
(٣) أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٤٩ .

وكما ذكرت من قبل، فإنّ مجرد التفاعل مع الأفكار والمبادئ الصحيحة لا يكفي وحده لإيجاد وممارسة الأعمال الصالحة في الواقع . . . لا يكفي:

* إمّا لأنّ الإرادة المتولّدة من القناعة غير كافية بذاتها لتحويل الفكرة والعلم إلى عمل .

* وإما لعدم القدرة على الترجمة الصحيحة للفكرة؛ أي عدم انضباط الممارسة للعمل الصالح بضابط العلم النافع، وهنا لم يأت الإشكال من ضعف الإرادة أو القدرة، وإنّما من خطأ المحاولة .

* وإمّا لوجود المعارض القوي من خارج النفس (في الواقع) بحيث يصعب الاستمرار على ممارسة العمل الصالح، وإن وجدت الإرادة الدافعة في أول الأمر، وإن كانت الممارسة سليمة صحيحة .

وقد يجتمع سبب أو أكثر، وقد تجتمع كلها ـ وهو الغالب في واقع الأمة الإسلامية اليوم .

وعلى ضوء ما سبق، فإنّنا نحتاج لمعالجة هذه العوائق والتغلب عليها، وتطبيع الأعمال الصالحة وممارسة التربية والتدريب والتطبيق في واقع الأمة . . . نحتاج إلى ما يلي:

* إلى نشر وتعميم العلم النافع على أفراد الأمة بالوسائل والأساليب التي سبقت الإشارة إليها .

* وإلى التدريب على الأعمال الصالحة وممارستها أثناء تعليمها . وهذا وذاك يستلزم إيجاد القدوات الحسنة الصالحة، التي تعيش بين الناس . تعلّم الأفكار الصحيحة، وتطبقها وتشجع على تطبيقها، وتساعد في تصحيح هذه التطبيقات .

ولكي يتم إيجاد القدوة الصالحة الحسنة، نحتاج إلى تربية النُّخب من أفراد الأمة تربية خاصة، والعناية بهم، وأن تكون تلك التربية والعناية تسير جنباً إلى جنبٍ مع تربية عموم أفراد الأمة . وهذا لا يتحقق بصورة جيدة ما لم يتوفر المناخ الملائم للاستصلاح والتربية .

ومن هنا، فلا بد من مقاومة كل صور الفساد وضروب الانحرافات في الواقع بصورة عملية، بعد أن يكون قد اتضح فسادها، وقوي داعي تركها في النفوس، بفعل انتشار العلوم النافعة والأعمال الصالحة .

وهذه القنوات يُكمّل بعضها بعضاً، ويستلزم بعضها بعضاً.. وتفصيل الوسائل العملية التي يتم من خلالها تحقيق ما سبق شيء يطول. ولا يمكن حصره، ولكن سأذكر في الصفحات التالية أهم الوسائل والأساليب الممكنة التطبيق في ضوء أوضاع الأمة الراهنة، وأنبه إلى بعض الوسائل الهامة، التي ينبغي استصلاحها وتبنيها، إذا ما هيَّأ الله لأمة محمد ﷺ قيادة ربانية، تُسخِّر إمكانات الأمة لخدمة دينها وأهدافها.

فمن الوسائل والأساليب العملية في باب تربية الأمة وتدريبها على العمل الصالح:

نشر وتنقية وتعميم العلم النافع بعامة، والعلم الشرعي بالمقام الأول.

فإنَّ نشر العلم النافع وتقريبه للناس بشتى الوسائل، عمل صالح وقُربة، بل من أعظم القربات عند الله تعالى، وهو أعمّ الأعمال الصالحة نفعاً في العاجل والآجل.

فينبغي تدريب الأمة على ذلك، وإشعار من يقوم بهذا العمل الجليل أن ما يقوم به عمل صالح وعبادة لله، فلا يستكثر عليه أي جهد ووقت ومال. وأن يخلص لله فيه النية والقصد.

وهذه الوسيلة هي عمل صالح في ذاتها، وسبب ووسيلة إلى سائر الأعمال الصالحة.

وإذا استطعنا تلقين الناس هذه المعاني البسيطة، العظيمة في آن، نكون قد حققنا جملة أهداف، منها:

* تعميم ومضاعفة انتشار العلم النافع بواسطة هذا العمل الصالح.

* نكون قد تمكنًا بصورة عملية من تدريب وتسخير طاقات بشرية ومالية كثيرة للقيام بهذا العمل الصالح، تتولى إعداده ونشره وتوزيعه وتمويله.

* وتبعاً لذلك سيزداد مستوى الوعي والإدراك، وستشحذ الهمم وتتفتح القرائح، فيكون الإبداع، وتكون الإيجابية مع عديد من القضايا الإسلامية.

* **ومن الأمور العملية في هذا المجال:** تأسيس دور النشر التي تتبنَّى الفكر الإسلامي الصحيح، وترجمة الكتب وتسجيل الأشرطة المسموعة والمرئية، في المسائل المهمة، ونشرها وتوزيعها.. وغير ذلك مما ذكرته من قبل، عند الحديث عن نشر العلم النافع وتنقيته وتعميمه وتقريبه، فليراجع.

وإنّما ذكرته هنا وهناك؛ بقصد التأكيد على أنه داخل في البابين؛ باب العلم النافع وباب العمل الصالح، وأنه أصل في الموضعين.

* **ومن الوسائل والأساليب العملية في ذلك:**

تنشيط الحركة التعليمية، الخيرية والأهلية في أوساط الأمة.

وتنشيط الحركة العلمية بهذا الاتجاه، سيكون من جهة بديلاً عن التعليم المنحرف ومزاحماً له، خصوصاً في البلاد التي لا تكاد المؤسسات التعليمية الرسمية تقدم لأبناء المسلمين إلا الإلحاد والانحلال وتكريس المفاهيم العلمانية، وربما قدمت مادة الدين الإسلامي بصورة مشوهة منقوصة، معزولة عن التطبيق، في جو من الاختلاط وغياب القدوة الصالحة.

ومن جهة أخرى ستكون الحركة التعليمية مجالا خصبا لتربية أجيال الأمة وتلقينها العلوم النافعة، وتدريب النخب الممتازة، وإعطاء البدائل القيادية الصالحة للمجتمع.

ويجب أن تتمثل الحركة التعليمية الخيرية والأهلية في مؤسسات قائمة، وفي المساجد، ووسائل الإعلام. وأن تدرس شتى العلوم الممكن تدريسها.

وتنشيط هذه الحركة كسابقه سيوظف طاقات بشرية وأموالاً، ويتطلّب جهوداً وأوقاتاً، في التعليم والإشراف والتمويل، وسيشغل أعداداً غفيرة من مختلف طبقات الأمة في التتلمذ والتحصيل.

وسيترك آثاره على المدى في مختلف قطاعات الأمة ومناشط الحياة.

والمطلوب في هذا التعليم أن يكون تعليماً وتربية، وهنا تكمن قيمة هذه الوسيلة.

إنَّ الذي نفتقده في أكثر المؤسسات التعليمية القائمة فيما نفتقد هو: جودة المادة العلمية وصحتها، وموافقتها لدين الأمة ورسالتها وأهدافها، وسلامة المنهج التعليمي وقدرته على الجمع بين النظرية والتطبيق، بين العلم والعمل.

إضافة إلى أن المعلم، وهو حجر الزاوية في العملية التعليمية هو الآخر يفتقر في أحيان كثيرة إلى أساسيات علمية وعملية في تحصيله، وفي شخصه، وفي توجهاته.. تجعله غير قادر على أداء رسالته التعليمية التربوية بصورة صحيحة.

ولهذا فشلت المؤسسات التعليمية القائمة في تحقيق أهداف التربية الإسلامية المنشودة.

إنَّ هناك صوراً كثيرة للتدريب على الأعمال الصالحة من خلال تعليم العلم النافع، في المؤسسة التعليمية وفي المسجد.

وإنَّ هناك أهدافاً كثيرة يمكن إبرازها والتفاعل معها عبر الرحلة التعليمية الهادفة. وأذكر مثلين على ذلك:

المثل الأول: تربية القدرات العقلية التحليلية والنقدية والتطبيقية البناءة(١). إضافة إلى جانب الحفظ والاستيعاب. وهذه الأخيرة تكاد تكون وحدها حصيلة المناهج التعليمية القائمة.

إنَّ العقلية التحليلية والنقدية والتجريبية هي التي تفتقدها المؤسسات العلمية القائمة إلى حد كبير. ونتيجة لذلك، فإنَّ «المسلم المعاصر يستطيع أن يروي ويخطب، ولكنه لا يستطيع أن يناقش أو يحلل أو يطبق ويتوصل إلى حل... وينعكس هذا العجز على علاقات الأفراد ومواقفهم، فالخطيب أو المتحدث يريد في جميع أحواله أناساً يستمعون له ويصفقون، لا أُناساً يناقشون ويعارضون.

وحين يستدعي الموقف قدرات عقلية تتعدَّى الحفظ، تنفجر الانفعالات ويثور الخلاف وينفجر التعسف المخربُ»(٢).

وإذا وجدت العقلية التي تجمع بين الحفظ والفهم والتحليل والنقد والتطبيق.. لم يعد هناك مشكلة كبيرة في تحويل الأقوال والمعارف إلى أفعال وإبداع؛ لأنَّه ليس لديها وقت لمضغ المعلومات واجترارها دون جدوى، بل هناك الفحص والتمييز ثم العمل والإنتاج. وهذا يستلزم نفي المعلومات التي لا تعين على عمل صالح، والحفاوة بكل علم وثيق الصلة بحاجات الأمة. سواء كان علماً نظرياً أو عملياً تطبيقياً.

ومن الأهداف أيضاً، وهو **المثل الثاني:**

تربية العقول والنفوس على مبدأ التفكير الجماعي والحسّ الجماعي بدلاً من التفكير الفردي والاهتمام الذاتي(٣).

إنَّ الذي لا يتربى على الروح الجماعية والاهتمام بالآخرين، يصعب عليه أن يسهم بروح فاعلة في بناء كيان يكون شريكاً إيجابياً فيه، ومن العسير عليه أن يستوعب هموم الآخرين؛ لأنَّه لم يتدرب إلا على حمل همومه الخاصة.

---

(١) انظر: أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٦٩ وما بعدها.
(٢) أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٧٧ بتصرف يسير.
(٣) انظر: أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٦٨.

وكيف يمكن أن تتحقق للأمة الإسلامية وحدة ، وتكون قوة في ظل التفكير الفردي والاهتمام الذاتي النفعي؟

إنّ هناك أموراً تتطلب رأياً جماعياً لإقرارها وتحقيقها أو رفضها أو تعديلها ، وأموراً أخرى تستدعي تنازلات وتضحيات فردية لمصلحة الجماعة والأمة . . . وأنَّى لهذه أن توجد ما لم تكن الأمة بأفرادها قد تربَّت على ذلك؟

وكيف يتم الإصلاح والتغيير المنشود على مستوى الأمة، ما لم يتم التغيير والتصحيح على مستوى الأفراد؟

والتغيير هنا أن يعيش الفرد همّ الأمة ، ويفكر في مصلحتها .

وإنّ واقع الأمة الإسلامية في تفككها وتشرذمها لأكبر دليل وشاهد على غياب هذه الروح الواحدة والهمّ المشترك ، نتيجة استبعاد أسباب ذلك على مستوى المادة العلمية وهي هنا العقيدة الإسلامية والرابطة الإيمانية . وهذه قد استُبعدت تماماً أو هُمِّشَت ونزع منها فتيل التأثير .

أمّا الوسائل فعقيمة ، وأمّا الأهداف فوطنية شكلية أو قومية أو حزبية ، أو فوضوية بلا أهداف محددة ، يقدمها أستاذ قد يكون غير كفء ، ملء إهابه هزيمة نفسية .

وهو ذاته يعيش عقلية ونفسية بعيدة في تكوينها عن أهداف الأمة وهمومها!

هذا ، فضلاً عن ضعف البصيرة في الدين ، وتصحيح المعتقد والعبادة ، والتهذيب الخلقي والنفسي ، والعزوف عن اكتساب الفضائل ، والترفع عن الدّنايا ، وسمو الهمَّة والعناية بمعالي الأمور .

وتتضح قيمة هذه الخطوة والتي قبلها ، إذا ما أدركنا خطورة الوسيلة التعليمية وأهميتها في صياغة المفاهيم وصناعة الأفكار وتحويل الاهتمامات ، وتبديل التصورات حول القضايا الكلية والجزئية ، بما لا يوازيها أو يماثلها في ذلك وسيلة أخرى ، على مستوى الأمم .

ويمكن التدريب على تطبيق الأعمال الصالحة من خلال:

إقامة المشاريع والجمعيات الخيرية.

وهذه لها صور ، وهي تخدم مجموعة أهداف . فالمشاريع والجمعيات الخيرية يمكن أن تكون اجتماعية تُعنى بالفقراء والمحتاجين والمعوقين والأيتام والأرامل، ومن كان على شاكلتهم .

ويمكن أن تكون معنية بالقضايا الدعوية، كبناء المؤسسات الدعوية وتمويلها، وتفريغ الدعاة، والعمل على تقريب وجهات نظر العاملين في مجال الدعوة، والمساعدة في إزالة أسباب الخلاف.

ويمكن أن تكون معنية بشئون الإغاثة وتتبع النكبات والكوارث التي تلحق بهذا البلد الإسلامي أو ذاك، وما أكثرها.

ويمكن أن تعنى بشأن الجهاد والمجاهدين، وتصويب مسيرتهم، ودعمهم وتقديم الخدمات اللازمة لهم.

ويمكن أن تجمع بين صورتين أو أكثر من المناشط الخيرية.

إلى آخر ما هنالك من الصور التي يمكن أن تقوم على أساسها هذه الجمعيات والمشاريع الخيرية.

ومعلوم أنَّ المناشط الخيرية تحتاج - كغيرها - إلى طاقات بشرية، تخطط وتتابع، وأخرى تنفذ، وإلى أموال وتضحيات كبيرة.

ومما يساعد في تنفيذ هذه المشاريع والجمعيات:

* إعداد الدراسات التفصيلية الدقيقة عن فكرتها وأساليب تنفيذها، وعن أهدافها. وطرح هذه الدراسات في صورة كتيبات على الرأي العام الإسلامي؛ لضمان إحداث التفاعل والرقي المطلوب في بنائها، والدعم المادي والمعنوي لها.

* إصدار نشرات دورية بأهم إنجازات هذه المؤسسات ومشاريعها المستقبلية.. كي يطمئن الناس إلى صدقها واستمرارية عطائها.

* إسناد الإشراف عليها إلى أشخاص أو جهات تثق الأمة بهم، وتأتمنهم على مستقبل هذه المشاريع، ممن جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح.

ومن التدريب على تطبيق وممارسة الأعمال الصالحة: تبنِّي وتأسيس المؤسسات الاقتصادية والمالية الإسلامية.

وهذه أيضاً يمكن أن تكون أهدافها خيرية بحتة أو خيرية تجارية، أو تجارية فقط.

والأمة الإسلامية بأمَسِّ الحاجة إليها كلها؛ لسدِّ حاجات الفقر والعوز التي لا تنتهي، ولتهيئة الأذهان والظروف لطرح الاقتصاد الإسلامي بديلاً ومنافساً للاقتصاد الجاهلي الربوي، الذي ينمو ويتحرك بأموال المسلمين وأرصدتهم. ولرفع مستوى دخل الفرد المسلم، الذي يكاد يكون في جملته أدنى مستوى لدخل الفرد في العالم. ولتحفيز الصناعات البديلة التي تقدم المنتجات المتوافقة وهوية الإنسان المسلم، في مجالات الغذاء واللباس والترفيه وغيرها.

ويمكن تنفيذها بطرح هذه الأفكار مكتوبة، واستكتاب المتخصصين في مجالات الاقتصاد والاستثمار.

ومن عوامل نجاحها - وهو مقصود لذاته - إتاحة الفرصة لاشتراك أكبر عدد ممكن من الأفراد في مؤسسات اقتصادية متنوعة بأسهم ميسَّرة، بحيث يتمكَّن جمهور الناس من الدخول فيها، واقتناء مدخراتهم بعيدا عن مخاطر المشروعات الشخصية الصغيرة، أو الاضطرار إلى تركها ودائع غير نامية في المصارف.

ويمكن بواسطتها صناعة البدائل الإسلامية، والمنافسة في كافة الفرص على مستوى العالم، وهنا نكون قد حققنا عدة أهداف في آن واحد(١).

ومن فوائد هذه الخطوة - إضافة إلى ما سبق - تنمية المهارات الإسلامية، وإيجاد البدائل الإسلامية التي تساعد بدورها في إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع المسلم(٢).

ولا تؤتي هذه الخطوات فائدتها المرجوَّة منها، حتى تكون مصحوبة بالدعوة الهادفة والتوجيه السليم، وإبراز أهداف الإسلام الكليَّة وتوخيها عند كل خطوة وعمل، ولو كان عملاً جزئياً، وجعلها جزءً لا يتجزأ من إيمان وثقافة الفرد المسلم، في أي موقع كان.

ومن فوائد ذلك أن يكون هذا الحِراك الاقتصادي عينه مفتوحة دائما على تنمية المجتمع المسلم ودعم قضاياه، وليس مجرد تجارة تستفيد من الفرص، ثم تكون عقيما لا تلد الخير، ولا تبذل المعروف.

ومن التدريب على تطبيق وممارسة الأعمال الصالحة:

تنشيط الحركة الإعلامية بإقامة المؤسسات الإعلامية المتخصصة، والإفادة مما يمكن الإفادة منه مما هو موجود.

والكلام عن أهمية الإعلام في نشر الفكر والمعرفة، ومقاومة الأفكار المنحرفة، وصناعة الرأي العام، والتمهيد لكل عمل أو فكر يُرادُ له الانتشار والذيوع. إنَّ أهميته في ذلك كله أمرٌ معلومٌ، فلا أشتغل بتقريره.

---

(١) ومن هذه الأهداف: توظيف أموال قطاع كبير من أفراد الأمة في استثمارات نزيهة، وقطع الطريق على المؤسسات الربوية التي كان سيكون مآل هذه الأموال إليها في الغالب. إضافة إلى تنمية المهارات، وإيجاد البدائل النافعة، ورفع مستوى دخول الأفراد.

(٢) وسيأتي لهذه النقطة مزيد بيان في الفصل الثالث، بإذن الله تعالى.

ولعل الواقع السيئ للأمّة الإسلامية خير شاهد على فاعلية الإعلام وقوة تأثيره ؛ إذ أفلح الإعلام في مسخ وتشويه دين الأمة وتاريخها وأبطالها ، وربطها بعجلة الاستعمار ، وترويضها للإيمان بثقافةٍ وأوضاع غريبة عنها . ولم ينج من لوثاته إلا أقل الناس .

وإذا كان لا يمكن للأمّة في ظل الهيمنة الغربية المستعمرة ، والعلمانية الوطنية المستأجرة أن تؤسس إعلاماً إسلامياً قوياً ، فإنّها تستطيع أن تحقق بعض المقصود بإمكاناتها المحدودة .

تستطيع أن تقيم دور النشر . . . وهذه وسيلة إعلامية .

وتستطيع إصدار بعض الصحف والمجلات . . . وهذه وسيلة إعلامية .

وتتمكّن من استئجار القنوات التلفزيونية والإذاعية التجارية في بعض البلاد الحرة ، وهذه وسيلة إعلامية .

وتستطيع تأسيس قنوات فضائية ، ولو بسقف حرية محدود نسبيا . ولكن آثاره الإيجابية كبيرة مشهودة .

ويستطيع الخيرون المشاركة بما أمكن من وسائل الإعلام ، وتقديم مواد إعلامية متميزة ، وهذا يخفف من غلواء الشر ، ويزاحم المنتجات الإعلامية الرديئة . وإن كان لذلك محاذيره . . لكنها الموازنة الذكية .

وتستطيع الآن بواسطة الإنترنت ، الذي جمع العديد من المزايا ، وخفض التكاليف ، وألغى الحواجز ، واختصر المسافات .

وتستطيع عرض كثير من المفاهيم الإسلامية ، وتصحيح كثير من الأخطاء بالصوت والصورة عبر أشرطة الفيديو المنتشرة .

وتستطيع ذلك من خلال أشرطة الكاسيت . . . وغير ذلك من الوسائل التي يعرفها أهل الاختصاص .

وغير خافٍ أنّ هذه الوسائل ونحوها تحتاج ـ كما أسلفتُ غير مرّة ـ إلى طاقات بشرية متخصصة مؤهلة ، وإلى دعم مادي هائل . ولكنها ضرورة لا غنى عنها ، كما أن ثمارها عظيمة النفع بصورة قد لا يتصورها الكثيرون .

إنّ من الخصائص التي يتميز بها الإعلام أنه يخاطب كل فئات المجتمع وطبقاته ، بلغة مفهومة ، ومادة متجددة تحمل عنصر التنوع والتشويق ، يحمل هموم الإنسان اليومية ، ويجيب على تساؤلاته أولاً بأول ، ولهذا يُقْبِلُ الفرد عليه مختاراً ، بل راغباً متشوقاً .

وهذه الخصائص وغيرها مما تميز بها الإعلام عن التعليم، على أهمية الأخير وقوة تأثيره!

وثمة شيء آخر مهم تستطيع الأمة ــ ممثلة في قياداتها العلمية والدعوية والتربوية ــ من خلاله أن تربي الأمة على الأعمال الصالحة، بصورة لا توجد عند غير المسلمين!

إنه منبر الجمعة:

حيث يحتشد الناس رجالاً ونساء خاشعين منصتين كل أسبوع.

فلو أن الخطيب أدرك مسئوليته، وأعدّ للأمر عدته، وفهم الحكمة من تشريع هذه الشعيرة العظيمة، وأنها لتعليم الناس وتربيتهم، وحل مشكلاتهم. وليست لحشرهم في زاوية من الدين، وترك ما سواه من شئون الحياة يعبث بها من يعبث.

لو أدرك الخطيب ذلك، لتعلَّم الناس من منبر الجمعة: أنَّ الإسلام دين شامل كامل. وعلى هذا، فإنَّ العقيدة من الدين، والأحكام من الدين، والاجتماع من الدين، والسياسة من الدين، والاقتصاد من الدين. وأنَّ كل شيء يقع فللدين منه موقف، وله فيه حكم.

وأن المسلمَ يجب أن يكون على مستوى هذا الدين في الفهم والتطبيق.

وعليه، فهو مأمورٌ بأن يتحدَّث عن العقيدة والأحكام والأخلاق والسياسة والاقتصاد.. و.. لأنَّه يتحدَّث عن الدين، وليس عن شيء آخر.

ولكان على الخطيب أن يعلمهم ويربيهم في آنٍ. فإذا حدَّثهم عن حرمة الربا، طرح لهم حلولاً عملية، وبدأهم بذلك.

وإذا حذَّرهم من منكر واقع، عظمه عليهم، وبيَّن لهم كيفية التخلّص منه، وأعطاهم البدائل المناسبة.

وإذا ألَمَّت بالمسلمين نازلة، أطلعهم على جلية الوضع، وكشف ما قد يخفى على بعضهم من ملابساته، وفي الوقت ذاته يذكر لهم ما يجب عليهم تجاه هذا الحدث، فإن كانت حاجة مادية حضهم على التبرع والمساهمة، وجمع منهم ما يتيسَّر، أو دلهم على الطرق المأمونة لإيصال تبرعاتهم. وإن كانت نجدة أهاب بالقادرين منهم على ذلك.. وهكذا.

فإنَّ هذا كله وما ماثله، هو مما يعنيهم، وهو من الدين الذي شرعت الخطبة لتعليمهم إياه.

وإذا انكفأ الناس عن خطيب أو إليه ، فإنّما ذلك بسبب اشتغاله بما ينفعهم أو تفريطه في ذلك ، وهو الملوم في ذلك أو المحمود . وعامة الناس إنّما يبحثون عما ينفعهم .

ومن أحسن الظن بنفسه ، وعاب على الناس تفريطهم في حقه ، أو عدم معرفة قدر ما يقول ، أو أنهم لا يدركون مصالحهم . وأطلق الكلام هكذا ، فإنَّ عليه أن يراجع اجتهاده ، ويعود باللوم على نفسه ، فإنَّ ما حصل له إنّما هو بتفريطه فيما ينفع الناس ، وإن ظنَّ خلاف ذلك .

ومن المفيد ، أن نعتبر بجواب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن شبهة تقديم بعض أمراء بني أمية لخطبة العيد قبل الصلاة ، وهي وإن كانت بدعة ، وليست من جنس ما نحن فيه سواء بسواء ، إلا أن العلة الجامعة ، الحاملة على الابتداع هناك ، والعتاب هنا هي التفريط فيما ينفع الناس .

يقول شيخ الإسلام: « . . . ومثل ما حدثت الحاجة إليه بتفريط من الناس: تقديم الخطبة في العيد ، فإنّه لما فعله بعض الأمراء أنكره المسلمون ؛ لأنّه بدعة ، فاعتذر من أحدثه بأن الناس يَنْفَضُّونَ قبل سماع الخطبة .

فيُقال: سببه تفريطك ، فإنَّ الخطبةَ مقصدها التذكير وتعليم الدين ، وأنتَ قصدك إقامة رياستك ، وإن قصدت صلاحهم لم تعلمهم ما ينفعهم»(١) .

وهذه الخطوات كلها، وغيرها، تؤكد أهمية تربية النخب والعمل على إيجاد القدوة الصالحة.

تربية النخب والعمل على إيجاد القدوة الصالحة:

وتلك خطوة عملية لا بد منها؛ لأمورٍ كثيرة، منها:

* أنَّ هذه النخب والقدوات الصالحة هم الذين يشقون الطريق أمام جماهير الأمة الواقفة الحائرة ، ويكسرون حاجز الصمت والسلبية .

لقد كانت العرب أيام بعثة رسول الله ﷺ تتربص بالإسلام وبرسول الله ﷺ ومن معه أن تخضد قريش شوكتهم ، وأن يحسم الأمر لصالح الجاهلية . ولكن القلّة (النخبة) من المهاجرين والأنصار صبرت وصابرت حتى ارتفع لواء الحق ، وزالت غربة الدين ، فلما رأت العرب هذا النجاح وهذا الغلَب لدين الله دخلوا فيه أفواجاً ، ووفدوا على رسول الله ﷺ جموعاً إثر جموع عام تسع ، حتى سمي عام الوفود لذلك(٢) .

---

(١) المسائل التي لخصها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب من فتاوى ابن تيمية ، ص ٩٤ .
(٢) انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (٤/ ٢٧٣) .

وهم ـ أعني النّخب ـ الذين ينتظر أن يكون منهم العالم الرّباني، والداعية المؤثر، والخطيب الواعي، والمجاهد الصابر، والتاجر الأمين المنفق، والإعلامي الناجح، والقيادي المظفر. وإذا لم تكن النخبة في الطليعة، فمن يكون إذاً؟

* ومنها: أن وجود القدوة الصالحة بين ظهراني الناس يعطي للأفكار الصحيحة قوة مضاعفة؛ لأنهم يرونها ماثلة أمامهم، ممكنة التطبيق، بلا سلبيات، وعندها تسقط الدعاوى المزيفة التي تلوّح للناس أن الإسلام غير ممكن التطبيق، وأن تطبيقه سيولد مضاعفات ومشكلات. وتروج هذه الشبه على من لم يمارس تعاليم الإسلام بصورة عملية.

وكون القدوة الصالحة ضرورة في استئناف الحياة الإسلامية بصورة صحيحة ليس اقتراحاً للمناقشة، أو فكرة يمكن الاستغناء عنها.. كلا.

إنّه منهج شرعي أصيل، أن يُتلقى دين الله بالاقتداء والتأسّي.

لقد أمرَ الله رسوله ﷺ أن يقتدي بمن قبله من النبيين، بما قاموا به من أمر الله وحفظ حدوده، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]؛ أي: اتبع أثرهم واعمل كما عملوا [(١)].

وأمر ـ سبحانه ـ رسوله والمؤمنين أن يتأسّوا بإبراهيم ﷺ والذين معه: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ يعني: لكم أسوة حسنة في إبراهيم وقومه، تتأسّون بها في أمورهم، إلا في استغفار إبراهيم لأبيه المشرك، فإنّه كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبيّن له أنه عدو لله تبرّأ منه [(٢)].

وحض الله المؤمنين أن يتأسّوا برسوله ﷺ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكان للقدوة الصالحة أثر عظيم في انتشار الإسلام في بلاد لم تطأها جيوش المسلمين، في أماكن كثيرة في إفريقيا وآسيا وغيرها، ولا بد أن تكون القدوة الصالحة في

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٧/ ٢٦٥).
(٢) انظر: تفسير البغوي (٤/ ٣٣٠). وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٨).

مواقع القيادة، وأن تخوض غمار الحياة بصورة جماعية ما أمكن ذلك، فإنَّ للأعمال الجماعية من التأثير ما ليس لغيرها.

لقد نجح الإسلاميون [(١)] نجاحاً باهراً حينما أُتيحت لهم فرص محدودة في زمن محدود، في الجزائر وفي فلسطين والسودان، وفي اليمن ومصر والأردن وغيرها، وأثبتوا للأمة أنهم حاضرون ومستعدون للتضحية في أوقات الأزمات. ولكن حتى لا يأتي هذا النجاح على حُجُب الأنظمة الفاشلة فيهتكها، سارعت الدنيا كلها لإجهاض كل تجربة إسلامية مهما كانت محدودة، وتشويهها!

ونجحت مؤسسات مالية إسلامية في مصر، فصُودرت ممتلكاتها، ومنعت من مزاولة أنشطتها التجارية [(٢)]!

والفوائد والأهداف التي تحققها النخبة الممتازة والقدوة الصالحة، إذا أحسن اختيارها وتربيتها، كثيرة لا يأتي عليها الحصر.

وتربية النخبة يجب أن يكون في مقدمة اهتمامات العاملين في مجال التعليم والدعوة، والمهتمين بإخراج الأمة المسلمة واستعادة عافيتها وقوتها.

والقدوة الصالحة هي الجامعة بين العلم النافع والعمل الصالح، وهي خير من يربي الأمة على الإعجاب بالمثل الأعلى، وخير من يقربه إلى قلوبهم.

وكلَّما غابت هذه القدوات والمنارات، استبدل الناس بالمثل الأعلى الحق، مُثلاً أخرى رديئة زائفة، شعروا بذلك أم لم يشعروا، كما قال عليه الصلاة والسلام: **«إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس** ـ وفي رواية: **من العباد ـ ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهَّالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا»** [(٣)].

وإذا قلت: إن القدوة الحسنة تقرب الناس من المثل الأعلى وتدلهم عليه، فإنَّما أعني أن الشخص القدوة هو أقرب مثل حي يعطي «نموذج الحياة التي يُرادُ للفرد المسلم أن يحياها، وللأمة المسلمة أن تعيش طبقاً لها» [(٤)].

---

(١) وليس معنى ذلك أننا راضون عن تفاصيل هذه التجارب، أو عن اتجاه التجمعات التي حققت هذه النجاحات من كل وجه. وتَحَفُّظُنا عليهم لا يمنعنا من الإشادة بما حققوه من نجاح، والثناء عليه والدفاع عنهم، وأن نعد جهودهم تلك، خطوات في الاتجاه الصحيح.

(٢) مثل: شركة الريان الاستثمارية في مصر.

(٣) متفق عليه، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما. انظر: فتح الباري، في العلم، باب: كيف يُقْبَضُ العلم (١/ ١٩٤)، ح رقم (١٠٠). ومسلم في العلم، باب: رفع العلم وقبضه، ح رقم (٢٦٧٣).

(٤) أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٨٠.

فهو من هذا الباب قدوة فيما وافق الحق فيه، وبالتالي فليس هناك شخص يصلح للاقتداء به من كل وجه، وفي كل حال، غير المعصوم نبي هذه الأمة محمد ﷺ.

فالأمة ـ أية أمة ـ لا تخلو حالها مع (المثل الأعلى) الذي تقتدي به وتنتسب إليه من إحدى حالات أربع:

الحال الأولى: أن يكون مثلها الأعلى حقاً واقتداؤها به صحيحاً.

وهذا يعطي أفضل النتائج. وشاهده تربية النبي ﷺ للرعيل الأول من المسلمين على منهج الإسلام؛ إذ كان ﷺ هو المثل الأعلى[1] الذي يُقتدى به، فلم يتعرَّض الحقّ لاختلاف الفهوم، ولا لضعف التمثل والتطبيق.

الحال الثانية: أن يكون مثل الأمة الأعلى باطلاً، ولكنه كان واضحاً في الأذهان، ويكون تطبيق الخطوات إلى بلوغه جيداً وصحيحاً.

وهذا يعطي نسبة عالية من النتائج. وشاهده ما عليه أمم الغرب واليابان، فإنَّ أهدافها ومثلها العليا ـ سواء كانت مادية بحتة، أو وطنية، أو جنسية ـ وإن كانت فاسدة باطلة، إلا أن تلك الدول استطاعت بالتربية والتوجيه وحسن التطبيق لمتطلبات تلك الأهداف أن تحقق لشعوبها نتائج مادية باهرة. فهي منسجمة مع مثلها الأعلى متمثلة له، وإن كان هذا المثل لفساده وبطلانه لم يحقق لها السعادة، وإن حقق لها السيادة!

الحال الثالثة: أن يكون المثل الأعلى حقاً، ولكن حصل الجهل والتقصير في كيفية الفهم والاقتداء والتطبيق.

وهذا يعطي نتائج أقل من سابقه؛ لأنَّ صحة المثل في ذاته لا يُعفى من ضرورة حسن الاقتداء به، كما لا يشفع في حماية من لم يرفع به رأساً، بل يناله من النقص بقدر ما يفرط فيه من حُسن التمثل والتطبيق.

وهذا هو حال الأمة الإسلامية في العصور المتأخِّرة.

ومع بالغ الأسى والأسف، فإنّه كثيراً ما «يُساء فهم هذه الظاهرة، ظاهرة تخلّف المسلمين، فلا ينسب هذا التخلف إلى العجز في نظم التربية والتوجيه.. ولا ينسب كذلك إلى نوع المشتغلين بهذه المهمات، بل يظن أن السبب هو الإسلام نفسه. وهذا قد يوقع في البلبلة، ويدفع كثيراً من أبناء المجتمعات الإسلامية إلى البحث عن (مثل أعلى»[2]. آخر خارج دائرة الإسلام.

---

(١) أي: الذي كَمُلَ من البشر الكمال النسبيّ المقدّر للإنسان أن يبلغه، فلا يستطيع أحد أن يكون مثله في كماله ﷺ.
(٢) أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٨٣، ٨٤ بتصرف يسير.

الحال الرابعة: أن يكون مثل الأمة الأعلى باطلاً، والطريق إليه خطأ.

وهذا أقبح الأربعة، وليست له نتائج دينية أو دنيوية نافعة، وذلك كالتعصب للنعرات القديمة كالفرعونية، أو القبلية، التي تنتهي إلى الحروب الأهلية الطاحنة، والفتن الداخلية المدمرة[1].

ومن العمل الصالح الذي يجب أن تتربّى عليه الأمة:

مقاومة الفساد والانحراف في النفوس، وفي الواقع.. بصورة عملية.

ولا بد من ذلك لحماية العلم النافع والعمل الصالح مما يفسده أو يضعف أثره في النفوس، أو يأتي على مكتسباته ويعرقل حركة مؤسساته في الواقع.

ومقاومة الفساد والانحراف تكون بالوسائل والأساليب المتقدمة ذاتها؛ أي من خلال المؤسسات العلمية والإعلامية والاقتصادية، ومن خلال إبراز القدوات الصالحة، وقطع الطريق على الطفيليات التي لا يخلو منها مجتمع أو مؤسسة.

كما تكون مقاومة الفساد بغير ذلك مما لم أذكر؛ ذلك لأنَّ إصلاح النفوس يستلزم مقاومة الفساد فيها، وإصلاح الواقع يقتضي العمل على تطهيره من الفساد والانحراف.

وقولهم: (التخلية قبل التحلية)، ليس معناه أن الإصلاح لا يكون حتى تزول آثار الفساد كلية، فإنَّ هذا غير مراد، وإنَّما معناه أن إصلاح النفوس والأحوال بإزالة الفساد والانحراف المانع من قبول الحق يجب أن يسبق، فلا تصلح النفس أن يكون الصلاح والخير فيها مجاوراً للفساد والخبث، ولا يلزم من ذلك التطهير، وإنَّما التأهيل مع استمرار المجاهدة، ويكفي أن نعلم أن العمل على تخلية النفس هو في حقيقته تحلية لها، فإنَّ المنكر لا يزول إلا بالمعروف، وإن المنكر لايزول عادة دفعة واحدة.

ومقاومة الفساد عمل صالح وقُربة إلى الله، وكلما كان الفساد أعم وأكثر ضرراً، كانت مقاومته أعظم أجراً وأكثر نفعاً.

والتربية على مقاومة الفساد والانحراف ضرورية لحماية دين الأمة ومنجزاتها.

ومقاومة الفساد تكون بعدة أساليب، منها:

* تعرية الفساد وفضحه، وإماطة اللثام عن سدنته ومَنْ وراءه، وبيان ما ينطوي عليه من مخاطر وأضرار.

---

(١) انظر: أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٨٣، ٨٤. وانظر: العمل قدرة وإرادة، لجودت سعيد، ص ١٥٥، ١٥٦.

* كما تكون بتدريب أفراد الأمة على الجرأة في قول كلمة الحق والاستهانة بالأخطار في سبيل ذلك، وتمرينها على ممارسة النقد وإبداء الرأي، وتأجيج الغيرة على حرمات الله أن تنتهك، مع إلجام النفوس بلجام الحكمة، والتأدّب بأدب الشرع.

* وتكون بمقاطعة الفساد، وذلك بمقاطعة مؤسساته، ومحاصرته في معاقله، وتقديم البدائل الأخرى متى وُجِدَت.

وكل ذلك من العمل الصالح الذي يجب أن تدرب الأمة على القيام به، وأن يكون مضبوطاً بضوابط الشرع، فإنّ مقاومة الفساد والانحراف نهيٌ عن المنكر، كما أن نشر العلم النافع والعمل الصالح أمرٌ بالمعروف.

ويجب أن تُرَبَّى الأمة على ضرورة الجمع بينهما، وأن تدرك أنه لا معنى لأي جهد إصلاحي يقتصر على الأمر بالمعروف، إذا كان الفساد والمنكر من ورائه، يحيط به وينسخ أثره.

وأخيراً، فإنّ خير معين على تفاعل الأمة مع خطوات الإصلاح وتطبيقها: ربط مسيرة إصلاح الأمة بالسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي.

وتوثيق الصلة بين خطوات الإصلاح لاستئناف الحياة الإسلامية وبين تجربة الأمة الرائدة في صدر الإسلام ضرورة وهدف، فإنّه «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»(١).

* فهو تربية بالقدوة، وحسبك برسول الله ﷺ وصحابته الكرام وخلفائه الراشدين قدوة للأمة ومنارات يُهْتَدَى بها.

* وهو تربية بالقصص والأحداث، وتأثير القصص والأحداث في النفوس، وحملها على الامتثال والتطبيق شيء عجيب، وهذا ـ والله أعلم ـ من الحكم في أن الله أكثر في كتابه من ضرب الأمثال وسياق القصص وأحوال الأمم الغابرة.

* وهو تربية على الشمول في الفهم والعمل، وعلى الجرأة في قول الحق وإبداء الرأي.

---

(١) جاءت هذه الجملة والحكمة البليغة في مفتتح خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي، ونصها: «إني رأيتُ آخر هذه الأمّة لا يصلح إلا بما صلح به أولها: لين في غير ضعف، وشدّة في غير عنف». انظر: الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٦٥). وأصلها للخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ.

* وهو تربية للأمة على معرفة ما عليها من الواجبات وما لها من الحقوق، وقيمة أداء الأول بأمانة، وأخذ الثاني بقوة.

* كما أنه تربية للأمة على كيفية التخلص من أخطائها والنهوض من عثراتها في كل الميادين، وأنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ.

وبالجملة، فإنَّ ربط خطوات الإصلاح بالسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي يعني ربط الأمة بماضيها المشرق وتجربتها الناجحة، بشهادة العالم واعتراف التاريخ والأمم.

وربط الأمة بالسيرة النبوية يعني الاقتداء برسول الله ﷺ، والاهتداء بهديه، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

والأخذ بمحاسن تاريخ المسلمين من سلف هذه الأمة داخل في معنى قوله ﷺ: **«عليكم بسنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ»**[(١)].

وقوله ﷺ: **«خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»**[(٢)].

وهم قد اجتمعوا على أصول الإسلام من تحكيم الكتاب والسُّنة ونبذ الشرك والكفر والبدع، وتولوا المؤمنين وتبرَّأوا من اليهود والنصارى وسائر الكافرين، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وأقاموا شعائر الدين الظاهرة، ومنعوا أسباب الفسق والفساد، وأقاموا علم الجهاد في سبيل الله، وأجمعوا على ذلك. فاتباعهم في ذلك والتأسي بهم هو من اتباع سبيل المؤمنين، وقد قال الله تعالى متوعداً من خالف سبيلهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد وأهل السنن بسند صحيح، عن العرباض بن سارية. انظر: المسند (٤/١٢٧، ١٢٨). والترمذي في أهل العلم، باب: ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٨)، وقال: «هذا حديث صحيح». وأبو داود في السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧). والبغوي في شرح السُّنة (١/٢٠٥)، رقم (١٠٢)، وقال: «هذا حديث حسن». وصححه شعيب الأرناؤوط في تعليقه على شرح السُّنة للبغوي، الموضع السابق. وعبد القادر الأرناؤوط في تخريجه لأحاديث جامع الأصول (١/٢٧٩).

(٢) متفق عليه، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه. انظر: فتح الباري (٥/٢٥٨)، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، ح رقم (٢٦٥١). ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ح رقم (٢٥٣٥).

ومعنى المشاقة: المُعادَاة. والآية - وإن نزلت في سارق الدرع أو غيره - فهي عامة في كل من خالف طريق المسلمين[(١)].

ولا يمكن التأسي بهم ما لم نقف على جلية أمرهم ونقرأ سيرهم.

ويمكن تحقيق هذا الترابط بين شعور الفرد، وخطوات الإصلاح، وبين السيرة النبوية وتاريخ الإسلام، وذلك عن طريق إعادة عرض السيرة والتاريخ الإسلامي بأسلوب مناسب، وإبراز مواطن العبرة واستنباط الدروس والفوائد، وربط ذلك كله بواقع الأمة، والمقارنة بين الحالين، وذكر أسباب هذا التباين، وكيف يمكن ردم الهوة بين الواقع القائم وبين الصورة المعروضة، ليتحقق الأمل المنشود.

وألاَّ يُتَلَقَّى التاريخ الإسلامي على أنه تجربة كاملة، مبرأة من العيوب والنقائص، فيقع التناقض بينه وبين نصوص الوحي وهدي المعصوم ﷺ، حين يقف المرء على بعض الأخطاء التي لا شك في وجودها.

كما لا يُتَلَقَّى مشوهاً ممسوخاً، كما يعرضه المستشرقون، وينقله عنهم تلامذتهم من المستغربين والمخدوعين، بحيث تبدو قيمته باعتباره تاريخاً عظيماً يُقْتَدَى به في جملته ويحاكى.. تبدو ضئيلة غير مشجعة.

بل يُنْظَرُ إليه على أنه عمل بشري لأمة ممتازة، غير معصومة، فيكون في جوانبه الإيجابية قدوة، وفي جوانبه السلبية عبرة وعِظَة.

ويمكن تحقيق هذا الترابط من خلال إبراز نواحي العظمة في التاريخ الإسلامي وما قدَّمه إنسان هذا التاريخ للإنسانية. وربط الناشئة بعظماء الأمة الحقيقيين عن طريق كشف جوانب عظمتهم وعرض مواقفهم البطولية، ومقارنة ذلك ببعض الأبطال المصنوعين الذين لا يستحقون الاحترام والتقدير، فضلاً عن التأسِّي والاقتداء بهم.

لقد ضعف التواصل بين أمة الإسلام وبين تاريخها وسير عظمائها وأبطالها ومحل القدوة والأسوة لها.. ضعف إلى حد الانقطاع، بل إلى حدّ الجفوة والعداء لدى كثير من المسلمين، بسبب الجهل والتشويه والتعتيم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٥/ ٣٨٥)، وسارق الدرع هو ابن أبيرق، لما حكم عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالقطع هرب إلى مكة وارتدَّ. وقيل: نزلت في نفر من قريش، قَدِمُوا المدينة وأسلموا ثم انقلبوا إلى مكة مرتدين. انظر: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة. فالله أعلم.

ولا أبالغ إذا قلت: إنَّ أساس هذا الهجر والقطيعة، هو هجر كتاب الله ـ تعالى ـ هجرَ تلاوةٍ وتدبّر، وهجر عملٍ وتطبيق، فلا عجب أن تهجر سُنَّة رسوله ﷺ وسيرته، ومن باب أولى أن تَشيع هذه الأمية حول تاريخ الإسلام وأبطاله وعظمائه، وأن يستعيض الناس عن ذلك كله بأبطال الفن ونجوم الرياضة والسينما والمغامرات والقصص البوليسية، وأن يضربوا الأمثال بزعماء الشرق والغرب والزعامات الوطنية المزيفة والعلمانية الغربية.

ذلك أن الأمة صيغت عقول ناشئتها ولقّنت هذه القطيعة منذ نعومة أظفارها، في مناهج التعليم وفي وسائل الإعلام.

وينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان عوده أبوه

ولا عجب فنحن لما لم ننتفع بالقرآن، لم نعتبر بأحداث التاريخ.

إنَّ على روّاد الإصلاح ودعاة الأمة ومصلحيها، أن يجتهدوا في أن يعيدوا للأمة الثقة بدينها وبتاريخها، وذلك بأن يقلّبوا صفحات التاريخ وينشروا لآلئه ودرره، ويزاحموا بها تلك الدمى الوضيعة في عقول أبناء الأمة، وأن يحسنوا الربط بين كل حادثة ومناسبة وبين السيرة والتاريخ الإسلامي.

وبهذا يصبح التاريخ مدرسة تتربى فيها الأمة. وخليق بمن يتربى في مدرسة التاريخ الإسلامي أن يتشبه بأساتذته وصانعيه.

وبعد: فلعلَّ من المناسب أن أذكر في خاتمة هذا الفصل، خلاصة وجهة نظري في أنَّ هذه الخطوات والأساليب وما شاكلها، هي التي تؤهل الأمة للتفاعل مع السنن، وهي الطريق الأمثل لتطبيقها في مثل أوضاع الأمة الإسلامية اليوم، فأقول:

إنَّ من سنن الله في الأمم، أن تغيير أحوالها لا يكون إلا بتغيير ما بأنفسها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وبما أن حديثنا عن الأمة الإسلامية بصفة خاصة، فإنّني أقول:

إنَّ تغيير ما بنفس المسلمين، الذي هو مقدمة لتغيير ما يحيط بهم من أحوال وأوضاع سيئة، قد تتهيأ له ظروف ممتازة وقد توضع في طريقه العراقيل.

قد تتهيأ له ظروف ممتازة، وذلك إذا اجتمع سلطان الشرع والحجة، وسلطان السيف والقوة. إذا اجتمعا على بيان الحق ونصرته، وذلك بأن يكون الحكم والولاية والسلطان خادماً للشرع حارساً له [(١)].

وفي مثل هذه الحال، ما أسرع ما تصلح الأحوال ويقمع الفساد ويمد العدل والأمن والرخاء رواقه.

فهذا المجتمع الإسلامي في المدينة وفي عهد الخلافة الراشدة، أحسن مثال على ذلك وأبلغه.

والمجتمع الإسلامي في عهد عمر بن عبد العزيز، أحسن مثال كذلك على إمكانية النجاح وترميم ما انثلم، وعلى صدق واطراد هذه القاعدة.

فقد كان المجتمع آنذاك لم يزل صالحاً راغباً في الخير، ولكنه كانت تنقصه قيادة راشدة وحاكم عادل. فلما جاء عمر بن العزيز أعاد الأمور إلى شيء أشبه ما يكون بعهد الخلافة الراشدة.

وقد يفترقان؛ السلطان والقرآن، فتحصل الخصومة والصراع[(٢)].

فالعلماء والمصلحون يريدون إقامة سلطان الشريعة، والوالي أو السلطان يريد تثبيت حكمه وبقاء سلطانه، ولو خالف الشرع وناقضه، سواء كانت مخالفته جزئية، كما هي الحال في عامة الولاة والسلاطين في عصور الإسلام المتقدمة، أو كانت مخالفة كلية أو شبه كلية، كما هو الحال في عامة حكام ورؤساء دول العالم الإسلامي في العصور الأخيرة.

وافتراق القرآن عن السلطان جزئياً أو كلياً هو الوضع السائد والغالب في تاريخ المسلمين.

وفي مثل تلك الحال، فإنَّ تغيير أحوال الأمة وإصلاح أوضاعها؛ أي محاولة الجمع بين القرآن والسلطان، إما أن يكون بتغيير القمة، أو بتغيير القاعدة، والمقصود بالتغيير هو تغيير الوجهة، باستصلاح أو بإزالة نحو الأفضل، وليس مجرد الاستبدال، فإنَّه لا معنى له.

وكل أسلوب من هذه الأساليب يستلزم عملاً معيناً وجهداً خاصاً. والناس في هذا ثلاث طوائف.

---

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ٣٩٤) وما بعدها.
(٢) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ٣٩٤) وما بعدها.

فالطائفة الذين يرون أن التغيير الصحيح يجب أن يبدأ بالقمة ، يرون أنه لا جدوى من استصلاح الشعوب ودعوتها ، فهي جاهلة متخلفة ، مقهورة بقوة الحديد والنار ، ويرون اختصار الطريق من هناك ، من القمة والقيادة .

فهم لذلك منهمكون في العمل السياسي والحزبي ، بعيدون عن الأعمال الدعوية والتربية الإيمانية ونشر العلوم النافعة .

والذين يرون العكس ، يذهبون إلى الطرف الآخر المقابل لأولئك ، فيُخرجون ـ وفق نظرتهم للإصلاح ـ الجوانب السياسية والاقتصادية ، ومقاومة الفساد والباطل ، ونشر العلوم النافعة من دائرة اهتمامهم ، ويرون أن الأوضاع والأحوال والناس يمكن أن يصلحوا بالتهذيب الخلقي وإشاعة بعض الفضائل والآداب الإسلامية ، والرقائق . . وما إلى ذلك .

وهؤلاء وأولئك أخذوا ببعض الحق فاختلفوا وتفرّقوا ، وحصل بسبب اختلافهم وفرقتهم تفرق واختلاف كلمة الأمة ، وإن كانوا لا يقصدون إلى ذلك ، فإنَّ النتائج في الدنيا لا يلزم أن تكون أسبابها مقصودة . وعصم الله طائفة أخذوا الدين كله إيماناً ، وقاموا به عملاً حسب استطاعتهم ؛ ذلك أن الأمة الإسلامية معصومة أن تجتمع على الباطل الذي هو الكفر ، معصومة كذلك أن تجتمع على بعض الحق الذي هو أخذ بعض الدين والشرع وترك بعضه ؛ لأنها لو اجتمعت للزم من اجتماعها أن يكون الأمر المجمع عليه حقاً كله . . والمجمع على تركه باطلاً كله ، وليس الأمر كذلك .

ثم إنَّ القيام ببعض الحق وترك بعضه قد يحمل على التعصب لبعض الحق ضد بعضه الآخر ، وذلك بسبب تضخيم هذا الجانب من الدين أو ذاك على غيره وربما تضخم الفرع حتى أصبح أعظم وأولى في نظر هذه الطائفة بالتقديم والعناية من الأصل ، وسواء كان ذلك بلسان الحال أو بلسان المقال ، أو بهما . وهذا يورث ـ لا محالة ـ تعصباً وتحزّباً للذي يرى صواب هذا المنهج ضد غيره ، وهو يقود بالضرورة إلى تعصّب وتحزب في مقابله ، وقد يكون على بعض الحق أيضاً . . فيكون التفرّق في الدين وفي أهله ، وهذا من أكبر الغلط ، ومن الجهل والظلم الذي نهى الله عنه .

والحق الذي لا شك فيه ، هو أخذ الدين كله ، والعمل على استصلاح القمة والقاعدة والحاكم والمحكوم في الأمة ، بكل وسيلة مشروعة تحقق المصلحة ، وتدرأ المفسدة أو تقلل منها .

ومن تأمَّل نصوص الكتاب والسُّنة، علم ذلك وتبيَّن له أنه الحق.

فإنَّ الله أطلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتابه، وهذا الإطلاق يدلّ على عموم الأمر بفعله من كل أحد، وأن يُؤمَر ويُنهى كل أحد.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

فكما لا يستثنى أحد من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، فكذلك لا يستثنى أحد من أن يأمر ويؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويُنْهَى عنه.

وقال ﷺ في حديث أبي سعيد: «**من رأى منكم منكراً فليغيره...**» الحديث[(١)].

وإرادة العموم في هذا الحديث ظاهرة بيِّنة.

وحتى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، والآية الأخرى التي في سورة الأنفال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]. فيهما إيماء إلى أن تغيير ما بالقوم، الذي يترتب عليه تغيير حالهم عام، فيشمل الحاكم والمحكوم.

إذا ثبت ذلك، فإنَّ من المعلوم أن المعروف يشمل كل علم نافع وعمل صالح، وأن المنكر هو ما كان بضد ذلك. فدخل في هاتين الجملتين الأمر بالدين والخير كله؛ لأنَّه من المعروف، والنهي عن الباطل والفسوق كله؛ لأنَّه من المنكر.

ثم إنَّ الله قرن بين العلم النافع والعمل الصالح، وعلَّق الفلاح والنصر والتمكين على مجموعهما. قال سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ح (٤٩).

فلم ينصره ـ سبحانه ـ على الحقيقة من لم يجمع بين هذه الأمور، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي أعمال صالحة مشتملة على علوم نافعة، وهي التي أجملها سبحانه بقوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

والعبادة اسم جامع للدين كله[1]. والدين إمّا أمر أو نهي، فعل أو ترك.

فهذا هو دين الله الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو هَدْيُ النبي ﷺ وفعله. وهو أعلم الخلق بمراد الله جل وعلا.

فكما أبطل الشرك وعبادة الأصنام وأمر بالتوحيد الذي هو إفراد الله بالعبادة، فكذلك جرَّد البشر من حق التشريع والتحليل والتحريم، وردّ ذلك كله إلى الله الواحد الأحد ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فكما لا يخلق غيره، فكذلك لا يشرع غيره ولا يأمر إلا هو سبحانه.

ومع هذا وذاك، جاهد النبي ﷺ لإبطال الفساد، وتطهير الأمة من المحرّمات كالربا والزنا وشُرب الخمر، ومن الظلم والاستعباد والقهر. كما جاهد من أجل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصلة الأرحام وتحقيق وحدة الأمة، وقاتل الكفار والمشركين. وحاسب ولاته وعماله وحاسبتهم الأمة، ولم يُحفظ عنه ﷺ ولا نزل في كتاب الله تعالى نص أو حرف يخالف شيئاً من ذلك.

ولم يلحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى حتى استقرّت هذه المعاني في أخلاد عامة المسلمين، وعرفوا أنها كلها من الدين، وأن الدين هو كلها مجتمعة.

وشرح ذلك وتقريره يطول..

والمقصود: أنه لا صحة ولا مستند لمن يظن أن إصلاح أحوال الأمة يكون بإصلاح القمة فحسب، أو القاعدة فقط. ولا صحة أيضاً لمن يظن أن إصلاح جانب أو جوانب من الدين والشرع يستلزم صلاح الجوانب الأخرى، دون جهد يبذل وأذى يلحق المصلحين، قد يبلغ اشد أنواع الأذى.

---

(١) انظر: العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٣٨.

إذا كان ذلك كذلك، فإنَّ من تمام إيضاح ما ذهبت إليه في أنما بسطته من وسائل وأساليب هي أقرب طريق عملي يستطيع أولو البصيرة والمعنيون بإصلاح أوضاع الأمة أن يسلكوه.. إنَّ من تمام الإيضاح لذلك أن ندرك أموراً، منها:

* أن من طبيعة النفوس، أنها لا تترك ما هي عليه من أمر واقع محسوس، حتى وإن كان فيه من الخطأ والقصور والنقص ما فيه.. لا تترك ذلك إلا إلى شيء آخر محسوس ماثل أمامها.. سواء كان مثوله في صورة قدوة صالحة، أو كيان قائم، تجاوز مرحلة التنظير إلى حيز الوجود وعالم التطبيق.

* وأنَّ خيراً من الإغراق في المثاليات وانتظار الخوارق، أن نبدأ إصلاح الأحوال بما نملك من وسائل، ونسعى لامتلاك المزيد منها.. فإنَّ الوسائل تكتسب بالدربة، وإن الحقوق والفرص تُؤْخَذ ولا تُوهَب. وفرق - أي فرق - بين من ينام منتظراً فرصة ذهبية قد تأتي، وأغلب الظن أنها لا تأتي، تاركاً الفساد يصول ويعبث دون حسيب ولا رقيب، وبين من يبدأ متوكلاً على الله، واثقاً بنصره وتأييده، موقناً أن سنن الله في تغيير الأحوال تقتضي ذلك، وتشهد له، وكل فرصة تسنح فهي من توفيق الله، فهذا هو الحريّ بالتوفيق والتأييد.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

* وأنْ نبدأ بداية صحيحة، فنزاوج بين بساطة البداية وشموليتها..

ننشر العلم النافع الذي يصحح الاعتقاد والعبادة، ويشرح ويبيّن الحق من الباطل في أبواب المعاملة والسلوك.

ثم نتبع ذلك بطرح مقترحات عملية لتنفيذ تلك التعاليم الصحيحة، العلمية والدعوية والاقتصادية وغيرها.. نبدأ الخطوة الأولى والثانية.. ثم تتابع الخطوات بعد ذلك.

ومع الزمن.. ومع ازدياد الوعي.. ومع نجاح هذه التجربة وتلك.. توجد المؤسسات المختلفة، وتتوفر البدائل، وينهار الحصار المضروب على الحق وأهله.

﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ ﴾ [النساء: ١٠٠].

وبداية بهذه الكيفية، تحقق أمرين رئيسيين:

* تحقيق التكامل في الجهود الإصلاحية، فإنَّ العلم والتعليم ـ مثلاً ـ يحتاج إلى الطاقات البشرية الصادقة، ما بين عالم يُستكتَب، وناشر ينشر، ومعلم يشرح ويبين بأسلوب محرر مناسب للمقام، ويحتاج إلى مال لذلك كله.. وقل مثل ذلك في بقية الجوانب.

* وتحقيق سرعة الانتشار في أوساط الأمة، فإنَّ في أفراد الأمة العالم، وفيهم المربي وفيهم المهندس والطبيب، وفيهم التاجر، وفيهم الإداري الناجح، وفيهم الإعلامي البارع، وفيهم الفلاَّح.. وفيهم.. وفيهم.

وهم جميعاً يؤلفون مجتمعاً واحداً، لا يستغني بعضه عن بعض، وكل منهم يجب أن ينال نصيبه من العلم النافع، وأن يؤدي دوره في عملية الإصلاح بما يقدر عليه من العمل الصالح.

والذي يهمل الجانب الاقتصادي أو الإعلامي مثلاً، يكون في حقيقة الأمر قد خسر جزءً من المجتمع، فيهم النوابغ والكفاءات، وقصر في استثمار جانب مهم لا غنى به عنه.

ومن الأمور التي ينبغي أن ندركها ونكون على ذكر منها، ونحن نحاول ممارسة عملية الإصلاح:

* أن من طبيعة النفس أنها تستوحش من قلة السالكين، إلا من رزقه الله رسوخاً في العلم والإيمان.

وأن مما يخفف من وقع هذه القلَّة ـ المورثة للوحشة ـ على النفوس الراغبة في الحق أن ترى الجهود الإسلامية أينما وجهت، وأن تشعر بأن عودة الأمة ليست في صفوف طلاب العلم والمثقفين، أو بين الطلاب والطالبات فحسب، بل وفي صفوف التجار والزراع، وفي أوساط العساكر والأجناد..

وأنَّها ضاربة الجذور في النفوس، وأنها قدر إلهي له ما بعده.

وهذا له أثر كبير في تقوية النفوس، واندفاعها للتفاعل مع خطوات الإصلاح ودعمها.

وأخيراً، فإنَّ على من يرشح نفسه لهذا السبيل أن يؤمن بجدوى وقيمة النجاح النسبي، وأنه مؤشرٌ صحيح.

إنَّ الذي يؤمن بجدوى النجاح النسبي، يكون قادراً على الصبر ومواصلة الطريق، وقادراً على الاستفادة من كل جهد يبذل..

والذي يؤمن بالنجاح النسبي، يدرك أنَّ التفاعل النسبي مع خطوات الإصلاح والتطبيق النسبي لها.. أنه نجاح.

وأنَّ الوعي الاجتماعي النسبي بالمخاطر التي تحدق بالأمة من داخلها ومن خارجها.. أنه نجاح.

وأن انتشار العلم النافع على قلّته.. نجاح.

إلى آخر ما هنالك..

ولكن ليس من النجاح، التوقف أو التراجع اكتفاءً بهذا النجاح، أو زهداً به واحتقاراً له.

ولعلّي بهذا أكون قد أوضحت وجهة نظري في ما أراه أسلوباً عملياً للتفاعل مع السنن وخطوات الإصلاح، وكيف يتم تطبيقها؛ لأنتقل إلى الحديث عن الوسائل التي تضمن ـ بإذن الله ـ استمرار فاعلية الإصلاح، وتساعد في تقدمه وتعميقه..

وسيكون الحديث عنها في **الفصل الثالث**. ومن الله أستمدّ العون والتسديد.

* * *

الفصل الثالث

ضمان الاستمرار[(١)]

إذا كان علاج أمراض الأمة ومداواة أدوائها لا يتم إلا بالفقه التام والمعرفة الصحيحة بهذه الأدواء والمعضلات، ثم بالأدوية والعلاجات، وهي الأسباب الشرعية التي تناسبها.. ثم بتدريب الأمة أفراداً وجماعات، وحملها على تعاطي هذه الأدوية والأسباب شيئاً فشيئاً، وإزالة الأسباب والعوارض المانعة من تأثيرها في جسم الأمة..

إذا كان ذلك كذلك، فإنَّ مما لا يقل أهمية وضرورة عن ذلك كله، مجاهدتها على الاستمرار على تعاطي تلك الأسباب، والبُعْد عما يخرمها أو ينقصها أو يفسدها.

والاستمرار على تعاطي الأسباب المنجية، والبُعد عن أضدادها من أهم المهمات، ومن الأمور الشاقة التي لا يتفطن له إلا آحاد العقلاء، ولا يصبر عليه، إلا قلائل الرجال، فضلاً عن الجماعات والأمم[(٢)]. وتكمن أهميته في أن استقرار الصلاح، والدربة على الإصلاح، أن ثمرته وغايته هو استمراره في الأمة ، وإلا ذهبت كل الجهود والتضحيات التي سبقته بما دون الحد الأدنى من المكاسب. وما قيمة تعليم الناس وتدريبهم على الأعمال الصالحة؛ إذ كنا إذا بدت لنا ثمار هذه الجهود قعدنا، وقلنا: الناس بخير.. الناس لا يحتاجون إلى مُصْلِحِينَ ودعاة، فقد صلحت أحوالهم.. الأمة شبّت عن الطوق وبدأت تدرك مسئولياتها.. وما إلى ذلك.

إنَّ هذا منطق ظاهر القصور، ولكنه قد قيل! بلسان الحال أو بلسان المقال.. والذين يعيشون شيئاً من هموم الأمة، ويخالطون أشتات الناس يعرفون ذلك.

ولو تمعنا قليلاً، لأدركنا أنَّ الناس إذا كانوا بخير، فإنَّ هذا الخير ما جاء إلا بمجاهدة

---

(١) الضمان: هو الكفالة، والضمين: الكفيل. والمقصود هنا: الأسباب والوسائل الشرعية، التي قضى الله وحَكَمَ وتكفَّل لمن أخذ بها، وواظب عليها، أن ينالَ ما رتِّب عليها من صلاح الأحوال، وأن يستمر له ذلك ما بقي كذلك، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وكما في الصحيح: «تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي وإيمان بي وتصديقاً برسلي، فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة». متفق عليه، من حديث أبي هريرة. [الفتح (٦/ ٢٢٠)، ح (٣١٣٣). ومسلم في الإمارة، ح (١٨٧٦). وهذه الأسباب جعلها الله ضامنة للأمة التي تأخذ بها؛ أي: حافظة لها أن تَحُلَّ بها الغِيَر، كما يحفظ الإمام على المأمومين صلاتهم. انظر: اللسان، مادة (ضمن).

(٢) انظر: تاريخ ابن خلدون (١/ ٢٤).

ومصابرة، وأنه لا يدوم، فضلاً أن يزداد ويصلب عوده إلا بالمجاهدة والمصابرة كذلك. وهل ضَمُرَ الخير وخفَّ ميزانه في نفوس وقلوب أهله إلا بسبب القعود، وترك الأسباب التي تضمن له القوة والاستمرار إلى ما شاء الله؟!

وهل يظن أولئك أن الشرّ وجند الشيطان قد سَئِمُوا الكفاح، ووضعوا السلاح وسلموا للأمر الواقع؟ إنهم كلما زاد الخير انتشاراً والمعروف رواجاً، كلما أجلبوا بخيلهم ورَجِلِهم، ونشروا الأعلام واستنفروا قواهم..

تلك هي طبيعة الخير والشرّ والحق والباطل. والذين يقعدون في حال استقامة أحوال الأمة لم يدركوا هذه الحقيقة الكبرى والبدهية التي شهد بها تاريخ الدنيا، وليس تاريخ الإسلام وحده، فكيف بمن يقول ذلك أو يفكر فيه، ولم تقم أمة الإسلام بعد على قدميها، بل هي في حال موات وشتات.[1]؟!

وتكمن مشقة الاستمرار على حال من الصلاح والاستقامة في أن الناس من طبيعتهم أنهم إذا أَمِنُوا وشبعوا وانتصروا.. وزال عنهم هاجس الخوف وشبح الحرب ولأواء الفقر أو المرض.. وما إلى ذلك، استناموا وانصرفوا عن الجد وركنوا إلى الدعة والغفلة، ونسوا أو تناسوا الحال التي كانوا عليها، والأسباب التي نجاهم الله مما كانوا فيه بسبب الأخذ بها.. فإذا ما طالت بهم الحال، لم يزيدوا إلا بُعْداً من تلك الأسباب، وإمعاناً في ارتكاب أضدادها.

وفي مثل تلك الحال يَقِلّ الناصح ويعزّ الداعي، وإن وُجِدَ ـ على قِلَّتِهِ ـ قابلوه بالإعراض، واتهموه بالمبالغة في وصف الأحوال، وتشككوا في جدوى ما يلقي إليهم، ظناً منهم أن لا حاجة إليه، اتّكالاً على ما هم فيه من أَمْن عارض ونعمة سابغة..

وقد أخبر الله في كتابه في مواضع أن ذلك حال عامة الكفار، قال جلّ وعلا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۞ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤، ٩٥]. وقال: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ

(١) راجع إن شئت: مبحث (المدافعة)، الصراع بين الحق والباطل، في الفصل الأول من الباب الثاني من هذا الكتاب.

يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[غافر: ٨٣] . . . وغيرها من الآيات[1] . وقد أصاب أكثر المسلمين داء تلك الأمم ، فها نحن نرى كل صنوف الإعراض ومظاهر الفسوق ومحاربة أهل الإصلاح في ديار المسلمين وأكثرنا لايزال يعاني ويعيش شظف العيش ، وحال الخوف ، وذل الهزائم المتوالية والابتزاز والقهر . . ﴿ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٦]؟! بل إن كثيرا من أمم الكفر قد أخذت بأسباب الرقي الدنيوي ، ولم يسعف هذه الأمة أن تجاري تلك الأمم في هذا المضمار الذي تهدي إليه العقول ، حتى لو كانت نكبة عن هدي الشرائع !

إن أمتنا تحتاج إلى مجاهدة ليستقيم عامة أفرادها أولاً على الجادة ـ وقد بيَّنْتُ وسائل ذلك في الفصل السابق ـ وتحتاج إلى جهد وصبر مضاعف للاستمرار عليها .

وثمة شيء آخر يوضح أهمية الاستمرار على تعاطي الأسباب المنجية ، وهو أمر قد يغيب عن بال الكثيرين ، وهو مما اختص الله به المسلمين ؛ رحمة بهم .

ذلكم هو: أن الله قد أعلم الأمة وآذنها كيف تكون مستعدة للمحافظة على نتائج جهادها ، وحراسة مكاسبها المادية والمعنوية ، التي اكتسبتها عبر رحلة الاستصلاح والبناء الطويلة ، أعلمها بذلك قبل الظفر بها وامتلاكها ؛ وأن ذلك بتعاطي الأسباب التي جعلها الله أسباباً للظفر بها والتأهل لها . فأسباب الظفر هي أدوات الاستمرار عليه . . وزيادة .

أي أن الله قد يحجب عن الأمة النصر ، ويمنعها ما تجاهد من أجل تحصيله ، إذا علم سبحانه أنها ليست أهلاً لذلك فيما يستقبل من أمرها ، وأنها لو ظفرت به لأضاعته ولم تقدره حق قدره .

وقد نبهنا القرآن إلى هذا في غير موضع . . وتأمّل معي قول الله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠ ، ٤١] .

فقد علّق ـ سبحانه ـ النصر بشروط مستقبلية ، يعلمها سبحانه ، ويعامل خلقه بمقتضاها ، وهي مطالبة ضمنية بهذه الشروط بعد التمكين وإيتاء الملك ؛ لئلا يسلب منهم .

---

(١) راجع: مبحث (أخذ الأمم بالسراء والضراء وموقفهم من ذلك) ، في الفصل الثاني من الباب الثاني .

قال الحسن وأبو العالية: «هم هذه الأمة إذا فتح عليهم أقاموا الصلاة». وقال الضحاك[١]: «هو شرط شرطه الله ـ عز وجل ـ على من آتاه المُلْك».

قال القرطبي: «وهذا حسن»[٢].

وفي الآية ثناء على الصحابة ـ رضي الله عنهم ؛ لأنهم لما مكّن لهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فظهر علم الله فيهم علانية أنهم أهل لنصر الله وتأييده.

قال عثمان ﷺ: «هذا والله ثناء قبل بلاء». يريد: أن الله قد أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا»[٣].

وفي مقابل ذلك أخبر ـ سبحانه ـ عن حال من استبطن الإعراض، وأصرَّ على التولّي.. أنه لو سمع الحق ومُنِح النصر والتمكين في المستقبل لاستمر في الإعراض، وأفسد في الأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥].

إنَّ المحافظة على النصر، والقيام بشروطه، أهم من تحقيق النصر ذاته.

وإنَّ المحافظة على المكاسب المعنوية والمادية للأمة لا تقل أهمية عن تحصيلها وامتلاكها.. والذين ينظرون إلى مشكلات الأمة نظرة موضعية قاصرة عجلى، ولا يخططون لحماية ثمرات الجهود، ولا يجهدون في ترسيخ الأسباب التي تضمن ـ بإذن الله ـ استكمالها واستمرارها.. إنَّ الذين ينظرون هذه النظرة، قد قصروا في اتخاذ الأسباب الشرعية، ولم يفقهوا الأمر حق فقهه.

---

(١) هو: أمية بن الضحّاك بن قيس الفهري، القرشي، عِدّاده في صغار الصحابة، شهد صفّين مع معاوية، وولاه الكوفة ثم دمشق، ولما مات معاوية بن يزيد وانعقد الأمر لمروان بن الحكم، امتنع الضحاك من مبايعته، فقُتِلَ بمرج راهط سنة (٦٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٤١)، وكتاب الوفيات لابن قنفذ، ص ٧٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٧٣).

(٣) الكشاف، للزمخشري (٣/ ١٦).

وهؤلاء وأمثالهم أقول:

إنَّ مشوار الإصلاح لم ينته عند حدود ما فصَّلنا في الفصل السابق (التفاعل مع السنن وتطبيقها)، وما تلك إلا خطوة على طريق خلاص الأمة، لا يتم تمامها إلا بهذه الخطوة التي نحاول أن نخطو نحوها .. ونضع أقدامنا عليها.

ويجب أن نتذكَّر دائماً، أن خطوات إصلاح الأمة ووسائل تنفيذها، وأساليب المحافظة عليها.. عملية متداخلة متشابكة، يكمل بعضها بعضاً ويفتقر بعضها إلى بعض، وليست أجزاءً ولا تفاريق، وليست مراحل محدودة، محكومة بأطر لا تتجاوزها.. كما أنها ليست فوضى غير خاضعة لاعتبارات الزمان والمكان وملابسات الحال، غير مفتقرة إلى التخطيط والتقنين.

كلا. لا هذا ولا ذاك... إنها ـ باختصار ـ تشبه طبيعة النفس الإنسانية في تداخلها وتكاملها، وسائر خصائصها التي تميزها عن المادة الصمَّاء وقوانينها وسننها.

يوضح ذلك: أنَّ الأمَّة ـ على سبيل المثال ـ لا يمكن أن يتجاوز كل أفرادها مرحلة ما أسميته (فقه السنن) بنجاح إلى مرحلة (التفاعل معها وتطبيقها)، بحيث نستطيع أن نتعامل مع جميع أفرادها وفق متطلبات مرحلة (ضمان الاستمرار).

بل ما زالت، ولن تزال فيها من كل الطبقات؛ مَن استوعب المرحلة النهائية، ومَن لا يزال دون مستوى المرحلة الأولى... وهكذا.

هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: فإنَّ إصلاح الأمة في كل مرحلة يفيد فائدة كبرى في إصلاح المراحل كلها في آن..

فمثلاً: عندما يتحدث متحدث عن ضرورة ترسيخ وحدة الأمة الإسلامية، فإنَّه يجب أن يعالجه من الناحية النظرية، وأن يطرح ما يراه مناسباً من الوسائل العملية التطبيقية، وأن يربط ذلك بتاريخ الأمة، ويذكر أمثلة ونماذج حيَّة، وأن يكشف عن الآثار الوخيمة من جرَّاء تمزّق أوصال الأمة وتفكك وحدتها، وأن يعرض للأهداف والغايات والثمار التي يمكن أن تجنيها الأمة بسبب تحقيق هذه الوحدة.

وهذه السلسلة المتصلة الحلقات، تسهم في التفقيه في السنن، ومعرفة الأسباب المعينة على الخروج بالأمة من أزمتها، وتحمل على التفاعل معها وتطبيقها من خلال الوسائل المقترحة، ثم إنَّ تحقق وحدة الأمة بعد ذلك، واحد من أهم أسباب الاستمرار والقوة على مستوى الأمة.

إنَّ غاية ما أقصده بطرح تلك المراحل أو الخطوات الكبرى في طريق الخروج بالأمة مما هي فيه ، بالأسلوب الذي طرحتها فيه ، أن أؤكد على مبدأ التدرج المنطقي في عملية الإصلاح ، كل شيء بحسبه ، بحيث لا نبدأ الخطوة الثالثة ونحن أميون أو شبه أميين في المرحلة الأولى ، أو أن نشتغل بحمل الناس على عملٍ ما قبل أن نقوم بما يجب من تعليمهم وتبصيرهم به . . . وهكذا .

إذا تبيَّن ذلك، فما هي أهم الأسباب والوسائل التي ضمن الله لمن أخذ بـــهـــا، علماً وعملاً، ودعا إليها وجاهد لتحقيقها أن الله يحفظه من الغِيَر، ويتمم عليه النعمة، ويمكِّن له في الأرض، ما حفظها وقام بأمر الله فيها؟

وجواباً عن هذا السؤال أقول:

هناك أسباب ووسائل كثيرة لا بد منها ، وجِمَاعها ـ كما أسلفت ـ التحقق بالعلم النافع والقيام بالعمل الصالح ، وبعض هذه الأسباب أليق بمقام تحصيل ذلك والتحقق به ، وبعضها أشبه بمقام المحافظة عليه وضمان استمراره . .

وقد فصَّلت في الفصلين السابقين أهم الوسائل والأساليب النافعة في تحصيل وتطبيق كل منهما . .

وفي هذا الفصل أحاول تبيان ما يتعلَّق بضمان الاستمرار على ذلك والمحافظة عليه . باختصار غير مخل بالمقصود . وأسأل الله الإعانة والتسديد .

*** فمن ذلك: التعمّق في فقه السنن لمواجهة مشكلات الحياة المتجددة، والقدرة على التطوير واستباق الأحداث، وتطويعها لمصلحة الأمة.**

ويتم ذلك من خلال مزيد من الدراسات العلمية النظرية والعملية الميدانية في كل جانب تحتاج إليه الأمة .

ومن خلال التخطيط والتنظيم والاستطلاع ، الذي يتمثَّل في ما يسمى بالدراسات المستقبلية والدراسات الاستشرافية(١) . ونشر ما يهم جمهور الأمة من نتائج هذه الدراسات ، ومراجعة المواقف والخطط السابقة وتعديلها وفق ما ترشد إليه النتائج الجديدة ، والمستجدات الحادثة .

---

(١) مقدمة في ظاهرة التغيير ، للدكتور/ إبراهيم عباس ، ص ٢٦ بتصرف . و انظر أهمية الدراسات المستقبلية ، خصوصاً في ظل التقدم العلمي الهائل ، ودوافع الاهتمام بها ، وأنها من جهة تخدم في التخطيط السليم للمستقبل ، ومن جهة أخرى تعكس مدى القلق والرعب من المستقبل في حسّ وتقدير إنسان الحضارة الجاهلية المعاصرة . انظر ذلك في: كتاب الدراسات المستقبلية ـ عرض تحليلي ونقد ، للدكتورين/ جورج طعمة ، وسعد حافظ .

وهذا هو مقتضى الفقه الشرعي، كما نبَّه إلى ذلك الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ بقوله: «يَحِدُثُ للناس من الأقضية بقدر ما يحدّ لهم من القضايا».

ولهذا أمر الله عباده بالتدبر والنظر في آيات الكتاب، والسير للنظر والتأمّل في آيات الكون، فعن طريق هذين تستكمل المعارف وتصح القرائح..

قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [سورة ص: ٢٩].

وقال: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ ﴾ في غير ما آية [النمل: ٦٩، العنكبوت: ٢٠، الروم: ٤٢]. وقال ـ سبحانه ـ بعد ما قصَّ نبأ المهلكين من الأمم: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]. وقال: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهذا يستلزم تكرار النظر والبحث والاستزادة من العلوم حتى يتبين الحق لمن خفي عليه، وحتى يذعن له من يجادل فيه.

*** ومن الوسائل التي تعين في المحافظة على المستوى الرفيع الذي تصل إليه الأمة بالمجاهدة:**

الإفاضة في شرح معنى العلم النافع والعمل الصالح، وتأكيد شموليتهما لكل ما يحتاج إليه الإنسان في عمارة الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة.

وضربُ الأمثال في ذلك من واقع التاريخ الإسلامي.

وهذا جانب مهمٌّ، وربما زهد بعض الأخيار في بعض الاختصاصات، أو استهان بأهمية شغل بعض الأعمال، ظناً منهم أنها من جنس الأعمال الدنيوية، وأنهم بالتالي لا أجر لهم فيها ولا ثواب لهم عليها، أو أن أجرهم زهيد حتى مع الاحتساب. وهذا مسلك في الفهم إذا تكاثر سالكوه، أضرَّ ذلك بمصالح الأمة الحيوية، وجعل رقيها المادي موقوفاً على سفلة الناس ومن لا خير فيهم، ممن كانوا ولا زالوا أدِلاء لكل عدو مستعمر وخدّاماً لكل طاغية متسلّط، أو جعل مصيرها بيد عدوها الأبعد، كما عليه حال الأمة اليوم.

ومما يفيد في هذا الجانب: أن يشرح العلماء وطلاب العلم لعموم الناس منزلة فروض الكفاية من الدين، وأن منزلتها تؤخذ من اسمها، فهي فروض لا بد من القيام بها، وليست مندوبة يسع تركها.

وأن الذي يسد هذه الثغرة، يكون نائباً عن الأمة في هذا الباب، وهذا شرفٌ عظيمٌ له في الدنيا والآخرة.

وأنه لا يستوي من يقصر نفسه على القيام بالواجبات العينية، ومن يتعدَّى ذلك إلى النهوض بفروض الكفاية عن غيره من القاعدين أو العاجزين... إلى آخر ما هنالك من المعاني التي قد تكون غائبة عن الأذهان، بسبب الجهل أو التقليد، أو لأي سبب آخر.

والمقصود: أن مما يضمن للأمة التقدم والاستمرار: أن يجاهد المصلحون ويجهدوا في شرح معنى الإسلام، وحقيقة العلم النافع والعمل الصالح[1]؛ حتى يعلم الناس أنه لا حاجة بهم إلى أن يستعيروا نظاماً سياسياً أو اقتصادياً أو تربوياً من غيرهم، فضلاً أن يبحثوا عن المبادئ والقيم، وحتى يشعر كل مسلم ـ أيا كان اختصاصه ـ أنه عامل للإسلام مأجور في عمله، نائب عن الأمة فيما هو فيه، إذا أحسن القصد وأصلح النيَّة.

*** ومن ذلك: بناء الأمة بناءً عقائدياً متيناً سليماً.**

فالعقيدة قطب رحى الأمة وركيزتها، وهي سبب عزها ومصدر قوتها وثباتها، وليست عبادتها وأخلاقها وتصوراتها ومواقفها إلا فروعاً على تلك العقيدة، مصبوغة بصبغتها فإذا قويت العقيدة ورسخت قويت الأمة بكل مظاهرها، وإذا انحلَّت عُرَاها وَوَهَى أساسها خارت قوى الأمة، ولو كانت على جبال من القوة المادية.

فأنتَ تعرف الأمة ذات العقيدة الصلبة من حفاوتها بعباداتها، وتعرفها في أخلاق أبنائها ومعاملاتهم وفي كل شئونهم.

والعقيدة التي نطالب بحمايتها هي «العقيدة التي تتسع فتشمل كل نشاط الإنسان في كل حقول الحياة، فلا تقتصر مهمتها على حقل دون حقل، ولا على اتجاه دون اتجاه، إنَّها لا تدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، فما لقيصر وقيصر ذاته في العقيدة الإسلامية كله لله، وما لقيصرَ حقٌّ ليس للفرد من رعاياه، وأنَّها لا تتولَّى روح الفرد وتهمل عقله

---

(١) وقد أوضحت معنى الصلاح وضده، بشيء من البسط في مبحث (التمكين والاستخلاف) في الفصل الأول من الباب الثاني.

وجسده ، أو تتولى شعائره ، أو تتولّى ضميره وتهمل سلوكه ، وأنها لا تتولاه فرداً وتهمله جماعة ، ولا تتولاه في حياته الشخصية وتهمل نظام حكمه أو علاقات دولته»[1] .

إنَّ العقيدة التي نطالب بحمايتها ، هي العقيدة التي نفهمها من دلالة قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: ٣٠] .

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣] .

«إنَّ معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني ، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر ، وإنَّ وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً .

إنَّ حقيقة العبادة تتمثل في أمرين رئيسين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس ؛ أي: استقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً . عبداً يَعبد ، ورباً يُعبَد . وأن ليس وراء ذلك شيء . ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود ؛ وإلا رب واحد والكل له عبيد .

والثاني: هو التوجه لله بكل حركة في الضمير ، وكل حركة في الجوارح ، وكل حركة في الحياة . التوجه بها إلى الله خالصة ، والتجرد من كل شعور آخر ، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله .

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ؛ ويصبح العمل كالشعائر ، والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضا بقدر الله . . . كلها عبادة ، وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها ؛ وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثّل في عبودية كل شيء لله دون سواه»[2] .

وحماية العقيدة بهذا المعنى ، لا تتم إلا بأن تتلقاها الأمة على طريقة القرآن الفريدة ، وهي ربط كل التوجيهات والأوامر والنواهي برباط العقيدة والإيمان .

---

(١) السلام العالمي والإسلام ، للأستاذ/ سيد قطب ، ص ٨ .
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٨٧) بتصرف .

فلا تكاد تجد حكماً أو أدباً أو توجيهاً إلا وتجده مختوماً بما يناسبه من أسماء الله وصفاته، أو بالأمر بالتقوى والتحذير من المخالفة، أو تكون الآية مُفتَتَحةً بالنداء باسم الإيمان . . . أو ما شابه ذلك(١) .

اقرأ ـ مثلاً ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۞ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٤ ـ ٢٢٧] .

وقوله سبحانه: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۞ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩] .

فانظر كيف اعترض بذكر شيء من شأن الصلاة والأمر بذكر الله بين أحكام الطلاق والعدد؛ لأنه كتاب تشريع، وكتاب تذكير وموعظة(٢) .

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦١] . وقوله جل وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧] .

وعامة القرآن كذلك .

إنَّ العقيدة التي لا تظهر آثارها على اللسان: صدقاً في المقال، وعفة عن قول الزور والخنا، وصدعاً بكلمة الحق . . وعلى الجوارح: وقوفاً عند حدود الله، وقياماً بأوامر الله . . وعلى الأخلاق: كرماً وحياءً وشجاعة ووفاءً . . . إلى آخر ما هنالك من المظاهر .

إنَّ العقيدة التي لا تظهر آثارها كذلك، هي عقيدة قابعة في الضمير، لا أثر لها في واقع الحياة، وإن كان لها من أثر فأثر فردي قاصر سلبي . ومثل هذه العقيدة قد لا تساعد في بناء الحياة وعمارة الكون .

---

(١) راجع: مقدمة سورة الأنعام في الظلال، ففيها تفصيل شافٍ وإيضاح كافٍ لمنهج القرآن في عرض العقيدة وطريقته في تقريرها .

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢/ ٤٦٥) .

هذا لون من ألوان حماية العقيدة ؛ وهو أن نخلصها من لوثة التجزئة ، وهي داء يكاد يكون من أوسع الأدواء انتشاراً بين أفراد الأمة الإسلامية اليوم .

ومن حماية العقيدة: أن نطهر ساحتها من ألوان البدع والخرافات وضروب الشرك الخفي والجلي ؛ في الجانب التصوري العلمي ، كبدعة الأشاعرة والمعتزلة وما شابه ذلك . وفي الجانب العملي ، كالبدع الشركية العملية ؛ كالطواف حول القبور وبدع المتصوفة ، وكبدعة المولد . . . ونحوها .

ومن حماية عقيدة الأمة: أن تتلقاها الأجيال وتتعلمها الناشئة ، وأن يكون لها الحظ الأوفر في مناهج التعليم والإعلام ، في الوقت والإمكانات والوسائل[1] .

ذلك أنَّ تَلَقِّي أفراد الأمة وناشئتها للعقيدة الإسلامية بشمولها ونقائها على طريقة القرآن مِنْ أقوى عوامل استمرار عطاء الأمة وإيجابيتها ، وقوّتها وشجاعتها .

*** ومن الأمور التي تضمن للأمة البقاء والاستمرار:**

العدل في الأقضية والأحكام، وفي الحقوق والواجبات.. على مستوى الراعي والرعية .

وهذا باب عظيم ، وسب رئيس من أسباب البقاء والاستقرار .

وما تفانى الأوَّلُونَ وحلَّت بهم المثلات إلا بسبب ظلمهم وجور بعضهم على بعض ، وقد ثبت بنصوص الشريعة وباستقراء التاريخ أن ظلم العباد بعضهم لبعض لهو أسرع في فنائهم من أية معصية أخرى حتى الشرك بالله . وأنه لايمكن أن تستقيم الأحوال وتعمر الديار وتكثر الخيرات ، والأمة ما بين ظالم ومظلوم .

قال شيخ الإسلام: إنَّ «أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق ، وإن لم تشترك في إثم ؛ ولهذا قيل: إنَّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة . ويُقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والإسلام ؛ وذلك أنَّ العدل نظام كل شيء ؛ فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق ، ومتى لم تقم بعدل لم تقم ، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يُجزَى به في الآخرة»[2] .

---

(١) أقول هذا الكلام في الوقت الذي تسعى دول ـ كتونس ـ جاهدة في تجفيف منابع الإسلام ، وفي الوقت الذي يعمد قوم منا إلى سلخ المواد الشرعية ـ خصوصاً العقيدة ـ من أهم القضايا العقدية ، باسم التطوير ، وباسم التخفيف عن الطلاب ، وباسم تحاشي التكرار!والحقيقة ـ التي لا شك فيها ـ أنَّ وراء الأكمة ما وراءها!

(٢) فتاوى شيخ الإسلام (١٤٦/٢٨) . وفي أدب الدنيا والدين ، للماوردي ، ص ١٤٢ ، قال بعض الحكماء: «الملك يبقى على الكفر ، ولا يبقى على الظلم» .

والواقع يشهد بذلك ويؤيّده، فإنَّ الغربَ لما أقام نظام حياته على أساس العدل النسبي فيما بينهم، كان ذلك من أعظم أسباب ازدهاره وتقدمه، وبعكس ذلك العالم الثالث، ومنه العالم الإسلامي لما كان قائماً على أساس التسلّط وهضم الحقوق، حاق به من الضعف والتخلف والذلّ ما هو مشاهد للعيان.

وقد يجتمع في الأمة الظلم الأكبر وهو الشرك ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والتظالم بين أفراد الأمة.. وهذا في عامة الأمم الجاهلية، فمن مُقل ومن مستكثر، فإن الكافرين لا ينفكون من التظالم فيما بينهم، مع اجتماعهم على الكفر والشرك بالله. وهذا وذاك مما يسرع في هلاكهم ومحقهم. ويكون التظالم بينهم هو السبب المباشر لفنائهم وزوال ممالكهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [يونس: ١٣].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «... **إنّما هلك الذين من قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد**»... الحديث(١).

وقد تسلم الأمة من أن تجتمع على الشرك والكفر، وتبتلَى بالتظالم فيما بينها، وهذا هو الواقع في الأمة الإسلامية منذ قرون، وكان ولايزال من أقوى الأسباب في ضعفها وذهاب ريحها. ولن تقوم للمسلمين قائمة ما لم يقيموا العدل بينهم، ويكفوا عن ممارسة الظلم والأثرة، حتى ولو أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا وصاموا.

فإنَّ الله ينتقم للمظلومين من عباده، ولا يقيم للظالمين دولة، بل يسلّط عليهم ما يزعجهم ويقض عليهم مضاجعهم؛ من عدو حاسد ومتربص طامع؛ لأنّهم جعلوا لله عليهم سلطاناً وسبيلاً ببغيهم وظلمهم.

ولن تقوم للعدل قائمة في ديار المسلمين إلا إذا حكموا شرع الله فيهم؛ في كل شئونهم، صغيرها وكبيرها، خاصها وعامها، على كل كبير وصغير، وحاكم ومحكوم. وكل من ادَّعى إقامة العدل في أمة محمد ﷺ، ثم لا يحكمهم بشريعة ربهم، فهو كاذب في دعواه.

---

(١) متفق عليه، من حديث عائشة. وسبق تخريجه.

ولأمة محمد ﷺ خصوصية ، وهي أن العدل فيها مربوط بالإسلام ، لا يكون مع غيره ، ولو حاولوا ما حاولوا ؛ لأنَّ العدل ـ النسبي بالطبع ـ لو تحقق بغير الإسلام ، لكان في ذلك أعظم فتنة للمسلمين عن دينهم . وليس كذلك الكافرون . فله الحمد والمنّة .

*** ومن الأمور التي جعلها الله ـ بمقتضى سننه ـ ضامنة لاستمرار عطاء الأمة، والمحافظة على ثمار العلم النافع والعمل الصالح:**

الوعي واليقظة التامة على مستوى أفراد الأمّة.

وعن طريق هذا الوعي ، تعرف الأمة ما عليها من واجبات فتؤديها ، وتتعرف على ما لها من حقوق فتطالب بها .

وبالوعي تستطيع الأمة التمييز بين من يخدمها ومن يستخدمها ، ومن يناصر قضاياها ، ومن يستغل قضاياها . فتمنح ولاءها وكلمتها لمن يستحقها ، وتعرّي زيف الآخرين ، وتضع حداً للاستغفال والتهريج .

إنَّ الوعي واليقظة في صفوف الأمة قد أثمر ثماره في الدول الكافرة ، يوم قامت الأمة بأسرها بدور المراقب والمقوم لأعمال الساسة والأحزاب الحاكمة ؛ فحفظت الأموال فلا تختلس ، واستقرت الحريات ، فلا يعتدى عليها ، وضمنت الحقوق والممتلكات ، فلا تسلب أو تصادر .

وإذا قالت الأمة كلمتها في أمر من أمورها ، نفّذ . وإذا تكلّمت في حق شخص ، سقط . وإذا ساندت شخصاً ، تبوأ فيها أعلى مكان . ولولا الوعي واليقظة ، لم تظفر بشيء من ذلك .

ولهذا فإنَّ الأمم الغربية اليوم لا تدافع عن شيء دفاعها عن حرياتها وحقوقها ، كما أنه لا توجد أمة مثلها يؤدي الفرد فيها ما عليه من واجبات تجاه الآخرين ، في حدود وطنه ؛ وسببُ ذلك: أن الجميع تدرَّب على المطالبة بحقوقه ، والأمة بمجموعها تقف حارسة للحقوق العامة ، فإذا طالب كل بحقه أنتج ذلك أن يودي كلٌّ واجبه .

وما لها لا تدافع عنها ، وهي أعز شيء لديها ، إن لم أقل: كل شيء لديها؟! ومن تذوق طعم الحرية والأنفة ، لم يطق طوق العبودية .

وإذا كان الوعي واليقظة بلغ بالأمم الغربية هذا الشأو ، فإنَّ يقظة المسلم ووعيه أتم من ذلك وأكمل ، إذا وجّه الوجهة الصحيحة .

إنّه وعي إنسان يؤمن بمبدأ صحيح ، ويعيش لهدف سامٍ وغاية نبيلة ، لا وعي إنسان يعبد المادة ويسعى بِهِمَّةِ الحيوان .

إنَّ وعي المسلم ويقظته يفترض فيها أن تعلم جنس الإنسان معنى الحياة والحرية، وحقيقة الكرامة والجرأة؛ لأنه أخذ ذلك كله من القرآن، وتلقاه عملياً من معلم البشرية ﷺ من خلال سيرته، ووعى في ذاكرته أروع الأمثلة في اليقظة من تلامذة مدرسة النبوة. فلا يبالي بعد ذلك بمن خالف أو أبى.

لقد أشاد «القرآن بالذين يرفضون الظلم، ويتناصرون لمقاومته، واستنهض هممهم لمنازلته: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٣٩ ـ ٤٢].

والرسول ﷺ يجعل خنوع الأمة وعدم تناصرها لمقاومة الظلم من العلامات الدالَّة على موتها، وانتهاء مبررات وجودها: «**إذا رأيت أمتي لا يقولون للظالم منهم أنت ظالم، فقد تودِعَ منها**»[(١)].

واستحقاقها العقوبة، كما جاء في حديث أبي بكر ﷺ أنه قال ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه ـ: «أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة: ١٠٥]، وإنَّا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناسَ إذا رأَوْا الظالم فلم يأخذوا على يَدَيْه أَوْشَكَ أن يعمهم الله بعقاب**». وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا ولا يغيرون، إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب**»[(٢)].

إنَّ الوعيَ الذي تعلَّمته الأمة من دينها، هو الوقوف مع الحق ومساندته، والوقوف في وجه الظلم ومقارعته، ولو كان من أقرب قريب وأنسب نسيب، حتى شاع ذلك بينهم شِياع سائر تعاليم الإسلام، بل كان بعضهم يطالب الآخرين بأن يعاملوه على أساس هذا الوعي واليقظة، لعلمهم أن هذا لو مات في النفوس لضاع الحق وتسلَّط بعض الأمة على بعض.

---

(١) إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها، للدكتور/ ماجد الكيلاني، ص ٨٩ بتصرف يسير.
والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده، عن عبد الله بن عمرو. انظر: الفتح الرباني (١٩/ ١٧٥، ١٧٦).
قال الساعاتي في تخريجه: «أورده الهيثمي وقال: رواه أحمد والبزار بإسنادين، ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح، وكذلك رجال أحمد... و أورده المنذري في الترغيب والترهيب وقال: رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد». قُلتُ (والقائل الساعاتي): وأقرّه الذهبي.

(٢) رواه أحمد، والترمذي وصححه، وأبو داود، والبغوي في شرح السُّنة (١٤/ ٣٤٤)، وإسناده صحيح، وسبق تخريجه.

«كان عمر بن الخطاب ﷺ في مجلس، وحوله المهاجرون والأنصار، فقال: أرأيتم لو ترخّصت في بعض الأمور، ما كنتم فاعلين؟ فسكتوا، فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً. فقال بشر بن سعد[١]: لو فعلت ذلك قوّمناك تقويم القِدْح. فقال عمر: أنتم إذن! أنتم إذن؛ أي: أنتم إذن الرجال الممثلون للأمة الحقَّة»[٢].

إنَّ الطريق الوحيد لحماية حقوق الأمة ـ ودينُها في مقدمة هذه الحقوق ـ هو أن تكون على مستوى المسئولية، يقظة ووعياً، وجرأة في إبداء الرأي، وقوة في الدفاع عنه، ما دامت تعتقد صوابه، حتى يثبت لها خطؤه.

وإذا أصحبت بهذه المنزلة استطاعت أن تفرض احترامها، وأن تنتزع حقوقها، وأن تفرض الشورى الشرعية وتختار أهلها الأكفاء.

وعلى أولي العلم والرأي في الأمة في ذلك، مسئولية أعظم من غيرهم، بما معهم من العلم والبصر في الأمور، ولما لهم من المكانة والحظوة عند الخاصة، والإجلال والطاعة في قلوب العامة. فكلامهم مسموع ورأيهم مطاع من الفريقين.

وإذا كانوا على وعي ويقظة، كانوا حرَّاساً أمناء وممثلين عن الأمَّة أكفاء، فحفظوا للأمة حقوقها، ومنعوا الظلم عنها، وقاموا في الأمة يعلمونها ما لها من الحقوق وما عليها من الواجبات، في أمور دينها ودنياها، فازدادت ثقة الأمة بهم، وأخذها عنهم.

وكل ذلك يرفع من رصيدهم عند الخاصة؛ لأنَّ قيمة العالِم عند الخاصة ما هي إلا صدى لقيمته ومنزلته عند العامة، وليس العكس[٣].

وأمَّا إذا كانت الأخرى، فَتَحوَّل العالِم إلى تابع يسير في ركاب الخاصة، فإنَّه مع الزمن تصبح له مطالب وحقوق، يشتغل في تحصيلها، ويعتاض بها عن المطالبة بحقوق الأمة، وإذا تعذر الجمع بينهما، قدم حقوقه على حقوق الأمة، وشيئاً فشيئاً حتى يصبح ينظر إلى حقوق الأمة من خلال واقعه هو، فلا يتحمَّس لقضاياها؛ لأنَّه لم يعد يرى الأمور على طبيعتها.. وشيئاً فشيئاً حتى يبدأ ينكر على الأمة أن تكون لها كل هذه الحقوق! أو أن تكون الخاصة تظلم هذه المظالم!

---

(١) لم أقف له على ترجمة.
(٢) إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها، للدكتور/ماجد الكيلاني، ص ٩٠ عن: كنز العمال (٥/ ٦٨٧، ٦٨٨). والقِدْحُ: السَّهْمُ.
(٣) هذا هو الغالب والواقع، وعكس ذلك نادر في الوقوع، وإن كان هو الأصل، ولا يكون هذا الأخير إلا إذا اجتمع السلطان والقرآن.

وحينئذٍ يكون عقبة في طريق الأمة، وعلى الأقل يكون عنصراً سلبياً، وهو محسوب عليها.

أما هو فقد سقط من عين الخاصة، بعد أن أسقط حقوق العامة. تلك سنة الله.

والأمة الواعية اليقظة هي التي تميز بين الفئتين، وتمنح ولاءها لأنصح الفريقين، ما بقي ولاؤه للحق.

إنَّ الأمة الواعية اليقظة هي التي تتمحور حول الحق، وتتعلق بالمبادئ ولا تتعصب للأشخاص، ولكن تنزلهم منازلَهم. ومنازلُهم تكون بقدر ما يحملون من الحق، ويدافعون عن الحرية والعدل.

وكم عانت الأمة الإسلامية من جرَّاء غيبة الوعي وغفلة السواد من متاعب، وجَرَّت على نفسها من مصائب.

فكم وضيع رفعته، فضحك منها حتى استلقى على قفاه، وهي تظن أنه يضحك معجباً بذكائها، فمنحته المزيد!

وكم من مصلح ناصح أراد بها خيراً ورام لها عزاً فخذلته، ولم تعرف له قدراً، حتى فارقها طريداً أو مقتولاً أو ميتاً على فراشه، إلا القليل!

وكم منكَر أقرته وباركته.. ومعروف أنكرته وهجرته! وكم..؟ وكم..؟

وكم صدق فيها قول الشاعر:

أَكُـلَّ امرئ تحسبين امــرءًا ... ونــار توقد بالليــل نـــارا[1]!

وقول الآخر:

أمرتُهُمُ أمري بمنعــــرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد إلى ضحى الغد

وقول الآخر:

ولو أن قومي أنطقتني رماحهم ... نطقت ولكن الرماح أجــرَت[2]

ومن دلائل الغفلة وغياب الوعي: أنك تجد بعضهم يؤازر المستعمرين من النصارى والملاحدة، ويجعلون من أنفسهم جسراً يعبر منه أولئك لإذلال المسلمين.

---

(١) البيت لأبي داود الأيادي، واسمه: جارية بن الحجاج. انظر: شرح ابن عقل (٢/ ٧٧).

(٢) البيت لعمرو بن معد يكرب. انظر: الأصمعيات، ص ١٢٢، ومعنى قوله: ولكن الرماح أجرَت؛ أي: إن رماح قومي قطعت لساني عن مدحهم والفخر بهم؛ لفرارهم من الحرب.

وقد تجد آخرين، يستوحش أحدهم أن يؤازر الكفرة الأجانب، ولكنه لا يجد غضاضة ولا يتمعَّر وجهه أن يكون ساعداً أيمن لطاغية من بني جلدته، وإن كان هذا الأخير أنكى على الأمة من الأول وأشد كفراً!

وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه: «لماذا تأخَّر المسلمون ولماذا تقدَّم غيرهم؟» من ذلك أمثلة مؤلمة.. كالوزير المقرئ الذي كان أشد حماساً وتعصباً لتنصير البربر في المغرب ورفع الشريعة منهم، من الفرنسيين أنفسهم.. وكان كلما أرادت فرنسا ـ تحت تأثير سخط العالم الإسلامي ـ أن تعدل عن حملتها في تنصير البربر، جاء هذا المقرئ يحذرها عاقبة الرجوع إلى الصواب، ويقول لها: إنَّ أهالي المغرب يعدون هذا منها نكوصاً وضعفاً، وبعد ذلك لا يمكنها أن تثبِّت أقدامها في شمالي أفريقيا!

وكالبغدادي؛ باشا فاس، الذي ضرب نحو مئة من الشبان بالسياط، لكونهم اجتمعوا في جامع القرويين وأخذوا يرددون دعاء: «يا لطيف الطف بنا فيما جرت به المقادير، ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر».

ومفتي فاس الذي أفتى بأن إلغاء الشرع الإسلامي من بين البربر، ليس بإخراج للبربر من الإسلام!

ثم يقول شكيب أرسلان: «وليس واحد من هؤلاء ولا مَن في ضربهم في المغرب إلا وهو مطلع على نيات فرنسة وعلى مراميها من جهة هذا النظام الجديد لأمة البربر، وليس فيهم إلا من هو عارف بوجود جيش من القسوس والراهبات، يجوس خلال بلاد البربر، ويبني الكنائس ويصيد اللقطاء والأيتام والفقراء وضعفاء الإيمان، وليس فيهم إلا من هو عالم بمنع فرنسة فقهاء الإسلام والوعاظ من التجوال بين البربر، حتى ترتفع الحواجز أمام دعوة المبشرين إلى النصرانية.

ومن يدري فقد يكون المقرئ والبغدادي هذان هما في مقدمة الموقعين على الأوامر بمنع علماء الإسلام وحملة القرآن من الدخول إلى قرى البربر!

وقد يكون المقرئ هذا هو الذي خصص المبلغ من مال المخزن لجريدة (مراكش الكاثوليكية) التي تطعن في الإسلام وتقذف محمداً ﷺ.

وبعد هذا، فمن يدري؟ فقد يكون المقرئ مصلياً وصائماً وبيده سبحة يقرأ عليها أوراداً.

ومن يدري؟ فقد يكون البغدادي السيئ الذِّكْر ممن يتمسَّحُون بالقبور ويستغيثون بالأولياء، ويتظاهرون بهذا الورع الكاذب.

وأمَّا المفتي! فهو المفتي! فلا حاجة إلى تثبيت كونه يصلي الخمس، ويصوم ويجتهد ويوتر ويتنفَّل .. إلخ».

يقول: و«قد مضى علينا نحن في سورية شيء من هذا لأوائل عهد الاحتلال، لكن لم تكن خيانة هؤلاء المعلمين في قضية دينية مباشرة. فقد اقترحَت عليهم فرنسة أن يُمضوا برقية إلى جمعية الأمم ينكرون بها على المؤتمر السوري الفلسطيني المطالب باستقلال سورية وفلسطين، فأمضاه منهم عمائم مكورة، وطيالس محررة ومجررة، ورقاب غليظة وبطون عظيمة .. ومن العدل أن نقول:

أخزاهم الله أجمعين، أخزى الله الذين منهم في المشرق، والذين منهم في المغرب، ممن يوقعون على اقتراحات الأجانب المضرَّة بالدين والوطن»[1].

وقد ذكرتُ لك من قبل، ما جرى في مصر إبان احتلال الفرنسيين لها، ثم في عهد الإنجليز، وما قال أستاذ الجيل لطفي السيد! في فصل مضى.

أمَّا الذين يبررون للطغاة الوطنيين جرائمهم، فأكثر من أن تحصيهم الأقلام، ويكفي أن تعلم أنه ما من طاغية أو متسلِّط إلا ويدور في فلكه طائفة من أشباه العلماء من المرتزقة، يلوِّح بهم متى شاء ليقصِم بهم ظهر الدين والملَّة.

والحق أنهم ليسوا من طينة واحدة، بل هم مشارب شتى، فمنهم المخدوع الْمُغَرَّر به، ومنهم المأتي من قِبَل جهله وضعف فقهه وفهمه للواقع ومجريات الأمور، ومنهم رقيق الدين الفاسق في باطنة أمره، ومنهم الطمَّاع الجشع الذي يسعى لِمَصَالِحِه، ولا يعنيه أمر الأمة في شيء... ومنهم... ومنهم.

ومنهم القوَّال لكلمة الحق الصادق في لهجته، وهؤلاء أقل من القليل.

وقد كانوا إذا عدوا قليلاً فقد صاروا أقل من القليل

---

(١) انظر: كتاب لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدَّم غيرهم، للأمير شكيب أرسلان، ص ٦٢، ٦٤ بتصرف.
وقد علَّق الشيخ رشيد رضا على الخبر الأخير بـ «أن الفرنسيين أرادوهم في السنة التالية لإمضاء بيانات خبيثة كهذه، فامتنعوا واحتجُّوا بأن عملهم ذاك عرضهم للإهانة واستوجب مقت الشعب السوري لهم، فهم لن يكرروا تلك الخيانة. ثم قال: وهذا دليل على أن الأمة تقدر متى شاءت أن تقوم أوْد هؤلاء المشايخ، وأن الخائنين الخادمين لدول الاستعمار ليس لهم علاج إلا الخوف على جلودهم» ا.هـ بتصرف يسير

والخلاصة:

* أن وعي الأمة ويقظتها ضرورة مُلِحَّة وركن ركين إذا ما أُريد للإصلاح أن يؤتي ثماره، وللحقوق أن تُصَان ولِلْمِلَّةِ والشِّرْعَةِ أن ترتفع أعلامها.

* وأن وعي العلماء ويقظتهم، وقيامهم بمسئولياتهم التي تحمّلوها من أعظم أسباب الاستقرار والاستمرار، وصلاح الحال والمآل.

* وهذا يقودنا إلى الحديث عن واسطة عقد أسباب استمرار الأمة في أَمَنَة من العقوبات والنكسات، وازدياد في الخيرات والبركات.. ذلكم هو:

* **قيام سوق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله**(١).

وهذا هو صمام الأمان، وواسطة عقد الأسباب الحافظة للمجتمع والأمة، وهو أول طريق الإصلاح وأوسطه وآخره، وأعظم ما يعول ـ بعد الله ـ عليه في استرداد عافية الأمة بعد بلائها، وعلاج أدوائها كلما خامرتها وأنهكتها.. فكما لا تصلح الأمة إلا بالأمر والنهي، فكذلك لا تبقى صالحة إلا بممارسة هذه الشعيرة والشريعة.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معنى عام يدخل فيه الدين كله، ويخرج بحدّه الباطل كله، كما بينت ذلك في أكثر من موضع(٢).

ومطلق الأمر والنهي طبيعة بشرية وخصلة جِبِلية لا ينفك منها إنسان(٣)، ولهذا يُقال: إنْ لم تشغلْ نفسك بالحق شغَلَتْكَ بالباطل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]، وهم المؤمنون الذين رحمهم الله فخالفوا أهواءهم وما تأمرهم به أنفسهم(٤)، وائتمروا بالمعروف. ولهذا لا يحمد الأمر والنهي لذاتهما، بل من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فهو المحمود، دون ما سواه.

أمّا خصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فضرورة بشرية لا قوام للإنسانية إلا بها، ليس فقط في شئون دينها، بل وفي شئون دنياها، ولهذا كان التدافع بين الخلق

---

(١) مسألة: هل هناك فرق بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين الدعوة إلى الله؟ أم أن معنى الكلمتين واحد؟ تلك مسألة سأحاول تبيانها بعد الفراغ من الحديث عن هذه النقطة، بإذن الله تعالى.

(٢) وانظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٩ وما بعدها. وكتاب: حتى لا تغرق السفينة، للشيخ/سلمان بن فهد العودة، ص ٥.

(٣) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٦٥.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير (١٣/ ١).

عامة، وبين الحق والباطل بصفة خاصة لبقاء الأصلح، ولدفع الفساد عن الأرض سُنَّة إلهية لا صلاح لهذا العالم إلا بها. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ولهذا لا تخلو حال الناس من أمور ثلاثة[1]:

فإمَّا أن يتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر» وهذه حال كُمّل المؤمنين.

وإمَّا «أن يتآمروا بالمنكر، ويتناهوا عن المعروف، وهذه حال المنافقين» والكافرين.

وإمَّا «أن يتآمروا ببعض المعروف وببعض المنكر، ويتناهوا عن بعض المعروف وعن بعض المنكر، فيقع منهم حق وباطل»، وهذه حال عامة المسلمين.

والأمة الإسلامية، ما كانت خير أمة أُخرجت للناس إلا لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله. فإذا عطلت هذه الشعيرة أو قصرت فيها، فقد فقدت من خيريتها ومبرر وجودها وسرّ تميّزها وسبب فلاحها بقدر ما فرَّطت وقصرت فيه في هذا الباب.

ولهذا قال ـ سبحانه ـ بعد أن وصف هذه الأمة بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، قال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهؤلاء المؤمنون القلَّة من أهل الكتاب (أمة) كان من صفتهم أنهم ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

وأنهم كانوا يهدون بالحق وبه يعدلون. ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

ومن عداهم استحقُّوا اللعن والعذاب؛ لأنهم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

(١) انظر: حتى لا تغرق السفينة، ص ١٤، ١٥.

ومما سبق يتبيَّن أن الخير في أهل الكتاب كان في أمة وطائفة منهم، وهو تنبيه وإشارة إلى قلته فيهم، لقلة من يقوم بالأَمْرَ بالمعروف والنهي عن المنكر منهم، كما قال سبحانه في الآية السابقة: ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾. وفي الآية الأخرى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

أمّا في هذه الأمّة، فإنَّ الأَمْرَ بالمعروف والنهي عن المنكر سمة وخاصية لها في عمومها، لا يخلو منه جيل ولا بلد، فـ (الأمة) في قوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وهي واردة في شأن هذه الأمة، أكمل وصفاً وأكثر عدداً من (الأمة) المذكورة في أهل الكتاب. ولهذا استحقت هذه الأمة بمجموعها وصف الخيرية، لقيامها بموجب هذا الوصف، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.. الآية [آل عمران: ١١٠]، وإن لم يقم به كل واحد منهم، فهو فرض كفاية على الصحيح[1].

والكفاية أمرٌ نسبيٌّ وقد يكون فرض عين في حالات معينة، وعلى أشخاص بأعيانهم[2].

والمقصود: أن كفاية هذه الأمة بقيام طائفة منها بهذه الشعيرة أعظم من كفاية غيرها فيه.

وإذا كان لا بد في واقع الحال من أمر ونهي، وآمر وناه، ومأمور ومنهي، وشيء يؤمر به وشيء يُنْهَى عنه. فإمَّا أن يغلب أهل الصلاح والخير فيأمروا بالمعروف من قدروا عليه من أفراد الأمة، وينهوهم عن المنكر.. وبهذا تصلح أحوالهم ويندفع المكروه عنهم، مع وجود شيء من الباطل والفساد، لكن يكون مستخفياً متوارياً، لأنَّ الدولة للحق.

---

(١) وقيل: إنْ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾؛ لبيان الجنس، كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]. والمقصود: اجتناب الأوثان كلها؛ لأنها كلها رجس. قال ابن عطية: «وهذه الآية على هذا التأويل، إنَّما هي عندي بمنزلة قولك: ليكن منك رجل صالح». قال: «وإلى هذا المعنى ذهب الزَّجَّاجُ وغير واحدٍ من المفسرين». انظر: المحرر الوجيز (٣/ ١٨٦، ١٨٧). وتفسير أبي السعود (٢/ ٦٦).

(٢) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ١٥. وكتاب: حتى لا تغرق السفينة، ص ٤٣ وما بعدها.

وإمّا أن يكون العكس ، فيغلب أهل الشرّ والباطل ، فلا بد أن يأمروا بالمنكر من قدروا عليه من أفراد الأمة وينهوهم عن المعروف ، ويكون ذلك سبباً في حلول العقوبة وفساد ذات البين ، وتهدّم أركان الدين ، مع وجود الخير والصلاح ، لكن يكون مستخفياً مقهوراً ؛ لأنّ الدولة للباطل .

وإمّا أن تكون الحرب سجالاً ، فيوجد هذا وهذا ، فيكون في الأمة صلاح وفساد وخير وشر ، بقدر استجابتها وانصياعها لكل منهما .

وها هنا مسألة قد يغفل عنها الكثيرون ، وهي:

أن انحسار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمع من المجتمعات ذو خطورة مضاعفة ، على خلاف ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان ، فإنّ بعض الناس إذا رأوا غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو ضعفه في مجتمعات المسلمين اليوم ، ظنّوا أن المشكلة هي فقط أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد زال أو ضعف .

والواقع أن المشكلة أبعد من هذا وأكبر ، فإنه إذا ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قوي الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف . فالمصيبة مضاعفة[(١)] .

وهذا يقتضي الحزم والمبادرة والمغالبة ؛ لئلا تغرق سفينة المجتمع ويسرع إلى أهلها العطب . قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾[الأنفال: ٢٥] .

فإنّ «الناس إذا تظاهروا بالمنكر ، فالواجب على كل من رآه أن يغيره إذا كان قادراً على ذلك ، فإذا سكت فكلهم عصاة ؛ هذا بفعله وهذا برضاه . وقد جعل تعالى بحكمته الراضي بمنزلة العامل ، فانتظم في العقوبة»[(٢)] .

وجاء في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»[(٣)] .

(١) حتى لا تغرق السفينة ، ص ١٥ .
(٢) تفسير القاسمي (٨/ ٣٧) ، ونسبه للكرخي .
(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٢٦٨ ، ٢٧٠) ، والبخاري في الشركة ، باب: هل يقرع في القسمة؟ والإسهام له (٥/ ١٣٢) ح (٢٤٩٣) واللفظ له ، والترمذي في الفتن ، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ح رقم (٢١٧٤) ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

ومن فوائد الآية والحديث:

* أن المجتمع الإسلامي لا يخلو من أن يكون فيه القائم بحدود الله، والواقع فيها، بصورة يتعذر معها الفصل بينهما، بحيث لا يؤثر أحدهما على الآخر.

* وأن المصير في الدنيا مشترك، فإذا غلب الصلاح اندفع العقاب عن عموم الأمة، فنجت ببركة إصلاح الْمُصْلِحين، وإذا كان العكس حلَّت العقوبة فعمَّت الفاعلين والساكتين، وليس ثمة خيار ثالث.

* وأن القائمين بحدود الله لا يكفي أن يكونوا قائمين بها في خاصة أنفسهم، بل إن لم يكونوا صالحين مُصْلِحِين، فإنهم يهلكون، ولا يكون لوجودهم قيمة تُذْكَر في تأخير العقوبة.

* فإما الأخذ على الأيدي، وإيقاف عجلة الفساد، فتكون النجاة من العقوبات والأمن من الغِيَرَ. وإمَّا التَّرك والتخلية بين الفساق والمفسدين وبين ما يشتهون ويهوون، فيكون الهلاك والدمار.

* قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾[هود: ١١٦]. والمعنى: هلاَّ كان في المهلكين من ينهى عن الفساد في الأرض، ولو وجد ذلك فيهم لما هلكوا، ولنجوا كما نجا القليل الناهون عن الفساد، ولهذا قال في الآية بعدها: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[هود: ١١٧]. فأكَّد سبحانه أن المهلكين كانوا لا ينهون عن الفساد في الأرض، وكانوا لا يصلحون، فهم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر.

وليس للأمر والنهي حدود لا يتجاوزها، لا في نوع الفعل ولا في ذات الفاعل. بمعنى: أنه ليس هناك معروف لا ينبغي الأمر به، ولا منكر يشرع السكوت عنه. لأي شخص، وعن أي شخص. وإنَّما الحدود والموانع تقوم في أمور عارضة. وملابسات طارئة، وهي راجعة إلى مسألة المصالح والمفاسد. وهي استثناءات تؤكد العموم وتشهد له.

ولما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذه المنزلة، كان تعطيله وتركه سبباً في حلول عقوبات ومفاسد لا تتناهى.

* **فمنها: الهلاك العام بسبب كثرة الخبث ؛ أي:** غلبة المنكر على المعروف . ولا يكون ذلك إلا إذا تُرِك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ففي الصحيحين من حديث زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كَثُرَ الخبث**»(١) .

ومن العقوبات والمفاسد التي تحلّ بسبب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

* **الاختلاف والتناحر.**

ومما يدل على ارتباط ذلك بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن الله عز وجل قال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥] .

* **إضافة إلى ما يورثه ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شيوع المنكرات وعلوّ الفساق وانحطاط الأخلاق، واستباحة المحرّمات، وترك الفرائض والواجبات، والسخرية بالشريعة.**

وكل ذلك يورث الهزائم والأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . إلى آخر ما هنالك من آثار وعواقب(٢) .

ولا تكون البراءة والسلامة من مثل هذه العواقب بفعل المعروف فقط ، بل لا بد من الأمر به ، ولا في ترك المنكر فحسب ، بل لا بد من النهي عنه .

فهل يقول قائل بعد ذلك: إنَّ الأمة يمكن أن تصلُح حالها وتستقر أوضاعها وتأمن على مكتسباتها ، بل وتحتفظ بسمتها وخصائصها . . دون أن تقوم لله قومة صادقة ، أفراداً وجماعات ، وبكل وسيلة ممكنة بهذا الجانب العظيم؟

فإن قال ذلك قائل ، وزعمه زاعم ، فإنَّ نصوص الكتاب والسُّنة ، وشواهد التاريخ والواقع تجابهه وتكذب زعمه .

---

(١) متفق عليه . انظر: الفتح (١٣/ ١٠٥ ، ١٠٦) في الفتن ، باب: يأجوج ومأجوج . ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ، باب: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج ، ح (٢٨٨٠) .

(٢) انظر في العقوبات والآثار المترتبة على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كتاب: حتى لا تغرق السفينة ، للشيخ/ سلمان العودة ، ص ٢٥ وما بعدها .

إنَّ المسلمينَ لم يكونوا أكثر عدداً في أي وقت مضى منهم في القرنين الأخيرين، ومع ذلك فقد «بلغت الجرأة بأعداء الله من بني جلدتنا، وممن زَعَمنا أنهم منا ـ نحن المسلمين ـ أن يعلن مصطفى كمال [(١)] ـ هادم الخلافة ـ تحويل مسجد أيا صوفيا إلى متحف، ويمنع الأذان بالعربية، ويمنع الصلاة أمام الناس، ويفرض السفور على كل امرأة تتعامل مع الدولة أو تدرس في مدارسها.

ولقد وصل الصَّلف بعبد الحكيم عامر[(٢)]، أن يوزع أمراً على خطباء المساجد أن يمتنعوا عن الكلام على فرعون موسى.

وبلغ الغرور بالنُّصَيْرِيِّ أن يعلن حكم الإعدام عقوبة على من ثبت أنه من الإخوان المسلمين.

ووصل الاستهتار والسخرية بالقيم عند أحدهم أن يؤسس نوادي للمرأة يسميها (صفر في الأخلاق).

ويعلن جمال سالم[(٣)]، هزُّاه بالقرآن الكريم فيطلب من الأستاذ الهضيبي[(٤)] أن يقرأ الفاتحة معكوسة.

ويصرح حمزة البسيوني[(٥)] قائلاً لمن استغاثوا بالله أثناء التعذيب: «لو جاء الله لوضعته في الزنزانة»[(٦)]!

ليس هذا فقط، بل أصبح المسلمون الملتزمون غرباء في ديارهم، يوصفون بالتطرف والإرهاب، ويلاحقون من أجهزة أمنهم، وفي دولهم التي قامت على دمائهم وعرق جبينهم! فقط لأنهم متدينون!

---

(١) مصطفى كمال، اشتهر بلقب (أتاتورك)؛ أي: أب الأتراك. ولد في سلانيك عام ١٢٩٦هـ من امرأة اسمها (زبيدة)، ومن أب غير معروف على الحقيقة، كان قائداً عسكرياً، قاد بعض الجيوش بعد الحرب العالمية الأولى، وتولى كبر هدم الخلافة الإسلامية سنة ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٤م. وطرد أسرة آل عثمان وجردهم من ممتلكاتهم، وكان سنّه آنذاك يقارب الأربعين، وهلك في سنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٨م. انظر: الرجل الصنم، ص ٣٧ وما بعدها، ٢٩٦ وما بعدها، ٥٢٠ وما بعدها.

(٢) المشير عبد الحكيم عامر، قائد القوات المسلحة في عهد جمال عبد الناصر، والنائب الأول لرئيس الجمهورية. انظر: قال الناس ولم أقل في حكم عبد الناصر، لعمر التلمساني، ص ٨٦، ١٣٥، ١٤٤.

(٣) من رجالات الدولة في عهد عبد الناصر، وكان ينيبه أحياناً إذا غاب، وكان حاد المزاج عصبياً إلى حد غير طبيعي، غير متزن في جميع نواحي شخصيته. انظر: قال الناس ولم أقل في حكم عبد الناصر، ص ١٨٢، ١٨٣.

(٤) هو: حسن الهضيبي المصري، المرشد العام للإخوان المسلمين بمصر، ولي القضاء في أسيوط، ثم كان مستشاراً قانونياً. توفي سنة ١٣٩٣هـ. انظر: الأعلام (٢/ ٢٢٥).

(٥) ضابط أمن في حكومة جمال عبد الناصر، وكان قائد السجن الحربي.

(٦) عِبَر وبصائر للجهاد في العصر الحاضر، للدكتور/ عبد الله عزام، ص ٣٢ بتصرف وزيادة يسيرة.

وتُشَادُ بيوت الربا، وتنصب مواخير الدعارة، تطاول مآذنهم، وتدمِر عقائدهم وأخلاقهم.. أرأيت لو كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر منذ البدء، وبصورة مكافئة .. أكان يكون من ذلك شيء؟!

* **أمَّا ما يتعلّق بالدعوة إلى الله:**

فإنَّ ما أسلفت من تفصيل في شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنَّه منطبق عليها.. بالنظر إلى أن الدعوة إلى الله تعالى جنس يندرج تحته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من جهة.

ومن جهة أخرى فقد تختص الدعوة إلى الله بأنها أصبحت مصطلحاً يعني: التبشير بالإسلام ونشره وبيان محاسنه والتفنن في عرضه.

وأضيف هاهنا أمراً أرى أنه مما يعين على استمرار الدعوة إلى الله، في جانبيها العام والاصطلاحي.. وهو:

ربط الدعوة إلى الله بمؤسسات قائمة مستقلة، ذات بُعد اجتماعي واقتصادي وإداري.

وهـذا مما يسهـل مهماتها، ويقطع الطريق على من يروم القضاء عليها أو محاصرتها.

إنَّ من الخطأ أن تظل الدعوة إلى الله تعالى منحصرة في أشخاص العلماء والدعاة والمصلحين، بحيث يكون وجودها مرتبطاً بوجودهم، فإذا ما ذهبوا أو منعوا ذهب كل شيء، وبقيت الأمة في سلبية وتواكل، كالأسرة التي ذهب عائلها الذي يلي أمرها وينفق عليها.

ونحن على يقين بأن الله ـ جل وعلا ـ لم يكن ليضيع دينه، ولا ما بعث به نبيه محمداً ﷺ، ولكن لا بد من بذل الأسباب المأمور بها، مع صدق التوكّل عليه سبحانه.

هذه ثمرة تجنيها الأمة من ربط الدعوة إلى الله بمؤسسات وهياكل قائمة، وفائدة أخرى لا تقلّ أهمية عن ذلك، وهي:

مضاعفة تأثير الدعوة، وتوسيع نطاقها في صفوف الأمة؛ لأنَّ الدعوة التي تنطلق من مؤسسات قائمة، ضاربة في عمق الأمة هنا وهناك، لها من الإمكانات ما يكفل لها سرعة الانتشار. ومعلوم أن سرعة الانتشار وسعته من أقوى عوامل التأثير.

ولو قارنًا بين جهود الدعاة والمصلحين من المسلمين، وبين جهود المنصِّرين من النصارى، لرأينا بوناً شاسعاً، في أعدادهم، وفي وسائلهم وإمكاناتهم.

وما ذاك إلا لارتباط المنصِّرين بمؤسسات قائمة، مدعومة من الحكومات ومن الشعوب الصليبية، على حين أن المسلمين تكاد جهودهم أن تكون فردية في غالبها، وما كان منها مرتبطاً بمؤسسات، فهي مؤسسات محدودة الإمكانات، محدودة الأهداف، لاتلقى دعما كافيا من الحكومات.

إضافة إلى أن ما يعيشه العالم من تقدم وتطور في الوسائل والأساليب يحتم علينا أن نختار لإبلاغ دين الله والدعوة إلى الحق أفضل السبل وأنجعها، وأكثرها فاعلية وتأثيراً.

وأختم الحديث عن أهمية الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حفظ كيان الأمة واستمرار عافيتها، أختمه بهذه المسألة:

مسألة: هل هناك فرق بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين الدعوة إلى الله؟ أم أن معنى الكلمتين واحد؟

وأقول: أمَّا من جهة الدلالة الاصطلاحية، فبينها تلازم، وبعضها يفسِّر بعضاً.

فإنَّ الدعوة إلى الله معناها: الأمر بالمعروف، الذي هو الخير والإسلام، وذلك يستلزم النهي عن المنكر. الذي هو الكفر والباطل.

قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

قال ابن جرير عند هذه الآية: «يقول ـ جلَّ ثناؤه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أُمَّةٌ ﴾ يقول: جماعة ﴿ يَدْعُونَ ﴾ الناس ﴿ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ يعني: الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يقول: يأمرون الناس باتِّباع محمد ﷺ ودينه الذي جاء به من عند الله ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ يعني: وينهون عن الكفر بالله والتكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله»(١).

ويمكن أن يُقال: الدعوة إلى الخير جنس، تحته نوعان: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا هو المعنى الذي فسَّر الرازي به الآية آنفة الذكر، يقول في المسألة الثانية:

«هذه الآية اشتملت على التكليف بثلاثة أشياء، أولها: الدعوة إلى الخير، ثم الأمر بالمعروف، ثم النهي عن المنكر، ولأجل العطف يجب كون هذه الثلاثة متغايرة،

---

(١) تفسير ابن جرير (٤/ ٣٨).

فنقول: . . . الدعوة إلى الخير جنس تحته نوعان: (**أحدهما**) الترغيب في فعل ما ينبغي، وهو المعروف. و(**الثاني**) الترغيب في ترك ما لا ينبغي، وهو النهي عن المنكر، فذكر الجنس أولاً. ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان»[١].

وهذا تفصيل جيد، فإنَّ الدعوة مشتملة ـ ولا بد ـ على ترغيب وترهيب، وأمر ونهي. ومع ذلك، فإنَّ كلمة (الدعوة) وإن كان مضمونها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنها أصبحت مصطلحاً يعني: تبليغ الإسلام والدعوة إليه، والتفنن في عرض شرائعه وبيان محاسنه، والدفاع عنه فكرياً ضد خصومه، وإقامة المؤسسات والجمعيات على هذا الأساس، ولهذه الأغراض.

ولهذا شاع استعمال كلمة (الدعوة) في أول مراحل تبليغ الإسلام وبيان شرائعه، خصوصاً بين غير المسلمين، كما جاء في حديث بعث معاذ إلى اليمن، وفيه: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه ..**» [متفق عليه]. وفي حديث علي يوم خيبر، وفيه: «**فإذا نزلت بساحتهم فادعهم**»[٢]. وفي كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل وفيه: «**سلام على من اتبع الهدى، أمَّا بعد: فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسْلِمْ تَسْلَم...**» الحديث[٣].

ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أن الدعوة فيها ـ كما قال الراغب ـ معنى الحثّ على القصد إلى الشيء المدعو إليه، فهي أليق بمقام المبتدئ الخالي الذهن، فلذلك جرى استخدامها دون لفظ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلا فإن مضمونها هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أسلفت.

أمَّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد صار علماً على بعض وظائف (المحتسب)، وإن كانت وظائف المحتسب فيما مضى أضعاف ما هي عليه اليوم.

ومع ذلك، فقد أبطلت وظيفة المحتسب في معظم البلاد الإسلامية، وحلَّت محلها وظيفة الداعي الرسمي، التي هي وظيفة ما كان يعرف باسم (الواعظ)!

ويبدو أنه لا تعارض في الظاهر بين الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف، ولكن قد يشكل التوفيق بين الدعوة وبين النهي عن المنكر. وهذا الإشكال منشؤه الخلط بين

---

(١) التفسير الكبير، للرازي، ص ٨/ ١٦٧.

(٢) متفق عليه، من حديث سهل بن سعد ﷺ. انظر: فتح الباري (٧/ ٧٠)، كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب عليّ ﷺ. ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل عليّ ﷺ، ح (٢٤٠٦).

(٣) رواه البخاري. انظر: فتح الباري (١/ ٣٢).

(النهي عن المنكر) وبين (تغيير المنكر)، والظن أن معناهما واحد، ولعل هذا الإشكال أن يزول ببيان الفرق بينهما .

ويتلخص الفرق بينهما في:

* أن النهي عن المنكر عام، فيكون قبل وقوعه، على جهة التنفير منه والترغيب في مجانبته، ويكون بعد وقوعه . وأمَّا تغييره فإنَّه لا يكون إلا بعد وقوعه، كما في حديث: «**من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده.. .**» [رواه مسلم] .

* وأن تغيير المنكر بعد وقوعه يكون على مراتب بحسب الاستطاعة، كما جاء في حديث أبي سعيد: «**من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» .

وملخص هذين الفرقين:

أنَّ النهي عن المنكر أعم من جهة الوقت والفاعل، وأخص من جهة الآلة، فإنَّه يكون باللسان ونحوه كالقلم . . وأن تغيير المنكر أعم من جهة الآلة، وأخص من جهة الوقت والفاعل، أعني: الْمُنْكِر (بكسر الكاف) فيكون باللسان وباليد ونحوها .

* ومن الفروق: أن النهي عن المنكر يكون ـ عادة ـ قبل تغييره . وهذا واضح في شأن دعوة الكفار إلى الدخول في الإسلام، فإنهم يؤمرون وينهون . فإن امتثلوا وغيروا باختيارهم، وإلا باشر المسلمون تغيير منكرهم بأيديهم، وذلك بمجاهدتهم حتى يخضعوا لحكم الإسلام . وكذلك يجب أن يكون في كل منكر، وذلك من الحكمة في الدعوة إلى الله .

* وعلى هذا، فإنَّ النهي عن المنكر، مرحلة من مراحل إزالة المنكر وتغييره، وليس مرادفاً له، وقد يتفقان فيما إذا كان تغيير المنكر باللسان . أي أنه يجتمع النهي عن المنكر وتغييره في شخص واحد، في وقت واحد، وقد يجتمعان في شخص واحد، في وقتين مختلفين، كأن ينهى عن المنكر، ثم يباشر هو نفسه إزالته وتغييره .

وخلاصة هذه الفروق: أن تغيير المنكر فرع على النهي عنه، وأن النهي عن المنكر أعم من تغييره . وبهذا يتبيَّن أن بين الدعوة والأمر والنهي والتغيير تلازماً وتكاملاً، وإن كان لكل منها نوع تميز، والله تعالى أعلم .

وبعد، فلعلي أنتقل من عموم الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى مظهر من أبين مظاهره، أختصه بالحديث؛ لأنّه، مع أهميته في ضمان استمرار الأمة قد نسيه ـ أو تناساه ـ الكثيرون، على المستويين الرسمي والشعبي، وأعني بذلك ذروة سنام الإسلام: الجهاد في سبيل الله.

* **الجهاد في سبيل الله:**

ولن أحدثك عن معنى الجهاد وفضله، فذلك شيء لا أظنك تجهله. ولكن سأشير إلى ما يناسب المقام من المعنى الداعي إلى ذكره هنا، فأقول:

إذا كانت حماية حقوق الأمة الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية، وتأمين حرياتها في داخل ديارها، تحتاج إلى انتزاع من براثن الأقوياء والمتسلطين، عبر جهود متواصلة من كل أفراد الأمة.

وإذا كانت حماية عقيدة الأمة وأخلاقها، وتأمين سبيل انتشار الدعوة وإبلاغ كلمة الحق إلى أفراد الأمة نفسها، يحتاج إلى يقظة ومجاهدة مستمرة، لمواجهة العقبات التي لا تتناهى.

إذا كان هذا وذاك لا تقوم لهما قائمة إلا باليقظة التامة والوعي الإيجابي الفاعل، وإلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على كل صعيد، وبكل وسيلة.

فكيف نتصور أنه يمكن حماية ذلك كله، إلى جانب حماية كيان الأمة ومقوماتها الأساسية؛ جغرافيتها وثرواتها الطبيعية وطاقاتها البشرية.. من العدو الأجنبي المتربص، العدو التاريخي، دون أن نكون أقوياء مرهوبي الجانب؟

إنّ سكان العالم الإسلامي يمثلون ثلث سكان المعمورة.. وبلادهم تعد ـ في جملتها ـ من أغني بلاد العالم وأكثرها خصباً، وأحسنها موقعاً.. وهم مع هذا وذاك يتميزون بفكر وعقيدة، وفلسفة للوجود والحياة، متميزة عن كل الأفكار والعقائد والفلسفات الأخرى التي يدين بها سكان هذا الكوكب الأرضي، وبالتالي فهم يشكلون تحدياً ضخماً ومنافساً رئيساً لكل العالم.

فهل يعقل ـ مع هذا كله ـ أن يقف العالم متفرجاً إزاء هذه الفرص والإمكانات، مكتوف الأيدي تجاه هذا التحدي الحضاري؟ بالطبع، لا.

إنّ العالم كله ـ والعالم الصليبي بصفة خاصة ـ لم يقف متفرجاً يوماً ما. لقد أغار على الإسلام وديار المسلمين في المشرق وفي المغرب، ومزّق وحدتهم بإسقاط الخلافة

الإسلامية، واحتلَّ معظم بلادهم احتلالاً مباشراً أو بالوكالة، واستنزف خيراتها، وحرم المسلمين منها.. ولا يزال كذلك.

والعدو في ذلك كله منطقي مع نفسه ومبادئه وأهدافه!

ولكننا ـ نحن المسلمين ـ لم نكن منطقيين مع أنفسنا، ومع ديننا وأهدافنا، ومع عدونا، يوم نكسنا راية الجهاد في سبيل الله، وعطلنا ذروة سنام الإسلام، ودخل المنهزمون منا مع أعدائنا الأقوياء في معاهدات وأحلاف جائرة، وأوهمنا أنفسنا بأنها يمكن أن تغني غناء الجهاد في سبيل الله، في الدفاع عن ديننا، وحماية حقوقنا، وتحرير أرضنا، وصيانة كرامتنا وحرمتنا! حتى بلغ بنا الأمر أن استبعدنا فكرة الجهاد في سبيل الله، وأركسنا أنفسنا في تبعية ذليلة مقيتة، لم يخفف من وقعها وألمها إلا أننا أشغلنا أنفسنا بهموم صغيرة، تناسب طموحاتنا، التي لم تتجاوز عند أغلب سواد الأمة شهوات البطون والفروج، وحب الرياسة وإيثار السلامة بأي ثمن، وإلا ما شغلنا به عدونا من خصومات لا تنقطع، وخلافات لا تنتهي.

لم نكن منطقيين مع طبيعة الدين الذي ارتضاه الله لنا، ولم نكن مؤمنين بالْخِيرة التي اختار الله لنا.

لقد رضي الله لنا الإسلام ديناً، واختار لنا الجهاد طريقاً إلى العزَّة والكرامة في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ * وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

فتأمَّل قوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ بعد أمره المؤمنين بأداء الصلاة وامتثال الأوامر وفعل الخيرات عموماً، والمجاهدة في سبيل الله.. فإنَّه تنبيه إلى أن هذا الاصطفاء إنَّما يستحقه من قام بذلك كله.

قال القرطبي: «قوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾؛ أي: اختاركم للذبِّ عن دينه والتزام أمره، وهذا تأكيد للأمر بالمجاهدة، أي: وجب عليكم أن تجاهدوا لأنَّ الله اختاركم»(١).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٠٠).

والجهاد المأمور به في هذه الآية، عام في جهاد الكفار والظَّلمة وجهاد النفس(١).

وقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]؛ «أي: فرض عليكم قتال عدوكم ومجاهدته، مع ما فيه من المشقّة وحصول أنواع المخاوف من تلف المال والنفس، التي تسبب لكم كراهيته.. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ كالجهاد في سبيل الله، لِمَا فيه من المشقة والضرر في تقديركم ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في حقيقة الأمر؛ لِمَا فيه من الثواب العظيم والتحرز من العقاب الأليم، ولِمَا فيه من النصر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذرياتهم وأولادهم، مع الأمن في الديار، وصيانة الأعراض والأموال... ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا﴾ كالدّعة والقعود عن الجهاد في سبيل الله ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ لأنّه يعقب الخذلان وتسلط الأعداء على الإسلام وأهله، فيحلّ بكم أشدّ مما تخافونه من الجهاد الذي كرهتم، من حلول الذلّ والهوان، وفوات المغانم العاجلة والآجلة، وفوات الأجر العظيم، وحصول العقاب. وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قوة أمر بالتزام ما فرض الله من القتال، وعدم التراجع عنه لهوى النفوس ونظر المخلوقين القاصر»(٢).

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣].

وتأمّل قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾؛ أي: وأزيدكم على ما وعدتكم به من مغفرة الذنوب وسكنى الجنات.. أزيدكم على ذلك: زيادة تحبونها، وهي النصر والفتح القريب، إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه(٣).

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٩٩).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٢/ ١٥٩)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٥٢)، وفتح القدير (١/ ٢١٩)، وتفسير السعدي (١/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦١).

أجل، لم نكن منطقيين مع ديننا، ولم نكن مصدقين حقاً بموعود ربنا، وما أجرى من حكمته وسننه أن عزّنا وكرامتنا لا تُصان إلا بالجهاد في سبيل الله.. فما أشبه حالنا بقول رسول الله ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**»(١).

ولله در القائل:

يرى الجبناء أن الجبن حزم ... وتلك خديعة الطبع اللئيم (٢)

هذا جانب من المسألة؛ جانب حماية كيان الأمة الإسلامية القائم.

والجانب الآخر، هو: أننا ـ أمة الإسلام ـ أصحاب رسالة عالمية، مكلفون بإبلاغها إلى العالم، وقيادة هذا العالم باسمها وبمنهجها.

ونحن ـ أمة الإسلام ـ مطالبونَ ـ بما معنا من الحق والهدى ـ أن نحرر الإنسان كل الإنسان، في الأرض كل الأرض، من أغلال الشرك والفكر، ومن رق العبودية لغير الله، وأن نزيح العقبات والعوائق التي تحول بين الناس وبين سماع الحق.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، مؤمنهم وكافرهم(٣).

وهذا يستلزم إقامة علم الجهاد، لتنتصر دولة الحق، وينشر العدل رواقه، فيخضع العالم لحكم الإسلام، وإن لم يدينوا به.

وقال جل وعلا: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «**... وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة**»(٤).

فكيف نتصور أنه يمكن أن ننشر الإسلام والحق، والعدل، والسلام في العالم، ونحن لا نملك قوة تسنده وتحميه؟!

وكيف يمكن أن نحرر الإنسان في مشارق الأرض ومغاربها، ونحن بعد لم نحرر أنفسنا من هيمنته وسلطانه؟!

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع، باب: في النهي عن العِينَة، ح (٣٤٦٢)، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وهو حديث صحيح. وسبق تخريجه.

(٢) البيت لأبي الطيب المتنبّي.

(٣) تفسير ابن جرير (١٧/١٠٦).

(٤) متفق عليه، من حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما. انظر: الفتح (١/٤٣٦) ح (٣٣٥).

إنّنا بغير اتخاذ الأسباب المادية المأمور بها شرعاً، وأولها القوة، وبغير الجهاد في سبيل الله، لا نستطيع أن نحمي ذاتنا من العدو المتربص. ولا يمكن أن نقنع العالم بجدية ما نحن عليه من الحق والإسلام، ولا أن نحملهم على احترامه وتقديره، لأنّنا نحن أنفسنا لسنا محل احترام العالم وتقديره، والعالم لا يحترم إلا القويّ، ولا يفهم إلا لغة القوة. والمبادئ والأفكار تكتسب أهميتها وتأثيرها من أهمية حاملها وقوة تأثيره، ولا يكفي أن تكون هي صحيحة في ذاتها.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فلم يمنع الصوامع والبيع والصلوات والمساجد كونها أماكن لعبادة الله وذكره. لم يكن شرفها في ذاتها ليمنعها أن تتطاول عليها يد الباطل بالتهديم والامتهان.

بل الأمر كما قيل:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

وماذا تغني المبادئ الصحيحة إذا كانت كلأ مباحاً، ليس لها من يحميها ويغار عليها، ويتمثلها تطبيقا، ويجاهد في سبيلها؟

فهل يصح بعد ذلك أن يقول قائل: إنّنا بالبيان المشرق وحده، وبالدعوة والتبليغ الأعزل يمكن أن نفتح البلدان والممالك، ونزيح العقبات ونقطع دابر الكفر والطغيان، المتمثل في كيانات سياسية، وقوى اقتصادية وعسكرية وبشرية ضاربة؟

هذا وهمٌ كبير، وإن كان محل تفكير، وربما قناعة فئات من المسلمين!

إنّ إقامة شرع الله في الأرض، وإزالة مملكة الشرّ، وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبيه من العباد وردّه إلى الله وحده؛ بسيادة الشريعة الإلهية وحدها، وإلغاء القوانين البشرية.. كل ذلك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان؛ لأنّ المتسلطين على رقاب العباد، والمغتصبين لسلطان الله في الأرض، لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان، وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وتاريخ هذا الدين على ممر الأجيال[1].

(١) معالم في الطريق، للأستاذ/ سيد قطب، ص ٨٢، ٨٣.

ومما سبق، يتضح أن وظيفة الجهاد الإسلامي، تتلخص في ثلاث نقاط[1]:

١ ـ تأمين سُبُل نشر الدعوة الإسلامية. قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

٢ ـ حماية دار الإسلام التي يقيمها لتكون منطلقا لدعوته ومحضناً لفكرته. قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠].

٣ ـ إنقاذ المستضعفين في الأرض والدفاع عنهم. قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥].

وما لم تتحقق هذه الوظائف والأهداف، فلا أمن ولا عزَّة، ولا كرامة لأمة الإسلام.

ومن العوامل والأسباب الحافظة للأمة من الغِيَر، الضامنة لاستمرار قوتها وتماسكها:

*** إحياء الشعور بأهمية وحدة الأمة الإسلامية، وحشد الجهود لتحقيقه.**

ليس شيء أنفع للأمة في هذه الدنيا ـ بعد إيمانها بالله ـ من اجتماع كلمتها، وتوحد رأيها ومواقفها، وتكامل قواها وإمكاناتها؛ أي أن تكون (أمة واحدة)، لا أمما ودولاً. ولهذا امتنَّ الله عليها بهذه الأخوة الإيمانية والتوحّد على منهج الحق.

قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ووحدة الأمة الإسلامية هي الأصل، وليست شيئاً طارئاً أملته الضرورة واقتضته المصالح المشتركة، كالذي يحدث بين الأمم الأخرى لسبب أو لآخر.

إنّها وحدة في المبدأ والعقيدة، ولو لم يكن ثمة سبب موجب للوحدة سوى هذه الرابطة لكفى.

(١) انظر: عِبَر وبصائر للجهاد في العصر الحاضر، للدكتور/ عبد الله عزّام، ص ٢٣.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. وقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وفرق بين من يتحد لمصلحة عاجلة، من جلب نفع أو دفع ضر. وبين من يتحد لأنه يرى الوحدة ديناً، واجتماع الكلمة قربة يُثابُ عليها، والتناصر عبادة تستنزل النصر الإلهي في العاجل، وتقرب إليه ـ سبحانه ـ في الآجل. ويرى ترك ذلك مما يعاقب عليه في الدنيا وفي الآخرة.

أمَّا قيمة اتحاد الكلمة ووحدة الصف وأهميتها في تحقيق التفوق والقوة مادياً ومعنوياً فأمرٌ ظاهر، وهو مقتضى العقل والمنطق، فضلاً عن الشرع. كيف لا والأمر كما قيل:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسرت آحــاداً

ولهذا كانت الأمم الضعيفة تتحالف فيما بينها لتدرأ عن نفسها خطر الذوبان في الأمم القوية، وتقف سداً منيعاً في وجه هجماتها الاقتصادية أو العسكرية الاستعمارية، ولتحقق من وراء اتحادها مكاسب جديدة.

وبالأمس القريب كانت أوربا وأمريكا حلفاً واحداً (حلف الناتو)، بزعامة الدولة القوية أمريكا، في مواجهة الكتلة الشرقية (حلف وارسو)، بزعامة الدولة الأم روسيا.

واليوم، لما انفرط عقد حلف وارسو وتمزّق شمله، نشطت أوربا للاستقلال عن حلف الناتو، والتكتل حول نفسها في مواجهة حليف الأمس، أمريكا!

هذا على مستوى الدول، أمَّا على مستوى الدولة الواحدة، فإنَّ اجتماع كلمة أمة بعينها، أعني توحّد الجبهة الداخلية لدولة ما ـ بحد ذاته ـ ضرورة لقوّتها وحمايتها من الاختراق، وتمزيق الشمل، الذي هو من أقوى أسباب انهيارها وزوالها.

جاء في السير: أنَّ وفد بني الحارث بن كعب لما قدموا على رسول الله ﷺ بمعية خالد ابن الوليد رضي الله عنه، كان فيما قال لهم ﷺ أن قال: «**بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟**». قالوا: لم نكن نغلب أحداً. قال: بلى. قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم. قال: «**صدقتم**»[1].

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٤/ ٣١٦، ٣٢٢). وزاد المعاد، لابن القيم (٣/ ٦٢١، ٦٢٢). والسيرة النبوية لابن كثير (٤/ ١٨٨، ١٩٠). والخبر ضعيف؛ لأنَّ مدار إسناده على ابن إسحاق، ولم يصرِّح بالتحديث. ورواه ابن سعد في طبقاته، وفي سنده الواقدي وهو ضعيف. انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٤/ ٣٢٠) في الحاشية. =

وقد اجتمع لأمة الإسلام من أسباب التوحد واجتماع الكلمة ما لم يكن لأمة غيرها، فلا جرم كان اجتماعها من أوجب الواجبات، وأهم المهمات لمصالح دينها ودنياها؛ لأنَّ أسباب وحدتها قوية قائمة، ومبررات ائتلافها كثيرة متوافرة.

وللمسلمين في مسألة الوحدة تجربة فريدة في قوتها واتساعها، وتطاولها في الزمان. لقد «كانت الأمة الإسلامية بالأمس القريب مترابطة متماسكة في وحدة جامعة دامت قروناً وآماداً، وقد تولى القيادة فيها العرب وغير العرب، وترجم وحدتها بالأمس البعيد هارون الرشيد خليفة المسلمين [1]، وهو يخاطب السحابة الغادية فوق رأسه: أمطري حيث شئت، فإنَّ خراجك سوف يأتيني.

وبالأمس القريب كانت دولة الإسلام بقيادة آل عثمان ممتدة من وسط أوربا إلى أقصى المعمورة شرقاً، وأواسط إفريقيا جنوباً، بل أقول: امتدت بتكاملها مع الدول المغربية إلى إفريقيا كلها جنوباً» [2].

والذين يحيلون أو يستبعدون اتحاد كلمة الأمة الإسلامية اليوم ـ برغم وجود هذه المبررات والمسوغات ـ ويقولون عن وحدتها الماضية: ذلك تاريخ انتهى، ولا سبيل إلى عودته. الذين يقولون ذلك، وما أكثرهم، قد لا يقنعهم إلا أن نسوق لهم أمثلة قريبة ومعاصرة، فإنَّهم قد ضعفت ثقتهم بدينهم، وبقدرته على جمع شمل الأمة وتوحيد كلمتها، فيُقال لهم: ها هي الصين بمليار من البشر، بعدد المسلمين دولة واحدة، متعددة الأجناس والأعراف واللغات، وفيها خمس وخمسون قومية، حسب بيان رسمي صيني، ولم ينكر أحد عليها وحدتها، ولا تزال تطالب بجزيرة صغيرة (تايوان)؛ لأنَّها من الصين، بعد أن استعادت سيادتها على (هونج كونج)!

وبالأمس القريب كان الاتحاد السوفيتي، الذي تشكّل مساحته سدس المعمورة، قد أقام دولة عقائدية ضمت مئات الملايين، وعشرات القوميات، وأشتات الديانات التي تأبى التجانس. فلماذا يقرّ هؤلاء بهذا الواقع، وينكرون ذلك على أمة الإسلام؟!

= أقول: ولكن معنى القصة صحيح، تشهد لها النصوص الأخرى الصحيحة، وانظر: مبحث (سُنَّة الله في النصر والهزيمة)، في الفصل الأول من الباب الثاني.

(١) ابن محمد (المهدي) ابن المنصور العباسي، أبو جعفر، خامس خلفاء الدولة العباسية وأشهرهم، ولاَّه أبوه غزو الروم، فصالحته ملكتهم علي مال عظيم تدفعه إلى خزانة الخليفة كل عام، بُويع له بالخلافة سنة ١٧٠هـ، وكان شجاعاً كثير الغزو والحج، جواداً متواضعاً، وكان يطوف أكثر الليالي متنكراً. وامتدت ولايته ٢٣ سنة. وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة (١٩٣هـ). انظر: البداية والنهاية (١٠/ ٢١٣)، والأعلام (٨/ ٦٢).

(٢) بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، للدكتور/ فاروق حمادة، ص ١٣٠، ١٣١ بتصرف.

وكانت بريطانيا تحكم أكثر من نصف العالم، وتعده جزءً من كيانها، وتصرف شؤونه من ركن قصي في هذا العالم.

وكذلك أمريكا اليوم، بمئات ملايينها واتساع رقعتها واختلاف قومياتها ولغاتها، أليست دولة واحدة؟! ولولا توحّد هذه القارة لما كانت اليوم القوة الأولى في العالم(١)!

وألمانيا الاتحادية، لولا اتحادها، لم تكن ثالث أو رابع قوة اقتصادية يحسب لها حساب. والأمثلة على ذلك كثيرة، ولكن يأبى أكثر الناس إلا أن يجعلوا أمام وحدة المسلمين ألف عقبة، ويوهمون الناس وأنفسهم ـ تحت تأثير الغزو الفكري، وبفعل الهزيمة النفسية ـ يوهمون الناس وأنفسهم أن هذه العقبات لا يمكن تجاوزها.. ونسوا «أن الإسلام في دولته الواحدة التي دامت ألفاً وثلاث مئة عام ويزيد، لم يتصارع يوماً مع قومية من القوميات، أو يفضّل جنساً على جنس، بل آلف بينها، ووضعها على قدم المساواة»(٢). وكان نسيج وحده في إحداث هذا التآلف. فما الذي تغيّر في الإسلام ذاته حتى يوصم بالعجز؟!

وما هي المؤهلات التي امتازت بها تلك الدول ـ التي حكينا خبر بعضها آنفاً ـ وبفضلها ذللت العقبات، وصار اجتماعها مقبولاً لا غضاضة فيه؟

لقد أدرك أعداء هذه الأمة أن سرّ قوة الأمة الإسلامية في اجتماعها، برغم ما تعانيه من تخلف وجهل. فعملوا جاهدين على إسقاط الخلافة الإسلامية، رمز وحدة المسلمين، ولم يشفع لها أنهم كانوا يطلقون عليها لقب (الرجل المريض)، ولم يخفوا قلقهم من هذا الرجل المريض؛ لأنَّ إشارة بأصبع الخليفة كانت كافية لتحريك ثلاث مئة مليون مسلم آنذاك.

وإذا كانت الوحدة السياسية اليوم غير ممكنة ـ على الأقل في المنظور القريب ـ فإنَّ مظاهر الوحدة أكثر وأكبر وأشمل من مجرد الوحدة السياسية، ويمكن العمل على مستوى الشعوب الإسلامية على تحقيق الكثير من مظاهر هذه الوحدة، وسوف تساعد هذه ـ بإذن الله ـ في تحقيق مكاسب ضخمة لعموم الأمة، وستكون سبباً في استكمال ما تبقى من مظاهر الوحدة.

بل إني أقول: إنَّ هذا التمزق السياسي والتَّجزئة الجغرافية لم تكن لتوجد، لولا ما في الأمة من ضعف الرابطة الدينية، وغياب مبدأ التناصر بالحق، وترك الجهاد في سبيل

---

(١) بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، ص ١٣١ بتصرف.
(٢) بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، ص ١٣١ بتصرف.

الله، وغياب الوعي بأهمية الوحدة في حفظ الحقوق ودفع الشرور على مستوى أفراد الأمة. أي إن وحدة الأمة الإسلامية تعد محصلة يقظة ووعي شموليين، فهي مظهر لأسباب عدة.

وأرى أن ما قدمته في الفصل الثاني من الوسائل والأساليب التي ينتشر بواسطتها العلم النافع. والوسائل والأساليب التي تدرب على الأعمال الصالحة، وعلى تطبيقها وتجسيدها. أرى أن هذه وتلك ـ في مجموعها ـ هي المظاهر التي يتم بها وعن طريقها تحقيق وحدة الأمة على مستوى الشعوب الإسلامية، وهي التي يمكن البدء بها إذا ما توافرت الهمم وصدقت النوايا.

* ويمكن تلخيص آليات العمل لتوحيد كلمة الأمة في نقاط:

أولاً: نشر الوعي بوجوب تحقيق الوحدة الإسلامية من الناحية الشرعية، وبيان أهمية ذلك والحاجة إليه من الناحية الواقعية. ويمكن أن يتم ذلك بأمور، منها:

* أن يكون جمع كلمة الأمة وتوحيد صفوفها وتنسيق جهودها وإمكاناتها همًّا يلازم روّاد الإصلاح، وقضية في مقدمة القضايا التي تستأثر باهتمامهم.

* وأن يكون هناك عمل دءوب ومنسّق لجمع كلمة العلماء والدعاة والمصلحين، وأن يكونوا في أنفسهم فوق الخلافات، وعلى مستوى المسئولية، وعند حسن ظن الأمة بهم.

* ومن خلال الطرق المتواصل لمسألة الوحدة الإسلامية من منظور شرعي وبأسلوب معاصر، وأن يكون الطرح متجاوزاً للأطر المحلية والإقليمية الضيقة. وأن يخاطب به الإنسان المسلم من حيث هو مسلم، بغض النظر عن أي اعتبار آخر، وأن ينشر ذلك بعدة لغات، وبالوسائل المقروءة والمسموعة والمرئية.

* ومنها: محاولة نقل وإشاعة قضايا المسلمين في كل مكان، وجعلها في متناول إخوانهم في شتى أصقاع الأرض، وذلك من خلال تبادل المعلومات والمشاهدات، والتأكيد ـ في ثنايا ذلك ـ على مسألة وحدة الأمة بالأساليب المناسبة.

* شرح البرامج العملية التي تبين كيفية تحقيق هذه الوحدة في المجالات المختلفة، بدءً بمجالات الاعتقاد والعبادة، ومروراً بالمجالات الفكرية والاقتصادية والإعلامية والسياسية، ونحوها. وتدوينها، ثم طرح هذه الأفكار في الأسواق الإسلامية، وهذا يساعد في تكوين رؤية جماعية، ويهيئ المجتمعات الإسلامية لتقبل وممارسة هذه البرامج.

ثانياً: وحدة الأمة في المجالات الاقتصادية:

وذلك من خلال وسائل وقنوات كثيرة، منها:

* استثمار رؤوس الأموال الإسلامية في البلدان الإسلامية، ولذلك صور كثيرة، منها: تمويل المشروعات الإنمائية، وتشغيل الأفراد العاطلين في بلادهم، وإقامة مؤسسات تجارية وصناعية مشتركة. واستثمار الأراضي الشاسعة الصالحة للزراعة في البلاد الإسلامية، وتنمية الثروة الحيوانية الهائلة فيها، وتطوير التجارة البينية.

* وإغراء المهارات الإسلامية المهاجرة من أجل العودة إلى بلادها أو غيرها من البلاد الإسلامية التي يمكن أن تسمح بذلك، من أجل الإشراف على تلك المشاريع وتطويرها؛ كي نضمن جودة عالية قادرة على المنافسة، وبأسعار رخيصة.

* والعمل على تسويقها في البلدان الإسلامية بواسطة شركات توزيع متخصصة، ومن خلال جهود التجار والمستوردين الفردية.

* وهذا وذاك، يستلزمان وعياً وصدقاً في الولاء، وسعة في النظر لدى المستهلك المسلم، بحيث يكون عنده إصرار على ألا يستخدم في حاجاته واستهلاكه إلا من المنتجات الإسلامية، ما وجد إليها سبيلاً، إلا إذا كانت غير موجودة. وقد تعجب إذا علمت أن أعداءنا يسلكون هذا الأسلوب، للهدف ذاته، على حين أننا ـ نحن المسلمين ـ على الضد من ذلك في أغلب الأحيان!

يقول الأديب الأمير شكيب أرسلان: «حدثني رجل ثقة أنه يعرف إنكليزياً ذا منصب في الشرق، كان يأمر خادمه أن يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يومياً من دكان رجل إنكليزي في البلدة التي هم فيها، فجاءه الخادم بجدول حساب وفر عليه به عشرين جنيهاً في شهر. فسأله الإنكليزي: كيف أمكنك هذا التوفير؟ فقال الخادم: تركنا دكان الإنكليزي الذي كنا نشتري منه، وصرنا نشتري من دكان أحد الأهالي من العرب. فقال له الإنكليزي: ارجع إلى دكان الإنكليزي الذي كنا نشتري منه! فقال الخادم: أولو كان ذلك يستلزم إنفاق عشرين جنيهاً زيادة؟! قال الإنكليزي: ولو كان ذلك يستلزم إنفاق عشرين جنيهاً زيادة!

وسمعتُ ـ والكلام لشكيب أرسلان ـ أن كثيرين من الإنكليز الذين في الأقطار لا يشترون شيئاً ذا قيمة إلا من بلادهم؛ حتى لا يذهب مالهم إلى الخارج.

أفنقيس هذا بأعمال المسلمين، الذين مهما أوصيتهم بالشراء من أبناء جلدتهم أو أوطانهم، وعلموا أنهم يقدرون على أن يوفروا في السلعة الواحدة نصف قرش إذا أخذوها من الإفرنجي، تركوا ابن ملتهم ورجحوا الإفرنجي؟

أفلم يكن سبب حبوط مقاطعة العَرب لليهود في فلسطين أشياء كهذه، حرموا أنفسهم أمضى سلاح في يدهم وهو المقاطعة في الأخذ والعطاء مع اليهود، من أجل فروق تافهة مؤقتة، ونسوا أن الضرر الذي يصيبهم من الأخذ والعطاء مع اليهود هو أعظم ألف مرة من ضرر هاتيك الفروق الزهيدة»[(١)]!

وغير بعيد عنا مافعلته الدول الأوربية من مساندة الدانمرك في وجه مقاطعة الشعوب الإسلامية لمنتجاتها لبعض الوقت، بسبب الرسوم المسيئة لمقام صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام. حيث زادت من مشترياتها منها، لتعويض ما لحقها من ضرر.

وإذا تضافرت جهود المستهلك، والمستورد، والموزع، والمنتج المصنّع، وكمل بعضها بعضاً، فسيكون لذلك أبلغ الأثر في اقتصاديات الجميع، وأهم من ذلك سيكون جسراً متيناً من جسور الوحدة الإسلامية.

ومن أسباب تحقيق الوحدة الإسلامية من الناحية الاقتصادية:

الالتزام باستقدام الأيدي العاملة المسلمة، ومقاطعة ما سواها، إلا في حال الضرورة القصوى، وهذا المسلك يخفف من خطورة تواجد الأقليات غير المسلمة في بلاد المسلمين، ويسهم في تخفيف معاناة ملايين الأسر المسلمة في البلاد الفقيرة.

وإذا تشابكت مصالح العالم الإسلامي الاقتصادية بهذه الصورة، فإنّها تولد هموماً مشتركة، تجعل من أية قضية أو حدث في بلدٍ ما قضية تؤثر على بقية بلدان العالم الإسلامي، لتشابك المصالح.

* أي أن الأحداث تكون محل عناية الأمة كلها، نظراً لوجود مصالح مادية مشتركة بينهم، وهذا يساعد في تأليب أكبر عدد من المسلمين للدفاع عن قضاياهم.

وهذا بالضبط مافعله الأوربيون الذين وجدوا في تشابك مصالح شعوبهم أقوى سبب لمنع تكرار ما حصل بينهم من حروب، فكان الإتحاد الأوربي بأذرعه السياسية والاقتصادية والعسكرية .

*** ومن عوامل توحيد الأمة الإسلامية:**

تحقيق مبدأ التناصر على أوسع نطاق.

---

(١) لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم، ص ٥٢، ٥٣.

وأعني به: التناصر في الدين، وهو النجدة والإغاثة والمواساة عند كل نازلة وفي كل ضائقة. وهو التناصر المذكور في مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وقوله ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**». وفي رواية: «**المؤمنون كرجل واحد، إذا اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(١).

ولمسلم: «**المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله**»(٢).

*** ويمكن تلخيص أهم مظاهر التناصر فيما يلي:**

*** التناصر بالكلمة:**

والكلمة تعني فيما تعني: التحدث عن القضية الإسلامية وعدالتها، وشرح ملابساتها وأبعادها، وكشف الأصابع الخفية التي تنسج خيوط المؤامرة ضدها، وتحركها وتمددها وتباركها. كل ذلك في الخطب والمحاضرات والندوات، وفي وسائل الإعلام الممكنة من الصحف والجرائد والقنوات، وفي والكتيبات وغيرها، وتحريك عواطف الأمة تجاهها من خلال الصور والإحصاءات، ونقل القضية من الإقليمية إلى العالمية، وبيان نوع المشاركة المطلوب الإسهام بها.

والكلمة تعني فيما تعني أيضاً: الاحتجاج، واستنكار العدوان، والتدخل، والابتزاز، أو التعذيب ومصادرة الحريات.. أو ما شابه ذلك. وإيصال صوت الأمة إلى كل العالم بوسائل النشر المختلفة. وإشعار العالم بأن شعوب الأمة الإسلامية كلها غاضبة، وأنها ستثأر لما حدث، والضغط على الحكومات لتعديل مواقفها، وأن تتدخل إيجابياً لصالح هذه القضية أو تلك.

وتعني الكلمة: مواصلة المسلمين في البلد المصاب أو المنكوب، وإشعارهم بأن شعوب العالم الإسلامي معهم، وأنهم لن يتخلّوا عنهم، وتقديم الرأي والمشورة،

---

(١) متفق عليه، من حديث النعمان بن بشير ﷺ. انظر: الفتح (١٠/٤٣٨)، باب: رحمة الناس والبهائم، ح (٦٠١١). ومسلم في البر والصلة، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم، ح (٢٥٨٦).

(٢) صحيح مسلم، الموضع السابق.

ومساعدتهم في كيفية اجتياز هذه المحنة والتخفيف من آثارها ، ووصيتهم بالصبر والرجوع إلى الله ، والخروج من المظالم ، وإقامة شعائر الدين ، والتعاون فيما بينهم .

والكلمة الصادقة ذات تأثيرٌ كبير ، وهي خطوة تمهّد لما بعدها من خطوات .

*** ومن مظاهر التناصر: التناصر بالمواقف العملية.**

والكلمة وإن كانت موقفاً عملياً في بعض الأحيان ؛ إذا كان المطلوب هو موقف بالكلمة لا أكثر ، إلا أن التناصر أبعد من ذلك ، وإذا لم تُشفع وتُتبَع المناصرة الكلامية بمواقف عملية ، فإنَّ جدواها تتضاءل ، وقد تتلاشى مع الزمن ، كما أن أعداء الأمة إذا رأوا أن التناصر بين المسلمين لا يتجاوز حدود الكلام والاستنكار ، تجرَّءوا ولم يبالوا بأي تهديد بعد ذلك .

ومن هنا ، فإنَّ التناصر بالكلمة ـ على أهميته ـ ما هو إلا مقدمة للتناصر بالمواقف العملية ، إذا تطلَّب الأمر ذلك .

*** والتناصر بالمواقف العملية ذو صور كثيرة، ولعل من أبرز مظاهره:**

التناصر بالمال.

وهو وسيلة من أهم وسائل التناصر في واقع الأمة الإسلامية اليوم .

وهو يعني: بذل وتوفير الأموال اللازمة لسد جوعة الجائعين ، وإيواء المشرَّدين وإعمار البلاد المدمرة بسبب الحروب أو الفيضانات .

كما يعني: إعانة المجاهدين في سبيل الله ، وكفايتهم وإمدادهم بالأموال للدفاع عن أنفسهم وردع المعتدِي عليهم. ودعم المؤسسات الخيرية الدعوية والتعليمية وغيرها لمواصلة جهودها في نشر الإسلام ومقاومة التنصير ، فإنَّ خذلانها والبُخل بالمال عنها ، يرجع بآثار نفسية سيئة على العاملين بها ، ويكرس هاجس القطيعة وروح التخاذل بين المسلمين .

*** ومن المظاهر العملية للتناصر: التناصر ببذل الأنفس والأوقات.**

وذلك بالقيام بما يلزم في أعمال الإغاثة والتعليم والدعوة إلى الله في المناطق التي تمس الحاجة فيها إلى مثل تلك الجهود ، والتضحية من أجل ذلك بالأوقات واللَّذات العاجلة ، وتحمُّل المشاق وركوب الأخطار . . . وكل ذلك من النصر في الدين .

ويصدق ذلك على من نذر نفسه لجمع التبرعات والتنقل من أجل ذلك، وعلى من تولَّى الإشراف على طباعة الكتب ودعمها، وعلى من شجع غيره من القادرين على أداء هذه المهمات، ودعا إلى النفير للإسهام في تنفيذها في أماكن الحاجة إليها.

وأجلى صور التناصر في الدين، وأعلى صور الجود: بذل الْمُهَج والأرواح فداءً لدين الله ودفاعاً عن أعراض المسلمين وبلادهم، جهاداً في سبيل الله حيثما رُفِعَت راية لا إله إلا الله بحق.

ومن جاد بنفسه التي بين جنبيه، فجوده بما دونها من مال أو ولد أهون وأهون.

يجود بالنفس إن ضَنَّ البخيل بها   والجود بالنفس أعلى غاية الجود

ومن التناصر: الإيواء ومشاطرة الدور والضّياع والأموال إذا لزم الأمر، واستقبال أطفال المسلمين ومشرديهم، ومداواة جرحاهم في بلاد المسلمين، والعناية بهم والإحسان إليهم. وقد امتدح الله الأنصار بهذه الخصال في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

وشيء آخر يفتقر إليه مشوار الوحدة الإسلامية، أذكرك به ـ أخي المسلم ـ مجرد تذكير! ، لأنه كثيرا ما ينسى أو لايؤبه له مع أنه يسير على من يسره الله عليه. فما هو يا تُرَى؟

إنّه الالتزام بالسلوك والْخُلُق الإسلامي.

أخي المسلم: اعلم أنَّ التزامك بالسلوك والخلق الإسلامي هو أساس الثقة، التي هي بوابة التعاون والوحدة.

أنت مسلم، فلتكن صادقاً أميناً وفياً بالعهد، مخلصاً في عملك، متقناً لما تكلف به، نشيطاً منتجاً، وكن طموحاً بعيد النظر.. وابتعد عن الاحتيال والرشوة والسرقة والغش، احذر الكسل وتضييع الأوقات.. فإنَّ كل خصلة حميدة إيجابية تتحلى بها فهي رصيد للأمة كلها، وليست لمصلحتك وحدك، وكل خصلة ذميمة تتصف بها فهي وصمة عار في جبين الأمة كلها، ولست وحدك الخاسر.

والخلاصة:

إنَّ وحدة الأمة الإسلامية تحت راية واحدة، هي راية الإسلام بمفهومه الشامل مطلب مُلِح، وواجب شرعي لا يجوز إغفاله، ولن تكون أمة الإسلام شيئاً مذكوراً ما لم تكن أمة واحدة، كما أراد لها خالقها وباريها.. ولم تُنتقص من أطرافها وتذهب ريحها إلا حين استهانت بهذه الرابطة، ومات في حسّ أفرادها الشعور بأهميتها.

وواقعها المؤسف اليوم، مقارناً بماضيها المشرق يؤكد ما ذكرته، وينسف ما سواه من دعاوى التوحد والوحدة والاجتماع باسم العروبة وباسم الوطن، وتحت راية القومية أو الاشتراكية... فكلها أفلست وتبيَّن عوارها ولم تجن الأمة الإسلامية منها طيلة قرن مضى سوى مزيد من التأخّر والتقهقر، والفقر والفوضى، والتشرذم والانقسام.

لقد ملَّت الشعوب الإسلامية ومَجَّت هذه الشعارات، ودفعت الثمن غالياً، وأدركت خطأها حين أسلمت قيادها لشرذمة لا يحملون همومها، بل جعلوها ـ ومازالوا يجعلونها ـ كبش الفداء في كل مرة.

ولا أدلّ على ذلك من النتائج المذهلة في استطلاع للرأي في العالم العربي حول الوحدة التي يكون أساسها الإسلام، وأن الإسلام من أهم عوامل الوحدة.

لقد كشفت النتائج «أن تسعة أعشار المبحوثين تؤكد أهمية العامل الإسلامي في الوحدة العربية.. وكانت النتائج على خلاف ما كان يعتقد دعاة العلمانية وآخرون. وفي هذا يقول المشرف على الاستطلاع ـ وهو علماني على ما يبدو من كتاباته ـ: أما أكبر المفاجآت الميدانية، فهي التيار الصاعد للدين الإسلامي، وتكوينه للعديد من المواقف والاتجاهات نحو المسائل المتعلقة بالقومية والوحدة العربية»(١).

فلتبدأ الشعوب الإسلامية مشوار التوحّد باسم الله، وعلى منهاج رسول الله ﷺ، وليرفع روّاد الإصلاح راية الوحدة والتعاون في ظل المنهج الحق، وستكلل الجهود بالنجاح بإذن الله تعالى، وسوف تتضاءل قيمة الحدود الجغرافية، والحواجز السياسية المصطنعة. وإنَّ غداً لِناظِرِه قريب ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

---

(١) بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، للدكتور/ فاروق حمادة، ص ١٢٢، ١٢٣ بتصرف. وقد نقل الكاتب تفاصيل الاستطلاع نقلاً عن: ندوة القومية العربية في الفكر والممارسة، ص ١٣٤، ١٤٠، وقد مضى على وقائع هذه الندوة أكثر من عشرين عاماً؛ أي أنها كانت في زمن المد القومي، وأظن أن نتائج مثل هذه الندوة لو عقدت في أيامنا هذه ستكون مفاجأة مذهلة حقاً للقوميين وأشباههم!

* وفي الختام أقول لطلائع الأمة وروّاد الإصلاح فيها، مبشراً ومشجعاً:

إنَّ الأمة الإسلامية اليوم، تختلف اختلافاً كبيراً عنها قبل قرن أو نصف قرن من الزمان، نتيجة الضربات المتوالية عليها، ونتيجة الجهود الإصلاحية الجبّارة التي بُذِلَت لإصلاحها.

فالأمة اليوم ـ على مستوى الشعوب ـ قد خطت خطوات طيبة وإيجابية في كل ميدان.. لقد كثرت الطبقة الواعية بين صفوف أبنائها ومثقفيها.

وظهرت حقيقة الغرب الصليبي وجلية أمره لدى كثيرين من أبناء الأمة وعامتها، وخصوصاً ما يتعلّق بدعوى حماية حريات الشعوب، وخرافة حقوق الإنسان، وهما أخطر شعارين غررا بسواد الناس من المحرومين المظلومين، ومن المخدوعين من المسلمين.

وانهارت الشعارات المحلية المستوردة؛ كالقومية والاشتراكية والعلمانية، ولفظتها الأمة وبطل سحرها، ولم تعد تمثل سوى أفراد منبوذين من الأمة [(١)]، وإن كانوا يتربعون على عروش قيادتها، محتمين من شعوبهم بقوة الحديد والنار. ومساندة اليهود والنصارى الصليبيين.

وأطلت تباشير العودة إلى دين الله والالتزام بشريعته والمطالبة بتحكيمها، بعد طول سُباتٍ وسُكر وغفلة، وهي عودة شملت كل أرجاء العالم الإسلامي بمختلف فئاته، وكانت الانتخابات الجزائرية الأخيرة، وفوز جبهة الإنقاذ الإسلامية بأكثر من ٨٠٪ من الأصوات، أحد الأدلة على صدق تلك العودة. وكان فوز الاتجاه الإسلامي في تركيا العلمانية، وفلسطين المحتلة دليلا آخر

إنَّها بحق صحوة عامة، لم تفرض على الشعوب فرضاً، وإنَّما اختارتها اختياراً، إنَّها إرادة الله ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

(١) انظر: دفاع عن ثقافتنا، ص ٤٥ وما بعدها، حول اعترافات أحد أساطين العلمانية/فؤاد زكريا بفشل العلمانية، وغربة أنصارها، وأنهم لا يملكون مشروعاً حضارياً للأمة، وإنَّما يجمعهم شيء واحد، هو رفض المشروع الإسلامي المطروح لحل أزمَةِ الأمَّة.

لقد تجاوزت هذه الصحوة فترة المخاض وولدت بالفعل، بل لقد كبر الجنين، وأفزع الغربَ وأولياءَه وعبيدَه في الشرق، وهاهم أولاء يحاولون عبثاً قتله أو حبسه أو شل حركته.

وبدأت روح الأمة الواحدة تسري في دماء الشعوب الإسلامية بحرارة، على مستوى الكلمة، وعلى مستوى المواقف.

وما الجهاد الأفغاني، وما الأحداث الدامية في البوسنة والهرسك، وفي الصومال، والشيشان، وفي أماكن أخرى من جسم الأمة المكلوم، إلا نماذج أكدت صدق هذه البداية. على ما في تلك التجارب من أخطاء وتجاوزات مقلقة، أخطرها الغلو في التفكير، والجرأة على المسلمين المخالفين في التفكير والمواقف، وتلك يجب حسمها وتداركها قبل أن تأتي على ثمرات هذا الانبعاث المبارك.

بل إنَّ مستوى التفاعل مع أحداث الأمة، والدعم السخيّ لقضاياها تضاعف مرات كثيرة عن أي وقت مضى.. وهو شاهد آخر على هذه الحقيقة[1].

أقول: إنَّ هذه البدايات المبشّرة، لتعطي أملاً قوياً في مواصلة المشوار، وتستوجب منا مضاعفة الجهد ووصل اللاحق بالسابق، وتصحيح المسار ورتق الفتوق، وإتمام البناء لا هدمه.

إنَّ الهجمة على الإسلام والمسلمين، خصوصاً الدعاة الصادقين والحركات التصحيحية المنضبطة بضوابط الشريعة شرسة مركزة، وتتعاون فيها قوى ضخمة في كل مكان، ولكن ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤].

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

---

(١) انظر: بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، ص ١٢١ وما بعدها.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] .

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ، وعلى من اتبعهم وسار على منهاجهم إلى يوم الدين .

* * *

خاتمة الكتاب

وفي كنفها أحط الرّحال بعد رحلة شائقة، دليلها كتاب الله، وميدانها تاريخ العالم، وهدفها التعرف على سنن الله في الأمم، والتأمّل في عظيم حكمة الله وسعة علمه وباهر قدرته في إحكام نظام هذا الكون، بما فيه ومَنْ فيه.

هنا في خاتمة هذا الكتاب أُلقي عصا التسيار، لأتأمّل في دفتر رحلتي، وأنثر كنانتي، لألخص لك ـ أخي القارئ ـ خلاصة ما بدا لي أنه ثمرة من ثمرات هذا الجهد المحدود، ونتيجة من نتائج السير والتأمل.

وسأحرص على أن تكون هذه الخاتمة جامعة بين خلاصة النتائج العلمية، والمقترحات العملية، كما توخّيت ذلك في صلب الكتاب.

هاهي بين يديك .. خذها في النقاط التالية:

أولاً: كتاب الله تعالى مشتمل على كل أصول السنن التي تنظم حياة الأمم والجماعات، متضمن لكثير من تفصيلاتها العلمية والعملية.

ولم يكن يخطر ببالي قبل معالجة هذا الموضوع أن في القرآن الكريم كل هذا البيان والتفصيل لهذا الجانب الحيوي، ذي الأهمية البالغة في حياة الأمم.

وأقول: إنّ ما كنتُ أعيشه من غفلة وذهول، جعلني أنبهر حقاً عندما تكشّف لي جانب محدود من هذه الرؤية الشاملة الكاملة. وأظنّ أن حال الكثيرين من المسلمين يشبه حالي، وهذا أحد عيوبنا ولا شك، وإنّه لدليلٌ قاطعٌ على مبلغ هجرنا لكتاب الله، وإعراضنا عن تأمّله وتدبّره، وتعلّم معانيه وفقهها، والاهتداء بهديه والعمل بما فيه.

والقرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن أقبل عليه بكليته، ونظر فيه نظر الراغب في التعلم والاتباع، لا نظر المستغني عن ما فيه من هداية، ولا نظر المتحذلق المتفيهق.

إنّ «القرآنَ كتابٌ يصنع النفوس، ويصنع الأمم، ويبني الحضارة. هذه قدرته.. هذه طاقته.. فأمّا أن يفتح المصباح فلا يرى أحد النور لأنّ الأبصار مغلقة، فالعيب عيب الأبصار التي أبت أن تنتفع بالنور، والله تعالى يقول: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

هناك في عصرنا خمسة مليارات من البشر محجوبة عن أضواء القرآن، لا تعرف عنه شيئاً.

والسبب: أن المسلمين أنفسهم محجوبون عن أضواء القرآن، وفاقد الشيء لا يعطيه»[١].

ثانياً: سنن الله في الأمم، تشبه السنن الكونية في صرامتها واطرادها، ومع ذلك فهي متميزة عن السنن التي تحكم الكون المادي تميزاً واضحاً، يوازي الفروق بين طبيعة الإنسان وطبيعة المادة. فللإنسان سنن تليق به وتناسبه، وللكون المادي سنن تخصه وتلائمه، وإن كان كل منهما غاية في الدِّقة والإحكام.

وقد عني القرآن ببيان السنن المتعلقة بالإنسان بصورة أكبر؛ لأنَّ نجاة هذا الإنسان وفوزه في الدنيا والآخرة متعلقٌ بمعرفته لهذه السنن، ومراعاتها، في حين أن غاية ما يفقده عند خفاء بعض السنن المتعلقة بالكون المادي هو أن تتخلف بعض مظاهر النعيم وأشياء الحياة التي يسيِّر فيها أمور دنياه.

ومن الجهل والعبث أن يعامَل الإنسان على أن شيء يشبه الحيوان أو الجماد، وأن يعامل بغير ما جعل الله له من سنن تنظم حياته وتُصلح شئونه.

وخطيئة الجاهلية الكبرى أنها لم تفرق بين الإنسان والمادة، في أخص خصائص الإنسان؛ وهي إنسانيته وكونه عبداً لا يصلحه إلا الإقرار بالعبودية لله.

ثالثاً: وهناك فروق بين السنن التي تحكم الأفراد والسنن التي تحكم الأمم والجماعات.. فروق في كيفية عمل السنن، وفروق في كيفية الجزاء.

وهذه الفروق منسجمة تماماً مع وظائف كل منهما، وامتداده في الزمان والمكان.

ويخطئ من يضع الخطط لإصلاح الأمم، ويقيس النتائج كما لو كان يتعامل مع أفراد، ينتهي كل شيء بنهايتهم.

رابعاً: للسنن الإلهية من الثبات والاطراد والعموم ما يجعل للتاريخ ولتجارب الأمم ـ كل الأمم ـ قيمة كبرى، باعتبارها تجارب بشرية خاضعة لمعايير ثابتة.

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن، مدارسة أجراها الأستاذ/ عمر عبيد حسنة مع الشيخ محمد الغزالي، ص ٣١.

ويخطئ من يظن أن التاريخ لا يعيد نفسه بهذا الاعتبار، وأنه يمكن أن تتوقف حركته لصالح أمة أو طائفة، مغتراً بما هو فيه من إمكانات وظروف مواتية. ويخطئ هؤلاء ثانية عندما يبحثون عن حل مشكلاتنا خارج إطار السنن.

واختصاص المسلمين بنوع من السنن، واختصاص الكافرين بنوع آخر، هو محدود، وهو راجع في حقيقته إلى اختلاف أحوال الفريقين، .. وأكثر السنن هي قوانين يخضع لها الجميع .. فالاختصاص الجزئي ليس انخراماً في قانون السنن، أو نقضاً لخصائصها.

خامساً: السنن الإلهية في حياة الأمم منظومة واحدة، يؤثر بعضها في بعض، تماماً كالإنسان نفسه، وكل قصور أو تقصير في جانب من الجوانب سوف يترك أثراً ما على الجوانب الأخرى، وإن خيل لأكثر الناس أن هذا ليس بلازم.

وهي تؤكد لنا أن عملية الإصلاح لا يمكن أن تكون ناجحة مثمرة، إلا إذا كانت شاملة متكاملة.

وإذن، فلا مكان للحلول الجزئية أو التلفيقية، وإن أغرت بنجاح عاجل؛ لأنها ستطيل من أمد المعاناة، وتضيع الجهد والوقت، دون ثمرة تكافئ ذلك.

والسبب: هو أنها تصادم طبيعة السنن وما هو من خصائصها.

الإصلاح الذي تهدي إليه السنن هو الذي تمثّل في أكمل صوره على يدي النبي ﷺ وصحابته من بعده. إصلاح لشئون الناس الدينية والدنيوية، ولكل طبقاتهم من الراعي والرعيّة.

سادساً: ليس في حياة الأمم زاوية مظلمة مهجورة، لا تشملها السنن، وليس هناك لحظة أو ظرف يكون فيه الإنسان في حالة تمرّد على سلطانها.

فالأمّة منذ أن تتكون، فالسنن تعمل فيها. إلى أن تأتي اللحظة التي تخرج فيها الأمة من ساحة التاريخ، بالفناء والهلاك، أو التشرذم والتمزق، واستحالة الكيان الجماعي إلى أفراد ضمن تجمعات أخرى.

وما يجري للأمة من تقلّب في الأحوال، ومن إقبال وإدبار؛ كالنصر والهزيمة، والتمكين والاستذلال، وأنواع الابتلاءات بالخير والشرّ.. كل ذلك خاضع للسنن، مقدّرٌ بحكمة وعلم.

سابعاً: سنن الله في الأمم تؤكد أن تاريخ البشرية هو تاريخ المدافعة بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين معسكر الإيمان ومعسكر الشيطان.

وتكشف سنن الله في هذا الباب ، عن حقائق ضخمة ، لا يمكن نقضها ولا تجاهلها .

ومن أبرزها:

* أن القيمة الكبرى في هذا الوجود ، هي قيمة الإيمان ، وأن هذا الإيمان متميز . متميز في تحقيق الطمأنينة والسَّكينة في القلوب ، والقوة والثبات في الأبدان والمواقف . متميز في إحراز النصر ، برغم قلَّة العدد وعدم تكافؤ العُدد . متميز في أن سنن الكون المادي تنخرق لصالح أهله . متميز في أن الدولة له في نهاية المعركة .

* وأن المدافعة لا يمكن أن تتوقف ، وأن الباطل لا يمكن أن يكف عن منازلة الحق بكل وسيلة وفي كل ميدان .

* وأن الباطل أكثر عدداً وأتباعاً ، وأشدّ تمكناً من قوى الأرض . ومع ذلك ، فإنَّه ينهزم أمام قوة الحق وجند الإيمان الصادقين .

* وأن الأمم ـ إلا من رحم الله منها ـ لا تنتفع ـ عادة ـ بالنذر والآيات ، ولا ترجع عما هي فيه من الكفر والطغيان ، ولا تعتبر أمة بأخرى ، رغم تكرار المواقف وتشابه الأسباب ، ولهذا تتكرر مشاهد الإهلاك والتدمير في جانب الكافرين ، ومظاهر الإنجاء وحُسْن العاقبة في جانب المؤمنين .

ثامنا: أن صلاح أحوال الأمم واستقامتها مرهونٌ بتحقق أمرين:

الأول: وجود المصلحين، وهم الأنبياء وأتباعهم على طريقتهم في كل أمة.

الثاني: استعداد الأمة للإصلاح، وذلك بانقيادها لهؤلاء الناصحين في فعل ما يأمرون به والانتهاء عما ينهون عنه، بغض النظر عن المستفيد والمتضرر.

تاسعاً: فقه سنن الله في الأمم، وما يقتضيه ذلك الفقه من خطوات ووسائل وأسباب.. ضرورة لازمة، وخطوة أولى لكل من يروم إصلاح الأحوال.

وكل من يهون من شأن هذا الفقه ، تحت أي دعوى أو تعليل ، فخبرته في باب الإصلاح محدودة ناقصة ، وسوف يدفع وتدفع الأمة معه الثمن غالياً .

عاشراً: إن أعظم وأنفع باب نَلِجُ منه لاستصلاح أحوال الأمم، هو نشر العلم النافع، والتدريب على ممارسة العمل الصالح، بالمعنى الأعم للعلم النافع والعمل الصالح.

حادي عشر: المحافظة على مكاسب الأمة وضمان استمرار عطائها، هو ثمرة الإصلاح، وهو أمرٌ في غاية الصعوبة.

ولذلك كان سبب فشل تجارب الأمم وهلاكها، راجعاً إلى أحد أمرين:

إمّا عدم قبول خطوات الإصلاح ابتداءً، أو عدم حمايتها والصبر عليها استمراراً.

ثاني عشر: لا يحفظ حقوق الأمة الإسلامية ويمنحها ماتستحق من حرية وكرامة وعزة ويبقي على عنصر الخير فيها شيء كالوعي بما لها وما عليها، وكالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، فهما قطب رحى أسباب البقاء، وعنوان عزّة الأمة وكرامتها.

وعلى ضوء ما سبق، فإنّي أود طرح بعض المقترحات العملية؛ رجاء أن تلقى ـ أو شيء منها ـ قبولاً، فأكون شريكاً في الأجر والثواب. ومنها:

* أن ميدان الدراسات السننية ما يزال عندنا نحن المسلمين بكراً، وخصوصاً الدراسات المرتبطة بكتاب الله ـ تعالى ـ بصورة مباشرة.

ومن هنا، فإنّني أقترحُ أن تُثارَ عدد من القضايا التي تهم الأمة ويستكتب فيها القادرون من الباحثين والدارسين وغيرهم.

وتكون إثارتها عن طريق وضع تصور مبدئي لكل فكرة، وتحديد لأهم الأهداف المتوخاة من مدارستها، ونشر هذه التصورات في مقالات وكتيبات.

وقد حاولت في هذا الكتاب، أن أقدِّمَ نماذج مصغَّرة لما أعنيه، منها مثلاً: مبحث «التمكين والاستخلاف وعوامل البقاء»، ومبحث «ابتلاء الأمم بالسرَّاء والضرَّاء وموقفها من ذلك». ومبحث «لا يستوي الخبيث والطيب». ومبحث «الملأ ظاهرة تتكرر»، أو دراسة لأحوال القِلَّة والكثرة.. ونحوها.

وهي ـ أعني القضايا ـ كثيرة، ويمكن أن تعالج مختلف جوانب حياة الأمة، من منطلق السنن والقانون الإلهي.

* وأن يكون هناك خطة متكاملة لطرح عدد من القضايا في المحاضرات العامة والدروس، وأن يوليها العلماء وطلاب العلم عناية خاصة.

* وأن تُراجَع مناهج التفسير في الجامعات، لتولي الآيات المتضمنة لعرض سنن الله في الأمم مزيد عناية، فإنَّ حال أكثر المناهج هو تكرار لآيات الأحكام، التي يتناولها الطلاب بصورة متخصصة في مادة الفقه، وشبه متخصصة في مادة الحديث.

* وأن يُفْسَحَ للتفسير الموضوعي مكان مستقل في محاضرات التفسير، بحيث يكون مادة قائمة برأسها، وأن تكون مادته دراسة وبيان مثل هذه القضايا، وأن توجّه عناية الدارسين فيه إلى معالجة مثل هذه الموضوعات.

* وأن تكون البحوث الفصلية في قسم القرآن وعلومه مما يُعنَى بهذه الجوانب .

والعجيب أنك ترى ـ أحياناً ـ بحوثاً تكاد تكون عديمة الجدوى ، يشغل بها الطلاب ، وتستنزف أوقات الأساتذة ، وحصيلتها العلمية والتربوية محدودة جداً ، ولا شك أن هذا من الغفلة والضمور في البحث ، و إهمال التجديد ، والتشبث بإعادة موضوعات قد تكون بحثت مراراً .

ثالث عشر: وأخيراً أختتم هذه النقاط، بهذه الوصية والتنبيه، فأقول:

إنَّ حجر الزاوية في تحقيق ما نصبو إليه هو التعاون بين العلماء وطلاب العلم وعموم العاملين في حقل الدعوة إلى الله ، واجتماع كلمتهم ، وانضوائهم تحت راية أهل السنة والجماعة ، وعلى منهج خير القرون ، وأن يستشعروا الخطر المحدق بهم ، وألا يجعلوا خصومتهم فيما بينهم ، فإنَّ اجتماع كلمتهم مقدمة لاجتماع كلمة الأمة ، وتفرقهم سبب لتشرذم الأمة وتناحرها فيما بينها .

وأن يدركوا جيداً أن مقولة: «إنَّما أُكلتُ يوم أُكِل الثور الأبيض» لا تنفذ اليوم على أحد كما تنفذ عليهم ، فليتقوا الله ، وليعرفوا للعلم الذي يحملون قدره ، وللدين الذي يتكلَّمون باسمه حرمته ومكانته .

والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *

فهرس المراجع

(أ)

١ـ التربية في ألمانيا الغربية نزوع نحو التفوق والامتياز، تأليف: هانز ج. لينجتر وزميله، ترجمة وتعليق: د. محمد عبد العليم مرسي.

٢ـ أحكام القرآن، لابن العربي، بقلم المحقق.

٣ـ إخراج الأمَّة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها، للدكتور/ ماجد عرسان الكيلاني.

٤ـ أدب الاختلاف في الإسلام، طه جابر فياض العلواني، عن كتاب «الانتقاء في فضائل الثلاثة الخلفاء»، لابن عبد البر القرطبي.

٥ـ أزمة المثقفين تجاه الإسلام، للدكتور/ محسن عبد الحميد.

٦ـ أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، د/ أحمد محمد كنعان.

٧ـ أساس البلاغة، للزمخشري.

٨ـ الإسلام اليوم للأستاذ/ أبي الأعلى المودودي.

٩ـ الإسلام والحضارة العربية، تأليف: محمد كرد علي.

١٠ـ الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم، من بحث للأستاذ/ عثمان أوز تُرك، بعنوان: «الصراع على تبني الحضارة والثقافة الغربية في تركيا الإسلامية».

١١ـ أضواء البيان للشيخ/ عطية محمد سالم.

١٢ـ أقسام القرآن، لابن القيم.

١٣ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

١٤ـ الإنسان ذلك المجهول، للدكتور/ ألكسيس كاريل. تعريب: شفيق أسعد فريد.

١٥ـ أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني.

١٦ـ آداب اللغة. انظر: تاريخ آداب اللغة.

١٧ـ الاستيعاب في أسماء الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي، على هامش الإصابة لابن حجر، ط. المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

١٨ـ أُسْد الغابة في معرفة الصحابة، لعز الدين علي بن محمد بن الأثير الجزري، ط. دار الشعب، القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

١٩ـ أسماء مؤلفات ابن تيمية، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد، ط. دمشق، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م.

٢٠ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ط. المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

٢١ـ الأعلام، تأليف: خير الدين الزركلي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٣ ـ ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٤ ـ ١٩٥٩م.

٢٢ـ الإعلام بمناقب الإسلام (مجموعة تراثنا)، لمحمد بن يوسف العامري، تحقيق الدكتور: أحمد عبد الحميد غراب، ط. القاهرة، ١٣٧٨هـ/ ١٩٦٧م.

٢٣ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة.

(ب)

٢٤ـ البداية والنهاية في التاريخ، لإسماعيل بن عمر بن كثير، ط. السعادة، القاهرة، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

٢٥ـ البرهان في أصول الفقه، للجويني. تحقيق الدكتور: عبد العظيم الديب، الدوحة، قطر، ١٣٩٩هـ.

٢٦ـ بروكلمان، انظر: المراجع الأجنبية، GAL.

٢٧ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُّحَاة، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ط. الخانجي، القاهرة، ١٣٢٦هـ.

٢٨ـ بصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي.

٢٩ـ بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، للدكتور/ فاروق حمادة.

(ت)

٣٠ـ تاريخ ابن خلدون.

٣١ـ تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، للجبرتي.

٣٢ـ تأويل مشكل القرآن.

٣٣ـ تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٦ ـ ١٣٠٧هـ.

٣٤ـ تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، ط. القاهرة، ١٢٨٢هـ.

٣٥ـ تاريخ بغداد، للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، القاهرة، ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م.

٣٦ـ تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. المعارف، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٣م.

٣٧ـ التحدي الحضاري وكيف نواجهه، بحث للدكتور/ محمود محمد سفر.

٣٨ـ **التربية في اليابان المعاصرة**، تأليف: إدوارد ز بو شامب، ترجمة وتعليق: الدكتور/ محمد عبد العليم مرسي.

٣٩ـ **التربية وقضايا الطاقة**، تأليف: رودني ف. ألن. ترجمة: الدكتور/ محمد عبد العليم مرسي.

٤٠ـ **التصوير الفني في القرآن**، لسيد قطب.

٤١ـ **تفسير التاريخ علم إسلامي**، د. عبد الحليم عويس.

٤٢ـ **تفسير التاريخ**، لعبد الحميد صديقي، ترجمة: د/ كاظم الجوادي.

٤٣ـ **تفسير التحرير والتنوير**.

٤٤ـ **تفسير المنار**، محمد رشيد رضا.

٤٥ـ **تفسير البغوي على هامش تفسير ابن كثير**، ط. المنار، القاهرة، ١٣٤٣هـ.

٤٦ـ **تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: الأستاذ محمود محمد شاكر، مراجعة: الشيخ أحمد محمد شاكر، ط. المعارف، القاهرة.

٤٧ـ **تفسير الطبري**، ط. بولاق، القاهرة، ١٣٢٣هـ.

٤٨ـ **تفسير القرآن العظيم**، طبعة أخرى، هي طبعة دار الشعب، القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م.

٤٩ـ **التنبيه والإشراف**، للمسعودي.

٥٠ـ **تهذيب الأسماء واللغات**، لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي، ط. المنيرية، بدون تاريخ.

٥١ـ **تهذيب التهذيب**، لابن حجر العسقلاني، ط. حيدر آباد، ١٣٢٥ـ ١٣٢٧هـ.

٥٢ـ **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**.

(ج)

٥٣ـ **جامع الرسائل**، لابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، ط. المدني، القاهرة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٥٤ـ **الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير**، لجلال الدين السيوطي، ط. مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

٥٥ـ **الجامع الكبير = جمع الجوامع**، لجلال الدين السيوطي، نسخة مصورة عن مخطوطة دار الكتب، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٥٦ـ الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد القرطبي = تفسير القرطبي، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

٥٧ـ جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث، تأليف: جمال سلطان.

(ح)

٥٨ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، لآدم متز، نقله إلى العربية: الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.

٥٩ـ حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، ط. الخانجي، القاهرة، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

(خ)

٦٠ـ الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، ط. الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٢٧٠هـ.

(د)

٦١ـ دراسة في البناء الحضاري، د. محمود محمد سفر (مقدمة الأستاذ/ عمر عبيد حسنة).

٦٢ـ درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية.

٦٣ـ ديوان أبي تمام، تحقيق الدكتور: شاهين عطية، طبعة لبنان، طبعة أولى، ١٩٦٨م.

٦٤ـ ديوان النابغة الذبياني، صنعة ابن السكيت، تحقيق الدكتور: شكري فيصل، ط. دار الفكر، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٦٥ـ ديوان الأعشى الكبير.

٦٦ـ ديوان الحماسة، لأبي تمام.

٦٧ـ درس النكبة الثانية، يوسف القرضاوي.

(ذ)

٦٨ـ ذكريات، علي الطنطاوي.

٦٩ـ الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط. السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م.

(ر)

٧٠ـ رجال صحيح البخاري لأحمد بن محمد البخاري الكلاباذي، تحقيق: عبدالله الليثي (بيروت، دار المعرفة الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ توزيع دار الباز مكة المكرمة).

٧١ـ رجال صحيح مسلم لأحمد بن علي منجويه، تحقيق: عبد الله الليثي (بيروت، دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، توزيع دار الباز بمكة المكرمة).

(ز)

٧٢- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق الشيخ: محمد حامد الفقي، ط. السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

(س)

٧٣- سنن الله في المجتمع، للدكتور/ محمد الصادق عرجون.

٧٤- سنن ابن ماجه (أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني)، تحقيق: الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، ط. عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م.

٧٥- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٦٩ـ ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠ـ ١٩٥١م.

٧٦- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (بشرح ابن العربي)، ط. المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م.

٧٧- سنن الدارمي، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي، ط. دمشق، ١٣٤٩هـ.

٧٨- سنن النَّسَائي (المجتبى)، للحافظ أبي عبد الرحمن بن شعيب النسائي، ومعه شرحه: زهر الربى على المجتبى، للحافظ جلال الدين السيوطي، ط. مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

٧٩- سُنَّة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم، رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة، إعداد الطالب/ عبد السلام نصر الله الشريف.

٨٠- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٨١- سير أعلام النبلاء، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، يخرجه معهد المخطوطات بالجامعة العربية، ط. المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.

٨٢- السيرة النبوية، لابن كثير، تحقيق: الدكتور مصطفى عبد الواحد، ط. عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٨٣- السيرة النبوية، لعبد الملك بن هشام، تحقيق: الأستاذ مصطفى السقا وآخرين، ط. مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

(ش)

٨٤- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢م.

٨٥- شرح السنة، بقلم المحقق.

٨٦- شرح المعلقات السبع، للزوزني.

٨٧ـ **شعر الهذليين** .

(ص)

٨٨ـ **الصحاح**، للجوهري ، انظر: تاج اللغة .

٨٩ـ **صحيح ابن حبان**، لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي ، الجزء الأول ، تحقيق: الشيخ أحمد شاكر ، ط . المعارف ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م .

٩٠ـ **صحيح البخاري**، صحيح البخاري مع فتح الباري لابن حجر العسقلاني ، تحقيق الشيخ ابن باز ، (طبع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد) .

٩١ـ **صحيح مسلم**، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، تحقيق: الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، ط . عيسى الحلبي ، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م .

٩٢ـ **صحيح ابن خزيمة** (بيروت ، المكتب الإسلام ، طبع ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م) .

٩٣ـ **صحيح سنن أبي داود** للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (الرياض ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ، توزيع المكتب الإسلامي في بيروت) .

٩٤ـ **صحيح مسلم بشرح النووي** (بيروت ، دار الفكر ، طبع عام ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) .

(ض)

٩٥ـ **ضوابط للدراسات الفقهية** ، لسلمان العودة .

(ط)

٩٦ـ **طبقات الحفاظ**، للذهبي ، ط . جوتنجن ، ١٣٨٣هـ .

٩٧ـ **الطبقات الكبرى**، لابن سعد بن منيع البصري الزهري ، ط . بيروت ، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م .

٩٨ـ **طبقات المفسرين** ، للداودي .

(ع)

٩٩ـ **عِبَر وبصائر للجهاد في العصر الحاضر** ، للدكتور/ عبد الله عزام .

١٠٠ـ **العلمانية** ، للدكتور/ سفر الحوالي .

١٠١ـ **على مشارف القرن الخامس عشر ــ دراسة للسنن الإلهية** .

(ف)

١٠٢ـ **فتاوى الرياض = مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، جمع وترتيب: عبدالرحمن ابن محمد بن قاسم وابنه محمد ، طبعت في ٣٧ جزءًا ، ط . الرياض ، ١٣٨١ــ ١٣٨٩هـ .

١٠٣ـ **فتح الباري بشرح البخاري**، لابن حجر العسقلاني ، تحقيق: الشيخ عبد العزيز بن باز ، ط . المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ .

١٠٤- **الفتح الرباني**، تأليف أحمد عبدالرحمن البنا، (دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى).
١٠٥- **الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر**، للدكتور/ محمد البهي.
١٠٦- **فكرة التاريخ**، ر. ج. كولنجوود، ترجمة: محمد بكير خليل.
١٠٧- **الفهرست**، لابن النديم، ط. التجارية، القاهرة، ١٣٤٨هـ.
طبعة أخرى: تحقيق: جوستاف فلوجل (مصورة عن طبعة ليبزج، ألمانيا، ١٨٧١م)، ط. بيروت، ١٩٦٤م.

(ق)

١٠٨- **القاموس المحيط**، لمجد الدين الفيروزآبادي، ط. المطبعة المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م.

(ك)

١٠٩- **كتاب الغارة على العالم الإسلامي**، ترجمة: مساعد ومحب الدين الخطيب.
١١٠- **كتاب سيبويه**، تحقيق: عبد السلام هارون.
١١١- **الكشاف**، للزمخشري (١/ ٤٦٥).
١١٢- **كلمة في تعليل التاريخ**، لعمر فروخ.
١١٣- **كنز العمال**، لعلاء الدين البرهان فوري.
١١٤- **كيف نفهم التاريخ**، للويس جوتشلك.

(ل)

١١٥- **لسان العرب** = اللسان للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكروم ابن منظور الأفريقي المصري (بيروت، دار صادر، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم).

(م)

١١٦- **ماهية الحضارة وموقع الحضارة الإسلامية**، بحث للشيخ عثمان عبد القادر صافي.
١١٧- **مجلة (المسلم المعاصر)**، عدد (٧)، لسنة (١٣٩٦هـ).
١١٨- **محاسن التأويل**، للقاسمي.
١١٩- **المحرر الوجيز**، لابن عطية.
١٢٠- **المدرسة القرآنية**، لباقر الصدر.
١٢١- **المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري**، للدكتور/ محسن عبد الحميد.
١٢٢- **المسائل التي لخصها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب من فتاوى ابن تيمية**.

١٢٣ـ **مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهليـة**، بشـرح: محمـود شـكري الآلوسي .

١٢٤ـ **معجم الشعراء**، للمرزباني .

١٢٥ـ **المعجم**، لابن الأبار .

١٢٦ـ **مغني اللبيب**، لابن هشام .

١٢٧ـ **المفردات** للراغب الأصفهاني .

١٢٨ـ **ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية**، للمفكر: مالك بن نبي ، ترجمـة: عبـد الصـبور شاهين .

١٢٩ـ **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، لأبي الحسن الندوي .

١٣٠ـ **مجموعة الرسائل الكبرى**، لابن تيميـة (نشـر دار البـاز ، مكـة ، طبـع دار إحيـاء الـتراث العربي ، بيروت) .

١٣١ـ **مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية** (بيروت ، دار العربية للطباعـة والنشـر والتوزيـع ، تصوير الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ) .

١٣٢ـ **المسند**، لأحمد بن حنبل ، تحقيق: الأستاذ الشيخ أحمد شـاكر ، ط . المعـارف ، القـاهرة ، ١٣٦٥ـ ١٣٧٤هـ / ١٩٤٦ـ ١٩٥٥م .

١٣٣ـ **الموطأ**، لمالك بن أنس ، تحقيق: الأسـتاذ محمـد فـؤاد عبـد البـاقي ، ط . عيسـى الحلبي ، القاهرة ، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م .

(ن)

١٣٤ـ **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**، لابن الجوزي .

١٣٥ـ **نيل الأوطار**، للشوكاني .

(و)

١٣٦ـ **وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية**، للدكتور/ محمد سلام مدكور .

١٣٧ـ **الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ـ دراسـة وموازنـة**، للـدكتور/ سـليمان بـن صـالح القرعاوي .

* * *

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
المقدمة	٥
التمهيد	١٥
المبحث الأول: التعريف بالعنوان وشرح مدلوله	١٧
المبحث الثاني: الفرق بين سنن الله في الأمم وسننه في الكون المادي	٢٤
المبحث الثالث: الفرق بين سنن الله في الأفراد وسننه في الأمم	٣٢
المبحث الرابع: أهمية معرفة السنن ودراستها	٤٨
الباب الأول: خصائص سنن الله في الأمم ومنهج القرآن في عرضها	٦٧
الفصل الأول: خصائص سنن الله في الأمم	٦٩
تمهيد	٦٩
الخاصية الأولى والثانية: الثبات والاطراد	٧١
الخاصية الثالثة: خاصية العموم والشمول	٨٢
الخاصية الرابعة: انطباقها على الأمم والأقوام دون الأفراد	٩٠
الخاصية الخامسة: نتائج هذه السُّنن تتحقق في الدنيا قبل الآخرة	٩٩
الخاصية السادسة: أنها سنن مرتبطة بالكسب البشري	١٠٤
الخاصية السابعة: السنن منظومة واحدة	١٠٩
الفصل الثاني: منهج القرآن في عرض سنن الله في الأمم	١١٧
وفيه تمهيد ومبحثان:	١١٩
المبحث الأول: في الأسلوب والصياغة	١٢١
المبحث الثاني: في طريقة العرض	١٣٢
المطلب الأول: في ذكر المناسبات والأحداث والسياقات التي يعرض القرآن السنن من خلالها	١٣٢

الموضـــــوع الصفحة

- عرض السنن في سياق الأحكام ١٥٧
المطلب الثاني: في ذكر المؤثرات التي يحشدها القرآن وهو يعرض هذه السنن ١٦٦
الباب الثاني: مجالات سنن الله في الأمم ١٩٥
تمهيد ومقدمة ١٩٧
المبحث الأول: في الأسس التي لا بد منها لتكون الأمة وتأهلها لممارسة. الحياة بوصفها أمة ١٩٩
والمبحث الثاني: في الوسائل والأسباب التي أقام الله بها حجته على هذه الأمم ٢٠٢
الفصل الأول: مجال الحماية والوقاية ٢١٩
- سنة التدافع في الحياة والمدافعة بين الحق والباطل ٢٢٦
- إن الله يدافع عن الذين آمنوا ٢٣٩
- سنة الله في النصر والهزيمة ٢٥٥
- العوامل المعنوية في النصر والهزيمة ٢٥٨
- الأسباب المادية للنصر ٢٧٣
- سنة الله في التمكين والاستخلاف في الأرض وعوامل بقاء الأمم ٢٧٩
- إصلاح النفوس والأوضاع البشرية بالأديان والشرائع الإلهية ٢٨٨
- المصلحون الربانيون شرط في إصلاح الأمم ٣٠٦
الفصل الثاني: مجال الابتلاء والتمحيص ٣١١
- ابتلاء الأمم بالسرَّاء والضرَّاء وموقفهم من ذلك ٣١٢
الفصل الثالث: مجال التحذير والتهديد ٣٢٥
الفصل الرابع: مجال الجزاء ٣٣٩

الموضـــــوع الصفحة

الفصل الخامس: مجال الكشف والإبانة	٣٥٩
المبحث الأول: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾	٣٦٠
المبحث الثاني: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾	٣٨٠
المبحث الثالث: طبيعة الإيمان.	٣٨٥
المبحث الرابع: الملأ في الأمم	٣٩٥
الباب الثالث: آثار رعاية السنن	٤٢٣
تمهيد	٤٢٥
الفصل الأول: آثار رعاية السنن	٤٢٩
وفيه مبحثان:	
المبحث الأول: واقع الأمة الإسلامية في الأمم الجاهلية. [الآثار الحسنة والعواقب الحميدة التي تحققت للأمة الإسلامية في القرون الأولى]	٤٣١
ـ معنى الحياة في ظل واحة الإسلام	٤٤١
المبحث الثاني: الأمم الجاهلية المعاصرة (في الجوانب المادية والمدنية). [الجوانب الحسنة عند الأمم الجاهلية المعاصرة]	٤٦٧
الفصل الثاني: عواقب الإعراض عن السنن	٤٨٥
تمهيد	٤٨٧
المبحث الأول: الأمة الإسلامية في واقعها المعاصر	٤٨٨
المبحث الثاني: واقع الأمم الجاهلية المعاصرة (في الجوانب الإنسانية)	٥٢٩
الباب الرابع: طريق الخلاص	٥٥٣
تمهيد (بين يدي الباب)	٥٥٥
الفصل الأول: فقه السنن	٥٦١
المبحث الأول: فقه الواقعة (أزمة الأمة الإسلامية المعاصرة)	٥٦٩
المبحث الثاني: فقه الخروج من الأزمة (الخلاص منها)	٥٩٣

الموضـــوع الصفحة

الفصل الثاني: التفاعل مع السنن وتطبيقها ٦١٩
الفصل الثالث: ضمان الاستمرار ٦٦٧
خاتمة الكتاب ٧١٥
مراجع الكتاب ٧٢١
فهرس الموضوعات ٧٢٩

* * *